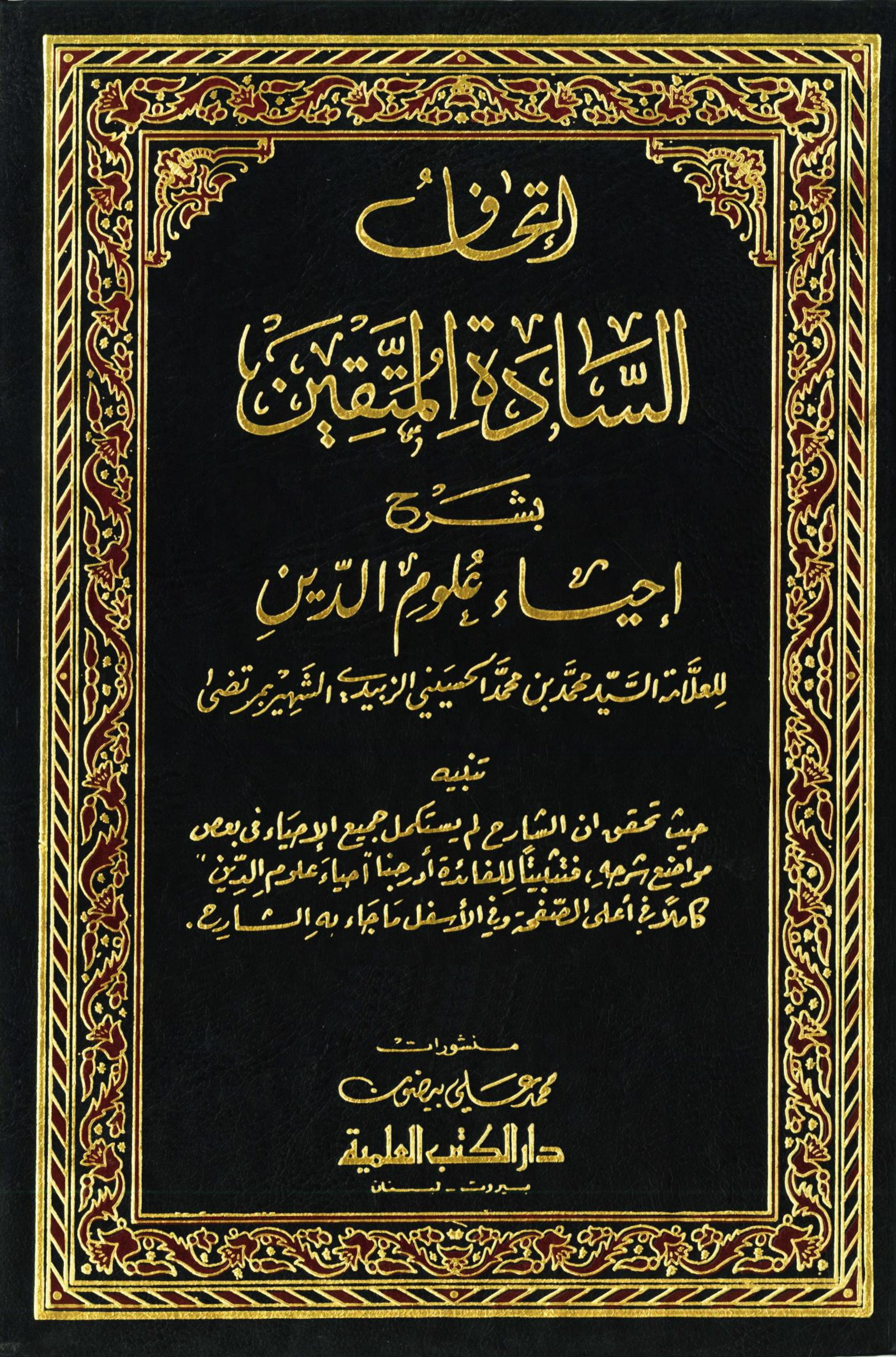

اتحاف
السادة المتقين
بشرح
إحياء علوم الدين
للعلامة السيد محمد بن محمد الحسيني الزبيدي الشهير بمرتضى
تنبيه
حيث تحقق أن الشارح لم يستكمل جميع الإحياء في بعض
مواضع شرحه، فتثبيتاً للفائدة أدرجنا أحياء علوم الدين
كاملاً في أعلى الصفحة وفي الأسفل ما جاء به الشارح.
منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

إتحاف السادة المتقين

بشرح

إحياء علوم الدين

تصنيف

العلامة السيد محمد بن محمد الحسيني الزبيدي
الشهير بمرتضى
المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ

تنبيه

حيث تحقق أن الشارح لم يستكمل جميع الإحياء في بعض مواضع شرحه فتثبيتاً للفائدة أدرجنا إحياء علوم الدين كاملاً في أعلى الصفحة وفي الأسفل ما جاء به الشارح

الجزء الثالث عشر

كتاب النية والإخلاص والصدق، كتاب المراقبة والمحاسبة، كتاب التفكر.

دار الكتب العلمية
بيروت ـ لبنان

يطلب من : دار الكتب العلمية بيروت . لبنان
ص.ب : ١١/٩٤٢٤ تلكس : Nasher 41245 Le
هاتف : ٣٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣

كتاب النية والإخلاص والصدق
وهو الكتاب السابع من ربع المنجيات
من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم الله ناصر كل صابر الحمد لله الذي أنس بذكره المخلصون، ولهج بمحبته الصادقون، وفرح بحسن بلائه الراضون، أحمده حمداً يشرق إشراق النجوم، وأستغفره مما تراكم على القلوب من الغموم، وأستهديه لما يرضيه من اكتساب المعارف والفهوم، وأشهد أن لا إله إلا الله محسن الأعمال بالنيات، ومزين الأحوال بأشعة التجليات، ومودع الخواطر من حكمه جواهر مضيئات، سبحانه من إله شرع لنا من الدين ما وصى به نوحاً، وأطلع لنا من أفقه المحيط يوحا ،وأفاض علينا من لذيذ شربه غبوقاً وصبوحا، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده الذي اصطفاه، ورسوله الذي اجتباه، وصفيه الذي اختاره وحباه، إمام المخلصين، وعصمة أهل اليقين، وتاج هامة المتقين، الذي هدى به السبيل الأقوم، وبين الطريق الأعدل الأحكم، وشد به عرى الدين فاستوثق واستحكم، صلى عليه وعلى أله بحور المعارف، وأصحابه كنوز اللطائف، صلاة تستنزل غيث الرحمة من سحابه، وتحل صاحبها من الرضوان أوسع رحابه، وسلم تسليما وزاده شرفاً وتعظيماً، وبعد فهذا شرح.

كتاب النية والإخلاص والصدق

وهو السابع والثلاثون من كتب الإحياء للإمام الهمام، غوث الأئمة الأعلام، قطب العلم والحال والمقام، الملقب بين الأنام بحجة الإسلام، أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي، أسكنه الله الفردوس الأعلى، وروى ثراه من الكوثر الأحلى، رفعت عن مخدرات عرائس أفكاره حجب الأستار، وأوضحت ما استكن في ضمائر فوائده من الأسرار، حتى ظهر للمريدين سبيله، وصفا للواردين سلسبيله، وراق للشاربين زلاله، وامتدت للائذين ظلاله، فدونك شرحاً مفيداً يسدي الخير إليك، ويبين كل ما أشكل عليك، يفتح لك منه باب الفهم، ويخلصك من ورطة الوهم، ويرشدك إلى الصواب، ويحصل لك جزيل الثواب، والله تعالى أسأل العون والإمداد، وإياه أرجو التوفيق والسداد، إنه الكافي الكفيل، وهو حسبي ونعم الوكيل.

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله حمد الشاكرين، ونؤمن به إيمان الموقنين، ونقر بوحدانيته إقرار الصادقين، ونشهد أن لا إله إلا الله رب العالمين، وخالق السموات والأرض، ومكلف الجن والإنس والملائكة المقربين، أن يعبدوه عبادة المخلصين، فقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥] فما لله إلا الدين الخالص المتين، فإنه أغنى الأغنياء

قال المصنف رحمه الله تعالى: (**بسم الله الرحمٰن الرحيم**) إذ كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بذكره فهو أبتر كما ورد بذلك الخبر.

(**نحمد الله حمد الشاكرين**) أشار بالجملة الفعلية إلى تجدد الحمد منه للمنعم في كل آن بتجدد أنواع نعمه المتواترة في كل شأن، والجملة عبارة عن مركب من كلمتين أسندت إحداهما إلى الأخرى سواء أفاد أولا. وفيما نحن فيه أفادت صدور الحمد من الحامدين للمحمود المطلق على كل حال، والكلام في حقيقة الحمد والشكر وما بينهما من النسب الإضافات قد تقدم بيانها في صدر شرح كتاب العلم فلا نعيده. (**ونؤمن به إيمان الموقنين**) أي إيماناً موصوفاً باليقين كإيمان من اتصف به على التعيين (**ونقر بوحدانيته**) مصدر الواحد الذي لا يصح عليه التجزيء والتكثر (**إقرار الصادقين**) الذي طابق قولهم الضمير والمخبر عنه معاً، (**ونشهد أن لا إله إلا الله رب العالمين**) أي مالكهم وحافظهم ومربيهم إلى أن ينتهوا إلى مرتبة الكمال اللائق بهم، والعالم كل ما سواه من الجواهر فإنها لإمكانها وافتقارها إلى مؤثر واجب لذاته تدل على وجوده، (**وخالق السموات والأرضين**) أي وما بينهما والاقتصار في الذكر عليهما اتباعاً لما في القرآن. الحمد لله الذي خلق السموات والأرض لأنهما أعظم المحسوسات في المشاهد، (**ومكلف الجن والانس والملائكة المقربين**) في بساط حضرته قرباً يليق بهم كما قال تعالى ﴿يشهده المقربون﴾ [المطففين: ٢١] وذلك بحسب مقاماتهم ودرجاتهم، كما قال تعالى حكاية عنهم ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾ [الصافات: ١٦٤] (**أن يعبدوه عبادة المخلصين فقال تعالى: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾**) لا يشركون به ولا يشاركون غيره في عبادته، والضمير في قوله (**وما أمروا**) راجع إلى الكفار من أهل الكتاب والمشركين عبدة الأصنام أي وما أمروا في كتبهم فما فيها إلا الإخلاص في العبادة، (**فما لله إلا الدين الخالص المتين**) يشير إلى قوله تعالى ﴿ألا لله الدين الخالص﴾ إلى قوله تعالى ﴿وذلك دين القيمة﴾ أي المستقيمة المتينة، (**فإنه أغنى الأغنياء عن شركة المشاركين**) كما جاء ذلك في الحديث القدسي قال: روى ابن جرير والبزار من حديث أبي هريرة قال الله عز وجل « من عمل لي عملاً

عن شركة المشاركين، والصلاة على نبيه محمد سيد المرسلين، وعلى جميع النبيين وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين.

أما بعد؛ فقد انكشف لأرباب القلوب ببصيرة الإيمان وأنوار القرآن أن لا وصول إلى السعادة إلا بالعلم والعبادة فالناس كلهم هلكى إلا العالمون، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم. فالعمل بغير نية عناء، والنية بغير إخلاص رياء، وهو للنفاق كفاء، ومع العصيان سواء، والإخلاص من غير صدق وتحقيق هباء، وقد قال الله تعالى في كل عمل كان بإرادة غير الله مشوباً مغموراً

أشرك فيه غيري فهو له كله وأنا أغنى الشركاء عن الشرك». **(والصلاة)** مع السلام **(على نبيه)** سيدنا **(محمد سيد المرسلين)** أي رئيسهم ومقدمهم **(وعلى جميع)** إخوانه من **(النبيين)** والمرسلين **(وعلى آله الطيبين)** في أنفسهم **(الطاهرين)** عن الرذائل والأدناس.

(أما بعد، فقد انكشف لأرباب القلوب) أي أهل الباطن **(ببصيرة الإيمان)** بما قر فيها من نوره **(وأنوار القرآن)** أي بما تجلى عليها منها **(أن لا وصول إلى السعادة)** الأبدية التي لا شقاء بعدها **(إلا بالعلم)** الذي هو الأصل الأعظم في كل مقّام من مقامات الإيمان **(والعبادة)** التي يثمرها الحال المنتج عن العلم، **(فالناس كلهم هلكى)** أي هالكون في بحر الضلالة والجهل **(إلا العالمون)** فبعلمهم يخلصون أنفسهم من هلاك الجهل، **(والعالمون كلهم هلكى)** أي هالكون في بحر الحيرة والدهش **(إلا العاملون)** بمقتضى علومهم، **(والعاملون كلهم هلكى)** في بحر العجب والرياء **(إلا المخلصون)** لله في أعمالهم، **(والمخلصون)** مع ذلك **(على خطر عظيم)** لا يدرون كيف يختم لهم خائفون من خفي مكر الله تعالى، وهذا القول نسب إلى سهل التستري رحمه الله تعالى.

قال الخطيب في كتاب اقتضاء العلم العمل، أخبرنا الحسن بن محمد الخلال، حدثنا محمد بن عبدالله الشيباني قال: سمعت عبد الكريم بن كامل يقول: سمعت سهل بن عبدالله التستري يقول: الناس كلهم سكارى إلا العلماء، والعلماء كلهم حيارى إلا من عمل بعلمه.

قال: وأخبرنا عبد الرحمٰن بن محمد بن فضالة الحافظ، أخبرنا أبو أحمد الغطريفي، حدثنا بكر ابن أحمد بن سعدويه قال: قال سهل بن عبدالله: الدنيا جهل وموت إلا العلم والعلم كله حجة إلا العمل به والعمل كله هباء إلا الإخلاص والإخلاص على خطر عظيم حتى يختم به.

(فالعمل بغير نية) تصاحبه **(عناء)** أي تعب **(والنية بغير إخلاص رياء وهو للنفاق كفاء)** أي مكافىء له وقرين **(ومع العصيان سواء)** أي في مرتبة واحدة **(والإخلاص من غير صدق وتحقيق)** بأن يطابق القول الضمير والمخبر عنه معاً **(هباء)** وهو ما يرى في ضوء الشمس من الذرات، **(وقد قال الله تعالى في)** شأن **(كل عمل)** صادر من العامل، **(وكان**

﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾ [الفرقان: ٢٣] **وليت شعري كيف يصحح نيته من لا يعرف حقيقة النية؟ أو كيف يخلص من صحح النية إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص؟ أو كيف تطالب المخلص نفسه بالصدق إذا لم يتحقق معناه؟ فالوظيفة الأولى على كل عبد أراد طاعة الله تعالى أن يتعلم النية أوّلاً لتحصل المعرفة، ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص اللذين هما وسيلتا العبد إلى النجاة والخلاص.**

ونحن نذكر معاني الصدق والإخلاص في ثلاثة أبواب:

الباب الأول: في حقيقة النية ومعناها.

الباب الثاني: في الإخلاص وحقائقه.

الباب الثالث: في الصدقِ وحقيقته.

بإرادة غير الله مشوباً مغموراً) أي مخلوطاً (**﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً﴾**) قال البيضاوي: أي وعمدنا إلى ما عملوا في كفرهم من المكارم كقرى الضيف وصلة الرحم وإغاثة الملهوف فأحبطناه لفقد ما هو شرط اعتباره وهو تشبيه حالهم وأعمالهم بحال قوم استعصوا سلطانهم فقدم إلى أسبابهم فمزقها وأبطلها ولم يبق لها أثراً. والهباء غبار يرى في شعاع الشمس يطلع من الكوة من الهبوة، ومنثوراً صفته شبه به عملهم المحيط في حقارته وعدم نفعه ثم بالمنثور في انتشاره بحيث لا يمكنه نظمه أو تفرقه نحو أغراضهم التي كانوا يتوجهون به نحوها، أو مفعول ثالث من حيث أنه كالخبر بعد الخبر كقوله: ﴿كونوا قردة خاسئين﴾ [الأعراف: ١٦٦] (**وليت شعري كيف يصحح نيته من لا يعرف حقيقة النية؟ أو كيف يخلص**) أي يصير مخلصاً (**من صحح النية إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص؟ أو كيف يطالب المخلص نفسه بالصدق إذا لم يتحقق معناه؟ فالوظيفة الأولى على كل عبد أراد طاعة الله تعالى أن يتعلم النية أولاً لتحصيل المعرفة، ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص اللذين هما وسيلتا العبد إلى النجاة والخلاص**).

(**ونحن نذكر معاني النية والإخلاص في ثلاثة أبواب**).

(**الباب الأول في**) بيان (**حقيقة النية ومعناها**).

(**الباب الثاني في**) بيان (**الإخلاص وحقائقه**).

(**الباب الثالث: في**) بيان (**الصدق وحقيقته**).

الباب الأول: في النية

وفيه بيان فضيلة، النية، وبيان حقيقة النية، وبيان كون النية خيراً من العمل، وبيان تفضيل الأعمال المتعلقة بالنفس، وبيان خروج النية عن الاختيار.

بيان فضيلة النية:

قال الله تعالى: **﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغَدَاةِ والعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾**

الباب الأول
في النية

(وفيه بيان فضيلة النية) من الكتاب والسنة، **(وبيان حقيقة النية، وبيان كون النية خيراً من العمل، وبيان تفضيل الأعمال المتعلقة بالنفس، وبيان خروج النية عن الاختيار)**

بيان فضيلة النية:

(قال الله تعالى) مخاطباً لنبيه ﷺ ومعاتباً له: **(﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي)** أي في مجامع أوقاتهم أو في طرف الليل والنهار **(يريدون وجهه﴾)** أي رضاه وطاعته.

قال الطبراني: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا سفيان الثوري، عن المقدام بن شريح، عن أبيه، عن سعد بن أبي وقاص قال: نزلت هذه الآية في ستة من أصحاب النبي ﷺ منهم: ابن مسعود قال: كنا نستبق إلى النبي ﷺ ندنو إليه، فقالت قريش: تدني هؤلاء دوننا، فكان النبي ﷺ همّ بشيء فنزلت ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم﴾ الآية.

وقال صاحب الحلية: أنا أحمد بن محمد بن أحمد، حدثنا عبدالله بن شيرويه، حدثنا إسحاق ابن راهويه، حدثنا عبيدالله بن موسى، حدثنا إسرائيل، عن المقدام بن شريح الحارثي، عن أبيه، عن سعد بن أبي وقاص قال: كنا مع رسول الله ﷺ ونحن ستة نفر، فقال المشركون: اطرد هؤلاء عنك فإنهم وإنهم. قال: فكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان نسيت اسميهما. قال: فوقع في نفس النبي ﷺ من ذلك ما شاء الله فحدث به نفسه فأنزل الله تعالى ﴿لا تطرد الذين يدعون ربهم﴾ الآية.

[الأنعام: ٥٢] والمراد بتلك الإرادة هي النية. وقال ﷺ: « إنما الأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه »، وقال ﷺ:

(والمراد بتلك الإرادة هي النية) أي ينوون بدعائهم وجه الله تعالى وحده. **(وقال ﷺ « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه »)** أخبرناه عمر بن أحمد بن عقيل الحسني قال: أخبرنا عبدالله بن سالم، أخبرنا محمد بن العلاء الحافظ، أخبرنا علي بن يحي، أخبرنا يوسف بن عبدالله الحسني، ثنا محمد بن عبد الرحمن الحافظ، أخبرنا أحمد بن علي الحافظ، أخبرنا عبد الرحيم ين الحسين الحافظ، أخبرنا محمد بن محمد بن إبراهيم، أخبرنا عبد اللطيف بن عبد المنعم، أخبرنا عبد الوهاب بن علي وعبد الرحمن بن أحمد العمري والمبارك بن معطوش قالوا: أخبرنا هبة الله بن محمد، أخبرنا محمد بن محمد بن إبراهيم البزاز، أخبرنا محمد بن عبدالله الشافعي، أخبرنا عبدالله بن روح المدائني، ومحمد ابن رمح البزاز قالا: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا يحي بن سعيد الأنصاري، عن محمد بن إبراهيم التيمي أنه سمع علقمة بن وقاص الليثي يقول: سمعت عمر بن الخطاب على المنبر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: فذكره.

أخرجه الأئمة الستة؛ فأخرجه مسلم عن محمد بن عبدالله بن نمير وابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة كلاهما عن يزيد بن هارون فوقع بدلاً لها عالياً بدرجتين، واتفق عليه الشيخان من رواية مالك وحماد بن زيد وابن عيينة وعبد الوهاب الثقفي. وأخرجه البخاري وأبو داود من رواية الثوري، ومسلم من طريق الليث وابن مبارك وأبي خالد الأحمر وحفص بن غياث، والترمذي من رواية عبد الوهاب الثقفي، والنسائي من طريق مالك، وحماد بن زيد وابن المبارك وأبي خالد الأحمر، وابن ماجه أيضاً من رواية الليث عشرتهم عن يحي بن سعيد الأنصاري. أورده البخاري في سبع مواضع من صحيحه في بدء الوحي والإيمان والنكاح والهجرة وترك الحيل والعتق والنذور، ومسلم في الجهاد، وأبو داود في الطلاق، والنسائي في الإيمان، وابن ماجه في الزهد. وهذا الحديث من افراد الصحيح لم يصح عن النبي ﷺ إلا من حديث عمر، ولا عن عمر إلا من رواية علقمة، ولا عن علقمة إلا من رواية محمد بن إبراهيم التيمي، ولا عن التيمي إلا من رواية يحي بن سعيد الأنصاري. قال أبو بكر البزار في مسنده: لا نعلم يروى هذا الكلام إلا عن عمر بن الخطاب عن النبي ﷺ بهذ الإسناد. وقال: الخطابي: لا أعلم خلافاً بين أهل الحديث في أنه لم يصح مسنداً عن النبي ﷺ إلا من رواية عمر اهـ هذا هو المشهور.

وقد روي من طرق أخرى غير طريق عمر وفي كل منها مقال. منها: من طريق أبي سعيد الخدري رواه الدارقطني وابن عساكر كلاهما في غرائب مالك، والخطابي في معالم السنن من رواية

....

عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي رواد، عن مالك، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد وهو غلط من أبي رواد قاله الدارقطني.

ومنها: من طريق أبي هريرة رواه الرشيد العطار في بعض تخاريجه وهو وهم أيضاً.

ومنها: من طريق أنس رواه ابن عساكر من رواية يحيى بن سعيد، عن محمد بن إبراهيم عن أنس وقال: هذا حديث غريب جداً، والمحفوظ حديث عمر اهـ.

والمحفوظ من حديث أنس ما رواه البيهقي من رواية عبدالله بن المثنى الأنصاري قال: حدثني بعض أهل بيتي عن أنس فذكر حديثاً فيه «أنه لا عمل لمن لا نية له» الحديث.

ومنها: من طريق علي رواه محمد بن ياسر الحباني في نسخته من طريق أهل البيت إسنادها ضعيف، وأما من تابع علقمة عليه فذكر أبو أحمد الحاكم، أن موسى بن عقبة رواه عن نافع وعلقمة، وأما من تابع يحيى بن سعيد عليه فقد رواه الحاكم في تاريخ نيسابور من رواية عبد ربه ابن سعيد عن محمد بن إبراهيم أورده في ترجمة أحمد بن نصر بن زياد وقال: إنه غلط فيه، وإنما هو عن يحيى بن سعيد لا عبد ربه بن سعيد، وذكر الدارقطني أنه رواه حجاج بن أرطأة عن محمد بن إبراهيم وأنه رواه سهل بن صيعر عن الدراوردي وابن عيينة وأنس بن عياض عن محمد بن علقمة عن محمد بن إبراهيم، ووهم سهل على هؤلاء الثلاثة وغيرهم عن يحيى بن سعيد. وقال النووي: هو حديث مشهور بالنسبة إلى آخره غريب بالنسبة إلى أوله. قال: وليس متواتراً لفقد شرط التواتر في أوله. رواه عن يحيى بن سعيد أكثر من مائتي إنسان أكثرهم أئمة، ثم إن هذا الحديث قاعدة من قواعد الإسلام حتى قيل فيه إنه ثلث العلم، وقيل ربعه، وقيل خمسه. وكونه ثلث العلم روي عن الشافعي وأحمد وكونه ربعه عن أبي داود وروي عنه أيضاً كونه خمسه.

قال ابن دقيق العيد: لا بد من حذف المضاف واختلف الفقهاء في تقديره، فالذي اشترطوا النية قدروا صحة الأعمال بالنيات أو ما يقاربه، والذين لم يشترطوها قدروا كمال الأعمال بالنيات أو ما يقاربه، وقد رجح الأول بأن الصحة أكثر لزوماً للحقيقة من الكمال فالحمل عليها أولى. قال: وقد يقدرونه إنما اعتبار الأعمال بالنيات.

وقال قاضي القضاة الحنفية شمس الدين السروجي في شرح الهداية: إن التقدير ثوابها لا صحتها لأنه الذي يطرد فإن كثيراً من الأعمال يوجد ويعتبر شرعاً بدونها ولأن إضمار الثواب متفق على إرادته لأنه يلزم من انتفاء الصحة انتفاء الثواب دون العكس، فكان ما ذهبنا إليه أقل إضماراً فهو أولى، ولأن إضمار الجواز والصحة يؤدي إلى نسخ الكتاب بخبر الواحد وهو ممتنع، ولأن العامل في قوله بالنية مقدر بإجماع النحاة، ولا يجوز أن يتعلق بالأعمال لأنها رفع بالابتداء فيبقى بلا خبر فلا يجوز، فالمقدر إما مجزئة أو صحيحة أو مثيبة ومثيبة أولى بالتقدير لوجهين أحدهما: أن عند عدم النية لا يبطل أصل العمل، وعلى إضمار الصحة والاجزاء يبطل فلا يبطل

« أكثر شهداء أمتي أصحاب الفرش ورب قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته » . وقال تعالى :

بالشك . الثاني : أن قوله « ولكل امرىء ما نوى » يدل على الثواب والأجر لأن الذي له إنما هو الثواب وأما العمل فعليه انتهى .

وهذا قد رده الزين العراقي في شرح التقريب وقال فيه نظر من وجوه .

أحدها : أنه لا حاجة إلى إضمار محذوف من الصحة أو الكمال أو الثواب إذ الإضمار خلاف الأصل ، وإنما المراد حقيقة العمل الشرعي فلا يحتاج حينئذ إلى إضمار ، وأيضاً فلا بد من إضمار شيء يتعلق به الجار والمجرور ، فلا حاجة لإضمار مضاف لأن تعليل الإضمار أولى فيكون التقدير إنما الأعمال وجودها بالنية ، ويكون المراد الأعمال الشرعية .

والثاني : إن قوله إن تقدير الثواب أقل إضماراً لأنه يلزم من انتفاء الصحة انتفاء الثواب دون العكس ، فلا نسلم أن فيه تقليل الإضمار لأن المحذوف واحد ولا يلزم من تقدير الصحة تقدير ما يترتب على نفيها من نفي الثواب ووجوب الإعادة وغير ذلك . فلا يحتاج إلى أن يقدر إنما صحة الأعمال والثواب وسقوط القضاء مثلاً بالنية بل المقدر واحد ، وإن ترتب على ذلك الواحد شيء آخر فلا يلزم تقديره .

والثالث : إن قوله إن تقدير الصحة يؤدي إلى نسخ الكتاب بخبر الواحد ، فإن أراد به أن الكتاب دال على صحة العمل بغير نية لكون النية لم تذكر في الكتاب ، فهذا ليس بنسخ ، وأيضاً فالثواب مذكور في العمل ولم تذكر النية على أن الكتاب ذكرت فيه نية العمل في قوله تعالى ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾ [البينة : ٥] فهذا القصد ولو سلم له أن فيه نسخ الكتاب بخبر الواحد فلا مانع من ذلك عند أكثر أهل الأصول .

والرابع : إن قوله إن تقدير الصحة يبطل العمل ولا يبطل الشك ليس بجيد ، بل إذا تيقنا شغل الذمة بوجوب العمل لم نسقطه بالشك ولا تبرأ الذمة إلا بتعيين فحمله على الصحة أولى لتيقن البراءة به .

والخامس : إن قوله : إن الذي له إنما هو الثواب ، وأما العمل فعليه والأحسن في التقدير أن لا يقدر حذف مضاف فإنه لا حاجة إليه ، ولكن يقدر بشيء يتعلق به الجار والمجرور ، فإنه لا بد من تقديره كما تقدم فتقديره إنما الأعمال وجودها بالنية ، ونفي الحقيقة أولى والمراد نفي العمل الشرعي ، وإن وجد الفعل في الظاهر فليس بشرعي عند عدم النية والله أعلم اهـ .

(وقال ﷺ « أكثر شهداء أمتي أصحاب الفرش) أي الذين يموتون على فرشهم ولهم نية جميلة في طلب الشهادة . **(ورب قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته »)** قال العراقي : رواه أحمد من حديث ابن مسعود ، وفيه عبدالله بن لهيعة اهـ .

قلت : ورواه كذلك الحكيم في النوادر ولفظها « إن أكثر شهداء أمتي لأصحاب الفرش » والباقي سواء .

﴿ إنْ يُرِيدَا إصْلاَحاً يُوَفِّقُ اللهُ بَيْنَهُمَا ﴾ [النساء : ٣٥] ، فجعل النية سبب التوفيق ، وقال ﷺ : « إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » ، وإنما نظر إلى القلوب لأنها مظنة النية ؛ وقال ﷺ : « إن العبد ليعمل أعمالاً حسنة فتصعد بها الملائكة في صحف مختمة فتلقى بين يدي الله تعالى فيقول : ألقوا هذه الصحيفة فإنه لم يرد بما فيها وجهي ثم ينادي الملائكة اكتبوا له كذا وكذا اكتبوا له كذا وكذا فيقولون : يا ربنا إنه لم يعمل شيئاً من ذلك فيقول الله تعالى إنه نواه » ، وقال ﷺ : « الناس أربعة : رجل آتاه الله عز وجل علماً ومالاً فهو يعمل بعلمه في ماله فيقول رجل : لو آتاني الله تعالى مثل ما آتاه لعملت كما يعمل فهما في الأجر سواء ، ورجل آتاه الله تعالى مالاً ولم يؤته علماً فهو يتخبط بجهله في ماله فيقول رجل لو آتاني الله مثل ما آتاه

(وقال) الله **(تعالى ﴿ إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما ﴾ فجعل النية سبب التوفيق)** ولفظ القوت : فجعل سبب التوفيق إرادة الإصلاح فذلك هو أول التوفيق من الموفق المصلح للعامل الصالح . **(وقال ﷺ « إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم »)** رواه أحمد ومسلم وابن ماجه من حديث أبي هريرة ولفظهم « ولكن إنما ينظر » والباقي سواء . ورواه كذلك أبو بكر الشافعي في الغيلانيات ، وابن عساكر من حديث أبي أمامة . ورواه هناد في الزهد عن الحسن مرسلاً ، ورواه الحكيم عن يحيى بن أبي كثير مرسلاً بلفظ « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم فمن كان له قلب صالح تحنن الله عليه » . ورواه الطبراني من حديث أبي مالك الأشعري بلفظ « إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى أحسابكم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم ، فمن كان له قلب صالح تحنن الله عليه وإنما أنتم بنو آدم وأحبكم إلي أتقاكم » وقد تقدم ، **(وإنما نظر إلى القلوب لأنها مظنة النية . وقال ﷺ « إن العبد ليعمل أعمالاً حسنة فتصعد بها الملائكة في صحف مختمة فتلقى بين يدي الله تعالى فيقول)** لهم : **(ألقوا هذه الصحيفة فإنه لم يرد بما فيها وجهي ثم ينادي الملائكة اكتبوا له كذا وكذا أكتبوا له كذا وكذا ، فيقولون : يا ربنا إنه لم يعمل شيئاً من ذلك ، فيقول الله تعالى : إنه نواه »)** كذا في القوت . قال العراقي : رواه الدارقطني من حديث أنس باسناد حسن .

قلت : وهو في كتاب الإخلاص لابن أبي الدنيا من طريق أبي عمران الجوني قال : « بلغنا أن الملائكة تصف بكتبها في السماء الدنيا في كل عشية بعد العصر فينادي الملك أكتب لفلان بن فلان كذا وكذا ، فيقول : يا رب إنه لم يعمله ، فيقول : إنه نواه إنه نواه » .

(وقال ﷺ : « الناس أربعة : رجل آتاه الله عز وجل علماً ومالاً فهو يعمل بعلمه في ماله ، فيقول رجل : لو آتاني الله مثل ما آتاه لعملت كما يعمل فهما في الأجر سواء ، ورجل آتاه الله ما لم يؤته علماً فهو يتخبط بجهله في ماله ، فيقول رجل : لو آتاني الله مثل ما آتاه عملت كما يعمل فهما

عملت كما يعمل فهما في الوزر سواء ». ألا ترى كيف شركه بالنية في محاسن عمله ومساويه وكذلك في حديث أنس بن مالك لما خرج رسول الله ﷺ في غزوة تبوك قال: « إن بالمدينة أقواماً ما قطعنا وادياً ولا وطئنا موطئاً يغيظ الكفار ولا أنفقنا نفقة ولا أصابتنا مخمصة إلا شركونا في ذلك وهم بالمدينة ». قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله وليسوا معنا؟ قال: « حبسهم العذر فشركوا بحسن النية » وفي حديث ابن مسعود: « من

في الوزر سواء ») كذا في القوت، قال العراقي: رواه ابن ماجه من حديث أبي كبشة الأنماري بسند جيد بلفظ « مثل هذه الأمة كمثل أربعة نفر » الحديث وقد تقدم. ورواه الترمذي بزيادة في أوله وفيه « إنما الدنيا لأربعة نفر » وقال: حسن صحيح اهـ.

قلت: لفظ ابن ماجه « مثل هذه الأمة كمثل أربعة نفر: رجل آتاه الله مالاً فهو يعمل بعلمه في ماله ينفقه في حقه، ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالاً وهو يقول: لو كان لي مثل هذا عملت فيه مثل الذي يعمل فهما في الأجر سواء، ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً فهو يتخبط في ماله ينفقه في غير حقه، ورجل يؤته الله علماً ولا مالاً وهو يقول: لو كان لي مثل هذا عملت فيه مثل الذي يعمل فهما في الوزر سواء ». وهكذا رواه أيضاً أحمد وهناد والطبراني والبيهقي.

(**ألا ترى كيف شركه بالنية في محاسن عمله ومساوئه**) ولفظ القوت: ألا ترى كيف شركه بحسن النية في محاسن عمله وشركه الآخر بسيء النية في مساوىء عمله، (**وكذلك في حديث أنس بن مالك**) رضي الله عنه (**لما خرج رسول الله ﷺ في غزوة تبوك قال « إن بالمدينة أقواماً ما قطعنا وادياً ولا وطئنا موطئاً يغيظ الكفار ولا أنفقنا نفقة ولا أصابتنا مخمصة إلا شركونا في ذلك وهم بالمدينة » قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله وليسوا معنا؟ قال « حبسهم العذر فشركونا بحسن النية »**) كذا في القوت. قال العراقي: رواه البخاري مختصراً وأبو داود اهـ.

قلت: رواه البخاري مختصراً بلفظ « إن أقواماً بالمدينة خلفنا ما سلكنا شعباً ولا وادياً إلا وهم معنا فيه حبسهم العذر ». وأما لفظ أبي داود « إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم فيه » قالوا: يا رسول الله وهم بالمدينة؟ قال « وهم بالمدينة حبسهم العذر ». ورواه كذلك أحمد، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن ماجه، وأبو عوانة، وابن حبان كلهم من حديث أنس. ورواه أيضاً عبد بن حميد ومسلم وابن ماجه من حديث جابر بلفظ « إن بالمدينة رجالاً ما قطعتم وادياً ولا سلكتم طريقاً إلا شركوكم في الأجر حبسهم العذر » وقوله « فشركونا بحسن النية » هكذا في القوت. وفي بعض نسخ الكتاب « فشركوا بحسن النية » وهذا يشعر بأنه ليس من بقية الحديث، بل هو من عند المصنف.

(**وفي حديث ابن مسعود**) رضي الله عنه: (**« من هاجر ليبتغي شيئاً فهو له، فهاجر**

هاجر يبتغي شيئاً فهو له فهاجر رجل فتزوج امرأة منا فكان يسمى مهاجر أم قيس » وكذلك جاء في الخبر : « أن رجلاً قتل في سبيل الله وكان يدعى قتيل الحمار ، لأنه قتل رجلاً ليأخذ سلبه وحماره فقتل على ذلك فاضيف إلى نيته . وفي حديث عبادة عن النبي ﷺ : « من غزا وهو لا ينوي إلا عقالاً فله ما نوى » وقال أبيّ : استعنت رجلاً يغزو معي فقال لا حتى تجعل لي جعلاً ، فجعلت له ، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال : « ليس له من دنياه وآخرته إلا ما جعلت له » ، وروي في الإسرائيليات ، أن رجلاً مر بكثبان

رجل فتزوج امرأة منا فكان يسمى مهاجر أم قيس ») كذا في القوت . قال العراقي : رواه الطبراني بإسناد جيد .

قلت : وقال في شرح التقريب : ما اشتهر بين الشراح لهذا الحديث أن سببه قصة مهاجر أم قيس . رواه الطبراني في المعجم الكبير بإسناد رجاله ثقات من رواية الأعمش ، عن أبي وائل ، عن ابن مسعود قال : « كان فينا رجل خطب امرأة يقال لها أم قيس فأبت أن تتزوجه حتى يهاجر فهاجر فتزوجها فكنا نسميه مهاجر أم قيس » ثم قال : ولم يسم أحد ممن صنف في الصحابة هذا الرجل الذي ذكروا أنه كان يسمى مهاجر أم قيس فيما رأيته من التصانيف . وأما أم قيس المذكورة فقد ذكر أبو الخطاب بن دحية أن اسمها « قيلة » فالله أعلم اهـ .

قلت : وقال الحافظ في ترجمة أم قيس من الإصابة ما لفظه : غير منسوبة .

أخرج ابن منده ، وأبو نعيم من طريق إسماعيل بن عصام بن يزيد قال : وجدت في كتاب جدي يزيد الذي يقال له جبر ، حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن أبي وائل ، عن ابن مسعود قال : « كان فينا رجل خطب امرأة يقال لها أم قيس فأبت أن تتزوجه حتى يهاجر فهاجر فتزوجها فكنا نسميه مهاجر أم قيس » قال ابن مسعود : من هاجر لشيء فهو له . قال أبو نعيم : تابعه عبد الملك الذماري عن سفيان ثم ذكر أم قيس الهذلية ، وقال قال أبو موسى : أوردها جعفر ولم يخرج لها شيئاً . قال الحافظ : أخشى أن تكون هي التي قبلها ، فإن ابن مسعود يقول في مهاجر أم قيس رجل منا ، وابن مسعود هذلي فالرجل هذلي فكأن أم قيس المخطوبة أيضاً هذلية .

(وكذلك جاء في الخبر « أن رجلاً قتل في سبيل الله وكان يدعى قتيل الحمار » لأنه قاتل رجلاً ليأخذ سلبه وحماره فقتل على ذلك فأضيف إلى نيته) كذا في القوت . وقال العراقي : لم أجد له أصلاً في الموصولات ، وإنما رواه أبو إسحاق الفزاري في السير من وجه مرسل . **(وفي حديث عبادة)** بن الصامت رضي الله عنه ، **(عن النبي ﷺ قال : « من غزا)** في سبيل الله **(وهو لا ينوي إلا عقالاً فله ما نوى »)** رواه أحمد والدارمي والنسائي والروياني وابن حبان والطبراني والحاكم والبيهقي والضياء وقد تقدم غير مرة . **(وقال أبي)** بن كعب رضي الله عنه : **(استعنت رجلاً يغزو معي ، فقال : لا حتى تجعل لي جعلاً ، فجعلت له ، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال « ليس له من دنياه وآخرته إلا ما جعلت له »)** كذا في القوت . قال العراقي :

من رمل في مجاعة فقال في نفسه: لو كان هذا الرمل طعاماً لقسمته بين الناس، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم أن قل له إن الله تعالى قد قبل صدقتك وقد شكر حسن نيتك وأعطاك ثواب ما لو كان طعاماً فتصدقت به. وقد ورد في أخبار كثيرة: « من هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة »، وفي حديث عبدالله بن عمرو: « من كانت الدنيا نيته جعل الله فقره بين عينيه وفارقها أرغب ما يكون فيها ومن تكن الآخرة نيته جعل الله تعالى غناه في قلبه وجمع عليه ضيعته وفارقها أزهد ما يكون فيها »، وفي حديث أم سلمة

رواه الطبراني في مسند الشاميين، ولأبي داود بإسناد جيد من حديث يعلى بن أمية: أنه استأجر أجيراً للغزو وسمى ثلاثة دنانير فقال له النبي ﷺ « ما أجد له في غزوته هذه في الدنيا والآخرة إلا دنانيره التي سمى » اهـ.

قلت: وحديث يعلى أخرجه كذلك الحاكم، ورواه الطبراني في الكبير من حديث عوف بن مالك.

(وفي الإسرائيليات أن رجلاً مر بكثبان من رمل في مجاعة) أي زمن قحط أصاب الناس به الجوع **(فقال في نفسه: لو كان هذا الرمل طعاماً لقسمته بين الناس)** . قال؛ **(فأوحى الله تعالى إلى نبيهم)** في ذلك الزمان **(أن قل له إن الله تعالى قد قبل صدقتك وقد شكر حسن نيتك وأعطاك ثواب ما لو كان طعاماً فتصدقت به)** نقله صاحب القوت، وهو في كتاب الإخلاص لابن أبي الدنيا من طريق إسماعيل بن أبي خالد قال: أصابت بني إسرائيل مجاعة فمر رجل على رمل فقال: وددت هذا الرمل يكون دقيقاً لي حتى أطعمه بني إسرائيل فأعطاه الله على نيته.

(وقد ورد في أخبار كثيرة « من هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة ») رواه أحمد من حديث أبي هريرة بزيادة فإن عملها كتبت له بعشر أمثالها إلى سبعمائة وسبع أمثالها، ومن هم بسيئة لم تكتب عليه فإن لم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت عليه سيئة واحدة» وقال العراقي: متفق عليه وقد تقدم. **(وفي حديث عبد الله بن عمرو)** بن العاص رضي الله عنهما: **(« من كانت الدنيا نيته جعل الله فقره بين عينيه وفارقها أرغب ما يكون فيها، ومن تكن الآخرة نيته جعل الله غناه في قلبه وجمع عليه ضيعته وفارقها أزهد ما يكون فيها »)** كذا في القوت. قال العراقي: رواه ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بإسناد جيد دون قوله « وفارقها أرغب ما يكون فيها » ودون قول « وفارقها أزهد ما يكون فيها » وفيه زيادة. ولم أجده من حديث عبدالله بن عمرو اهـ.

قلت: حديث زيد بن ثابت هذا جاء بألفاظ مختلفة. منها: عند ابن عساكر بلفظ « من تكن الدنيا نيته جعل الله فقره بين عينيه وشتت الله عليه ضيعته ولا يأتيه منها إلا ما كتب له، ومن تكن الآخرة نيته يجعل الله غناه في قلبه ويكف عليه ضيعته وتأتيه الدنيا وهي راغمة ».

أن النبي ﷺ ذكر جيشاً يخسف بهم بالبيداء فقلت: يا رسول الله يكون فيهم المكره والأجير؟ فقال: « يحشرون على نياتهم » وقال عمر رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إنما يقتتل المقتتلون على النيات » وقال عليه السلام: « إذا التقى الصفّان نزلت

وعند الطيالسي وابن ماجه والطبراني بلفظ « من كانت نيته الآخرة جمع الله شمله وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا راغمة، ومن كانت نيته الدنيا فرق الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب الله له ».

وقد روي هذا أيضاً من حديث أنس بلفظ « من كانت نيته طلب الدنيا شتت الله عليه أمره وجعل الفقر بين عينيه ولم يأته منها إلا ما كتب له، ومن كانت نيته طلب الآخرة جمع الله عليه شمله وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة » هكذا رواه ابن أبي حاتم في الزهد.

وعند هناد والترمذي بلفظ « من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له » . وهذا اللفظ قد رواه أيضاً الطبراني في الكبير من حديث ابن عباس، ولم أر ذلك في حديث عبدالله بن عمرو في شيء من الكتب، والذي يظهر لي أنه تصحف على النساخين في كتاب القوت وتبعه المصنف، ويكون المراد عبدالله بن عمر لا عبدالله بن عمرو، فقد روى الحاكم من حديث ابن عمر ما يقرب سياقه مما تقدم وهو: « من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله ما أهمه من أمر الدنيا والآخرة، ومن تشاعبت به الهموم لم يبال الله في أي أودية الدنيا هلك » والله أعلم.

(وفي حديث أم سلمة) رضي الله عنها **(أن النبي ﷺ ذكر جيشاً يخسف بهم بالبيداء)** الصحراء بين مكة والمدينة **(فقلت: يا رسول الله يكون فيهم المكره والأجير؟ فقال « يحشرون على نياتهم »)** كذا في القوت. قال العراقي: رواه مسلم وأبو داود وقد تقدم اهـ.

قلت: ورواه ابن أبي شيبة والطبراني والحاكم بلفظ « يبايع لرجل من أمتي بين الركن والمقام » الحديث وفيه « فيأتيهم جيش من الشام حتى إذا كانوا بالبيداء خسف بهم » الحديث.

(وقال عمر رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول « إنما يقتتل المقتتلون على النيات ») كذا في القوت. قال العراقي: رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص والنية بإسناد ضعيف بلفظ: « إنما يبعث » ورويناه في فوائد تمام بلفظ « إنما يبعث المسلمون على النيات ». ولابن ماجه من حديث أبي هريرة « إنما يبعث الناس على نياتهم » وفيه ليث بن أبي سليم مختلف فيه اهـ.

قلت: ورواه ابن عساكر أيضاً بلفظ « إنما يبعث المقتتلون على النيات ». وروى أحمد من حديث أبي هريرة بلفظ « يبعث الناس على نياتهم » بدون « إنما ».

(قال ﷺ: « إذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الخلق على مراتبهم فلان يقاتل للدنيا فلان يقاتل حمية فلان يقاتل عصبية ألا فلا تقولوا فلان قتل في سبيل الله فمن قاتل

الملائكة تكتب الخلق على مراتبهم فلان يقاتل للدنيا فلان يقاتل حمية فلان يقاتل عصبية ألا فلا تقولوا فلان قتل في سبيل الله فمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله »، وعن جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال: « يبعث كل عبد على ما مات عليه »، وفي حديث الأحنف عن أبي بكرة: « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار » قيل يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: « لأنه أراد قتل صاحبه». وفي

لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ») كذا في القوت. قال العراقي: رواه ابن المبارك في الزهد موقوفاً على ابن مسعود وآخر الحديث مرفوع ففي الصحيحين من حديث أبي موسى « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » اهـ.

قلت: وحديث أبي موسى رواه كذلك أحمد والأربعة أصحاب السنن. وروى الطبراني والحاكم من حديث فضالة بن عبيد « من مات على مرتبة من هذه المراتب بعث عليها يوم القيامة » رباط أو حج أو غير ذلك.

(**وعن جابر**) بن عبدالله الأنصاري رضي الله عنه، (**عن رسول الله ﷺ أنه قال « يبعث كل عبد على ما مات عليه »**) قال العراقي: رواه مسلم.

قلت: ورواه كذلك عبد بن حميد وابن ماجه وابن حبان والحاكم، ورواه أيضاً الطبراني والبغوي والحاكم في الكنى من حديث زيد بن حارثة، ورواه الدارقطني في الافراد من حديث ابن عمر، وعند ابن حبان في حديث جابر زيادة « المؤمن على إيمانه والمنافق على نفاقه ».

(**وفي حديث الأحنف**) بن قيس التميمي له رواية (**عن أبي بكرة**) نفيع بن الحرث الثقفي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (**« إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار » قيل: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال « لأنه أراد قتل صاحبه »**). رواه الشيخان وأبو داود والنسائي بلفظ « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فقتل أحدهما صاحبه فالقاتل والمقتول في النار » قيل: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال « إنه كان حريصاً على قتل صاحبه ». ورواه ابن ماجه الطبراني من حديث أبي موسى. وفي لفظ لابن ماجه من حديث أبي بكرة « إذا التقى المسلمان حمل أحدهما على أخيه السلاح فهما على حرف جهنم فإذا قتل أحدهما صاحبه دخلاها جميعاً ». وقد رواه كذلك أحمد وابن ماجه وابن أبي شيبة ومسلم.

اعلم أن البخاري روى هذا الحديث في عدة مواضع من صحيحه، ففي الإيمان حدثنا عبد الرحمن بن المبارك، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا أيوب ويونس عن الحسن عن الأحنف قال: ذهبت لأنصر هذا الرجل فلقيني أبو بكرة فقال: أين تريد؟ قلت: نصر هذا الرجل. قال: ارجع فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار » فقلت: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: « إنه كان حريصاً على قتل صاحبه ».

وأخرجه في الفتن عن عبدالله بن عبدالله بن عبد الوهاب، عن حماد بن سلمة، عن رجل لم يسمه، عن الحسن عن أبي بكرة.

....

وقال أيضاً: حدثنا سليمان، حدثنا حماد بن زيد، عن أيوب ويونس، عن الحسن، عن الأحنف، وأنكر يحيى بن معين والدارقطني سماع الحسن عن أبي بكرة، وقال الدارقطني: بينهما الأحنف. قال: وكذا رواه هشام بن زياد بن المعلى، عن الحسن، عن الأحنف، وذهب غيرهما إلى صحة سماعه من أبي بكرة، واستدل بما أخرجه البخاري في الفتن في باب قول النبي ﷺ «إن ابني هذا سيد» من طريق سفيان عن إسرائيل، وفيه قال الحسن: ولقد سمعت أبا بكرة قال: بينما النبي ﷺ يخطب الحديث. قال البخاري، قال علي بن المديني: إنما صح عندنا سماع الحسن من أبي بكرة بهذا الحديث. وقال أبو الوليد الباجي: المراد بالحسن هنا هو ابن علي بن أبي طالب لا البصري.

قلت: وكلام أبي الوليد هذا مردود ساقط يأباه سياق الحديث كما هو ظاهر عند من تأمله.

قال الحافظ في الفتح: وكان الأحنف أراد أن يخرج بقومه إلى علي بن أبي طالب ليقاتل معه يوم الجمل، فنهاه أبو بكرة فرجع، وحمل أبو بكرة الحديث على عمومه في كل مسلمين التقيا بسيفيهما حسماً للمادة، وإلا فالحق أنه محمول على ما إذا كان القتال بينهما بغير تأويل سائغ، وقد رجع الأحنف عن رأي أبي بكرة في ذلك وشهد مع علي باقي حروبه اهـ.

واختلف العلماء في القتال في الفتنة فمنع بعضهم القتال فيها وإن دخلوا عليه عملاً بظاهر هذا الحديث، وهو مذهب أبي بكرة وغيره من الصحابة. وقال عمران بن الحصين وابن عمر: لا يدفعها فإن قصدوه دفع عن نفسه. وقال معظم الصحابة والتابعين وغيرهم: يجب نصر الحق وقتال الباغين وهو الصحيح. قال العيني: وتتأول أحاديث المنع على من لا يظهر له الحق أو على عدم التأويل لواحد منهما، ولو كان كما قال الأول لظهر الفساد، والحق الذي عليه أهل السنة الإمساك عما شجر بين الصحابة وحسن الظن بهم والتأويل لهم وإنهم مجتهدون لم يقصدوا معصية الله ولا محض الدنيا، فمنهم المخطىء في اجتهاده والمصيب. وتوقف الطبري وغيره في تعيين المحق منهم، وصرح بالتعيين الجمهور وقالوا: إن علياً رضي الله عنه وأشياعه كانوا مصيبين والله أعلم.

وقوله: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه» قال بعض العلماء: وفي هذا حجة للباقلاني ومن تبعه أن العزم على الذنب والعقد على حمله معصية بخلاف الهم المعفو عنه، وللمخالف أن يقول: هذا فعل أكثر من العزم والمواجهة والقتال. وقال النووي: الصحيح الذي عليه الجمهور أن من نوى المعصية وأصر عليها يكون آثماً وإن لم يعملها ولا تكلم. وقال العيني: التحقيق إن عزم على معصية بقلبه ووطن نفسه عليها أثم في اعتقاده وعزمه، ولهذا جاء بلفظ الحرص فيه، ويحمل ما وقع من نحو قوله ﷺ «إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم يتكلموا أو يعملوا به» وفي الحديث الآخر «إذا هم عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه» على أن ذلك فيما لو لم يوطن نفسه عليها، وإنما مر ذلك بفكره من غير استقرار، ويسمى هذا هماً ويفرق بين الهم والعزم، وإن عزم تكتب سيئة واحدة فإن عملها كتبت معصية ثانية اهـ.

حديث أبي هريرة من تزوج امرأة على صداق وهو لا ينوي أداءه فهو زان، ومن أدان ديناً وهو لا ينوي قضاءه فهو سارق » وقال ﷺ : « من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك، ومن تطيب لغير الله جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة » .

(وفي حديث أبي هريرة) رضي الله عنه: **(« من تزوج امرأة على صداق وهو لا ينوي أداءه فهو زان، ومن ادّان ديناً وهو لا ينوي قضاءه فهو سارق »)** . كذا في القوت. قال العراقي: رواه أحمد من حديث صهيب، ورواه ابن ماجه مقتصراً على قصة الدين دون ذكر الصداق وفي سنده اضطراب اهـ.

قلت: حديث صهيب عند ابن عساكر بلفظ « من تزوج امرأة ومن نيته أن يذهب بصداقها لقي الله وهو زان حتى يتوب، ومن ادّان ديناً وهو يريد أن لا يفي به لقي الله سارقاً حتى يتوب » . رواه هكذا عن صيفي بن صهيب عن أبيه.

ورواه النجار والرافعي في تاريخيهما، بلفظ « من تزوج امرأة بصداق لا يريد أن يؤديه جاء يوم القيامة زانياً، ومن تسلف مالاً يريد أن لا يؤديه جاء يوم القيامة سارقاً » .

ورواه البيهقي في الشعب بلفظ « من تزوج امرأة ثم مات وهو لا ينوي أن يعطيها مهرها مات وهو زان، ومن استقرض من رجل قرضاً ثم مات وهو لا ينوي أن يعطيه مات وهو سارق » .

وقد روي الحديث أيضاً من طريق ميمون بن جابان الكردي عن أبيه رفعه « من تزوج امرأة وهو ينوي أن لا يعطيها الصداق لقي الله وهو زان » رواه ابن منده.

وأما قصة الدين فقد رويت من حديث أبي أمامة وميمونة. أخرج الطبراني والحاكم من حديث أبي أمامة « من ادّان ديناً وهو ينوي أن يؤديه أداه الله عنه يوم القيامة، ومن استدان ديناً وهو لا ينوي أن يؤديه فمات قال الله عز وجل يوم القيامة ظننت أن لا آخذ لعبدي بحقه فيؤخذ من حسناته فتجعل في حسنات الآخر، فإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات الآخر فجعلت عليه » .

وأخرج الطبراني من حديث ميمونة « من ادّان ديناً ينوي قضاءه أداه الله عنه يوم القيامة » وفي لفظ له: « وهو يحدث نفسه بقضائه أعانه الله عليه » .

وأخرجه ابن ماجه بلفظ: « من ادّان دينا ينوي قضاءه كان معه عون الله على ذلك » .

(وقال ﷺ « من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك ومن تطيب لغير الله جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة ») نقله صاحب القوت. وقال: رويناه في خبر مقطوع. قال العراقي: رواه أبو الوليد الصفار في كتاب الصلاة من حديث عبدالله بن أبي طلحة مرسلاً. قال صاحب القوت: وليس الطيب من البر المأمور به ولا من الإثم المنهى عنه، وإنما

وأما الآثار: فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أفضل الأعمال أداء ما افترض الله تعالى والورع عما حرم الله تعالى وصدق النية فيما عند الله تعالى. وكتب سالم بن عبدالله إلى عمر بن عبد العزيز: اعلم أنّ عون الله تعالى للعبد على قدر النية فمن تمت نيته تم عون الله له وإن نقصت نقص بقدره. وقال بعض السلف: رب عمل صغير تعظمه

لصاحبه منه نيته، فإن كانت نيته اتباع السنة وإظهار النعمة كان بذلك مطيعاً وكان له ثواب ما نواه، وإن تطيب لغير ذلك كان به عاصياً لاتباعه هواه.

(**وأما الآثار: فقد قال عمر رضي الله عنه: أفضل الأعمال أداء ما افترض الله تعالى والورع عما حرم الله تعالى وصدق النية فيما عند الله تعالى**) نقله صاحب القوت. (**وكتب سالم بن عبدالله**) بن عمر بن الخطاب أبو عمر أو أبو عبدالله أحد الفقهاء السبعة، وكان ثبتاً عابداً فاضلاً وكان يشبه بأبيه في الهدى والسمت، وروى له الجماعة، مات في آخر ست بعد المائة على الصحيح (**إلى عمر بن عبد العزيز**) الأموي رحمه الله تعالى، وكان قد كتب إليه يستنصحه فكتب إليه: (**اعلم أن عون الله تعالى للعبد على قدر النية، فمن تمت نيته تم عون الله له وإن نقصت نقص بقدره**) كذا في القوت.

وقال أبو نعيم في الحلية: حدثنا أبو حامد بن جبلة، حدثنا محمد بن إسحاق، حدثنا محمد بن يحي الأزدي، حدثنا سعيد بن سليمان وقرأته عليه، حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن محبر، حدثنا موسى بن عقبة. عن سالم بن عبدالله بن عمر أن عمر بن عبد العزيز كتب إليه: من عبيدالله عمر ابن عبد العزيز أمير المؤمنين إلى سالم بن عبدالله سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو أما بعد؛ فإن الله ابتلاني بما ابتلاني من أمر هذه الأمة من غير مشاورة مني فيها ولا طلبة مني لها إلا قضاء الرحمن وقدره، فاسأل الذي ابتلاني من أمر هذه الأمة بما ابتلاني به أن يعينني على ولائي وأن يرزقني منهم السمع والطاعة وحسن مؤازرة، وأن يرزقهم مني الرأفة والمعدلة، فإذا أتاك كتابي هذا فابعث إلي بكتاب عمر بن الخطاب وسيرته وقضاياه في أهل القبلة وأهل العهد، فإني متبع أثر عمر وسيرته إن أعانني الله على ذلك والسلام.

فكتب إليه سالم بن عبدالله: بسم الله الرحمن الرحيم من سالم بن عبدالله بن عمر إلى عبدالله عمر أمير المؤمنين: سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو أما بعد: فإن الله خلق الدنيا وما أراد وجعل لها مدة قصيرة وكان ما بين أولها وآخرها ساعة من نهار، ثم قضى عليها وعلى أهلها الفناء فقال ﴿كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون﴾ [القصص: ٨٨] لا يقدر منها أهلها على شيء حتى تفارقهم ويفارقونها. أنزل بذلك كتابه وبعث به رسله وشرع فيه دينه، وأنك اليوم يا عمر قد وليت أمراً عظيماً ليس يليه عليك أحد دون الله، قد أفضى فيما بينك وبين الخلائق، فإن استطعت أن تغنم نفسك وأهلك فافعل ولا حول ولا قوة إلا بالله فإنه كان قبلك رجال عملوا بما عملوا، وأماتوا من الحق ما أماتوا، وأحيوا ما أحيوا من الباطل حتى ولد فيه رجال ونشأوا فيه وظنوا

النية ورب عمل كبير تصغره النية. وقال داود الطائي. البرّ همته التقوى فلو تعلقت جميع جوارحه بالدنيا لردته نيته يوماً إلى نية صالحة وكذلك الجاهل بعكس ذلك. وقال الثوري: كانوا يتعلمون النية للعمل كما تتعلمون العمل، وقال بعض العلماء اطلب النية للعمل قبل العمل، وما دمت تنوي الخير فأنت بخير. وكان بعض المريدين يطوف على

أنها السنة ولم يسدوا على العباد باب رخاء إلا فتح عليهم باب بلاء، فإن استطعت أن تفتح عليهم أبواب الرخاء فإنك لا تفتح منها عليهم باباً إلاّ سد به عنك باب بلاء ولا يمنعك من نزع عامل أن تقول لا أجد من يكفيني عمله فإنك إذا كنت تنزع لله وتعمل لله أتاح الله لك رجالاً وكالاً بأعمال الله، وإنما العون من الله على قدر النية، فإذا تمت نية العبد تم عون الله له، ومن قصرت نيته قصر من الله العون له بقدر ذلك، فإن استطعت أن تأتي الله يوم القيامة ولا يتبعك أحد بظلم فافعل ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم إنك كتبت إلي تسأل أن أبعث إليك بكتاب عمر ابن الخطاب وسيرته وقضائه في المسلمين وأهل العهد، فإن عمر رضي الله عنه عمل في غير زمانك وإني أرجو إن عملت بمثل ما عمل عمر أن تكون عند الله أفضل منزلة من عمر، وقل كما قال العبد الصالح: وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب والسلام عليك.

قال: ورواه إسحاق بن سليمان عن حنظلة بن أبي سفيان قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى سالم بن عبدالله فذكره مطولاً. ورواه جعفر بن برقان قال: كتب عمر إلى سالم فذكره مختصراً. ورواه معمر بن سليمان الرقي عن الفرات بن سليمان قال: كتب عمر إلى سالم فذكره بطوله.

(وقال بعض السلف): رأيت الخير إنما يجمعه حسن النية وكفاك به خيره، وإن لم تصب **(رب عمل صغير تعظمه النية ورب عمل كبير تصغره النية)** نقله صاحب القوت. قال: وكتب بعض الأولياء إلى أخيه: أخلص النية في أعمالك يكفك القليل من العمل.

قلت: وسيأتي هذا من حديث معاذ.

(وقال) أبو سليمان **(داود)** بن نصير **(الطائي)** رحمه الله تعالى: **(البر همته التقوى ولو تعلقت جميع جوارحه بالدنيا لردته نيته يوماً إلى نية صالحة فكذلك الجاهل بعكس ذلك)** أي: أن الجاهل بالله تعالى وآياته همته الدنيا والهوى ولو تعلقت جوارحه بكل أعمال الصالحات لكان مرجوعاً إلى إرادة الله تعالى وموافقة الهوى، لأن سرها كان همة النفس بعاجل عرض الدنيا كذا في القوت. وروى أبو نعيم في الحلية من طريق محمد بن عبد الوهاب قال: قال داود الطائي: كل نفس ترد إلى همتها فمهموم بخير ومهموم بشر.

(وقال) سفيان **(الثوري)** رحمه الله تعالى: **(كانوا يتعلمون النية للعمل كما يتعلمون العمل)** كذا في النسخ، ولفظ القوت: كما تتعلمون العلم. قال: وقال محمد بن الحسين: ينبغي للرجل أن تكون نيته بين يدي عمله. **(وقال بعض العلماء: أطلب النية للعمل قبل العمل وما**

العلماء يقول من يدلني على عمل لا أزال فيه عاملاً لله تعالى فإني لا أحب أن يأتي علي ساعة من ليل أو نهار إلا وأنا عامل من عمال الله، فقيل له قد وجدت حاجتك فاعمل الخير ما استطعت فإذا فترت أو تركته فهم بعمله فإن الهام بعمل الخير كعامله، وكذلك قال بعض السلف: إن نعمة الله عليكم أكثر من أن تحصوها وإنّ ذنوبكم أخفى من أن تعلموها ولكن أصبحوا توّابين وأمسوا توّابين يغفر لكم ما بين ذلك. وقال عيسى عليه السلام: طوبى لعين نامت ولا تهم بمعصية وانتبهت إلى غير إثم، وقال أبو هريرة: يبعثون يوم القيامة على قدر نياتهم وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ والصَّابِرِينَ وَنَبْلُو أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٤١] يبكي ويرددها ويقول إنك إن بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا. وقال الحسن: إنما خلد أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار بالنيات. وقال أبو هريرة: مكتوب في التوراة ما أريد به وجهي فقليله كثير، وما أريد به غيري فكثيره قليل، وقال بلال بن سعد: إن العبد ليقول قول

دمت تنوي الخير فأنت بخير) كذا في القوت. **(وكان بعض المريدين يطوف على العلماء يقول: من يدلني على عمل لا أزال فيه عاملاً لله تعالى فإني لا أحب أن تأتي علي ساعة من ليل أو أنها نهار إلا وأنا عامل من عمال الله تعالى، فقيل له: قد وجدت حاجتك فاعمل الخير ما استطعت فإذا فترت أو تركته فهم بعمله فإن الهام بعمل الخير كعامله)** نقله صاحب القوت. قال: وقال زيد بن أسلم: خصلتان هما كمال أمرك تصبح ولا تهم لله بمعصية وتمسي ولا تهم لله بمعصية. **(وكذلك قال بعض السلف)** في معناه: **(إن نعمة الله تعالى عليكم أكثر من أن تحصوها وأن ذنوبكم أخفى من أن تعلموها، ولكن أصبحوا توابين وأمسوا توابين يغفر لكم ما بين ذلك)** نقله صاحب القوت. **(وقال عيسى عليه السلام: طوبى لعين نامت ولا تهم بمعصية وانتبهت إلى غير إثم)** نقله صاحب القوت. **(وقال أبو هريرة)** رضي الله عنه: **(يبعثون يوم القيامة على قدر نياتهم)** وهذا قد رواه أحمد من حديثه مرفوعاً بلفظ «يبعث الناس» وقد تقدم. **(وكان الفضيل بن عياض)** رحمه الله تعالى: **(إذا قرأ)** قوله تعالى: **(﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾ يبكي ويرددها ويقول: يا رب إنك إن بلوتنا أفضحتنا وهتكت أستارنا)** رواه أبو نعيم في الحلية، **(وقال الحسن)** البصري رحمه الله تعالى: **(إنما خلد أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار بالنيات)** نقله صاحب القوت لأن تخليد الله العبد في الجنة ليس بعمله، وإنما هو بنيته لأنه لو كان بعمله كان خلوده فيها بقدر مدة عمله أو أضعافه، لكنه جازاه بنيته لأنه كان ناوياً أن يطيع الله أبداً لو بقي أبداً، فلما اخترمته جوزي بنيته، وكذا الكافر لأنه لو جوزي بعمله لم يستحق التخليد في النار إلا بقدر مدة كفره، لكنه نوى الإقامة على كفره أبداً لو بقي فجوزي بنيته. **(وقال)** أبو عمرو **(بلال بن سعد)** بن تميم الأشعري ثقة عابد فاضل مات في خلافه هشام،

مؤمن فلا يدعه الله عز وجل وقوله حتى ينظر في عمله، فإذا عمل لم يدعه الله حتى ينظر في ورعه، فإن تورع لم يدعه حتى ينظر ماذا نوى، فإن صلحت نيته فبالحري أن يصلح ما دون ذلك فإذاً عماد الأعمال النيات فالعمل مفتقر إلى النية ليصير بها خيراً والنية في نفسها خير وإن تعذر العمل بعائق.

بيان حقيقة النية:

اعلم أنّ النية والإرادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد، وهو حالة وصفة للقلب يكتنفها أمران: علم وعمل.

العلم: يقدمه لأنه أصله وشرطه.

والعمل: يتبعه لأنه ثمرته وفرعه، وذلك لأن كل عمل أعني كل حركة وسكون

روى له البخاري في الأدب المفرد، وأبو داود في القدر، والنسائي: **(إن العبد ليقول قول مؤمن فلا يدعه الله عز وجل، وقوله: حتى ينظر ماذا نوى فإن صلحت نيته فبالحري، أن يصلح ما دون ذلك)**. رواه البيهقي في الشعب. فإذاً عماد الأعمال النيات والقطب الذي عليه المدار والوسيلة بعد الإيمان إلى السعادة العظمى في الأولى والعقبى، **(فالعمل مفتقر إلى النية ليصير بها خيراً، والنية في نفسها خير وإن تعذر العمل بعائق)** وليس للشرع عناية في طاعة من الطاعات بعد الإيمان بالله أعظم من اعتنائه بالنية، إذ صحة العبادات أجمعها موقوفة على وجودهما. يعني الإيمان والنية، فهي تلي الإيمان في الرتبة والشرط في صحة الأعمال، فحينئذ يجب عليك فهم حقيقتها وتخليصها مما يشوبها من الحظوظ الدنيوية وجوباً، وعن الأعراض والعوارض الأخروية استحباباً، ثم تفصيل أعمالها وطريق اكتسابها. وقد شرع المصنف في بيان حقيقتها وبيان ما يضاف إليها من الإرادة والعزم والقصد لأنهن من روادفها فقال:

بيان حقيقة النية:

(اعلم أن النية) بالكسر اسم من نواه ينويه إذا قصده والياء مشددة والتخفيف لغة حكاها الأزهري وحذفت اللام وعوض منها الهاء على هذه اللغة، كما قيل في ثبة وظبة وأنشد بعضهم:

أهم القلب حوشي النيات

وفي المحكم: النية مثقلة والتخفيف عن اللحياني وحده وهو على الحذف، وإذا عرفت هذا فاعلم أن النية **(والإرادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد وهو حالة وصفة للقلب يكتنفها أمران: علم وعمل)**.

(العلم يقدمه لأنه أصله وشرطه).

(والعمل يتبعه لأنه ثمرته وفرعه، وذلك لأن كل عمل أعني كل حركة وسكون

اختياري فإنه لا يتم إلا بثلاثة أمور: علم وارادة وقدرة. لأنه لا يريد الإنسان ما لا يعلمه فلا بدّ وأن يعلم ولا يعمل ما لم يرد فلا بدّ من إرادة. ومعنى الإرادة انبعاث القلب إلى ما يراه موافقاً للغرض إما في الحال أو في المآل، فقد خلق الإنسان بحيث يوافقه بعض الأمور ويلائم غرضه، ويخالفه بعض الأمور، فيحتاج إلى جلب الملائم الموافق إلى نفسه ودفع الضارّ المنافي عن نفسه، فافتقر بالضرورة إلى معرفة وإدراك للشيء المضر والنافع حتى يجلب هذا ويهرب من هذا، فإن من لا يبصر الغذاء ولا يعرفه لا يمكنه أن يتناوله، ومن لا يبصر النار لا يمكنه الهرب منها، فخلق الله الهداية والمعرفة وجعل لها أسباباً وهي الحواس الظاهرة والباطنة وليس ذلك من غرضنا ثم لو أبصر الغذاء وعرف انه موافق له فلا يكفيه ذلك للتناول ما لم يكن فيه ميل إليه ورغبة فيه وشهوة له باعثة عليه، إذ المريض يرى الغذاء ويعلم أنه موافق ولا يمكنه التناول لعدم الرغبة والميل ولفقد الداعية المحرّكة إليه، فخلق الله تعالى له الميل والرغبة والإرادة وأعني به نزوعاً في نفسه إليه وتوجهاً في قلبه إليه. ثم ذلك لا يكفيه فكم من مشاهد طعاماً راغب فيه مريد

اختياري) أي صادر باختيار العبد (**فإنه لا يتم إلا بثلاثة أمور: علم وإرادة وقدرة، لأنه لا يريد الإنسان ما لا يعلمه فلا بد وأن يعلم، ولا يعمل ما لم يرد فلا بد من إرادة)** تسبق العمل. (**ومعنى الإرادة انبعاث القلب إلى ما يراه موافقاً للغرض إما في الحال أو في المآل، فقد خلق الإنسان بحيث يوافقه بعض الأمور)** ويلائم غرضه ويخالفه بعض الأمور هذا من لطف الله تعالى وكمال حكمته، (**فاحتاج إلى جلب الملائم الموافق)** لطبعه النافع له في العاجل والآجل (**لنفسه و)** إلى (**دفع الضار)** له فيهما (**المنافي)** لطبعه (**عن نفسه، فافتقر بالضرورة إلى معرفة وإدراك للشيء المضر والنافع)** وهو العلم المعرّف له ذلك، (**حتى يجلب هذا ويهرب من هذا، فإن من لا يبصر الغذاء ولا يعرفه لا يمكنه أن يتناوله، ومن لا يبصر النار لا يمكنه الهرب منها، فخلق الله الهداية والمعرفة وجعل لها أسباباً وهي الحواس الظاهرة والباطنة وليس ذلك من غرضنا، ثم لو أبصر الغذاء وعرف أنه موافق له فلا يكفيه ذلك للتناول ما لم يكن فيه ميل إليه ورغبة فيه وشهوة له باعثة عليه، إذ المريض يرى الغذاء ويعلم أنه موافق)** له، (**ولا يمكنه التناول لعدم الرغبة والميل)** إليه، (**ولفقد الداعية المحركة إليه فخلق الله تعالى)** بلطفه وحكمته (**الميل والرغبة والإرادة، وأعني به)** أي بمجموع الميل والإرادة والرغبة (**نزوعاً في نفسه إليه وتوجهاً في قلبه إليه)**، فوجود الميل إلى الموافق الملائم والنفرة عن المؤلم المنافر بعد العلم ضروريان لا كسب للعبد فيهما فلا ثواب ولا عقاب عليهما حتى ينصرف عن القلب ما يعارضهما ويضادهما من علوم وإرادات لطلب أغراض أخر، لأن المعارضة المضادة تمنع من جرم النية، وإليه أشار المصنف بقوله:

تناوله عاجز عنه لكونه زمناً ، فخلقت له القدرة والأعضاء المتحركة حتى يتم به التناول ، والعضو لا يتحرّك إلا بالقدرة ، والقدرة تنتظر الداعية الباعثة ، والداعية تنتظر العلم والمعرفة أو الظن والاعتقاد وهو أن يقوي في نفسه كون الشيء موافقاً له ، فإذا جزمت المعرفة بأنّ الشيء موافق ولا بدّ وأن يفعل ، وسلمت عن معارضة باعث آخر صارف عنه انبعثت الإرادة وتحقق الميل ، فإذا انبعثت الإرادة انتهضت القدرة لتحريك الأعضاء فالقدرة خادمة للإرادة ، والإرادة تابعة لحكم الاعتقاد والمعرفة . فالنية عبارة عن الصفة المتوسطة وهي الإرادة وانبعاث النفس بحكم الرغبة والميل إلى ما هو موافق للغرض إما في الحال وإما في المآل . فالمحرّك الأول هو الغرض المطلوب وهو الباعث ، والغرض الباعث هو المقصد المنوي ، والانبعاث هو القصد والنية ، وانتهاض القدرة لخدمة الإرادة بتحريك الأعضاء هو العمل ، إلا أن انتهاض القدرة للعمل قد يكون بباعث واحد وقد يكون بباعثين اجتمعا في فعل واحد ، وإذا كان بباعثين فقد يكون كل واحد بحيث لو انفرد لكان ملياً بإنهاض القدرة ، وقد يكون كل واحد قاصراً عنه إلا بالاجتماع ، وقد

(ثم ذلك لا يكفيه ، فكم من مشاهد طعاماً راغب فيه مريد تناوله عاجز عنه لكونه زمناً) لا يقدر على التحرك **(فخلقت له القدرة والأعضاء المتحركة حتى يتم به التناول ، والعضو لا يتحرك إلا بالقدرة والقدرة تنتظر الداعية الباعثة ، والداعية تنتظر العلم والمعرفة أو الظن والإعتقاد وهو أن يقوي في نفسه كون الشيء موافقاً له ، فإذا جزمت المعرفة بأن الشيء موافق ولا بد أن يفعل وسلمت عن معارضة باعث آخر صارف عنه انبعثت الإرادة وتحقق الميل ، فإذا انبعثت الإرادة انتهت القدرة لتحريك الأعضاء ، فالقدرة حادثة عن الإرادة ، والإرادة تابعة لحكم الاعتقاد والمعرفة)** فحينئذ يكون هذا كسباً للقلب وعملاً من اعماله يقع عليه الجزاء والثواب ، **(فالنية عبارة عن الصفة المتوسطة وهي الإرادة وانبعاث النفس بحكم الرغبة والميل إلى ما هو موافق للغرض ، إما في الحال وإما في المآل ، فالمحرك الأول هو الغرض المطلوب وهو الباعث ، والغرض الباعث هو المقصد المنوي ، والانبعاث هو القصد والنية وانتهاض القدرة لخدمة الإرادة بتحريك الأعضاء هو العمل)** ، وبه تبين أن النية والقصد والإرادة ألفاظ متواردة على معنى واحد ، وإن حققت فلا بد من تفرقة قريبة ، فالنية عبارة عن تمييز الأغراض بعضها عن بعض والقصد هو جمع الهمة نحو الغرض المطلوب ، والعزم يقوي القصد وينشطه ، وإلا إذا تصرف الموانع المثبطة لانتهاض القدرة وتتوجه نحوها هذا حقيقة النية . **(إلا أن انتهاض القدرة للعمل قد يكون بباعث واحد وقد يكون بباعثين اجتمعا في فعل واحد ، وإذا كان بباعثين فقد يكون كل واحد بحيث لو انفرد كان ملياً بإنهاض القدرة ، وقد [illegible] قاصراً عنه إلا بالإجتماع**

يكون أحدهما كافياً لولا الآخر لكن الآخر انتهض عاضداً له ومعاوناً. فيخرج من هذا التقسيم أربعة أقسام فلنذكر لكل واحد مثالاً واسماً.

أما الأول: فهو أن ينفرد الباعث الواحد ويتجرّد، كما إذا هجم على الإنسان سبع فكلما رآه قام من موضعه، فلا مزعج له إلا غرض الهرب من السبع فإنه رأى السبع وعرفه ضاراً فانبعثت نفسه إلى الهرب ورغبت فيه، فانتهضت القدرة عاملة بمقتضى الانبعاث، فيقال: نيته الفرار من السبع لا نية له في القيام لغيره، وهذه النية تسمى خالصة ويسمى العمل بموجبها «إخلاصاً» بالإضافة إلى الغرض الباعث، ومعناه أنه خلص عن مشاركة غيره وممازجته.

وأما الثاني: فهو أن يجتمع باعثان كل واحد مستقل بالإنهاض لو انفرد. ومثاله من المحسوس أن يتعاون رجلان على حمل شيء بمقدار من القوّة كان كافياً في الحمل لو انفرد. ومثاله في غرضنا أن يسأله قريبه الفقير حاجة فيقضيَها لفقره وقرابته، وعلم أنه لولا فقره لكان يقضيها بمجرّد القرابة وأنه لولا قرابته لكان يقضيها بمجرد الفقر، وعلم

وقد يكون أحدهما كافياً لولا الآخر لكن الآخر انتهض عاضداً له ومعاوناً) كل ذلك بحسب الأغراض المطلوبة، **(فيخرج من هذا التقسيم أربعة أقسام، فلنذكر لكل واحد مثالاً)** من المحسوس **(واسما)**.

(أما الأول: فهو أن ينفرد الباعث الواحد ويتجرد كما إذا هجم على الإنسان سبع) أو جلس في مجرى سيل **(فكلما رآه)** أي واحداً منهما مقبلاً عليه **(قام)** هارباً **(من موضعه)** خوفاً مما دهاه، **(فلا مزعج له إلا غرض الهرب من السبع)** أو السيل **(فإنه رأى السبع وعرفه ضاراً)** وكذا السيل **(فانبعثت نفسه إلى الهرب ورغبت فيه، فانتهضت القدرة عاملة بمقتضى الانبعاث، فيقال: نيته الفرار من السبع)** أو السيل **(لا نية له في القيام لغيره، وهذه النية)** في الهرب **(تسمى خالصة ويسمى العمل بموجبها «إخلاصاً» بالإضافة إلى الغرض الباعث، ومعناه أنه خلص عن مشاركة غيره وممازجته)**. فأما إذا اقترن بالنية باعث آخر يجري مجرى المرافقة أو المعاونة والمشاركة فلا يسمى إخلاصاً.

(وأما الثاني: فهو أن يجتمع باعثان كل واحد مستقل بالإنهاض) للقدرة **(لو انفرد. ومثاله من المحسوس أن يتعاون رجلان على حمل شيء بمقدار من القوة كافية في الحمل لو انفردت. ومثاله في غرضنا أن يسأله قريبه الفقير حاجة)** من حوائجه **(فيقضيها لفقره وقرابته، وعلم أنه لولا فقره لكان يقضيها بمجرد القرابة ولولا قرابته لكان يقضيها بمجرد الفقر، وعلم ذلك من نفسه بأن يحضره قريب غني فيرغب في قضاء حاجته وفقير**

ذلك من نفسه بأن يحضره قريب غني فيرغب في قضاء حاجته، وفقير أجنبي فيرغب أيضاً فيه. وكذلك من أمره الطبيب بترك الطعام ودخل عليه يوم عرفة فصام وهو يعلم أنه لو لم يكن يوم عرفة لكان يترك الطعام حمية، ولولا الحمية لكان يتركه لأجل أنه يوم عرفة، وقد اجتمعا جميعاً فأقدم على الفعل وكان الباعث الثاني رفيق الأوّل، فلنسمّ هذا مرافقة للبواعث».

والثالث: أن لا يستقل كل واحد لو انفرد ولكن قوي مجموعها على إنهاض القدرة. ومثاله في المحسوس أن يتعاون ضعيفان على حمل ما لا ينفرد أحدهما به. ومثاله من غرضنا أن يقصده قريبه الغني فيطلب درهماً فلا يعطيه ويقصده الأجنبي الفقير فيطلب درهماً فلا يعطيه، ثم يقصده القريب الفقير فيعطيه، فيكون انبعاث داعيته بمجموع الباعثين وهو القرابة والفقر، وكذلك الرجل يتصدق بين يدي الناس لغرض الثواب ولغرض الثناء، ويكون بحيث لو كان منفرداً لكان لا يبعثه مجرّد قصد الثواب على العطاء، ولو كان الطالب فاسقاً لا ثواب في التصدق عليه لكان لا يبعثه مجرد الرياء على العطاء، ولو اجتمعا أورثا بمجموعهما تحريك القلب. ولنسمّ هذا الجنس «مشاركة».

أجنبي فيرغب أيضاً فيه، وكذلك من أمره الطبيب بترك الطعام ودخل عليه يوم عرفة) وهو تاسع ذي الحجة **(فصام وهو يعلم أنه لو لم يكن عرفة لكان يترك الطعام حمية)** لأنه له غرض فيها أي لو استغنى عن الصوم كان يحتمي، **(ولولا الحمية)** أي لو استغنى عنها **(لكان)** يصوم **(ويتركه)** أي الأكل **(لأجل أنه يوم عرفة وقد اجتمعا جميعاً فأقدم على الفعل وكان الباعث الثاني رفيق الأول)** لأنه لم يؤثر في الصوم حقه ولكنه رافقه مرافقة، **(فلنسم هذا مرافقة للبواعث)**. وهي تشوب العمل والرجاء من رحمة الشرع أن يثاب عليه ولكن لا يقع موقع الرضا.

(الثالث: أن لا يستقل كل واحد لو انفرد ولكن قوي مجموعها على إنهاض القدرة. ومثاله في المحسوس أن يتعاون ضعيفان على حمل ما لا ينفرد أحدهما به، ومثاله من غرضنا أن يقصده قريبه الغني فيطلب درهماً فلا يعطيه، ويقصده الأجنبي الفقير فيطلب درهماً فلا يعطيه، ثم يقصده الفقير القريب فيعطيه فيكون انبعاث داعيته بمجموع الباعثين وهو القرابة والفقر، وكذلك الرجل يتصدق بين يدي الناس لغرض الثواب وغرض الثناء، ويكون بحيث لو كان منفرداً لكان لا يبعثه مجرد قصد الثواب على العطاء، ولو كان الطالب فاسقاً لا ثواب في التصدق عليه لكان لا يبعثه مجرد الرياء على العطاء، ولما اجتمعا أورثا بمجموعهما تحريك القلب. ولنسم هذا الجنس مشاركة) وهذا لا شك في بطلانه وإحباط ثوابه فلا له ولا عليه إلا إن كان باعث الرياء أقوى فإنه يأثم بمقدار قوته

والرابع: أن يكون أحد الباعثين مستقلاً لو انفرد بنفسه والثاني لا يستقل. ولكن لما انضاف إليه لم ينفك عن تأثير بالإعانة والتسهيل، ومثاله في المحسوس أن يعاون الضعيف الرجل القوي على الحمل ولو انفرد القوي لاستقل ولو انفرد الضعيف لم يستقل، فإن ذلك بالجملة يسهل العمل ويؤثر في تخفيفه. ومثاله في غرضنا أن يكون للإنسان ورد في الصلاة وعادة في الصدقات فاتفق أن حضر في وقتها جماعة من الناس. فصار الفعل أخف عليه بسبب مشاهدتهم، وعلم من نفسه أنه لو كان منفرداً خالياً لم يفتر عن عمله، وعلم أنّ عمله لو لم يكن طاعة لم يكن مجرّد الرياء يحمله عليه، فهو شوب تطرّق إلى النية. ولنسمّ هذا الجنس «المعاونة».

فالباعث الثاني إما أن يكون رفيقاً أو شريكاً أو معيناً. وسنذكر حكمها في باب الإخلاص. والغرض الآن بيان أقسام النيات، فإن العمل تابع للباعث عليه فيكتسب الحكم منه. ولذلك قيل: «إنما الأعمال بالنيات» لأنها تابعة لا حكم لها في نفسها وإنما الحكم للمتبوع.

وزيادته، أو كان باعث الثواب أقوى فإنه يثاب بقدر قوته وزيادته. وهذا تحقيق قوله تعالى ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره★ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

(والرابع: أن يكون أحد الباعثين مستقلاً لو انفرد بنفسه، والثاني لا يستقل ولكن لما انضاف إليه لم ينفك عن تأثير بالإعانة والتسهيل. ومثاله من المحسوس أن يعاون الضعيف الرجل القوي على الحمل، ولو انفرد القوي لاستقل، ولو انفرد الضعيف لم يستقل، فإن ذلك بالجملة يسهل العمل ويؤثر في تحقيقه. ومثاله في غرضنا أن يكون للإنسان ورد في الصلوات وعادة في الصدقات فاتفق أن حضر في وقتها جماعة من الناس فصار الفعل أخف عليه بسبب مشاهدتهم، وعلم من نفسه أنه لو كان منفرداً خالياً لم يفتر عن عمله، وعلم أن عمله لو لم يكن طاعة لم يكن مجرد الرياء يحمله عليه فهو شوب تطرق إلى النية، ولنسم هذا الجنس «المعاونة»). وهذه حالة مخوفة لأنها تدل على إجلال غير الله تعالى والتماس الثناء عليهم.

(فالباعث الثاني إما يكون رفيقاً أو شريكاً أو معيناً وسنذكر حكمها) أي حكم هؤلاء الثلاثة وهي المرافقة والمشاركة والمعاونة **(في باب الإخلاص، والغرض الآن بيان أقسام النيات فإن العمل تابع للباعث عليه فيكتسب الحكم منه، ولذلك قيل)** في الخبر **(« إنما الأعمال بالنيات » لأنها)** أي الأعمال **(تابعة لا حكم لها في نفسها وإنما الحكم للمتبوع)** الذي هو النية.

بيان سر قوله ﷺ : « نية المؤمن خير من عمله » :

اعلم أنه قد يظن أن سبب هذا الترجيح أنّ النية سر لا يطلع عليه إلا الله تعالى، والعمل ظاهر، ولعمل السر فضل. وهذا صحيح ولكن ليس هو المراد : لأنه لو نوى أن

بيان سر قوله ﷺ « نية المؤمن خير من عمله » :

قال العراقي : رواه الطبراني من حديث سهل بن سعد، ومن حديث النواس بن سمعان وكلاهما ضعيف اهـ.

قلت : في سياق كل من الطريقين زيادات كما نذكرها، وأما هذا الذي أورده المصنف فرواه العسكري في الأمثال والقضاعي في مسند الشهاب، والبيهقي في الشعب، وابن عساكر في أماليه من طريق ثابت البناني عن أنس مرفوعاً إلا أنهم قالوا : « أبلغ » بدل « خير ». وقال البيهقي إسناده ضعيف، وقال ابن عساكر غريب من هذا الوجه، وقال ابن دحية : إنه لا يصح، وجزم الزركشي بأنه ضعيف، وتبعه السيوطي في الدرر وكأنه لأجل أبي عبد الرحمٰن السلمي فقد تكلم فيه جماعة بأنه وضّاع، ومن ثم حكم ابن الجوزي بوضعه ولم يصب فله طرق بمجموعها يتقوى الحديث، وقد رواه أيضاً الحكيم والعسكري عن ثابت البناني بلاغاً.

وأما لفظ حديث سهل بن سعد « نية المؤمن خير من عمله وعمل المنافق خير من نيته وكل يعمل على نيته فإذا عمل المؤمن عملاً ثار في قلبه نور ». أخرجه الطبراني في الكبير، والخطيب في التاريخ، والضياء في المختارة. قال الهيتمي : رجاله موثقون إلا حاتم بن عباد بن دينار لم أر من ذكر له ترجمة انتهى.

فحينئذ إطلاق العراقي القول بالضعف فيهم محل نظر، ولفظ حديث النواس « نية المؤمن خير من عمله ونية الفاجر خير من عمله » هكذا هو لفظ العسكري في الأمثال. وقد أخرج الطبراني مثله. وقد حكم العراقي بضعفه أيضاً، وقد روي أيضاً من حديث أبي موسى الأشعري « نية المؤمن خير من عمله إن الله عز وجل ليعطي العبد على نيته ما لا يعطيه على عمله وذلك أن النية لا رياء فيها والعمل يخالطه الرياء » أخرجه الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف. هذا ما يتعلق بتخريج الحديث. ولنرجع إلى معناه، قال المصنف رحمه الله تعالى :

(اعلم أنه قد يظن أن سبب هذا الترجيح أن النية سر) لأنه من عمل القلب **(لا يطلع عليه إلا الله تعالى، والعمل ظاهر)** لأنه من الجوارح يطلع عليه، **(ولعمل السر فضل)** على عمل العلانية، وهذا الذي قرره المصنف يخرج منه وجهان في الترجيح، وتقرير ذلك أن النية سر وأعمال السر تضاعف، فهذا وجه، والثاني أن النية غيب لا يطلع عليه غير الله تعالى والظواهر مشتركة، **(وهذا صحيح)** في نفسه، وقد قرره غالب شراح الحديث واعتمدوه وإليه يشير ما في حديث أبي موسى عند الديلمي الذي تقدم قريباً وهو « أن النية لا رياء فيها والعمل يخالطه الرياء » أي لكونها عمل السر وهو سبب المضاعفة فيكون سبب الترجيح، **(ولكن ليس هو المراد)** من

يذكر الله بقلبه أو يتفكر في مصالح المسلمين فيقتضي عموم الحديث أن تكون نية التفكر خيراً من التفكر، وقد يظن أنّ سبب الترجيح أنّ النية تدوم إلى آخر العمل والأعمال لا تدوم وهو ضعيف، لأن ذلك يرجع معناه إلى أنّ العمل الكثير خير من القليل، بل ليس كذلك فإن نية أعمال الصلاة قد لا تدوم إلا في لحظات معدودة والأعمال تدوم، والعموم يقتضي أن تكون نيته خيراً من عمله. وقد يقال: إن معناه أنّ النية بمجرّدها خير من العمل بمجرّده دون النية، وهو كذلك ولكنه بعيد أن يكون هو المراد، إذ العمل بلا نية أو على الغفلة لا خير فيه أصلاً، والنية بمجرّدها خير؛ وظاهر الترجيح للمشتركين في أصل الخير، بل المعنى به أنّ كل طاعة تنتظم بنية وعمل وكانت النية من جملة الخيرات وكان العمل من جملة الخيرات ولكن النية من جملة الطاعة خير من

الحديث (**لأنه لو نوى أن يذكر الله بقلبه أو يتفكر في مصالح المسلمين، فيقتضى عموم الحديث أن يكون نية التفكر خيراً من التفكر**) أو نية الذكر خيراً من الذكر وهذا لا يعوّل عليه، (**وقد يظن أن سبب الترجيح أن النية متصلة تدوم إلى آخر العمل والأعمال**) منقطعة (**لا تدوم**) فبالنية خلد أهل التوحيد في الجنة، وخلد أهل الشرك في النار لدوام نياتهم على التوحيد ودوام نيات الآخرين على الشرك مدة الدهر، (**وهو**) أيضاً صحيح وإليه يشير كلام الحسن البصري المتقدم واعتمده بعض شراح الحديث وقرره وبسط فيه، لكنه (**ضعيف لأن ذلك يرجع معناه إلى أن العمل الكثير خير من القليل بل ليس كذلك فإن نية أعمال الصلاة قد تدوم إلا في لحظات معدودة والأعمال تدوم، والعموم**) في الحديث (**يقتضي أن تكون نيته خيراً من عمله**) مع أنها انقطعت والعمل دام، (**وقد يقال: إن معناه أن النية بمجردها خير من العمل بمجرده دون النية**) وتقرير هدا القول على وجهين:

الأول: أن يقال النية من شرط العمل لا يصح عمل إلا بها وهي تصح بمجردها هكذا قرره صاحب القوت.

الثاني: أن يقال إن النية خير من العمل بلا نية إذ لو كان المراد خيراً من العمل مع نية لزم كون الشيء خيراً من نفسه مع غيره، والمراد أن الجزء الذي هو النية خير من الجزء الذي هو العمل. هكذا قرره الكرماني شارح البخاري.

(**وهو كذلك**) أي صحيح في نفسه، (**ولكنه بعيد أن يكون هو المراد**) من الحديث (**إذ العمل بلا نية أو على الغفلة لا خير فيه أصلاً والنية بمجردها خير وظاهر والترجيح للمشتركين في أصل الخير**) وهنا لا اشتراك، فهذه ثلاثة أوجه وهي ترجع إلى أربعة، وفيه أقوال أخر يأتي ذكرها في آخر البحث، (**بل المعنى به**) في الحديث (**أن كل طاعة تنتظم بنية وعمل كانت النية من جملة الخيرات وكان العمل من جملة الخيرات، ولكن النية من جملة**

العمل، أي لكل واحد منهما أثر في المقصود وأثر النية أكثر من أثر العمل، فمعناه نية المؤمن من جملة طاعته خير من عمله الذي هو من جملة طاعته، والغرض أن للعبد اختياراً في النية وفي العمل، فهما عملان والنية من الجملة خيرهما؛ فهذا معناه.

وأما سبب كونها خيراً ومترجحة على العمل فلا يفهمه إلا من فهم مقصد الدين وطريقه ومبلغ أثر الطريق في الاتصال إلى المقصد وقاس بعض الآثار بالبعض حتى يظهر له بعد ذلك الأرجح بالإضافة إلى المقصود، فمن قال: الخبز خير من الفاكهة، فإنما يعني به انه خير بالإضافة إلى مقصود القوت والاغتذاء، ولا يفهم ذلك إلا من فهم أن للغذاء مقصداً وهو الصحة والبقاء، وأنّ الأغذية مختلفة الآثار فيها، وفهم أثر كل واحد وقاس بعضها بالبعض فالطاعات غذاء للقلوب، والمقصود شفاؤها وبقاؤها وسلامتها في الآخرة، وسعادتها وتنعمها بلقاء الله تعالى، فالمقصد لذة السعادة بلقاء الله فقط، ولن يتنعم بلقاء الله إلا من مات محباً لله تعالى عارفاً بالله، ولن يحبه إلا من عرفه ولن يأنس

الطاعة خير من العمل أي لكل واحد منهما أثر في المقصود، وأثر النية أكثر من أثر العمل، فمعناه نية المؤمن من جملة طاعته خير من عمله الذي هو من جملة طاعته، والغرض) من بيان الحديث **(أن للعبد اختياراً في النية وفي العمل فهما عملان والنية من الجملة خيرهما، فهذا معناه)**. وقد قرره صاحب القوت فقال: وفيه وجه آخر يكون الكلام على التقديم والتأخير أي نية المؤمن هي من عمله خير كأنه قال: هي بعض أعماله الخير، فهذا كقوله ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها﴾ [البقرة: ١٠٦] معناه نأت منها بخير، وكما قال تعالى: ﴿يسألونك كأنك حفي عنها﴾ [الأعراف: ١٨٧] معناه يسألونك عنها كأنك حفي بهم وأخر قوله عنها ومعناه التقديم، فيكون على هذا التأويل أن النية من أعمال القلوب وأنها من عمل العبد خير كثير اهـ. وهو صحيح ولكنه عند التأمل يرجع إلى الوجه الأول الذي قررناه، ومع ذلك فلا يخلو من تكلف من جهة التقديم والتأخير، ولعل المصنف غير في التعبير لأجل ذلك.

(وأما سبب كونها خيراً ومترجحة على العمل فلا يفهمه إلا من فهم مقصد الدين وطريقه ومبلغ أثر الطريق في الاتصال إلى المقصد، وقاس بعض الآثار بالبعض حتى يظهر له بعد ذلك الأرجح بالإضافة إلى المقصود، فمن قال: الخبز خير من الفاكهة فإنما يعني به بأنه خير بالإضافة إلى مقصود القوت والاغتذاء، ولا يفهم ذلك إلا من فهم أن للغذاء مقصداً وهو الصحة والبقاء، وأن الأغذية مختلفة الآثار فيها وفهم أثر كل واحد وقاس بعضها بالبعض، فالطاعات غذاء للقلوب) كما أن الأطعمة غذاء للجوارح. **(والمقصود شفاؤها وبقاؤها وسلامتها في الآخرة وسعادتها وتنعمها بلقاء الله تعالى، فالمقصد لذة السعادة بلقاء الله فقط)** وهذه هي سعادة الآخرة، **(ولن يتنعم بلقاء الله إلا من مات محباً لله**

به إلا من طال ذكره له. فالأنس يحصل بدوام الذكر، والمعرفة تحصل بدوام الفكر، والمحبة تتبع المعرفة بالضرورة، ولن يتفرغ القلب لدوام الذكر والفكر إلا إذا فرغ من شواغل الدنيا، ولن يتفرّغ من شواغلها إلا إذا انقطع عنه شهواتها حتى يصير مائلاً إلى الخير مريداً له نافراً عن الشر مبغضاً له، وإنما يميل إلى الخيرات والطاعات إذا علم أنّ سعادته في الآخرة منوطة بها، كما يميل العاقل إلى الفصد والحجامة لعلمه بأن سلامته فيها. وإذا حصل أصل الميل بالمعرفة فإنما يقوى بالعمل بمقتضى الميل، والمواظبة عليه، فإنّ المواظبة على مقتضى صفات القلب وإرادتها بالعمل تجري مجرى الغذاء والقوت لتلك الصفة حتى تترشح الصفة وتقوى بسببها. فالمائل إلى طلب العلم أو طلب الرئاسة لا يكون ميله في الابتداء إلا ضعيفاً، فإن اتبع مقتضى الميل واشتغل بالعلم وتربية الرئاسة والأعمال المطلوبة لذلك تأكد ميله ورسخ وعسر عليه النزوع، وإن خالف مقتضى ميله ضعف ميله وانكسر وربما زال وانمحق. بل الذي ينظر إلى وجه حسن مثلاً فيميل إليه طبعه ميلاً ضعيفاً، لو تبعه وعمل بمقتضاه فداوم على النظر والمجالسة والمخالطة والمحاورة تأكد ميله حتى يخرج أمره عن اختياره فلا يقدر على النزوع عنه، ولو فطم نفسه ابتداء وخالف مقتضى ميله لكان ذلك كقطع القوت والغذاء عن صفة الميل،

تعالى عارفاً بالله تعالى **ولن يحبه إلا من عرفه)** المعرفة الخاصة **(ولن يأنس به إلا من طال ذكره له)** في سائر أحواله. **(فالأنس يحصل بدوام الذكر، والمعرفة)** تحصل **(بدوام الفكر)** بمراقبة القلب، **(والمحبة تتبع المعرفة بالضرورة)** لأنها ثمرتها، **(ولن يتفرغ القلب لدوام الذكر والفكر إلا إذا فرغ من شواغل الدنيا، ولن يتفرغ من شواغلها إلا إذا انقطع عنه شهواتها حتى يصير مائلاً إلى الخير مريداً له نافراً عن الشر مبغضاً له، وإنما يميل إلى الخيرات والطاعات إذا علم أن سعادته في الآخرة منوطة بها كما يميل العاقل إلى الفصد والحجامة لعلمه بأن سلامته فيها، وإذا حصل أصل الميل بالمعرفة فإنما يقوى بالعمل بمقتضى الميل والمواظبة عليه، فإن المواظبة على مقتضى صفات القلب وإرادتها بالعمل تجري مجرى الغذاء والقوت لتلك الصفة حتى تترشح الصفة ويقوى بسببها، فالمائل إلى طلب العلم أو طلب الرئاسة لا يكون ميله في الابتداء إلا ضعيفاً فإن اتبع مقتضى الميل واشتغل بالميل وتربية الرئاسة والأعمال المطلوبة بذلك تأكد ورسخ)** أي ثبت **(وتعسر عليه النزوع)** عنه، **(وإن خالف مقتضى ميله ضعف ميله وانكسر، وربما زال وانمحق، بل الذي ينظر إلى وجه حسن مثلاً فيميل إليه طبعه ميلاً ضعيفاً ولو تبعه وعمل بمقتضاه فداوم على النظر والمجالسة والمخالطة والمجاورة حتى يخرج أمره عن اختياره فلا يقدر على النزوع عنه، ولو فطم نفسه ابتداء وخالف مقتضى ميله لكان ذلك كقطع القوت والغذاء عن صفة الميل**

ويكون ذلك زبراً ودفعاً في وجهه حتى يضعف وينكسر بسببه وينقمع وينمحي. وهكذا جميع الصفات والخيرات والطاعات كلها هي التي تراد بها الآخرة، والشرور كلها هي التي تراد بها الدنيا لا الآخرة. وميل النفس إلى الخيرات الأخروية وانصرافها عن الدنيوية هو الذي يفرّغها للذكر والفكر، ولن يتأكد ذلك إلا بالمواظبة على أعمال الطاعة وترك المعاصي بالجوارح، لأنّ بين الجوارح وبين القلب علاقة حتى أنه يتأثر كل واحد منهما بالآخر، فترى العضو إذا أصابته جراحة تألم بها القلب، وترى القلب إذا تألم بعلمه بموت عزيز من أعزته أو بهجوم أمر مخوف تأثرت به الأعضاء وارتعدت الفرائص وتغير اللون، إلا أنّ القلب هو الأصل المتبوع فكأنه الأمير والراعي، والجوارح كالخدم والرعايا والأتباع. فالجوارح خادمة للقلب بتأكيد صفاتها فيه، فالقلب هو المقصود والأعضاء آلات موصلة إلى المقصود، ولذلك قال النبي ﷺ: «إنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد». وقال عليه السلام: «اللهم اصلح الراعي والرعية».

ويكون) ذلك **(** زبراً **)** أي منعاً بشدة **(ودفعاً في وجهه حتى يضعف وينكسر بسببه وينقمع وينمحى، وهكذا جميع الصفات والخيرات والطاعات كلها هي التي تراد بها الآخرة، والشرور كلها هي التي تراد بها الدنيا للدنيا لا للآخرة، وميل النفس إلى الخيرات الأخروية وانصرافها عن الدنيوية هو الذي يفرغها للذكر والفكر، ولن يتأكد ذلك إلا بالمواظبة على أعمال الطاعات وترك المعاصي بالجوارح، لأن بين الجوارح وبين القلب علاقة حتى أنه يتأثر كل واحد منهما بالآخر، فترى العضو إذا أصابته جراحة تألم بها القلب، وترى القلب إذا تألم بعلمه بموت عزيز من أعزته أو بهجوم أمر مخوف تأثرت به الأعضاء وارتعدت الفرائص وتغير اللون إلا أن القلب هو الأصل المتبوع وكأنه الأمير والراعي)** أي بمنزلتهما، **(والجوارح)** كلها **(كالخدم والرعايا والأتباع)** أي بمنزلتها، **(فالجوارح خادمة للقلب بتأكيد صفاتها فيه فالقلب هو المقصود)** الأعظم **(والأعضاء آلات موصلة إلى المقصود، ولذلك قال النبي ﷺ «إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد»)** متفق عليه من حديث النعمان بن بشير وقد تقدم. **(وقال ﷺ «اللهم أصلح الراعي والرعية»)** قال العراقي لم أجده وقد تقدم. **(وأراد بالراعي القلب)** وبالرعية الجوارح، وكأنه قال: اللهم أصلح الظاهر والباطن. وقال صاحب القوت: وقد ضرب النبي ﷺ مثل القلب بالملك والجوارح جنوده قال: «وإذا صلح القلب صلح الجسد وإذا فسد فسد الجسد» معناه فإذا صلحت للعبد نيته دامت للعبد استقامته، وإذا خلص وصفا من شوب الكدر والهوى خلصت الأعمال من الرياء وصفت من الشهوات والأهواء، وإذا فسدت نيته بحب الدنيا فسدت أعمال الجوارح بحب المدح والرياء. وقال أيضاً: أول سلطان العدو على القلب عند فساد النية فإذا تغيرت من العبد طمع فيه فيتسلط عليه، وأول ارتداد العبد عن الاستقامة ضعف النية فإذا ضعفت النية قويت النفس فتمكن

وأراد بالراعي القلب. وقال الله تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]، وهي صفة القلب، فمن هذا الوجه يجب لا محالة أن تكون أعمال القلب على الجملة أفضل من حركات الجوارح، ثم يجب أن تكون النية من جملتها أفضل لأنها عبارة عن ميل القلب إلى الخير وإرادته له. وغرضنا من الأعمال بالجوارح أن يعوّد القلب إرادة الخير ويؤكد فيه الميل إليه ليفرغ من شهوات الدنيا ويكب على الذكر والفكر، فبالضرورة يكون خيراً بالإضافة إلى الغرض لأنه متمكن من نفس المقصود، وهذا كما أن المعدة إذا تألمت فقد تداوى بأن يوضع الطلاء على الصدر وتداوى بالشرب والدواء الواصل إلى المعدة، فالشرب خير من طلاء الصدر لأن طلاء الصدر أيضاً إنما أريد به أن يسري منه الاثر إلى المعدة، فما يلاقي عين المعدة فهو خير وأنفع.

فهكذا ينبغي أن تفهم تأثير الطاعات كلها، إذ المطلوب منها تغيير القلوب وتبديل

الهوى، وإذا قويت النية صح العزم وضعفت صفات النفس، ولأن ينتقل العبد من معصية إلى معصية فيكون تاركاً للأول بنية الترك لأجل الله تعالى كان أنفع له وأحمد عاقبة وأصلح لقلبه وأقرب إلى توبته من افتعال الطاعات مشوبة بالهوى وفساد النيات، لأنه حينئذ يكون متقلباً في المعاصي بفساد نيته وخالط عملاً سيئاً بسيء مثله ودرأ بالسيء السيئة قبلها، وهذا بخلاف وصف الله تعالى من قوله ﴿خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً﴾ [التوبة: ١٠٢] وقوله: ﴿ويدرؤن بالحسنة السيئة﴾ [الرعد: ٢٢] ومخالف لأمر رسول الله ﷺ « اتبع السيئة الحسنة تمحها » اهـ.

(وقال الله تعالى: ﴿لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم﴾ وهو صفة القلب، فمن هذا الوجه يجب لا محالة أن تكون أعمال القلب على الجملة أفضل من حركات الجوارح ثم يجب أن تكون النية من جملتها) أي أعمال القلب **(أفضل لأنها عبارة عن ميل القلب إلى الخير وإرادته له، وغرضها من الأعمال بالجوارح أن يعوّد القلب إرادة الخير ويؤكد فيه الميل ليفرغ من شهوات الدنيا)** ووساوس النفس، **(ويكب على الذكر والفكر فبالضرورة يكون خيراً بالإضافة إلى الغرض لأنه متمكن من نفس المقصود وهذا كما أن المعدة)** التي هي حوض البدن **(إذا تألمت فقد تداوى بأن يوضع الطلاء على الصدر ويداوى بالشرب والدواء الواصل إلى المعدة، فالشرب خير من طلاء الصدر لأن طلاء الصدر أيضاً إنما أريد به أن يسري منه الأثر إلى المعدة فما يلاقي عين المعدة فهو خير وأنفع)** لقرب التأثير.

(فهكذا ينبغي أن تفهم تأثير الطاعات كلها إذ المطلـوب منها تغيير القلوب وتبديل

صفاتها فقط دون الجوارح. فلا تظنن أنّ في وضع الجبهة على الأرض غرضاً من حيث أنه جمع بين الجبهة والأرض، بلى من حيث أنه بحكم العادة تؤكد صفة التواضع في القلب، فإنّ من يجد في نفسه تواضعاً، فإذا استكان بأعضائه وصورها بصورة التواضع تأكد تواضعه، ومن وجد في قلبه رقة على يتيم فإذا مسح رأسه وقبله تأكدت الرقة في قلبه، ولهذا لم يكن العمل بغير نية مفيداً أصلاً، لأنّ من يمسح رأس يتيم وهو غافل بقلبه أو ظانّ أنه يمسح ثوباً لم ينتشر من أعضائه أثر إلى قلبه، لتأكيد الرقة، وكذلك من يسجد غافلاً وهو مشغول الهم بأعراض الدنيا لم ينتشر من جبهته ووضعها على الأرض أثر إلى قلبه يتأكد به التواضع، فكان وجود ذلك كعدمه، وما ساوى وجوده عدمه بالإضافة إلى الغرض المطلوب منه يسمى باطلاً، فيقال: العبادة بغير نية باطلة وهذا معناه هذا إذا فعل عن غفلة، فإذا قصد به رياء أو تعظيم شخص آخر لم يكن وجوده كعدمه بل زاده شراً، فإنه لم يؤكد الصفة المطلوب تأكيدها حتى أكد الصفة المطلوب قمعها وهي صفة الرياء التي هي من الميل إلى الدنيا. فهذا وجه كون النية خيراً من

صفاتها فقط دون الجوارح، فلا تظنن أن في وضع الجبهة على الأرض غرضاً من حيث أنه جمع بين الجبهة والأرض، بل من حيث أنه بحكم العادة يؤكد صفة التواضع، ومن وجد في قلبه رقة على يتيم فإذا مسح رأسه وقبله تأكدت الرقة في قلبه)، وقد ورد في مسح رأس اليتيم عدة أخبار، منها: عن أبي أمامة رفعه: «من مسح رأس يتيم لا يمسحه إلا لله فإن له بكل شعرة مرت على يده حسنة» الحديث. رواه ابن المبارك وأحمد والطبراني والحاكم وصاحب الحلية، **(ولهذا لم يكن العمل بغير نية مفيداً أصلاً لأن من يمسح رأس يتيم وهو غافل بقلبه أو ظان أنه يمسح ثوباً لم ينتشر من أعضائه أثر إلى قلبه لتأكيد الرقة، وكذلك من يسجد غافلاً وهو مشغول الهم باعراض الدنيا لم ينتشر من جبهته ووضعها على الأرض أثر إلى قلبه يتأكد التواضع به، فكان وجود ذلك كعدمه وما ساوى وجوده عدمه بالإضافة إلى الغرض المطلوب منه يسمى باطلاً، فيقال: العبادة بغير نية باطلة وهذا معناه)**، ومفهوم هذا تقدير صحة الأعمال بالنيات في حديث: «إنما الأعمال بالنيات» وقد تقدم الكلام عليه قريباً، وفيه اشتراط النية لصحة العبادة. قال العراقي في شرح التقريب: وقد اتفق العلماء على ذلك في العبادة المقصودة لعينها التي ليست وسيلة إلى غيرها، وحكى أبو الوليد بن رشد المالكي في كتابه «بداية المجتهد» اتفاق العلماء على اشتراط النية في العبادات. وحكى الاختلاف في الوضوء لاختلافهم في أنه مقصد أو وسيلة. وحكى ابن التين أنهم لا يختلفون أن العبادة المحضة مفتقرة إلى النية والعبادة المفهومة المعنى غير مفتقرة إلى النية. **(هذا إذا فعل عن غفلة فإن قصد به رياء أو تعظيم شخص آخر لم يكن وجوده كعدمه بل زاده شراً، فإنه لم يؤكد الصفة المطلوب تأكيدها حتى أكد الصفة المطلوب قمعها وهي صفة الرياء التي هي من الميل إلى الدنيا. فهذا وجه**

العمل. وبهذا أيضاً يعرف معنى قوله ﷺ: « من همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة » لأن هم القلب هو ميله إلى الخير وانصرافه عن الهوى وحب الدنيا وهي غاية الحسنات،

كون النية خيراً من العمل) وقد ذكرت في سبب الترجيح وجوه أخرى غير ما ذكره المصنف.

فمنها: أن الله عز وجل يهب النية للعبد خالصة لا يشوبها شيء إذا وهبها ولا تدخل عليها الآفات، فهذا عطاء مهنأ وسائر الأعمال مدخولة نقله صاحب القوت.

ومنها: أن المراد إخلاصه في العمل خير من العمل نقله صاحب القوت عن عبد الرحيم بن يحيى الأسود قال: فالإخلاص بغير عمل خير من عمل غير مخلص، والنية عنده هو نفس الإخلاص وعند غيره هو الصدق في الحال باستواء السريرة والعلانية، وسيأتي الكلام على الإخلاص والصدق.

ومنها: أن النية فعل القلب وفعل الأشرف مشرف.

ومنها: أن القصد من الطاعة تنوير القلب وتنويره بها أكثر لأنها صفته.

ومنها: أن النية عبودية القلب والعمل عبودية الجوارح وعمل القلب أبلغ وأنفع وهو أمير الجوارح، وهذه الوجوه الثلاثة الأخيرة مفهومة من سياق المصنف عند التأمل.

ومنها: ما قاله البيضاوي في تفسير قوله تعالى ﴿والله يضاعف لمن يشاء﴾ [البقرة: ٢٦١] بفضله على حساب حال المنفق من إخلاصه وتعبه، ومن أجله تفاوتت الأعمال في مقادير الثواب، فالمعنى أن جنس النية راجح على جنس العمل بدلالة أن كلا من الجنسين إذا انفرد عن الآخر يثاب على الأول دون الثاني، وهذا لا يتمشى في حق الكافر ولذا قال « نية المؤمن خير من عمله » اهـ.

ومنها: أن العمل يدخل تحت الحصر والنية لا إذ المتحقق في إيمانه عقد نيته على أن يطيع الله ما أحياه ولو أماته ثم أحياه وثم وثم، وهذا اعتقاد منبرم مستدام فيترتب له من الجزاء على نيته ما كان يترتب له على عمله.

ومنها: أن المؤمن كلما عمل خيراً نوى أن يعمل ما هو خير منه فليس لنيته في الخير منتهى، والفاجر كلما عمل شراً نوى أن يعمل ما هو شر منه فليس لنيته في الشر منتهى.

ومنها: أن المؤمن ينوي أن يصوم النهار ويقوم الليل ويخرج من ماله فلا تتابعه نفسه على ذلك فنيته أبلغ من عمله، وهذا نقل عن ثابت البناني أحد رواة هذا الحديث كما في القوت.

ومنها: أن النية هي التي تقلب العمل الصالح فاسداً والفاسد صالحاً فكانت أبلغ وأنفع، فهذه عشرة أوجه غير التي ذكرها المصنف يكون الجميع خمسة عشر وجهاً.

(وبهذا أيضاً يعرف معنى قوله ﷺ « من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ») تقدم وتمامه « فإن عملها كتبت له عشر حسنات » **(لأن هم القلب هو ميله إلى الخير وانصرافه عن**

وإنما الإتمام بالعمل يزيدها تأكيداً، فليس المقصود من إراقة دم القربان الدم واللحم، بل ميل القلب عن حب الدنيا وبذلها إيثاراً لوجه الله تعالى، وهذه الصفة قد حصلت عند جزم النية والهمة وإن عاق عن العمل عائق ﴿فَلَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالَهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧] والتقوى ههنا أعني القلب؛ ولذلك قال ﷺ: «إن قوماً بالمدينة قد شركونا في جهادنا» كما تقدّم ذكره لأنّ قلوبهم في صدق إرادة الخير وبذل المال والنفس والرغبة في طلب الشهادة وإعلاء كلمة الله تعالى كقلوب الخارجين في الجهاد وإنما فارقوهم بالأبدان لعوائق تخص الأسباب الخارجة عن القلب وذلك غير مطلوب إلا لتأكيد هذه الصفات. وبهذه المعاني تفهم جميع الأحاديث التي أوردناها في فضيلة النية فأعرضها عليها لينكشف لك أسرارها فلا نطول بالإعادة.

الهوى و) عن **(حب الدنيا وهي غاية الحسنات، وإنما الإتمام بالعمل يزيدها تأكيداً فليس المقصود من إراقة دم القربان الدم واللحم، بل ميل القلب عن حب الدنيا وبذلها إيثاراً)** لوجه **(الله تعالى، وهذه الصفة قد حصلت عند جزم النية والهمة، وإن عاق عن العمل عائق فلن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم)** كما في الكتاب العزيز. **(والتقوى ههنا أعني القلب)** وهذا قد رواه أبو يعلى من حديث أبي هريرة بلفظ «التقوى ههنا» قاله ثلاثاً وأشار إلى القلب. **(ولذلك قال ﷺ «إن أقواماً بالمدينة قد شركونا في جهادنا» كما تقدم ذكره)** قريباً **(لأن قلوبهم في صدق إرادة الخير وبذل المال والنفس والرغبة في طلب الشهادة وإعلاء كلمة الله تعالى كقلوب الخارجين في الجهاد، وإنما فارقوهم بالأبدان لعوائق تخص الأسباب الخارجة عن القلب وذلك غير مطلوب إلا لتأكيد هذه الصفات)**، وفي هذا السياق رد على من زعم أن حديث «من هم بحسنة» مضاد لحديث «نية المؤمن خير من عمله» لدلالته على ترجيح العمل.

(وبهذه المعاني تفهم جميع الأحاديث التي أوردناها في فضيلة النية فاعرضها عليها لتنكشف لك أسرارها فلا نطول بالإعادة). قال الكمال محمد بن إسحاق الصوفي في مقاصد المنجيات: سألت الإمام عز الدين بن عبد السلام عن ترجيح النية على العمل فأجاب: إن الوسيلة ليست أفضل من مقصودها اهـ.

قال: وهذا بحسب نظر الناظر فمن نظر إلى أن النية وسيلة محثة على العمل قال: العمل أفضل من النية لأنه مقصودها كمن نوى أن يتصدق بمال ثم تصدق به كان فضل العمل بقدر ما أدخل من السرور على قلوب الفقراء والصالحين لسد خلتهم، ومن نظر إلى أعمال الجوارح المنوطة بالنية هي وسائل لتقوية النية قال: النية أفضل إذ الأعمال بهذا الاعتبار وسيلة إلى تقوية النية وكأنها وسيلة أولاً مقصودة آخراً، وهذا معنى ما ذكره الإمام الغزالي وهو نظر صحيح لمن تأمله والله أعلم.

بيان تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية:

اعلم أنّ الأعمال وإن انقسمت أقساماً كثيرة من فعل وقول وحركة وسكون وجلب ودفع وفكر وذكر وغير ذلك مما لا يتصوّر إحصاؤه واستقصاؤه فهي ثلاثة أقسام: طاعات ومعاص ومباحات.

القسم الأوّل: المعاصي:

وهي لا تتغير عن موضعها بالنيّة، فلا ينبغي أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله عليه السلام: «إنما الأعمال بالنيات» فيظن أنّ المعصية تنقلب طاعة بالنية، كالذي يغتاب إنساناً مراعاة لقلب غيره، أو يطعم فقيراً من مال غيره، أو يبني مدرسة أو مسجداً أو رباطاً بمال حرام؛ وقصده الخير. فهذا كله جهل، والنية لا تؤثر في إخراجه عن كونه ظلماً وعدواناً ومعصية. بل قصده الخير بالشر على خلاف مقتضى الشرع شر آخر، فإن عرفه فهو معاند للشرع، وإن جهله فهو عاص بجهله إذ طلب العلم فريضة على

بيان تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية:

(**اعلم**) أرشدك الله تعالى (**أن الأعمال وإن انقسمت أقساماً كثيرة من فعل وقول وحركة وسكون وجلب ودفع وفكر وذكر وغير ذلك مما لا يتصور إحصاؤه واستقصاؤه فهي ثلاثة أقسام: طاعات ومعاص ومباحات**) كأنه يشير إلى بيان الأعمال التي ذكرت في حديث «إنما الأعمال بالنيات» وقد قالوا: إن المراد بها أعمال الجوارح حتى يدخل في ذلك الأقوال، فإنها عمل اللسان وهو من الجوارح قال ابن دقيق العيد: ورأيت بعض المتأخرين من أهل الخلاف خصه بما لا يكون قولاً، وأخرج الأقوال من ذلك قال: وهذا عندي بعيد ولا تردد عندي في أن الحديث يتناول الأقوال أيضاً.

(**القسم الأول المعاصي: وهي لا تتغير عن موضعها بالنية**) ولا تصح فيها النية، (**فلا ينبغي أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله ﷺ «إنما الأعمال بالنيات» فيظن أن المعصية تنقلب طاعة بالنية كالذي يغتاب إنساناً مراعاة لقلب غيره**) بنية الإرضاء، (**أو يطعم فقيراً من مال غيره**) بنية الصدقة، (**أو يبني مدرسة أو مسجداً أو رباطاً بمال حرام وقصده الخير**) وهو بقاء أجرها بعد موته، وكذا إذا غصب أرضاً بنية أن يبنيها مسجداً، (**فهذا كله جهل والنية لا تؤثر في إخراجه عن كونه ظلماً وعدواناً ومعصية، بل قصده الخير بالشر على خلاف مقتضى الشرع شر آخر**)، فمن ذلك الإصرار على تلك المعصية والفرح بها واستخفافها كما ذكرناه، في كتاب التوبة، (**فإن عرفه فهو معاند للشرع وإن جهله فهو عاص بجهله إذ طلب العلم فريضة على كل مسلم**) رواه ابن ماجه من حديث أنس وقد تقدم

كل مسلم، والخيرات إنما يعرف كونها خيرات بالشرع، فكيف يمكن أن يكون الشر خيراً؟ هيهات، بل المروّج لذلك على القلب خفي الشهوة وباطن الهوى، فإنَّ القلب إذا كان مائلاً إلى طلب الجاه واستمالة قلوب الناس وسائر حظوظ النفس توسل الشيطان به إلى التلبيس على الجاهل، ولذلك قال سهل رحمه الله تعالى: ما عصى الله تعالى بمعصية أعظم من الجهل! قيل: يا أبا محمد هل تعرف شيئاً أشدّ من الجهل! قال: نعم الجهل بالجهل. وهو كما قال: لأن الجهل بالجهل يسد بالكلية باب التعلم، فمن يظن بالكلية بنفسه أنه عالم فكيف يتعلم؟ وكذلك أفضل ما أطيع الله تعالى به العلم، ورأس العلم: العلم بالعلم، كما ان رأس الجهل: الجهل بالجهل، فإن من لا يعلم العلم النافع من العلم الضارّ اشتغل بما أكب الناس عليه من العلوم المزخرفة التي هي وسائلهم إلى الدنيا، وذلك هو مادة الجهل ومنبع فساد العلم، والمقصود أنّ من قصد الخير بمعصية عن جهل فهو غير

الكلام عليه في كتاب العلم، **(والخيرات إنما يعرف كونها خيرات بالشرع، فكيف يمكن أن يكون الشر خيراً هيهات! بل المروج)** أي المزين **(لذلك على القلب خفي الشهوة وباطن الهوى، فإن القلب إذا كان مائلاً إلى طلب الجاه واستمالة قلوب الناس وسائر حظوظ النفوس توسل الشيطان به إلى التلبيس على الجاهل، ولذلك قال)** أبو محمد **(سهل)** التستري رحمه الله تعالى: **(ما عصى الله تعالى بمعصية أعظم من الجهل. قيل: يا أبا محمد هل تعرف شيئاً أشد من الجهل؟ قال: نعم)** قيل: ما هو؟ قال: **(الجهل بالجهل)** قال صاحب القوت: يعني أن يكون العبد جاهلاً وهو لا يعلم أو يحسب بجهله أنه عالم فيسكت عن جهله ويرضى به فيضيع فرض الفرائض، وأصل الفرائض كلها وهو طلب العلم، ولعله أن يفتي الجهال أو يتكلم بالشبهات وهو يظن أنها علم وهذا أعظم من سكوته، وإليه أشار المصنف بقوله: **(وهو كما قال، لأن الجهل بالجهل يسد بالكلية باب التعلم فمن يظن بنفسه أنه عالم فكيف يتعلم)**، وقد روي عن الخليل بن أحمد قال: الرجال أربعة رجل يدري ويدري أنه يدري فذاك عالم فجالسوه، ورجل يدري ويدري أنه لا يدري، ورجل لا يدري ويدري أنه لايدري فذاك ضال فارشدوه، ورجل لا يدري ولا يدري أنه يدري فذاك جاهل فامقتوه. **(وكذلك أفضل ما أطيع الله به العلم ورأس العلم العلم بالعلم، كما أن رأس الجهل الجهل بالجهل، فإن من لا يعلم العلم النافع من العلم الضار اشتغل بما أكب الناس عليه من العلوم المزخرفة التي هي وسائلهم إلى الدنيا، وذلك هو مادة الجهل ومنبع فساد العالم)**، ولفظ القوت: وكذلك أيضاً ما أطيع الله تعالى بمثل العلم ومن علم العلم بالعلم أي شيء هو وذلك أيضاً واجب من حيث كان العلم واجباً ليكون على بصيرة من تعلم العلم، لأنه قد دخل مذهب المتكلمين وأقوال الغالطين من الصوفية والقصاص في شبهات العلم، فصار زخرفاً من القول غروراً يشبه العلم وليس بعلم لالتباس المعنى بعضه ببعض، ولإشكال دقائق العلوم وغرائبه وخفاء السنة من طريق علماء السلف، فاختلط لذلك القصاص والمتكلمون بالعلماء

معذور إلا إذا كان قريب العهد بالإسلام ولم يجد بعد مهلة للتعلم. وقد قال الله سبحانه: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، وقال النبي ﷺ: «لا يعذر الجاهل على الجهل، ولا يحل للجاهل أن يسكت على جهله، ولا للعالم أن يسكت على علمه»، ويقرب من تقرب السلاطين ببناء المساجد والمدارس بالمال الحرام تقرّب العلماء السوء بتعليم العلم للسفهاء والأشرار؛ والمشغولين بالفسق والفجور القاصرين هممهم على مماراة العلماء ومباراة السفهاء واستمالة وجوه الناس وجمع حطام الدنيا وأخذ أموال السلاطين واليتامى والمساكين، فإن هؤلاء إذا تعلموا كانوا قطاع طريق الله، وانتهض كل واحد منهم في بلدته نائباً عن الدجال يتكالب على الدنيا ويتبع الهوى ويتباعد عن التقوى ويستجرىء الناس بسبب مشاهدته على معاصي الله، ثم قد ينتشر ذلك العلم إلى

فصار معرفة العلم أي شيء منه والعلم من هو علماً آخر، وصار العلم بالعلم ما هو دون الزخرف من القول كأنه عالم، فكان أيضاً العلم بالعلم بمنزلة العلم ووجب وجوبه كما كان الجهل بالجهل أعظم، وقد كان سهل رحمه الله تعالى يقول: قسوة القلب بالجهل أشد من قسوته بالمعاصي لأن الجهل ظلمة لا ينفع البصر فيه شيئاً ونور العلم يهتدي به القاصدون وإن لم يمش.

(والمقصود أن من قصد الخير بمعصية عن جهل فهو غير معذور). ولفظ القوت: وإن كان قد خفي عليه الهوى ودق عليه لطيف حب الدنيا لجهله بالعلم فهو مأثوم فيه لتقصيره في طلب العلم الذي يعرف به الإخلاص وسكوته على الجهل الذي يدخل منه الانتقاص ولا عذر له في ذلك اهـ. **(إلا إذا كان قريب العهد بالإسلام ولم يجد بعد مهلة للتعلم، وقد قال)** الله **(سبحانه ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ وقال النبي ﷺ «لا يعذر الجاهل على الجهل، ولا يحل للجاهل أن يسكت على جهله، ولا للعالم أن يسكت على علمه»)** كذا في القوت. قال العراقي: رواه الطبراني في الأوسط وابن السني وأبو نعيم في رياضة المتعلمين من حديث جابر بسند ضعيف دون قوله «لا يعذر الجاهل على الجهل» وقال: «لا ينبغي» بدل «لا يحل» اهـ.

قلت: لفظ الطبراني في الأوسط «لا ينبغي للعالم أن يسكت على علمه ولا ينبغي للجاهل أن يسكت على جهله» قال الله تعالى ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ وقد تقدم في كتاب العلم.

(ويقرب من تقرب السلاطين ببناء المساجد والمدارس) والرباطات **(بالمال الحرام تقرب العلماء السوء بتعليم العلم للسفهاء والأشرار المشغولين بالفسق والفجور، والقاصرين هممهم على مماراة العلماء ومباراة السفهاء واستمالة وجوه الناس)** إليهم **(وجمع حطام الدنيا وأخذ أموال السلاطين واليتامى والمساكين، فإن هؤلاء إذا تعلموا كانوا قطاع طريق الله وانتهض كل واحد منهم في بلدته نائباً عن الدجال)** قائماً مقامه **(يتكالب على الدنيا ويتبع الهوى ويتباعد عن التقوى ويستجرىء الناس مشاهدته على مناهي الله تعالى، ثم قد ينتشر**

مثله وأمثاله ويتخذونه أيضاً آلة ووسيلة في الشر واتباع الهوى، ويتسلسل ذلك، ووبال جميعه يرجع إلى المعلم الذي علمه العلم مع علمه بفساد نيته وقصده، ومشاهدته أنواع المعاصي من أقواله وأفعاله، وفي مطعمه وملبسه، ومسكنه، فيموت هذا العالم وتبقى آثار شره منتشرة في العالم ألف سنة مثلاً وألفي سنة، وطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه، ثم العجب من جهله حيث يقول: « إنما الأعمال بالنيات »، وقد قصدت بذلك نشر علم الدين؛ فإن استعمله هو في الفساد فالمعصية منه لا مني وما قصدت به إلا أن يستعين به على الخير. وإنما حب الرئاسة والاستتباع والتفاخر بعلو العلم يحسن ذلك في قلبه، والشيطان بواسطة حب الرئاسة يلبس عليه، وليت شعري ما جوابه عمن وهب سيفاً من قاطع طريق وأعدّ له خيلاً وأسباباً يستعين بها على مقصوده؛ ويقول إنما أردت البذل والسخاء والتخلق بأخلاق الله الجميلة، وقصدت به أن يغزو بهذا السيف والفرس في سبيل الله، فإن إعداد الخيل والرباط والقوّة للغزاة من أفضل القربات، فإن هو صرفه إلى قطع الطريق فهو العاصي. وقد أجمع الفقهاء على أن ذلك حرام مع أن السخاء هو أحب الأخلاق إلى الله تعالى حتى قال رسول الله ﷺ: « إن لله تعالى ثلاثمائة خلق من تقرّب إليه بواحد منها دخل الجنة وأحبها إليه السخاء » فليت شعري لم حرم هذا

ذلك العلم إلى مثله وأمثاله ويتخذونه أيضاً آلة ووسيلة في الشر واتباع الهوى ويتسلسل ذلك، ووبال جميعه يرجع إلى المعلم الذي علمه بفساد نيته وقصده ومشاهدته أنواع المعاصي من أقواله وأفعاله، وفي مطعمه وملبسه ومسكنه فيموت هذا العالم وتبقى آثار شره منتشرة في العالم ألف سنة مثلاً وألفي سنة، وطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه)، ومن هذا القبيل من يحدث الناس بحديث لا يبلغ عقولهم بنية نشر العلم، **(ثم العجب من جهله حيث يقول « إنما الأعمال بالنيات » وقد قصدت بذلك نشر علم الدين فإن استعمله هو في الفساد فالمعصية منه لا مني، وما قصدت به إلا أن يستعين به على الخير، وإنما حب الرئاسة والاستتباع والتفاخر بعلو العلم يحسن ذلك في قلبه)** ويزينه في عينه، **(والشيطان بواسطة حب الرئاسة يلبس عليه. وليت شعري ما جوابه عمن وهب سيفاً من قاطع طريق)** للمسلمين **(وأعد له خيلاً وأسباباً يستعين بها على مقصوده ويقول: إنما أردت البذل والسخاء والتخلق بأخلاق جميلة، وقصدت به أن يغزو بهذا السيف والفرس في سبيل الله)** تعالى، **(فإن إعداد الخيل والقوة للغزاة من أفضل القربات)** كما وردت به الأخبار، **(فإن هو صرفه إلى قطع الطريق فهو العاصي. وقد أجمع الفقهاء على أن ذلك حرام)** كما حكاه ابن المنذر وغيره وصرح به النووي تبعاً للرافعي، **(مع أن السخاء هو أحب الأخلاق إلى الله تعالى، حتى قال رسول الله ﷺ « إن لله تعالى ثلاثمائة خلق من تقرب إليه بواحد منها دخل الجنة وأحبها إليه السخاء »)**

السخاء ؟ ولم وجب عليه أن ينظر إلى قرينة الحال من هذا الظالم فإذا لاح له من عادته أنه يستعين بالسلاح على الشر فينبغي أن يسعى في سلب سلاحه في أن يمده بغيره.

والعلم سلاح يقاتل به الشيطان وأعداء الله وقد يعاون به أعداء الله عز وجل وهو الهوى؛ فمن لا يزال مؤثراً لدنياه على دينه ولهواه على آخرته وهو عاجز عنها لقلة فضله فكيف يجوز إمداده بنوع علم يتمكن به من الوصول إلى شهواته؟ بل لم يزل علماء السلف رحمهم الله يتفقدون أحوال من يتردد إليهم فلو رأوا منه تقصيراً في نفل من النوافل أنكروه وتركوا إكرامه، وإذا رأوا منه فجوراً واستحلال حرام هجروه ونفوه عن مجالسهم وتركوا تكليمه فضلاً عن تعليمه، لعلمهم بأن من تعلم مسألة ولم يعمل بها وجاوزها إلى غيرها فليس يطلب إلا آلة الشر، وقد تعوّذ جميع السلف بالله من الفاجر العالم بالسنة وما تعوّذوا من الفاجر الجاهل. حكي عن بعض أصحاب أحمد بن حنبل

تقدم في كتاب المحبة والشوق نحوه دون قوله «وأحبها إليه السخاء». **(فليت شعري لم حرم هذا السخاء؟ ولم وجب عليه أن ينظر إلى قرينة الحال من هذا الظالم فإذا لاح له من عادته أنه يستعين بالسلاح على الشر فينبغي أن يسعى في سلب سلاحه لا في أن يمده بغيره)** هذا في السلاح الظاهر. **(والعلم)** أيضاً بمنزلة **(سلاح)** في أنه **(يقاتل به الشيطان و)** سائر **(أعداء الله و)** هو **(قد يعاون به أعداء الله وهو الهوى، فمن لا يزال مؤثراً لدنياه على دينه ولهواه على آخرته وهو عاجز عنها لقلة فضله، فكيف يجوز إمداده بنوع علم يتمكن به من الوصول إلى شهواته؟ بل لم يزل علماء السلف رحمهم الله تعالى يتفقدون أحوال من يتردد إليهم)** لأجل الاستفادة، **(فلو رأوا منه تقصيراً في نفل من النوافل)** فضلاً عن الفرائض **(أنكروه وتركوا إكرامه)** أعرضوا عنه بوجوههم، **(وإذا رأوا منه فجوراً أو استحلال حرام هجروه ونفوه عن مجالسهم وتركوا تكليمه فضلاً عن تعليمه لعلمهم، فإن من تعلم مسألة ولم يعمل بها وجاوزها إلى غيرها فليس يطلب إلا آلة الشر، وقد تعوذ جميع السلف بالله من الفاجر العالم بالسنة ولم يتعوذوا من الفاجر الجاهل)**،وقد روي ذلك عن عمر وغيره، وقال أحمد بن عبدالله العجلي، قال عمر رضي الله عنه للأحنف بن قيس مع قومه من بني تميم لما دخل عليه وكلمه: ويحك يا أحنف لما رأيتك ازدريتك، فلما نطقت قلت لعله منافق في صنع اللسان، فلما اختبرتك حمدتك ولذلك حبستك وكان حبسه سنة. وروى مالك بن مغول عن أبي حصين عن زياد بن حدير قال. قال عمر: يهدم الإسلام ثلاث: زلة عالم وجدال منافق بالقرآن وأئمة مضلون، وفي جزء أبي الجهم حدثنا سوار، حدثنا مجالد، عن أبي الوداك، عن أبي سعيد عن ابن عباس قال: خطبنا عمر فقال: إن أخوف ما أخاف عليكم تغير الزمان وزيغة عالم وجدال منافق بالقرآن وأئمة مضلون يضلون الناس بغيره.

رحمه الله أنه كان يتردد إليه سنين ثم اتفق أن أعرض عنه أحمد وهجره وصار لا يكلمه، فلم يزل يسأله عن تغيره عليه وهو لا يذكره حتى قال: بلغني أنك طينت حائط دارك من جانب الشارع وقد أخذت قدر سمك الطين وهو أنملة من شارع المسلمين فلا تصح لنقل العلم. فهكذا كانت مراقبة السلف لأحوال طلاب العلم. وهذا وأمثاله مما يلتبس على الأغبياء وأتباع الشيطان وإن كانوا أرباب الطيالسة والأكمام الواسعة وأصحاب الألسنة الطويلة والفضل الكثير، أعني الفضل من العلوم التي لا تشتمل على التحذير من الدنيا والزجر عنها والترغيب في الآخرة والدعاء إليها، بل هي العلوم التي تتعلق بالخلق ويتوصل بها إلى جمع الحطام واستتباع الناس والتقدّم على الأقران. فإذاً قوله عليه السلام: « إنما الأعمال بالنيات » يختص من الأقسام الثلاثة بالطاعات والمباحات دون المعاصي؛ إذ الطاعة تنقلب معصية بالقصد، والمباح ينقلب معصية وطاعة بالقصد، فأما

قلت: وقد روي بعض ذلك مرفوعاً من حديث عمر وغيره. روى أحمد وابن أبي الدنيا في ذم الغيبة، وابن عدي ونصر المقدسي في الحجة، والبيهقي والضياء من حديث عمران: « أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان » ورواه الطبراني والبيهقي من حديث عمر بن الحصين بلفظ « عليكم بعدي » بدل قوله « على أمتي ». وروى أبو نصر السجزي في الإبانة من حديث ابن عمر « إن أخوف ما أخاف على أمتي ثلاثة: زلة عالم وجدال منافق بالقرآن ودنيا تقطع أعناقكم فاتهموها على أنفسكم ». ورواه الطبراني نحوه من حديث معاذ.

(**حكي عن بعض أصحاب**) الإمام (**أحمد بن حنبل**) رحمه الله تعالى (**أنه كان يتردد إليه سنين**) للاستفادة وكان يقبل إليه بوجهه ويكرمه ويفيده، (**ثم اتفق أن أعرض عنه أحمد وهجره وصار لا يكلمه، فلم يزل يسأله عن تغيره عليه وهو لا يذكره حتى قال: بلغني أنك طينت حائط دارك من جانب الشارع، فقد أخذت قدر سمك الطين وهو أنملة من شارع المسلمين فلا تصلح لنقل العلم**) نقله صاحب القوت. (**فهكذا كانت مراقبة السلف لأحوال طلاب العلم، وهذا وأمثاله مما يلتبس على الأغبياء واتباع الشيطان، وإن كانوا أرباب الطيالسة والأكمام والواسعة وأصحاب الألسنة الطويلة والفضل الكثير، أعني الفضل من العلوم التي لا تشتمل على التحذير من الدنيا والزجر عنها والترغيب في الآخرة والدعاء إليها، بل هي العلوم التي تتعلق بالخلق**) في فصل خصوماتهم ونظم معايشهم، (**ويتوصل بها إلى جمع الحطام واستتباع الناس والتقدم على الأقران**) بالرئاسة والافتخار، (**فإذاً قوله ﷺ « الأعمال بالنيات »**). هكذا رواه ابن حبان في الأنواع والتقاسيم بدون « إنما » (**يختص من الأقسام الثلاثة بالطاعات والمباحات**) فقط (**دون المعاصي، إذ الطاعة تنقلب معصية، والمباح ينقلب معصية وطاعة بالقصد**) والنية، (**فأما المعصية فلا تنقلب طاعة بالقصد**

المعصية فلا تنقلب طاعة بالقصد أصلاً نعم للنية دخل فيها وهو أنه إذا انضاف إليها قصود خبيثة تضاعف وزرها وعظم وبالها ، كما ذكرنا ذلك في كتاب التوبة .

القسم الثاني الطاعات:

وهي مرتبطة بالنيات في أصل صحتها وفي تضاعف فضلها . أما الأصل فهو أن ينوي بها عبادة الله تعالى لا غير ، فإن نوى الرياء صارت معصية . وأما تضاعف الفضل ؛ فبكثرة النيات الحسنة فإنّ الطاعة الواحدة يمكن أن ينوي بها خيرات كثيرة فيكون له بكل نية ثواب ، إذ كل واحدة منها حسنة ثم تضاعف كل حسنة عشر أمثالها . كما ورد به الخبر . ومثاله القعود في المسجد فإنه طاعة ويمكن أن ينوي فيه نيات كثيرة حتى يصير من فضائل أعمال المتقين ويبلغ به درجات المقربين :

أولها : أن يعتقد أنه بيت الله وأنّ داخله زائر الله فيقصد به زيارة مولاه رجاء لما وعده به رسول الله ﷺ حيث قال : « من قعد في المسجد فقد زار الله تعالى وحق على المزور إكرام زائره » .

أصلاً ، نعم للنية دخل فيها وهو أنه إذا انضاف إليها قصود خبيثة تضاعف وزرها وعظم وبالها) من الإصرار والفرح والاستخفاف **(كما ذكرنا لك في كتاب التوبة)** فلا نعيده .

(القسم الثاني : الطاعات : وهي مرتبطة بالنيات في أصل صحتها) على اختلاف فيه تقدمت الإشارة إليه ، **(وفي تضاعف فضلها . أما الأصل ؛ فهو أن ينوي بها عبادة الله تعالى لا غير فإن نوى الرياء صارت معصية)** فأصل صحتها بتخليصها من الشوائب ، وكذا تمييز رتب العبادات بعضها عن بعض لتميز الفرض عن النقل والنفل والنفل عن العبادة وهذا مستوعب فيما تقدم في الربع الأول ، **(وأما تضاعف الفضل)** فعلى ضربين .

أحدهما : ما أشار إليه المصنف بقوله : **(فبكثرة النيات الحسنة فإن الطاعة الواحدة يمكن أن ينوي بها خيرات كثيرة فيكون له بكل نية ثواب ، إذ كل واحدة منها حسنة ثم تضاعف كل حسنة عشر أمثالها كما ورد به الخبر)** رواه هناد من حديث أنس وقد تقدم . **(ومثاله القعود في المسجد فإنه طاعة)** من الطاعات ، **(ويمكن أن ينوي فيه نيات كثيرة حتى يصير من فضائل أعمال المتقين)** وإفضال شأن الدين ، **(وتبلغ به درجات)** المحسنين **(المقربين)** :

(أولها أن يقصد أنه بيت الله وأن داخله زائر الله فيقصد به زيارة مولاه) لينال بذلك كرامة الزائرين **(رجاء لما وعده به رسول الله ﷺ قال « من قعد في المسجد فقد زار الله تعالى وحق على المزور إكرام زائره »)** . رواه ابن حبان في الضعفاء من حديث سلمان ، وللبيهقي في الشعب نحوه من رواية جماعة من الصحابة لم يسموا بإسناد صحيح وقد تقدم في كتاب الصلاة .

وثانيها: أن ينتظر الصلاة بعد الصلاة فيكون في جملة انتظاره في الصلاة وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَرَابِطُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وثالثها: الترهب بكف السمع والبصر والأعضاء عن الحركات والترددات، فإنّ الاعتكاف كف وهو في معنى الصوم وهو نوع ترهب. ولذلك قال رسول الله ﷺ: «رهبانية أمتي القعود في المساجد».

ورابعها: عكوف الهم على الله ولزوم السر للفكر في الآخرة ودفع الشواغل الصارفة عنه بالاعتزال إلى المسجد.

(**وثانيها: أن ينتظر الصلاة بعد الصلاة فيكون في جملة انتظاره**) كأنه (**في الصلاة**)، فقد روى ابن جرير من حديث أبي هريرة «من جلس في المسجد ينتظر الصلاة فهو في صلاة، والملائكة تقول اللهم اغفر له اللهم ارحمه ما لم يحدث» وروى مالك في الوطأ وابن حبان والطبراني والحاكم والبيهقي والضياء من حديث عبدالله بن سلام وأبي هريرة «من جلس في المسجد ينتظر الصلاة فهو في صلاة حتى تصلى». وروى عبد بن حميد وابن جرير والطبراني من حديث سهل بن سعد «من جلس في المسجد ينتظر الصلاة فهو في صلاة» وروى عبد بن حميد من حديث جابر «المرء في صلاة ما انتظرها». (**وهو معنى قوله تعالى ﴿ورابطوا﴾**) روى ابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه من طريق داود بن صالح قال أبو سلمة تدري في أي شيء نزلت هذه الآية ﴿اصبروا وصابروا ورابطوا﴾ قلت: لا. قال: سمعت أبا هريرة يقول: لم يكن في زمان النبي ﷺ غزو يرابطون فيه، ولكنها نزلت في قوم يعمرون المساجد يصلون الصلاة في مواقيتها ثم يذكرون الله فيها، فعليهم أنزلت (**اصبروا**) أي على الصلوات الخمس (**وصابروا**) أنفسكم وهواكم ﴿ورابطوا﴾ في مساجدكم ﴿واتقوا الله﴾ فيما عليكم ﴿لعلكم تفلحون﴾. وروى ابن جرير من حديث جابر وعلي: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويكفر به الذنوب؟ قلنا: بلى يا رسول الله. قال «إسباغ الوضوء عند المكاره وكثرة الخطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط». ورواه ابن مردويه من حديث أبي أيوب وفيه «فذالكم هو الرباط في المساجد» ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث أبي هريرة وفيه «فذلكم الرباط فذلكم الرباط فذلكم الرباط». وروى ابن أبي حاتم عن أبي غسان قال: إنما نزلت هذه الآية في لزوم المساجد.

(**وثالثها: الترهب بكف السمع والبصر**) عن المنهيات (**والإغضاء عن الحركات والترددات، فإن الاعتكاف كف**) أي منع، فمن دخل المسجد ونوى الاعتكاف فقد كف نفسه عن المنهيات فيكون ذلك من الفائزين، (**وهو في معنى الصوم**) الذي هو منع النفس عن الشهوات (**وهو نوع ترهب، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «رهبانية أمتي القعود في المساجد»**) كذا في القوت. وقال العراقي: لم أجد له أصلاً.

(**ورابعها: عكوف الهم على الله**) بأن لا يخطر بقلبه غير الله (**ولزوم السر**) وهو باطن القلب (**للفكر في**) أمور (**الآخرة ودفع الشواغل الصارفة عنه بالاعتزال إلى المسجد**) فيكون بذلك من الأقربين.

وخامسها : التجرّد لذكر الله أو لاستماع ذكره وللتذكر به كما روي في الخبر : « من غدا إلى المسجد ليذكر الله تعالى أو يذكر به كان كالمجاهد في سبيل الله تعالى » .

وسادسها : أن يقصد إفادة العلم بأمر بمعروف ونهي عن منكر ، إذ المسجد لا يخلو عمن يسيء في صلاته أو يتعاطى ما لا يحل له فيأمره بالمعروف ويرشده إلى الدين فيكون شريكاً معه في خيره الذي يعلم منه فتتضاعف خيراته.

وسابعها : أن يستفيد أخاً في الله فإن ذلك غنيمة وذخيرة للدار الآخرة والمسجد معشش أهل الدين المحبين لله وفي الله .

(**وخامسها : التجرد لذكر الله**) تعالى إن أمكنه (**أو لاستماع ذكره وللتذكر به**) فيكون بذلك من المرحومين المجاهدين (**كما روي في الخبر « من غدا إلى المسجد يذكر الله تعالى أو يذكر به كان كالمجاهد في سبيل الله تعالى »**) كذا في القوت . قال العراقي : هو معروف من قول كعب الأحبار رويناه في جزء ابن طوق ، وللطبراني في الكبير من حديث أبي أمامة « من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيراً أو يعلمه كان كأجر حج تام » وإسناده جيد . وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة « من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له في الجنة منزلاً كلما غدا أو راح » اهـ .

قلت : لفظ حديث أبي أمامة عند الطبراني « من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيراً أو يعلمه كان كأجر معتمر تام العمرة ، ومن راح إلى المسجد لا يريد إلا ليتعلم خيراً أو يعلمه فله أجر حاج تام الحجة » . وقد رواه كذلك الحاكم وصاحب الحلية وابن عساكر والضياء ، وربما يشهد لما أورده المصنف ما رواه الشيخ من حديث الزبير « من جلس من حين يصلي المغرب يذكر الله حتى يصلي العشاء كان مجلسه ذلك روضة في سبيل الله ، ومن جلس حين يصلي الغداة يذكر الله حتى تطلع الشمس كانت مثل غدوة في سبيل الله عز وجل » . قال صاحب القوب : ومثل ذل إذا جلس ليعلم علماً ويتعلمه كان أيضاً كالمجاهد في سبيل الله .

(**وسادسها : أن يقصد إفادة علم بأمر بمعروف ونهي عن منكر إذ المسجد لا يخلو عمن يسيء في صلاته**) بإخلال شيء من أركانها وواجباتها وسننها وآدابها ، (**أو يتعاطى ما لا يحل له فيأمره بالمعروف**) وينهاه عن المنكر ، (**ويرشده إلى الدين فيكون شريكاً معه في خيره الذي يعلم منه فتتضاعف خيراته**) ، فيكون بذلك من خير أمة . وقد وردت في الأمر بالمعروف وإرشاد الضال والهداية أخبار كثيرة مر ذكرها في مواضعها .

(**وسابعها : أن يستفيد أخاً في الله**) عز وجل (**فإن ذلك غنيمة وذخيرة للدار الآخرة**) وقد تقدم ما يتعلق بذلك في كتاب الصحبة والأخوة ، (**والمسجد معشش أهل الدين المحبين لله وفي الله**) أي مظنة وجودهم فيه ، فإنه محل أهل الله الصالحين وعشهم فيكون ممن يحق له صحبة الله ويكون في ظاله يوم لا ظل إلا ظله .

وثامنها: أن يترك الذنوب حياء من الله تعالى وحياء من أن يتعاطى في بيت الله ما يقتضي هتك الحرمة، وقد قال الحسن بن علي رضي الله عنهما: من أدمن الاختلاف إلى المسجد رزقه الله إحدى سبع خصال: أخاً مستفاداً في الله، أو رحمة مستنزلة، أو علماً مستظرفاً، أو كلمة تدله على هدى، أو تصرفه عن ردى، أو يترك الذنوب خشية أو حياء، فهذا طريق تكثير النيات، وقس به سائر الطاعات والمباحات إذ ما من طاعة إلا وتحتمل نيات كثيرة، وإنما تحضر في قلب العبد المؤمن بقدر جده في طلب الخير وتشمّره له وتفكره فيه. فبهذا تزكو الأعمال وتتضاعف الحسنات.

(**وثامنها: أن يترك الذنوب حياء من الله تعالى وخشية**) أي خوفاً (**من أن يتعاطى في بيت**) من بيوت (**الله ما يقتضي هتك الحرمة**) وذلك من تقوى القلوب، وقد يكون ترك الذنوب لا من باب الحياء بل من باب الخشية من عذاب الله تعالى لو تعاطى شيئاً من المخالفات في المساجد، (**وقال الحسن بن علي رضي الله عنهما: من أدمن الاختلاف إلى المسجد رزقه الله إحدى سبع خصال: أخاً مستفاداً في الله، أو رحمة مستنزلة، أو علماً مستطرفاً، أو كلمة تدله على هدى، أو تصرفه عن ردى، أو يترك الذنوب خشية أو حياء**) منه. نقله صاحب القوت.

قلت: وهذا روي مرفوعاً من حديثه رواه الطبراني في الكبير وابن عساكر من طريق سعد بن طريف عن عمير بن المأمون عن الحسن بن علي، وعمير لا شيء وسعد متروك. (**فهذا طريق تكثير النيات وقس به سائر الطاعات والمباحات إذ ما من طاعة إلا وتحتمل نيات كثيرة، وإنما تحضر في قلب العبد المؤمن بقدر جده في طلب الخير والتشمر له وتفكره فيه، فبهذا تزكو الأعمال وتتضاعف الحسنات**) وهي طريقة العلماء الذين تفردوا لذكر الله لا يعرفها غيرهم قد وضع الذكر عنهم أوزارهم فوردوا القيامة خفافاً.

الضرب الثاني: في مضاعفة الفضل، لم يشر إليه المصنف وهو لا بد من ذكره، وذلك أنه قد تقدم أن الجزاء في الآخرة على قدر النيات، وتقدم أن النية تتبع المعرفة، والمعرفة تتبع الغرض المطلوب وتمهد في الشريعة أن الجزاء الواقع في الآخرة موازن لأعمال العباد ومناسب له، كما ورد: أن الصائمين يدخلون الجنة من باب الريان، وأن المنافقين في الدرك الأسفل من النار، وأن المتكبرين على صور الذر، وأمثال هذا لا تنحصر، فإذا حققت أن العبد إذا لم يقصد بعلمه إلا امتثال أمر الله حياء منه وتعظيماً لجلاله وكبريائه وكماله في ذاته وصفاته وجميع أفعاله، وأنه المستحق لذلك بصفات الألوهية على عباده، كان ذلك مع أفضل النيات وأشرف القربات، وأثابه الله ما يناسب حسن معرفته وقصده من النظر إلى وجهه جل سبحانه، ومن ضعفت بصيرته عن ذروة الكمال حتى لم يعرف من شهادة الآخرة إلا اللذات الحسية دل عليه أنه لم يعرف من نعيم الجنان إلا أقل المراتب وأخفض المنازل، فإذا قصد بطاعته ذلك صحت نيته ونقصت عن درجات الكمال مع صحتها في نفسها، فإن الإنسان يطلق عليه الصحة والحياة وهو فاقد لجميع المحاسن المكملة لصورة الرجال.

القسم الثالث المباحات:

وما من شيء من المباحات إلا ويحتمل نية أو نيات يصير بها من محاسن القربات وينال بها معالي الدرجات، فما أعظم خسران من يغفل عنها ويتعاطاها تعاطي البهائم المهملة عن سهو وغفلة، ولا ينبغي أن يستحقر العبد شيئاً من الخطرات والخطوات واللحظات فكل ذلك يسأل عنه يوم القيامة، إنه لم فعله وما الذي قصد به؟ هذا في مباح محض لا يشوبه كراهة ولذلك قال ﷺ: «حلالها حساب وحرامها عقاب». وفي حديث معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال: «إن العبد ليُسأل يوم القيامة عن كل شيء حتى

(القسم الثالث: المباحات: وما من شيء من المباحات إلا ويحتمل نية أو نيات يصير بها من محاسن القربات وينال به معالي الدرجات)، كما روي عن بشر الحافي رحمه الله تعالى أنه رؤي ماشياً في طريق الحج فسئل عن ذلك؟ فقال: أريح الجمل وأسر الجمال. قال العراقي في شرح التقريب: كما اشترطوا النية في العبادة اشترطوا في تعاطي ما هو مباح في نفس الأمر أن لا تكون معه نية تقتضي تحريمه كمن جامع امرأته أو أمته ظاناً أنها أجنبية، أو شرب شراباً مباحاً وهو ظان أنه خمر، أو قدم على استعمال ملكه وهو ظان أنه لأجنبي ونحو ذلك فإنه يحرم عليه تعاطي ذلك اعتباراً بنيته وإن كان مباحاً له في نفس الأمر، غير أن ذلك لا يوجب حداً ولا ضماناً لعدم التعدي في نفس الأمر، بل زاد بعضهم على هذا بأنه لو تعاطى شرب الماء وهو يعلم أنه ماء ولكنه على صورة استعمال الحرام كشربه في آنية الخمر في صورة مجلس الشراب صار حراماً لشبهه بالشربة، وإن كانت النية لا يتصور وقوعها على الحرام مع العلم بحله ونحوه لو جامع أهله وهو في ذهنه مجامعة من تحرم عليه، وصور في ذهنه أنه يجامع تلك الصورة المحرمة فإنه يحرم عليه ذلك وكل ذلك، لشبهه بصورة الحرام اهـ.

(فما أعظم خسران من يغفل عنها ويتعاطاها تعاطي البهائم المهملة عن سهو وغفلة) وما أعظم حسرته، **(ولا ىنبغي أن يستحقر العبد شيئاً من الخطوات والخطرات واللحظات، فكل ذلك يسأل عنه يوم القيامة انه لم فعله وما الذي قصد به؟ هذا في مباح محض لا تشوبه كراهة، ولذلك قال ﷺ «حلالها حساب وحرامها عقاب»)** قد تقدم للعراقي أنه لم يجده يعني مطلقاً مرفوعاً، وقد رواه ابن أبي الدنيا، والبيهقي في الشعب من طريقه عن علي موقوفاً بلفظ «وحرامها النار» وسنده منقطع. وقد روي من حديث ابن عباس عند الديلمي بلفظ «يا ابن آدم الدنيا حلالها حساب وحرامها عقاب» ومن حديث أنس عند الحاكم في أثناء الحديث «أف للدنيا وما فيها من البليات حلالها حساب وحرامها عقاب».

(وفي حديث معاذ بن جبل) رضي الله عنه **(أن النبي ﷺ قال «إن العبد ليسأل يوم**

عن كحل عينيه وعن فتات الطينة بإصبعه وعن لمسه ثوب أخيه ». وفي خبر آخر: « من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك ومن تطيب لغير الله تعالى جاء يوم القيام وريحه أنتن من الجيفة »، فاستعمال الطيب مباح ولكن لا بد فيه من نية.

فإن قلت: فما الذي يمكن أن ينوي بالطيب وهو حظ من حظوظ النفس وكيف يتطيب لله؟ فاعلم أن من يتطيب مثلاً يوم الجمعة وفي سائر الأوقات يتصوّر أن يقصد التنعم بلذات الدنيا، أو يقصد به إظهار التفاخر بكثرة المال ليحسده الأقران، أو يقصد به رياء الخلق ليقوم له الجاه في قلوبهم ويذكر بطيب الرائحة، أو ليتودد به إلى قلوب النساء الأجنبيات إذا كان مستحلاً للنظر إليهن، ولأمور أخر لا تحصى، وكل هذا يجعل التطيب معصية فبذلك يكون أنتن من الجيفة في القيامة إلا القصد الأوّل وهو التلذذ والتنعم فإن ذلك ليس بمعصية إلا أنه يُسأل عنه، ومن نوقش الحساب عذب، ومن أتي

القيامة عن كل شيء حتى عن كحل عينيه وعن فتات الطينة بأصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه ») نقله صاحب القوت. وقال العراقي: لم أجد له إسناداً.

قلت: بل رواه أبو نعيم في الحلية بلفظ « يا معاذ إن المؤمن لدى الحق أستر » وساق الحديث بتمامه وفيه « يا معاذ إن المؤمن ليسأل يوم القيامة عن جميع سعيه حتى عن كحل عينيه » الحديث.

(وفي خبر آخر « من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك، ومن تطيب لغير الله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة ») تقدم قريباً أنه من مرسل عبدالله بن أبي طلحة رواه أبو الوليد الصفار في كتاب الصلاة.**(فاستعمال الطيب مباح ولكن لا بد فيه من نية)**.

(فإن قلت: فما الذي يمكن أن ينوي بالطيب وهو حظ من حظوظ النفس وكيف يتطيب لله؟ فاعلم أن من يتطيب مثلاً يوم الجمعة وفي سائر الأوقات يتصور أن يقصد التنعم بلذات الدنيا، أو يقصد به إظهار التفاخر بكثرة المال لتحسده أقرانه) ولداته، فإنه لا يتنبه الإنسان لشراء الطيب إلا من فاضل المال بعد التفرغ من الحوائج الضرورية، ويدل ذلك على الكثرة، **(أو يقصد به رياء الخلق ليقوم له الجاه في قلوبهم)** فيملكها بذلك، **(ويذكر بطيب الرائحة، أو ليتودد به إلى قلوب النساء الأجنبيات إذا كان مستحلاً للنظر إليهن ولأمور أخر لا تحصى، وكل هذا يجعل التطيب معصية، فبذلك يكون أنتن من الجيفة في القيامة)** لأن روائح المعاصي هكذا توجد هناك **(إلا القصد الأول وهو التلذذ والتنعم، فإن ذلك ليس بمعصية إلا أنه يسأل عنه، ومن نوقش الحساب عذب)**. رواه الشيخان من

شيئا من مباح الدنيا لم يعذب عليه في الآخرة ولكن ينقص من نعيم الآخرة له بقدره، وناهيك خسراناً بأن يستعجل ما يفنى ويخسر زيادة نعيم لا يفنى. وأما النيات الحسنة فإنه ينوي به اتباع سنة رسول الله ﷺ يوم الجمعة. وينوي بذلك أيضاً تعظيم المسجد واحترام بيت الله فلا يرى أن يدخله زائراً لله إلا طيب الرائحة، وأن يقصد به ترويح جيرانه ليستريحوا في المسجد عند مجاورته بروائحه، وأن يقصد به دفع الروائح الكريهة عن نفسه التي تؤدي إلى إيذاء مخالطيه، وأن يقصد حسم باب الغيبة عن المغتابين إذا اغتابوه بالروائح الكريهة فيعصون الله بسببه، فمن تعرض للغيبة وهو قادر على الاحتراز منها فهو شريك في تلك المعصية كما قيل:

إذا ترحلت عن قوم وقد قـدروا أن لا تفارقهم فالراحلـون هُـمُ

وقال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨] أشار به إلى أن التسبب إلى الشر شر، وأن يقصد به معالجة

حديث عائشة، وعند الطبراني من حديث ابن الزبير «من نوقش المحاسبة هلك» (**ومن أتى شيئاً من مباح الدنيا لم يعذب عليه في الآخرة ولكن ينقص من نعيم الآخرة له بقدره، وناهيك خسراناً بأن يستعجل ما يفنى ويخسر زيادة نعيم لا يفنى**) فهذه النيات السيئة في استعمال الطيب. (**وأما النيات الحسنة، فإنه ينوي به اتباع سنة رسول الله ﷺ**) إذ قد عرف من طريقته كثرة استعمال الطيب في كل وقت خصوصاً (**يوم الجمعة**) فإنه يوم القربة إلى الله تعالى، (**وينوي بذلك أيضاً تعظيم المسجد واحترام بيت الله**) إذ المساجد بيوت الله تعالى (**فلا يرى أن يدخله زائراً لله**) تعالى (**إلا**) وهو (**طيب الرائحة وأن يقصد به ترويح جيرانه**) في الصف (**ليستريحوا في المسجد عند مجاورته بروائحه**) الطيبة، (**وأن يقصد به دفع الروائح الكريهة عن نفسه التي تؤدي إلى إيذاء مخالطيه**) مما يتحصل من الأعراق ولا سيما زمن الصيف، (**وأن يقصد حسم باب الغيبة عن المغتابين إذا اغتابوه بالروائح الكريهة فيعصون الله بسببه، فمن تعرض للغيبة وهو قادر على الاحتراز منها فهو شريك في تلك المعصية كما قيل:**

إذا ترحلت عن قوم وقد قـدروا أن لا تفارقهم فـالـراحلـون هـم

وقال الله تعالى: ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم﴾ أشار به إلى أن السبب إلى الشر شر)، ومن الغريب أن الحافظ العراقي صحف قول المصنف؛ وأما النيات الحسنة بقوله: وأما الثياب الحسنة. وأورد حديث أبي هريرة «من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب إن كان عنده ولبس أحسن ثيابه» الحديث. وحديث عبدالله بن سلام «ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة» الحديث. وحديث عمر في الحلة السيراء وقوله «لو اشتريت

دماغه لتزيد به فطنته وذكاؤه ويسهل عليه درك مهمات دينه بالفكر، فقد قال الشافعي رحمه الله: من طاب ريحه زاد عقله. فهذا وأمثاله من النيات لا يعجز الفقيه عنها إذا كانت تجارة الآخرة وطلب الخير غالبة على قلبه، وإذا لم يغلب على قلبه إلا نعيم الدنيا لم تحضره هذه النيات وإن ذكرت له لم ينبعث لها قلبه فلا يكون معه منها إلا حديث النفس وليس ذلك من النية في شيء والمباحات كثيرة ولا يمكن إحصاء النيات فيها فقس بهذا الواحد ما عداه، ولهذا قال بعض العارفين من السلف: إني لاستحب أن يكون لي في كل شيء نية حتى في أكلي وشربي ونومي ودخولي إلى الخلاء، وكل ذلك مما يمكن أن يقصد به التقرب إلى الله تعالى، لأن كل ما هو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب من مهمات البدن فهو معين على الدين، فمن قصده من الأكل التقوّي على العبادة، ومن

هذه فلبستها يوم الجمعة» فهذه الأخبار وهو صحيح لكنه غير مراد في سياق المصنف فتأمل ذلك وسبحان من لا يسهو، **(وأن يقصد به معالجة دماغه)** أي تقوية جوهره **(ليزيد به فطنته وذكاؤه ويسهل عليه)** بذلك **(درك مهمات دينه بالفكر)** الصحيح، **(فقد)** اتفق الأطباء أن الروائح الطيبة تقوي الدماغ وتصححه، ومن هنا **(قال الشافعي رحمه الله تعالى: من طاب ريحه زاد عقله)** نقل البيهقي وغيره في مناقبه؛ **(فهذا وأمثاله من النيات لا يعجز الفقيه عنها إذا كانت تجارة الآخرة وطلب الخير غالبة على قلبه، وإذا لم يغلب على قلبه إلا نعيم الدنيا لم تحضره هذه النيات وإن ذكرت له لم ينبعث لها قلبه فلا يكون معه منها إلا حديث النفس)** فقط، **(وليس هذا من النية في شيء، والمباحات كثيرة ولا يمكن إحصاء النيات فيها، فقس بهذا الواحد)** الذي ذكرناه سائر **(ما عداه)** مما لم نذكر فإنه لا ينحصر فكل لتتقو على عبادة الله، وثم لتتقوّ على قيام الليل، وتنزه لتستعين على العبادة بكنه الهمة، فإن القلوب إذا أكرهتها عميت فاقتصد في دخولك في عبادة الله فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى.

(ولهذا قال بعض العارفين من السلف: إني لأستحب أن يكون لي في كل شيء نية حتى في أكلي وشربي ونومي ودخولي إلى الخلاء) نقله صاحب القوت هكذا. وفي موضع: إني لأستعد النية في كل شيء قبل الدخول فيه حتى في أكلي ونومي ودخولي الخلاء، والنية في هذا التقوى على الطاعة والاستعانة به على الخدمة لأن النفس مطيتك إن قطعت بها قطعت بك، ونية المتطهر من التخلي لأجل الدين، **(وكل ذلك مما يمكن أن يقصد به التقرب إلى الله تعالى لأن كل ما هو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب من مهمات البدن فهو معين على الدين، فمن قصد من الأكل التقوي على العبادة)** ومن النوم التقوي على قيام الليل **(ومن الوقاع تحصين**

الوقاع تحصين دينه وتطييب قلب أهله والتوصل به إلى ولد صالح يعبد الله تعالى بعده فتكثر به أمة محمد ﷺ كان مطيعاً بأكله ونكاحه، وأغلب حظوظ النفس الأكل والوقاع وقصد الخير بهما غير ممتنع لمن غلب على قلبه هم الآخرة، ولذلك ينبغي أن يحسن نيته مهما ضاع له مال ويقول هو في سبيل الله، وإذا بلغه اغتياب غيره له فليطيب قلبه بأنه سيحمل سيئآته وستنقل إلى ديوانه حسناته، ولينوِ ذلك بسكوته عن الجواب. ففي الخبر: «إن العبد ليحاسب فتبطل أعماله لدخول الآفة فيها حتى يستوجب النار، ثم ينشر له من الأعمال الصالحة ما يستوجب به الجنة فيتعجب ويقول: يا رب هذه أعمال ما عملتها قط؟ فيقال: هذه أعمال الذين اغتابوك وآذوك وظلموك»، وفي الخبر: «إن

دينه) بتحصين فرجه **(ومن الانبساط تطييب قلب أهله)** وإدخال السرور على قلوبهم وغض بصرك وبصر أهلك عن غيرك **(والتوصل به)** أي بالوقاع **(إلى)** تحصيل **(ولد)** صالح **(يعبد الله تعالى بعده)** ويدعو له **(فتكثر به أمة محمد ﷺ)** فتكثر بهم الخيرات، **(كان مطيعاً بأكله ونكاحه)** وكذا بنومه وتنزهه وانبساطه، **(و)** إنما خص بهما لأن **(أغلب حظوظ النفس الأكل والنكاح وقصد الخير بهما غير ممتنع لمن غلب على قلبه هم الآخرة)**، وكذا إن أمر بمعروف بنية امتثال أمر الله تعالى لا لعداوة ولا لغضب وحقد هذا كله في الفعل، **(و)** أما في الترك فإنه **(كذلك ينبغي أن يحسن نيته مهما ضاع له مال)** في بر أو بحر **(ويقول: هو في سبيل الله)** ويترك الطلب ولا يتعلق بأسبابه، وكذا إذا سكت عن منكر فليكن لعجز أو انتظار فرصة لا لغش وعدم نصيحة، وإن ترك تجارة أو كسباً فللتوكل على الله ولفراغ القلب لذكر الله لا للترفع وخوف سقوط المنزلة عند الناس، وكذا عند [1] من الفتوح، وكذا [1] فليترك الحزن عليه ويراعي بقلبه الرضا بقضاء الله تعالى، **(وإذا)** خاصمه مخاصم أو **(بلغه اغتياب غيره فليطيب قلبه)** وليصبر لوجه الله أو لما أعده الله له **(بأنه)** أي المغتاب **(سيحمل سيئآته)** على ظهره **(وستنقل إلى ديوانه حسناته، ولينو ذلك بسكوته عن الجواب)** فإن عجز عن الصبر لوجه الله فالأفضل الدعاء والترحم عليه حتى لا يعرضه لسخط الله وعقابه بسببه فلعل الله أن يعفو على عباده، **(ففي الخبر «إن العبد ليحاسب فتبطل أعماله لدخول الآفة فيها حتى يستوجب النار، ثم ينشر له من الأعمال الصالحة ما يستوجب به الجنة فيتعجب ويقول: يا رب هذه أعمال ما عملتها. فيقال: هذه أعمال الذين اغتابوك وآذوك وظلموك»)**. ولفظ القوت: ومن أوذي أو اغتيب فليحتسب عرضه عند الله تعالى فلعل ذلك يكون سيداً من عمله وسبباً لنجاته، فقد روي في الخبر «إن العبد ليحاسب على أعماله كلها فتبطل بدخول الآفات فيها حتى يستوجب النار ثم تنشر له أعمال من الحسنات لم يكن عملها فيقال: هي أعمال الذين اغتابوك وآذوك جعلت حسناتهم لك» اهـ.

---

(١) هنا بياضان بالأصل.

العبد ليوافي القيامة بحسنات أمثال الجبال لو خلصت له لدخل الجنة فيأتي وقد ظلم هذا وشتم هذا وضرب هذا فيقتص لهذا من حسناته ولهذا من حسناته حتى لا يبقى له حسنة. فتقول الملائكة: قد فنيت حسناته وبقي طالبون فيقول الله تعالى ألقوا عليه من سيئاتهم ثم صكوا له صكاً إلى النار ».

قال العراقي: رواه الديلمي في مسند الفردوس من طريق أبي نعيم من حديث شبيب بن سعد البلوي مختصراً « إن العبد ليلقى كتابه يوم القيامة منتشراً فينظر فيه فيرى حسنات لم يعملها فيقول: هذا لي ولم أعملها، فيقال: بما اغتابك الناس وأنت لا تشعر ». وفيه ابن لهيعة اهـ.

قلت: رواه أبو نعيم في كتاب المعرفة، وكذلك رواه ابن منده من طريق أحمد بن سيار، وراوية شبيب بن سعد بن مالك البلوي قال ابن يونس: له صحبة وشهد فتح مصر وله ذكر في كتاب الفتوح. وقال يحيى بن عثمان بن صالح عن ابن عفير: شهد بيعة الرضوان وفتح مصر ولا تحفظ له رواية كذلك قال وليس كذلك بل له رواية محفوظة كما ذكرنا، واختلف في ضبطه فقيل: هكذا كما أوردناه بالشين والموحدة كأمير، وضبطه الآمدي هكذا إلا أنه قال: وآخره مثلثة، وقيل هو بكسر أوله وسكون التحتية ثم مثناة فوقية والله أعلم.

وقد روي من حديث أبي أمامة نحو من ذلك ولفظه « إن العبد ليعطى كتابه يوم القيامة منشوراً فيرى فيه حسنات لم يعلمها فيقول: رب لم أعمل هذه الحسنات، فيقول: إنها كتبت باغتياب الناس إياك، وإن العبد ليعطى كتابه يوم القيامة منشوراً فيقول: رب ألم أعمل حسنة يوم كذا كذا، فيقال له: محيت عنك باغتيابك الناس » رواه الخرائطي في مساوىء الأخلاق فيه الحسن ابن دينار عن خصيب بن حجدر، فالحسن قال النسائي متروك والخصيب كذبه شعبة والقطان، وروى الحكيم من حديث عمر « يجاء العبد يوم القيامة فتوضع حسناته في كفة وسيئاته في كفة فترجح السيئات فتجيء بطاقة في كفة الحسنات فترجح بها فيقول: يا رب ما هذه البطاقة فما من عمل عملته في ليلي أو نهاري إلا وقد استقبلت به؟ قال: هذا ما قيل فيك وأنت منه بريء فينجو بذلك ».

(وفي الخبر « إن العبد ليوافي القيامة بحسنات أمثال الجبال لو خلصت له لدخل الجنة فيأتي وقد ظلم هذا وشتم هذا وضرب هذا فيقتص لهذا من حسناته ولهذا من حسناته حتى لا يبقى له حسنة، فتقول الملائكة: قد فنيت حسناته وبقي طالبون فيقول الله تعالى: ألقوا عليه من سيئاتهم ثم صكوا له صكاً إلى النار ») كذا في القوت. وروى سمويه في فوائده، وأبو نعيم في الحلية، والخطيب في المتفق والمفترق من حديث سالم مولى أبي حذيفة نحوه بلفظ « ليجاءن يوم القيامة بقوم معهم من الحسنات أمثال جبال تهامة حتى إذا جيء بهم جعل الله أعمالهم هباء ثم قذفهم في النار » الحديث، وقد تقدم في كتاب العجب والرياء، وله أيضاً شاهد من حديث أبي أمامة الذي ذكر قبل هذا. وروى صاحب القوت أيضاً « إن العبد ليرى من أعماله الحسنات ما

وبالجملة، فإياك ثم إياك أن تستحقر شيئاً من حركاتك فلا تحترز من غرورهاوشرورها ولا تعد جوابها يوم السؤال والحساب، فإن الله تعالى مطلع عليك وشهيد ﴿وَما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] وقال بعض السلف: كتبت كتاباً وأردت أن أتربه من حائط جار لي فتحرجت ثم قلت: تراب وما تراب؟ فأتربته فهتف بي هاتف: سيعلم من استخف بتراب ما يلقى غداً من سوء الحساب. وصلى رجل مع الثوري فرآه مقلوب الثوب فعرفه فمد يده ليصلحه. ثم قبضها فلم يسوه، فسأله عن ذلك فقال إني لبسته لله تعالى ولا أريد أن أسويه لغير الله. وقد قال الحسن: إن الرجل ليتعلق بالرجل يوم القيامة فيقول: بيني وبينك الله! فيقول: والله ما أعرفك؟ فيقول بلى أنت أخذت لبنة من حائطي وأخذت خيطاً من ثوبي! فهذا وأمثاله من الأخبار قطع قلوب الخائفين، فإن كنت من أولي العزم والنهي ولم تكن من المغترين

يرجو به المنازل في الجنة فتلقى عليها سيئات لم يعملها فتترجح بحسناته كلها فيستوجب النار، فيقول: يا رب هذه سيئات ما عملتها هلكت بها. فيقال: هذه ذنوب القوم الذين اغتبتهم وآذيتهم وظلمتهم ألقيت عليك وتخلصوا منها».

(**وبالجملة، فإياك ثم إياك**) يا أخي (**أن تستحقر شيئاً من حركاتك**) وسكناتك (**فلا تحترز من غرورها وشرورها ولا تعد جوابها يوم السؤال والحساب فإن الله مطلع عليك وشهيد ﴿وما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾**) فلا تقدم ولا تحجم إلا بنية.(**وقال بعض السلف: كتبت كتاباً وأردت أن أتربه من حائط جار لي فتحرجت**) من ذلك (**ثم قلت: تراب وما تراب**) كأنه استحقر شأنه؛ (**فأتربته فهتف بي هاتف: سيعلم من استخف بتراب ما يلقى غداً من سوء الحساب**) نقله صاحب القوت. (**وصلى رجل مع**) سفيان (**الثوري**) رحمه الله تعالى صلاته وكان قد خرج معه بغلس (**فرآه**) حين أصبح (**مقلوب الثوب**) أي لبس إزاره مقلوباً (**فعرفه**) أي قال له: يا أبا محمد قد لبست ثوباً مقلوباً فأصلحه (**فمد**) سفيان (**يده ليصلحه**) ويسويه، (**ثم قبضها**) أي يده (**فلم يسوه**) أي لم يصلحه وأبقاه على ما كان عليه، (**فسأله عن ذلك**) وقال: ما منعك أن تسويه عليك؟ (**فقال: إني لبسته لله تعالى ولا أريد أن أسويه لغير الله**) عز وجل نقله صاحب القوت. (**وقد قال الحسن**) البصري فيما رواه مبارك عنه: (**إن الرجل ليتعلق بالرجل يوم القيامة فيقول: بيني وبينك الله، فيقول: والله ما أعرفك. فيقول: بلى أنت أخذت لبنة من حائطي**)، وإن الرجل ليتعلق بالرجل فيقول: أنت (**أخذت خيطاً من ثوبي**) ولفظ القوت، فيقول: هذا أخذ من ثوبي زيشيرا؛ (**فهذا وأمثاله من الأخبار**) والآثار (**قطع قلوب الخائفين**) وشرد عنهم الراحة، (**فإن كنت من أولي العزم**) البالغ (**والنهي ولم تكن من المغترين فانظر لنفسك**

فانظر لنفسك الآن ودقق الحساب على نفسك قبل أن يدقق عليك، وراقب أحوالك ولا تسكن ولا تتحرك ما لم تتأمل أوّلاً أنك لم تتحرك، وماذا تقصد، وما الذي تنال به من الدنيا، وما الذي يفوتك به من الآخرة، وبماذا ترجح الدنيا على الآخرة. فإذا علمت أنه لا باعث إلا الدّين فامض عزمك وما خطر ببالك وإلا فامسك، ثم راقب أيضاً قلبك في إمساكك وامتناعك فإن ترك الفعل فعل ولا بدّ له من نية صحيحة، فلا ينبغي أن يكون لداعي هوى خفي لا يطلع عليه، ولا يغرنك ظواهر الأمور ومشهورات الخيرات وافطن للأغوار والأسرار تخرج من حيز أهل الاغترار. فقد روي عن زكريا عليه السلام إنه كان يعمل في حائط بالطين، وكان أجير القوم فقدموا له رغيفاً إذ كان لا يأكل إلا من كسب يده فدخل عليه قوم فلم يدعهم إلى الطعام حتى فرغ، فتعجبوا منه لما علم من سخائه وزهده وظنوا أن الخير في طلب المساعدة في الطعام، فقال: إني أعمل لقوم بالأجرة وقدموا إلي الرغيف لأتقوى به على عملهم، فلو أكلتم معي لم

الآن) وأنت في الدنيا **(ودقق الحساب على نفسك قبل أن يدقق عليك، وراقب أحوالك)** مراقبة من يتحقق باطلاع مولاه عليها، **(ولا تسكن ولا تتحرك ما لم تتأمل أولاً أنك لم تتحرك)** أي لأي شيء حركتك هذه، **(وماذا تقصد)** بهذه الحركة، **(وما الذي تنال به من الدنيا، وما الذي يفوتك به من الآخرة، وبماذا ترجح الدنيا على الآخرة. فإذا علمت أنه لا باعث إلا الدين فامض عزمك)** وقصدك **(وما خطر ببالك، وإلا فامسك ثم راقب أيضاً قلبك في إمساكك وامتناعك فإن ترك الفعل فعل ولا بد له من نية صحيحة، فلا ينبغي أن يكون لداعي هوى خفي)** في النفس **(لا يطلع عليه)** وفي القوت: ولا ينبغي للعبد أن يدخل في كل شيء حتى يعلم علمه فيكون داخلاً في كل عمل بعام مثله، لأن لله في كل شيء حكماً فما علم من ذلك حمد الله عليه عمله، وما جهل سأل عنه من هو أعلم به، وما أشكل عليه أمسك عنه حتى يتبين له وجهه فيقدم عليه أو يتركه، وليكن ما تحرك فيه أو سكن عنه أو توقف عن الإقدام عليه ابتغاء مرضاة الله وتقرباً إليه لأجله فهذا على النيات. **(ولا تغرنك ظواهر الأمور ومشهورات الخيرات وأفطن للأغوار والأسرار، فقد روي)** في بعض الأخبار **(أن زكريا عليه السلام كان يعمل في حائط بالطين، وكان أجير القوم فقدموا إليه)** أي أصحاب الحائط **(رغيفه)** أي غذاءه **(إذ كان لا يأكل إلا من كسب يده)** وقد اشتهر أنه عليه السلام كان نجاراً فلعله أيضاً كان بناء، **(فدخل عليه قوم)** فسلموا عليه **(فلم يدعهم إلى الطعام)** الذي بين يديه **(حتى فرغ)** من الأكل **(فتعجبوا منه)** حيث لم يدعهم إلى الطعام **(لما علموا من سخائه وزهده، وظنوا أن الخير في طلب المساعدة في الطعام)** ففهم عنهم ما قام بذهنهم فاعتذر لهم، **(فقال: إني أعمل لقوم بالأجرة وقد قدموا إلي الرغيف لأتقوى به على**

يكفكم ولم يكفني وضعفت عن عملهم فالبصير هكذا ينظر في البواطن بنور الله، **فإن** ضعفه عن العمل نقص في فرض وترك الدعوة إلى الطعام نقص في فضل ولا حكم للفضائل مع الفرائض وقال بعضهم: دخلت على سفيان وهو يأكل فما كلمني حتى لعق أصابعه ثم قال: لولا أني أخذته بدين لأحببت أن تأكل منه. وقال سفيان: من دعا رجلاً إلى طعامه وليس له رغبة أن يأكل منه فإن أجابه فأكل فعليه وِزران وإن لم يأكل فعليه وزر واحد، وأراد بأحد الوزرين النفاق وبالثاني تعريضه أخاه لما يكره لو علمه. فهكذا ينبغي أن يتفقد العبد نيته في سائر الأعمال فلا يقدم ولا يحجم إلا بنيته، فإن لم تحضره النية توقف فإن النية لا تدخل تحت الاختيار.

عملهم، فلو) دعوتكم إليه و **(أكلتم معي لم يكفكم ولم يكفني و)** كنت قد **(ضعفت عن عملهم)** . ولفظ القوت: وروي عن زكريا عليه السلام أن قوماً دخلوا عليه وكان يعمل في حائط لقوم بالطين، وكان صانعاً يأكل من كد يديه فقدم إليه عندهم رغيفان جعل يأكل ولم يدعهم حتى فرغ، فسألوه عن ذلك لعلمهم بزهده وكرمه فقال: إني أعمل لقوم بأجرة وقربوا إلي هذين الرغيفين لأتقوى بهما على عملهم، فلو أكلتم معي لم يكفكم ولم يكفني وضعفت عن عملهم اهـ.

(فالبصير هكذا ينظر إلى البواطن بنور الله) عز وجل **(فإن ضعفه عن العمل نقص في فرض، وترك الدعوة إلى الطعام نقص في فضل ولا حكم للفضائل مع الفرائض)** . ولفظ القوت؛ فهذا ممن ترك نفلاً لفرض وإن كانت له نية في الترك كما تكون له في الفعل. **(وقال بعضهم: دخلت على سفيان)** ظاهر إطلاقه أن المراد به الثوري وليس كذلك، ففي القوت دخلت على سفيان أبي عاصم وهو سفيان بن عبد الرحمن بن عاصم بن سفيان بن عبدالله الثقفي المكي، روى له النسائي وابن ماجه **(وهو يأكل فما كلمني حتى لعق أصابعه)** أي فرغ من الأكل، **(ثم قال: لولا أني أخذته بدين لأحببت أن تأكل منه)** نقله صاحب القوت، وهذا أيضاً يعرفك النظر إلى البواطن دون الظواهر. **(وقال سفيان)** الثوري رحمه الله تعالى: **(من دعا رجلاً إلى طعامه وليس له رغبة أن يأكل منه)** ولفظ القوت: وليس له نية أن يأكل منه والمعنى ليس له رغبة في إجابته **(فإن أجابه وأكل فعليه وزران وإن لم يأكل)** ولفظ القوت وإن لم يجبه **(فعليه وزر واحد، وأراد بأحد الوزرين النفاق وبالثاني تعريضه أخاه لما يكره لو علمه)** ولفظ المقاصد: وبالثاني أنه أطعم أخاه ما لو علمه لم يأكله. ولفظ القوت: فيصير عليه وزرين مع أكل طعامه بغير نية لتعرضه بالمقت وحمله أخاه على ما يكره إذ لو[1] لما أجابه. **(فهكذا ينبغي أن يتفقد العبد نيته في سائر الأعمال)** والأحوال **(فلا يقدم ولا يحجم)** عن الإقدام **(إلا بنية)** إن كان مريد السعادة الآخرة، **(فإن لم تحضره النية توقف فإن النية لا تدخل تحت الاختيار)** والله الموفق.

---

(١) بياض في الأصل.

بيان أن النية غير داخلة تحت الاختيار :

اعلم أن الجاهل يسمع ما ذكرناه من الوصية بتحسين النية وتكثيرها مع قوله ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات » فيقول في نفسه عند تدريسه أو تجارته أو أكله : نويت أن أدرس لله أو أتجر لله أو آكل لله ، ويظن أن ذلك نية وهيهات فذلك حديث نفس وحديث لسان وفكر أو انتقال من خاطر إلى خاطر ، والنية بمعزل من جميع ذلك . وإنما النية انبعاث النفس وتوجهها وميلها إلى ما ظهر لها أن فيه غرضها إما عاجلاً وإما آجلاً . والميل إذا لم يكن لا يمكن اختراعه واكتسابه بمجرد الإرادة ، بل ذلك كقول الشبعان نـويت أن أشتهي الطعام وأميل إليه ، أو قول الفارغ : نويت أن أعشق فلاناً وأحبه وأعظمه بقلبي ، فذلك محال . بل لا طريق إلى اكتساب صرف القلب إلى الشيء وميله إليه وتوجهه نحوه إلا باكتساب أسبابه وذلك مما قد يقدر عليه وقد لا يقدر عليه . وإنما تنبعث النفس إلى الفعل إجابة للغرض الباعث الموافق للنفس الملائم لها ، وما لم يعتقد الإنسان أن غرضه منوط بفعل من الأفعال فلا يتوجه نحوه قصده . وذلك مما لا يقدر على اعتقاده في كل حين ، وإذا اعتقد فإنما يتوجه القلب إذا كان فارغاً غير مصروف

بيان أن النية غير داخلة تحت الاختيار :

(**اعلم**) هداك الله تعالى (**أن الجاهل**) قد (**يسمع ما ذكرناه من الوصية بتحسين النية وتكثيرها مع**) سماع (**قوله** ﷺ « **إنما الأعمال بالنيات** ») فيحدث نفسه بذلك (**فيقول في نفسه عند تدريسه أو تجارته أو أكله**) مثلاً : (**نويت أن أدرس لله أو أتجر لله أو آكل لله ، ويظن أن ذلك نية**) وكذا في كل حركة وسكون من حركاته وسكناته . (**وهيهات! فذلك** حديث نفس أو حديث لسان أو) حديث (فكر أو انتقال من خاطر إلى خاطر) لا ثواب فيـه ، (**والنية بمعزل عن جميع ذلك . وإنما**) حقيقة (**النية انبعاث النفس وتوجهها وميلها إلى ما ظهر لها أن فيه غرضها**) أي انصراف الداعية إلى الغرض المطلوب (**إما عاجلاً أو آجلاً**) وذلك لا يكون إلا بحسب الهمة وقوة الإيمان وغلبة حب الله تعالى والآخرة ، (**والميل إذا لم يكن لا يمكن اختراعه واكتسابه بمجرد الإرادة بل ذلك كقول الشبعان: نويت**) أن أشتهي (**الطعام وأميل إليه، أو قول الفارغ**) البال عن العشق (**نويت أن أعشق فلاناً وأحبه وأعظمه بقلبي فذلك محال بل لا طريق إلى اكتساب صرف القلب إلى الشيء وميله إليه وتوجهه نحوه إلا باكتساب أسبابه ، وذلك مما قد يقدر عليه وقد لا يقدر عليه ، وإنما تنبعث النفس إلى الفعل إجابة للغرض الباعث الموافق للنفس الملائم لها ، وما لم يعتقد الإنسان أن غرضه منوط بفعل من الأفعال فلا يتوجه نحوه قصده وذلك مما لا يقدر على اعتقاده في كل حين ، وإذا اعتقد فإنما يتوجه القلب إذا كان فارغاً غير مصروف عنه بغرض شاغل**

عنه بغرض شاغل أقوى منه وذلك لا يمكن في كل وقت، والدواعي والصوارف لها أسباب كثيرة بها تجتمع، ويختلف ذلك بالأشخاص وبالأحوال وبالأعمال. فإذا غلبت شهوة النكاح مثلاً ولم يعتقد غرضاً صحيحاً في الولد ديناً ولا دنيا لا يمكنه أن يواقع على نية الولد بل لا يمكن إلا على نية قضاء الشهوة، إذ النية هي إجابة الباعث ولا باعث إلا الشهوة، فكيف ينوي الولد؟ وإذا لم يغلب على قلبه أنّ إقامة سنة النكاح اتباعاً لرسول الله ﷺ يعظم فضلها لا يمكن أن ينوي بالنكاح اتباع السنة إلا أن يقول ذلك بلسانه وقلبه، وهو حديث محض ليس بنية. نعم طريق اكتساب هذه النية مثلاً أن يقوّي أوّلاً إيمانه بالشرع ويقوّي إيمانه بعظم ثواب من سعي في تكثير أمة محمد ﷺ، ويدفع عن نفسه جميع المنفرّات عن الولد من ثقل المؤونة وطول التعب وغيره، فإذا فعل ذلك ربما انبعث من قلبه رغبة إلى تحصيل الولد للثواب فتحركه تلك الرغبة وتتحرك أعضاؤه لمباشرة العقد، فإذا انتهضت القدرة المحركة للسان بقبول العقد طاعة لهذا الباعث الغالب على القلب كان ناوياً، فإن لم يكن كذلك فما يقدّره في نفسه ويردّده في قلبه من

أقوى منه وذلك لا يمكن في كل وقت، والدواعي والصوارف لها أسباب كثيرة بها تجتمع) فمن تكسب النية ولم يتكسبها بأسبابها فقد فوت حظه من الله تعالى، **(ويختلف ذلك بالأشخاص والأحوال وبالأعمال، فإذا غلبت شهوة النكاح مثلاً)** وأقلقه الشبق **(ولم يعتقد غرضاً صحيحاً في الولد ديناً ولا دنيا لا يمكنه أن يواقع)** أي يجامع **(على نية الولد)** أي لا يتصور فيه وجود هذه النية أصلاً، **(بل لا يمكن إلا على نية قضاء الشهوة)** فقط **(إذ النية هي إجابة الباعث ولا باعث إلا الشهوة، فكيف ينوي الولد؟ وإذا لم يغلب على قلبه** أن إقامة سنة **النكاح اتباعاً لرسول الله ﷺ)** حيث كان محبوباً إليه **(يعظم فضله لا يمكن أن ينوي بالنكاح اتباع السنة إلا أن يقول ذلك بلسانه وقلبه وهو حديث محض ليس بنية)** لفقدان حقيقتها. **(نعم طريق اكتساب هذه النية مثلاً أن يقوي أولاً إيمانه بالشرع أي بالله واليوم الآخر وما أعده)** الله فيه من المثوبات والعقوبات المرتبة على الطاعة والمعصية، **(ويقوي إيمانه بعظم ثواب من سعي في تكثير)** سواد **(أمة محمد ﷺ)** وانصرفت الدواعي المضادة لذلك، **(ويدفع عن نفسه جميع المنفرات عن الولد)** وشطرات النكاح **(من ثقل المؤنة وطول التعب وغيره)** ويتذكر الفضائل الواردة في فضل النكاح لأجل الولد وفضل توليته وتعليمه الخير، **(فإذا فعل ذلك ربما انبعث من قلبه رغبة إلى تحصيل الولد للثواب فتحركه تلك الرغبة وتتحرك أعضاؤه لمباشرة العقد، فإذا انتهضت القدرة المحركة للسان بقبول العقد طاعة لهذا الباعث الغالب على القلب كان ناوياً فإن لم يكن كذلك فما يقدره في نفسه ويردده في قلبه من قصد الولد وسواس وهذيان)**، وكذا كل غرض شرعي

قصد الولد وسواس وهذيان ولهذا امتنع جماعة من السلف من جملة من الطاعات إذ لم تحضرهم النية وكانوا يقولون ليس تحضرنا فيه نية، حتى أن ابن سيرين لم يصل على جنازة الحسن البصري. وقال ليس تحضرني نية. ونادى بعضهم امرأته وكان يسرح شعره أن هات المدري، فقالت: أجيء بالمرآة؟ فسكت ساعة ثم قال: نعم، فقيل له في ذلك فقال: كان لي في المدري نية ولم تحضرني في المرآة نية فتوقفت حتى هيأها الله تعالى. ومات حماد بن سليمان وكان أحد علماء أهل الكوفة فقيل للثوري: ألا تشهد جنازته؟

ورد الشرع بفضله وله صوارف من جهة النفس والهوى كمن دخل في صوم نفل ثم أمره أبواه أو أحد من إخوانه بالإفطار، فأراد أن يفطر لإدخال السرور على قلب الوالدين فما دامت شهوة الطعام تزاحمه لا تصح نيته، فإن أفطر لاعتقاده أنه عامل لله فعلامة صحتها تصغير اللقمة وقصر اليد وعدم الشره في الباطن والقيام قبل الشبع، وما من حالة من الحالات إلا ويتقدمها أسباب يكتسب بها وتتأخر عنها علامات يعرف بها صحتها، فليطلب علم كل حال من موضعه، وقد ذكرنا ما يحسم خواطر النفس والهوى في كتاب الصبر والخوف والرجاء فاجمع بين ما ذكرنا وبين ذكر الفضيلة المرغوب فيها فعند ذلك تحصل النية بهذا الطريق، فافهم ذلك إن كنت من أهله وإلا فدع عنك الدعوى لمقامات الرجال والزم الذل والتواضع لهم والمحبة عسى ببركتهم تحشر معهم.

(ولذا امتنع جماعة من السلف من جملة من الطاعات إذا لم تحضرهم النية كانوا) يتعللون و **(يقولون: ليس تحضرنا فيه نية)** وهم معذورون إذا لم يقدروا على كسبها، **(حتى)** روي **(أن ابن سيرين)** وهو محمد بن سيرين الأنصاري أبو بكر بن أبي عمرة البصري، وأبوه سيرين مولى أنس بن مالك إمام ثقة مأمون وأخوته تابعيون ثقاة، ولد لسنتين من خلافة عثمان **(لم يصل على جنازة الحسن البصري وقال: ليس تحضرني نية)** ولفظ القوت: مات الحسن فلم يحضر ابن سيرين جنازته فسئل عن ذلك؟ فقال: لم تكن لي نية اهـ.

قال حماد بن زيد: مات الحسن في أول يوم من رجب سنة عشر ومائة، ومات ابن سيرين لتسع مضين من شوال في السنة المذكورة، وقال ابن حبان: مات ابن سيرين بعد الحسن بمائة يوم وهو ابن سبع وسبعين سنة.

(ونادى بعضهم امرأته وكان) فوق سطح **(يسرح شعره أن هات المدري)** ليفرق به شعره **(فقالت: أجيء بالمرآة فسكت ساعة ثم قال: نعم، فقيل له في ذلك)** أي قال له من سمعه لأي شيء سكت وتوقفت عن المرآة؟ **(فقال: كان لي في)** قولي هات **(المدري نية، و)** لما قالت أجيء بالمرآة **(لم تحضرني في المرآة فتوقفت حتى هيأها الله تعالى)** فقلت نعم جيء بها نقله صاحب القوت.

(ومات) أبو إسماعيل **(حماد بن أبي سليمان)** الأشعري مولاهم واسم أبي سليمان مسلم،

فقال: لو كان لي نية لفعلت. وكان أحدهم إذا سئل عملاً من أعمال البر. يقول: إن رزقني الله تعالى نية فعلت. وكان طاوس لا يحدّث إلا بنية، وكان يسأل أن يحدّث فلا يحدّث، ولا يُسأل فيتبدىء! فقيل له: في ذلك قال: أفتحبون أن أحدّث بغير نية، إذا حضرتني نية فعلت. وحكي أن داود بن المحبّر لما صنّف كتاب العقل، جاءه أحمد بن حنبل فطلبه منه فنظر فيه أحمد صفحاً ورده فقال: ما لك؟ قال: فيه أسانيد ضعاف، فقال له داود: أنا لم أخرجه على الأسانيد، فأنظر فيه بعين الخبر إنما نظرت فيه بعين العمل فانتفعت، قال أحمد: فرده حتى أنظر فيه بالعين التي نظرت فأخذه ومكث عنده طويلاً ثم قال: جزاك الله خيراً فقد انتفعت به. وقيل لطاوس: ادع لنا! فقال: حتى أجد له نية. وقال بعضهم: أنا في طلب نية لعيادة رجل منذ شهر فما صحت لي

(**وكان أحد علماء الكوفة**) فقيه صدوق، روى له البخاري في الأدب المفرد ومسلم والأربعة، مات سنة عشرين أو قبلها، (**فقيل للثوري**) سفيان: (**ألا تشهد جنازته؟ فقال: لو كان لي نية لفعلت**) نقله صاحب القوت. (**وكان أحدهم إذ سئل عملاً من أعمال البر فقال: إن رزقني الله تعالى نية فعلت**) ولفظ القوت: وكان العلماء إذا سئلوا عن عمل شيء أو سعي فيه يقولون: إن رزقنا الله نية فعلنا ذلك. (**وكان طاوس**) بن كيسان اليماني رحمه الله تعالى (**لا يحدث إلا بنية، وكان يسأل أن يحدث ولا يسأل فيبتدىء فقيل له في ذلك، قال: أفتحبون أن أحدث بغير نية إذا حضرتني نية فعلت. وحكي أن**) أبا سليمان (**داود بن المحبر**) بن حزم الثقفي البكراوي البصري نزيل بغداد متروك. قال ابن حبان: كان يضع الحديث على الثقات، مات سنة ست ومائتين، روى له أبو داود في كتاب القدر، وابن ماجه وقد تقدم له ذكر وترجمة في آخر كتاب العلم (**لما صنف كتاب العقل**) وهو كتاب صغير الحجم يذكر فيه فضائل العقل وما ورد فيها من الأخبار والآثار، وقد تقدم الكلام على هذا الكتاب أيضاً في أواخر كتاب العلم. وقال الحافظ في التهذيب: إن أكثره موضوعات. (**جاءه**) الإمام (**أحمد بن حنبل**) رحمه الله تعالى (**فطلبه منه فنظر فيه**) أحمد (**صفحاً**) بالضم أي تصفحه كله (**فرده**) إليه (**فقال**) ابن المحبر: (**مالك قال: فيه أسانيد ضعاف، فقال داود: أنا لم أخرجه على الأسانيد فانظر فيه بعين الخبر**) بالضم أي الاختبار (**إنما نظرت فيه بعين العمل فانتفعت به. قال أحمد: فرده علي حتى أنظر فيه بالعين التي نظرت**) بها فرده عليه (**فأخذه ومكث عنده**) زماناً (**طويلاً**) حتى اقتضاه إياه ابن المحبر فرده عليه (**ثم قال: جزاك الله خيراً فقد انتفعت به**) منفعة بينة. نقله صاحب القوت فدل ذلك على أن النيات قد تختلف لاختلاف المقاصد فيصير بعداً ما كان قرباً بحسن النية وما كان حسناً سيئاً لسوء النية به. (**وقيل لطاوس**) اليماني رحمه الله تعالى: (**ادع لنا. قال: حتى أجد له نية**) رواه ابن المبارك في الزهد من طريق داود بن شابور قال: قلنا لطاوس: ادع بدعوات. فقال: لا أجد لذلك حسبة أي نية. وروى ابن أبي شيبة من هذا

بعد. وقال عيسى بن كثير: مشيت مع ميمون بن مهران فلما انتهى إلى باب داره انصرفت فقال ابنه: ألا تعرض عليه العشاء؟ قال: ليس من نيتي. وهذا لأن النية تتبع النظر فإذا تغير النظر تغيرت النية، وكانوا لا يرون أن يعملوا عملاً إلا بنية لعلمهم بأن النية روح العمل وأن العمل بغير نية صادقة رياء وتكلف وهو سبب مقت لا سبب قرب، وعلموا أن النية ليست هي قول القائل بلسانه: نويت، بل هو انبعاث القلب يجري مجرى الفتوح من الله تعالى، فقد تتيسر في بعض الأوقات وقد تتعذر في بعضها، نعم من كان الغالب على قلبه أمر الدين تيسر عليه في أكثر الأحوال إحضار النية للخيرات فإن قلبه مائل بالجملة إلى أصل الخير فينبعث إلى التفاصيل غالباً. ومن مال قلبه إلى الدنيا وغلبت عليه لم يتيسر له ذلك بل لا يتيسر له في الفرائض إلا بجهد

الطريق قال: قال رجل لطاوس: ادع الله لنا. قال: ما أجد لقلبي حسبة فأدعو لك أي نية. **(وقال بعضهم أنا في طلب نية لعيادة رجل منذ شهر فما صحت لي بعد)** وهذا لصعوبة اكتساب النية، ولهذا قال يوسف بن اسباط: تخلص النية من فسادها أشد على العاملين من طول الاجتهاد.

(وقال) ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت، حدثنا أبو كريب، حدثنا خلف بن حبان، حدثنا **(عيسى بن كثير)** الأسدي الرقي قال: **(مشيت مع ميمون بن مهران)** الجزري كاتب عمر ابن عبد العزيز إمام جليل ثقة روى له الجماعة إلا البخاري، ففي الأدب المفرد حتى أتى باب داره ومعه ابنه عمرو، **(فلما انتهى إلى باب داره انصرف فقال)** له **(ابنه)** لما رأى انصرافي وابنه هذا هو عمرو بن ميمون بن مهران الجزري أبو عبدالله وأبو عبد الرحمن سبط سعيد بن جبير ثقة فاضل، روى له الجماعة مات سنة سبع وأربعين: يا أبت **(ألا تعرض عليه العشاء؟ قال: ليس)** ذلك **(من نيتي وهذا لأن النية تتبع النظر فإذا تغير النظر تغيرت النية. وكانوا لا يرون أن يعملوا عملاً إلا بنية)** لأنهم كانوا يستحبون أن تكون لهم في كل شيء نية، حتى قال الفضيل بن عياض: لا نتحدث إلا بنية **(لعلمهم بأن النية روح العمل)** فلا يصح بقاؤه بدونها، **(وأن العمل بغير نية صادقة رياء وتكلف وهو سبب مقت)** أي بعد عن الله تعالى **(لا سبب قرب، وعلموا أن النية ليس هي قول القائل بقلبه: نويت)** ولا قوله كذلك بلسانه، **(بل هو انبعاث القلب)** للغرض المطلوب **(يجري مجرى الفتوح من الله)** تعالى، **(فقد تتيسر في بعض الأوقات وقد تتعذر في بعضها)** إذ ليست داخلة تحت الاختيار. **(نعم من كان الغالب على قلبه أمر الدين)** والنظر إلى الآخرة (**تيسر عليه في أكثر الأحوال**)والأوقات **(إحضار النية للخيرات، فإن قلبه مائل بالجملة إلى أصل الخير فينبعث)** لذلك **(إلى التفاصيل غالباً، ومن مال قلبه إلى الدنيا وغلبت عليه)** وقصر نظره عليها **(لم يتيسر له ذلك بل لا يتيسر له في الفرائض إلا بجهد جهيد)** لاشتغال باطنه بأمور الدنيا، **(وغايته أن يتذكر**

جهيد ، وغايته أن يتذكر النار ويحذر نفسه عقابها أو نعيم الجنة ويرغب نفسه فيها فربما ينبعث له داعية ضعيفة [لا مسكة لها] فيكون ثوابه بقدر رغبته ونيته . وأما الطاعة على نية إجلال الله تعالى لاستحقاقه الطاعة والعبودية فلا تتيسر للراغب في الدنيا ، وهذه أعز النيات وأعلاها ، ويعز على بسيط الأرض من يفهمها فضلاً عمن يتعاطاها . ونيات الناس في الطاعات أقسام : إذ منهم من يكون عمله إجابة لباعث الخوف فإنه يتقي النار . ومنهم من يعمل إجابة لباعث الرجاء وهو الرغبة في الجنة وهذا وإن كان نازلاً بالإضافة إلى قصد طاعة الله وتعظيمه لذاته ولجلاله لا لأمر سواه ، فهو من جملة النيات الصحيحة لأنه ميل إلى الموعود في الآخرة وإن كان من جنس المألوفات في الدنيا ، وأغلب البواعث باعث الفرج والبطن وموضع قضاء وطرهما الجنة ، فالعامل لأجل الجنة عامل لبطنه وفرجه كالأجير السوء ودرجته درجة البله وإنه لينالها بعمله إذ أكثر أهل الجنة البله . وأما عبادة ذوي الألباب فإنها لا تجاوز ذكر الله تعالى والفكر فيه حباً لجماله وجلاله وسائر الأعمال تكون مؤكدات وروادف ، وهؤلاء أرفع درجة من الالتفات إلى

النار ويحذر نفسه عقابها أو) يتذكر **(نعيم الجنة ويرغب نفسه فيها فربما تنبعث له داعية ضعيفة لا مسكة لها فيكون ثوابه بقدر رغبته ونيته)** وبقدر خوفه وتحذيره . **(وأما الطاعة على نية إجلال الله تعالى لاستحقاقه الطاعة والعبودية)** وإعطاء مقام الربوبية ما يستحقه **(فلا يتيسر للراغب في الدنيا)** لأنه عنه بمعزل ، **(وهذه أعز النيات وأعلاها ، ويعز من يفهمها فضلاً عمن يتعاطاها)** يعني الطاعة لامتثال أمر الله حياء منه وتعظيماً لجلاله وكبريائه وكماله في ذاته وصفاته وجميع أفعاله ، وأنه المستحق لذلك بصفات ألوهيته على عباده . **(ونيات الناس في الطاعات أقسام : إذ منهم من يكون عمله إجابة لباعث الخوف فإنه يتقي النار)** لا غير ، **(ومنهم من يعمل إجابة لباعث الرجاء وهو الرغبة في الجنة)** لا غير ، **(وهذا وإن كان نازلاً بالإضافة إلى قصد طاعة الله وتعظيمه لذاته ولجلاله لا لأمر سواه فهو من جملة النيات الصحيحة لأنه ميل إلى الموعود في الآخرة وإن كان من جنس المألوفات في الدنيا ، وأغلب البواعث)** على الإنسان **(باعث الفرج والبطن)** للنكاح والأكل **(وموضع قضاء وطرهما في الجنة)** لأنها دار الجزاء ، **(فالعامل لأجل الجنة عامل لبطنه وفرجه)** فهو **(كالأجير السوء)** الذي إن أعطي وإن لم يعط لم يعمل ، **(ودرجته درجة البله وأنه لينالها بعلمه إذ)** قد ورد في الخبر : **(« أكثر أهل الجنة البله »)** كما تقدم .

(وأما عبادة ذوي الألباب) يشير إلى جملة ذكرت في آخر الخبر وهي قوله « وعليون لذوي الألباب » وتقدم أنها مدرجة من كلام بعض رواته وليست من أصل الحديث فإنه **(لا يجاوز ذكر الله تعالى والفكر فيه حباً لجماله وجلاله)** وإعظاماً لربوبيته **(وسائر الأعمال تكون**

المنكوح والمطعوم في الجنة فإنهم لم يقصدوها ، **بل هم الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي** يريدون وجهه فقط وثواب الناس بقدر نياتهم فلا جرم يتنعمون بالنظر إلى وجهه الكريم ، ويسخرون ممن يلتفت إلى وجه الحور العين كما يسخر المتنعم بالنظر إلى الحور العين ممن يتنعم بالنظر إلى وجه الصور المصنوعة من الطين! بل أشدّ ، فإن التفاوت بين جمال حضرة الربوبية وجمال الحور العين أشدّ وأعظم كثيراً من التفاوت بين جمال الحور العين والصور المصنوعة من الطين ، بل استعظام النفوس البهيمية الشهوانية لقضاء الوطر من مخالطة الحسان وإعراضهم عن جمال وجه الله الكريم يضاهي استعظام الخنفساء لصاحبتها وإلفها لها وإعراضها عن النظر إلى جمال وجوه النساء ، فعمي أكثر القلوب عن إبصار جمال الله وجلاله يضاهي عمى الخنفساء عن إدراك جمال النساء . فإنها لا تشعر به أصلاً ولا تلتفت إليه ، ولو كان لها عقل وذكرن لها لاستحسنت عقل من يلتفت إليهنّ ﴿وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود : ١١٨] ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون : ٥٣] ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود : ١١٩] ، حكي أن أحمد بن خضرويه

مؤكدات وروادف) أي توابع ، **(وهؤلاء أرفع درجة من الالتفات إلى المنكوح والمطعوم في الجنة فإنهم لم يقصدوها)** ولم يعيروا طرفهم إليها ، **(بل هم الذين)** قال الله تعالى في حقهم: (**﴿يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾**) في طرفي النهار **(يريدون وجهه﴾)** [الأنعام : ٥٢] أي يقصدون وجهه **(فقط)** لا غير وليس لهم التفات إلا إليه **(وثواب الناس بقدر نياتهم)** فمن كانت نيته أشرف أثابه الله ما يناسب حسن معرفته وقصده ، **(فلا جرم يتنعمون بالنظر إلى وجهه الكريم ويسخرون ممن يلتفت إلى وجه الحور العين كمن يتنعم بالنظر إلى وجه الصور المصنوعة من الطين بل أشد)** وأعظم ، **(فإن التفاوت بين جمال الحضرة الربوبية وجمال الحور العين أشد وأعظم كثيراً من التفاوت بين جمال الحور العين والصور المصنوعة من الطين)** إذ لا مناسبة بين المقامين ، **(بل استعظام النفوس البهيمية الشهوانية)** التي جبلت على شهواتها كالبهائم **(لقضاء الوطر من مخالطة الحسان)** بالضم والتقبيل والوقاع **(وإعراضها عن جمال وجه الله الكريم يضاهي استعظام الخنفساء)** وهي دويبة منتنة تعبث بالأقذار وأشد حرصها برجليها **(لصاحبتها وإلفها لها)** وأنسابها **(وإعراضها عن النظر إلى وجوه النساء)** الحسان ، **(فعمى أكثر القلوب عن إبصار جمال الله وجلاله يضاهي عمى الخنفساء عن إدراك جمال النساء فإنه لا تشعر به أصلاً ولا تلتفت إليه)** أبداً والجنسية علة الضم ، **(ولو كان لها عقل وذكرت لها لاستحسنت عقل من يلتفت إليهن)** وقد صدق الله تعالى في قوله : (**﴿ولا يزالون مختلفين﴾ ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾ ﴿ولذلك خلقهم﴾**) ﴿وتمت كلمة ربك﴾ [هود : ١١٩] .

رأى ربه عز وجل في المنام فقال له: كل الناس يطلبون مني الجنة إلا أبا يزيد فإنه يطلبني، ورأى أبو يزيد ربه في المنام فقال: يا رب كيف الطريق إليك؟ فقال أترك نفسك وتعالَ إليّ. ورؤي الشبلي بعد موته في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: لم يطالبني على الدعاوي بالبرهان إلا على قول واحد: قلت يوماً أي خسارة أعظم من خسران الجنة؟ فقال أي خسارة أعظم من خسران لقائي. والغرض أن هذه النيات

وقال صاحب القوت: وليكن ما تحرك فيه أو سكن عنه أو توقف عن الإقدام عليه ابتغاء مرضاة الله تقرباً إليه لأجل الله تعالى، فهذا أعلى النيات وهو غاية الإخلاص، ومن أراد بأعماله ما عند الله تعالى من ثواب الآخرة من حظوظ نفسه ومعاني شهواته ولذته من النعيم في الجنان واتخاذ الحور الحسان مما وصفه الله تعالى وندب إليه لم يقدح ذلك في إخلاصه ولم يغير صحة نيته من قبل أن الله تعالى مدحه ورغب فيه ووصفه كان ذلك مزيد مثله إلا أن هذا نقص في مقام المحبين عندهم، وعيب كعيب من عمل لعاجل حظه من دنياه وهو شرك في إخلاص الموحدين الذين اختصوا بالعبودية فعتقوا من أسر الهوى بالحرية، فلم يسترقهم سوى الوحدانية لما شهدوا من خالص الربوبية وخلاص العبودية للربوبية أشد من إخلاص المعاملة إلا أن من رزق المقام منها دخل بحقيقة إخلاص المعاملة مزورة فلا تنقية ولا تصفية ولا عمل ولا مجاهدة فكانوا مخلصين، وهذا مقام المحبين. وإنما أتعب المريدين بالتنقية والتصفية للمعاملة لما بقي من الشرك الخفي والشهوة الخفية كما أتعب خدام الدنيا بالجمع لما استرقهم من الهوى، فأما الأحرار فهم من مذمة الخلق برآء وهذا يذهب الإخلاص ويفسد النية ويدخل الانتقاص انتهى.

(**وحكي أن**) أبا حامد (**أحمد بن خضرويه**) البلخي رحمه الله تعالى من كبار مشايخ خراسان صحب أبا تراب النخشي قدم نيسابور وزار أبا حفص وخرج إلى بسطام في زيارة أبي يزيد البسطامي وكان كبيراً في الفتوة، وكان أبو يزيد يقول: أستاذنا أحمد مات سنة أربعين ومائتين عن خمس وتسعين سنة ترجمه القشيري في الرسالة. (**رأى ربه في المنام فقال له**): يا أحمد (**كل الناس يطلبون مني إلا أبا يزيد**) يعني البسطامي (**فإنه يطلبني**) نقله القشيري، (**ويحكى**) أنه (**رأى أبو يزيد**) البسطامي رحمه الله تعالى (**ربه في المنام فقال: يا رب كيف الطريق إليك**)؟ أي دلني على طريق الوصول إليك، كما قال القائل مشيراً إلى هذا المقام:

يا من هواه أعزه وأذلني ... كيف الطريق إلى وصالك دلني

(**فقال: اترك نفسك وتعال. ورؤي**) أبو بكر (**الشبلي**) قدس سره (**بعد موته في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: لم يطالبني على الدعاوى بالبرهان إلا على قول واحد. قلت يوماً**) من الأيام: (**أي خسارة أعظم من خسران الجنة**) أي لا أعظم من خسارة من غفل عنها بعد أن أمكنه تحصيلها، (**فقال**) تعالى: (**بل أي خسران أعظم من خسران لقائي**) وذلك لأن لقاء الله تعالى والنظر إلى وجهه أعظم من نعيم الجنة. (**والغرض أن هذه النيات**

متفاوتة الدرجات ومن غلب على قلبه واحدة منها ربما لا يتيسر له العدول إلى غيرها ، ومعرفة هذه الحقائق تورث أعمالاً وأفعالاً لا يستنكرها الظاهريون من الفقهاء ، فإنا نقول : من حضرت له نية في مباح ولم تحضر في فضيلة فالمباح أولى وانتقلت الفضيلة إليه وصارت الفضيلة في حقه نقيضة لأن الأعمال بالنيات . وذلك مثل العفو فإنه أفضل من الانتصار في الظلم ، وربما تحضره نية في الانتصار دون العفو فيكون ذلك أفضل . ومثل أن يكون له نية في الأكل والشرب والنوم ليريح نفسه ويتقوّى على العبادات في المستقبل وليس تنبعث نيته في الحالين للصوم والصلاة فالأكل والنوم هو الأفضل له . بل لو مل العبادة لمواظبته عليها وسكن نشاطه وضعفت رغبته وعلم أنه لو ترفه ساعة بلهو وحديث عاد نشاطه فاللهو أفضل له من الصلاة . قال أبو الدرداء : إني لاستجم نفسي بشيء من اللهو ، فيكون ذلك عوناً لي على الحق . وقال علي كرّم الله وجهه : روّحوا القلوب فإنها إذا أكرهت عميت . وهذه دقائق لا يدركها إلا سماسرة العلماء دون الحشوية منهم ، بل

متفاوتة الدرجات) منها أعلى ومنها دون وبينهما أوساط ، **(ومن غلب على قلبه واحدة منها لم يتيسر له العدول إلى غيرها)** لاستغراقه بها . **(ومعرفة هذه الحقائق تورث أعمالاً وأفعالاً يستنكرها الظاهريون من الفقهاء)** أي الذين يتكلمون في ظاهر الفقه **(فإنا نقول : من حضرت له نية في مباح ولم تحضر في فضيلة فالمباح أولى)** وأفضل حينئذ **(و)** قد **(انتقلت الفضيلة إليه)** أي انتقل المعنى فصار المباح هو الفضيلة ، **(وصارت الفضيلة في حقه نقيصة)** أي صارت الفضيلة هي النقصية لعدم النية فيها ، **(لأن الأعمال بالنيات ، وذلك مثل العفو فإنه أفضل من الانتصار في الظلم)** أي أن يكون رجل قد ظلم فله أن ينتصر وإن عفا كان أفضل ، **(وربما تحضره نية في الانتصار)** لعجزه عن كسب النية باستحضار فضيلة العفو وما ورد فيها من المثوبات والقربات **(دون العفو فيكون ذلك أفضل)** لوجود النية فيها ، **(ومثل أن يكون له نية في الأكل والشرب والنوم ليريح نفسه ويقوى)** بها **(على العبادات في المستقبل)** لوقت آخر ، **(وليس تنبعث نيته في الحالين للصوم والصلاة ، فالأكل والنوم)** صار **(هو الأفضل له ، بل لو مل العبادة لمواظبته عليها وسكن نشاطه وضعفت رغبته وعلم أنه لو ترفه ساعة بلهو وحديث عاد نشاطه)** وقوته إلى أوله ، **(فاللهو)** حينئذ **(أفضل من الصلاة . قال أبو الدرداء)** رضي الله عنه : **(إني لأستجم نفسي)** أي أطلب جامها أي راحتها **(بشيء من اللهو ليكون ذلك عوناً على الحق)** نقله صاحب القوت إلا أنه قال ببعض اللهو . **(وقال علي رضي الله عنه : روحوا القلوب فإنها إذا أكرهت عميت)** نقله الشريف في نهج البلاغة . وروى الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس « روحوا القلوب ساعة وساعة » ويشهد له ما في صحيح مسلم « يا حنظلة ساعة وساعة » . **(وهذه دقائق لا يعرفها إلا سماسرة العلماء)**

الحاذق بالطب قد يعالج المحرور باللحم مع حرارته ويستبعده القاصر في الطب وإنما يبتغي به أن يعيد أولاً قوته ليحتمل المعالجة بالضدّ، والحاذق في لعب الشطرنج مثلاً قد ينزل عن الرخ والفرس مجاناً ليتوصل بذلك إلى الغلبة، والضعيف البصيرة قد يضحك به ويتعجب منه. وكذلك الخبير بالقتال قد يفر بين يدي قرينه ويوليه دبره حيلة منه ليستجره إلى مضيق فيكرّ عليه فيقهره فكذلك سلوك طريق الله تعالى كله قتال مع الشيطان ومعالجة للقلب والبصير الموفق يقف فيها على لطائف من الحيل يستبعدها الضعفاء، فلا ينبغي للمريد أن يضمر إنكاراً على ما يراه من شيخه ولا للمتعلم أن يعترض على أستاذه، بل ينبغي أن يقف عند حد بصيرته وما لا يفهمه من أحوالهما يسلمه لهما إلى أن ينكشف له أسرار ذلك بأن يبلغ رتبتهما وينال درجتهما ومن الله حسن التوفيق.

ونقادهم، وهم العلماء ببطن العلم وغوامض التعريف **(دون الحشوية منهم)** الذين يتعلقون بالقشور دون اللباب، **(بل الحاذق بالطب قد يعالج المحرور باللحم مع حرارته ويستبعده القاصر في الطب)** ويقول: كيف يداوي بما يضره، **(وإنما يبتغي به أن يعيد أولاً قوته)** إن كان هناك ضعف مزاج **(ليحتمل المعالجة بالضد)** ولو عالجه بما يدفع حرارته ولا قوة عنده لاحتمال ذلك العلاج لأضره، **(والحاذق في لعب الشطرنج مثلاً قد ينزل)** في لعبه **(عن الرخ والفرس مجاناً)** أي بلا عوض مثلهما والرخ والفرس من أقوى ما يقاتل به اللاعب لكثرة أعمالهما في الرقعة، وإنما يفعل ذلك مع كمال احتياجه إليهما **(ليتوصل بذلك إلى الغلبة)** على نديده، **(والضعيف البصيرة قد يضحك به ويتعجب منه)** وسببه عدم نفوذ بصيرته، وقد يتفق أنه ينزل عن الفيل في مقابلة البيدق لأمر ما ومن لا خبرة له ينكر ذلك، **(وكذلك الخبير بالقتال)** أي بأموره **(وقد يفر بين يدي قرينه ويوليه دبره حيلة منه)** لا جبناً **(ليستجره إلى مضيق فيكر عليه فيقهره)** وتارة إلى متسع ليملك غرضه في حرية فيغلب عليه فإن الحرب خدعة كما ورد، **(فكذلك سلوك طريق الله تعالى)** فإنك إذا نظرت بعين التأمل فإنه **(كله قتال مع الشيطان)** ومحاربة معه **(ومعالجة للقلب)** بالتصفية والتهذيب عن الرذائل، **(والبصير الموفق يقف فيها)** في أثناء سلوكه **(على لطائف من الحيل)** ودقائق **(يستبعدها الضعفاء)** ويستنكرونها، **(فلا ينبغي للمريد أن يضمر إنكاراً على ما يراه من شيخه)** يفعله مع نفسه أو مع مريده في حركاته وسكناته وإلا فلا يفلح أبداً، **(ولا للمتعلم أن يعترض على أستاذه)** ولو بقوله: لم كان كذا وإلا فلا يفلح أبداً، **(بل ينبغي أن يقف عند حد بصيرته)** ولا يخطر بباله شيء من الإنكار **(وما لا يفهمه من أحوالهما)** أي الشيخ والمعلم **(يسلمه لهما إلى أن تنكشف له أسرار ذلك)** ولو بعد حين **(بأن يبلغ رتبتهما وينال درجتهما)** كما أفصح عنه القشيري في آخر الرسالة في آداب المريدين **(ومن الله حسن التوفيق)**.

ولنذكر ما يتعلق النية من كتاب القوت مما لم يذكره المصنف ليكون تكميلاً للباب، ثم نتبعه بما في شرح التقريب للحافظ العراقي، وإدراك الأمنية في النية للشهاب القرافي، ومنتهى الآمال للحافظ السيوطي رحمهم الله تعالى.

قال صاحب القوت: روينا في الخبر من طريق آل البيت: لا يقبل الله قولاً إلا بعمل ولا قولاً ولا عملاً إلا بنية، فينبغي أن يكون للعبد في كل شيء نية حتى في مطعمه ومشربه وملبسه ونومه ونكاحه، فإن ذلك كله من أعماله التي يسأل عنها، فإن كانت لله وفي الله كانت في ميزان حسناته، وإن كانت في سبيل الهوى ولغير المولى كانت في ميزان سيئآته، إذ لكل عبد ما نوى، وإن كان ذلك غفلة وسهواً من غير نية ولا عقد طوية ولا عفة لم يكن له في ذلك شيء ولم يجد عمله في الآخرة شيئاً، وكان فيه لا له ولا عليه، وكان ذلك في الدنيا على مثال الأنعام التي تتصرف عن غير عقول ولا تكليف ولكن بالهام وتوفيق، وأخاف أن يدخل في وصف من قال الله تعالى فيه ﴿أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً﴾ [الكهف: ٢٨] قيل مجازفته قدماً قدماً من غير تمييز وقيل: أي غفلة وسهواً، وقيل تفريطاً وتضييعاً، وقيل مقدماً إلى الهلاك، فالنية الصالحة هي أول العمل، وأول العطاء من الله تعالى وهي مكان الجزاء. وقال بعض السلف: رأيت الخير إنما يجمعه حسن النية وكفاك به خيراً وإن لم تنصب رب عمل صغير تعظمه النية ورب عمل كبير تصغره النية. وقال داود الطائي: البر همته التقوى ولو تعلق جميع جوارحه بالدنيا الردية لردته نيته يوماً إلى نية صالحة، فكذلك الجاهل بالله وأيامه همه الدنيا والهوى ولو تعلقت جوارحه بكل أعمال الصالحات لكان مرجوعاً إلى إرادة الدنيا وموافقة الهوى لأن سرها كان همة النفس لعاجل عرض الدنيا، وقال محمد بن الحسين: ينبغي للرجل أن تكون نيته بين يدي عمله. وقال بعض العلماء: أطلب النية قبل العمل وما دمت تنوي الخير فأنت بخير، وقال بعض التابعين: قلوب الأبرار تغلي بالبر وقلوب الفجار تغلي بالفجور والله مطلع على نياتهم فيثيبهم على قدر ذلك، فانظر ما همك وما نيتك. وقد روينا عن الله تعالى في بعض الكتب قال: ليس كل كلام الحكيم أتقبل، ولكني أنظر إلى همه وهواه فمن كان همه وهواه لي جعلت همته ذكراً ونظره عبراً. وسئل سفيان الثوري: هل يؤخذ العبد بالنية؟ قال: نعم إذا كان عزماً أخذ بها، فأول سلطان العدو على القلب عن فساد النية، فإذا تغيرت من العبد طمع فيه فيتسلط عليه، وأول ارتداد العبد عن الاستقامة ضعف النية، فإذا ضعفت النية قويت النفس فتمكن الهوى، وإذا قويت النية صح العزم وضعفت صفات النفس، وفي الأثر: من عمل عملاً لا يريد به وجه الله لم يزل في مقت من الله حتى يفرغ، ولو لم يكن في تجديد النية الحسنة إلا أن صاحبها لا يزال عاملاً من عمال الله بقلبه وهمه وإن لم يساعده القدر على الأفعال بجوارحه فيكون أبداً مأجوراً ولو لم يكن في نية الشر إلا أن صاحبها في بطالة وخسارة، وإن لم يساعده المقدور على الأفعال السيئة بجوارحه أبداً خاسراً مأزوراً، نعوذ بالله من ذلك. ولقد كان السلف لشدة تفقدهم وحسن رعايتهم صادقين في ترك كثير من أعمال البر

لضعف النية ويعملون في أحكام الأصل. وقال ابن عيينة: إنما حرموا الوصول لتضييع الأصول والنية أصل الأصول لأنها فرض الفرائض.

فصل

وقد تلتبس النية بالأمنية فتخفى والهمة بالوسوسة فتشتبه، والنية ما كان يراد به وجه الله ويطلب به ما عنده، والأمنية ما تعلق بالخلق طلب منه عاجل الحظ من الملك الفاني، وقد تلتبس الإرادة بالمحبة والحاجة بالشهوة، فالإرادة أن يريد وقوع الأمر وقد لا يحب كونه أو يريد أيضاً وجود ضده، والمحبة ما قهر العقل وغلب الوجـد وحل في مجامع القلب وكره وجود غيره ولم يرد فقده، والحاجة ما اضطررت إليه ولم يكن منه بد ولا يستغنى عنه بغيره، والشهوة مزيد لذة واستدعاء فضل فاقة واجتلاب تقدم عادة، وقد يختلط الذكر بالقلب بالفكر في معاني القرب، فالذكر ما أظهر المنسى وكشف الغي وذكـر الشيء، والفكر ما صور الأمر وأظهر الخبر، وقد يلتبس الرجاء بالمحبة والهوى بالنية، فالرجاء ما طمعت فيه بسبب ما أو لسبب ما، والمحبة ما تطعمت ذوقه ووجدته بغير سبب تستخرجه، وقد يلتبس ذل القلب بضعفه وقوته للطمع في الخلق بذل النفس لمشاهدة غيرة الحق سبحانه، وقد يتداخل ذل الطمع لدناءة الهمة والنفس بذل العقل للاعتراف بالحق وخضوع العلم له، وقد يلتبس ذل النفس لغلبة الهوى وقهره للعقل بذل القلب لسرعة الانقياد للعلم المحق، وقد تختلط عزة القلب بمقلبه بدوام النظر إليه وعزة العقل بعلمه الذي كثر عنده، وقد تلتبس عزة النفس بوصفها المتسلط بعزة الإيمان المعزز بغيبته اليقين؛ فهذه فروق ظاهرة للعارفين وخروق متسعة توهت العاقلين، وقد تلتبس العبادة بالعادة مثل أن تكون للعبد نية في علم أو عمل أو صدقة أو نفقة الشهر أو السنة ثم تعزب نيته فيبقى على عادته يرث حال الذي قد عرف به لا يحب أن يخرج من عرف الناس له، فيستعمل لاستقامة الحال على التكلف لتلك الأعمال فتذهب النية وتبقى العادة فيخرج به من إرادة الآخرة والسعي لها. ويدخل في إرادة الدنيا بالشهوات على جريان العادة بها. وقد تلتبس طرقات الدنيا من طلب الرئاسة لوجود الهوى بطرقات الآخرة في معنى العلوم والأعمال فما طلب من علوم السلف وأريد به تأديب النفس ويعلم به الزهد في الدنيا، فهذه طرقات الآخرة وما كان على ضده فهو طرقات الدنيا إذ هي ضدها، وقد يلتبس إظهار الأعمال وكشف ما كتم من الأحوال لأجل التأديب به والاتباع عليه أو لإظهار قدرة الله عز وجل وآياته لمزيد السامع من المعرفة به يفعل مثل ذلك للتزين والفخر أو للمدعى به وطلب الذكر. وسئل أبو سليمان الداراني عن الرجل يخبر الشيء عن نفسه؟ قال: إذا كان إماماً يقتدى به فنعم. وقال مرة، هو أو غيره: يختلف ذلك على قدر الإرادة به إن أراد التأديب للنفس حسن ذلك؛ فهذا يلتبس بمداخلة النفس أو بفنائها بغيوبة شاهد اليقين للرب عز وجل.

فصل

ترك العمل عمل كثير يحتاج التارك للنهي أو المكروه فرضاً أو ورعاً إلى نية حسنة أن يتركه لله عز وجل طلباً منه أو رغبة فيما عنده لا لوجود الخلق ولا ليرب به حاله أو يقيم عند العبيد جاهه

....

لأن ترك المعصية من الأعمال، فيحتاج إلى أحسن النيات، إذ عليها من الله تعالى أجزل المثوبات لبلوى النفس فيها واضطرار النفس إليها. قال بعضهم: من أحب أن يعرف ورعه غيره فليس من الله في شيء. وروينا في خبر: إن أعجمياً مر بنفر قعود يتكلمون بكلام فيه استهزاء وهو يظن أنهم يدعون الله عز وجل فقال: مثل ما يقولون بحسن النية. قال: فغفر الله تعالى له بحسن نيته. وقال الحسن: من علامة المسلم أن لا يبدره لسانه ولا يسبقه بصره ولا تقصر به نيته. يعني لا تضعف ولا تقعد به عن المسارعة إلى القربات، هي أبداً في قوة وزيادة وإن قصرت أعماله فيها وعجزت قوى جوارحه. قال: المؤمن تبلغ نيته وتضعف، والمنافق تضعف نيته وتبلغ قوته. وقال ابن عجلان: العمل لا يصلح إلا بثلاث: التقوى لله عز وجل، والنية الحسنة، والإصابة. وقال أبو عبيدة بن عقبة: من قصده أن يكمل عمله فليحسن نيته، فإن الله تعالى ما جبر العبد إذا حسنت نيته حتى باللقمة. وقال بعضهم: القصد إلى الله بالقلوب أبلغ من حركات الأعمال للصلاة والصيام ونحوه. وقال الأنطاكي إذا صارت المعاملة إلى القلب استراحت الجوارح. وروي عن علي رضي الله عنه: من كان ظاهره أرجح من باطنه خف ميزانه، ومن كان باطنه أرجح من ظاهره ثقل ميزانه يوم القيامة. وروي عن الحسن في تفسير قوله تعالى: ﴿وآتيناه أجره في الدنيا﴾ [العنكبوت: ٢٧] قال نيته الصادقة اكتسب بها الأجر في الآخرة اهـ سياق القوت.

فصل

قال السيوطي في منتهى الآمال: ورد في مطلق النية أحاديث كثيرة جداً تزيد على عدد التواتر، فروى البيهقي في السنن من حديث أنس « لا عمل لمن لا نية له ». وروى الشيخان من حديث ابن عباس، وأحمد من حديث رافع بن خديج، وزيد بن ثابت وأبي سعيد الخدري والطبراني من حديث غزية بن الحارث: « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية ». وروى الستة من حديث سعد ابن أبي وقاص « إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله تعالى إلا أجرت فيها ». وروى ابن ماجه من حديث معاوية « إنما الأعمال كالوعاء إذا طاب أسفله طاب أعلاه ». وروى الأربعة من حديث عقبة بن عامر « إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة الجنة » فذكره وفيه « وصانعه يحتسب في صنعته الأجر » وروى النسائي من حديث أبي ذر وأبي الدرداء « من أتى فراشه وهو ينوي أن يقوم يصلي من الليل فغلبته عينه حتى يصبح كتب له ما نوى ».

فصل

قال الشهاب القرافي في كتاب الأمنية في إدراك النية: إنما قال ﷺ « إنما الأعمال بالنيات » ولم يقل: الأفعال بالنيات لأن عمل معناه فعل فعلاً له شرف وظهور وفعل لمطلق الأثر، ولذلك قال تعالى: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل﴾ [الفيل: ١] ولم يقل كيف عمل لأنه أثر فيه عقاب واقتصام لا شرف ولا تعظيم. وقال تعالى ﴿مما عملت أيدينا﴾ [يس: ٧١] وأكثر ما ورد في القرآن من ذكر الجزاء بلفظ العمل لا بلفظ الفعل نحو: ﴿بما كنتم تعلمون﴾ ﴿نعم أجر

....

العاملين﴾ [العنكبوت: ٥٨] ﴿من عمل صالحاً﴾ [فصلت: ٤٦] قال: وإذا تقرر ذلك حسن حتماً أن يقال: الأعمال بالنيات دون الأفعال بالنيات لأن التقدير في خبر المبتدأ المحذوف الأعمال معتبرة بالنيات، وإنما يراد اعتبارها إذا كانت تصلح لله تعالى ولا يصلح له إلا ما كان شريفاً في نفسه، فإذا أضيف إليه النية صار يترتب عليه الثواب عندالله تعالى. قال: ويسمى الجرم عملاً وإن كان منهياً عنه مبعداً عن الله تعالى، لأنه عظيم في ظهوره خيراً أو شراً قال: ولذلك منع بعض العلماء من متأولي الحديث الوضوء حيث استدل به على وجوب النية في الوضوء فقال: لا نسلم أن الوضوء من الأعمال، بل هو من الأفعال، والحديث إنما ورد في الأعمال، وتقريره أن الطهارة شرط ووسيلة لا مقصد في نفسه فلم يصل شرف رتبة المقاصد فليس فيه من الظهور والشرف ما في الصلاة ونحوها. فلا نسلم اندراجه وهو منع مشهـور من قبل الحنفية.

فصل

في حد النية

قال الجوهري: النية العزم، وقال الخطابي: هي قصدك الشيء بقلبك وتحري الطلب منك له، وقيل: هي عزيمة القلب، وقال التيمي :هي وجهة القلب. وقال البيضاوي: هي عبارة عن انبعاث القلب نحو ما يراه موافقاً لغرض من جلب نفع أو دفع ضر حالاً أو مآلاً، والشرع خصها بالإرادة المتوجهة نحو الفعل ابتغاء لوجه الله تعالى وامتثالاً لحكمه. وقال النووي: النية القصد وهو عزيمة القلب، وتعقبه الكرماني بأن المتكلمين قالوا: القصد إلى الفعل هو ما نجده في أنفسنا حال الإيجاد، والعزم قد يتقدم عليه ويقبل الشدة والضعف بخلاف القصد ففرقوا بينهما من وجهين فلا يصح تفسيره به. وكلام الخطابي أيضاً مشعر بالمغايرة بينهما. وقال العراقي في شرح التقريب: اختلف في حقيقة النية. فقيل: هي الطلب، وقيل الجد في الطلب، ومنه قول ابن مسعود: من ينو الدنيا تعجزه أي يجد في طلبها، وقيل: القصد للشيء بالقلب، وقيل: عزيمة القلب. وقال الزركشي في قواعده: حقيقة النية ربط القصد بمقصود معين، والمشهور أنها مطلق القصد إلى الفعل. وقال الماوردي: هي قصد الشيء مقترناً بفعله فإن قصده وتراخى عنه فهو عزم.

فصل

قال القرافي في كتاب الأمنية: إن جنس النية هو الإرادة وهي الصفة المخصصة لأحد طرفي الممكن بما هو جائز عليه من وجود أو عدم أو هيئة دون هيئة أو حالة دون حالة أو زمان دون زمان، وجميع ما يمكن أن يتصف الممكن به بدلاً من خلافه أو ضده أو نقيضه أو مثله غير أنها في الشاهد لا يجب لها حصول مرادها، وفي حق الله تعالى يجب لها ذلك لأنها في الشاهد عرض مخصوص مصرف بالقدرة الإلهية والمشيئة الربانية هي ومرادها، وفي حق الله تعالى معنى ليس بعرض واجبة الوجود متعلقة بذاتها أزلية واجبة النفوذ فيما تعلقت به، ثم الإرادة متنوعة إلى العـزم والهم والنية والشهوة والقصد والاختيار والقضاء والقدرة والعناية والمشيئة؛ فهي عشرة ألفاظ.

فالعزم: هو الإرادة الكائنة على وفق الداعية، والداعية ميل يحصل في النفس لما أشعرت به من اشتمال المراد على مصلحة خالصة أو راجحة، والميل جائز على الخلق ممتنع على الله تعالى، فلا جرم لا يقال في حق الله تعالى عزم بمعنى أراد الإرادة الخاصة المصممة بل عزائم الله تعالى طلبه الراجع إلى كلامه النفسي، فظهر الفرق بين العزم والإرادة.

وأما الهم: في مثل قوله تعالى ﴿ولقد همت به وهم بها﴾ [يوسف: ٢٤] وفي قوله ﷺ « من هم بحسنة » فالظاهر أنه مرادف وأن معناها واحد، ويستحيل على الله تعالى كما يستحيل العزم.

وأما النية: فهي إرادة تتعلق بإمالة الفعل إلى ما يقلبه لا بنفس الفعل من حيث هو فعل ففرق بين قصدنا لفعل الصلاة وبين قصدنا لكون ذلك قربة أو فرضاً أو نفلاً أو أداء أو قضاء، أو غير ذلك مما هو جائز على الفعل. فالإرادة المتعلقة بأصل الكسب والإيجاد هي المسماة بالإرادة، ومن جهة أن هذه الإرادة مميلة للفعل إلى بعض جهاته الجائزة عليه تسمى من هذا الوجه نية، فصارت الإرادة إذا أضيف إليها هذا الاعتبار نية، وهذا الاعتبار هو تمييز الفعل عن بعض رتبه جائز على الله تعالى، فإنه سبحانه قد يريد الفعل الواحد نفع قوم وضر قوم وهداية قوم إلى غير ذلك مما هو جائز على فعله، غير أن أسماء الله توقيفية فلا يسمى الله تعالى ناوياً ويسمى مريداً. هذا إن اقتصر على هذا الاعتبار العام وهو مطلق إمالة الفعل إلى بعض جهاته حكم شرعي، فينوي إيقاع الفعل عن الوجه الذي أمر الله تعالى به أو نهى عنه أو أباحه، ومنهم من يقول: بل أخص من هذا وهو أن يميل الفعل إلى جهة التقريب والعبادة، وعلى التقديرين فيستحيل على الله تعالى معناها بخلاف المعنى العام، وتفارق النية الإرادة من وجه آخر وهو أن النية لا تتعلق إلا بفعل الناوي، والإرادة تتعلق بفعل الغير كما يريد معونة الله تعالى وإحسانه وليست فعلنا.

وأما الشهوة: فهي إرادة متعلقة براحات البشر كالملاذ ودفع الآلام فيستحيل على الله تعالى.

وأما القصد: فهو الإرادة الكائنة بين جهتين كمن قصد الحج من مصر ومن غيرها، وهو بهذا المعنى مستحيل على الله تعالى.

وأما الاختيار؛ فهو الإرادة الكائنة بين شيئين فصاعداً ومنه ﴿واختار موسى قومه سبعين رجلاً﴾ [الأعراف: ١٥٥]أي أرادهم دون غيرهم مضافاً إلى اعتقاد رجحان المختار وهو جائز على الله تعالى. قال تعالى ﴿ولقد اخترناهم على علم على العالمين﴾ [الدخان: ٣٢]

وأما القضاء فهو الإرادة المقرونة بالحكم الخبري، فقضاء الله تعالى لزيد بالسعادة إرادته سعادته مع اخباره بكلامه النفسي عن سعادته، ومنه قضاء الحاكم إذا أخبر عن حكم الله تعالى في تلك الواقعة إخباراً إنشائياً، ولذلك تعذر نقضه بخلاف الفتيا.

وأما العناية: فهي الإرادة المتعلقة بالشيء على نوع من الحصر والتخصيص، ولذلك قال العوفي: إياك أعني واسمعي يا جارة. أي أخصك دون غيرك، ولم يقل: إياك أريد ويقولون: ما يعني

....

بكلامه أي ما يخصه به من المعاني التي يحتملها دون غيره، وهذا التفسير جائز على الله تعالى غير أن أسماءه توقيفية فلا يقال الله عان وإن قيل مريد.

وأما المشيئة؛ فالظاهر أنها مرادفة للإرادة. وقالت الحنفية. هي مباينة وجعلوها مشتقة من الشيء والشيء اسم الموجود، حتى قالوا: إذا قال الحالف إن شئت دخول الدار فعبدي حر فأراد دخول الدار لا يعتق حتى يدخل، ولا تكفي الإرادة، وأطلنا في كشف كتب اللغة ولم نجد للمشيئة معنى إلا الإرادة؛ فهذه التفاسير والتغايرات بين هذه المعاني العشرة يساعدها عليها الاستعمال والأصول الموجودة لعدم الترادف، فتلخص أن النية غير التسعة الباقية لما ذكر من خصوصيتها وخصوصيات كل من التسعة المفقودة في النية فيجزم الناظر بالفرق حينئذ، ولا يضر كون الاستعمال قد يتوسع فيه فيستعمل أراد ومراده نوى أو عزم أو قصد أو عنى، فإنها متقاربة المعاني حتى يكاد يجزم فيها بالترادف تكثيراً لفوائد اللغة. قال: وبهذا تظهر الحكمة في قوله ﷺ «الأعمال بالنيات» ولم يقل بالإرادات والعنايات أو غير ذلك. فإنه ﷺ لم يرد إلا الإرادة الخاصة المميلة للفعل إلى جهة الأحكام الشرعية كما تقدم في تفسير النية.

فصل

سئل الإمام الغزالي رحمه الله تعالى عن قول الفقهاء بوجوب مقارنة النية للتكبير وكيف يكاف المرء بذلك، ومعلوم أن الفرضية والظهرية والإدائية ونية التقرب إلى الله تعالى واجبة، فكيف يخطر بباله هذه الأمور حال افتتاح الصلاة وأنى يتصور ذلك؟

فأجاب: أمر النية سهل في العبادات وهو مثل النية في العاديات، وإنما يتعسر بسبب الجهل بحقيقة النية أو بسبب الوسوسة التي هي نوع اضطراب وفساد في الفكر، فلا بد من معرفة حقيقة النية، وإنما يلتئم أمر النية بقصد وعلم القصد فنان وللعلم المفتقر إليه متعلقان. أما الفن الأول من القصد؛ فهو القصد إلى الفعل وذلك ما يصير به الفعل اختيارياً كالهوي إلى السجود مثلاً فإنه تارة يكون بقصد وتارة يسقط الإنسان على وجهه بصرعة أو صدمة؛ فهذا يضاده الاضطرار. والفن الثاني: كالعلة لهذا القصد وهو الانبعاث لإجابة الداعي وقد يسمى باعثاً فإنك إذا قمت عند اجتياز إنسان بك فلك قصد القيام بكل حال، فإن القيام لا يقع اضطراراً ولكن قد يكون غرضك في القيام إحترام ذلك الإنسان، وقد يكون غرضك أن تلبس ثوباً وتسرج دابة وتخرج إلى السوق أو غرض آخر من الأغراض، فإن كان المحرك الباعث على اختيار القيام إحترام ذلك الإنسان يقال: نويت تعظيمة، وإن كان غرضك الخروج إلى السوق نويت الخروج وكيفما نويت، فالقيام لا يخلو عن إرادة قصد متعلق بمعنى القيام، ولكن القصد إلى القيام لا ينبعث من النفس إلا إذا كان في القيام غرض، فذلك الغرض هو المنوى، والنية إذا أطلقت في غالب الأمر أريد بها إنبعاث القصد متوجهاً إلى ذلك الغرض علة تحريك قصد القيام، وقصد القيام إجابة لتحريك ذلك الغرض وانبعاث إليه، وقصد الفعل لا ينفك عند التكبير إذ اللسان لا يجري عليه كلام منظوم اضطراراً

....

والتكبير قد ينفك عند النية؛ فبهذا تعلم أن النية عبارة عن إجابة الباعث المحرك، فهذا تحقيق نوعي القصد.

وأما العلم: فلا بد منه إذ لا قصد إلا إلى معلوم والقصد الأول يستدعي علماً فإن من لا يعلم القيام ولا التكبير لا يمكنه أن يقصده، والقصد الثاني أيضاً يستدعي العلم فإن الغرض إنما يكون باعثاً في حق من علم الغرض، فمن لا يعلم معنى الاحترام والتعظيم لا يمكنه أن يقوم لغيره على نية الإحترام والتعظيم، فلنرجع إلى القصد الثاني الذي هو النية وهي خطوة واحدة ليس فيها تعدد حتى يعسر جمعها. نعم يمكن استدامتها بضده وهو قصد شيء آخر كما لو ابتدأ القيام للاحترام ثم ندم عليه، وقبل إتمام القيام عرض له فصد الخروج إلى السوق فاستتم القيام على ذلك القصد أو بضد شرطها وهو الغفلة عن العلم بالاحترام، فإن العلم المقصود شرط لبقاء القصد ولا عسر في استدامته لهذا القصد من أول التكبير إلى آخره، فإن التكبير لفظ مختصر يتم في لحظة ويبعد طرئان ضد في دوامه بحيث يحس بانقطاعه قبل تمام التكبير، وإذا لم يحس بانقطاعه فلا يعتبر من الوسوسة ما يطرأ فيها.

وأما العلم؛ فله متعلقان أحدهما: نفس الفعل وهو شرط القصد الأول فإنه لا يقوم لتعظيم زيد من لا يعلم القيام، فلا بد وأن يعلم ما به التعظيم والتعظيم بقيام مع الإقبال على ذاك الشخص تعرضاً بدخوله فإنه لو قام مستدبراً إياه أو بعد انصرافه لم يكن تعظيماً، فهذا علم بما به التعظيم.

والعلم الثاني: وهو شرط القصد الآخر وهو العلم بالمعظم ووجهه وجوب تعظيمه كالعلم بزيد الداخل وكونه شريفاً فاضلاً مستحقاً للتعظيم؛ فهذه العلوم والقصود إذا فصلت باللسان ونظم العبارات طالت وكان من ضرورتها الترتيب والتعاقب حتى يكون البعض منها بعد البعض، سواء كان اللفظ باللسان أو بحديث النفس، ولا يكون حديث اللسان والنفس إلا بلغة عربية أو أعجمية، وليس في النية والعلم لغة ولا حرف ولا ترتيب، بل يجتمع منها في اللحظة الواحدة علوم كثيرة والذهن لا يشعر بترتيب الألفاظ المعبرة عنها، ولكن تكون تلك العقود حاضرة وتلك العموم حاصلة في لحظة واحدة وهي مدة الانتصاب وهو مقترن به، ولو لم يخطر تفصيل ذلك بحديث النفس ولم يقل بقلبه ولا بلسانه نويت أن أنتصب قائماً مع الإقبال بالوجه والاقتران بالدخول تعظيماً لزيد الشريف الفاضل، ولو قال ذلك بلسانه وقلبه دل على خبل في عقله وجهل منه، فكذلك الصلاة فعل مخصوص كالقيام والنية باعث مخصوص وهو المنوى وهو إيجاب الله تعالى واستجابه ويستدعي ذلك علوماً وقصوداً ويحضر جميع ذلك مقروناً بهمزة التكبير من غير عسر، وإنما العسر إحضار الألفاظ المرددة على اللسان أو القلب دفعة واحدة، فأما حضور القصد في لحظة واحدة فلا يخفى لأن القصد لحظة. وأما هذه العلوم فمضمون اجتماعها ثلاث أمور:

أحدها: أن حضور الأخص كاف عن حضور الأعم، فإن المأمور به فعل لا كل فعل، بل

فعل هو عبادة ولا كل عبادة، بل عبادة هي صلاة هي ظهر فإذا حضر في القلب الظهر أغنى عن إحضار الصلاة والعبادة والفعل بالبال، فإن العلم بالأعم يتضمنه حاضر في الذهن مفصلاً.

الثاني: أن هذه العلوم إن منعت لوسوسة عن إحضارها معاً وطلبت النفس تفصيلها بالنطق حتى اضطر إلى التعاقب ولم يكن تعاقباً محسوساً، فهذا معفو عنه.

الثالث: أن التعاقب وإن كان محسوساً فإنا نجعل جميع المدة من همزة التكبير إلى الراء في حكم اللحظة الواحدة فإنها مدة قريبة.

فصل

قال ابن المنير: المشهور عند النظار حمل الحديث على العبادات، واتسع البخاري في الاستنباط فحمله عليها وعلى المعاملات، وتبع مالكاً بسد الذرائع واعتبار المقاصد فلو قصد اللفظ وصح القصد لغى اللفظ وأعمل القصد تصحيحاً وإبطالاً. قال: والاستدلال بهذا الحديث على سد الذرائع وإبطال الحيل من أقوى الأدلة، ووجه التعميم أن المحذوف المقدر الاعتبار فمعنى الاعتبار في العبادات أجزاؤها وبيان مراتبها وفي المعاملات والإيمان الرد إلى القصد.

فصل

قال السيوطي، قال العلماء: النية تؤثر في الفعل فيصير بها تارة حراماً وتارة حلالاً وصورته واحدة كالذبح مثلاً فإنه يحل الحيوان إذا ذبح لأجل الله ويحرمه إذا ذبح لغير الله والصورة واحدة، وكذلك القرض في الذمة وبيع القرض بمثله إلى أجل صورتها واحدة والأول قربة صحيحة والثاني معصية باطلة. وقال:ابن القيم في كتاب الروح: الشيء الواحد تكون صورته واحدة وهو ينقسم إلى محمود ومذموم، فمن ذلك التوكل والعجز والرجاء والتمني والحب لله والحب مع الله والنصح والتأنيب والهدية والرشوة والاخبار بالحال والشكوى، فإن الأول من جل ما ذكر محمود وقرينه مذموم والصورة واحدة ولا فارق بينهما إلا القصد.

فصل

قال الزركشي في القواعد: النية تنقسم إلى نية التقرب ونية القصد، فالأولى تكون في العبادات، والثانية تكون في المحتمل للشيء غيره، وذلك كأداء الديون إذا أقبضه من جنس حقه فإنه يحتمل التمليك هبة وقرضاً ووديعة وإباحة، فلا بد من نية تميز إقباضه عن سائر أنواع الاقباض، ولا يشترط نية التقرب. قال: ولا خلاف في أن النية في الصلاة والصوم التقرب واختلف في الوضوء وفي الزكاة هل هي فيهما للتقرب أو للتميز بين الفرض والنفل.

فصل

قال السيوطي: استثنى الغزالي في المستصفى والإمام في المحصول مما تجب فيه النية النية، فإنها لو افتقرت إلى نية أخرى لزم التسلسل. وقال الكرماني: إنها خارجة من الحديث بقرينة العقل دفعاً

....

للتسلسل، وقد ذكر الزركشي أن في ذلك نزاعاً وكأنه يشير إلى قول القرافي: إن النية منصرفة إلى الله تعالى بصورتها فلم تفتقر إلى نية أخرى. قال: ولا حاجة إلى التعليل بأنها لو افتقرت إلى نية لزم التسلسل، ولذلك يثاب الإنسان على نية مفردة ولا يثاب على الفعل مفرداً لانصرافها بصورتها إلى الله تعالى، والفعل متردد بين ما هو لله وبين ما هو لغيره.

قال السيوطي: واستثنى من الحديث أيضاً معرفة الله تعالى حتى قال بعضهم: إن دخوله في الحديث محال لأن النية قصد المنوي، وإنما يقصد المرء ما يعرف فيلزم أن يكون عارفاً قبل المعرفة، وتعقبه البلقيني بما حاصله: إن كان المراد بالمعرفة مطلق الشعور فمسلم، وإن كان المراد النظر في الدليل فلا لأن كل ذي عقل مثلاً يشعر مثلاً بأن له من يدبره، فإذا أخذ في النظر في الدليل ليتحققه لم تكن النية محالاً انتهى.

وقال العز بن عبد السلام: لا مدخل للنية في قراءة القرآن والأذكار وصدقة التطوع ودفن الميت ونحوها مما لا يقع إلا على وجه العبادة، وأما قوله ﷺ «إنما الأعمال بالنيات» فالمراد به الأعمال التي تقع تارة طاعة وغير طاعة أخرى بدليل ذكر الهجرة في سياق الحديث. وأما هذه القربات ونحوها مما شرع لمصلحة عاجلة قصداً أو كان بصورة عبادة فعدم وجوب النية فيها لعدم إرادتها ولخروجها عن الإرادة حساً لصورة العمل إن قيل بعموم الأعمال للطاعة والقربة.

فصل

قال السيوطي: استدل بمفهوم الحديث على أن ما ليس بعمل لا يشترط فيه النية وذلك التروك كترك الزنا وشرب الخمر ومنه إزالة النجاسة في الأصح قاله النووي، ونازعه الكرماني بأن الترك أيضاً فعل وهو كف النفس، وبأن التروك إذا أريد بها تحصيل الثواب بامتثال أمر الشارع فلا بد فيها من القصد. قال الحافظ في الفتح: وتعقب بأن قوله الترك فعل مختلف فيه، ومن حق المستدل على المانع أن يأتي بما هو متفق عليه. قال السيوطي: الشرط أن يكون متفقاً عليه بين المانع والمستدل فقط لا بين غيرهم أيضاً، والنووي موافق على أن الترك فعل الكف، ثم قال الحافظ: أما استدلاله الثاني فلا يطابق المورد لأن المبحوث فيه هل يلزم في التروك بحيث يقع العصيان بتركها أو الذي أورده هل يحصل الثواب بدونها والتفاوت بين المقامين ظاهراً؟ والتحقيق أن الترك المجرد لا ثواب فيه، وإنما يحصل الثواب بالكف الذي هو فعل النفس فمن لم تخطر المعصية بباله أصلاً ليس كمن خطرت، فكف نفسه عنها خوفاً من الله تعالى فرجع الحال إلى أن الذي يحتاج إلى النية هو العمل بجميع وجوهه لا الترك المجرد.

فصل

قال الخلخالي في شرح المصابيح: حرف التعريف في الأعمال لا يسوغ حمله على تعريف الماهية لعدم افتقار مطلق الأعمال إلى النية من حيث هو المطلق، بل المفتقر إليها هو إفرادها فيتعين أن

....

يكون للعموم، وخص البعض بالإجماع أو للعهد وهو الأعمال التي عهدت من الشرع وهي العبادات لأن غيرها لا يفتقر إلى النية.

فصل

ذكر ابن المنير ضابطاً لما يشترط فيه النية وما لا يشترط فقال: كل عمل لا تظهر له فائدة عاجلة بل المقصود به الثواب فالنية مشترطة فيه، وكل عمل ظهرت فائدته ناجزة وتقاضته الطبيعة قبل الشريعة لملاءمة بينهما فلا يشترط النية فيه إلا لمن قصد بعمله معنى آخر يترتب عليه الثواب. قال: وإنما اختلف العلماء في بعض الصور من جهة تحقق مناط التفرقة. قال: وأما ما كان من المعاني المحضة كالخوف والرجاء فهذا لا يقال باشتراط النية فيه، لأنه لا يكفي أن يقع إلا منوياً ومتى فرضت النية معقودة فيه استحالت حقيقته فالنية فيه شرط عقلي وأما الأقوال فتحتاج إلى النية في ثلاث مواطن: أحدها التقرب إلى الله تعالى فراراً من الرياء، والثاني التميز عن الألفاظ المحتملة لغير المقصود، والثالث قصد الإنشاء ليخرج سبق اللسان.

فصل

قال الشهاب القرافي: النية قسمان: فعلية موجودة، وحكمية معدومة، فإذا نوى المكلف أول العبادة فهذه نية فعلية، ثم إذا ذهل عن النية حكم صاحب الشرع فأنه ناو ومتقرب فهذه هي النية الحكمية. أي حكم الشرع ببقاء حكمها لأنه موجود، وكذلك الإخلاص والإيمان والنفاق والرياء وجميع أحوال القلب إذا شرع فيها واتصف القلب بها كانت فعلية، وإذا ذهل عنها حكم صاحب الشرع ببقاء أحكامها لمن كان يتصف بها قبل ذلك حتى لو مات الإنسان مغموراً بالمرض حكم صاحب الشرع له بالاسلام المتقدم بالولاية والصديقية وجميع المعارف المتقدمة، وإن لم يتلفظ بالشهادة عند الموت وعكسه يحكم له بالكفر والنفاق وجميع مساوىء الأخلاق، وإن كان لا يستحضر فيها شيئاً عند الموت ولا يتصف بها بل يوم القيامة الأمر كذلك. ومنه قوله تعالى أنه من يأت ربه مجرماً مع أنه لا يكون يوم القيامة مجرماً ولا كافراً ولا عاصياً لظهور الحقائق عند الموت وصار الأمر ضرورياً فمعناه محكوماً له بالإجرام كما يحكم لغيره بالإيمان، واكتفى صاحب الشرع بالإيمان والنية الحكمية للمشقة في استمرارها بالفعل.

فصل

وقال أيضاً في نية الحسنة يثاب عليها حسنة واحدة وفعل الحسنة يثاب عليها عشرة، لأن الأفعال هي المقاصد والنيات وسائل، والوسائل أخفض رتبة من المقاصد. وقال الكرماني: من جاء بنية الحسنة فقد جاء بالحسنة ومن جاء بالحسنة فله عشر أمثالها، فيلزم أن من جاء بنية الحسنة فله عشر أمثالها فلا يبقى فرق بين الحسنة ونية الحسنة، قال السيوطي: لا نسلم أن من جاء بنية الحسنة فقد جاء بالحسنة بل يثاب على نية الحسنة فظهر الفرق اهـ.

قلت: قال بعض الأفاضل: وكنت بحثت مع السراج البلقيني بالخشابية بجامع عمرو هل تضعف هذه الحسنة أيضاً. وقلت: ينبغي أن تضعف لقوله تعالى ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها﴾ [النساء: ٤٠] الآية فقال: نعم وتضعف من جنس ما هم فيه اهـ وهو كلام حسن.

فصل

نقل الكرماني في توجيه الخبر المتقدم نية المؤمن خير من عمله ستة أوجه تقدم ذكرها، ثم قال: أو أن المراد نية المؤمن خير من عمل الكافر كما قيل ورد ذلك حين نوى مسلم بناء قنطرة فسبق كافر إليها اهـ.

قال السيوطي: وهي سبع إحتمالات في تأويل الخبر المذكور وكلها حسنة إلا الأخير فإنه باطل لا أصل له. وقال البيهقي في الشعب: أخبرنا أبو عبد الرحمٰن السلمي قال: وسئل الأستاذ أبو سهل الصعلوكي عن معنى هذا الخبر؟ فقال: لأن النية تخلص الأعمال والأعمال بمقابلة الرياء والعجب. وأخرج بسنده عن أحمد بن يحيى ثعلب قال: سمعت ابن الأعرابي يقول: نية المؤمن خير من عمله لأن النية لا يدخلها الفساد والعمل يدخله الفساد. قال البيهقي: وإنما أراد بالفساد الرياء فيرجع ذلك إلى ما قال الاستاذ أبو سهل قال: وقد قالوا النية دون العمل تكون طاعة. قال النبي ﷺ «من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة» والعمل دون النية لا يكون طاعة اهـ.

قلت: ووجدت في هامش منتهى الآمال عند ذكر الكرماني الوجه الأخير الذي أبطله السيوطي ما نصه: سئل الشيخ عز الدين بن عبد السلام عن هذا الحديث فأجاب عنه بجوابين:

أحدهما: أن هذا ورد على سبب، وهو أن النبي ﷺ وعد بثواب على حفر بئر فنوى عثمان رضي الله عنه أن يحفرها فسبق إليها كافر فحفرها، فقال النبي ﷺ «نية المؤمن» يعنى عثمان «خير من عمله» يعني الكافر. ونظر فيه بعضهم بأن أفعل التفضيل يقتضي المشاركة وعمل الكافر لا خير فيه البتة. وأجاب بأن تسميته خيراً باعتباره في نفسه وإن لم يثب عليه بدليل أنه لو أسلم أثيب عليه من غير تضعيف، كما ورد في مسند البزار أنه إذا أسلم يثاب على كل طاعة حسنة واحدة من غير تضعيف، لكن في الصحيح أنه ﷺ قال لشخص أسلم أسلمت على ما أسلفت من خير اهـ.

والجواب الثاني: النية المجردة من المؤمن خير من عمله المجرد عن النية، وهذا قد تقدم بيانه آنفاً.

فصل

في ألفاظ وردت عن السلف طبق ما ذكره المصنف.

أخرج الدارمي عن ابن عباس قال: إنما يحفظ حديث الرجل على قدر نيته. وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب النية والإخلاص، والدينوري في المجالسة عن عثمان بن واقد قال: قيل لنافع بن

....

جبير بن مطعم: ألا تشهد الجنازة، قال: كما أنت حتى أنوي ففكر هنيهة ثم قال: امض. وأخرج أيضاً عن عبد الرحمٰن بن زيد قال: كان أبي يقول: يا بني انو في كل شيء تريده الخير حتى خروجك إلى الكناسة في حاجة. وأخرج البيهقي في الشعب عن يونس بن عبد الأعلى قال، قال الشافعي: يا أبا موسى لو جهدت كل الجهد على أن ترضي الناس كلهم فلا سبيل له، فإذا كان كذلك فاخلص عملك ونيتك لله. وأخرج البيهقي أيضاً من طريق سفيان عن زيد قال: ليسرني أن يكون لي في كل شيء نية حتى في الأكل والنوم. وأخرج عن سفيان في قوله تعالى ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ [القصص: ٨٨] قال: ما أريد به وجهه. وأخرج عن الحسن في قوله تعالى ﴿إن ابراهيم لحليم أوّاه منيب﴾ [هود: ٧٥] قال: كان إذا قال قال لله، وإذا عمل عمل لله، وإذا نوى نوى لله. وأخرج عن عوف قال: سمعت محمد بن سيرين يقول: ما أراد رجل من الخير شيئاً إلا سار في قلبه سورتان، فإذا كانت الأولى لله فلا يحزنك الآخرة. وأخرج عن الحسن قال: ما من أحد عمل عملاً إلا سار في قلبه سورتان فإذا كانت الأولى لله فلا تحزنه الآخرة. هذا ما يتعلق بالنية، وسيأتي بقية الكلام على بعض أحكامها في الباب الآتي والله الموفق.

الباب الثاني
في الإخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته

فضيلة الإخلاص:

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وقال: ﴿أَلاَ للهِ الدّين الخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، وقال تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا باللهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ للهِ﴾ [النساء: ١٤٦]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ

الباب الثاني في الإخلاص

ويضاف إليه السر والغربة والتلبيس والهمة لأنهن من فضائله (و) فيه بيان (**فضيلته وحقيقته ودرجاته**)

فضيلة الإخلاص

اعلم أن الإخلاص هو العروة الوثقى والذروة العليا المأمور به على ألسنة الأنبياء عليهم السلام. (**قال الله تعالى: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين**) حنفاء﴾ وهو الوسيلة لصحة الإيمان والأعمال جميعاً والسر المستودع في قلوب الأولياء والمقربين الذين عزل الرب عن قلوبهم سلطنة الشيطان ونزغاته بقوله تعالى ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ [الإسراء: ٦٥] أضاف عبوديتهم إلى نفسه إضافة تخصيص وتكريم وجعلهم أتقياء أخفياء تحت ستره ليس لهم أكفاء ولا نظراء يورون عن أحوالهم بأعمال معارة ستراً لحالهم قد علقت قلوبهم بالملكوت وارتفعت هممهم لمولاهم ففنيت صفاتهم في صفاته لقيامه عليهم وإحاطته بهم، فهم موجودون معدومون عند نفوسهم بحقائق إيمانهم وتوحيدهم وإخلاصهم موجودون في نظر غيرهم لأنهم يرونهم قائمين قاعدين معطين مانعين، فهم غرباء من الأمثال والأكفاء لهذا السر الموقور في بطونهم متلبسين بثياب ظاهرة عارية عليهم تستر بواطنهم وأسرارهم تعبد الله همتهم نافذة لخلوها عن الأغراض والأعواض ومشاهدة الأغيار، فإن قاموا فلله وبالله، وإن قعدوا فلله وبالله. (**وقال تعالى:** (**﴿ألا لله الدين الخالص﴾**) أي الصافي الذي زال عنه شوبه الذي كان فيه. (**وقال تعالى**) في وصف أولئك المخلصين: (**﴿إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله﴾**) فالتوبة أول مقام من مقامات اليقين والإخلاص خاتمتها. (**وقال تعالى ﴿فمن كان**

كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ [الكهف: ١١٠] نزلت فيمن يعمل لله ويحب أن يحمد عليه. وقال النبي ﷺ: « ثلاث لا يغل عليهن قلب رجل مسلم: « أخلص العمل لله ». وعن مصعب بن سعد عن أبيه قال: ظنّ أبي أن له فضلاً على من هو دونه من أصحاب رسول الله ﷺ فقال النبي ﷺ: « إنما نصر الله عز وجل هذه الأمة بضعفائها ودعوتهم وإخلاصهم وصلاتهم ». وعن الحسن

يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ نزلت فيمن يعمل لله ويحب أن يحمد عليه) .

أخرج عبد الرزاق وابن أبي الدنيا في الإخلاص، وابن أبي حاتم والحاكم عن طاوس قال: قال رجل: يا نبي الله إني أقف أبتغي وجه الله وأحب أن يرى موطني فلم يرد عليه شيئاً حتى نزلت هذه الآية. ورواه الحاكم وصححه والبيهقي موصولاً عن طاوس عن ابن عباس. وأخرجه ابن أبي حاتم عن مجاهد قال: كان من المسلمين من يقاتل وهو يحب أن يرى مكانه فأنزلت هذه الآية. وأخرج هناد في الزهد عن مجاهد قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أتصدق بالصدقة وألتمس بها ما عند الله وأحب أن يقال لي خير فنزلت. وأخرج ابن أبي حاتم عن كثير بن زياد عن الحسن قال: نزلت فيمن عمل عملاً يريد الله والناس فذلك يرد الله عليه.

(وقال النبي ﷺ « ثلاث لا يغل ») أي لا يحقد **(عليهن قلب رجل مسلم: « أخلص العمل لله »)** وتمامه « والنصيحة لولاة الأمور، ولزوم جماعة المسلمين » فإن دعوتهم تحيط من ورائهم » هذا لفظ الترمذي، ولفظ ابن ماجه « والنصح لأئمة المسلمين ولزوم جماعتهم » قال العراقي: رواه الترمذي من حديث ابن مسعود، وابن ماجه من حديث زيد بن ثابت، والطبراني وصححه من حديث النعمان بن بشير اهـ.

قلت: ورواه أيضاً الطيالسي من حديث زيد بن ثابت، وابن ماجه أيضاً من حديث جبير بن مطعم بلفظ: « ومناصحة أئمة المسلمين ولزوم جماعة المسلمين فإن الدعاء يحيط من ورائهم ».

وقال القشيري في الرسالة: أخبرنا علي بن أحمد الأهوازي، أخبرنا أحمد بن عبيد البصري، حدثنا جعفر بن محمد الفريابي، حدثنا أبو طالب، حدثني هانىء بن عبد الرحمن بن أبي عبلة العقيلي، عن ابراهيم بن أبي عبلة، حدثني عقبة بن وساح، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: « ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمور، ولزوم جماعة المسلمين ».

(وعن) أبي زرارة **(مصعب بن سعد)** المدني ثقة، روى له الجماعة مات سنة ثلاث ومائة **(عن أبيه)** سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أحد العشرة **(لأنه ظن أن له فضلاً على من هو دونه من أصحاب رسول الله ﷺ، فقال النبي ﷺ: « إنما نصر الله عز وجل هذه الأمة**

قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى الإخلاص سر من سري استودعته قلب من

بضعفائها ودعواتهم وإخلاصهم وصلاتهم») قال العراقي: رواه النسائي وهو عند البخاري بلفظ «هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم» اهـ.

قلت: وبخط الكمال الدميري كذا رواه البخاري مرسلاً، فإن مصعب بن سعد تابعي. ورواه الحافظ أبو بكر البرقاني في صحيحه متصلاً عن مصعب عن أبيه عن أبي الدرداء رفعه «ابغوني الضعفاء فإنما تنصرون وترزقون بضعفائكم» ورواه أبو داود باسناد جيد اهـ.

قلت: وهو في الحلية لأبي نعيم من طريق عاصم بن علي، عن محمد بن طلحة بن مصرف، عن أبيه، عن مصعب بن سعد قال: رأى سعد أن فضلاً على من دونه، فقال النبي ﷺ «إنما ينصر الله هذه الأمة بضعفائها بدعواتهم وصلواتهم وإخلاصهم» قال: رواه يحي بن أبي زائدة عن محمد بن طلحة مثله. ورواه عن طلحة ليث بن أبي سليم وزبيد ومسعر والحسن بن عمارة ومعاوية بن سلمة النضري اهـ.

ورواه النسائي عن مصعب بن سعد عن أبيه بلفظ «إنما تنصر هذه الأمة بضعيفها بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم». وروى أبو نعيم في المعرفة من حديث أبي عبيدة بلفظ «إنما تنصرون بضعفائكم». ورواه أيضاً من حديث سعد بن أبي وقاص بلفظ «إنما ينصر الله الأمة بضعفائها بدعائهم وصلاتهم وإخلاصهم». قاله حين ظن سعد أنه له فضلاً على ما دونه.

وأما حديث أبي الدرداء فلفظه «ابغوني ضعفاءكم فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم» هكذا رواه أحمد وأبو داود والترمذي وقال حسن صحيح والنسائي والحاكم وابن حبان والطبراني والبيهقي، ولفظ البخاري «ابغوني الضعفاء فإنما تنصرون» الخ. وكذا هو في رواية لأبي داود والحاكم.

(وعن الحسن) البصري رحمه الله تعالى **(قال: قال رسول الله ﷺ «يقول الله تعالى الإخلاص سر من سري استودعته قلب من أحببته من عبادي»)** قال العراقي: رويناه في جزء من مسلسلات القزويني مسلسلاً يقول كل واحد من رواته سألت فلاناً عن الإخلاص. قال: وهو من رواية أحمد بن عطاء الجهيمي، عن عبد الواحد بن زيد، عن الحسين، عن حذيفة، عن النبي ﷺ، عن جبريل، عن الله تعالى. وأحمد بن عطاء وعبد الواحد كلاهما متروك وهما من الزهاد. ورواه أبو القاسم القشيري في الرسالة من حديث علي بن أبي طالب بسند ضعيف اهـ.

قلت: ورويناه في جزء من المسلسلات للحافظ بن ناصر الدين الدمشقي قال: سألت شيخنا أبا العباس أحمد بن يوسف بن البود عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت أبا الظفر يوسف بن محمد السلامي عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت أبا الشثاء محمود بن علي الدقوقي وأخاه أبا نصر محمداً عن الإخلاص ما هو؟ قالا: سألنا الإمام أبا الخير عبد الصمد بن أحمد المقري عن الإخلاص ما هو؟ ح.

....

قال: وأنبأنا جماعة. منهم أبو العباس أحمد بن الصلاح علي محمد بن قاضي الحصن، أخبرنا أبو نصر محمد بن علي الدقوقي كتابة من بغداد قال: سألت أبا أحمد عبد الصمد بن أحمد بن أبي الحبيش المقري عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت أبا محمد يوسف بن عبد الرحمن البكري عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت أبي أبا الفرج عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت أبا الفضل محمد بن ناصر عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت أبا الغنائم محمد بن علي النرسي عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت الشريف أبا عبدالله العلوي عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت أبا الفضل محمد بن جعفر الخزاعي عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت أبا نصر محمد بن الحسين الخراساني عن الاخلاص ما هو؟ قال: سألت أبا الحسن علي بن سعيد عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت علي بن إبراهيم الفسطاطي عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت محمد بن جعفر عن الإخلاص ما هو؟ ح.

وقال أبو الفرج: وسألت أبا الحسن علي بن يحيى عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت أبا بكر محمد بن عبد الباقي عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت أبا عبدالله محمد بن عبدالله الاسفرايني عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت أبا الحسن علي بن محمد الجمال الصوفي عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت محمد بن جعفر الخصاف عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت أحمد بن بشار عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت أبا يعقوب الشريطي عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت أحمد بن غسان عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت عبد الواحد بن زيد عن الإخلاص ما هو؟ قال: كذا وقع في روايتنا من طريق أبي المظفر السلامي منقطعاً وفي روايتنا عن ابن قاضي الحصن وغيره قال أحمد بن غسان: سألت أحمد بن عطاء الهروي، وقال هناد في روايته الهجيمي عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت عبد الواحد بن زيد عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت الحسن عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت حذيفة عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت النبي ﷺ عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت جبريل عليه السلام عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت رب العزة تبارك وتعالى عن الإخلاص ما هو؟فقال «الإخلاص سر من سري استودعته قلب من أحببته في عبادي».

وقد رواه مسلسلاً الإمام أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، عن أبي عبد الرحمن محمد بن الحسين الصوفي هو السلمي، عن علي بن سعيد، وأحمد بن محمد بن زكريا، عن علي بن إبراهيم الشقيقي، عن محمد بن جعفر الخصاف، عن أحمد بن بشار، عن أبي يعقوب الشريطي، عن أحمد بن غسان، عن أحمد بن عطاء الهجيمي، عن عبد الواحد بن زيد به. تابعه الأستاذ أبو القاسم القشيري عن عبد الرحمن السلمي كذلك، وأحمد بن عطاء كان متروكاً فيما ذكره الدارقطني اهـ سياق الحافظ الدمشقي.

قلت: لفظ القشيري في الرسالة، وقد ورد خبر مسند، عن النبي ﷺ أخبر عن جبريل عن الله عز وجل أنه قال: «الإخلاص سر من سري استودعته قلب من أحببت من عبادي». قال: سألت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمي وسألته عن الإخلاص؟ فقال: سمعت علي بن سعيد وأحمد بن زكريا وسألتهما عن الإخلاص قالا: سمعنا علي بن إبراهيم الشقيقي وسألناه عن الإخلاص.

أحببت من عبادي ». وقال علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه: لا تهتموا لقلة العمل واهتموا للقبول فإن النبي ﷺ قال لمعاذ بن جبل: « أخلص العمل يجزك منه القليل »

فقال: سمعت محمد بن جعفر الخصاف وسألته عن الإخلاص. فقال: سمعت أحمد بن بشار وسألته عن الإخلاص ما هو ؟ قال: سألت أبا يعقوب الشريطي عن الإخلاص ما هو ؟ قال: سألت الحسن عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت حذيفة عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت النبي ﷺ عن الإخلاص ما هو؟ فذكره اهـ.

قلت: وقرأت في مسلسلات الحافظ أبي مسعود سليمان بن إبراهيم بن محمد بن ابراهيم بن محمد بن سليمان الأصبهاني رحمه الله تعالى التي خرجها باسم نظام الملك وهي عندي بخطه ما لفظه: النوع السابع والمائة سألت أبا الوفاء مهدي بن أحمد بن محمد بن طراز الواعظ عن الإخلاص. قال: سألت محمد بن الحسين الصوفي. قلت: هو أبو عبد الرحمٰن السلمي شيخ القشيري عن الإخلاص. قال: سألت علي بن سعيد وأحمد بن زكريا عن الإخلاص. قال: سمعنا علي بن إبراهيم الشقيقي وسألناه عن الإخلاص. قال: سألت أحمد بن دينار عن الإخلاص. قال: سألت أبا يعقوب البويطي عن الإخلاص. قال: سألت أحمد بن غسان عن الإخلاص. قال: سألت أحمد بن عطاء الهجيمي عن الإخلاص ما هو ؟ قال: سألت أحمد بن محمد بن عبد الواحد بن يزيد عن الإخلاص ما هو ؟ قال: سألت الحسن البصري عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت حذيفة عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت النبي ﷺ عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت جبريل عليه السلام عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت رب العزة عن الإخلاص. قال « هو سر من سري استودعته قلب من أحببت من عبادي » هكذا في سياق الحافظ أبي مسعود وهي النسخة التي بخطه أحمد بن دينار بدل أحمد بن بشار، والبويطي بدل الشريطي، وأحمد بن محمد بن عبد الواحد بن يزيد، والصواب عبد الواحد بن زيد كما في سياق غيره من المتقنين. وبما تقدم تعلم أن عزو المصنف ذلك إلى الحسن على أنه مرسل غير سديد، وكذا قول العراقي أنه رواه القشيري من حديث علي فيه نظر.

ويشبه ما تقدم في الإخلاص ما رواه الحافظ أبو مسعود أيضاً في مسلسلاته فقال: سألت محمد ابن الحسين الصوفي يعني أبا عبد الرحمٰن السلمي عن علم الباطن قال: حدثنا أحمد بن يعقوب بن نصر. وسألته عن علم الباطن قال: سألت أحمد بن غسان عن علم الباطن. قال: سألت الحسن عن علم الباطن. قال: سألت حذيفة بن اليمان عن علم الباطن. قال: سألت رسول الله ﷺ عن علم الباطن. قال: سألت جبريل عليه السلام عن علم الباطن. قال: سألت الله تبارك وتعالى عن علم الباطن. قال: « يا جبريل هو سر بيني وبين أوليائي وأصفيائي أودعته في قلوبهم لا يطلع عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل ».

(وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: لا تهتموا لقلة العمل واهتموا للقبول فإن النبي ﷺ قال لمعاذ بن جبل) رضي الله عنه: **(« أخلص العمل يجزك منه القليل »)** قال العراقي: رواه الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ وإسناده منقطع اهـ.

وقال عليه السلام: « ما من عبد يخلص لله العمل أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه ». وقال عليه السلام: « أول من يسأل يوم القيامة ثلاثة: رجل آتاه الله العلم فيقول الله تعالى ما صنعت فيما علمت فيقول: يا رب كنت أقوم به آناء الليل وأطراف النهار، فيقول الله تعالى كذبت وتقول الملائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم ألا فقد قيل ذلك. ورجل آتاه الله مالاً فيقول الله تعالى لقد أنعمت عليك فماذا صنعت فيقول: يا رب كنت أتصدق به آناء الليل وأطراف النهار، فيقول الله تعالى كذبت وتقول الملائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان جواد ألا فقد قيل ذلك. ورجل قتل في سبيل الله تعالى فيقول الله تعالى ماذا صنعت فيقول: يا رب أمرت بالجهاد فقاتلت حتى قتلت، فيقول الله كذبت وتقول الملائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان

قلت: رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص، وابن حاتم والحاكم وأبو نعيم في الحلية من حديث معاذ. قال: لما بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن قلت: أوصني. فقال: أخلص دينك يكفيك القليل من العمل » وقال الحاكم: صحيح، وتعقبه الذهبي.

(وقال ﷺ « ما من عبد يخلص لله العمل أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه »). قال العراقي: رواه ابن عدي، ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات وقد تقدم اهـ.

قلت: تقدم الكلام عليه في كتاب ذم الجاه والرياء، وأنه روي من حديث أبي أيوب بلفظ « من أخلص لله أربعين يوماً » الحديث. رواه صاحب الحلية من طريق مكحول عنه وسنده ضعيف. ورواه أحمد في الزهد من مرسل مكحول، وكذا رواه القشيري في الرسالة بلفظ « ما أخلص عبد قط أربعين يوماً » الحديث. وله شاهد من حديث ابن عباس رواه القضاعي في المسند وفي آخره زيادة وقد تقدم. وأما قول علي رضي الله عنه، فلفظ القوت: كونوا بقبول العمل أشد اهتماماً منكم بالعمل فإنه لا يقل عمل مع تقوى وكيف يقل عمل يتقبل.

(وقال ﷺ « أول من يسأل يوم القيامة ثلاثة: رجل آتاه الله العلم فيقول الله تعالى) له **(ما صنعت فيما علمت؟ فيقول: يا رب كنت أقوم به آناء الليل وأطراف النهار، فيقول الله تعالى: كذبت وتقول الملائكة: كذبت، بل أردت أن يقال فلان عالم ألا فقد قيل ذلك. ورجل آتاه الله مالاً فيقول الله تعالى: لقد أنعمت عليك فماذا صنعت؟ فيقول: يا رب كنت أتصدق آناء الليل والنهار. فيقول الله: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، بل أردت أن يقال فلان جواد ألا فقد قيل ذلك. ورجل قتل في سبيل الله فيقول الله تعالى: ماذا صنعت؟ فيقول: يا رب أمرت بالجهاد فقاتلت حتى قتلت. فيقول: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت بل أردت أن يقال فلان شجاع ألا فقد قيل ذلك »)** رواه أحمد ومسلم

شجاع ألا فقد قيل ذلك ». قال أبو هريرة ثم خط رسول الله ﷺ **على فخذي وقال: « يا أبا هريرة أولئك أوّل خلق تسعر نار جهنم بهم يوم القيامة » فدخل راوي هذا الحديث على معاوية وروى له ذلك فبكى حتى كادت نفسه تزهق ثم قال: صدق الله إذ قال: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَها﴾ [هود: ١٥] الآية. وفي الإسرائيليات أن عابداً كان يعبد الله دهراً طويلاً فجاءه قوم فقالوا: إنّ ههنا قوماً يعبدون شجرة من**

والنسائي من حديث أبي هريرة بلفظ « إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتي به فعرفه نعمه فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت. قال: كذبت ولكنك قاتلت ليقال جريء فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتي به فعرفه نعمه فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارىء فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتي به فعرفه نعمه فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك. قال: كذبت ولكنك فعلت ذلك ليقال هو جواد فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار ».

أخبرناه عمر بن أحمد بن عقيل قال: أخبرناه عبدالله بن سالم، أخبرناه محمد بن العلاء الحافظ، أخبرنا علي بن يحي، أخبرنا يوسف بن عبدالله، أخبرنا محمد بن عبد الرحمن الحافظ، أخبرنا أبو الفضل أحمد بن علي الحافظ، أخبرنا أبو الخير أحمد بن خليل العلائي، أخبرنا والدي محمد بن مشرق، أخبرنا علي بن المنير، عن الفضل بن سهل، عن أحمد بن علي الحافظ، أخبرنا علي بن أحمد المقري، حدثنا محمد بن العباس بن الفضل، حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا جعفر بن عون وعبد الوهاب يعني ابن عطاء قالا: أخبرنا عبد الملك بن جريج، أخبرني يونس بن يوسف عن سليمان بن يسار قال: تفرق الناس عن أبي هريرة رضي الله عنه فقال له ناتل أخو أهل الشام: يا أبا هريرة حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ فقال « سمعت رسول الله ﷺ يقول « أول الناس يقضى فيه يوم القيامة رجل » فذكره. وقد رواه الترمذي أطول من هذا من رواية شفي الأصبحي عن أبي هريرة وتقدم في ذم الجاه والرياء.

(**قال أبو هريرة**) رضي الله عنه (**ثم خط رسول الله ﷺ على فخذي وقال: « يا أبا هريرة أولئك أول خلق تسعر نار جهنم بهم يوم القيامة » فدخل راوي هذا الحديث**) هو ناتل بن قيس الجرمي أو شفي الأصبحي (**على معاوية**) رضي الله عنه وهو إذ ذاك أمير الشام (**وروى له**) ما سمعه من أبي هريرة (**فبكى**) معاوية (**حتى كادت نفسه تزهق ثم قال: صدق الله إذ قال ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها﴾ الآية**).

(**وفي الإسرائيليات أن عابداً كان يعبد الله دهراً طويلاً فجاءه قوم فقالوا: إن ههنا**

دون الله تعالى ، فغضب لذلك وأخذ فاسه على عاتقه وقصد الشجرة ليقطعها ، فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال: أين تريد رحمك الله؟ قال: أريد أن أقطع هذه الشجرة. قال: وما أنت وذاك! تركت عبادتك واشتغالك بنفسك وتفرغت لغير ذلك! فقال: إنّ هذا من عبادتي، قال: فإني لا أتركك أن تقطعها ، فقاتله فأخذه العابد فطرحه إلى الأرض وقعد على صدره فقال له إبليس: أطلقني حتى أكلمك فقام عنه فقال له إبليس: يا هذا إن الله تعالى قد أسقط عنك هـذا ولم يفرضه عليك! وما تعبدها أنت وما عليك من غيرك ولله تعالى أنبياء في أقاليم الأرض ولو شاء لبعثهم إلى أهلها وأمرهم بقطعها! فقال العابد لا بدّ لي من قطعها ، فنابذه للقتال فغلبه العابد وصرعه وقعد على صدره، فعجز إبليس فقال له: هل لك في أمر فصل بيني وبينك وهو خير لك وأنفع؟ قال: وما هو؟ قال: أطلقني حتى أقول لك ، فأطلقه فقال إبليس: أنت رجل فقير لا شيء لك إنما أنت كل على الناس يعولونك ، ولعلك تحب أن تتفضل على إخوانك وتواسي جيرانك وتشبع وتستغني عن الناس! قال: نعم، قال: فارجع عن هذا الأمر ولك علي أن أجعل

قوماً يعبدون شجرة من دون الله تعالى، فغضب لذلك فأخذ فأسه على عاتقه وقصد الشجرة ليقطعها فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال) له: **(أين تريد رحمك الله؟ قال)** العابد: **(أريد أن أقطع هذه الشجرة)** التي تعبد من دون الله. **(قال)** إبليس: **(وما أنت وذاك تركت عبادتك واشتغالك بنفسك وتفرغت لغير ذلك فقال)** العابد: **(إن هذا مـن)** جملة **(عبادتي. قال)** إبليس: **(فإني لا أتركك أن تقطعها فقاتله)** أي صارعه، **(فأخذه العابد فطرحه على الأرض وقعد على صدره فقال له إبليس: أطلقني)** وقم عني **(حتى أكلمك، فقام عنه فقال له إبليس: يا هذا إن الله قد أسقط عنك هذا ولم يفرضه عليك)** أنبي أنت؟ قال: لا . قال: **(وما تعبدها ولا عليك من غيرك)** ممن كان يعبدها فلو اشتغلت بعبادتك **(و)** تركتها فإن **(لله أنبياء في الإرض ولو شاء لبعثهم إلى أهلها وأمرهم بقطعها. قال العابد: لا بد لي من قطعها فنابذه)** إبليس **(للقتال فغلبه العابد)** فأخذه **(وصرعه)** على الأرض وقعد على صدره، **(فعجز إبليس)** عن مقاومته ورأى أن لا طاقة له به ولا سلطان له عليه، **(فقال له)**: يا هذا **(هل لك في أمر يفصل بيني وبينك وهو خير لك وأنفع)** من هذا الأمر الذي جئت تطلبه؟ **(قال: وما هو؟ قال: أطلقني)** وقم عني **(حتى أقول لك، فأطلقه)** وقام عنه. **(قال إبليس: أنت رجل فقير لا شيء لك إنما أنت كل على الناس يعولونك ولعلك تحب أن تتفضّل على إخوانك وتواسي جيرانك وتتسع)** في حالك، وفي بعض النسخ وتشبع بدل وتتسع وهو تصحيف، **(وتستغني عن الناس. قال)** العابد: **(نعم. قال: فارجع عن هذا الأمر)** الذي جئت فيه **(ولك علي أن أجعل عنـد رأسـك في كـل ليلـة**

عند رأسك في كل ليلة دينارين إذا أصبحت أخذتها فأنفقت على نفسك وعيالك وتصدّقت على إخوانك، فيكون ذلك أنفع لك وللمسلمين من قطع هذه الشجرة التي يغرس مكانها ولا يضرهم قطعها شيئاً ولا ينفع إخوانك المؤمنين قطعك إياها. فتفكر العابد فيما قال وقال: صدق الشيخ: لست بنبي فيلزمني قطع هذه الشجرة ولا أمرني الله أن أقطعها فأكون عاصياً بتركها وما ذكره أكثر منفعة، فعاهده على الوفاء بذلك وحلف له، فرجع العابد إلى متعبده فبات فلما أصبح رأي دينارين عند رأسه فأخذهما وكذلك الغد، ثم أصبح اليوم الثالث وما بعده فلم يرَ شيئاً. فغضب وأخذ فاسه على عاتقه فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال له: إلى أين؟ قال: أقطع تلك الشجرة فقال كذبت والله ما أنت بقادر على ذلك ولا سبيل لك إليها قال: فتناوله العابد ليفعل به كما فعل أوّل مرة فقال: هيهات، فأخذه إبليس وصرعه، فإذا هو كالعصفور بين رجليه وقعد إبليس على صدره وقال لتنتهين عن هذا الأمر أو لأذبحنك؟ فنظر العابد فإذا لا طاقة له به، قال: يا هذا غلبتني فخل عني وأخبرني كيف غلبتك أوّلاً وغلبتني الآن؟ فقال: لأنك غضبت أوّل مرة لله وكانت نيتك الآخرة فسخرني الله لك، وهذه المرة

دينارين، إذا أصبحت أخذتها) وصنعت بهما ما شئت، **(فأنفقت على نفسك وعيالك وتصدقت على إخوانك فيكون ذلك)** أفضل و **(أنفع لك وللمسلمين من قطع هذه الشجرة التي يغرس مكانها أخرى ولا يضرهم قطعها شيئاً ولا ينفع إخوانك المؤمنين قطعك إياها)** وفي بعض النسخ لها، **(فتفكر العابد فيما قال)** له **(وقال: صدق الشيخ لست بنبي فيلزمني قطع هذه الشجرة ولا أمرني الله تعالى أن أقطعها فأكون عاصياً بتركها)** وإنما هو شيء تفضلت به وماذا يضر الموحدين من بقائها، **(وما ذكره لي أكثر منفعة)** لعموم الناس. قال: **(فعاهده على الوفاء بذلك وحلف له، فرجع العابد إلى متعبده فبات)** ليلته **(فلما أصبح رأى دينارين عند رأسه فأخذهما وكذلك الغد ثم أصبح اليوم الثالث وما بعده)** أي اليوم الرابع، **(فلم ير شيئاً فغضب وأخذ فأسه على عاتقه)** وخرج يؤم الشجرة ليقطعها. قال: إن فاتني أمر الدنيا لأدركن أمر الآخرة. قال: **(فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال له: إلى أين)** تريد؟ **(قال: اقطع تلك الشجرة. فقال: كذبت والله ما أنت بقادر على ذلك ولا سبيل لك إليها. قال: فتناوله العابد ليفعل به كما فعل أول مرة. فقال: هيهات)**: قال: **(فأخذه إبليس وصرعه فإذا هو كالعصفور من رجليه وقعد إبليس على صدره وقال: لتنتهين عن هذا الأمر أو لأذبحنك، فنظر العابد فإذا لا طاقة له به. قال)** العابد: **(يا هذا قد غلبتني فخلّ عني وأخبرني)** عنك **(كيف)** وقد **(غلبتك أولاً)** فصرعتك **(وغلبتني الآن)** فصرعتني فكيف ذلك؟ **(فقال)** له إبليس: **(لأنك غضبت أول مرة لله)** تعالى

غضبت لنفسك وللدنيا فصرعتك. وهذه الحكايات تصديق قوله تعالى: ﴿إلاّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [محمد: ٨٣]، إذ لا يتخلص العبد من الشيطان إلا بالإخلاص، ولذلك كان معروف الكرخي رحمه الله تعالى يضرب نفسه ويقول: يا نفس اخلصي تتخلصي. وقال يعقوبُ المكفوف: المخلص من يكتم حسناتـه كما يكتم سيئاته. وقال سليمان: طوبى لمن صحت له خطوة واحدة لا يريد بها إلاّ الله تعالى. وكتب عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه إلى أبي موسى الأشعري: من خلصت نيته كفاه الله تعالى ما بينه وبين الناس. وكتب بعض الأولياء إلى أخ له: أخلص النية في أعمالك يكفك القليل من العمل. وقال أيوب السختياني: تخليص النيات على العمال أشد عليهم من جميع

(**وكانت نيتك الآخرة فسخرني الله**) تعالى لك فغلبتني، (**وهذه المرة غضبت**) أي جئت مغاضباً لنفسك و (**للدنيا**) أي كانت نيتك الدنيا فسلطني الله تعالى عليك (**فصرعتك**) هكذا نقله صاحب القوت. قال: وهكذا حدثونا في قصة تطول أن ملكة من بني إسرائيل راودت عابداً عن نفسه فقال: اجعلوا لي ماء في الخلاء أتنظف، قال: ثم صعد أعلى موضع في القصر فرمى بنفسه فأوحى الله تعالى إلى ملك الهواء الزم عبدي. قال: فلزمه حتى وضع على الأرض على قدميه رويداً، فقيل لإبليس: ألا أغويته؟ فقال: ليس لي سلطان على من خالف هواه وبذل نفسه لله تعالى. (**وهذه الحكاية تصديق قوله تعالى ﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾**) أي فإنه لا سبيل له عليهم، (**إذ لا يتخلص العبد من الشيطان إلا بالإخلاص**) إذ قال تعالى ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ [الإسراء: ٦٥] (**ولذلك كان معروف الكرخي رحمه الله يضرب نفسه ويقول: يا نفس أخلصي**) العمل لله تعالى (**تتخلصي**) من كيد الشيطان، (**وقال يعقوب المكفوف: المخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئآته**) وهو يرجع إلى قول من قال: إن الإخلاص هو التوقي عن ملاحظة الأشخاص. (**وقال أبو سليمان**) الداراني رحمه الله تعالى: (**طوبى لمن صحت خطوة واحدة لا يريد بها إلا الله تعالى**) نقله صاحب القوت.

(**وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى**) عبدالله بن قيس (**الأشعري**) رضي الله عنه وكان قد ولاه البصرة: (**من خلصت نيته كفاه الله ما بينه وبين الناس**)، وتمامه: ومن تزين للناس بغير ما يعلم الله من قلبه شانه الله فما ظنك بثواب الله في عاجل رزقه وخزائن رحمته. أخرجه هكذا أبو نعيم في الحلية. ومن طريق هناد بن السري، حدثنا محمد بن فضيل عن السري بن إسماعيل عن عامر الشعبي قال: كتب عمر إلى أبي موسى فذكره.

(**وكتب بعض الأولياء إلى أخ له: أخلص النية في أعمالك يكفك القليل من العمل**) كذا في القوت، وقد روي نحو ذلك مرفوعاً من حديث معاذ وقد تقدم قريباً.

(**وقال**) أبو بكر (**أيوب**) بن أبي تميمة (**السختياني**) بفتح المهملة بعدها معجمة ساكنة ثم

الأعمال. وكان مطرف يقول: من صفا صفي له ومن خلط خلط عليه. ورؤي بعضهم في المنام فقيل له: كيف وجدت أعمالك؟ فقال: كل شيء عملته لله وجدته، حتى حبة رمان لقطتها من طريق وحتى هرة ماتت لنا رأيتها في كفة الحسنات، وكان في قلنسوتي خيط من حرير فرأيته في كفة السيئات، وكان قد نفق حمار لي قيمته مائة دينار فما رأيت له ثواباً فقلت: موت سنور في كفة الحسنات وموت حمار وليس فيها؟ فقيل له: إنه قد وجه حيث بعثت به، فإنه لما قيل لك قد مات قلت: في لعنة الله، فبطل أجرك فيه، ولو قلت: في سبيل الله، لوجدته في حسناتك. وفي رواية قال: وكنت قد تصدّقت بصدقة بين الناس فأعجبني نظرهم إليّ فوجدت ذلك لا عليَّ ولا لي. قال سفيان: لما سمع هذا ما أحسن حاله إذ لم يكن عليه فقد أحسن إليه. وقال يحي بن معاذ: الإخلاص يميز العمل من العيوب كتمييز اللبن من الفرث والدم. وقيل كان رجل يخرج في زي النساء ويحضر كل موضع يجتمع فيه النساء من عرس أو مأتم، فاتفق أن حضر

مثناة مكسورة ثم تحتية البصري الثقة، روى له الجماعة مات سنة إحدى وثلاثين ومائة عن خمس وستين سنة. (**تخليص النيات على العمال أشد عليهم من جميع الأعمال**) كذا في القوت، وروي نحوه من قول يوسف بن أسباط: تخلص النية من فسادها أشد على العاملين من طول الاجتهاد. (**وكان مطرف**) بن عبدالله بن الشخير رحمه الله تعالى تابعي ثقة (**يقول: منْ صفى**) نفسه عن الشوائب (**صفي له، ومن خلط**) في أعماله (**خلط عليه**) كذا في القوت.

(**ورؤي بعضهم في المنام**) بعد وفاته (**فقيل: كيف وجدت أعمالك؟ فقال: كل شيء عملته لله وجدته حتى حبة رمان لقطتها من طريق، وحتى هرة ماتت لنا رأيتها**) أي الهرة وكذا حبة الرمان (**في كفة الحسنات**) قال: (**وكان في قلنسوتي خيط من حرير فرأيته في كفة السيئات**) قال: (**وكان قد نفق**) أي مات (**حمار لي قيمته مائة دينار فما رأيت له ثواباً، فقلت: موت سنور في كفة الحسنات وموت حمار**) قيمته مائة دينار (**ليس فيها**) ولا أرى له ثواباً (**فقيل لي: إنه قد وجه حيث بعثته فإنه لما قيل لك قد مات**) الحمار (**قلت في لعنة الله فبطل أجرك، ولو قلت: في سبيل الله لوجدته في حسناتك**) نقله صاحب القوت. قال: (**وفي رواية**) أخرى (**قال: وكنت تصدقت**) يوماً (**بصدقة بين الناس فأعجبني نظرهم إلي فوجدت ذلك لا علي ولا لي. قال سفيان**) الثوري: (**لما سمع هذا**) وروي له (**ما أحسَن حاله إذ لم يكن عليه فقد أحسن إليه**) ولفظ القوت ما أحسن حاله حيث وجدها لا له ولا عليه قد أحسن إليه.

(**وقال يحي بن معاذ**) الرازي رحمه الله تعالى: (**الإخلاص تمييز العمل من العيوب كتمييز اللبن من الفرث والدم**) نقله صاحب القوت. (**وقيل: كان رجل يخرج في زي النساء**) أي على

يوماً موضعاً فيه مجمع للنساء فسرقت درة فصاحوا أن أغلقوا الباب حتى نفتش ، فكانوا يفتشون واحدة واحدة حتى بلغت النوبة إلى الرجل وإلى امرأة معه ، فدعا الله تعالى بالإخلاص وقال : إن نجوت من هذه الفضيحة لا أعود إلى مثل هذا ، فوجدت الدرة مع تلك المرأة فصاحوا : أن اطلقوا الحرّة فقد وجدنا الدرّة .

وقال بعض الصوفية كنت قائماً مع أبي عبيد التستري وهو يحرث أرضه بعد العصر من يوم عرفة ، فمرّ به بعض إخوانه من الأبدال فسارّه بشيء فقال أبو عبيد : لا ، فمر كالسحاب يمسح الأرض حتى غاب عن عيني ، فقلت لأبي عبيد : ما قال لك ؟ فقال سألني أن أحج معه ، قلت : لا ، قلت : فهلا فعلت ؟ قال ليس لي في الحج نية وقد نويت أن أتمم هذه الأرض العشية فأخاف إن حججت معه لأجله تعرّضت لمقت الله تعالى ، لأني أدخل في عمل الله شيئاً غيره فيكون ما أنا فيه أعظم عندي من سبعين حجة .

هيئتهن في اللبس (**ويحضر كل موضع تجتمع فيه النساء من عرس أو مأتم**) أي في فرح أو مصيبة ، (**فاتفق**) في بعض المرات (**أن حضر يوماً موضعاً فيه مجمع للنساء فسرقت درة فصاحوا أن اغلقوا الباب حتى نفتش**) من حضر من النساء في ذلك الموضع ، (**فكانوا يفتشون واحدة واحدة حتى بلغت النوبة إلى الرجل وإلى امرأة معه فدعا الله تعالى بالإخلاص**) أي بخالص النية من القلب وعقد في نفسه (**وقال : إن نجوت من هذه الفضيحة لا أعود إلى مثل هذا**) أبداً ، (**فوجدت الدرة مع تلك المرأة فصاحوا أن اطلقوا الحرة فقد وجدنا الدرة**) فهذه الحكاية دلت على أن الإخلاص في النية هو المنجي من الفضائح الدنيوية والأخروية .

(**وقال بعض الصوفية : كنت قائماً مع أبي عبيد**) محمد بن حسان (**البسري**) نسبة إلى بسر بالضم وسكون المهملة إلى قرية من قرى حوران بالشام حكى عنه ابنه بخيت قاله الحافظ في التبصير . وقال القشيري في الرسالة : هو من قدماء المشايخ صحب أبا تراب النخشبي ، (**وهو يحرث أرضه بعد العصر من يوم عرفة فمر به بعض إخوانه من الأبدال فساره بشيء**) في أذنه (**فقال أبو عبيدة : لا ، فمر كالسحاب يمسح الأرض حتى غاب عن عيني**) قال : (**فقلت لأبي عبيد : ما قال لك ؟ فقال : سألني أن أحج معه . قلت : لا**) . قال : (**قلت فهلا فعلت ؟ قال : ليس لي في الحج نية وقد نويت أن أتمم هذه الأرض العشية ، فأخاف إن حججت معه لأجله تعرضت لمقت الله تعالى لأني أدخل في عمل الله تعالى شيئاً غيره فيكون ما أنا فيه أعظم عندي من سبعين حجة**) هكذا نقله صاحب القوت .

وقال القشيري في الرسالة : سمعت أبا عبد الرحمن السلمي يقول : سمعت أحمد بن محمد يقول : سمعت محمد بن معمر يقول : سمعت أبا زرعة يقول : كان أبو عبيد البسري يوماً على جرجر يدرس قمحاً له وبينه وبين الحج ثلاثة أيام إذ أتاه رجلان فقالا : يا أبا عبيد تنشط للحج ؟ فقال : لا ، ثم التفت إلي وقال : شيخك على هذا أقدر منها يعني نفسه .

ويروى عن بعضهم قال: غزوت في البحر فعرض بعضنا مخلاة، فقلت: أشتريها فأنتفع بها في غزوي فإذا دخلت مدينة كذا بعتها فربحت فيها، فاشتريتها فرأيت تلك الليلة في النوم كأنّ شخصين قد نزلا من السماء فقال أحدهما لصاحبه: اكتب الغزاة، فأملى عليه خرج فلان متنزهاً وفلان مرائياً وفلان تاجراً وفلان في سبيل الله، ثم نظر إلي وقال: اكتب فلان خرج تاجراً، فقلت: الله الله في أمري! ما خرجت أتجر وما معي تجارة أتجر فيها ما خرجت إلا للغزو، فقال: يا شيخ قد اشتريت أمس مخلاة تريد أن تربح فيها، فبكيت وقلت: لا تكتبوني تاجراً فنظر إلى صاحبه وقال ما ترى فقال اكتب خرج فلان غازياً إلا أنه اشترى في طريقه مخلاة ليربح فيها حتى يحكم الله عز وجل فيه بما يرى. وقال سري السقطي رحمه الله تعالى: لأن تصلي ركعتين في خلوة تخلصهما خير لك من أن تكتب سبعين حديثاً أو سبعمائة بعلو. وقال بعضهم في إخلاص ساعة نجاة الأبد ولكن الإخلاص عزيز. ويقال: العلم بذر والعمل زرع وماؤه الإخلاص. وقال بعضهم: إذا

(ويروى عن بعضهم قال: غزوت في البحر فعرض بعضنا مخلاة) أي للبيع والمخلاة ما يوضع فيه العلف للدواب **(فقلت اشتريها فأنتفع بها في غزوي فإذا دخلت مدينة كذا بعتها فربحت فيها فاشتريتها)** منه، **(فرأيت تلك الليلة في النوم كأن شخصين نزلا من السماء فقال أحدهما لصاحبه: اكتب الغزاة فأملى عليه: أكتب خرج فلان متنزهاً وفلان مرائياً وفلان تاجراً وفلان في سبيل الله ثم نظر إلي وقال: أكتب فلان خرج تاجراً، فقلت: الله الله في أمري)** والله **(ما خرجت أتجر وما معي تجارة أتجر فيها ما خرجت إلا للغزو، فقال)** لي: **(يا شيخ قد اشتريت أمس مخلاة تريد أن تربح فيها فبكيت وقلت: لا تكتبوني تاجراً فنظر إلى صاحبه وقال: ما ترى؟ فقال: أكتب خرج فلان غازياً إلا أنه اشترى في طريقه مخلاة ليربح فيها حتى يحكم الله عز وجل فيه ما يرى)** نقله صاحب القوت، فهذه الحكاية تعرفك أن الإشراك في النية تزيل عن مقام الإخلاص. فإذاً خلاص النية بخروج أضدادها من القلب والقصد والهمة لتنفرد النية بقصدها ويخلص العمل بانفراده النية لوجه الواحد الفرد المقصود بها.

(وقال سري) بن المغلس **(السقطي)** رحمه الله تعالى: **(لأن تصلي ركعتين في خلوة تخلصهما خير لك من أن تكتب سبعين حديثاً، أو قال سبعمائة)** حديث **(بعلو)** نقله صاحب القوت، وقد روى أبو الشيخ وابن عساكر من حديث جابر «من صلى ركعتين في خلاء لا يراه إلا الله عز وجل والملائكة كانت له براءة من النار». ورواه الضياء بلفظ «كتبت له». وروى أبو الشيخ من حديث ابن عمر «من صلى ركعتين في السر رفع عنه اسم النفاق».

(وقال بعضهم: في إخلاص ساعة نجاة الأبد ولكن الإخلاص عزيز) أي لصعوبته،

أبغض الله عبداً أعطاه ثلاثاً ومنعه ثلاثاً : أعطاه صحبة الصالحين ومنعه القبول منهم، وأعطاه الأعمال الصالحة ومنعه الإخلاص فيها، وأعطاه الحكمة ومنعه الصدق فيها . وقال السوسي : مراد الله من عمل الخلائق الإخلاص فقط . وقال الجنيد : إنّ لله عباداً عقلوا فلما عقلوا عملوا فلما عملوا أخلصوا فاستدعاهم الإخلاص إلى أبواب البر أجمع . وقال محمد بن سعيد المروزي : الأمر كله يرجع إلى أصلين : فعل منه بك، وفعل منك له، فترضى ما فعل وتخلص فيما تعمل . فإذا أنت قد سعدت بهذين فـزت في الدارين .

بيان حقيقة الإخلاص :

اعلم أن كل شيء يتصوّر أن يشوبه غيره، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمي

(**ويقال : العلم بذر والعمل زرع وماؤه الإخلاص**) فكما أن الزرع لا ينمو إلا بالماء كذلك العمل لا ينمو إلا بالإخلاص . (**وقال بعضهم : إذا أبغض الله عبداً أعطاه ثلاثاً ومنعه ثلاثاً : أعطاه صحبة الصالحين ومنعه القبول منهم، وأعطاه الأعمال الصالحة ومنعه الإخلاص فيها، وأعطاه الحكمة ومنعه الصدق فيها**) فالقبول والإخلاص والصدق من جملة إمارات الحب . (**وقال**) أبو يعقوب (**السوسي**) رحمه الله تعالى (**مراد الله من عمل الخلائق الإخلاص فقط**) أن لا يشركوا فيه غيره . (**وقال الجنيد**) قدس سره : (**إن لله عباداً عقلوا**) فيما أعطوا، (**فلما عقلوا عملوا**) بما علموا، (**فلما عملوا أخلصوا**) لوجهه (**فاستدعاهم الإخلاص إلى أبواب البر أجمع**) نقله صاحب القوت . (**وقال محمد بن سعيد**) ابن إبراهيم (**المروزي**) رحمه الله تعالى : (**الأمر كله يرجع إلى أصلين : فعل منه بك وفعل منك له، فترضى ما فعل**) بك (**وتخلص فيما تعمل**) له، (**فإذا أنت قد سعدت بهذين**) الأصلين (**فزت في الدارين**) فإن المدار كله على الرضا والإخلاص وهو عين التوحيد .

بيان حقيقة الإخلاص :

(**اعلم**) وفقك الله تعالى أن الإخلاص شرط في سائر العبادات وهو معنى قوله ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين﴾ [البينة : ٥] وقوله ﴿إياك نعبد﴾ وقدمنا غير ما مرة أن رؤية المنة لله تعالى واجبة للنعمة وليس لها حقيقة إلا التبري من الحول والقوة والرجوع إلى الله تعالى بالفقر والفاقة وطلب الاستعانة، وهو معنى ما أمرنا به بقوله ﴿وإياك نستعين﴾ ولا نعمة لله على عبده أفضل من الإيمان به والعمل **لأجله، فهذا** وجه وجوب الإخلاص في سائر العبادات، وأما وجه استحبابها في سائر التقلبات فإن العبد البار لا يتحرك إلا لسيده لأن القوة التي يتحرك بها مكتسبة من تغذية نعمة سيده، لأن حقيقة العبد أن لا يملك من نفسه ولا لنفسه شيئاً إذ هو خالقه ورازقه وعليه توليه إن أحسن لحكمة الكرم، وله أن يعاقبه إن أساء فما أوضح هذا وما أعزه في القلوب علماً وحالاً وعملاً، ولأجل عزته أوجب الله تعالى تكريره على ألسنتنا وقلوبنا في اليوم والليلة سبع

خالصاً، ويسمى الفعل المصفّى المخلص: إخلاصاً. قال الله تعالى: ﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦] فإنما خلوص اللبن أن لا يكون فيه شوب من الدم والفرث ومن كل ما يمكن أن يمتزج به، والإخلاص يضادّه الإشراك، فمن ليس مخلصاً فهو مشرك إلا أن الشرك درجات، فالإخلاص في التوحيد يضادّه التشريك في الإلهية. والشرك منه خفي ومنه جلي، وكذا الإخلاص. والإخلاص وضدّه يتواردان على القلب فمحله القلب وإنما يكون ذلك في القصود والنيات وقد ذكرنا حقيقة النية وأنها ترجع إلى إجابة البواعث، فمهما كان الباعث واحداً على التجرد سمي الفعل الصادر عنه إخلاصاً بالإضافة إلى المنوي، فمن تصدّق وغرضه محض الرياء فهو مخلص، ومن كان غرضه محض التقرب إلى الله تعالى فهو مخلص. ولكن العادة جارية

عشرة مرة لتخلص له أعمالنا ونعتمد عليه في جميع أحوالنا، فإذا كان الإخلاص هو الإيمان والطاعات وبه تمامها ونماؤها وجب شرح حقيقته وتفصيل درجاته ليظهر بذلك الواجب من المستحب.

فاعلم (**أن كل شيء يتصور أن يشوبه**) أي يخلطه (**غيره، فإذا صفا عن شوبه**) أي خلطه (**وخلص عنه سمي خالصاً**) لخلوصه عن الشوب، (**وسمي الفعل المصفى المخلص إخلاصاً. قال الله تعالى: ﴿من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين﴾ فإنما خلوص اللبن أن لا يكون فيه شوب من الدم والفرث ومن كل ما يمكن أن يمتزج به**) وعبارة القوت: وحقيقة الإخلاص سلامته من وصفين الرياء والهوى ليكون خالصاً كما وصف الله تعالى الخالص من اللبن، فكان بذلك تمام النعمة علينا فقال ﴿من بين فرث ودم لبناً خالصاً﴾ فلو وجدوا فيه أحد الوصفين من فرث أو دم لم يكن خالصاً ولم تتم النعمة به علينا ولم تقبله نفوسنا، فكذلك معاملته لله تعالى إذا شابها رياء بخلق أو هوى من شهوة نفس لم تكن خالصة ولم يتم بها الصدق والأدب في المعاملة ولم يقبله الله تعالى منا اهـ.

(**والإخلاص**) وهو تجرد الباعث الواحد (**يضاده الإشراك**) وهو أن يشترك باعثان، (**فمن ليس مخلصاً فهو مشرك إلا أن الشرك درجات، فالإخلاص في التوحيد يضاده التشريك في الإلهية والشرك منه خفي وجلي، وكذا الاخلاص وضده**) أي الشرك (**يتواردان على القلب فمحله للقلب**) بالاتفاق منهم، ولو قال فهو محلها كان أحسن. (**وإنما يكون ذلك في القصود والنيات. وقد ذكرنا حقيقة النية وأنها ترجع إلى إجابة البواعث فمهما كان الباعث واحداً سمي الفعل الصادر منه إخلاصاً بالإضافة إلى المنوي، فمن تصدق وغرضه محض الرياء فهو مخلص**) بهذا الاعتبار، (**ومن كان غرضه محض التقرب إلى الله تعالى فهو مخلص**) أيضاً بهذا الاعتبار فإطلاق لفظ الإخلاص على كل منهما جائز،

بتخصيص اسم الإخلاص بتجريد قصد التقرّب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب كما أن الإلحاد عبارة عن الميل ولكن خصصته العادة بالميل عن الحق، ومن كان باعثه مجرد الرياء، فهو معرض للهلاك ولسنا نتكلم فيه إذ قد ذكرنا ما يتعلق به في كتاب الرياء من ربع المهلكات وأقل أموره ما ورد في الخبر من: «أن المرائي يدعى يوم القيامة بأربع أسام يا مرائي يا مخادع يا مشرك يا كافر»، وإنما نتكلم الآن فيمن انبعث لقصد التقرب ولكن امتزج بهذا الباعث باعث آخر إما من الرياء أو من غيره من حظوظ النفس. ومثال ذلك أن يصوم لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب، أو يعتق عبداً ليتخلص من مؤونته وسوء خلقه، أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر، أو يتخلص من شر يعرض له في بلده، أو ليهرب عن عدوّ في منزله، أو يتبرم بأهله وولده، أو يشغل هو فيه فأراد أن يستريح منه أياماً. أو ليغزو ليمارس الحرب ويتعلم أسبابه ويقدر به على

(ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الإخلاص بتجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب) وهو أحد الجانبين، **(كما أن الإلحاد)** لغة **(عبارة عن الميل)** المطلق سواء كان عن باطل أو إلى باطل، **(ولكن خصصته العادة بالميل عن الحق)** إلى الباطل وهو أحد الجانبين. **(ومن كان باعثه مجرد الرياء فهو معرض للهلاك، ولسنا نتكلم فيه)** الآن **(إذ ذكرنا ما يتعلق به في كتاب الرياء من ربع المهلكات)** فلا نعيده، **(وأقل أموره ما ورد في الخبر من: «أن المرائي)** بأعماله **(يدعى يوم القيامة بأربعة أسام: يا مرائي يا مخادع يا مشرك يا كافر»)** رواه ابن أبي الدنيا في كتاب النية والإخلاص وقد تقدم. **(وإنما نتكلم الآن فيمن انبعث لقصد التقرب)** إلى الله تعالى، **(ولكن امتزج بهذا الباعث باعث آخر من الرياء أو من غيره من حظوظ النفس)** جميعاً لكن من الحظوظ [1] ما يتصل أصله، ومنها ما ينقص كماله. أما الرياء؛ فهو أن يطلب الرجل بعمله حمد الناس وطلب نفعهم ودفع ذمهم، فإن العمل إذا تجرد لهذاالباعث أحبط العمل وأفسد الصلاة وأوجب المقت والنكال والعذاب الأليم، وذلك على قدر المراءى به والمراءى لأجله. أما المراءى به فهي الطاعات وذلك إما بأصولها أو بأوصافها وكل منها على ثلاث درجات تقدم تفصيلها في كتاب ذم الرياء. وأما ما يراءى لأجله فله أيضاً ثلاث درجات، وقد ذكرت في الكتاب المذكور وكذا درجات الرياء الخفي. **(و)** أما الشوائب التي هي حظوظ النفس فله أمثلة وقد أشار المصنف إلى ذلك بقوله: **(مثال ذلك أن يصوم)** العبد **(لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب، أو يعتق عبداً)** من عبيده **(ليتخلص من مؤنته وسوء خلقه)** وشره، **(أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر، أو يتخلص من شر يعرض له في بلده)** فيخرج هارباً، **(أو ليهرب من عدو له في منزله)** لا يطيق دفعه، **(أو يتبرم بأهله وولده)** أي يتضجر بهم، **(أو شغل هو فيه فأراد أن يستريح**

---

(١) بياض في الأصل.

تهيئة العساكر وجرها . أو يصلي بالليل وله غرض في دفع النعاس عن نفسه به ليراقب أهله أو رحله أو يتعلم العلم ليسهل عليه طلب ما يكفيه من المال أو ليكون عزيزاً بين العشيرة، أو ليكون عقاره وماله محروساً بعز العلم عن الأطماع . أو اشتغل بالدرس والوعظ ليتخلص عن كرب الصمت ويتفرج بلذة الحديث . أو تكفل بخدمة العلماء أو الصوفية لتكون حرمته وافرة عندهم وعند الناس، أو لينال به رفقاً في الدنيا، أو كتب مصحفاً ليجوّد بالمواظبة على الكتابة خطه، أو حج ماشياً ليخفف عن نفسه الكراء، أو توضأ ليتنظف أو يتبرد، أو اغتسل لتطيب رائحته، أو روى الحديث ليعرض بعلوّ الإسناد أو اعتكف في المسجد ليخف عليه كراء المسكن، أو صام ليخفف عن نفسه التردد في طبخ الطعام أو ليتفرّغ لأشغاله فلا يشغله الأكل عنها . أو تصدق على السائل ليقطع إبرامه في السؤال عن نفسه، أو يعود مريضاً ليعاد إذا مرض، أو يشيع جنازة ليشيع جنائز أهله أو يفعل شيئاً من ذلك ليعرف بالخير ويذكر به وينظر إليه بعين الصلاح والوقار . فمهما كان باعثه هو التقرب إلى الله تعالى ولكن انضاف إليه خطرة من هذه

أياماً) من ذلك الشغل، **(أو يغزو)** العدو **(ليمارس الحرب ويتعلم أسبابه ومقدرته على تهيئة العساكر وجرها)** أو يقدم أحد المجاهدين على غيره لغنيمة فيه، **(أو يصلي بالليل وله غرض في دفع النعاس عن نفسه ليراقب أهله أو رحله)** عن اللصوص، **(أو يتعلم العلم ليسهل عليه)** بذلك **(طلب ما يكفيه من المال، أو يكون عزيزاً بين العشيرة)** بذلك، **(أو ليكون عقاره وماله محروساً بعز العلم عن الأطماع)** فلا تمتد إليه، **(أو اشتغل بالدرس والوعظ ليتخلص من كرب الصمت وينفرج بلذة الحديث)** وحلاوة التقرير، **(أو تكفل بخدمة العلماء أو الصوفية لتكون حرمته وافرة عندهم وعند الناس)** فيروه بعين التوقير والتبجيل، **(أو لينال به رفقاً في الدنيا)** أي في معيشته، **(أو كتب مصحفاً)** أو كتاباً من كتب العلم **(ليجود بالمواظبة على الكتابة خطه)**، أو دارس قرآناً مع جماعة في منزل من يستدعيه ليمارس حفظه ويثبت في ذهنه، **(أو حج ماشياً ليخفف على نفسه الكراء)** ويتوفر ماله، **(أو توضأ ليتنظف)** بالماء **(أو يتبرد)** به. **(أو اغتسل لتطيب رائحته، أو روى الحديث)** إملاء **(ليعرف بعلو الإسناد)** وكثرة المسموعات، **(أو اعتكف في المسجد ليخف عليه كراء المسكن، أو صام ليخفف عنه نفسه التردد في طبخ الطعام، أو ليتفرغ لأشغاله فلا يشغله الأكل عنها)** أو لتتوفر الأوقات حتى يصرفها في أشغاله، **(أو تصدق على السائل ليقطع إبرامه)** وإلحاحه **(في السؤال عن نفسه، أو يعود مريضاً)** ليعاد **(إذا مرض، أو يشيع جنازة ليشيع جنائز أهله أو يفعل شيئاً من ذلك ليعرف بالخير ويذكر به وينظر إليه بعين الصلاح والوقار، فمهما كان باعثه هو التقرب إلى الله تعالى ولكن انضاف إليه خطرة من هذه الخطرات، حتى صار**

الخطرات، حتى صار العمل أخف عليه بسبب هذه الأمور فقد خرج عمله عن حدّ الإخلاص وخرج عن أن يكون خالصاً لوجه الله تعالى وتطرق إليه الشرك. وقد قال تعالى: «أنا أغنى الشركاء عن الشركة» وبالجملة؛ كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس ويميل إليه القلب قل أم كثر إذا تطرق إلى العمل تكدّر به صفوه وزال به إخلاصه. والإنسان مرتبط في حظوظه منغمس في شهواته قلما ينفك فعل من أفعاله وعبادة من عباداته عن حظوظ وأغراض عاجلة من هذه الأجناس. فلذلك قيل: من سلم له من عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله نجا. وذلك لعزة الإخلاص وعسر تنقية القلب عن هذه الشوائب، بل الخالص هو الذي لا باعث عليه إلا طلب القرب من الله تعالى. وهذه الحظوظ إن كانت هي الباعثة وحدها فلا يخفى شدّة الأمر على صاحبه فيها، وإنما نظرنا فيما إذا كان القصد الأصلي هو التقرب وانضافت إليه هذه الأمور، ثم هذه الشوائب إما أن تكون في رتبة الموافقة، أو في رتبة المشاركة، أو في رتبة المعاونة،

العمل أخف عليه بسبب هذه الأمور فقد خرج عمله عن حد الإخلاص وخرج عن أن يكون خالصاً لوجه الله تعالى وتطرق إليه الشرك) . والإخلاص عبارة عما خلص من الرياء وهذه الحظوظ جميعاً، **(وقد قال)** الله **(تعالى)** فيما روي عنه: **(« أنا أغنى الشركاء عن الشركة »)** رواه ابن جرير والبزار من حديث أبي هريرة وأوله: « من عمل عملاً أشرك فيه غيري فهو له كله » وقد تقدم.

(وبالجملة؛ كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس ويميل إليه القلب قل أم كثر إذا تطرق إلى العمل تكدر به صفوه وزال به إخلاصه، والإنسان مرتبط في حظوظه منغمس في شهواته قلما ينفك فعل من أفعاله وعبادة من عباداته عن حظوظ وأغراض عاجلة من هذه الأجناس، فلذلك قيل: من سلم له من عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله تعالى نجا، وذلك لعزة الإخلاص وعسر تنقية القلب عن هذه الشوائب) لأن حقيقته ما لا يكون للنفس فيه حظ بحال وهذا عزيز، **(بل الخالص هو الذي لا باعث عليه إلا طلب القرب من الله تعالى)** ولم يشبه شيء من هذه الحظوظ، **(وهذه الحظوظ إن كانت هي الباعثة وحدها فلا تخفى شدة الأمر على صاحبها فيها)** وقد تقدم بيانه في ذم الرياء، **(وإنما نظرنا فيما إذا كان القصد الأصلي هو التقرب)** إلى الله تعالى، **(وانضافت إليه هذه الأمور، ثم)** إن قلت: إن **(هذه الشوائب)** من الرياء والحظوظ تحبط مطلقاً فأقول: إذا اقترن بباعث الإخلاص باعث آخر فلا يخلو **(إما أن يكون في رتبة الموافقة أو في رتبة المشاركة أو في رتبة المعاونة كما سبق في بيان النية)** . أما المشاركة: فالآيات والأخبار دالة على أنها محبطة، وقد اختلف العلماء في رتبة المعاونة، والذي مال إليه المصنف أنها تنقص من أصل الثواب بقدر ما خففت من العمل

كما سبق في النية. وبالجملة؛ **فإما أن يكون الباعث النفسي مثل الباعث الديني أو أقوى** منه أو أضعف. ولكل واحد حكم آخر كما سنذكره **وإنما الإخلاص تخليص العمل عن** هذه الشوائب كلها قليلها وكثيرها **حتى يتجرد فيه قصد التقرب فلا يكون فيه باعث** سواه. وهذا لا يتصوّر إلا من محب لله **مستهتر بالله مستغرق الهم بالآخرة بحيث لم يبق** لحب الدنيا في قلبه قرار حتى لا يحب الأكل والشرب أيضاً، **بل تكون رغبته فيه كرغبته**

ورد على رأي الإحباط من العلماء كما سيأتي تفصيله قريباً. وأما الموافقة؛ فلا يجب التخلص منها لما في ذلك من الحرج على العامة ولكنها منقصة لكمال الإخلاص.

(وبالجملة؛ فإما أن يكون الباعث النفسي مثل الباعث الديني أو أقوى منه أو أضعف ولكل واحد حكم آخر كما سنذكره) قريباً، **(وإنما)** الإخلاص في الحقيقة **(تخليص العمل عن هذه الشوائب كلها قليلها وكثيرها حتى يتجرد فيه قصد التقرب فلا يكون فيه باعث سواه)** وهذا هو إخلاص العوام.

قال القشيري: سمعت أبا عبد الرحمٰن السلمي يقول: سمعت أبا عبد الرحمٰن المغربي يقول: الإخلاص ما لا يكون للنفس فيه حظ بحال، وهذا إخلاص العوام وإخلاص الخواص ما يجري عليهم لا بهم فتبدو منهم الطاعات وهم عنها بمعزل، ولا يقع لهم عليها رؤية ولا بها اعتداد انتهى.

وكأنه يشير إلى كمال الإخلاص ولا يقدر عليه إلا بعد استغراق الحب قلبه، فرجع المباحات عنده كالأدوية لا يتناول منها إلا لضرورة، ولأجل كمال الإخلاص بأصله شق على الناس علمه وعمله فصار حديث الإخلاص عند المتفقهة كالمستغرب وهو شرط في صحة أعمالهم، وقد تقدم ذكر الشوائب المنقصة لأصل الاخلاص فلنذكر الشوائب المنقصة لكماله، والكمال هو أن لا يلتفت في سائر أحواله إلا إلى الله تعالى عبادة أو عادة، وأن يكون وجود الناس عنده كعدمهم لأن وجودهم مجازي لا حقيقة، إذ لا قوام لهم بنفوسهم إنما لموجود الثابت الحقيقي هو الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم الذي قامت ذاته بذاته وكل شيء سواه قائم به ومستند إلى قدرته، فإن عجز عن هذا المقام فليكن وجودهم عنده كوجود البهائم بمعنى أنها لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً، ولا عطاء ولا منعاً، ولا مدحاً ولا ذماً، فمتى ما فرق في مشاهدة الخلق بين أن يشهده رئيس أو بهيمة في عبادة من عباداته فلا يخلو إخلاصه عن نقصان بحسب قوة النظر في وجهة قلبه عن الله تعالى أو ضعفها، ولهذا كان المخلصون على خطر عظيم وكانت أعمالهم أعمال المقربين، فمن رزق هذه الحالة فنقصانها بالنظر إليها والاعتماد عليها هذا ما يتعلق بكمال الإخلاص.

وبالجملة؛ فالباعث على الفعل إما أن يكون روحانياً فقط وهو الإخلاص، أو شيطانياً فقط وهو الرياء، أو مركباً وهو ثلاثة أقسام لأنه لا يخلو إما أن يكونا سواء أو الروحاني أقوى أو الشيطاني أقوى، فإذا كان الباعث روحانياً فقط **(وهذا لا يتصور إلا من محب لله مستهتر بالله مستغرق الهم بالآخرة بحيث لم يبق لحب الدنيا في قلبه قرار حتى لا يحب الأكل والشرب**

في قضاء الحاجة من حيث أنه ضرورة الجبلة ، فلا يشتهي الطعام لأنه طعام بل لأنه يقويه على عبادة الله تعالى ، ويتمنى أن لو كفي شر الجوع حتى لا يحتاج إلى الأكل فلا يبقى في قلبه حظ من الفضول الزائدة على الضرورة ، ويكون قدر الضرورة مطلوباً عنده لأنه ضرورة دينه فلا يكون له هم إلا الله تعالى . فمثل هذا الشخص لو أكل أو شرب أو قضى حاجته كان خالص العمل صحيح النية في جميع حركاته وسكناته ، فلو نام مثلاً حتى يريح نفسه ليتقوى على العبادة بعده كان نومه عبادة وكان له درجة المخلصين فيه ، ومن ليس كذلك فباب الإخلاص في الأعمال مسدود عليه إلا على الندور ، وكما ان من غلب عليه حب الله وحب الآخرة فاكتسبت حركاته الاعتيادية صفة همه وصارت إخلاصاً ؛ فالذي يغلب على نفسه الدنيا والعلو والرئاسة ، وبالجملة غير الله ، فقد اكتسبت جميع حركاته تلك الصفة ، فلا تسلم له عباداته من صوم وصلاة وغير ذلك إلا نادراً .

فإذاً علاج الإخلاص سر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجرّد للآخرة

أيضاً ، بل تكون رغبته فيه كرغبته في قضاء الحاجة من حيث أنه ضرورة الجبلة) ولا بد منه ، (**فلا يشتهي الطعام لأنه طعام بل لأنه يقويه على عبادة الله ، ويتمني أنه لو كفي شر الجوع حتى لا يحتاج إلى الأكل فلا يبقى في قلبه حظ من الفضول الزائدة على الضرورة ، ويكون قدر الضرورة مطلوباً عنده لأنه ضرورة دينه فلا يكون له هم إلا الله تعالى ، فمثل هذا الشخص لو أكل وشرب أو قضى حاجته كان خالص العمل صحيح النية في جميع حركاته وسكناته ، فلو نام مثلاً حتى يريح نفسه ليتقوى على العبادة بعده كان نومه عبادة وكان له درجة المخلصين فيه**) ، وإذا كان الباعث شيطانياً فقط ولا يتصور إلا من محب للنفس والدنيا مستغرق الهم بها حيث لم يبق لحب الله في قلبه مقر فتكتسب أفعاله تلك الصفة فلا يسلم له شيء من عبادته ، وإليه أشار المصنف بقوله : (**ومن ليس كذلك فباب الإخلاص في الأعمال مسدود عليه إلا على الندور**) أي القلة ، (**وكما أن من غلب عليه حب الله وحب الآخرة فاكتسبت حركاته الاعتيادية صفة همه وصارت إخلاصاً ، فالذي يغلب على نفسه الدنيا والعلو والرئاسة**) وسائر الحظوظ (**وبالجملة غير الله فقد اكتسبت جميع حركاته تلك الصفة فلا تسلم له عباداته من صوم وصلاة وغير ذلك إلا نادراً**) ، وإذا استوى الباعثان يتعارضان ويتناقضان فيصير العمل لا له ولا عليه ، وأما من غلب أحد الطرفين فيه فينحط منه ما يساوي الآخر وتبقى الزيادة موجبة أثرها اللائق بها ، وسيأتي تحقيق ذلك في أواخر فصول الباب .

(**فإذاً علاج الإخلاص كسر حظوظ النفس**) ودفعها (**وقطع الطمع عن الدنيا**

بحيث يغلب ذلك على القلب، فإذ ذاك يتيسر الإخلاص وكم من أعمال يتعب الإنسان فيها ويظنّ أنها خالصة لوجه الله ويكون فيها مغروراً لأنه لا يرى وجه الآفة فيها كما حكي عن بعضهم أنه قال: قضيت صلاة ثلاثين سنة صليتها في المسجد في الصف الأول لأني تأخرت يوماً لعذر فصليت في الصف الثاني فاعترتني خجلة من الناس حيث رأوني في الصف الثاني، فعرفت أن نظر الناس إليّ في الصف الأول كان مسرتي وسبب استراحة قلبي من حيث لا أشعر. وهذا دقيق غامض قلما تسلم الأعمال من أمثاله وقل من يتنبه له إلا منْ وفقه الله تعالى والغافلون عنه يرون حسناتهم كلها في الآخرة سيئات وهم المرادون بقوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُون ★ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتِ مَا كَسَبُوا﴾ [الزمر: ٤٧، ٤٨]، وبقوله تعالى: ﴿قل هَلْ نُنَبِّئُكُم بالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ★ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤]، وأشد الخلق تعرضاً لهذه الفتنة العلماء، فإن الباعث للأكثرين على نشر العلم لذة الاستيلاء والفرح بالاستتباع والاستبشار بالحمد والثناء، والشيطان

والتجرد للآخرة بحيث يغلب ذلك على القلب) فلا يهمه إلا هو، **(فإذا ذلك يتيسر)** له **(الإخلاص)** أي كماله **(وكم من أعمال يتعب الإنسان فيها)** طول عمره **(ويظن)** في نفسه **(أنها خالصة لوجه الله تعالى ويكون فيها مغروراً لأنه لا يرى وجه الآفة فيها)** فعليه أن يمتحن نفسه بالامتحانات، **(كما حكي عن بعضهم أنه قال: قضيت صلاة ثلاثين سنة كنت صليتها في المسجد في الصف الأول لأني تأخرت يوماً لعذر فصليت في الصف الثاني فاعترتني خجلة من الناس)** إذ **(رأوني في الصف الثاني، فعرفت أن نظر الناس إلي في الصف الأول كان مسرتي وسبب استراحة قلبي من حيث لا أشعر)** وهذا لا يحبط ثواب نفس الصلاة، وإنما ينقص ثواب المسارعة إلى الصف الأول، فعمل على خلاف ما تتقاضاه النفس لئلا يرجع ذلك له قوياً، فيستحب للمخلص أن يتفقد أحواله ليقف بذلك على أغوار مكائد النفس والشيطان. **(وهذا دقيق غامض قلما تسلم الأعمال من أمثاله وقلما يتنبه له إلا من وفقه الله تعالى)** وهم قليلون، **(والغافلون عنه يرون حسناتهم كلها في الآخرة سيئات)** ويندمون حيث لا ينفعهم الندم، **(وهم المرادون بقوله تعالى: ﴿وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾)** قيل: عملوا أعمالاً لجهلهم ظنوا أنها حسنات فوجدوها سيئات، وبقوله تعالى: **(﴿وبدا لهم سيئات ما كسبوا)** وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ **(وبقوله تعالى ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً ★ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾ وأشد الخلق تعرضاً لهذه الفتنة العلماء)** والوعاظ، **(فإن الباعث للأكثرين على نشر العلم لذة الاستيلاء)** أي الغلبة **(والفرح بالاستتباع والاستبشار بالحمد والثناء، والشيطان يلبس**

يلبس عليهم ذلك ويقول: غرضكم نشر دين الله والنضال عن الشرع الذي شرعه رسول الله ﷺ. وترى الواعظ يمن على الله تعالى بنصيحة الخلق ووعظه للسلاطين ويفرح بقبول الناس قوله وإقبالهم عليه، وهو يدعي أنه يفرح بما يسر له من نصرة الدين ولو ظهر من أقرانه من هو أحسن منه وعظاً وانصرف الناس عنه وأقبلوا عليه ساءه ذلك وغمه، ولو كان باعثه الدين لشكر الله تعالى إذ كفاه الله تعالى هذا المهم بغيره، ثم الشيطان مع ذلك لا يخليه ويقول: إنما غمك لانقطاع الثواب عنك لا لانصراف وجوه الناس عنك إلى غيرك إذ لو اتعظوا بقولك لكنت أنت المثاب واغتمامك لفوات الثواب محمود، ولا يدري المسكين أن انقياده للحق وتسليمه الأمر أفضل وأجزل ثواباً وأعود عليه في الآخرة من انفراده. وليت شعري لو اغتم عمر رضي الله عنه بتصدي أبي بكر رضي الله تعالى عنه للإمامة أكان غمه محموداً أو مذموماً؟ ولا يستريب ذو دين أن لو كان ذلك لكان مذموماً، لأن انقياده للحق وتسليمه الأمر إلى من هو أصلح منه أعود عليه في

عليهم ذلك ويقول: غرضكم) أيها العلماء **(نشر دين الله)** تعالى **(والنضال)** أي المدافعة **(عن الشرع الذي شرعه رسول الله ﷺ)** فإنما يتصورون ذلك من نفوسهم. هذا الذي أملى عليهم تتقوى صفات أفعالهم ويظنون أنهم على غاية الكمال. **(وترى الواعظ يمن على الله تعالى بنصيحة الخلق ووعظه للسلاطين ويفرح بقبول الناس قوله وإقبالهم عليه وهو يدعي أنه يفرح بما يسر له من نصرة الدين)** وهذا أيضاً مغرور قد لبس عليه الشيطان وبمعزل عن الإخلاص، **(و)** امتحان ذلك أنه **(لو ظهر من أقرانه من هو)** أكثر منه علماً وأذلق منه لساناً وأفصح منه بياناً **(وأحسن منه وعظاً، وانصرف الناس عنه)** أي عن مجلس علمه أو وعظه **(واقبلوا عليه ساءه وغمه)**، فبهذا يظهر الغرور والتلبيس في علمها، **(ولو كان باعثه الدين)** وفرح بذلك لمساعدته له على إنقاذ عباد الله من أيدي الشياطين **(لشكر الله تعالى)** على النعمة التي أداها وهي رتبة الصديقين فإن العلم بالتعلم كمال في العلم **(إذ كفاه الله تعالى هذا المهم بغيره)** ووجد مساعداً له على مهمه، وإن ضربته عقرب الحسد حتى اشتهى بذلك زوال النعمة عنه وظهور عثرات ليسقط بذلك وقع كلامه في قلوب الناس، فلا يشك أنه راكع ساجد للناس وعيشه وحياته بهم لا بالله تعالى. **(ثم الشيطان مع ذلك لا يخليه ويقول)** له: **(إنما غمك لانقطاع الثواب عنك لا لانصراف وجوه الناس عنك إلى غيرك، إذ لو اتعظوا بقولك لكنت أنت المثاب واغتمامك لفوات الثواب محمود، ولا يدري المسكين أن انقياده للحق وتسليمه الأمر للأفضل)** والأعلم والأفصح **(أجزل ثواباً وأعود عليه في الآخرة من انفراده)** في الأمر الذي فيه. **(وليت شعري لو اغتم عمر رضي الله عنه لتصدي أبي بكر رضي الله عنه للإمامة)** والخلافة دون الناس **(أكان غمه محموداً أو مذموماً؟ ولا يستريب ذو دين أن لو كان ذلك)** فرض **(لكان مذموماً، إذ انقياده للحق وتسليمه الأمر إلى من هو**

الدين من تكفله بمصالح الخلق مع ما فيه من الثواب الجزيل، بل فرح عمر رضي الله تعالى عنه باستقلال من هو أولى منه بالأمر، فما بال العلماء لا يفرحون بمثل ذلك؟ وقد ينخدع بعض أهل العلم بغرور الشيطان فيحدث نفسه بأنه لو ظهر من هو أولى منه بالأمر لفرح به، واخباره بذلك عن نفسه قبل التجربة والامتحان محض الجهل والغرور، فإن النفس سهلة القياد في الوعد بأمثال ذلك قبل نزول الأمر، ثم إذا دهاه الأمر تغير ورجع ولم يف بالوعد. وذلك لا يعرفه إلا من عرف مكايد الشيطان والنفس وطال اشتغاله بامتحانها، فمعرفة حقيقة الإخلاص والعمل به بحر عميق يغرق فيه الجميع إلا الشاذ النادر والفرد الفذ وهو المستثنى في قوله تعالى: ﴿إلاّ عِبَادكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ﴾ [ص: ٨٣] فليكن العبد شديد التفقد والمراقبة لهذه الدقائق وإلا التحق بأتباع الشياطين وهو لا يشعر.

بيان أقاويل الشيوخ في الإخلاص:

أصلح منه أعود عليه في الدين من تكفله بمصالح الخلق مع ما فيه من الثواب الجزيل، بل فرح عمر رضي الله عنه باستقلال من هو أولى بالأمر) كما دل على ذلك الآثار الواردة في قصة البيعة. **(فما بال العلماء)** وهم في منصب الإمامة **(لا يفرحون بمثل ذلك)** وهم أحق بهذا الفرح من غيرهم إذ كان سبباً لمعرفتهم بغرور نفوسهم حتى يرجعوا إلى الله تعالى ويجتهدوا في الإخلاص له، إذ معرفة الإنسان بعيوب نفسه من جملة السعادات. **(وقد ينخدع بعض أهل العلم بغرور الشيطان فيحدث نفسه بأنه لو ظهر من هو أولى منه بالأمر لفرح به وإخباره بذلك عن نفسه قبل التجربة والإمتحان محض الجهل والغرور، فإن النفس سهلة القياد في الوعد بأمثال ذلك قبل نزول الأمر، ثم إذا دهاه الأمر تغير ورجع ولم يف بالوعد، وذلك لا يعرفه إلا من عرف مكائد الشيطان والنفس.وطال اشتغاله بامتحانها فمعرفة حقيقة الإخلاص والعمل به بحر عميق يغرق فيه الجميع)**، ولذا كانوا على خطر عظيم **(إلا الشاذ النادر الفرد الفذ وهو المستثنى في قوله تعالى ﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾ فليكن العبد شديد التفقد والمراقبة لهذه الدقائق وإلا التحق باتباع الشياطين وهو لا يشعر)** ولما كان الإخلاص نعمة من النعم وفعلاً من أفعاله والعبد آلة ومحل لما يرد عليه من مولاه لا من نفسه كثرت أقاويلهم في حده وحقيقته فوجب بيان ذلك.

بيان أقاويل الشيوخ في الإخلاص:)

وسبب اختلافهم كما تقدم إما بالنظر إلى اختلاف مقاماتهم وأحوالهم، وإما بالنظر إلى اختلاف أقوال السائلين، وإما بالنظر إلى تنوع درجات الإخلاص. قال القشيري: الإخلاص إفراد الحق في الطاعة بالقصد، وهو أن يريد بطاعته التقرب إلى الله تعالى دون شيء آخر من تصنع

قال السوسي: الإخلاص فقد رؤية الإخلاص، فإن من شاهد في إخلاصه الإخلاص فقد احتاج إخلاصه إلى إخلاص، وما ذكره إشارة إلى تصفية العمل عن العجب بالفعل فإن الالتفات إلى الإخلاص والنظر إليه عجب، وهو من جملة الآفات. والخالص ما صفا عن جميع الآفات، فهذا تعرّض لآفة واحدة، وقال سهل رحمه الله تعالى: الإخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته لله تعالى خاصة، وهذه كلمة جامعة محيطة بالغرض، وفي معناه قول ابراهيم بن أدهم: الإخلاص صدق النية مع الله تعالى. وقيل لسهل: أي

المخلوق أو اكتساب محمدة عند الناس أو محبة مدح من الخلق أو معنى من المعاني سوى التقرب به إلى الله تعالى، ويصح أن يقال: الإخلاص تصفية العقل عن ملاحظة المخلوقين، ويصح أن يقال الإخلاص التوقي عن ملاحظة الأشخاص.

و(**قال**) أبو يعقوب (**السوسي**) رحمه الله تعالى: (**الإخلاص فقد رؤية الإخلاص، فإن من شاهد في إخلاصه الإخلاص فقد احتاج إخلاصه إلى الإخلاص وما ذكره إشارة إلى تصفية العمل عن العجب بالفعل، فإن الالتفات إلى الإخلاص والنظر إليه**) والسكون به (**عجب**) وسماه بعضهم رياء - كما سيأتي بيانه - (**وهو من جملة الآفات**) المتطرقة إليه، (**والخالص ما صفاه عن جميع الآفات، فهذا تعرض لآفة واحدة**) أي فلا تكون حقيقته جامعة لإفراده.

(**وقال**) أبو محمد (**سهل**) التستري رحمه الله تعالى: (**الإخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته لله تعالى خاصة**) أي لا يلتفت في سائر أحواله إلا إلى الله تعالى عبادة أو عادة، (**وهذه كلمة جامعة محيطة بالغرض**) . قال صاحب القوت: وليكن ما تحرك فيه أو سكن عنه أو توقف عن الإقدام عليه ابتغاء مرضاة الله تعالى تقرباً إليه لأجل الله تعالى: فهذا أعلى النيات وهو غاية الإخلاص. وقال أيضاً: إخلاص العبودية للربوبية أشد من إخلاص المعاملة إلا أن من رزق المقام منها دخل بحقيقة إخلاص المعاملة ضرورة فلا تنقية ولا تصفية ولا عمل ولا مجاهدة فكانوا مخلصين وهذا مقام المحبين. (**وفي معناه قال إبراهيم بن أدهم**) رحمه الله تعالى: (**الإخلاص صدق النية مع الله تعالى**) أي في حركاته وسكناته فإن الحركة والسكون اللذين هما أصلا الأفعال هما من أعماله التي يسأل عنها فيحتاج إلى صدق النية فيهما فليجعل جميع ذلك لله تعالى فيه بعقد واحد على مراتب من المقامات عنده إما حباً لله وإجلالاً له، وإما خوفاً منه أو رجاء له، أو لأجل ما أمره به فينوي أداء الفرائض، أو لما ندبه فينوي المسارعة إلى الخير، أو فيما أبيح له فتكون نيته في ذلك صلاح قلبه وإسكان نفسه واستقامة حاله. قال صاحب القوت: والنية عند قوم الإخلاص بعينه وعند آخرين الصدق وعند الجملة أنها صحة العقد وحسن القصد وهي عند الجماعة من أعمال القلوب مقدمة في الأعمال وأول كل عمل، وقد قال الله تعالى ﴿أذكروا الله ذكراً كثيراً﴾ [الأحزاب: ٤١] قيل في التفسير: خالصاً فسمى الخالص كثيراً وهو ما خلصت

شيء أشدّ على النفس؟ فقال: الإخلاص إذ ليس لها فيه نصيب. وقال رويم: الإخلاص في العمل هو أن لا يريد صاحبه عليه عوضاً في الدارين. وهذا إشارة إلى أنّ حظوظ النفس آفة آجلاً وعاجلاً، والعابد لأجل تنعم النفس بالشهوات في الجنة معلول، بل الحقيقة أن لا يراد بالعمل إلا وجه الله تعالى وهو إشارة إلى إخلاص الصدّيقين وهو الإخلاص المطلق. فأما من يعمل لرجاء الجنة وخوف النار فهو مخلص بالإضافة إلى

فيه النية لوجه الله تعالى، ووصف ذكر المنافقين بالقلة فقال: ﴿يراؤن الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا﴾ [النساء: ١٤٢] يعني غير خالص اهـ.

ويقرب من قول إبراهيم قول ذي النون رحمها الله تعالى حين سئل عن الإخلاص فقال: الإخلاص لا يتم إلا بالصدق فيه والصبر عليه، والصدق لا يتم إلا بالإخلاص فيه والمداومة عليه نقله القشيري فبين الصدق والإخلاص تلازم، فمن أخلص في مقام وصدق في سلوكه وصبر عليه حتى أحكمه نقله الله إلى ما فوقه. وسئل الجنيد عن الصدق والإخلاص فقال: بينهما فرق الصدق أصل والإخلاص فرع والصدق أصل كل شيء، والإخلاص لا يكون إلا لله بعد الدخول في الأعمال والأعمال لا تكون مقبولة إلا بهما. وقال القشيري: سمعت أبا علي الدقاق يقول: الإخلاص التوقي عن ملاحظة الخلق والصدق التنقي عن مطالعة النفس، فالمخلص لا رياء له والصادق لا إعجاب له اهـ وما ذكره هو أوفى مراتب الإخلاص والصدق، فإن أعلاها أن لا يسكن العبد إلى عمله وحسنه وإن كان صحيحاً ويراه فضلاً من ربه.

(وقيل لسهل) التستري رحمه الله تعالى **(أي أشد على النفس؟ فقال: الإخلاص لأنه ليس لها)** أي للنفس **(فيه)** أي في الإخلاص **(نصيب)** نقله القشيري، وذلك لأن الغالب على عملها أن يكون لغرض ديني أو دنيوي وما ذكره مختص بحال المريد السالك، فأما من كملت معرفته بمولاه اضمحلت لديه الأغراض فهو إنما يلتذ بالقرب.

(وقال) أبو محمد **(رويم)** بن أحمد البغدادي، المتوفى سنة ٣٠٣ كان جامعاً بين التصوف والفقه وكان يفتي على مذهب داود: **(الإخلاص في العمل وهو أن لا يريد صاحبه عليه عوضاً في الدارين)** ولا حظاً من الملكين هكذا بهذه الزيادة نقله القشيري، والمراد بالدارين دار الآخرة والدنيا، والملكين ملك اليمين وملك الشمال أي بأن يكون عمله لله لا يريد به سواه لا من دنياه ولا من أخراه، **(هذا)** الذي ذكره **(إشارة إلى أن حظوظ النفس آفة)** أي دخول حظ في العمل وآفة تعرضه إما **(آجلاً)** في دار الآخرة **(أو عاجلاً)** في دار الدنيا، **(والعابد لأجل تنعم النفس بالشهوات في الجنة)** من أكل وشرب ونكاح وغير ذلك **(معلول)** في عمله، **(بل الحقيقة أن لا يراد بالعمل إلا وجه الله تعالى)** فقط ولا يمر بباله شيء من الحظوظ، **(وهو إشارة إلى إخلاص الصديقين وهو الإخلاص المطلق)** والإخلاص الكامل، ويعبر عنه أيضاً بإخلاص الإخلاص، **(فأما من يعمل لرجاء)** دخول **(الجنة وخوف)** اقتحام **(النار فهو**

الحظوظ العاجلة وإلا فهو في طلب حظ البطن والفرج، وإنما المطلوب الحق لذوي الألباب وجه الله تعالى فقط، وهو القائل لا يتحرّك الإنسان إلا لحظ، والبراءة من الحظوظ صفة الإلهية، ومن ادعى ذلك فهو كافر. وقد قضى القاضي أبو بكر الباقلاني بتكفير من يدّعي البراءة من الحظوظ وقال: هذا من صفات الإلهية وما ذكره حق، ولكن القوم إنما أرادوا به البراءة عما يسميه الناس حظوظاً، وهو الشهوات الموصوفة في الجنة فقط، فأما التلذذ بمجرّد المعرفة والمناجاة والنظر إلى وجه الله تعالى فهذا حظ هؤلاء، وهذا لا يعدّه الناس حظاً بل يعجبون منه، وهؤلاء لو عوّضوا عما هم فيه من لذة الطاعة والمناجاة وملازمة الشهود للحضرة الإلهية سراً وجهراً جميع نعيم الجنة لاستحقروه ولم يلتفتوا إليه فحركتهم لحظ وطاعتهم لحظ ولكن حظهم معبودهم فقط دون غيره. وقال أبو عثمان: الإخلاص نسيان رؤيه الخلق بدوام النظر إلى الخالق فقط، وهذا إشارة إلى آفة الرياء فقط؛ ولذلك قال بعضهم: الإخلاص في العمل أن لا يطلع

مخلص) مقيد أي **(بالإضافة إلى الحظوظ العاجلة)** في الدنيا، **(وإلا فهو في طلب حظ البطن والفرج)** في الآخرة، **(وإنما المطلوب الحق لذوي الألباب هو وجه الله تعالى فقط)** وإليه الإشارة في الخبر «وعليون لذوي الألباب». **(وقول القائل)** في اعتراضه على من قال: إن الإخلاص هو البراءة من الحظوظ في الحركة والسكون كيف يكون هذا مع أنه **(لا يتحرك الإنسان إلا لحظ)** وكذا لا يسكن إلا لحظ، **(والبراءة من الحظوظ)** كلها في سائر الأفعال **(صفة الإلهية، ومن ادعى ذلك فهو كافر)** لأنه قد أشرك بالله في صفة من صفاته المختصة به. **(وقد قضى القاضي أبو بكر)** محمد بن الطيب **(الباقلاني)** البصري المتكلم على مذهب الأشعري وسمع الحديث من العقيلي توفي سنة ٤٠٣ **(بتكفير من يدعي البراءة)** لنفسه **(من الحظوظ)** كلها، **(وقال: هذا من صفات الإلهية)** فلا يتصف بها أحد، **(وما ذكره حق ولكن القوم إنما أرادوا البراءة مما يسميه الناس حظوظاً وهو الشهوات الموصوفة في الجنة فقط، فأما التلذذ بمجرد المعرفة)** الخاصة **(والمناجاة)** والأنس **(والنظر إلى وجه الله تعالى فهذا حظ هؤلاء)** الطائفة، **(وهذا لا يعده الناس حظاً يتعجبون منه، وهؤلاء لو عوضوا عماهم فيه من لذة الطاعة والمناجاة وملازمة الشهود للحضرة الإلهية سراً وجهراً جميع نعيم الجنة لاستحقروه)** بجنب ما هم فيه **(ولم يلتفتوا إليه، فحركتهم لحظ وطاعتهم لحظ ولكن حظهم معبودهم فقط دون غيره)** وقد يقال: إن الذي ذكره رويم حد للعمل الخالص لا للإخلاص.

(وقال أبو عثمان) سعيد بن إسماعيل الجبري النيسابوري المتوفي سنة ٢٦٨: **(الإخلاص نسيان رؤية الخلق)** أي في العمل **(بدوام النظر إلى)** فضل **(الخالق)** عليك نقله القشيري وهذا إخلاص فإنهم يخلصون عملهم حتى من رؤيتهم له استحساناً، **(وهذا إشارة إلى آفة الرياء

عليه شيطان فيفسده ولا ملك فيكتبه ؛ فإنه إشارة إلى مجرّد الإخفاء . وقد قيل : الإخلاص ما استتر عن الخلائق وصفا عن العلائق . هذا أجمع للمقاصد . وقال المحاسبي : الإخلاص هو إخراج الخلق عن معاملة الرب . وهذا إشارة إلى مجرّد نفي الرياء . وكذلك قول الخواص من شرب من كأس الرئاسة فقد خرج عن إخلاص العبودية . وقال الحواريون لعيسى عليه السلام : ما الخالص من الأعمال ؟ فقال : الذي يعمل لله تعالى لا يحب أن يحمده عليه أحد . وهذا أيضاً تعرّض لترك الرياء وإنما خصه بالذكر لأنه

فقط) كما أن قول السوسي إشارة إلى آفة العجب ، **(ولذلك قال بعضهم الإخلاص في العمل أن لا يطلع عليه شيطان فيفسده ولا ملك فيكتبه)** وهذا قول الجنيد ولفظه عند القشيري قال الجنيد : الإخلاص سر بين الله وبين العبد لا يعلمه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده ولا هوى فيميله اهـ . أي لا يؤثر فيه أحد من هؤلاء لما في قلب المتصف به من إفراد ربه بالعمل بسره ، وهذه الحالة إنما يخص الله بها خواصه من أوليائه ، ولذلك قالوا : من لم يكن بينه وبين الله سر فهو مصر ويؤيد ما تقدم من خبر حذيفة : « الإخلاص سر من سري استودعته قلب من أحببت من عبادي » ويقرب قول ذي النون : الإخلاص ما حفظ من الله وإن لم يفسده ، وأيضاً قول من سئل عنْ الإخلاص ؟ فقال : أن لا يشهد عملك غير الله . **(فإنه إشارة إلى مجرد الإخفاء)** ويقال أيضاً : إن هذا أحد لخالص العمل لا للإخلاص ، **(وقد قيل : الإخلاص ما استتر عن الخلائق وصفا من العلائق وهذا)** الحد **(أجمع للمقاصد)** فإن الشطر الأول يشير إلى الإخفاء ، والثاني إلى قطع الحظوظ ، فالأول فيه السلامة من الرياء ، والثاني فيه السلامة من الهوى . وحقيقة الإخلاص السلامة منهما .

(وقال) الحارث بن أسد **(المحاسبي)** رحمه الله تعالى : **(الإخلاص هو إخراج الخلق عن معاملة الرب ، وهذا إشارة إلى مجرد نفي الرياء)** ويقرب منه قول من قال : هو تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين ، وقول من قال : هو التوقي عن ملاحظة الأشخاص ، وقول من قال : هو التوقي عن ملاحظة الخلق وقد تقدم ذكر الأقوال الثلاثة . **(وكذلك قول)** إبراهيم بن أحمد **(الخواص)** رحمه الله تعالى : **(من شرب من كأس الرئاسة فقد خرج عن إخلاص العبودية)** أي فإن العبودية تقتضي الذل وإخلاصها عبارة عن كمالها ، فمن كمل في عبوديته كان بمعزل عن الرئاسة . **(وقال الحواريون لعيسى عليه السلام : ما الخالص من الأعمال) ؟** ولفظ القوت : قالوا له يا روح الله ما الإخلاص لله عز وجل ؟ **(فقال : الذي يعمل العمل لله تعالى لا يحب أن يحمده عليه أحد من الناس)** ، وتمامه عند صاحب القوت قالوا : فمن الناصح لله عز وجل ؟ قال : الذي يبدأ بحق الله عز وجل قبل حق الناس ، وإذا عرض له أمران أحدهما للدنيا والآخر للآخرة بدأ بأمر الله تعالى قبل أمر الدنيا انتهى .

ويروى في الخبر « لكل حق حقيقة وما بلغ عبد حقيقة الإخلاص حتى لا يحب أن يحمد على

أقوى الأسباب المشوّشة للإخلاص. وقال الجنيد: الإخلاص تصفية العمل من الكدورات. وقال الفضيل: ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما. وقيل الإخلاص دوام المراقبة ونسيان الحظوظ

شيء من عمل الله عز وجل» **(وهذا أيضاً تعرض لترك الرياء وإنما خصه بالذكر)** دون غيره من الآفات **(لأنه أقوى الأسباب المشوشة للإخلاص)** ففي الخبر «أخوف ما أخاف على أمتي الرياء والشهوة الخفية» قيل: حب الدنيا، وقيل العمل لأجل أن يؤجر العبد ويحمد.

(وقال الجنيد) قدس سره: **(الإخلاص تصفية العمل عن الكدورات)** ولا يتم ذلك إلا إذا ملك شيئين: أحدهما عنده أولى به من الآخر صحة القصد لوجه الله، ثم إخراج الآفات أو الحذر عليه من دخولها عليه إلى فراغه منه، فبذلك يتم إخلاصه ويصفو من كدورات الهوى ويخلص من الشهوة الخفية فيكون خالصاً من الرياء بالإخلاص صافياً من الشهوة بتفقد دخول الآفة.

(وقال الفضيل) بن عياض رحمه الله تعالى: **(ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما)** نقله القشيري سماعاً عن محمد بن الحسين قال: سمعت علي بن بندار الصوفي يقول: سمعت عبدالله بن محمود يقول: سمعت محمد بن عبد ربه يقول: سمعت الفضيل يقول فذكره. ومعنى قوله: ترك العمل الخ أي من حيث يتوهم منهم أنهم ينسبونه بالعمل إلى الرياء فيكره هذه النسبة ويحب دوام نظرهم له بالإخلاص فيكون مرائياً بتركه محبة للدوام نسبة إلى الإخلاص لا للرياء. وقوله: والعمل الخ. أي لكونه أشرك في عمله غيره، وهذا يرجع إلى قول من قال: الإخلاص تصفية العمل من الرياء والهوى.

وقال صاحب القوت: ولا يترك العبد العمل الصالح خشية دخول الآفة عليه ولا يدعه إن كان داخلاً فيه لما يعتريه، فإن ذلك بغية عدوه منه لكن يكون على نية الأولى من صحة القصد، فإن دخلت عليه وضع عليها دواء فعمل في نفيها وإزالتها وثبت على حسن نيته وصالح معاملته ولا يدع عملاً لأجل الخلق حياء منهم وكراهة اعتقادهم فضله، فإن العمل لأجل الناس شرك وتركه لأجلهم رياء، وترك العمل خشية دخول الآفة فيه جهل وتركه عند دخول العلة عليه ضعف ووهن، ومن دخل في العمل لله تعالى وخرج منه لله تعالى لم يضره ما كان بين ذلك بعد أن ينفيه ولا يساكنه، وقد يضره ما يكون بعد ذلك منه إن كان سراً فأظهر بعد زمان فصار علانية، فنقل من ديوان السر إلى ديوان العلانية، ومثل أن يتظاهر به ويفتخر ويدلي به ويتكبر فيحبط ذلك عمله لأنه قد أفسده والله لا يصلح عمل المفسدين، ومن دخل في العمل لله تعالى ودخل عليه في وسط العمل علة فخرج من العمل مما أبطل عمله، ومن دخل في العمل بآفة وخرج منه بصحة سلم له عمله وجبر بآخره أوله. وأفضل الأعمال ما دخل في أوله لله تعالى وخرج منه بالله تعالى ولم تطرقه فيما بينهما آفة، فيكون الله تعالى هو الأول والآخر معه وعنده، ثم لا يظهره بعد ذلك ولا يتظاهر به انتهى.

كلها، وهذا هو البيان الكامل والأقاويل في هذا كثيرة ولا فائدة في تكثير النقل بعد انكشاف الحقيقة، وإنما البيان الشافي بيان سيد الأوّلين والآخرين ﷺ إذ سئل عن الإخلاص فقال: «أن تقول ربي الله ثم تستقيم كما أمرت» أي لا تعبد هواك ونفسك

وقال صاحب المقاصد: الفائدة الثانية أن لا يترك العمل خوفاً من غرة الإخلاص، فإن ترك العمل من جهة الناس رياء والعمل لأجل الناس شرك، بل يعمل ويجتهد في الإخلاص فإن ترك الأعمال لا يقدر عليها إلا بالتدريج شيئاً فشيئاً، ففي الخبر: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله» فهذا يدل على الدخول في الدين قهراً لا بالاختيار، ولكن ذلك تدريج إلى مجالسة المؤمنين ومشاهدة أحوالهم وإلى استماع ما أنزل الله عليهم ليكون موصلاً للإيمان إلى قلوبهم، فيدخلون في الدين باختيارهم ثم يتدرجون قليلاً قليلاً إلى أن يبلغوا منازل المقربين، وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى ﴿والمؤلفة قلوبهم﴾ [التوبة: ٦٠]

(وقيل: الاخلاص دوام المراقبة ونسيان الحظوظ كلها، وهذا هو البيان الكامل) فإن دوام المراقبة يستدعي الاستغراق في العبودية والمستغرق فيها لا يلتفت في سائر أحواله إلا إلى الله تعالى، ونسيان الحظوظ يستدعي عدم الرؤية في إخلاصه فصار بذلك جامعاً لمعاني الإخلاص كلها، **(والأقاويل في هذه كثيرة)**، فمن ذلك قولهم: الإخلاص استواء المدح والذم من العامة ونسيان رؤية الأعمال في الأعمال ونسيان اقتضاء ثواب العمل في الآخرة، وهذا نقله القشيري عن ذي النون وهي من علامات الإخلاص. وقيل: نقصان كل مخلص في إخلاصه رؤية إخلاصه. فإذا أراد الله أن يخلص إخلاصه أسقط عن إخلاصه رؤيته لإخلاصه فيكون مخلصاً لا مخلصاً نقله القشيري عن أبي بكر الدقاق، وهو بعينه قول أبي يعقوب السوسي الذي ذكره المصنف. وقال أبو علي الروذبارى، قال لي رويم، قال أبو سعيد الخراز: رياء العارفين أفضل من إخلاص المريدين. وقال حذيفة المرعشي: الإخلاص أن تستوي أفعال العبد في الظاهر والباطن. وقيل: الإخلاص ما أريد به الحق وقصد به الصدق. وقيل: الإخلاص الإغماض عن رؤية الأعمال. وقال السري: من تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله. وقال يوسف بن الحسين: أعز شيء في الدنيا الإخلاص.

(ولا فائدة في تكثير النقل بعد انكشاف الحقيقة، وإنما البيان الشافي بيان سيد الأولين والآخرين ﷺ إذ سئل عن الإخلاص فقال «أن تقول ربي الله ثم تستقيم كما أمرت») قال العراقي: لم أره بهذا اللفظ، وللترمذي وصححه وابن ماجه من حديث سفيان بن عبدالله الثقفي قلت: يا رسول الله حدثني بأمر أعتصم به. قال «قل ربي الله ثم استقم». وهو عند مسلم بلفظ «قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك. قال: قل آمنت بالله ثم استقم» اهـ.

قلت: ذكر الحافظ في ترجمة سفيان هذا في الإصابة الحديث المذكور باللفظ الأول. وقال: أخرج حديثه مسلم والترمذي والنسائي. أي: فذكر النسائي بدل ابن ماجه والله أعلم.

ولا تعبد إلا ربك وتستقيم في عبادته كما أمرت وهذا إشارة إلى قطع ما سوى الله عن مجرى النظر وهو الإخلاص حقاً.

بيان درجات الشوائب والآفات المكدرة للإخلاص:

اعلم أن الآفات المشوشة للإخلاص بعضها جلي وبعضها خفي وبعضها ضعيف مع الجلاء وبعضها قوي مع الخفاء، ولا يفهم اختلاف درجاتها في الخفاء والجلاء إلا بمثال. وأظهر المشوّشات الإخلاص الرياء. فلنذكر منه مثالاً.

فنقول: الشيطان يدخل الآفة على المصلي مهما كان مخلصاً في صلاته، ثم نظر إليه جماعة أو دخل عليه داخل فيقول له: حسن صلاتك حتى ينظر إليك هذا الحاضر بعين الوقار والصلاح ولا يزدريك ولا يغتابك! فتخشع جوارحه، وتسكن أطرافه، وتحسن صلاته، وهذا هو الرياء الظاهر، ولا يخفى ذلك على المبتدئين من المريدين.

ووحدت في القوت ما يشبه هذا السياق قال: فاحسن تفسير النية ما فسره به رسول الله ﷺ لما سئل عن الإحسان فقال «تعبد الله كأنك تراه». فهذه شهادة العارفين ومعرفة الموقنين فهم مخلص المخلصين انتهى. (**أي لا تعبد هواك ونفسك ولا تعبد إلا ربك وتستقيم في عبادته كما أمرت، وهذا**) لا يطيقه إلا الأكابر إذ هو (**إشارة إلى قطع ما سوى الله من مجرى النظر وهو الإخلاص حقاً**). وذكروا في الاستقامة أنها الخروج عن المعهودات ومفارقة الرسوم والعادات والقيام بين يدي الله على حقيقة الصدق، والله الموفق.

بيان درجات الشوائب والآفات المكدرة للإخلاص:

(**اعلم**) وفقك الله تعالى (**أن الآفات المشوشة للإخلاص**) المكدرة لصفوه (**بعضها جلي**) أي ظاهر (**وبعضها خفي**) يدرك بالتأمل (**وبعضها ضعيف مع الجلاء وبعضها قوي مع الخفاء، ولا يفهم اختلاف درجاتها في الخفاء والجلاء إلا بمثال، وأظهر مشوشات الإخلاص**) وأقواها (**الرياء**) ولذا جعل أكثرهم تركه إخلاصاً كما تقدم في أقوالهم؛ (**فلنذكر منه مثالاً**)

(**فنقول: الشيطان يدخل الآفة على المصلي مهما كان مخلصاً في صلاته ثم نظر إليه جماعة أو دخل عليه داخل فيقول: حسن صلاتك حتى ينظر إليك هذا الحاضر بعين الوقار**) أي التعظيم (**والصلاح ولا يزدريك**) أي لا يحتقرك (**ولا يغتابك فتخشع جوارحه وتسكن أطرافه وتحسن صلاته، وهذا هو الرياء الظاهر ولا يخفى ذلك على المبتدئين من المريدين**) فلا حاجة في التطويل فيه.

الدرجة الثانية: يكون المريد قد فهم هذه الآفة وأخذ منها حذره فصار لا يطيع الشيطان فيها ولا يلتفت إليه ويستمرّ في صلاته كما كان. فيأتيه في معرض الخير ويقول: أنت متبوع ومقتدى بك ومنظور إليك وما تفعله يؤثر عنك ويتأسى بك غيرك، فيكون لك ثواب أعمالهم إن أحسنت وعليك الوزر إن أسأت، فأحسن عملك بين يديه فعساه يقتدي بك في الخشوع وتحسين العبادة. وهذا أغمض من الأوّل وقد ينخدع به من لا ينخدع بالأوّل، وهو أيضاً عين الرياء ومبطل للإخلاص، فإنه إن كان يرى الخشوع وحسن العبادة خيراً لا يرضى لغيره تركه فلم لم يرتض لنفسه ذلك في الخلوة ولا يمكن أن تكون نفس غيره أعز عليه من نفسه. فهذا محض التلبيس، بل المقتدي به هو الذي استقام في نفسه واستنار قلبه فانتشر نوره إلى غيره فيكون له ثواب عليه، فأما هذا فمحض النفاق والتلبيس، فمن اقتدى به أثيب عليه وأما هو فيطالب بتلبيسه ويعاقب على إظهاره من نفسه ما ليس متصفاً به.

الدرجة الثالثة: وهي أدق مما قبلها؛ أن يجرب العبد نفسه في ذلك ويتنبه لكيد الشيطان ويعلم أن مخالفته بين الخلوة والمشاهدة للغير محض الرياء، ويعلم أن الإخلاص في أن تكون صلاته في الخلوة مثل صلاته في الملأ، ويستحيي من نفسه ومن ربه أن يتخشع

(الدرجة الثانية: يكون المريد قد فهم هذه الآفة وأخذ منها حذره فصار لا يطيع الشيطان فيها ولا يلتفت إليه ويستمر في صلاته كما كان فيأتيه في معرض الخير ويقول: أنت متبوع ومقتدى بك ومنظور إليك وما تفعله يؤثر عنك ويتأسى بك غيرك) أي ينقل عنك ويقتدى بك فيه، **(فيكون لك ثواب أعمالهم إن أحسنت وعليك الوزر إن أسأت فأحسن عملك بين يديه فعسى يقتدي بك في الخشوع وتحسين العبادة، وهذا أغمض من الأول)** أي أدق في المدرك **(وقد ينخدع به من لا ينخدع بالأول، وهو أيضاً عين الرياء ومبطل للإخلاص، فإنه إن كان يرى الخشوع وحسن العبادة خيراً لا يرضى لغيره تركه فلم يرتض لنفسه ذلك في الخلوة ولا يمكن أن تكون نفس غيره أعز عليه من نفسه؛ فهذا محض التلبيس)** والغرور، **(بل المقتدي به هو الذي استقام في نفسه)** في أعماله وأحواله **(واستنار قلبه فانتشر نوره إلى غيره فيكون له ثواب عليه فأما هذه فمحض النفاق والتلبيس، فمن اقتدى به أثيب عليه)** لا محالة **(وأما هو فيطالب بتلبيسه ويعاقب على إظهاره من نفسه ما ليس متصفاً به)**

(الدرجة الثالثة: وهي أدق مما قبلها أن يجرب العبد نفسه في ذلك ويتنبه لكيد الشيطان) وخداعه **(ويعلم أن مخادعته بين الخلوة)** بين الناس **(والمشاهدة للغير)** منهم **(محض الرياء)** أي خالصه **(ويعلم أيضاً أن الإخلاص في أن تكون صلاته في الخلوة مثل**

لمشاهدة خلقه تخشعاً زائداً على عادته، فيقبل على نفسه في الخلوة ويحسن صلاته على الوجه الذي يرتضيه في الملأ، ويصلي في الملأ أيضاً كذلك. فهذا أيضاً من الرياء الغامض لأنه حسن صلاته في الخلوة لتحسن في الملأ فلا يكون قد فرق بينهما، فالتفاته في الخلوة والملأ إلى الخلـق بل الإخلاص أن تكون مشاهدة البهائم لصلاته ومشاهدة الخلق على وتيرة واحدة، فكان نفس هذا ليست تسمح بإساءة الصلاة بين أظهر الناس ثم يستحي من نفسه أن يكون في صورة المرائين، ويظن أن ذلك يزول بأن تستوي صلاته في الخلا والملأ وهيهات بل زوال ذلك بأن لا يلتفت إلى الخلق كما لا يلتفت إلى الجمادات في الخلا والملأ جميعاً، وهذا من شخص مشغول الهم بالخلق في الملأ والخلا جميعاً، وهذا من المكائد الخفية للشيطان.

الدرجة الرابعة: وهي أدق وأخفى أن ينظر إليه الناس وهو في صلاته فيعجز الشيطان عن أن يقول له: اخشع لأجلهم، فإنه قد عرف أنه تفطن لذلك فيقول له الشيطان: تفكر في عظمة الله تعالى وجلاله ومن أنت واقف بين يديه واستحي من أن ينظر الله إلى قلبك وهو غافل عنه، فيحضر بذلك قلبه وتخشع جوارحه ويظن أنّ ذلك

صلاته في الملأ) من الناس (**ويستحي من نفسه ومن ربه أن يتخشع لمشاهدة خلقه تخشعاً زائداً على عادته)** المستمرة، (**فيقبل على نفسه في الخلوة ويحسن صلاته على الوجه الذي يرتضيه في الملأ ويصلي في الملأ أيضاً كذلك؛ فهذاأيضاً من الرياء الغامض)** الخفي مدركه (**لأنه حسن صلاته في الخلوة لتحسن)** صلاته (**في الملأ فلا يكون قد فرق بينهما فالتفاته في الخلوة والملأ إلى الخلق)** وهذا بمعزل عن الإخلاص الكامل، (**بل الإخلاص)** الكامل أن لا يلتفت إليهم مطلقاً ويكون وجوده كعدمهم إذ لا قوام لهم بنفوسهم، ويتحقق أن الموجود الثابت الحقيقي هو الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم الذي قامت ذاته بذاته وكل شيء سواه قائم به ومستند إلى قدرته، فإن عجز عن هذا الرفيع الذروة فالواجب في حقه (**أن تكون مشاهدة البهائم لصلاته ومشاهدة الخلق على وتيرة واحدة)** أي لا فرق بينهما، (**فكان نفس هذا ليست تسمح بإساءة الصلاة بين أظهر الناس ثم يستحي من نفسه أن يكون في صـورة المرائين ويظن أن ذلك يزول بأن تستوي صلاته في الخـلا والملأ جميعاً وهذا شخص مشغول الهم الخلق في الخلا والملأ جميعاً، وهذا من المكائد الخفية للشيطان)** ولأجل هذا كان المخلصون على خطر عظيم.

(**الدرجة الرابعة: هي أدق وأخفى أن ينظر إليه الناس وهو في صلاته فيعجز الشيطان عن أن يقول له اخشع لأجلهم فإنه قد عرف أنه يفطن لذلك فيقول له الشيطان: تفكر في عظمة الله وجلاله ومن أنت واقف بين يديه واستح من أن ينظر الله إلى قلبك وهو غافل**

عين الإخلاص وهو عين المكر والخداع، فإن خشوعه لو كان لنظره إلى جلاله لكانت هذه الخطرة تلازمه في الخلوة ولكان لا يختص حضورها بحالة حضور غيره. وعلامة الأمن من هذه الآفة أن يكون هذا الخاطر مما يألفه في الخلوة كما يألفه في الملأ، ولا يكون حضور الغير هو السبب في حضور الخاطر كما لا يكون حضور البهيمة سبباً فما دام يفرق في أحواله بين مشاهدة إنسان ومشاهدة بهيمة فهو بعد خارج عن صفو الإخلاص مدنس الباطن بالشرك الخفي من الرياء، وهذا «الشرك أخفى في قلب ابن آدم من دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء»، كما ورد به الخبر، ولا يسلم من الشيطان إلا من دق نظره وسعد بعصمة الله تعالى وتوفيقه وهدايته، وإلا فالشيطان ملازم للمتشمرين لعبادة الله تعالى لا يغفل عنهم لحظة حتى يحملهم على الرياء في كل حركة من الحركات حتى في كحل العين وقص الشارب وطيب يوم الجمعة ولبس الثياب، فإنَّ هذه سنن في أوقات مخصوصة وللنفس فيها حظ خفي لارتباط نظر الخلق بها ولاستئناس الطبع بها، فيدعوه الشيطان إلى فعل ذلك ويقول هذه سنة لا ينبغي أن

عنه فيحضر بذلك قلبه) وتنتفي عنه الخطرات **(وتخشع جوارحه، ويظن أن ذلك عين الإخلاص)** إذ هو عبارة عن مراقبة القلب ونسيان الحظوظ وقد حصل كل منها، **(وهذا عين المكر والخداع فإن خشوعه لو كان لنظره إلى جلاله)** وعظمته **(لكانت هذه الخطرة تلازمه في الخلوة** ومراقبة القلب في وقت دون وقت لا يجدي نفعاً لولا أن تدوم في الأحوال كلها، **ولكان يختص حضورها بحالة حضور غيره، وعلامة الأمن من هذه الآفة يكون هذا الخاطر مما يألفه في الخلوة كما يألفه في الملأ، ولا يكون حضور الغير هو السبب في حضور الخاطر كما لا يكون حضور البهيمة سبباً)** لذلك **(فما دام يفرق في أحواله بين مشاهدة إنسان ومشاهدة بهيمة فهو بعد خارج عن صفو الإخلاص)** وكماله **(مدنس الباطن بالشرك الخفي من الرياء)** بحسب قوة انصراف وجهة قلبه عن الله تعالى وضعفها **(وهذا «الشرك أخفى في قلب آدم من دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء» كما ورد به الخبر)** من حديث أبي بكر وعائشة وابن عباس وأبي هريرة بألفاظ مختلفة مع زيادات، وقد تقدم في كتاب العلم وكتاب ذم الجاه والرياء. **(ولا يسلم من الشيطان إلا من دق نظره)** وعظمت معرفته في مكائده **(وسعد بعصمة الله تعالى وتوفيقه وهدايته، وإلا فالشيطان ملازم للمشمرين لعبادة الله لا يغفل عنهم لحظة حتى يحملهم على الرياء في كل حركة من الحركات حتى في كحل العين وقص الشارب وطيب يوم الجمعة ولبس الثياب)** الحسنة، **(فإن هذه سنن في أوقات مخصوصة)** وقد تقدم ذكر كل واحد منها في مواضعها **(وللنفس فيها حظ خفي لارتباط نظر الخلق بها ولاستئناس الطبع بها، فيدعو الشيطان إلى**

تتركها، ويكون انبعاث القلب باطناً لها لأجل تلك الشهوة الخفية، أو مشوبة بها شوباً يخرج عن حد الإخلاص بسببه، وما لا يسلم عن هذه الآفات كلها فليس بخالص، بل من يعتكف في مسجد معمور نظيف حسن العمارة يأنس إليه الطبع فالشيطان يرغبه فيه ويكثر عليه من فضائل الاعتكاف، وقد يكون المحرّك الخفي في سره هو الأنس بحسن صورة المسجد واستراحة الطبع إليه ويتبين ذلك في ميله إلى أحد المسجدين أو أحد الموضعين إذا كان أحسن من الآخر، وكل ذلك امتزاج بشوائب الطبع وكدورات النفس ومبطل حقيقة الإخلاص لعمري الغش الذي يمزج بخالص الذهب له درجات متفاوتة. فمنها ما يغلب، ومنها ما يقل لكن يسهل دركه. ومنها ما يدق بحيث لا يدركه إلا الناقد البصير. وغش القلب ودغل الشيطان وخبث النفس أغمض من ذلك وأدق كثيراً. ولهذا قيل: ركعتان من عالم أفضل من عبادة سنة من جاهل، وأريد به العالم البصير بدقائق آفات الأعمال حتى يخلص عنها، فإنّ الجاهل نظره إلى ظاهر العبادة

فعل ذلك ويقول: هذه سنة لا ينبغي أن تتركها ويكون انبعاث القلب باطناً لها لأجل تلك الشهوة الخفية) الكامنة في النفس، **(أو مشوبة بها شوباً يخرج عن حد الإخلاص)** الكامل **(بسببه وما لا يسلم من هذه الآفات كلها فليس بخالص)** حقيقة، **(بل من يعتكف في مسجد)** من المساجد **(معمور)** بالناس **(نظيف حسن العمارة يأنس إليه الطبع فالشيطان يرغبه فيه ويكثر عليه من فضائل الاعتكاف، وقد يكون المحرك الخفي في سره هو الأنس بصورة المسجد واستراحة الطبع إليه، ويتبين ذلك في ميله إلى أحد المسجدين أو أحد الموضعين إذا كان أحسن من الآخر)** وأخفى من ذلك أن يميل إلى مسجد خرب بعيد عن الناس فيلقى في نفسه أنه أجمع لقلبك في العبادة وفي باطنه الانفراد عن الناس وهو سبب الظهور فيكون عين ما هرب منه، **(وكل ذلك امتزاج بشوائب الطبع وكدورات النفس ومبطل حقيقة الإخلاص، لعمري الغش الذي يمزج بخالص الذهب له درجات متفاوتة فمنها ما يغلب ومنها ما يقل، ولكن يسهل دركه ومنها ما يدق بحيث لا يدركه إلا الناقد البصير وغش القلب ودغل الشيطان)** أي مكره، **(وخبث النفس أغمض من ذلك وأدق كثيراً، ولهذا قيل: ركعتان من عالم أفضل من عبادة سنة من جاهل)** وقد روي في المرفوع نحوه. روى ابن النجار عن موسى بن جعفر عن أبيه عن جده «ركعتان من عالم أفضل من سبعين ركعة من غير عالم» رواه الشيرازي في الألقاب من طريق مالك بن دينار عن الحسن عن أنس عن علي رفعه «ركعة من عالـم بالله خير من ألف ركعة من متجاهل بالله». وروى أبو نعيم من حديث أنس «ركعتان من رجل ورع أفضل من ألف ركعة من مخلط». **(وأريد به العالم البصير بدقائق آفات الأعمال حتى يخلص عنها، فإن الجاهل نظره إلى ظاهر العبادة واغتراره بها كنظر**

واغتراره بها كنظر السوادي إلى حمرة الدينار المموّه واستدارته وهو مغشوش زائف في نفسه، وقيراط من الخالص الذي يرتضيه الناقد البصير خير من دينار يرتضيه الغرّ الغبي. فهكذا يتفاوت أمر العبادات بل أشدّ وأعظم. ومداخل الآفات المتطرقة إلى فنون الأعمال لا يمكن حصرها وإحصاؤها فلينتفع بما ذكرناه مثالاً، والفطن يغنيه القليل عن الكثير والبليد لا يغنيه التطويل أيضاً فلا فائدة في التفصيل.

بيان حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به:

اعلم أنّ العمل إذا لم يكن خالصاً لوجه الله تعالى بل امتزج به شوب من الرياء أو حظوظ النفس فقد اختلف الناس في أنّ ذلك هل يقتضي ثواباً أم يقتضي عقاباً أم لا يقتضي شيئاً أصلاً، فلا يكون له ولا عليه؟ وأما الذي لم يرد به إلا الرياء فهو عليه قطعاً وهو سبب المقت والعقاب. وأما الخالص لوجه الله تعالى فهو سبب الثواب وإنما

السوادي) الجلف **(إلى حمرة الدينار المموه)** أي المسقى بماء الذهب **(و)** حسن **(استدارته وهو)** مع ذلك **(مغشوش زائف في نفسه)** غير رابح، **(وقيراط من الخالص الذي يرتضيه الناقد خير من دينار يرتضيه الغر)** بالكسر أي الجاهل **(الغبي؛ فهكذا يتفاوت أهل العبادات بل أشد وأعظم ومداخل الآفات المتطرقة إلى فنون الأعمال لا يمكن حصرها وإحصاؤها فلينتفع بما ذكرناه مثالاً، والفطن يغنيه القليل عن الكثير)** فتسري معرفته إليه لفطانته ويقيسه على القليل، **(والبليد)** الجبلة والطبع **(لا يغنيه التطويل أيضاً فلا فائدة في التفصيل)** في حقه والله الموفق.

بيان حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به:

وبيان اختلاف أقوال العلماء فيه

(اعلم) هداك الله تعالى **(أن العمل إذا لم يكن خالصاً لوجه الله تعالى بل امتزج به شوب من الرياء أو حظوظ النفس فقد اختلف في أن ذلك هل يقتضي ثواباً أم يقتضي عقاباً أم لا يقتضي شيئاً أصلاً فلا يكون له ولا عليه؟ أما الذي لم يرد به إلا الرياء فهو عليه قطعاً وهو سبب المقت والعقاب)**، كما دلت بذلك الأخبار التي تقدم ذكرها في كتاب العلم ومنها: حديث أبي هريرة الذي أوله «أول الناس يقضى فيه يوم القيامة ثلاثة» وقد تقدم قريباً

ومنها: حديث ابن عمر «من تعلم علماً لغير الله وأراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار» رواه الترمذي والنسائي

ومنها: حديث أبي هريرة «من تعلم علماً يبتغي به غير وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به غرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة» يعني ريحها. رواه أبو داود والحاكم وصححه

النظر في المشوب، وظاهر الأخبار تدل على أنه لا ثواب له. وليس تخلو الأخبار عن

ومنها: حديث كعب بن مالك «من طلب العلم ليجاري به العلماء أو ليماري به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار» رواه الترمذي وقال غريب

ومنها: حديث أبي هريرة «إن في جهنم وادياً يقال له جب الحزن تتعوذ منه جهنم كل يوم أربعمائة مرة يسكنه القراء المراؤن بأعمالهم» رواه الترمذي وقال غريب. فهذه الأخبار إنما تدل كلها على حبوط العمل وبطلانه لتمحصه للرياء، وهذا لا خلاف فيه بين العلماء وأن كل ما كان بهذه المثابة فهو على المرء لا له ولا ينجو منه كفافاً بل هو على خطر العقاب إلا أن يتوب من ذلك توبة يقبلها الله منه ويعفو عنه بكرمه كرماً وفضلاً

(وأما الخالص لوجه الله تعالى فهو سبب الثواب) كما دلت بذلك أيضاً الاخبار التي تقدم ذكرها وهذا أيضاً خلاف فيه بين العلماء، (وإنما النظر في) العمل (المشوب) وهو أن يكون الباعث على طلب عمل من أعمال الطاعات مجموع القصدين قصد وجه الله تعالى والقصد الدنيوي، وقد اختلف الائمة فيه فمنهم من قال: لا يقتضي هذا العمل ثواباً ولا عقاباً، ومنهم من قال: يثاب على ما فيه من الإخلاص، (وظاهر الأخبار تدل على أنه لا ثواب له) أو أنه مقتض للعقاب وأن ما وقع فيه من الرياء أحبط العمل بالكلية، وهذا القول اختاره الحرث المحاسبي، وكثير من الأئمة قالوا: إن العمل لا يترتب عليه الثواب حتى يكون جميعه خالصاً وحده من غير شوب غرض دنيوي وأنه متى خالطه قصد غير التقرب إلى الله أبطله وكان حكمه حكم ما لو تمحض ذلك القصد الدنيوي، وهذا هو الذي اختاره الشيخ عز الدين بن عبد السلام رحمه الله تعالى. قال الصلاح العلائي: وهو الذي تقتضيه الأحاديث الصحيحة (وليس تخلو الأخبار عن تعارض فيه).

قال العراقي: روى أبو داود من حديث أبي هريرة أن رجلاً قال: يا رسول الله رجل يبتغي الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضاً من عرض الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: «لا أجر له» الحديث.

وللنسائي من حديث أبي أمامة بإسناد حسن: «أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ما له؟ فقال: لا شيء له فأعاد ثلاث مرات يقول له لا شيء له، ثم قال: إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وابتغى به وجهه».

وللترمذي وقال غريب وابن حبان من حديث أبي هريرة: «الرجل يعمل العمل فيسره فإذا اطلع عليه أعجبه قال له أجران أجر السر وأجر العلانية» وقد تقدم في ذم الجاه والرياء اهـ.

قلت: حديث أبي هريرة رواه أبو داود فقال: حدثنا أبو توبة الربيع بن نافع، عن ابن المبارك. عن ابن أبي ذئب، عن القاسم، عن بكير بن عبدالله بن الأشج، عن ابن مكرز رجل من أهل الشام

تعارض فيه. والذي ينقدح لنا فيه والعلم عند الله إن ينظر إلى قدر قوّة الباعث. فإن كان الباعث الديني مساوياً للباعث النفسي تقاوما وتساقطا وصار العمل لا له ولا عليه، وإن كان باعث الرياء أغلب وأقوى فهو ليس بنافع وهو مع ذلك مضر ومفض للعقاب. نعم العقاب الّذي فيه أخف من عقاب العمل الذي تجرّد للرياء ولم يمتزج به

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله رجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضاً من عرض الدنيا. فقال النبي ﷺ: «لا أجر له» فأعظم الناس ذلك وقالوا للرجل: عد لرسول الله ﷺ فلعلك لم تفهمه، فقال: يا رسول الله رجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضاً من أعراض الدنيا. فقال: «لا أجر له». فقالوا للرجل: عد لرسول الله ﷺ فقال له الثالثة، فقال: «لا أجر له». وإسناده حسن. وأخرجه الحاكم وصححه.

وأما حديث أبي أمامة فقال النسائي: حدثني عيسى بن هلال الحمصي، حدثنا محمد بن حميد، حدثنا معاوية بن سلام، عن عكرمة بن عمار، عن شداد أبي عمار عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ما له؟ فقال رسول الله ﷺ «لا شيء له» فأعادها ثلاث مرات، ويقول رسول الله ﷺ «لا شيء له» ثم قال: «إن الله عز وجل لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وابتغى به وجهه». وإسناده صحيح. وقد أخرجه الحاكم وصححه أيضاً، فهذان الخبران يبينان صحة ما ذهب إليه المحاسبي، واختاره ابن عبد السلام، وهما صريحان في المدعى، وأما ما يعارض ذلك فحديث أبي هريرة الذي تقدم في ذم الجاه والرياء وأشار إليه العراقي، وكذا حديث عبادة بن الصامت «من غزا في سبيل الله ولم ينو إلا عقالاً فله ما نواه» رواه النسائي. قال العراقي في شرح التقريب: فإتيانه بصيغة الحصر يقتضي أنه إذا نوى مع القتال شيئاً آخر كان له ما نواه اهـ.

وقال السمعاني في أماليه قوله ﷺ «وإنما لكل امرىء ما نوى» فيه دلالة على أن الأعمال الخارجة عن العبادة قد تفيد الثواب إذا نوى بها فاعلها القربة كالأكل والشرب، إذا نوى بها القوة على العبادة والطاعة، والنوم إذا قصد به ترويح البدن للعبادة، والوطء إذا أريد به التعفف عن الفاحشة اهـ.

واختار المصنف رحمه الله تعالى التفصيل في ذلك، وقد أشار إليه بقوله: (**والذي ينقدح لنا فيه والعلم عندالله**) تعالى (**أن ينظر إلى قدر قوة البواعث فإن كان الباعث الديني مساوياً للباعث النفسي تقاوما وتساقطا وصار العمل لا له ولا عليه، وإن كان باعث الرياء أغلب وأقوى فهو ليس بنافع وهو مع ذلك مضر ومقتض للعقاب**) أي إذا تساوى القصدان وكانا على السواء يكون باطلاً، كما إذا كان الإخلاص منغمراً بالنسبة إلى الآخر. (**نعم العقاب الذي فيه أخف من عقاب العمل الذي تجرد للرياء ولم تمتزج به شائبة التقرب، وإن كان قصد**

شائبة التقرّب. وإن كان قصد التقرب أغلب بالإضافة إلى الباعث الآخر فله ثواب بقدر ما فضل من قوّة الباعث الديني وهذا لقوله تعالى: ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهْ ★ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهْ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، ولقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا ﴾ [النساء: ٤٠] فلا ينبغي أن يضيع قصد الخير، بل إن كان غالباً على قصد الرياء حبط منه القدر الذي يساويه وبقيت زيادة، وإن كان مغلوباً سقط بسببه شيء من عقوبة القصد الفاسد. وكشف الغطاء عن هذا أنّ الأعمال تأثيرها في القلوب بتأكيد صفاتها، فداعية الرياء من المهلكات وإنما غذاء هذا المهلك وقوّته العمل على وفقه. وداعية الخير من المنجيات وإنما قوتها بالعمل على وفقها. فاذا اجتمعت الصفتان في القلب فهما متضادتان، فإذا عمل على وفق مقتضى الرياء فقد قوّى تلك الصفة، وإذا كان العمل على وفق مقتضى التقرب فقد قوّى أيضاً تلك الصفة، وأحدهما مهلك والآخر منج، فإن كان تقوية هذا بقدر تقوية الآخر فقد تقاوما، فكان كالمستضر بالحرارة إذا تناول ما يضره ثم تناول من المبرّدات ما يقاوم قدر قوّته، فيكون بعد تناولها كأنه لم يتناولها، وإن كان أحدهما غالباً لم يخل الغالب عن

التقرب أغلب بالإضافة إلى الباعث الآخر فله ثواب بقدر ما فضل من قوة الباعث الديني وهذا لقوله تعالى: ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره★ ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] ولقوله تعالى ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ﴾ فلا ينبغي أن يضيع قصد الخير بل إن كان غالباً على قصد الرياء حبط منه القدر الذي يساويه وبقيت زيادة وإن كان مغلوباً سقط بسببه شيء من عقوبة القصد الفاسد)، وحاصله: إن الباعث القوي على هذا العمل إن كان إرادة وجه الله وحصل ذلك في ضمنه فإنه يثاب عليه ولا نظر إلى ما عرض فيه من الحظ الدنيوي، وإن كان الشق الآخر هو الباعث القوي بحيث لو فات لم يعمله فإنه يكون باطلاً، ولا اعتبار بما عرض فيه من الإخلاص المنغمر بالقصد الدنيوي وهذا التفصيل الذي ذكره هو أيضاً اختيار الإمام أبي العباس القرطبي وحكاه عن الجمهور، **(وكشف الغطاء هذا أن الأعمال تأثيرها في القلوب بتأكد صفاتها فداعية الرياء من المهلكات، وإنما غذاء هذا المهلك وقوته العمل على وفقه وداعية الخير من المنجيات، وإنما قوتها بالعمل على وفقها، فإذا اجتمعت الصفتان في القلب فهما متضادتان، فإذا عمل على وفق مقتضى الرياء فقد قوى تلك الصفة، وإذا كان ذلك العمل على وفق مقتضى التقرب فقد قوي أيضاً تلك الصفة وأحدهما مهلك والآخر منج، فإن كان تقوية هذا بقدر تقوية الآخر فقد تقاوما فكان كالمستضر بالحرارة إذا تناول ما يضر)** المزاج، **(ثم تناول من المفردات ما يقاوم قدر قوته فيكون بعد تناولها كأنه لم يتناولها)** فهذا معنى تقاومها، **(وإن كان**

أثر ، فكما لا يضيع مثقال ذرّة من الطعام والشراب والأدوية ولا ينفك عن أثر في الجسد بحكم سنة الله تعالى ، فكذلك لا يضيع مثقال ذرّة من الخير والشر ولا ينفك عن تأثير في إنارة القلب أو تسويده وفي تقريبه من الله أو إبعاده ، فإذا جاء بما يقربه شبراً مع ما يبعده شبراً فقد عاد إلى ما كان فلم يكن له ولا عليه ، وإن كان الفعل مما يقربه شبرين والآخر يبعده شبراً واحداً فضل له لا محالة شبر ، وقد قال النبي ﷺ : « أتبع السيئة الحسنة تمحها » ، فإذا كان الرياء المحض يمحوه الإخلاص المحض عقيبه ، فإذا اجتمعا جميعاً فلا بدّ وأن يتدافعا بالضرورة . ويشهد لهذا إجماع الأمة على أن من خرج حاجاً ومعه تجارة صح حجه وأثيب عليه ، وقد امتزج به حظ من حظوظ النفس . نعم يمكن أن يقال إنما يثاب على أعمال الحج عند انتهائه إلى مكة وتجارته غير موقوفة عليه فهو خالص ، وإنما المشترك طول المسافة ولا ثواب فيه مهما قصد التجارة . ولكن الصواب أن يقال : مهما كان الحج هو المحرّك الأصلي وكان غرض التجارة كالمعين والتابع فلا ينفك نفس السفر عن ثواب ما . وعندي : أن الغزاة لا يدركون في أنفسهم تفرقة بين غزو

أحدهما غالباً لم يخل الغالب عن أثر) لا محالة ، **(فكما لا يضيع مثقال ذرة من الطعام والشراب والأدوية ولا ينفك عن تأثير في إنارة القلب أو تسويده وفي تقريبه من الله أو إبعاده ، فإذا جاء ما يقربه شبراً مع ما يبعده شبراً فقد عاد إلى ما كان فلم يكن له ولا عليه ، فإن كان الفعل مما يقربه شبرين والآخر يبعده شبراً واحداً فضل له لا محالة شبر ، وقد قال النبي ﷺ « أتبع السيئة الحسنة تمحها »)** تقدم في رياضة النفس وفي التوبة ، **(فإن كان الرياء المحض يمحوه الإخلاص المحض عقيبه ، فإذا اجتمعا جميعاً فلا بد وأن يتدافعا بالضرورة . ويشهد لهذا)** التفصيل **(إجماع الأمة على أن من خرج حاجاً ومعه تجارة صح حجه وأثيب عليه ، وقد امتزج به حظ من حظوظ النفس)** وقال تعالى : ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾ [البقرة : ١٩٨] وإنها نزلت لما تحرجوا من التجارة في الحج **(نعم يمكن أن يقال إنما يثاب)** على أعمال الحج **(عند انتهائه إلى مكة وتجارته غير موقوفة عليه فهو خالص وإنما المشترك طول المسافة ولا ثواب فيه مهما قصد التجارة ولكن الصواب أن يقال مهما كان الحج هو المحرك الأصلي وكان غرض التجارة كالمعين والسفر التابع فلا تنفك نفس السفر عن الثواب)** قال الصلاح العلائي في مقدمة الأربعين وقد يقال إن الآية محمولة على ما إذا عرضت التجارة في موسم الحج من غير قصد لها بدليل الأحاديث السابقة ولو كان إنشاء السفر للحج والتجارة جميعاً فنقول أنه لا يثاب على ذلك السفر كما دلت عليه الأحاديث وأما أفعال الحج من الإحرام وما بعده فإذا وقعت خالصة أثيب عليها ولا تنافيها التجارة فيكون هو الذي دلت عليه الآية قالوا ويشهد لهذا التفصيل أيضاً قوله ﷺ إن من خير

الكفار في جهة تكثر فيها الغنائم وبين جهة لا غنيمة فيها. ويبعد أن يقال: إدراك هذه التفرقة يحبط بالكلية ثواب جهادهم، بل العدل أن يقال إذا كان الباعث الأصلي والمزعج القوي هو إعلاء كلمة الله تعالى وإنما الرغبة في الغنيمة على سبيل التبعية فلا يحبط به الثواب. نعم لا يساوي ثوابه ثواب من لا يلتفت قلبه إلى الغنيمة أصلاً، فإن هذا الالتفات نقصان لا محالة.

فإن قلت: فالآيات والأخبار تدل على ان شوب الرياء محبط للثواب، وفي معناه شوب طلب الغنيمة والتجارة وسائر الحظوظ. فقد روى طاوس وغيره من التابعين: أن رجلاً سأل النبي ﷺ عمن يصطنع المعروف أو قال يتصدّق فيجب أن يحمد ويؤجر فلم يدر ما يقول له حتى نزلت: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ [الكهف: ١١٠] وقد قصد الأجر والحمد جميعاً. وروى

معاش الناس الجهاد فجعل الجهاد مما يصح أن يتخذ للمعاش ومن ضرورة ذلك أن يكون مقصوداً قال الصلاح لم أره هكذا مسنداً وبتقدير صحته فإنما سماه معاشاً لما تعرض فيه غالباً من المغانم ولا يلزم من ذلك أن يكون مقصوداً اهـ. (**وما عندي أن الغزاة لا يدركون في أنفسهم تفرقة بين غزو الكفار في جهة تكثر فيها الغنائم وبين جهة لا غنيمة فيها ويبعد أن يقال ادراك هذه التفرقة يحبط بالكلية ثواب جهادهم بل العدل أن يقال إذا كان الباعث الأصلي والمزعج القوي هو إعلاء كلمة الله تعالى وإنما الرغبة في الغنيمة على سبيل التبعية فلا يحبط به الثواب نعم لا يساوي ثوابه ثواب من لا يلتفت قلبه إلى الغنيمة أصلاً فإن هذا الإلتفات نقصان لا محالة فإن قلت فالآيات والأخبار تدل على أن شوب الرياء محبط للثواب وفي معناه شوب طلب الغنيمة والتجارة وسائر الحظوظ**) وتقدم في جملة إفرادها تقديم أحد الجهادين على غيره طلباً للغنيمة (**فقد روى طاوس**) بن كيسان اليماني (**وعدة من التابعين**) كمجاهد وسعيد بن جبير والحسن (**أن رجلاً سأل النبي ﷺ عمن يصطنع المعروف أو قال يتصدق فيحب أن يحمد ويؤجر فلم يدر ما يقول له حتى نزلت ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ وقد قصد الأجر والحمد جميعاً**) رواه عبد الرزاق وابن أبي الدنيا في الإخلاص وابن أبي حاتم والحاكم نحوه عن طاوس بلفظ قال رجل يا نبي الله إني أقف أبتغي وجه الله وأحب أن يرى موطني فلم يرد عليه شيئاً حتى نزلت هذه الآية فمن كان يرجو لقاء ربه الآية هكذا رواه مرسلا من رواية طاوس وقد تقدم في ذم الجاه والرياء ورواه الحاكم أيضاً وصححه والبيهقي موصولاً عن طاوس عن ابن عباس وروى ابن المنذر من طريق ابن جريج عن مجاهد قال رجل يا رسول الله أعتق وأتصدق وأحب أن يرى فنزلت وروى هناد في الزهد بلفظ جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله أتصدق بالصدقة

معاذ عن النبي ﷺ أنه قال: « أدنى الرياء شرك » وقال أبو هريرة: قال النبي ﷺ: « يقال لمن أشرك في عمله خذ أجرك ممن عملت له ». وروي عن عبادة: « إن الله عز وجل يقول أنا أغنى الأغنياء عن الشركة من عمل لي عملاً فأشرك معي غيري ودعت نصيبي لشريكي » وروى أبو موسى أنّ أعرابياً أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله الرجل يقاتل حمية والرجل يقاتل شجاعة والرجل يقاتل ليرى مكانه في سبيل الله. فقال ﷺ: « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » وقال عمر رضي الله عنه: تقولون فلان شهيد ولعله أن يكون قد ملأ دفتي راحلته ورقاً. وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: قال رسول الله ﷺ: « من هاجر يبتغي شيئاً من الدنيا فهو له ».

والتمس بها ما عند الله وأحب أن يقال لي خير فنزلت **(وروى معاذ)** بن جبل رضي الله عنه **(عن النبي ﷺ أنه قال: « أدنى الرياء شرك »)** رواه الطبراني والحاكم وقد تقدم في ذم الجاه والرياء **(وقال أبو هريرة)** رضي الله عنه **(قال النبي ﷺ يقال لمن أشرك في عمله خذ أجرك ممن عملت له)** قال العراقي تقدم في ذم الجاه والرياء من حديث محمود بن لبيد بنحوه قلت وروى ابن سعد وأحمد والترمذي وابن ماجه والبيهقي من حديث أبي سعد بن فضالة الأنصاري وكان من الصحابة: إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه نادى مناد من كان أشرك في عمله لله أحداً فليطلب ثوابه من عند غير الله فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك **(وروي عن عبادة)** بن الصامت رضي الله عنه عن النبي ﷺ **(إن الله عز وجل يقول: « أنا أغنى الأغنياء عن الشركة من عمل عملاً فأشرك معي غيري ودعت نصيبي لشريكي »)** قال العراقي: رواه مالك في الموطأ بلفظ فهو له كله. قلت وروى نحوه من حديث الضحاك بن قيس أن الله تعالى يقول أنا خير شريك فمن أشرك معي شيئاً فهو لشريكي رواه الدارقطني وابن عساكر والضياء ورواه الخطيب في المتفق والمفترق بزيادة يا أيها الناس أخلصوا أعمالكم لله فإن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما خلص له ويروى من حديث شداد بن أوس بلفظ ان الله عز وجل يقول أنا خير قسيم لمن أشرك بي. من أشرك بي شيئاً فإن عمله قليله وكثيره لشريكه الذي أشرك به بي أنا عنه غني. رواه الطيالسي وأحمد وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية وإسناده ضعيف وروى مسلم وابن خزيمة من حديث أبي هريرة بلفظ أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملاً فأشرك فيه غيري فأنا منه بريء وهو للذي أشرك **(وروى أبو موسى)** الأشعري رضي الله عنه **(أن اعرابياً أتى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله الرجل يقاتل حمية والرجل يقاتل شجاعة والرجل يقاتل ليرى مكانه في سبيل الله)** فأيهم في سبيل الله؟ **(فقال ﷺ: « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله »)** رواه أحمد والستة وتقدم. **(وقال عمر رضي الله عنه: تقولون فلان شهيد ولعله أن يكون قد ملأ دفتي راحلته ورقاً)** أي من الغنيمة. **(وقال ابن مسعود رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ « من هاجر يبتغي شيئاً من الدنيا فهو له »)** رواه سعيد بن منصور قال:

فنقول: هذه الأحاديث لا تناقض ما ذكرناه بل المراد بها من لم يرد بذلك إلا الدنيا كقوله: «من هاجر يبتغي شيئاً من الدنيا» وكان ذلك هو الأغلب على همه وقد ذكرنا أن ذلك عصيان وعدوان لأن طلب الدنيا حرام ولكن طلبها بأعمال الدين حرام لما فيه من الرياء وتغيير العبادة عن موضعها. وأما لفظ الشركة حيث ورد فمطلق للتساوي، وقد بينا أنه إذا تساوى القصدان تقاوما ولم يكن له ولا عليه، فلا ينبغي أن يرجى عليه ثواب، ثم إن الإنسان عند الشركة أبداً في خطر فإنه لا يدري أي الأمرين أغلب على قصده فربما يكون عليه وبالاً، ولذلك قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ [الكهف: ١١٠] أي لا يرجى اللقاء مع الشركة التي أحسن أحوالها التساقط، ويجوز أن يقال أيضاً: منصب الشهادة لا ينال إلا بالإخلاص في الغزو. وبعيد أن يقال: من كانت داعيته الدينية بحيث تزعجه إلى مجرد الغزو، وإن لم يكن غنيمة وقدر على غزو طائفتين من الكفار إحداهما غنية والأخرى فقيرة فمال إلى جهة الأغنياء لإعلاء كلمة الله وللغنيمة لا ثواب لها على غزوه البتة،

حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن شقيق، عن عبدالله قال: «من هاجر يبتغي شيئاً فإنما له ذلك» هاجر رجل ليتزوج امرأة يقال لها أم قيس فكان يقال له مهاجر أم قيس، وقد تقدم وهذه الأخبار والآثار التي ساقها المصنف تصلح أن تكون حجة لما ذهب إليه المحاسبي واختاره العز بن عبد السلام، وقد أشار المصنف إلى الجواب عنها بقوله:

(فنقول: هذه الأحاديث لا تناقض ما ذكرناه) أولاً، **(بل المراد من لم يرد بذلك إلا الدنيا كقوله: «من هاجر يبتغي شيئاً من الدنيا» أو كان ذلك)** أي قصد الرياء **(هو الأغلب على همه، وقد ذكرنا أن ذلك عصيان وعدوان لا لأن طلب الدنيا حرام ولكن طلبها بأعمال الدين حرام لما فيه من الرياء وتغيير العبادة عن موضعها، وأما لفظ الشركة حيث ورد فمطلق للتساوي)** أي يساوي كل منها الآخر من غير زيادة من أحد الجانبين. **(وقد بينا أنه إذا تساوى القصدان تقاوما ولم يكن له ولا عليه، فلا ينبغي أن يرجى عليه ثواب، ثم الإنسان عند الشركة أبداً في خطر فإنه لا يدري أي الأمرين أغلب على قصده، فربما يكون عليه وبالاً، ولذلك قال الله تعالى: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ أي لا يرجى اللقاء مع الشركة التي أحسن أحوالها التساقط، ويجوز أن يقال منصب الشهادة)** عزيز **(لا ينال إلا بالإخلاص في الغزو، وبعيد أن يقال: من كانت داعيته الدينية بحيث تزعجه إلى مجرد الغزو ولم يكن غنيمة وقدر على غزو طائفتين من الكفار إحداهما غنية)** أصحاب أموال ومواش وأثاث **(والأخرى فقيرة)** لا شيء لهم، **(فمال إلى جهة الأغنياء لإعلاء كلمة الله وللغنيمة أنه لا ثواب له على غزوه**

ونعوذ بالله أن يكون الأمر كذلك فإن هـذا حـرج في الديـن ومـدخـل لليـأس على المسلمين، لأن أمثال هذه الشوائب التابعة قط لا ينفك الإنسان عنها إلا على الندور ، فيكون تأثير هذا في نقصان الثواب ، فإما أن يكون في إحباطه فلا . نعم الإنسان فيه على خطر عظيم لأنه ربما يظنّ أن الباعث الأقوى هو قصد التقرّب إلى الله ويكون الأغلب على سره الحظ النفسي وذلك مما يخفى غاية الخفاء . فلا يحصل الأجر إلا بالإخلاص والإخلاص قلما يستيقنه العبد من نفسه وإن بالغ في الاحتياط ، فلذلك ينبغي أن يكون أبداً بعد كمال الاجتهاد متردداً بين الرد والقبول خائفاً أن تكون في عبادته آفة يكون وبالها أكثر من ثوابها . وهكذا كان الخائفون من ذوي البصائر ، وهكذا ينبغي أن يكون كل ذي بصيرة. ولذلك قال سفيان رحمه الله: لا أعتدّ بما ظهر من عملي وقال عبد العزيز بن أبي داود : جاورت هذا البيت ستين سنة وحججت ستين حجة فما دخلت في

البتة) وإنه قد حبط عمله بالمرة. **(ونعوذ بالله أن يكون الأمر كذلك، فإن هذا حرج في الدين ومدخل لليأس على المسلمين، لأن أمثال هذه الشوائب التابعة قد لا ينفك الإنسان عنها إلا على الندور)** والقلة، **(فيكون تأثير هذا في نقصان الثواب، فإما أن يكون في إحباطه فلا) .** هذا آخر ما يتعلق بالتفصيل الذي ذهب إليه وهو أمر بين أمرين فإن المحاسبي ومن تبعه اختاروا الأشد والأشق، ومن قال إنه يثاب مطلقاً ولا تأثير فيه للرياء فقد اختار الأخف، **(نعم الإنسان فيه على خطر عظيم لأنه ربما يظن أن الباعث الأقوى هو قصد التقرب إلى الله تعالى ويكون الأغلب على سره الحظ النفسي، وذلك مما يخفى غاية الخفاء فلا يحصل الأجر إلا بالإخلاص، والإخلاص قلما يستيقنه العبد من نفسه وإن بالغ في الاحتياط، فلذلك ينبغي أن يكون أبداً بعد كمال الاجتهاد)** في كل عمل من أعماله **(متردداً بين الرد والقبول خائفاً)** وجلاً **(أن تكون في عبادته آفة)** ما شعر بها **(يكون وبالها أكثر من ثوابهـا)** ويعتقد بذلك أنه متقرب وهو متباعد ، فعسى أن يكون خوفه وإشفاقه كفارة للآفة الداخلة عليه ويرجو من فضل الله وسعة جوده أن لا يؤاخذه بما خرج عن عمله بعد جده واجتهاده. **(وهكذا كان الخائفون من ذوي البصائر ، وهكذا ينبغي أن يكون كل ذي بصيرة)** كمن أدرج في رحله ماء ثم صلى بعد جهده وإمعانه في الطلب ، ثم بان له بعد ذلك أنه كان في رحله ماء فقد قطع الفقهاء بأن لا قضاء عليه في هذه الصورة. وهذا القياس لا يصح إلا في المعاونة والموافقة ، وأما رتبة المشاركة فلا يصح لأن الماء بدل والإخلاص لا بدل له ، بل يجب في رتبة المشاركة في الرياء المجرد عن الإخلاص التوبة وقضاء ما يجب قضاؤه من صلاة وزكاة وصوم ، وكذلك لا يفارقك الخوف والرجاء لجبران الآفات المنقصة لكمال الإخلاص إلى أن ينتهي إلى حالة لا يصح فيها الخوف والرجاء فحينئذ يا سعادة المقربين ، **(ولذلك قال سفيان)** الثوري رحمه الله تعالى : **(لا أعتد بما ظهر من عملي)** نقله صاحب القوت. **(وقال عبد العزيز بن أبي**

شيء من أعمال الله تعالى إلاّ وحاسبت نفسي فوجدت نصيب الشيطان أوفى من نصيب الله ليته لا لي ولا عليّ. ومع هذا فلا ينبغي أن يترك العمل عند خوف الآفة والرياء فإن ذلك منتهى بغية الشيطان منه إذ المقصود أن لا يفوت الإخلاص ومهما ترك العمل فقد ضيع العمل والإخلاص جميعاً. وقد حكي أن بعض الفقراء كان يخدم أبا سعيد الخراز ويخف في أعماله فتكلم أبو سعيد في الإخلاص يوماً يريد إخلاص الحركات فأخذ الفقير يتفقد قلبه عند كل حركة ويطالبه بالإخلاص فتعذر عليه قضاء الحوائج واستضر الشيخ بذلك، فسأله عن أمره فأخبره بمطالبته نفسه بحقيقة الإخلاص وأنه يعجز عنها في أكثر أعماله فيتركها فقال أبو سعيد: لا تفعل إذ الإخلاص لا يقطع المعاملة فواظب على العمل واجتهد في تحصيل الإخلاص، فما قلت لك اترك العمل وإنما قلت لك أخلص العمل. وقد قال الفضيل: ترك العمل بسبب الخلق رياء وفعله لأجل الخلق شرك.

داود) روى له البخاري تعليقاً والأربعة مات سنة تسع وخمسين ومائة **(جاورت هذا البيت ستين سنة وحججت ستين حجة فما دخلت في شيء من أعمال الله إلا وحاسبت نفسي، فوجدت نصيب الشيطان أوفى من نصيب الله ليته لا لي ولا علي)** نقله صاحب القوت، **(ومع هذا فلا ينبغي أن يترك العمل عند خوف الآفة)** أي خشية دخولها فيه، **(فإن ذلك منتهى بغية)** عدوه **(الشيطان منه إذ المقصود أن لا يفوت الإخلاص، ومهما ترك العمل فقد ضيع العمل والإخلاص جميعاً)** وترك العمل في هذه الصورة جهل، كما أن ترك العمل عند دخول العلة عليه وهن، **(وقد حكي أن بعض الفقراء كان يخدم أبا سعيد)** أحمد بن عيسى **(الخراز)** رحمه الله تعالى **(ويخف)** بين يديه **(في أعماله)** وحوائجه ويخدم أصحابه ويسارع في قضاء حوائجهم، **(فتكلم أبو سعيد يوماً في إخلاص الحركات فأخذ الفقير يتفقد قلبه عند كل حركة ويطالبه بالإخلاص فتعذر عليه قضاء الحوائج)** مما كان يعمله لأبي سعيد وأصحابه من الخفة والمسارعة وتركه، **(واستضر الشيخ بذلك فسأله عن أمره)** وقال: يا بني قد كنت تسعى في حوائج إخوانك ثم قطعت ذلك فما السبب؟ **(فاخبره)** الفقير **(بمطالبته نفسه بحقيقة الإخلاص، وأنه يعجز عنها في أكثر أعماله فيتركها)** أي خشية أن تكون أعماله مدخولة **(فقال)** له **(أبو سعيد: لا تفعل إن الإخلاص لا يقطع المعاملة)** ولا ينبغي للعامل أن يترك العمل لأجل الإخلاص فيفوته الإخلاص والعمل، **(فواظب على العمل واجتهد في تحصيل الإخلاص، فما قلت لك أترك العمل وإنما قلت لك أخلص العمل)** فإن طلبك للإخلاص قد قطعك عمل البر، وقد أضر ذلك بنا فارجع إلى ما كنت فيه واخلص فيه لله تعالى نقله صاحب القوت. **(وقد قال الفضيل)** بن عياض رحمه الله تعالى: **(ترك العمل بسبب الخلق رياء وفعله لأجل الخلق شرك)** نقله القشيري، وقد تقدم قريباً بسنده. ولنختم هذا الباب بذكر ما يتعلق بالإخلاص

....

قال القشيري في الرسالة، قال سهل: لا يعرف الرياء إلا مخلص. وقال حذيفة المرعشي: الإخلاص أن تستوي أفعال العبيد في الظاهر والباطن. وقال السري: من تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله. وقال بعضهم: دخلت على سهل بن عبدالله يوم جمعة قبل الصلاة فرأيت في البيت حية فجعلت أقدم رجلاً وأؤخر أخرى، فقال: أدخل لا يبلغ أحد حقيقة الإيمان وعلى وجه الأرض شيء يخافه ثم قال: هل لك في صلاة الجمعة؟ فقلت: بيننا وبين المسجد مسيرة يوم وليلة، فأخذ بيدي فما كان إلا قليل حتى رأيت المسجد فدخلنا وصلينا الجمعة ثم خرجنا، فوقف ينظر إلى الناس وهم يخرجون فقال: أهل لا إلـه إلا الله كثير والمخلصون منهم قليل. وقال أحمد بن أبي الحواري: سمعت أبا سليمان يقول: إذا أخلص العبد انقطع عنه كثرة الوسواس والرياء اهـ.

وقال صاحب القوت: سميت سورة قل هو الله أحد سورة الإخلاص لإنها خالصة في ذكر صفات الله تعالى وحده لا يختلط بذكر جنة ولا نار ولا وعد ولا وعيد ولا أمر ولا نهي، ولذلك قيل: سورة التوحيد إذ لا شريك فيما سواه. قال: ومن ألهمه الله إخلاص النية زاده معرفة الإخلاص أخرجه ذلك إلى الهرب من الناس ليخلص له معاملته لأنه ينظر بعين اليقين، وإذ ليس ينفعه شيء إلا شيء بينه وبين الله عز وجل لا شريك له فيه لسواه، وهذا المعنى هو الذي أخرج طائفة من الأبدال إلى الكهوف تخلياً من أبناء الدنيا لخلاص أعمالهم من النظر إليهم، فهم وإن فارقوا فضائل الأعمال من صلاة الجماعة وغيرها، فقد تقرر عندهم أن اجتناب معصية واحدة عندهم أفضل من ذلك، والجاهل بالله تعالى يعمل من طلب الفضائل ولا يبالي بيسير الذنوب وفيها بعد عن الله عز وجل، وليس ذلك طريق المقربين. وقال بعضهم: إنما أبعد القلب من الله تعالى مظاهرة أعمال الجوارح بغير مواطأة من القلب بصحة القصد يعني بذلك نقص الإخلاص بها لأجل الله تعالى. قال: وأصح الأعمال وأخلصها ما كان الله تعالى هو الأول في أولها، ومع العامل في أوسطها للعبد عنده فيها والله هو الآخر عند آخرها، ثم لا يظهرها بعد ذلك ولا يتظاهر بها ولا يطالع عوضاً عنها من الكبير الأكبر بل ينساها ويشتغل بذكر مولاه عنها. قال: ومن المناقص المشبهة للفضائل الملتبسة على الأفاضل الشهرة بضلها وروغة العموم للدخول فيها والصبر عليها وهي منكشفة للعلماء بالله عز وجل ما روي أن رجلين تواخيا في الله عز وجل بعد رفع عيسى عليه السلام إلى السماء، فترهب أحدهما واسمه سرجس ولزم أخوه الآخر الجماعة والمساجد ومخالطة الناس، وكان أعلم منه بالله عز وجل، وكان يلتقي أخاه سرجس فيقول: يا أخي إن هذا الأمر الذي دخلت فيه بدعة وأن عليك فيه رعاية لا تقوم بحقها وأنه ليس لله فيها رضا، فلو دخلت معي في الجماعة والإلفة كان ذلك لله عز وجل رضا وأصبت السنة، وكان المترهب يعرض عنه ولا يعبأ برأيه ويقول له: إنك قد ركنت إلى الدنيا وأنست بالخلق، فلما أعياه قال له: فاجعل فطرك عندي الليلة حتى يتبين لك ففعل فقدم إليه فرخين شواهما وقال له: تعال حتى نجعل هذين الفرخين قاضيين بيننا فأينا كان على الحق ظهر أمره. قال: وكيف يقضيان بيننا، قال: حتى يدعو الله كل واحد منا، فمن كانت سيرته وهديه أحب إلى الله تعالى يبعث بدعائه هذين الفرخين حتى يطيرا

....

حيين. قال: نعم فادع فدعا الراهب، فقال: اللهم إن كان هذا الأمر الذي دخلت فيه أريد به رضاك أقرب إلى الحق مما يدعوني إليه أخي هذا فابعث هذين الفرخين لي قال: فلم يجب، فقال الآخر: اللهم إن كان هذا الأمر الذي تمسكت به وخالفت فيه هذا وأصحابه أقرب إلى الحق وأرضاه عندك مما يدعوني إليه أخي من الاعتزال والفرقة للجماعة فابعث لي هذين الفرخين. قال: فصارا حيين وطارا بإذن الله تعالى فعلم الآخر أن ذلك ليس فيه لله رضا فرجع إلى الجماعة والمساجد.
قال: ومن التباس الفضائل العالية ترك العبد حاله في مقامه طلباً للفضيلة ليزداد بها قربة إلى الله فيتغلب عليه ويهلك ما أدخل على برصيصا العابد في تعليم الاسم الأعظم وقصته مشهورة، فالعالم عند العلماء في علم خير من الخيرين فسبق إليه قبل فوته وعلم شر الخيرين فأعرض عنه لئلا يشغله عن الأخير منهما، وعلم أيضاً خير الشرين ففعله إذا اضطر إليه وابتلي به وعلم شر الشرين فأمعن في الهرب منه، وهذا من دقائق العلوم. وقال منصور: المداراة على العمل حتى يخلص أشد من العمل. وقال عبد العزيز بن أبي رواد: أدركتهم في العمل الصالح، فإذا بلغوه وقع عليهم الهم أيتقبل منهم أم لا؟ وقال مالك بن دينار: الخوف على العمل أن لا يتقبل أشد من العمل. وقال البناجي: للعمل أربع خصال لا يتم إلا بهن معرفة الله عز وجل ومعرفة الحق والإخلاص به والعمل على السنة فأي عمل كان قبل هذه الأربع لم ينفع. وقال عبد الرحمن بن سريج: من قام إلى شيء من الخير لا يريد به إلا الله عز وجل، ثم عرض له من يريد أن يرائيه بذلك أعطاه الله عز وجل بالأصل ووضع عنه الفرع، ومن قام إلى شيء من الخير لا يريد به إلا المراءاة ثم ذكر وبدا له فجعل آخر ذلك لله عز وجل أعطاه الله الفرع ووضع عنه الأصل كأنه حسب له ذلك توبة والتوبة مكفرة لما سلف. قال: وقد تلتبس الفضائل بالمناقص لدقة معانيها وخفي علومها كصلاة العبد النفل وهو يحسب أنه الأوجب، ومن ذلك أن رجلاً كان يصلي فدعاه رسول الله ﷺ فلم يجبه فظن أن وقوفه بين يدي الله تعالى بالغيب أفضل له فلما سلم جاءه، فقال له النبي ﷺ: «ما منعك أن تجيبني حين دعوتك»؟ فقال: كنت أصلي، فقال «ألم تسمع الله يقول: ﴿استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ [الأنفال: ٢٤] فكأن إجابته النبي ﷺ أفضل له لأن صلاته نافلة له، وإجابته للرسول فرض عليه. وقال بعضهم: من كان طلب الفضائل أهم إليه من أداء الفرائض فهو مخدوع، ومن شغل بغيره عن نفسه فقد مكر به فأفضل شيء للعبد معرفته لنفسه ثم وقوفه على حده ثم أحكامه لحاله التي أقيم فيها، ثم قيامه بعلمه الذي فتح له فيبتدىء بالعمل بما افترض عليه بعد اجتنابه ما نهى عنه مبلغ علمه ووسع وجده، ولا يشتغل بطلب فضل حتى يحكم عمل فرض لأن الفضل ربح لا يصح إلا بعد رأس المال ولكل فضل آفة قاطعة، فمن سلم منها حاز فضله ولكل أمر نفيس مؤنة ثقيلة فمن تحملها أدرك نفيسها، ومن تعذرت عليه السلامة فهيهات هيهات أن يصل إلى أفضل كرامة ومن لم يصبر على تحمل غرامة لم يدرك علو مقامه وقد يلتبس التكلف بالإخلاص وإظهار العلم بظهور التزين به. قال الثوري: زين نفسك بالعلم ولا تزين به أي أدبها لله تعالى لتكون زيناً في أوليائه ولا تتزين به عند الناس ليمدحوك

....

عليه، وقد يلتبس الاختيار بالاختبار فالاختيار ما كان حاجته وتطرقت به إلى الله عز وجل والاختبار ما زاد في الشهوة، وكان سلماً لك إلى الخلق كإلباس ستر العورة من الثياب بالفاخر منها للنعمة والتكثير من الأسباب، وقد يتطوع العبد بعمل يضيع به فرضاً وإحكام الفرض لحوز السلامة هو الفضل. وقد روي إذا دعي أحدكم إلى طعام فإن كان مفطراً فليجب وإن كان صائماً فليقل إني صائم فأمره بإظهار عمله وهو يعلم أن الإخفاء أفضل، ولكن إظهار عمله من حيث لا يؤثر في قلب أخيه وجداً أفضل من إخفائه لنفسه مع تأثير ذلك في قلب أخيه لتفضيل العمال على الأعمال، إذ الأعمال موقوفة على العامل فإنما يعطى الثواب على قدر العامل لا على قدر العمل لتضعيف الجزاء لمن يشاء على غيره في العمل الواحد، فدل أن المؤمن أفضل من العمل فقيل له: ارفع التأثير والكراهة عن قلب أخيك بإظهار عملك فهو خير لك من إخفاء العمل مع وجد أخيك عليك لأن أخاك إذا دعاك إلى طعام صنعه لك فلم تجبه ولم تعتذر إليه عذراً ينائي بقلبه منك وتعرفه شق ذلك عليه إن كان صادقاً في دعائك. انتهى سياق القوت.

قال السيوطي، قال القرطبي في قوله ﷺ «وإنما لامرىء ما نوى» بعد قوله «إنما الأعمال بالنيات» تحقيق لاشتراط النية والإخلاص في الأعمال. قال العراقي: فجعله للتأكيد ولا شك أن التأسيس أولى منه. وقال الزركشي: قدره العز بن عبد السلام وإنما يحصل لكل امرىء ثواب العمل الذي نواه. قال وبهذا التقدير تكون الجملة الأولى لبيان ما يترتب عليها من الثواب في الدار الآخرة. وقال الطيبي: فهم من الأولى أن الأعمال لا تكون محسوبة ومسقطة إلا إذا كانت مقرونة بالنيات، ومن الثانية أن النيات إنما تكون مقبولة إذا كانت مقرونة بالإخلاص، فالأول قصر المسند إليه، والثاني عكسه وقال العماد الأسنوي في كتابه حياة القلوب: الفرق بين النية والإخلاص هو أن النية تتعلق بفعل العبادة، وأما إخلاص النية في العبادة فيتعلق بإضافة العبادة إلى الله تعالى ويكفيه في إخلاص العبادة أن يتقدم عنه أنه مهما فعله من العبادة إنما يفعله لله خالصاً فيجزيه هذا الإخلاص الحكمي من أول العمل إلى آخره، والأولى أن يأتي في أول كل فعل بنية الإخلاص فيه كما يأتي بذلك في نية العبادة مثل الصلاة وتشييع الجنازة والإخلاص الحكمي والحقيقي مشروط فيه عدم طرو ما يناقضه كما في نية العبادة.

وأخرج ابن أبي الدنيا في الإخلاص، والدينوري في المجالسة عن عمر رضي الله عنه قال: من خلصت نيته ولو على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس

وأخرج البيهقي في الشعب عن يونس بن عبد الأعلى قال: قال الشافعي: يا أبا موسى لو جهدت كل الجهد على أن ترضي الناس كلهم فلا سبيل لك فإذا كان كذلك فاخلص عملك ونيتك لله تعالى

وأخرج عن سهل بن عبدالله قال: اطلبوا من السر النية بالإخلاص ومن العلانية الفعل بالاقتداء وغير ذلك مغاليط. وقال ابن عطاء الله في كتابه الحكم: لا ترحل من كون إلى كون

....

فتكون كحمار الرحى يسير، والذي ارتحل إليه هو الذي ارتحل منه، ولكن ارحل من الأكوان إلى المكون وإن إلى ربك المنتهى، وانظر إلى قوله ﷺ «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» فافهم قوله ﷺ إلى ما هاجر إليه، وقل ما هذا الأمر إن كنت ذا فهم تفهم والسلام. قال شارحه ابن عباد: العمل على طلب الدرجات ونيل الرتب العلية والمقامات نقصان في الحال وشوب في إخلاص الأعمال، وهو معنى الرحيل من كون إلى كون، وسبب ذلك بقاء اعتبار النفس في أن تحصل لها رتبة وأن تنال بسعيها موهبة وهذه كلها من الأكوان والأكوان كلها متساوية في كونها أغباراً وإن كان بعضها أنواراً وتمثيله بحمار الرمى مبالغة في تقبيح حال العالمين في رؤية الأغبار وتلطفه في دعائها إلى حسن الأدب بين يدي الواحد القهار حتى يتحققوا بمعنى قوله تعالى ﴿وإن إلى ربك المنتهى﴾ فيكون انتهاء سيرهم إليه وعكوف قلوبهم عليه وتكون أعمالهم إذا ذاك وفاء بمقتضى العبودية وقياماً بحقوق الربوبية فقط من غير التفات إلى النفس على أي حالة تكون، فهذا هو تحقيق الإخلاص الكائن على مشاهدة التوحيد الخاص. قال: وفي هذا الحديث النبوي تنبيه على المعنى الذي ذكره موضع الاعتبار والتأويل والله أعلم

قوله في القسم الثاني من الحديث فهجرته إلى ما هاجر إليه أي ولا نصيب له من الوصول والقرب الذي حظى به من هاجر إلى الله تعالى ورسوله، وهذا من باب حصر المبتدأ في الخبر كما تقول: زيد صديقي أي لا صديق له غيري وكأنه ﷺ نبه بالقسم الثاني بالدنيا التي يريد أن يصيبها، والمرأة التي يريد أن يتزوجها على حظوظ النفس والوقوف معها والعمل عليها كائنة ما كانت وإن كان ظاهره طلب الحظ العاجل فقوله فهجرته إلى ما هاجر إليه، وهو البقاء مع الأكوان والتنقل فيها، وهو الذي نهى عنه وهو مشار به غير مصرح فليكن المريد عالي الهمة والنيات حتى لا يكون التفاته إلى غيره المكون البتة، والله أعلم.

الباب الثالث في الصدق
وفضيلته وحقيقته

فضيلة الصدق:

قال الله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وقال النبي ﷺ: « إن الصدق يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صدّيقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذّاباً »، ويكفي في فضيلة الصدق أن الصدّيق مشتق منه، والله

الباب الثالث
في الصدق وفضيلته وحقيقته

ويضاف إليه الانفصال والاتصال والتحقيق والتفريد لأنهن من علاماته.

(**فضيلة الصدق**) من الآيات والأخبار فمن ذلك:

(**قال الله تعالى ﴿رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾**) فأثنى عليهم بالصدق ووصفهم به ولولا أنه من فضائل الأعمال ما وصفهم بذلك، وكذلك قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ [التوبة: ١١٩] وقال أحمد بن حضرويه: من أراد أن يكون الله معه فليلزم الصدق، فإن الله تعالى قال ﴿إن الله مع الصادقين﴾ (**وقال النبي ﷺ « إن الصدق يهدي إلى البر**) أي يوصل صاحبه إليه والبر بالكسر اسم يجمع الخير كله، وقيل: هو التوسع في الخير، وقيل اكتساب الحسنات واجتناب السيئات، (**و**) أن (**البر يهدي إلى الجنة**) يعني أن الصدق الذي هو بر يدعو إلى ما يكون براً مثله وذلك يدعو إلى دخول الجنة فهو سبب لدخولها ومصداقه قوله تعالى: ﴿إن الأبرار لفي نعيم﴾ [المطففين: ٢٢] (**وإن الرجل**) ذكر الرجل وصف طردي والمراد الإنسان المؤمن (**ليصدق**) أي يلازم الصدق (**حتى يكتب عند الله صديقاً**) أي يتكرر منه الصدق ويدوم عليه قولاً وفعلاً واعتقاداً حتى يستحق اسم المبالغة فيه ويشتهر بذلك عند الملأ الأعلى فالمراد بالكتابة الكتابة في اللوح أو في صحف الملائكة (**وأن الكذب**) الذي هو مقابل الصدق (**يهدي**) أي يوصل (**إلى الفجور**) الذي هو شق ستر الديانة والميل إلى الفساد والانبعاث في المعاصي وهو إسم جامع لكل شر (**وأن الفجور يهدي إلى النار**) أي إلى ما يكون سببا لدخولها وذلك داع لدخولها، (**وإن الرجل ليكذب**) أي يكثر الكذب (**حتى يكتب عند الله كذاباً »**) أي يحكم له بذلك ويستحق الوصف فمنزلة الصديقين وثوابهم في الأول والكذابين

....

وعقابهم في الثاني، فالمراد إظهاره لخلقه بالكتابة فيما ذكر ليشتهر في الملأ الأعلى ويلقي في قلوب أهل الأرض ويوضع على ألسنتهم كما يوضع القبول والبغضاء في الأرض ذكره العلائي وغيره وتبعهم الحافظ في الفتح، وقال بعضهم المضارعان وهما يصدق ويكذب للاستمرار، ومن ثم كان الكذب أشد الأشياء ضرراً والصدق أشدها نفعاً، ولهذا علت رتبته على رتبة الإيمان لأنه إيمان وزيادة. وقال النووي: فيه حث على تحري الصدق والاعتناء به وتحذير من الكذب والتساهل فيه، فإنه إذا تساهل فيه أكثر منه وعرف به. وقال الراغب: الصدق أحد أركان بقاء العالم حتى لو توهم مرتفعاً لما صح نظامه وبقاؤه وهو أصل المحمودات وركن النبوات ونتيجة التقوى، ولولاه لبطلت أحكام الشرائع والاتصاف بالكذب انسلاخ من الإنسانية لخصوصية الإنسان بالنطق، ومن عرف بالكذب لم يعتمد نطقه، وإذا لم يعتمد لم ينتفع وإذا لم ينتفع صار هو والبهيمة سواء، بل يكون شراً من البهيمة فإنها وإن لم ينتفع بلسانها لا تضر والكاذب يضر ولا ينفع اهـ.

والحديث قد تقدم أنه اتفق عليه الشيخان من حديث عبدالله بن مسعود، وقد أخرجه الحاكم في المستدرك فوهم. وقال ابن أبي الدنيا في الصمت: حدثنا أبو خيثمة، حدثنا جرير عن منصور، عن أبي وائل، عن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ «إن الصدق يهدي إلى البر وأن البر يهدي إلى الجنة وأن الرجل ليصدق حتى يكتب عندالله صديقاً» وقد روي ذلك من حديثه بلفظ آخر «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وأن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عندالله صديقاً وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وأن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً» رواه كذلك أحمد والبخاري في الأدب المفرد، ومسلم والترمذي وابن حبان

وقال أبو داود والطيالسي في مسنده: حدثنا شعبة عن منصور عن أبي وائل عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «لا يزال العبد يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ولا يزال يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً». ورواه القشيري في الرسالة من طريقه

وقد روي نحو ذلك من قول ابن مسعود، قال ابن أبي الدنيا: حدثنا علي بن الجعد، أخبرنا شعبة، أخبرني عمرو بن مرة، سمعت مرة الهمداني قال: كان عبدالله يقول: «عليكم بالصدق فإنه يهدي إلى الجنة وما يزال العبد يصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ويثبت البر في قلبه فلا يكون للفجور موضع إبرة يستقر فيه»

وفي الباب عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه رفعه «عليكم بالصدق فإنه مع البر وهما في الجنة، وإياكم والكذب فإنه مع الفجور وهما في النار وسلوا الله اليقين والمعافاة» الحديث. هكذا رواه الطيالسي وأحمد والحميدي والبخاري في الأدب المفرد والنسائي وابن ماجه وأبو يعلى والشاشي والدارقطني في الإفراد وابن حبان والحاكم والبيهقي والضياء.

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا علي بن الجعد، أخبرنا شعبة، عن يزيد بن حميد، سمعت سليم بن

تعالى وصف الأنبياء به في معرض المدح والثناء فقال: ﴿واذْكُرْ في الكِتَابِ إبْرَاهِيمَ إنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤١] وقال: ﴿واذْكُرْ في الكِتَابِ إسْمَاعِيلَ إنَّهُ كَانَ صَادِقَ الوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبياً﴾ [مريم: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿واذْكُرْ في الكِتَابِ إدْرِيسَ إنَّهُ كَانَ صدِّيقاً نَبياً﴾ [مريم: ٥٦]، وقال ابن عباس: أربع من كنّ فيه فقد ربح ؛ الصدق والحياء وحسن الخلق والشكر. وقال بشر بن الحرث: من عامل الله بالصدق استوحش

عامر يحدث عن واسط بن إسماعيل أنه سمع أبا بكر يخطب بعدما قبض رسول الله ﷺ بسنة فقال: قام رسول الله ﷺ عام أول مقامي هذا ثم بكى أبو بكر، ثم قال: « عليكم بالصدق فإنه مع البر وهما في الجنة وإياكم والكذب فإنه مع الفجور وهما في النار » وهكذا رواه مختصراً، وقد رواه الطبراني مثله من حديث معاوية. وروى الخطيب وابن النجار من حديث أبي بكر بلفظ « فإنه باب من أبواب الجنة وباب من أبواب النار » والباقي سواء.

(**ويكفي في فضيلة الصدق أن الصديق مشتق منه**) قال القشيري: الصادق الاسم اللازم من الصدق والصديق المبالغة منه وهو كثير الصدق الذي الصدق غالبه كالسكير والخمير وبابه اهـ. أي أن الصادق مشتق من الصدق فهو اسم لمن قام به الصدق والصديق اسم دال على المبالغة مشتق من الصدق أيضاً وباب فعيل للمبالغة.

(و) من فضائل الصدق أن (**الله تعالى**) سمى نفسه به بقوله ﴿وإنا لصادقون﴾ و (**وصف**) به (**الأنبياء**) عليهم السلام (**في معرض المدح والثناء فقال: ﴿واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً﴾ وقال: ﴿واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً﴾** وأوجب على عباده التخلق بأوصافه وأخلاق أنبيائه بقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ [التوبة: ١١٩] فلما امتثلوا قوله وأجابوه جعلهم مع درجة الأنبياء بقوله تعالى: ﴿أولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين﴾ [النساء: ٦٩] فبالصدق يتحقق جميع المقامات والأحوال لأنها زينتها وكمالها، حتى الإخلاص مع شرفه وعلو قدره يفتقر إلى الصدق والصدق لا يفتقر إلى شيء لأنه وجود في نفسه كما سيأتي بيانه.

(**وقال ابن عباس**) رضي الله عنهما: (**أربع من كن فيه فقد ربح: الصدق والحياء وحسن الخلق والشكر**) وقد روي نحوه مرفوعاً من حديثه بلفظ « أربع إذا كن فيك فما عليك ما فاتك من الدنيا: صدق الحديث وحفظ الأمانة وحسن الخلق وعفة مطعم » رواه كذلك ابن عدي وابن عساكر. ورواه أحمد والحكيم والطبراني والحاكم والبيهقي من حديث ابن عمر، ويروى ذلك أيضاً من حديث عبدالله بن عمر وبلفظ « أمانة وصدق حديث وحسن خليقة وعفة في طعمة » رواه كذلك أحمد والطبراني والخرائطي في مكارم الأخلاق والبيهقي وفي سنده ابن لهيعة وباقي رجال أحمد رجال الصحيح.

من الناس. وقال أبو عبدالله الرملي رأيت منصوراً الدينوري في المنام فقلت له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي ورحمني وأعطاني ما لم أؤمل، فقلت له: أحسن ما توجه العبد به إلى الله ماذا؟ قال: الصدق وأقبح ما توجه به الكذب. وقال أبو سليمان: اجعل الصدق مطيتك والحق سيفك والله تعالى غاية طلبتك. وقال رجل لحكيم: ما رأيت صادقاً؛ فقال له: لو كنت صادقاً لعرفت الصادقين. وعن محمد بن علي الكتاني قال: وجدنا دين الله تعالى مبنياً على ثلاثة أركان على الحق والصدق والعدل، فالحق على الجوارح والعدل على القلوب والصدق على العقول. وقال الثوري في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠]، قال: هم الذين ادعوا محبة الله تعالى، ولم يكونوا بها صادقين. وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود من

(**وقال بشر بن الحرث**) الحافي رحمه الله تعالى: (**من عامل الله بالصدق استوحش من الناس**) ليخلص له في معاملته لأنه ينظر بعين اليقين، وهذا المعنى هو الذي أخرج طائفة من الصادقين إلى الكهوف والمغاير تخلياً من أبناء الدنيا لصدق معاملتهم مع الله.

(**وقال أبو عبدالله الرملي**) منسوب إلى الرملة من كور فلسطين (**قال: رأيت منصوراً الدينوري في المنام** فقلت له: ما فعل **الله بك؟ قال: غفر لي ورحمني وأعطاني ما لم آمل**) أي ما لم أكن أرجوه، (**فقلت: أحسن ما توجه العبد به إلى الله تعالى ماذا؟ قال: الصدق، وأقبح ما توجه به الكذب. وقال أبو سليمان**) الداراني رحمه الله تعالى: (**إجعل الصدق مطيتك**) أي لأنه يهدي إلى اللقاء، (**والوقت سيفك**) تقطع به ما يعوقك عن الوصول، (**والله تعالى غاية طلبتك**) أي فلا تلاحظ في سائر الأحوال إلا وجه الله تعالى. (**وقال رجل لحكيم: ما رأيت صادقاً؟ فقال له: لو كنت صادقاً**) أي لو تحققت بهذا الوصف (**لعرفت الصادقين، وعن**) أبي بكر (**محمد بن علي**) بن جعفر (**الكتاني**) الصوفي المكي حكى عن أبي سعيد الخراز وتوفي سنة ٣٢٢ (**قال: وجدنا دين الله تعالى مبنياً على ثلاثة أركان: على الحق والصدق والعدل، فالحق على الجوارح**) بأن يكون استعماله في الطاعة على صريح الحق مما يطابق السنة، (**والعدل على القلوب**) بأن تستوي في المعرفة على سبيل الاعتدال، (**والصدق على العقول**) بأن تصدق في الملاحظ فلا تخالف السرية العلانية.

(**وقال النوري**) هو أبو الحسين البغدادي وهو بضم النون منسوب إلى نور الوعظ وتقدم ذكره مراراً وفي بعض النسخ الثوري بالمثلثة فيكون المراد به سفيان. (**في قوله تعالى: ﴿ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة﴾ قال: هم الذين ادعوا محبة الله ولم يكونوا صادقين**) في دعواهم.

(**وأوحى الله إلى داود عليه السلام: يا داود من صدقني في سريرته**) أي عاملني في باطنه

صدقني في سريرته صدقته عند المخلوقين في علانيته. وصاح رجل في مجلس الشبلي ورمى نفسه في دجلة، فقال الشبلي إن كان صادقاً فالله تعالى ينجيه كما نجى موسى عليه السلام، وإن كان كاذباً فالله تعالى يغرقه كما أغرق فرعون. وقال بعضهم: أجمع الفقهاء والعلماء على ثلاث خصال أنها إذا صحت ففيها النجاة ولا يتم بعضها إلا ببعض الإسلام الخالص عن البدعة والهوى والصدق لله تعالى في الأعمال، وطيب المطعم. وقال وهب بن منبه: وجدت على حاشية التوراة اثنين وعشرين حرفاً كان صلحاء بني إسرائيل يجتمعون فيقرأونها ويتدارسونها: لا كنز أنفع من العلم، ولا مال أربح من الحلم، ولا حسب أوضع من الغضب، ولا قرين أزين من العمل، ولا رفيق أشين من الجهل، ولا شرف أعز من التقوى، ولا كرم أوفى من ترك الهوى، ولا عمل أفضل من الفكر، ولا حسنة أعلى من الصبر، ولا سيئة أخزى من الكبر، ولا دواء ألين من الرفق، ولا داء أوجع من الخرق،

معاملة صدق (**صدقته عند المخلوقين**) في علانيته نقله القشيري وله شاهد في الخبر « من أسر سريرة ألبسه الله رداءها » والغالب على من يعمر باطنه بالصدق والإخلاص أن تجري حركاته وسكناته على حسب ما في قلبه فيظهر في أقواله وأحواله وأفعاله.

(**و**) يحكى أنه (**صاح رجل في مجلس أبي بكر الشبلي**) رحمه الله تعالى لحال غلب عليه فلم يطقه فصرخ (**ورمى نفسه في دجلة**) حيث كان في محل مشرف عليه، (**فقال الشبلي**) رحمه الله تعالى: (**إن كان صادقاً فالله تعالى ينجيه**) من الغرق (**كما نجى موسى عليه السلام**) حين شق البحر هو ومن معه ولم يبتلوا معجزة له، (**وإن كان كاذباً**) في وجده (**فالله تعالى يغرقه كما أغرق فرعون**) وهذا هو الصدق في الأحوال.

(**وقال بعضهم: أجمع الفقهاء**) يعني أهل الفقة الظاهر (**والعلماء**) يعني أهل المعرفة بالله (**على ثلاث خصال أنها إذا صحت**) أي تمت مجموعة في إنسان (**ففيها النجاة**) من الهلاك، (**ولا يتم بعضها إلا ببعض الإسلام**) أي الانقياد لأوامر الله تعالى (**الخالص عن**) شوب (**البدعة والهوى**) في الاعتقاد (**والصدق لله تعالى في الأعمال**) أي الدخول فيها بحسن الإخلاص والاستمرار على ذلك، (**وطيب المطعم**) بأن يكون حلالاً ومن وجه لا شبهة فيه.

(**وقال وهب بن منبه**) اليماني رحمه الله تعالى: (**وجدت على حاشية التوراة**) أي غلافها (**اثنين وعشرين حرفاً**) أي كلمة (**كان صلحاء بني إسرائيل يجتمعون فيقرأونها ويتدارسونها**) وهي هذه: (**لا كنز أنفع من العلم**) فإن العلم يزكو بالإنفاق والكنوز إلى نفاد، (**ولا مال أربح من الحلم، ولا حسب أوضع من الغضب، ولا قرين أزين من العمل، ولا رفيق أشين من الجهل، ولا شرف أعز من التقوى، ولا كرم أوفر من ترك الهوى، ولا عمل أفضل من الفكر، ولا حسنة أعلى من الصبر، ولا سيئة أخزى من الكبر، ولا دواء**

ولا رسول أعدل من الحق، ولا دليل أنصح من الصدق، ولا فقر أذل من الطمع، ولا غنى أشقى من الجمع، ولا حياة أطيب من الصحة، ولا معيشة أهنأ من العفة، ولا عبادة أحسن من الخشوع، ولا زهد خير من القنوع، ولا حارس أحفظ من الصمت، ولا غائب أقرب من الموت. وقال محمد بن سعيد المروزي: إذا طلبت الله بالصدق آتاك الله تعالى مرآة بيدك حتى تبصر كل شيء من عجائب الدنيا والآخرة. وقال أبو بكر الورّاق: أحفظ الصدق فيما بينك وبين الله تعالى والرفق فيما بينك وبين الخلق وقيل لذي النون: هل للعبد إلى صلاح أموره سبيل؟ فقال:

قد بقينا من الذنوب حيارى ... نطلب الصدق ما إليه سبيلُ
فدعاوي الهوى تخف علينا ... وخلاف الهوى علينا ثقيلُ

ألين من الرفق، ولا داء أوجع من الخرق) بالضم وهو قلة العقل، **(ولا رسول أعدل من الحق، ولا دليل أنصح من الصدق، ولا فقر أذل من الطمع، ولا غنى أشقى من الجمع)** أي من جمع المال، **(ولا حياة أطيب من الصحة، ولا معيشة أهنأ من العفة، ولا عبادة أحسن من الخشوع، ولا زهد خير من القنوع، ولا حارس أحفظ من الصمت)** أي قلة الكلام، **(ولا غائب أقرب من الموت)** . والمقصود من هذا السياق هو قوله: لا دليل أنصح من الصدق فإن الصدق يتوصل به إلى سائر الخيرات وهو مفتاح باب الحسنات وبه تكمل سائر المقامات، فهو نعم الدليل الناصح. وقد روى ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين من مرسل يحي بن أبي كثير: الكرم التقوى والشرف التواضع واليقين الغنى.

(وقال محمد سعيد المروزي) رحمه الله تعالى: **(إذا طلبت الله بالصدق أفادك الله مرآة بيدك حتى تبصر)** بها **(كل شيء من عجائب الدنيا والآخرة)** وهو إشارة إلى أن الصدق مع الله في المعاملة يورث تنوير القلب عن الكدورات فتتجلى فيه الأشياء بحقائقها وهو لا يلتفت إليها، ومصداقه قول الله تعالى ﴿إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾ [الأنفال: ٢٩] أي نوراً تفرقون به بين الحق والباطل. ولفظ القشيري: أعطاك مرآة تبصر فيها ولم يعزه لمحمد بن سعيد.

(وقال أبو بكر الوراق) رحمه الله تعالى له ذكر في الرسالة في باب الحياء: **(احفظ الصدق فيما بينك وبين الله تعالى، والرفق فيما بينك وبين الخلق)** فكلاهما أصلان أصيلان في الوصول إلى الله تعالى.

(وقيل لذي النون) المصري رحمه الله تعالى: **(هل للعبد إلى صلاح أموره سبيل؟ فقال)** منشداً:

(قد بقينا مذبذبين حيارى ... نطلب الصدق ما إليه سبيل
فدعاوي الهوى تخف علينا ... وخلاف الهوى علينا ثقيل)

وقيل لسهل ما أصل هذا الأمر الذي نحن عليه؟ فقال: الصدق والسخاء والشجاعة. فقيل: زدنا فقال: التقى والحياء وطيب الغذاء. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ سئل عن الكمال فقال: «قول الحق والعمل بالصدق». وعن الجنيد في قوله تعالى: ﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٨]، قال: يسأل الصادقين عند أنفسهم عن صدقهم عند ربهم، وهذا أمر على خطر.

يشير إلى أنه لا سبيل للعبد إلى صلاح أموره إلا بالصدق مع الله تعالى، ولا يتم ذلك إلا بمخالفة النفس والهوى ومخالفة الهوى ثقيلة على النفس فلا يحصل الصدق مع وجود الهوى.

(وقيل لسهل) التستري رحمه الله تعالى: **(ما أصل هذا الأمر الذي نحن عليه)** أي السلوك في طريق الله؟ **(فقال: الصدق والسخاء والشجاعة)** أي فهذه الثلاثة أصول الطريق وبينها تلازم في الغالب، **(فقيل: زدنا. فقال: التقى والحياء وطيب الغذاء)**. والمراد به العفة في الطعم، وقد تقدم في حديث ابن عساكر قريباً.

(وعن ابن عباس) رضي الله عنهما **(أن النبي ﷺ سئل عن الكمال)** ما هو؟ **(فقال: قول الحق والعمل بالصدق)** قال العراقي: لم أجده بهذا اللفظ.

(وعن الجنيد) قدس سره **(في قوله تعالى ﴿ليسأل الصادقين عن صدقهم﴾ قال: يسأل الصادقين عند أنفسهم عن صدقهم عند ربهم وهذا أمر على خطر)** قال القشيري في الرسالة: الصدق عماد الأمر وبه تمامه وفيه نظامه، وهو ثاني درجة النبوة سمعت أبا عبد الرحمن السلمي يقول: سمعت منصور بن عبدالله يقول: سمعت الفرغاني يقول: سمعت الجنيد يقول: الصادق ينقلب في اليوم أربعين مرة والمرائي يثبت على حالة واحدة أربعين سنة.

قلت: معناه الصادق يدور مع الدليل حيث دار وينقلب في أحواله ومعاملاته على ما يقتضيه الدليل مما هو الأفضل في حقه، والمرائي يستحسن حاله ويظنها موصلة لمقصوده من رفعته عند الخلق فهو يعمل في الحقيقة في أبعاد من الله تعالى.

ثم قال: وقال أبو سليمان الداراني: لو أراد الصادق أن يصف ما في قلبه ما نطق به لسانه أي لعجزه عن نطقه به لعسر العبارة، والصدق في المعاملة يورث القلوب مواهب تعجز عنها العبارات.

ثم قال: سمعت محمد بن الحسين يقول: سمعت أبا العباس البغدادي يقول: سمعت جعفر بن نصير يقول: سمعت الجريري يقول: سمعت سهل بن عبدالله يقول: لا يشم رائحة الصدق عبد داهن نفسه وغيره، وسمعته يقول: سمعت منصور بن عبدالله يقول: سمعت جعفر الخواص يقول: سمعت إبراهيم الخواص يقول: الصادق لا تراه إلا في فرض يؤديه أو فضل يعمل فيه. وقيل: ثلاث لا يخطئن الصادق الحلاوة والهيبة والملاحة. وقال ذو النون: الصدق سيف الله ما وضع على شيء إلا قطعه. وقال سهل: أول خيانة الصديقين حديثهم مع أنفسهم. وقال يوسف بن اسباط: لأن

بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه:

اعلم أن لفظ الصدق يستعمل في ستة معان: صدق في القول وصدق في النية والإرادة وصدق في العزم وصدق في الوفاء بالعزم وصدق في العمل، وصدق في

أبيت ليلة أعامل الله بالصدق أحب إلي من أن أضرب بسيفي في سبيل الله. وقال بعضهم: من لم يؤد الفرض الدائم لا يقبل منه الفرض المؤقت. قيل: ما الفرض الدائم؟ قال: الصدق. وقيل: عليك بالصدق حيث تخاف أنه يضرك فإنه ينفعك، ودع الكذب حيث ترى أنه ينفعك فإنه يضرك. وقيل: كل شيء ومصادقة الكذاب لا شيء. انتهى سياق الرسالة.

وفي كتاب الصمت لابن أبي الدنيا حدثنا أحمد بن منيع، حدثنا مروان بن معاوية، عن مجمع بن عيسى، عن منصور بن المعتمر قال: قال رسول الله ﷺ «تحروا الصدق وإن رأيتم أن فيه الهلكة فإن فيه النجاة».

وأخرج فيه من طريق مكحول عن أبي هريرة رفعه «لا يؤمن العبد الإيمان كله حتى يؤثر الصدق وحتى يترك الكذب في المزاحة والمراء وإن كان صادقاً» وقال: حدثنا الهيثم بن خارجة، حدثنا الهيثم بن عمران، سمعت إسماعيل بن عبيدالله المخزومي قال: أمرني عبد الملك بن مروان أن أعلم بنيه الصدق كما أعلمهم القرآن. وأخرج من طريق محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب عن جده قال: زين الحديث الصدق. ومن طريق عمارة بن أبي حفصة سمع أبا مجلز يقول، قال رجل لقومه: عليكم بالصدق فإنه نجاة. وقال يحي بن سعيد الآمدي: أنشدني ابن خربوذ للفضل بن عباس المهلبي:

إنا أناس من سجيتنا ... صدق الحديث ورأينا حتم
لبسوا الحياء فإن نظرت حسبتهم ... سقموا ولم يمسهم سقم
شر الإخاء إخاء مزدرد ... مزج الإخاء إخاؤه وهم
زعم ابن عمي أن حلمي ضرني ... ما ضر قبلي أهله الحلم

وأخرج من طريق عدي بن ثابت قال، قال عمر رضي الله عنه: أحبكم إلينا إذا اختبرناكم أصدقكم حديثاً وأعظمكم أمانة. ومن طريق الشعبي أنه كان يتمثل ويقول:

أنت الفتى كل الفتى ... إن كنت تصدق ما تقول
لا خير في كذب الجوا ... د وحبذا صدق البخيل

ومن طريق جعفر قال: سمعت مالك بن دينار يقول: الصدق والكذب يعتركان في القلب حتى يخرج أحدهما صاحبه.

بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه:

(اعلم) هداك الله تعالى (أن لفظ الصدق) قد تسمى به الله تبارك وتعالى بقوله ﴿وإنا لصادقون﴾ وهو ذاتي له تعالى راجع إلى معنى كلامه، فالصدق ما تضمنه كلامه من شهادته لنفسه بالوحدانية وبجميع ما أثنى على نفسه وبأن لا فاعل إلا هو فأما حقيقته في العباد فهو استواء

تحقيق مقامات الدين كلها، فمن اتصف بالصدق في جميع ذلك فهو صديق لأنه مبالغة في الصدق. ثم هم أيضاً على درجات فمن كان له حظ في الصدق في شيء من الجملة فهو صادق بالإضافة إلى ما فيه صدقه.

الصدق الأوّل: صدق اللسان وذلك لا يكون إلا في الاخبار أو فيما يتضمن الإخبار وينبه عليه، والخبر إما أن يتعلق بالماضي أو بالمستقبل، وفيه يدخل الوفاء بالوعد والخلف فيه. وحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه فلا يتكلم إلا بالصدق، وهذا هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها. فمن حفظ لسانه عن الإخبار عن الأشياء على خلاف ما هي عليه فهو صادق ولكن لهذا الصدق كمالان:

أحدهما: الاحتراز عن المعاريض؛ فقد قيل في المعاريض، مندوحة عن الكذب

السريرة والعلانية والظاهر والباطن وهو (**يستعمل في ستة معان: صدق في القول، وصدق في النية والإرادة، وصدق في العزم، وصدق في الوفاء بالعزم، وصدق في العمل، وصدق في تحقيق مقامات الدين كلها، فمن اتصف بالصدق في جميع ذلك**) من أقواله وأفعاله وأحواله، (**فهو صديق لأنه مبالغة من الصدق**) كما هو مقتضى باب فعيل، (**ثم هو أيضاً على درجات**) ومراتب. (**ومن كان له حظ في شيء من الجملة**) المذكورة من الأقوال والأفعال والأحوال (**فهو صادق بالإضافة إلى ما فيه صدقه**) والغالب إطلاقه على المتصف به في الأقوال كما يلوح إليه كلام القشيري وهذا هو الأصل ومقابله.

(**الصدق الأول: صدق اللسان**) وصدق القول، (**وذلك لا يكون**) بالقصد الأول منه (**إلا في الإخبار**) دون غيرها من أصناف الكلام (**أو فيما يتضمن الإخبار وينبه عليه**) أي بالعرض لا بالقصد الأول، فقد يدخل في أنواع الكلام من الاستفهام والأمر والدعاء، وذلك أن قول القائل أزيد في الدار في ضمنه أخبار بكونه جاهلاً بحال زيد، وكذلك إذا قال واسني في ضمنه أنه محتاج إلى المواساة وإذا قال لا تؤذني في ضمنه أنه يؤذيه، (**والخبر إما أن يتعلق بالماضي أو بالمستقبل وفيه يدخل الوفاء بالوعد والخلف فيه وحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه فلا يتكلم إلا بالصدق، وهذا هو أشهر أنواع الصدق، وأظهرها**) وهو واجب لغيره لا لذاته لأن المقصود منه الدلالة على الحق حيث كان، ولذلك استثنى الشرع منه المعاريض والإصلاح بين العباد ورضا قلوب الزوجات وإرهاب الأعداء في الجهاد والمعاريض من ذلك مباحة والإصلاح وما يضاهيه مستحب وإنكار الودائع ممن يغصبها واجب، (**فمن حفظ لسانه عن الإخبار عن الأشياء على خلاف ما هي عليه فهو صادق**) وهذا الوصف لازم له، (**ولهذا الصدق كمالان**).

(**أحدهما: الاحتراز عن**) صريح اللفظ وعن (**المعاريض**) إن وجد إلى ذلك سبيلاً،

وذلك لأنها تقوم مقام الكذب، إذ المحذور من الكذب تفهيم الشيء على خلاف ما هو عليه في نفسه. إلا أن ذلك مما تمس إليه الحاجة وتقتضيه المصلحة في بعض الأحوال وفي تأديب الصبيان والنسوان ومن يجري مجراهم وفي الحذر عن الظلمة وفي قتال الأعداء والاحتراز عن إطلاعهم على أسرار الملك، فمن اضطر إلى شيء من ذلك فصدقه فيه أن يكون نطقه فيه لله فيما يأمره الحق به ويقتضيه الدين، فإذا نطق به فهو صادق وإن كان كلامه مفهماً غير ما هو عليه، لأنّ الصدق ما أريد لذاته بل للدلالة على الحق والدعاء إليه فلا ينظر إلى صورته بل إلى معناه، نعم في مثل هذا الموضع ينبغي أن يعدل إلى

(**فقد قيل في المعاريض مندوحة عن الكذب**) روي ذلك عن عمران بن الحصين رضي الله عنهما مرفوعاً وموقوفاً، والموقوف أصح رواه البخاري في الأدب المفرد من طريق قتادة عن مطرف بن عبدالله قال: صحبت عمران بن حصين من الكوفة إلى البصرة فما أتى عليه يوم إلا أنشد فيه شعراً، وقال: في معاريض الكلام مندوحة عن الكذب. ورواه ابن جرير الطبري في التهذيب والبيهقي في الشعب والطبراني في الكبير وجاله ثقات. ورواه ابن السنى من طريق شعبة عن قتادة به مرفوعاً، وكذا قال البيهقي رواه الزبرقان عن سعيد بن أبي سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، لكن عن زرارة بن أوفى عن عمران مرفوعاً قال: والموقوف هو الصحيح. ورواه أبو بكر ابن كامل في فوائده، وأبو نعيم والديلمي من طريقه من حديث علي رضي الله عنه أن ما في المعاريض ما يكفي الرجل العاقل عن الكذب، ويروى نحوذلك من قول عمر رضي الله عنه: أما أن في المعاريض ما يكفي المسلم عن الكذب رواه البخاري في الأدب المفرد، والبيهقي في الشعب وهو عند العسكري في الأمثال بلفظ: « إن في المعاريض لمندوحة للرجل المسلم الحري عن الكذب» وأشار إلى حكمة الرفع وقال: في المعاريض ما حوت بعض الكذب والمندوحة السعة، (**وذلك لأنها**) أي المعاريض (**تقوم مقام الكذب إذ المحذور من الكذب تفهيم الشيء على خلاف ما هو في نفسه**). ولفظ المصنف في الجواهر والدرر، فإنه وإن كان صادقاً في نفسه فيفهم خلاف الحق، والمحذور من الكذب تفهيم خلاف الحق وأنه يكسب القلب صورة معوجة كاذبة، وإذا مال القلب في الصحة إلى الاعوجاج لم يتحصل الحق له على الصحة حتى لا تصدق رؤياه أيضاً، والمعاريض لا توقع في هذا المحذور لأنه صدق في نفسه ولكن توقع في المحذور الثاني وهو تجهيل الغير فلا ينبغي أن يفعل ذلك، (**إلا أن ذلك مما تمس الحاجة إليه وتقتضيه المصلحة في بعض الأحوال وفي تأديب الصبيان والنسوان ومن يجري مجراهم، والحذر من الظلمة وفي قتال الأعداء والاحتراز عن إطلاعهم على أسرار الملك**) ففي كل ذلك مصالح قد يضطر إليه الإنسان، (**فمن اضطر إلى شيء من ذلك فصدقه فيه أن يكون نطقه فيه لله فيما يأمره الحق به ويقتضيه الدين، فإذا نطق به فهو وإن كان كلامه مفهماً غير ما هو عليه، لأن الصدق ما أريد لذاته بل للدلالة على الحق والدعاء إليه فلا ينظر إلى صورته بل إلى معناه. نعم في**

المعاريض ما وجد إليه سبيلاً . كان رسول الله ﷺ إذا توجه إلى سفر ورّى بغيره وذلك كيلا ينتهي الخبر إلى الأعداء فيقصد ، وليس هذا من الكذب في شيء ، قال رسول الله ﷺ : « ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيراً أو أنمى خيراً » . ورخص في النطق على وفق المصلحة في ثلاثة مواضع : من أصلح بين اثنين ، ومن كان له زوجتان ، ومن كان في مصالح الحرب . والصدق ههنا يتحوّل إلى النية فلا يراعي فيه إلا صدق النية وإرادة الخير ، فمهما صح قصده وصدقت نيته وتجرّدت للخير إرادته صار

مثل هذا الموضع ينبغي أن يعدل إلى المعاريض ما وجد إليه سبيلاً . كان رسول الله ﷺ إذا توجه إلى سفر ورى بغيره) قال العراقي : متفق عليه من حديث كعب بن مالك بلفظ « كان إذا أراد سفراً » .

قلت : ورواه أبو داود بلفظ : « كان إذا أراد غزوة ورى بغيرها » .

(وذلك لكيلا ينتهي الخبر إلى الأعداء فيقصد وليس هذا من الكشف في شيء) لما فيه من المصلحة الراجحة وهو التمكين من الأعداء والهجوم عليهم على غرة منهم . **(وقال رسول الله ﷺ « ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيراً أو أنمى خيراً »)** متفق عليه من حديث أم كلثوم بنت عقبه بن أبي معيط وقد تقدم في آفات اللسان . **(ورخص في النطق على وفق المصلحة في ثلاثة مواضع : من أصلح بين اثنين ، ومن كان له زوجتان ، ومن كان في مصالح الحرب)** وقد روي ذلك في المرفوع من حديث أم كلثوم بنت عقبة « لا يصلح الكذب إلا في إحدى ثلاث : الرجل يصلح بين الرجلين ، وفي الحرب ، والرجل يحدث امرأته » رواه ابن جرير في التهذيب . ومن حديث أبي الطفيل « لا يصلح الكذب إلا في إحدى ثلاث : رجل كذب امرأته ليستصلح خلقها ، ورجل كذب ليصلح بين امرأين مسلمين ، ورجل كذب في خديعة حرب فإن الحرب خدعة » رواه ابن جرير أيضاً . ومن حديث أسماء بنت يزيد « لا يصلح الكذب إلا في ثلاث : يحدث الرجل امرأته ليرضيها ، والكذب في الحرب ، والكذب يصلح بين الناس » رواه الترمذي وحسنه ، وقد روي بهذا اللفظ من حديث عائشة رواه ابن جرير وابن النجار . ومن حديث أبي أيوب « لا يحل الكذب إلا في ثلاثة : الرجل يكذب امرأته يرضيها بذلك ، والرجل يمشي بين رجلين يصلح بينهما ، والحرب خدعة » رواه أبو عوانة . ومن حديث النواس بن سمعان « الكذب يكتب على ابن آدم إلا في ثلاث : الرجل يكذب بين الرجلين ليصلح بينهما ، والرجل يكذب امرأته ليرضيها بذلك ، والكذب في الحرب والحرب خدعة » رواه ابن النجار . ويروى من حديث ثوبان نحوه « الكذب مكتوب إلا ما نفع به مسلم أو دفع به عنه » رواه البزار وصححه ، وهو عند الروياني بلفظ « الكذب كله إثم إلا ما نفع به مسلم أو دفع به عن دين » .

(والصدق ههنا يتحول إلى النية فلا يراعى فيه إلا صدق النية وإرادة الخير ، فمهما صح قصده وصدقت نيته وتجردت للخير إرادته صار صادقاً كيفما كان لفظه ، ثم التعريض

صادقاً وصدّيقاً كيفما كان لفظه، ثم التعريض فيه أولى. وطريقه ما حكي عن بعضهم، أنه كان يطلبه بعض الظلمة وهو في داره فقال لزوجته: خطي بأصبعك دائرة وضعي الإصبع على الدائرة وقولي ليس هو ههنا، واحترز بذلك عن الكذب ودفع الظالم عن نفسه، فكان قوله صدقاً وأفهم الظالم انه ليس في الدار. فالكمال الأولى في اللفظ أن يحترز عن صريح اللفظ وعن المعاريض أيضاً إلا عند الضرورة.

فيه أولى) من التصريح. **(وطريقه ما حكي عن بعضهم أنه كان يطلبه بعض الظلمة وهو في داره)** وأراد التخلص منه **(فقال لزوجته: خطي باصبعك دائرة وضعي الأصبع على الدائرة وقولي ليس هو ههنا)** كما تقدم في آفات اللسان، **(فاحترز بذلك عن الكذب ودفع الظالم عن نفسه فكان قوله صدقاً وأفهم أنه ليس في الدار)** فهذا من جملة المعاريض التي يتخلص بها الكذب، **(فالكمال الأول في اللفظ أن يحترز عن صريح اللفظ وعن المعاريض أيضاً إلا عند الضرورة)** وقد روى القشيري عن ابن سيرين: الكلام أوسع من أن يكذب ظريف، ويلحق به كل كلام خرج على وجه المثل للاعتبار دون الأخبار فليس بكذب على الحقيقة، ولهذا لا يتحاشى المتجوزون من التحدث به كقولهم في الحت على مداراة العدو والتلطف في خدمة الملوك أن سبعاً وذئباً وثعلباً اجتمعوا فقال السبع للذئب: اقسم، فقال: هو مقسوم العنز لك والظبي لي والأرنب للثعلب. فوثب السبع فأدماه ثم قال للثعلب: اقسم، فقال: هو مقسوم العنز لغدائك والظبي لقائلتك والأرنب لعشائك، فقال السبع: من علمك هذه القسمة المليحة؟ فقال: علمني السراويل الأرجواني الذي على الذئب وعلى المثل حمل قوله: ﴿إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة﴾ [ص: ٢٣] الآية. وقوله ﴿كمثل حبة أنبتت سبع سنابل﴾ [البقرة: ٢٦١] الآية. فقال: يصح هذا لما كان مثلاً وإن لم يجردمغاً للعادة في وجود حبة: هكذا قال الراغب في الذريعة ذهب كثير من المتكلمين أن الصدق يحسن لعينه والكذب يقبح لعينه. وقال كثير من الحكماء والمتصوفة: إن الكذب يقبح لما يتعلق به من المضار الحاصلة، والصدق يحسن لما يتعلق به من المنافع الحاصلة؛ وذلك أن الأقول من جملة الأفعال وشيء من الأفعال لا يحسن ولا يقبح لذاته، بل إنما يحسن لما يتعلق بهم من النفع ويقبّح ما يقبح لما يتعلق به من الضرر الموفى على ما فيه من النفع. ألا ترى أن أعظم ما يجري في العالم القتل والغصب، وقد يقع كل واحد منهما على وجه يحسن وعلى وجه يقبح، فكذا المقال من الصدق والكذب، ولذلك قال ﷺ «لا يصلح الكذب إلا في ثلاث» الحديث. وقد روي «إذا أتاكم مني حديث يدل على هدى أو يرد عن ردى فاقبلوه قلته أو لم أقله، وإن أتاكم مني حديث يدل على ردى أو يرد عن هدى فلا تقبلوه فإني لا أقول إلا حقاً. قالوا: والكذب يكون قبيحاً بثلاث شرائط: أن يكون الخبر بخلاف المخبر عنه، وأن يكون المخبر قد اختلقه قبل الاخبار، وأن يقصد إيراد ما في نفسه لا لاندفاع ضرر أعظم من ضرر ذلك الكذب مع شرط أن لا يمكن الوصول إلى ذلك النفع بغيره، ومع أنه إذا ظهر كان للكاذب عذر واضح عاجلاً وآجلاً. قالوا: ولا يلزم على هذا أن يقال جوزوا الكذب فيما يرجى منه نفع

والكمال الثاني: أن يراعي معنى الصدق في ألفاظه التي يناجي بها ربه كقوله: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٧٩] **فإنّ قلبه إن كان منصرفاً عن الله تعالى مشغولاً بأماني الدنيا وشهواته فهو كذب. وكقوله:** ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] **وكقوله: أنا عبد الله، فإنه إذا لم يتصف بحقيقة العبودية وكان له**

دنيوي، فالمنفعة الدنيوية ولو كانت تلك بحذافيرها لا توفى على ضرر أذى كذب، فإنما هذا الذي قلناه يتصور في نفع أخروي يكون الإنسان فيه عاجلاً وآجلاً معذوراً كمن سألك عن مسلم استتر في دارك وهو يريد قتله فيقول: هل فلان في دارك؟ فتقول: لا، فهذا يجوز فإن نفع هذا الكذب موف على ضرره وهو فيه معذور ولا خلاف أن المعاريض حيث يضطر إليها تجوز ولذلك قيل: إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب، ولم تزل الأنبياء والأولياء يفزعون إليها كقول النبي ﷺ لمن سأله: من أين أنت؟ فقال: «من الماء». وقول إبراهيم عليه السلام: ﴿إني سقيم﴾ [الصافات: ٨٩] وقوله: هذه أختي وقوله ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾ [الأنبياء: ٦٣]

وأما الصدق فإنه يحسن حيث يتعلق به ولا يلحق ضرر بأحد فمعلوم قبح من يقعد ويقول: السماء فوقي والأرض تحتي من غير أن يريد أن يجعل ذلك مقدمة دليل أو إفادة معنى يعلقه به، وكذا تقبح النميمة والغيبة والسعاية وإن كانت صدقاً، ولذلك قيل: كفى بالسعاية ذماً أنه يقبح فيه الصدق، وأقبح الكذب مع قبحه كله أو جله ما لا يتعلق به رجاء نفع عاجل أو آجل ويجلب إلى المقول له ضرراً كرجل يأتيك من بلد بعيد فيقول: بأن ملك ذلك البلد يرغب فيك ويتشوق إليك ويسألك أن تأتيه ليفيدك مالاً وجاهاً، وإذا وردت لم تجد ذلك صدقاً بل وجدت ذلك الملك حنقاً عليك اهـ.

(**والكمال الثاني: أن يراعي معنى الصدق في**) مدلولات (**ألفاظه التي يناجي بها ربه كقوله** ﴿**وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض**﴾ (**فإن قلبه إن كان منصرفاً عن الله تعالى مشغولاً بأماني الدنيا وشهواته فهو كاذب**) في قوله، فإن الوجه هنا عبارة عن وجه القلب لا وجه البدن (**وكقوله:** ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾) فإن كان رقيقاً لبعض الشهوات كان كاذباً في دعوى العبودية، وإن كان معتمداً على سبب من الأسباب كان كاذباً في دعوى الاستعانة، وكذلك في قوله: الله أكبر والحمد لله. وشبه هذا كثير، فلو قرأ وعظم عبداً من عباد الله على غير امتثال أمر الله، أو رأى النعمة من غيره كان كاذباً في تكبيره وحمولته وكذلك في قوله: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم وهو ملابس الأسباب التي هي قوة الشيطان وسبب لوسوسته، فإن الاستعاذة لا تعيذه ما لم ينتقل عن ملابسة تلك الأسباب. قال الله تعالى: ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم﴾ [الأعراف: ٢٠١] الآية فإن هذه الألفاظ تراد في الشرع لمدلولاتها لا لنفسها. (**وكقوله: أنا عبد الله فإنه إذا لم يتصف بحقيقة العبودية**) التي هي غاية الذل لله تعالى وهي للخاصة الذين صححوا النسبة إلى الله تعالى بصدق

مطلب سوى الله لم يكن كلامه صدقاً، ولو طولب يوم القيامة بالصدق في قوله: أنا عبد الله، لعجز عن تحقيقه فإنه إن كان عبداً لنفسه أو عبداً لدنيا أو عبداً لشهواته لم يكن صادقاً في قوله. وكل ما تقيد العبد به فهو عبد له كما قال عيسى عليه السلام: يا عبيد الدنيا! وقال نبينا ﷺ: «تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم وعبد الحلة وعبد الخميصة» سمي كل من تقيد قلبه بشيء عبداً له. وإنما العبد الحق لله عز وجل، من أعتق أوّلاً من غير الله تعالى فصار حرًّا مطلقاً، فإذا تقدّمت هذه الحرّية صار القلب فارغاً فحلت فيه العبودية لله فتشغله بالله وبمحبته وتقيد باطنه وظاهره بطاعته فلا يكون له مراد إلا الله تعالى، ثم قد تجاوز هذا إلى مقام آخر أسنى منه يسمى الحريَّة وهو أن

القصد إليه في سلوك طريقه، **(وكان له مطلب سوى الله لم يكن كلامه صدقاً)** في نفسه، **(ولو طولب يوم القيامة بالصدق في قوله: أنا عبد الله لعجز عن تحقيقه فإنه إن كان عبداً لنفسه)** بأن يكون متهالكاً في تحصيل شهواتها، **(أو عبد الدنيا)** بأن يكون معتكفاً على خدمتها ومراعاتها، **(أو عبداً لشهواته)** بأن يكون مترامياً في تحصيلها لنفسه **(لم يكن صادقاً في قوله)**، وعليه يصح أن يقال: ليس كل إنسان عبد الله تعالى وعبد الله عندهم الذي تجلى له الحق بجميع أسمائه، فلا يكون في عباده أرفع مقاماً ولا أعلى شأناً منه لتحققه باسمه الأعظم واتصافه بجميع صفاته، ولهذا خص نبينا ﷺ بهذا الاسم في قوله: ﴿وإنه لما قام عبدالله يدعوه﴾ [الجن: ١٩] فلم يكن هذا الاسم بالحقيقة إلا له والأقطاب من ورثته بتبعيته، وإن أطلق على غيره مجازاً للاتصاف كل اسم من أسمائه بجميعها بحكم الواحدية وأحدية جميع الأسماء، **(وكل ما تعبد العبد به فهو عبد له)** منسوب إليه **(كما قال عيسى عليه السلام)** في بعض محاوراته: **(يا عبيد الدنيا)!** سماهم كذلك لاعتكافهم على خدمتها ومراعاتها. **(وقال نبينا ﷺ «تعس عبد الدينار وتعس عبد الدرهم وعبد الحلة وعبد الخميصة»)** رواه البخاري وابن ماجه والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة بزيادة «إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش» الحديث. قال البخاري: حدثنا عمرو بن مرزوق، حدثنا عبد الرحمن بن عبدالله بن دينار، عن أبي صالح عن أبي هريرة رفعه «تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة» الحديث. ورواه البيهقي من طريق يوسف بن يعقوب عن عمرو بن مرزوق. ورواه العسكري في الأمثال بلفظ «لعن» بدل «تعس» وذكر المصنف هناك «تعس عبد الزوجة» وهذا لا أصل له. **(سمي كل من تعبد قلبه بشيء عبداً له)** باعتبار ذلك له وانصرافه إليه، **(وإنما العبد الحق لله عز وجل من أعتق أولاً عن غير الله تعالى فصار حراً مطلقاً)** من الوثاق، **(فإذا تقدمت هذه الحرية صار القلب فارغاً فحلت فيه العبودية لله)** وإليه أشار القائل:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى ... فصادف قلباً خالياً فتمكنا

(فتشغله بالله وبمحبته وتقيد باطنه وظاهره بطاعته فلا يكون له مراد إلا الله تعالى، ثم

يعتق أيضاً عن إرادته لله من حيث هو بل يقنع بما يريد الله له من تقريب أو إبعاد فتفنى إرادته في إرادة الله تعالى. وهذا عبد عتق عن غير الله فصار حرًّا، ثم عاد وعتق عن نفسه فصار حرًّا، وصار مفقوداً لنفسه موجوداً لسيده ومولاه إن حركه تحرّك وإن سكّنه سكن وإن ابتلاه رضي، لم يبق فيه متسع لطلب والتماس واعتراض، بل هو بين يدي الله كالميت بين يدي الغاسل وهذا منتهى الصدق في العبودية لله تعالى، فالعبد الحق هو الذي وجوده لمولاه لا لنفسه وهذه درجة الصدّيقين. وأما الحرية عن غير الله فدرجات الصادقين، وبعدها تتحقق العبودية لله تعالى، وما قبل هذا فلا يستحق صاحبه أن يسمى صادقاً ولا صديقاً؛ فهذا هو معنى الصدق في القول.

قد تجاوز هذا إلى مقام آخر أسنى منه يسمى الحرية) وهي عندهم عبارة عن الانطلاق عن رق الأغيار، وهي على مراتب: حرية العامة عن رق الشهوات، وحرية الخاصة عن رق المرادات لفناء إرادتهم عن إرادة الحق، وحرية خاصة الخاصة عن رق المرسوم والآثار لانمحاقهم في تجلي نور الأنوار، وقد أشار إليه المصنف بقوله: (**وهو أن يعتق أيضاً عن إرادته لله من حيث هو هو، بل يقنع بما يريد الله له من تقريب وأبعاد فتفنى إرادته في إرادة الله تعالى**) وهي حرية الخاصة؛ (**فهذا عبد عتق عن غير الله**) أي انطلق عن رق الغير (**فصار حراً**) وهي حرية العامة، (**ثم عاد وعتق عن نفسه فصار حراً**) وهي حرية الخاصة، ثم عاد وعتق عن رسومه وآثاره فصار حراً (**وصار مفقوداً لنفسه موجوداً لسيده ومولاه**) وانمحقت رسومه في تجلي نور الأنوار وهي حرية خاصة الخاصة، فهو (**إن حركه**) مولاه (**تحرك وإن سكنه سكن وإن ابتلاه رضي لم يبق فيه متسع لطلب والتماس واعراض**). قيل للشبلي: ألا تعلم أنه رحمن؟ فقال: بلى ولكن منذ عرفت رحمته ما سألته أن يرحمني، (**بل هو بين يدي الله كالميت بين يدي الغاسل**) يصرفه كيف يشاء، (**وهذا منتهى الصدق في العبودية**).

قال القشيري في الرسالة: اعلم أن حقيقة الحرية في كمال العبودية فإذا صدقت لله عبوديته خلصت عن رق الأغيار حريته، فاما من توهم أن العبد يسلم له أن يخلع وقتاً عذار العبودية ويحيد بلحظة عن حد الأمر والنهي وهو مميز في دار التكليف، فذلك انسلاخ من الدين، والذي أشار إليه القوم من الحرية هو أن لا يكون العبد بقلبه تحت رق شيء من المخلوقات لا من أعراض الدنيا ولا من أعراض الآخرة فيكون فرد الفرد لم يسترقه عاجل دنيا ولا حاصل هوى ولا آجل مني ولا سؤال ولا قصد ولا أرب ولا حظ ومقام الحرية عزيز.

(**فالعبد الحق هو الذي وجوده لمولاه لا لنفسه، وهذه درجة الصديقين. وأما الحرية عن غير الله فدرجات الصادقين وبعدها تتحقق العبودية لله تعالى، وما قبل هذا فلا يستحق صاحبه أن يسمى صادقاً ولا صديقاً**). قال الحسين بن منصور فيما نقله القشيري: إذا استوفى العبد مقامات العبودية كلها يصير حراً من تعب العبودية فيترسم بالعبودية بلا عناء ولا

الصدق الثاني: في النية والإرادة؛ ويرجع ذلك إلى الإخلاص وهو أن لا يكون له باعث في الحركات والسكنات إلا الله تعالى، فإن مازجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية وصاحبه يجوز أن يسمى كاذباً، كما روينا في فضيلة الإخلاص من حديث الثلاثة حين يُسأل العالم ما عملت فيما علمت؟ فقال: فعلت كذا وكذا، فقال الله تعالى: كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم فإنه لم يكذبه ولم يقل له لم تعمل ولكنه كذبه في إرادته ونيته. وقد قال بعضهم: الصدق صحة التوحيد في القصد. وكذلك قول الله تعالى: ﴿واللهُ يَشْهَدُ إنّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] وقد قالوا إنك لرسول الله وهذا صدق، ولكن كذبهم الله لا من حيث نطق اللسان بل من حيث ضمير القلب وكان التكذيب يتطرّق إلى الخبر. وهذا القول يتضمن أخباراً بقرينة الحال، إذ صاحبه

كلفة، وذلك مقام الأنبياء والصديقين حتى يصير محمولاً لا يلحقه بقلبه مشقة وإن كان متحلياً بها شرعاً؛ (**فهذا هو معنى الصدق في القول.**).

(**الصدق الثاني: في النية، والإرادة: ويرجع ذلك إلى الإخلاص وهو أن لا يكون له باعث في الحركات والسكنات إلا الله تعالى فإن مازجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية وصاحبه يجوز أن يسمى صادقاً**). يقال: هذا صادق الحلاوة وهذا صادق الحموضة أي محضها فيرجع هذا إلى نفس الإخلاص، (**كما روينا في فضيلة الإخلاص من حديث**) أبي هريرة في (**الثلاثة حين يسأل العالم ما عملت فيما علمت؟ فقال: فعلت كذا وكذا، فقال الله تعالى: كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم**) فقد قيل ذلك. (**فإنه لم يكذبه ولم يقل له لم تعمل ولكنه كذبه في إرادته ونيته. وقد قال بعضهم: الصدق صحة التوحيد في القصد**) نقله القشيري عن الواسطي إلا أنه قال مع القصد.

قال صاحب القوت: النية عند عبد الرحيم بن يحيي الأسود هي نفس الإخلاص وعند غيره هي الصدق في الحال باستواء السريرة والعلانية، وقد قال الجنيد في الفرق بين الإخلاص والصدق معنى لطيف لم يفسره ويحتاج إلى تفسيره. حدثنا بعض الأشياخ عنه قال: شهد جماعة على رجل بشهادة فلم تضره وكانوا مخلصين ولو كانوا صادقين لعوقب، يعني أن صدقهم أن لا يعملوا عمله ومثل عمله الذي شهدوا به عليه، فهذا صدق الحال وهو حقيقة النية وإخلاصها عند المحققين. وقال في موضع آخر: والنية عند قوم الإخلاص بعينه وعند آخرين الصدق وعند الجماعة أنها صحة العقد وحسن القصد.

(**وكذلك قول الله تعالى ﴿ والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾ وقد قالوا: إنك لرسول الله، وهذا صدق ولكن كذبهم لا من حيث نطق اللسان بل من حيث ضمير القلب**) أي فلم يقنع منهم إلا بصدق نياتهم، (**وكان التكذيب يتطرق إلى الخبر. وهذا القول يتضمن أخباراً**

يظهر من نفسه أنه يعتقد ما يقول فكذب في دلالته بقرينة الحال على ما في قلبه، فإنه كذب في ذلك ولم يكذب فيما يلفظ به، فيرجع أحد معاني الصدق إلى خلوص النية وهو الإخلاص فكل صادق فلا بدّ وأن يكون مخلصاً.

الصدق الثالث: صدق العزم؛ فإن الإنسان قد يقدم العزم على العمل فيقول في نفسه إن رزقني الله مالاً تصدقت بجميعه أو بشطره أو إن لقيت عدوًّا في سبيل الله تعالى قاتلت، ولم أبال وإن قتلت، وإن أعطاني الله تعالى ولاية عدلت فيها، ولم أعصِ الله تعالى بظلم وميل إلى خلق. فهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه وهي عزيمة جازمة صادقة، وقد يكون في عزمه نوع ميل وتردد وضعف يضاد الصدق في العزيمة، فكان الصدق ههنا عبارة عن التمام والقوّة كما يقال: لفلان شهوة صادقة. ويقال: هذا المريض شهوته

بقرينة الحال إذ صاحبه يظهر من نفسه أنه يعتقد ما يقول فكذب في دلالته بقرينة الحال على ما في قلبه فإنه كذب في ذلك ولم يكذب فيما يلفظ به، فيرجع أحد معاني الصدق إلى خلوص النية وهو الإخلاص فكل صادق فلا بد وأن يكون مخلصاً) وليس كل مخلص صادقاً.

وقال الراغب في الذريعة: حد الصدق هو مطابقة القول والضمير والمخبر عنه، ومتى انخرم شرط من ذلك لم يكن صادقاً تاماً بل إما أن لا يوصف بالصدق والكذب أو يوصف تارة بالصدق وتارة بالكذب على نظرين مختلفين، كقول الكافر: إذا قال من غير اعتقاد محمد رسول الله ﷺ فإن هذا يصح أن يقال فيه كذب لمخالفة قوله ضميره، ولهذا كذبهم الله تعالى حين قال: ﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾ [المنافقون: ١] وكذلك إذا قال: من لم يعلم كون زيد في الدار أنه في الدار يصح أن يقال صدق وأن يقال كذب باعتبار نظرين مختلفين، ولهذا قال ﷺ «من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ». وفي خبر «فقد كذب على الله» والمتوسم لا قصد له، فإذا قال زيد في الدار لا يقال إنه صدق ولا أنه كذب.

(الصدق الثالث: صدق العزم) أي الصدق في العزم على الخير، **(فإن الإنسان قد يقدم العزم على العمل فيقول في نفسه: إن رزقني الله مالاً تصدقت بجميعه)** على الفقراء والمساكين **(أو بشطره)**، أو إن رزقني الله علماً لأعلمن الناس ولأعملن به، **(أو إن لقيت عدواً في سبيل الله قاتلت ولم أبال وإن قتلت، وإن أعطاني الله تعالى ولاية عدلت فيهم ولم أعص الله تعالى بظلم ولا ميل إلى خلق، فهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه وهي عزيمة جازمة صادقة)** والصدق فيها أن لا يكون في العزم تردد، **(وقد يكون في عزمه نوع ميل وتردد وضعف يضاد في العزيمة)** ويناقضه. قال الله تعالى ﴿فهم في ريبهم يترددون﴾ [التوبة: ٤٥] **(فكان الصدق ههنا عبارة عن التمام والقوة كما يقال لفلان: شهوة صادقة، ويقال**

كاذبة، مهما لم تكن شهوته عن سبب ثابت قوي أو كانت ضعيفة، فقد يطلق الصدق ويراد به هذا المعنى. والصادق والصدّيق هو الذي تصادف عزيمته في الخيرات كلها قوة تامة ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردد، بل تسخو نفسه أبداً بالعزم المصمم الجازم على الخيرات وهو كما قال عمر رضي الله عنه: لأن أقدم فتضرب عنقي أحب إليّ من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر رضي الله عنه فإنه قد وجد من نفسه العزم الجازم، والمحبة الصادقة بأنه لا يتأمر مع وجود أبي بكر رضي الله عنه، وأكد ذلك بما ذكره من القتل. ومراتب الصدّيقين في العزائم تختلف فقد يصادف العزم ولا ينتهي به إلى أن يرضى بالقتل فيه ولكن إذا خلي ورأيه لم يقدم، ولو ذكر له حديث القتل لم ينقض عزمه، بل في الصادقين والمؤمنين من لو خير بين أن يقتل هو وأبو بكر كانت حياته أحب إليه من حياة أبي بكر الصدّيق.

الصدق الرابع: في الوفاء بالعزم، فإن النفس قد تسخو بالعزم في الحال إذ لا مشقة في الوعد والعزم والمؤونة فيه خفيفة، فإذا حققت الحقائق وحصل التمكن وهاجت الشهوات انحلت العزيمة وغلبت الشهوات ولم يتفق الوفاء بالعزم، وهذا يضادّ الصدق

لهذا المريض: شهوة كاذبة مهما لم تكن شهوته عن سبب ثابت قوي أو كانت ضعيفة، فقد يطلق الصدق ويراد به هذا المعنى، والصادق والصديق هو الذي تصادف عزيمته في الخيرات كلها قوية تامة ليس فيها ميل لا ضعف ولا تردد، بل تسخو نفسه أبداً بالعزم المصمم الجازم على الخيرات وهو كما قال عمر رضي الله عنه) في يوم سقيفة بني ساعدة لما أشير إليه بالخلافة: **(لأن أقدم فتضرب عنقي أحب إلي من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر)** رضي الله عنه فهذا هو الصدق في العزم: **(فإنه قد وجد من نفسه العزم الجازم)** القوي **(والمحبة الصادقة بأن لا يتأمر مع وجود أبي بكر رضي الله عنه، وأكد بما ذكره من القتل، ومراتب الصديقين في العزائم تختلف، فقد يصادف العزم ولا ينتهي به إلى أن يرضى بالقتل فيه، ولكن إذا خلي ورأيه لم يقدم ولو ذكر له حديث القتل لم ينقض عزمه، بل في الصادقين والمؤمنين من لو خير بين أن يقتل هو وأبو بكر)** رضي الله عنه **(كانت حياته أحب إليه من حياة أبي بكر الصديق)** رضي الله عنه، فدرجات عزم الصديقين تتفاوت في القوة، وأقصاها ينتهي إلى الرضا بضرب الرقبة دون تحقيقه.

(الصدق الرابع: في الوفاء بالعزم) عند القدرة على المعزوم عليه، **(فإن النفس قد تسخو بالعزم في الحال)** أي أولاً، ولكن عند الوفاء به [illegible] عن كمال التحقيق إذ لا مشقة في الوعد والعزم والمؤنة فيه خفيفة هينة، وإنما الشدة في التحقيق، **(فإذا حقت الحقائق وحصل التمكن وهاجت الشهوات انحلت العزيمة وغلبت الشوات ولم يتفق الوفاء بالعزم، وهذا يضاد**

فيه، ولذلك قال الله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، فقد روي عن أنس أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدراً مع رسول الله ﷺ فشق ذلك على قلبه وقال: أوّل مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه أما والله لئن أراني الله مشهداً مع رسول الله ﷺ ليرين الله ما أصنع. قال: فشهد أحداً في العام القابل فاستقبله سعد بن معاذ. فقال: يا أبا عمرو إلى أين؟ فقال: واهاً لريح الجنة! إني أجد

الصدق فيه) وذلك أن الولاية الصغرى عدم الخواطر المذمومة عند وجود الأسباب المهيجة لها، فإذا حققنا انقسم الناس في ذلك أربعة أقسام:

القسم الأول: إذا صحت الأسباب المناسبة لتحلل العزم كما قال تعالى ﴿إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر﴾ [الأحزاب: ١٠] فقد ينحل العزم ولا يقدر على الوفاء بما عزم عليه.

القسم الثاني: يتزلزل عزمهم وتتردد هممهم ثم يمدهم الله تعالى بمعونته فيقوي عزمهم. قال الله تعالى: ﴿هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً﴾.

القسم الثالث: يثبت عزمهم على حالته الأولى من غير زيادة ولا نقصان، **(ولذلك قال الله تعالى ﴿رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه)** فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر﴾.

القسم الرابع: يقوى عزمهم ويزداد بمشاهدة تلك الأسباب والأهوال وهذا هو الصديقية العظمى في الولاية الكبرى. قال تعالى ﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً﴾ [الأحزاب: ٢٢] وقال تعالى: ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ [آل عمران: ١٧٣] وهذا الصدق في التوكل وأعلى درجاته لأنه انصراف القلب إلى الله تعالى بالأسباب الموجبة للانصراف عنه، وهذه الأقسام تجري في كل معزوم عليه من الواجب والمستحب من ذلك المعزوم عليه، فلو عزم أن لا ينظر إلى محرم أبداً فلو فاجأته بعد تحقق عزمه امرأة جميلة شريفة المقدار وجب عليه الوفاء بعزمه، وكانت الأربعة جارية في حقه بحسب قوة إيمانه وضعفه، ولو عزم صوفي على أن لا ينظر إلى الدنيا ولا يستحسن منها شيئاً، فلو فاجأه ملك من الملوك في زينته وحفدته وانفهقت له أمثلة الجنة شالاً حتى يرى ما أعده الله لعباده منها استحب له الوفاء بعزمه إن كان عارفاً بالله، وكانت الأقسام الأربعة جارية في حقه بحسب طهارة قلبه وغزارة علمه، **(فقد روي عن أنس)** بن مالك بن النضر بن ضمضم الأنصاري رضي الله عنه **(أن عمه أنس بن النضر)** بن ضمضم الأنصاري الخزرجي رضي الله عنه **(لم يشهد بدراً مع رسول الله ﷺ فشق ذلك على قلبه وقال: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه، أما والله لئن أراني مشهداً مع رسول الله ﷺ ليرين الله ما أصنع. قال: فشهد أحداً في العام القابل فاستقبله سعد بن معاذ)** بن النعمان الأنصاري سيد الأوس وهو الذي اهتز لموته العرش،

ريحها دون أحد. فقاتل حتى قتل فوجد في جسده بضع وثمانون ما بين رمية وضربة وطعنة فقالت أخته بنت النضر: ما عرفت أخي إلا بثيابه، فنزلت هذه الآية: ﴿رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ ووقف رسول الله ﷺ على مصعب بن عمير وقد سقط

(**فقال يا أبا عمر**) وهي كنية أنس بن النضر كما هو مقتضى سياق المصنف، والصحيح أنه كنية سعد بن معاذ (**إلى أين؟ فقال: واهاً لريح الجنة إني أجد ريحها دون أحد، فقاتل حتى قتل فوجد على جسده بضع وثمانون من بين رمية وضربة وطعنة، فقالت أخته**) الربيع (**بنت النضر**) عمة أنس بن مالك: (**ما عرفت أخي إلا بثيابه**) كذا في النسخ وهو تصحيف، والصحيح ببنانه أي أصبعه، (**فنزلت هذه الآية: ﴿رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾**) قال العراقي: رواه الترمذي وقال حسن صحيح، والنسائي في الكبرى، وهو عند البخاري مختصراً أن هذه الآية نزلت في أنس بن النضر اهـ.

قلت: رواه البخاري من طريق حميد عن أنس من طريق ثمامة عن أنس «أن عمه أنس بن النضر غاب عن قتال بدر، فقال: يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت فيه المشركين، والله لئن أشهدني الله قتال المشركين ليرين الله ما أصنع، فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون فقال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء يعني المسلمين وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء يعني المشركين، ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ فقال: أي سعد هذه الجنة ورب أنس إني أجد ريحها دون أحد، قال سعد: فما استطعت ما صنع يومئذ فقتل يومئذ» فذكرت الحديث، وقد أخرجه ابن منده من طريق حماد ابن سلمة عن ثابت عن أنس. وذكر الحافظ في ترجمة الربيع من الإصابة ما لفظه. ولأنس عنها رواية في صحيح مسلم في قصة قتل أخيها أنس بن النضر لما استشهد بأحد. قال أنس: فقالت أخته الربيع عمتي بنت النضر: ما عرفت أخي إلا ببنانه. قال: وهذا صريح في روايته عن عمته، وهو عند البخاري من وجه آخر عن أنس بلفظ: ما عرفته إلا أخته.

وقال الحرث بن أبي أسامة في مسنده، ومن طريق أخرجه أبو نعيم في الحلية، حدثنا عبدالله بن بكر السهمي، حدثنا حميد عن أنس بن مالك قال: غاب أنس بن النضر عم أنس بن مالك عن قتال بدر، فلما قدم قال: غبت عن أول قتال قاتله رسول الله ﷺ المشركين، لئن أشهدني الله قتالاً ليرين الله ما أصنع، فلما كان يوم أحد انكشف الناس قال: اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء يعني المشركين، وأعتذر إليك مما صنع هؤلاء يعني المسلمين، ثم مشى بسيفه فلقيه سعد بن معاذ فقال: أي سعد والذي نفسي بيده إني لأجد ريح الجنة دون أحد واهاً لريح الجنة! قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع. قال أنس: وجد بين القتلى به بضع وثمانون جراحة من ضربة بسيف وطعنة برمح ورمية بسهم قد مثلوا به. قال: فما عرفناه حتى عرفته أخته ببنانه. قال أنس: فكنا نقول نزلت هذه الآية: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ إنها فيه وفي أصحابه.

على وجهه يوم أحد شهيداً وكان صاحب لواء رسول الله ﷺ فقال عليه السلام: «رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر﴾، وقال فضالة بن عبيد: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الشهداء أربعة: رجل مؤمن جيد الإيمان لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذلك الذي يرفع الناس إليه أعينهم يوم القيامة هكذا، ورفع رأسه حتى وقعت قلنسوته، قال الراوي: فلا أدري قلنسوة عمر أو قلنسوة رسول الله ﷺ، ورجل جيد الإيمان إذا لقي العدوّ فكأنما يضرب وجهه بشوك الطلح أتاه سهم عاثر فقتله فهو في

(**ووقف رسول الله ﷺ على**) أبي عبدالله (**مصعب بن عمير**) بن هاشم بن عبد مناف العبدري، (**وقد سقط على وجهه يوم أحد شهيداً وكان صاحب لواء رسول الله ﷺ**) يومئذ، (**فقال ﷺ « ﴿رجال صدقوا ما عاهدوا الله عيه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر﴾) »** قال العراقي: رواه أبو نعيم في الحلية من رواية عبيد بن عمير مرسلاً اهـ.

قلت: قال أبو نعيم: حدثنا إبراهيم بن عبدالله وأحمد بن محمد بن الحسين قالا: حدثنا محمد بن إسحاق السراج، حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا حاتم بن إسماعيل، عن عبد الأعلى بن عبدالله بن أبي فروة، عن قطن بن وهب، عن عبيد بن عمير قال: لما فرغ رسول الله ﷺ يوم أحد مر على مصعب بن عمير مقتولاً على طريقه فقرأ ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ الآية.

قال: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا عمر بن حفص السدوسي، حدثنا أبو بلال الأشعري، حدثنا يحي العلاء عن عبدالله بن عبد الأعلى بن عبدالله بن فروة، عن قطن بن وهب، عن عبيد بن عمير قال: مر رسول الله ﷺ على مصعب بن عمير حين رجع من أحد فوقف عليه وعلى أصحابه فقال: «أشهد أنكم أحياء عند الله فزوروهم وسلموا عليهم، فوالذي نفسي بيده لا يسلم عليهم أحد إلا ردوا عليه إلى يوم القيامة» اهـ.

وعبيد بن عمير بن قتادة الليثي أبو عاصم المكي ولد على عهد النبي ﷺ قاله مسلم، وعده غيره من كبار التابعين وكان قاص أهل مكة مجمع على ثقته روى له الجماعة.

(**وقال فضالة بن عبيد**) بن نافذ بن قيس الأنصاري الأوسي رضي الله عنه: أول ما شهد أحداً ونزل دمشق وولي قضاءها، مات سنة ثمان وخمسين وقيل قبلها: (**سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الشهداء أربعة: رجل مؤمن جيد الإيمان لقى العدو فصدق الله حتى قتل فذلك الذي يرفع الناس إليه أعينهم يوم القيامة ـ هكذا**) قال الراوي (**ورفع رأسه حتى وقعت قلنسوته. قال الراوي**) لهذا الحديث (**فلا أدري قلنسوة عمر أو قلنسوة رسول الله ﷺ ـ ورجل جيد الإيمان إذا لقى العدو فكأنما يضرب وجهه بشوك الطلح**) شجر كثير الشوك (**أتاه سهم عاثر فقتله**) لا يعرف راميه (**فهو في الدرجة الثانية،**

الدرجة الثانية، ورجل مؤمن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً لقي العدوّ فصدق الله حتى قتل فذلك في الدرجة الثالثة، ورجل أسرف على نفسه لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذاك في الدرجة الرابعة».

وقال مجاهد: رجلان خرجا على ملأ من الناس قعود فقالا إن رزقنا الله تعالى مالاً لنصدّقن فبخلوا به فنزلت: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ ولنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، وقال بعضهم إنما هو شيء نووه في أنفسهم لم يتكلموا به فقال: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْم يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ وبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٥ ـ ٧٧]

ورجل مؤمن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذلك في الدرجة الثالثة، ورجل أسرف على نفسه لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذاك في الدرجة الرابعة»). قال الحافظ في الفتح: هذا الحديث ونحوه يفيد أن الشهداء ليسوا في مرتبة واحدة، ويدل عليه أيضاً ما رواه الحسن بن علي الحلواني في كتاب المعرفة بإسناد حسن من حديث علي كرم الله وجهه: «كل موتة يموت فيها المسلم فهو شهيد غير أن الشهادة تتفاضل» اهـ.

قال العراقي: رواه الترمذي وقال: حسن اهـ.

قلت: رواه الطيالسي، وأحمد، وأبو يعلى، وأبو الشيخ والبيهقي، والديلمي، ولفظ الجميع «ورجل مؤمن جيد الإيمان لقي العدو فكأنما ضرب جلده بشوك طلح من الجبن أتاه سهم غرب فقتله» والباقي سواء، ولم يقولوا ورفع رأسه إلى آخر الجملة.

(وقال مجاهد) رحمه الله تعالى: **(رجلان خرجا على ملأ من الناس قعود، فقالا: إن رزقنا الله مالاً لنصدقن به فبخلوا به فنزلت)** هذه الآية **(﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين﴾)** قال ابن أبي الدنيا في الصمت: حدثنا أحمد بن إبراهيم، حدثنا عباس بن الوليد، حدثنا يزيد بن زريع، عن سعيد عن قتادة في قوله عز وجل ﴿ومنهم من عاهد الله﴾ الآية قال: ذكر لنا أن رجلاً من الأنصار أتى على مجلس للأنصار فقال: لئن آتاه الله مالاً ليؤتين كل ذي حق حقه فآتاه الله مالاً فصنع فيه ما تسمعون ﴿فلما آتاهم من فضله بخلوا به﴾ إلى قوله ﴿وبما كانوا يكذبون﴾.

(وقال بعضهم: إنما هو شيء نووه في أنفسهم لم يتكلموا به فقال) تعالى: **(﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين* فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون* فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون﴾)** روى الباوردي وابن السكن وابن شاهين وغيرهم من طريق معاذ بن

فجعل العزم عهداً وجعل الخلف فيه كذباً والوفاء به صدقاً. وهذا الصدق أشد من الصدق الثالث، فإن النفس قد تسخو بالعزم ثم تكيع عند الوفاء لشدته عليها ولهيجان الشهوة عند التمكن وحصول الأسباب. ولذلك استثنى عمر رضي الله عنه فقال: لأن أقدم فتضرب عنقي أحب إليَّ من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر. اللهم إلا أن تسوّل لي نفسي عند القتل شيئاً لا أجده الآن لأني لا آمن أن يثقل عليها ذلك فتتغير عن

رفاعة عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة أن ثعلبة بن حاطب الأنصاري قال: يا رسول الله ادع أن يرزقني مالاً، فذكر الحديث بطوله في دعاء النبي ﷺ له وكثرة ماله، ومنعه الصدقة ونزول قوله تعالى ﴿ومنهم من عاهد الله﴾ الآية. وفيه أن النبي ﷺ مات ولم يقبض منه الصدقة ولا أبو بكر ولا عمر، ومات في خلافة عثمان كما مر بطوله في كتاب ذم الدنيا رواه البيهقي في الشعب من هذا الطريق كذلك، وقال في آخره: وإنما لم يأخذ النبي ﷺ زكاة ماله ولا من بعده لأنه كان قد نافق، والكتاب الذي نزل في شأنه ناطق بذلك حيث قال ﴿فاعقبهم نفاقاً في قلوبهم﴾ إلى يوم ﴿يلقونه﴾ الآية. وعلموا بهذه بقاءه على نفاقه حتى يموت، وأن إتيانه بصدقة ماله مخافة أن تؤخذ منه قهراً. قال: وفي إسناد هذا الحديث نظر وهو مشهور فيما بين أهل التفسير اهـ.

والمسمى بهذا الاسم رجلان أحدهما ثعلبة بن حاطب بن عمير بن عبيد الأوسي الأنصاري ذكره موسى بن عقبة وابن اسحاق في البدريين، وكذا ذكره ابن الكلبي وزاد أنه قتل بأحد، والثاني ثعلبة بن حاطب أو ابن أبي حاطب الأنصاري ذكره ابن إسحاق فيمن بنى مسجد الضرار.

قال الحافظ في الإصابة: وفي كون صاحب القصة «إن صح الخبر ولا أظنه يصح هو البدري المذكور نظر، وقد تأكدت المغايرة بينهما بقول ابن الكلبي أن البدري استشهد بأحد. قال: ويقوي ذلك أن رجلاً يقال له ثعلبة بن أبي حاطب من الأنصار أتى مجلساً فاشهدهم فقال ﴿لئن آتاني الله مالاً﴾ الآية. فذكر القصة بطولها، فقال: إنه ثعلبة بن أبي حاطب، والبدري اتفقوا على أنه ثعلبة ابن حاطب، وقد ثبت أنه ﷺ قال «لا يدخل النار أحد شهد بدراً والحديبية» وحكى عن ربه أنه قال لأهل بدر: ﴿اعملوا ما شئتم﴾[فصلت: ٤٠] فقد غفرت لكم فمن يكون بهذه المثابة كيف يعقبه الله نفاقاً في قلبه وينزل فيه ما نزل، فالظاهر أنه غيره والله أعلم.

(**فجعل العزم عهداً**) إذ كانوا عزموا في أنفسهم ولم يتكلموه فقال ﴿ومنهم من عاهد الله﴾ (**وجعل الخلف فيه كذباً**) بقوله ﴿وبما كانوا يكذبون﴾ (**والوفاء به صدقاً، وهذا الصدق أشد من الصدق الثالث**) وأرفع منه مقاماً، (**فإن النفس قد تسخو بالعزم ثم تكسع**) أي تتوانى عند الوفاء لشدته عليها ولهيجان الشهوات عند التمكن وحصول الأسباب، (**ولذلك استثنى عمر رضي الله عنه فقال: لأن أقدم فتضرب عنقي أحب إلي من أن أتأمر على قوم**) أي أصير أميراً عليهم (**فيهم أبو بكر**) رضي الله عنه. (**اللهم إلاأن تسول لي نفسي عند القتل شيئاً لا أجده الآن**) أي تزين (**لأني لا آمن أن يثقل عليها ذلك فتتغير عن**

عزمها. أشار بذلك إلى شدّة الوفاء بالعزم. وقال أبو سعيد الخراز: رأيت في المنام كأن ملكين نزلا من السماء فقالا لي: ما الصدق؟ قلت: الوفاء بالعهد، فقالا لي: صدقت، وعرجا إلى السماء.

الصدق الخامس: في الأعمال وهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف هو به، لا بأن يترك الأعمال ولكن بأن يستجرّ الباطن إلى تصديق الظاهر، وهذا مخالف ما ذكرنا من ترك الرياء لأن المرائي هو الذي يقصد ذلك، ورب واقف على هيئة الخشوع في صلاته ليس يقصد به مشاهدة غيره ولكن قلبه غافل عن الصلاة، فمن ينظر إليه يراه قائماً بين يدي الله تعالى وهو بالباطن قائم في السوق بين يدي شهوة من شهواته فهذه أعمال تعرب بلسان الحال عن الباطن إعراباً هو فيه كاذب وهو مطالب بالصدق في الأعمال وكذلك قد يمشي الرجل على هيئة السكون والوقار وليس باطنه موصوفاً بذلك الوقار، فهذا غير صادق في عمله وإن لم يكن ملتفتاً إلى الخلق ولا مرائياً إياهم، ولا ينجو من هذا إلا باستواء السريرة والعلانية بأن يكون

عزمها). وذلك لأن النفوس البشرية مجبولة على الانقلاب عن حالة إلى حالة. **(أشار بذلك إلى شدة الوفاء بالعزم. وقال أبو سعيد)** أحمد بن عيسى **(الخراز)** رحمه الله تعالى: **(رأيت في المنام كأن ملكين نزلا من السماء فقالا لي: ما الصدق؟ قلت: الوفاء بالعهد، فقالا: صدقت وعرجا إلى السماء)**.

(الصدق الخامس: في الأعمال: وهو أن) لا يكذب أعماله وأحواله وذلك بأن **(يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف هو به)** أي لا يدل على شيء من الظاهر إلا والباطن متصف به **(لا بأن يترك الأعمال)** رأساً، **(وذلك بأن يستجر الباطن إلى تصديق الظاهر، وهذا يخالف ما ذكر من ترك الرياء لأن المرائي هو الذي يقصد ذلك لأجل الخلق، ورب واقف على هيئة الخشوع في صلاته ليس يقصد به مشاهدة غيره ولكن قلبه غافل عن الصلاة فمن ينظر إليه يراه قائماً بين يدي الله تعالى وهو بالباطن قائم في السوق بين يدي شهوة من شهواته. فهذه أعمال تعرب بلسان الحال عن الباطن إعراباً هو فيه كاذب وهو مطالب بالصدق في الأعمال، وكذلك قد يمشي الرجل على هيئة السكون والوقار وليس باطنه موصوفاً بذلك الوقار؛ فهذا غير صادق في عمله وإن لم يكن متلفتاً إلى الخلق ولا مرائياً إياهم)** أي إن التفت قلبه إلى أن يخيل إلى الناس أنه ذو وقار في ظنه، فذلك الرياء، وإن لم يلتفت إلى الخلق قلبه ولكنه غافل فذلك ليس برياء ولكن يفوت به صدقه كما يشير إليه المصنف بعد. **(ولا ينجو عن هذا إلا باستواء السريرة والعلانية بأن يكون**

باطنه مثل ظاهره وخيراً من ظاهره، ومن خيفة ذلك اختار بعضهم تشويش الظاهر ولبس ثياب الأشرار كيلا يظن به الخير بسبب ظاهره فيكون كاذباً في دلالة الظاهر على الباطن. فإذاً مخالفة الظاهر للباطن إن كانت عن قصد سميت رياء ويفوت بها الإخلاص؛ وإن كانت عن غير قصد فيفوت بها الصدق. ولذلك قال رسول الله ﷺ: «اللهم اجعل سريرتي خيراً من علانيتي واجعل علانيتي صالحة» وقال يزيد بن الحرث: إذا استوت سريرة العبد وعلانيته فذلك النصف، وإن كانت سريرته أفضل من علانيته فذلك الفضل، وإن كانت علانيته أفضل من سريرته فذلك الجور، وأنشدوا:

إذا السر والإعلان في المؤمن استوى ... فقد عزّ في الدارين واستوجب الثنا
فإن خالف الإعلان سراً فما له ... على سعيه فضلٌ سوى الكدّ والعنا
فما خالص الدينار في السوق نافق ... ومغشوشه المردود لا يقتضي المنا

باطنه مثل ظاهره أو خيراً منه) وهذا أرفع مقاماً من الأول **(ومن خيفة ذلك اختار بعضهم تشويش الظاهر ولبس ثياب الأشرار)** قباء وقلنسوة واستعمال آلات السلاح وركوب الخيل مع هيئاتهم **(كيلا يظن به الخير بسبب ظاهره فيكون كاذباً في دلالة الظاهر على الباطن)**، وهذا هو مشرب الطائفة العلية النقشبندية قدس الله أسرارهم.

(فإذاً مخالفة الظاهر للباطن إن كان عن قصد سمي رياء ويفوت به الإخلاص، وإن كان عن غير قصد فيفوت به الصدق) وإن لم يسم رياء، **(ولذلك قال رسول الله ﷺ «اللهم اجعل سريرتي خيراً من علانيتي واجعل علانيتي صالحة»)** رواه الترمذي وضعفه من حديث عمر بلفظ «قل اللهم اجعل سريرتي خيراً من علانيتي واجعل علانيتي صالحة إني أسألك من صالح ما تؤتي الناس من المال والأهل والولد غير الضال ولا المضل».

وقال أبو نعيم في الحلية: حدثنا محمد بن علي بن حبيش، حدثنا أبو شعيب الحراني، حدثنا عبيدالله بن محمد العيشي، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق، حدثني رجل من قريش عن ابن حكيم قال: قال عمر: قال رسول الله ﷺ: «قل اللهم اجعل سريرتي خيراً من علانيتي واجعل علانيتي حسنة».

(وقال يزيد بن الحرث) رحمه الله تعالى: **(إذا استوت سريرة العبد وعلانيته فذلك النصف)** أي العدل، **(وإن كانت سريرته أفضل من علانيته فذلك الفضل، وإن كانت علانيته أفضل من سريرته فذلك الجور، وأنشدوا في ذلك:**

إذا السر والإعلان في المؤمن استوى ... فقد عز في الدارين واستوجب الثنا
فإن خالف الإعلان سراً فما له ... على سعيه فضل سوى الكد والعنا
كما خالص الدينار في السوق نافق ... ومغشوشه المردود لا يقتضي المنا)

وقال عطية بن عبد الغافر: إذا وافقت سريرة المؤمن علانيته باهى الله به الملائكة يقول هذا عبدي حقاً. وقال معاوية بن قرة: من يدلني على بكّاء بالليل بسّام بالنهار. وقال عبد الواحد بن زيد: كان الحسن إذا أمر بشيء كان من أعمل الناس به وإذا نهى عن شيء كان من أترك الناس له، ولم أرَ أحداً قط أشبه سريرة بعلانية منه. وكان أبو عبد الرحمن الزاهد يقول: إلهي عاملت الناس فيما بيني وبينهم بالأمانة، وعاملتك فيما بيني وبينك بالخيانة، ويبكي. وقال أبو يعقوب النهرجوري: الصدق موافقة الحق في السر والعلانية. فإذاً مساواة السريرة للعلانية أحد أنواع الصدق.

(**وقال عطية بن عبد الغافر**) كذا في النسخ والصواب عقبة بن عبد الغافر وهو أبو نهار الأودي العوذي البصري، روى له البخاري ومسلم والنسائي، مات سنة ثلاث وثمانين ومائة: (**إذا وافقت سريرة المؤمن علانيته باهى الله به الملائكة يقول: هذا عبدي حقاً. وقال معاوية ابن قرة**) بن إياس بن هلال المزني، أبو إياس البصري ثقة مات سنة ثلاث عشرة ومائة، وهو ابن ست وسبعين سنة روى له الجماعة: (**من يدلني على بكاء بالليل بسام بالنهار**) رواه المزني في تهذيب الكمال، وأنشد صاحب القاموس في البصائر لبعض الشعراء:

خلقت بغير ذنب من تراب ... فارجع بالذنوب إلى التراب
أنا وجميع من فوق التراب ... فداء تراب نعل أبي تراب
هو البكاء في المحراب ليلاً ... هو البسام في يوم الضراب

(**وقال عبد الواحد**) بن زيد البصري العابد رحمه الله تعالى: (**كان الحسن**) البصري رحمه الله تعالى (**إذا أمر بشيء كان من أعمل الناس به، وإذا نهى عن شيء كان من أترك الناس له، ولم أر أحداً قط أشبه سريرة بعلانية منه**) نقله صاحب القوت. (**وكان أبو عبد الرحمن**) محمد بن الحسين (**الزاهد**) رحمه الله تعالى (**يقول: إلهي عاملت الناس فيما بيني وبينهم بالأمانة وعاملتك فيما بيني وبينك بالخيانة ويبكي**) يشير إلى عدم استواء السريرة بالعلانية. (**وقال أبو يعقوب**) إسحاق بن محمد (**النهر جوري**) صاحب الجنيد وغيره ومات بمكة مجاوراً سنة ٣٣٠، وأخذ أيضاً عن أبي يعقوب السوسي، وعنه أبو عبدالله عثمان المكي: (**الصدق موافقة الحق في السر والعلانية. فإذا مساواة السر للعلانية أحد أنواع الصدق**)، وهذا هو الفرق بين الإخلاص والصدق لأن حقيقة الإخلاص إرادة الله بالطاعات، فقد يكون الرجل يريد بالصلاة وجه الله تعالى ولكنه غافل عن حضور القلب فيها، فالصدق هنا هو حضوره مع الله تعالى مع إرادته وجه الله، وهذا هو معنى الانفصال والاتصال الذي ذكرهما أبو إسماعيل الهروي رحمه الله تعالى، لأنه انفصل عن غير الله واتصل بالحضور بالله، لكن الانفصال يشعر أن يكون حضوره واستفراغه ضرورياً لا ينفصل عنه بكسب حتى ينفصل عنه بنفسه، وإياك أن تفهم من الاتصال والانفصال ما يفهم من انفصال أجسام ذوي الأحياز واتصالها فإن ذلك محال في حق خالق السموات الأرض.

الصدق السادس: وهو أعلى الدرجات وأعزها ؛ الصدق في مقامات الدين ، كالصدق في الخوف والرجاء والتعظيم والزهد والرضا والتوكل والحب وسائر هذه الأمور ، فإن هذه الأمور لها مباد ينطلق الاسم بظهورها ، ثم لها غايات وحقائق والصادق المحقق من نال حقيقتها ، وإذا غلب الشيء وتمت حقيقته سمي صاحبه صادقاً فيه ، كما يقال: فلان صدق القتال. ويقال: هذا هو الخوف الصادق. وهذه هي الشهوة الصادقة. وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِين آمَنُوا باللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥] وقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ [البقرة: ١٧٧] وسئل أبو ذر عن الإيمان فقرأ هذه الآية فقيل له: سألناك عن الإيمان؟ فقال: سألت رسول الله ﷺ

(الصدق السادس: وهو أعلى الدرجات وأعزها وهو الصدق في مقامات الدين كالصدق في الخوف والرجاء والتعظيم والزهد والرضا والحب والتوكل، وسائر هذه الأمور فإن هذه الأمور لها مباد ينطلق الاسم بظهورها، ثم لها غايات وحقائق) وكل واحد على انحطاطه وارتفاعه يراد لغيره إذ الأحوال والمقامات لا نهاية لها، **(والصادق المحقق من نال حقيقتها وإذا غلب الشيء وتمت حقيقته سمي صاحبه صادقاً فيه)** وهذا **(كما يقال: فلان صدق القتال، ويقال هذا هو الخوف الصادق وهذه هي الشهوة الصادقة)** فالصدق في كل واحد أن يقوى إلى أن يؤدي إلى مقصوده، ومن ذلك المقصود إلى مقصود أعلى منه فصاعداً، كما تصدق المعرفة حتى تؤدي إلى المحبة وتصدق المحبة حتى تؤدي إلى الرضا والأنس والطمأنينة والشوق، وذلك ما لا يتناهى وهذا التحقيق في تمييز المقامات وتخليص بعضها من بعض، فإذا حققت أحوالك وخلصتها من الأغيار والشوائب اتقيت من تحقيقك إلى تحقيقك وكنت بلا أنت، والتفريد وقوفك مع الله بلا علم ولا حال لشغلك انفراده بما هو عليه من الكمال والجلال وشمول القدرة والسلطان، فالصادق في جملة ذلك هو الصادق مطلقاً، والكاذب في جملته هو الكاذب مطلقاً المخلد في النار أبداً، والصادق في البعض دون البعض على خطر وهو في مشيئة الله تعالى، (و) لذلك **(قال الله تعالى ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا﴾ إلى قوله ﴿أولئك هم الصادقون﴾ وقال تعالى ﴿ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر)** والملائكة والكتاب والنبيين﴾ إلى قوله (﴿ **أولئك الذين صدقوا**) وأولئك هم المتقون﴾ وهو صريح في أن الصدق بالأعمال الظاهرة والباطنة وأن الصدق هو مقام الإسلام والإيمان.

(وسئل أبو ذر) رضي الله عنه **(عن الإيمان؟ فقرأ هذه الآية، فقيل له: سألناك عن الإيمان؟ فقال: سألت رسول الله ﷺ عن الإيمان)** كما سألتموني عنه **(فقرأ هذه الآية)** .
قال العراقي: رواه محمد بن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة بأسانيد منقطعة اهـ.

عن الإيمان فقرأ هذه الآية. ولنضرب للخوف مثلاً. فما من عبد يؤمن بالله واليوم الآخر إلا وهو خائف من الله خوفاً ينطلق عليه الاسم، ولكنه خوف غير صادق أي غير بالغ درجة الحقيقة، أما تراه إذا خاف سلطاناً أو قاطع طريق في سفره كيف يصفر لونه وترتعد فرائصه ويتنغص عليه عيشه ويتعذر عليه أكله ونومه وينقسم عليه فكره، حتى لا

فهذه درجات الصدق فمن تحقق في جميعها فهو صديق ومن لم يصب إلا بعضها فرتبته بقدر صدقه.

وقال صاحب منازل السائرين: الصدق اسم لحقيقة الشيء خصولاً ووجوداً، والصدق هو حصول الشيء وتمامه وكمال قوته واجتماع أجزائه، كما يقال: عزيمة صادقة إذا كانت قوية تامة، وكذلك محبة صادقة وإرادة صادقة، وكذلك صلاة صادقة إذا كانت قوية تامة ثابتة الحقيقة لم ينقص منها شيء، ومن هذا أيضاً صدق الخبر لأنه وجود المخبر بتمام حقيقته في ذهن السامع، وهو على ثلاث درجات.

الأولى: صدق القصدلله به يصح وبه يصح الدخول في هذا الشأن ويتلافي كل تفريط ويتدارك كل فائت ويعمر كل خراب، وعلامة هذا الصادق أن لا يحتمل داعية تدعو إلى نقض عهد ولا يصبر على صحبة ضد ولا يقعد عن الجد بحال.

والدرجة الثانية: أن لا يتمنى الحياة إلا للحق، ولا يشهد من نفسه إلا أثر النقصان، ولا يلتفت إلى ترفيه المرخص أي لا يحب أن يعيش إلا في طلب رضا محبوبه ويقوم بعبوديته ويستكثر من الأسباب التي تقربه منه، ولا يلتفت إلى الرفاهية التي في الرخص بل يأخذ بها اتباعاً وموافقة وشهوداً لنعمة الله على عبده وتعبداً باسمه اللطيف المحسن الرفيق وأنه رفيق يحب الرفيق.

الدرجة الثالثة: الصدق في معرفة الصدق. يعني أن الصدق المحقق إنما يحصل لمن صدق في معرفة الصدق أي لا يحصل حال للصادق إلا بعد معرفة الصدق، ولا يستقيم الصدق في علم أهل الخصوص إلا على حرف واحد وهو أن يتفق رضا الحق بعمل العبد وحاله ووقته وإيقانه وقصده، وذلك أن العبد إذا صدق الله رضي الله بفعله وبعمله وحاله ويقينه وقصده إلا أن رضا الله نفس الصدق، وإنما يعلم الصدق بموافقة رضاه سبحانه، ولكن من أين يعلم رضاه فمن ههنا كان الصادق مضطراً أشد ضرورة إلى متابعة الأمر والتسليم للرسول ﷺ في ظاهره وباطنه والتعبد به في كل حركة وسكون مع إخلاص القصد لله سبحانه لا يرضيه من عبده إلا ذلك انتهى.

(ولنضرب للخوف مثلاً فما من عبد يؤمن بالله واليوم الآخر إلا وهو خائف من الله خوفاً ينطلق عليه الاسم ولكنه خوف غير صادق أي غير بالغ درجة الحقيقة. أما تراه إذا خاف سلطاناً أو قاطع طريق في سفره) من إنسان أو سبع **(كيف يصفر لونه)** ويتغير حاله **(وترتعد فرائصه ويتنغص عليه عيشه ويتعذر عليه أكله ونومه وينقسم عليه فكره)**

ينتفع به أهله وولده، وقد ينزعج عن الوطن فيستبدل بالأنس الوحشة، وبالراحة التعب والمشقة والتعرض للأخطار، كل ذلك خوفاً من درك المحذور. ثم إنه يخاف النار ولا يظهر عليه شيء من ذلك عند جريان بمعصية عليه. ولذلك قال ﷺ: «لم أرَ مثل النار نام هاربها ولا مثل الجنة نام طالبها». فالتحقيق في هذه الأمور عزيز جداً ولا غاية لهذه المقامات حتى ينال تمامها، ولكن لكل عبد منه حظ بحسب حاله إما ضعيف وإما قوي، فإذا قوي سمي صادقاً فيه، فمعرفة الله وتعظيمه والخوف منه لا نهاية لها، ولذلك قال النبي ﷺ لجبريل عليه السلام: «أحب أن أراك في صورتك التي هي صورتك» فقال لا تطيق ذلك قال: بلى أرني» فواعده البقيع في ليلة مقمرة فأتاه فنظر النبي ﷺ فإذا هو به قد سدّ الأفق يعني جوانب السماء فوقع النبي ﷺ مغشياً عليه فأفاق وقد عاد جبريل لصورته الأولى، فقال النبي ﷺ: «ما ظننت أن أحداً من خلق الله هكذا» قال: وكيف لو رأيت إسرافيل؟ إن العرش لعلى كاهله، وإن رجليه قد مرقتا تخوم الأرض السفلى وانه ليتصاغر من عظمة الله حتى يصير كالوصع يعني كالعصفور الصغير، فانظر ما الذي

وباله، (**حتى لا ينتفع به أهله وولده، وقد ينزعج عن الوطن فيستبدل بالأنس الوحشة، وبالراحة التعب والمشقة والتعرض للأخطار**) والمهالك. (**كل ذلك خوفاً من درك المحذور، ثم إنه يخاف النار ولا يظهر عليه شيء من ذلك عند جريان معصية عليه، ولذلك قال ﷺ «لم أر مثل النار نام هاربها، ولا مثل الجنة نام طالبها»**) تقدم. (**فالتحقيق في هذه الأمور عزيز جداً ولا غاية لهذه المقامات حتى ينال تمامها، ولكن لكل عبد منه حظ بحسب حاله إما ضعيف وإما قوي فإذا قوي سمي صادقاً فيه فمعرفة الله وتعظيمه والخوف منه لا نهاية لها، ولذلك قال النبي ﷺ لجبريل**) عليه السلام: (**«أحب أن اراك في صورتك التي هي صورتك» فقال**) جبريل: (**لا تطيق ذلك. قال**) ﷺ (**«بلى**) أطيق ذلك (**أرني» قال: فواعده البقيع في ليلة مقمرة فأتاه** فنظر النبي ﷺ **فإذا هو قد سد الأفق يعني جوانب السماء فوقع النبي ﷺ مغشياً فأفاق وقد عاد جبريل**) عليه السلام (**لصورته الأولى، فقال النبي ﷺ «ما ظننت أحداً من خلق الله هكذا» قال: وكيف لو رأيت إسرافيل؟ إن العرش لعلى كاهله وأن رجليه قد مرقتا تخوم الأرضين السفلى وأنه يتصاغر من عظمة الله حتى يصير كالوصع**) بفتح الصاد المهملة (**يعني كالعصفور الصغير**). قال العراقي: تقدم في الخوف والرجاء أخصر من هذا، والذي ثبت في الصحيح أنه رأى جبريل في صورته مرتين اهـ.

قلت: وروى أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ في العظمة عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ لم ير جبريل في صورته إلا مرتين. أما واحدة فإنه سأل أن يراه في صورته فأراه صورته فسد الأفق، وأما الثانية فكان معه حيث صعد.

يغشاه من العظمة والهيبة حتى يرجع إلى ذلك الحد وسائر الملائكة ليسوا كذلك لتفاوتهم في المعرفة فهذا هو الصدق في التعظيم. وقال جابر: قال رسول الله ﷺ: « مررت ليلة أسري بي وجبريل بالملأ الأعلى كالحلس البالي من خشية الله تعالى » يعني الكساء الذي يلقى على ظهر البعير، وكذلك الصحابة كانوا خائفين وما كانوا بلغوا خوف رسول الله ﷺ، ولذلك قال ابن عمر رضي الله عنهما: لن تبلغ حقيقة الإيمان حتى تنظر الناس كلهم حمقى في دين الله. وقال مطرف: ما من الناس أحد إلا وهو أحمق

وروى أحمد وعبد بن حميد وابن المنذر والطبراني وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل عن ابن مسعود قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته وله ستمائة جناح كل جناح منها قد سد الأفق.

وروى الشيخان والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن مسعود قال: رأى النبي ﷺ جبريل له ستمائة جناح.

(فانظر ما الذي يغشاه من العظمة والهيبة حتى يرجع إلى ذلك الحد، وسائر الملائكة ليسوا كذلك لتفاوتهم في المعرفة، فهذا هو الصدق في التعظيم) وهو كماله وثباته. **(وقال جابر)** رضي الله عنه، **(قال رسول الله ﷺ « مررت ليلة أسري بي وجبريل بالملأ الأعلى كالحلس البالي)** بكسر الحاء المهملة وسكون اللام وإهمال السين **(من خشية الله تعالى » يعني الكساء الذي يلقى على ظهر البعير)** تحت قتبه شبهه به لرؤيته له لاصقاً بما لطأ به من هيبة الله وشدة الخشية التي تلبس بها هي التي رقته في مدارج التبجيل والتعظيم وعلى قدر خوف العبد من الرب يكون قربه. قال العراقي: رواه محمد بن نصر في كتاب تعظيم قدر الصلاة والبيهقي في الدلائل من حديث أنس وفيه الحرث بن عبيد الأنماري ضعفه الجمهور. قال البيهقي: ورواه حماد ابن سلمة عن أبي عمران الجوني عن محمد بن عمير بن عطارد وهذا مرسل اهـ.

قلت: حديث جابر رواه الطبراني في الأوسط وعنده في بعض طرقه زيادة فعرفت فضل علمه بالله، وبخط الحافظ ابن حجر رواه البزار وابن خزيمة في التوحيد.

(وكذلك الصحابة) رضوان الله عليهم **(كانوا خائفين)** من الله تعالى **(وما كانوا بلغوا خوف رسول الله ﷺ، ولذلك قال ابن عمر)** رضي الله عنه: **(« لن تبلغ حقيقة الإيمان حتى تنظر الناس كلهم حمقى في دين الله)** رواه أبو نعيم في الحلية قال: حدثنا عبدالله بن محمد، حدثنا سند بن أبي سهل، حدثنا عبدالله بن محمد، حدثنا وكيع عن سفيان، عن منصور، عن سالم بن أبي الجعد، عن ابن عمر قال: لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعد الناس حمقى في دينه.

(وقال مطرف) بن عبدالله بن الشخّير التابعي البصري رحمه الله تعالى: **(ما من الناس أحد**

فيما بينه وبين ربه إلا أن بعض الحمق أهون من بعض، وقال النبي ﷺ: «لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى ينظر الناس كالأباعر في جنب الله ثم يرجع إلى نفسه فيجدها أحقر حقير. فالصادق إذاً في جميع هذه المقامات عزيز، ثم درجات الصدق لا نهاية لها وقد يكون للعبد صدق في بعض الأمور دون بعض، فإن كان صادقاً في الجميع فهو الصدّيق حقاً. قال سعد بن معاذ: ثلاثة أنا فيهنّ قوي وفيما سواهن ضعيف؛ ما صليت صلاة منذ أسلمت فحدّثت نفسي حتى أفرغ منها، ولا شيعت جنازة فحدّثت نفسي بغير ما هي قائلة وما هو مقول لها حين يفرغ من دفنها، وما سمعت رسول الله ﷺ يقول قولاً، إلا علمت أنه حق، فقال ابن المسيب: ما ظننت أنّ هذه الخصال تجتمع إلا في النبي عليه السلام، فهذا صدق في هذه الأمور، وكم قوم من جلة الصحابة قد أدوا الصلاة واتبعوا

إلا وهو أحمق فيما بينه وبين ربه إلا أن بعض الحمقى أهون من بعض). رواه أبو نعيم في الحلية قال: حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن الفضل، حدثنا سليمان بن الحسن، حدثنا عبد الواحد بن غياث، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت بن مطرف قال: لو حلفت لرجوت أن أبر إنه ليس أحد من الناس إلا وهو أحمق فيما بينه وبين ربه عز وجل.

(وقال النبي ﷺ «لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى ينظر إلى الناس كالأباعر في جنب الله ثم يرجع إلى نفسه فيجدها أحقر حقير») قال العراقي: لم أجد له أصلاً في حديث موضوع.

قلت: وفي كلام أبي الدرداء ما يشبهه فإنه قال «إنك لا تفقه كل الفقة حتى تمقت الناس في جنب الله ثم ترجع إلى نفسك فتكون لها أشد مقتاً للناس» رواه أحمد في الزهد.

(فالصادق إذاً في جميع المقامات عزيز، ثم درجات الصدق لا نهاية لها وقد يكون للعبد صدق في بعض الأمور دون بعض) وهو على خطر وفي مشيئة الله تعالى، **(فإن كان صادقاً في الجميع فهو الصديق حقاً)** كما ينبىء عنه لفظه. **(قال سعد بن معاذ)** بن النعمان الأوسي رضي الله عنه. **(ثلاثة أنا فيهن قوي وفيما سواهن ضعيف)** الأول: **(ما صليت صلاة منذ أسلمت)** وهو قديم الإسلام **(فحدثت نفسي حتى أفرغ منها. و)** الثاني **(ما شيعت جنازة فحدثت نفسي بغير ما هي قائلة وما هو مقول لها حتى نفرغ من دفنها. و)** الثالث: **(ما سمعت رسول الله ﷺ يقول قولاً إلا علمت أنه حق، فقال)** سعيد **(بن المسيب)** راويه: **(ما ظننت أن هذه الخصال تجتمع)** بكمالها **(إلا في النبي ﷺ)**. وروى يحيى بن عباد بن عبدالله بن الزبير عن أبيه عن عائشة قالت: كان في بني الأشهل ثلاثة لم يكن أحد أفضل منهم: سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، وعباد بن بشر.

(فهذا صدق في هذه الأمور، وكم قوم من جلة الصحابة قد أدوا الصلاة واتبعوا

الجنائز ولم يبلغوا هذا المبلـغ . فهذه هي درجات الصدق ومعانيه . والكلمات المأثورة عن المشايخ في حقيقة الصدق في الأغلب لا تتعرّض إلا لآحاد هذه المعاني نعم قد قال أبو بكر الورّاق : الصدق ثلاثة : صدق التوحيد ، وصدق الطاعة ، وصدق المعرفة . فصدق التوحيد لعامة المؤمنين ، قال الله تعـالى : ﴿ والَّذِيـنَ آمَنُـوا بـاللهِ وَرُسُلِـهِ أُولَئِـكَ هُـمُ الصِّدِّيْقُونَ ﴾ [الحديد : ١٩] وصدق الطاعة لأهل العلم والورع ، وصدق المعرفة لأهل الولاية الذين هم أوتاد الأرض ، وكل هذا يدور على ما ذكرناه في الصدق السادس ، ولكنه ذكر أقسام ما فيه الصدق وهو أيضاً غير محيط بجميع الأقسام . وقال جعفر الصادق : الصدق هو المجاهدة وأن لا تختار على الله غيره كما لم يختر عليك غيرك فقال تعالى : ﴿ هُوَ اجْتَباكُمْ ﴾ [الحج : ٧٨] وقيل : أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : إني إذا أحببت عبداً ابتليته ببلايا لا تقوم لها الجبال لأنظر كيف صدقه ، فإن وجدته

الجنائز ولم يبلغوا هذا المبلغ ، فهذه درجات الصدق ومعانيه ، والكلمات المأثورة عن المشايخ في حقيقة الصدق في الأغلب لا تتعرض إلا لآحاد هذه المعاني) الستة . **(نعم قد قال أبو بكر)** محمد بن عمر **(الوراق)** الترمذي ثم البلخي صحب ابن خضرويه وصنف في الرياضيات والمعاملات له ذكر في الرسالة في آخر باب الحياء : **(الصدق ثلاثة : صدق التوحيد وصدق الطاعة وصدق المعرفة ، فصدق التوحيد لعامة المؤمنين قال الله تعالى : ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون ﴾ وصدق الطاعة لأهل العلم والورع وصدق المعرفة لأهل الولاية)** الكبرى **(الذين هم أوتاد الأرض ، وكل هذا يدور على ما ذكرناه في الصدق السادس ، ولكنه ذكر أقسام ما فيه الصدق وهو أيضاً غير محيط بجميع الأقسام . وقال جعفر الصادق)** رحمه الله تعالى : **(الصدق هو المجاهدة وأن لا تختار على الله غيره كما لم يختر عليك غيرك فقال تعالى : ﴿ هو اجتباكم ﴾)** وقال غيره : الصدق القول بالحق في مواطن الهلكة ، وقيل : هو موافقة السر النطق ، وقال القناد : الصدق منع الحرام من الشدق . وقال أبو سعيد القرشي : الصادق الذي يتهيأ له أن يموت ولا يستحيي من سره لو كشف . قـال الله تعـالى : ﴿ فتمنـوا الموتِ إن كنتم صادقين ﴾ [البقرة : ٩٤] وقال عبد الواحد بن زيد : الصدق الوفاء لله بالعمل . وقال جعفر الخواص : سمعت الجنيد يقول : حقيقة الصدق أن تصدق في موطن لا ينجيك منه إلا الكذب . وسئل فتح الموصلي عن الصدق فأدخل يده في كير الحداد فأخرج الحديدة المحماة ووضعها على كفه وقال : هذا هـو الصدق . وقال أبو علي الدقاق : الصدق أن يكون كما ترى من نفسك أو ترى من نفسك كما يكون ، وهذه الأقوال كلها نقلها القشيري في الرسالة .

(وقد أوحى الله تعالى إلى موسى عيه السلام : إني إذا أحببت عبداً ابتليته ببلايا لا تقوم لها الجبال لأنظـر كيف صدقه ، فإن وجدته صابراً اتخذته ولياً وحبيباً ، وإن وجدته جزوعاً

صابراً اتخذته ولياً وحبيباً، وإن وجدته جزوعاً يشكوني إلى خلقي خذلته ولا أبالي. فإذاً من علامات الصدق كتمان المصائب والطاعات جيعاً وكراهة اطلاع الخلق عليها.

يشكوني إلى خلقي خذلته ولا أبالي، فإذاً من علامات الصدق كتمان المصائب والطاعات جميعاً وكراهة إطلاع الخلق عليها).

قال القشيري في الرسالة: سئل الحرث المحاسبي عن علامات الصـدق فقال: الصادق هو الذي لا يبالي لو خرج كل قدر له في قلوب الخلق من أجل صلاح قلبه، ولا يحب إطلاع الناس على مثل المثاقيل الذر من حسن عمله ولا يكره أن يطلع الناس على السيء من عمله، فإن كراهته لذلك دليل على أنه يحب الزيادة عندهم وليس من أخلاق الصديقين.

قال صاحب القاموس: هذا إذا لم يكن له مراد بذلك سوى عمارة حاله عندهم وسكناه في قلوبهم تعظيماً له، وأما لو كان مراده بذلك تنفيذاً لأمر الله ونشراً لدينه ودعوة إلى الله، فهذا الصادق حقاً والله يعلم سرائر القلوب ومقاصدها اهـ.

وقال القشيري: ثلاث لا يخطئن: الصادق الحلاوة والهيبة والملاحة.

ولنختم هذا الباب بما يتعلق بالصدق ثم نتبعه بحكاية الصادقين. قال صاحب القاموس في البصائر: الصديق الكثير الصدق، وقيل: من لم يصدر منه الكذب أصلاً، وقيل: من لا يتأتى منه الكذب لتعوده الصدق. وقيل: من صدق بقوله واعتقاده وحقق صدقه بفعله، والصديقون قوم دون الأنبياء في الفضيلة ولكن درجتهم ثاني درجة النبوة. وفي الجملة؛ منزلة الصدق من أعظم منازل القوم الذي نشأ منه جميع منازل السالكين، وهو الطريق الأقوم الذي من لم يسر عليه فهو من المنقطعين الهالكين، وبه تميز أهل النفاق من أهل الإيمان وسكان الجنان من أهل النيران، وهو سيف الله في أرضه الذي ما وضع على شيء إلا قطعه ولا واجه باطلاً إلا أزاله وصرعه، فهو روح الأعمال، والحامل على اقتحام الأهوال، والباب الذي دخل منه الواصلون إلى حضرة ذي الجلال، وقد قسم الله سبحانه الناس إلى صادق ومنافق فقال ﴿ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم﴾ [الأحزاب: ٢٤] والإيمان أساسه الصدق والنفاق أساسه الكذب، فلا يجتمع كذب وإيمان إلا وأحدهما يحارب الآخر وأخبر سبحانه أنه في القيامة لا ينفع العبد وينجيه من عذابه إلا صدقه فقال تعالى ﴿هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنهم ذلك الفوز العظيم﴾ [المائدة: ١٢٠] وقال: ﴿والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون★ لهم ما يشاؤن عند ربهم ذلك جزاء المحسنين★ ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون﴾ [الزمر: ٣٣ ـ ٣٥] فالذي جاء بالصدق هو من شأنه الصدق في قوله وعمله وحاله، فالصدق في الأقوال استواء اللسان على الأقوال كاستواء السنبلة على ساقها، والصدق في الأعمال استواء الأفعال على الأمر والمتابعة كاستواء الرأس على الجسد، والصدق في الأحوال استواء أعمال

....

القلب والجوارح على الأخلاص واستفراغ الوسع وبذل الطاقة، فبذلك يكون العبد من الذين جاؤوا بالصدق، وبحسب كمال هذه الأمور فيه وقيامها به تكون صديقية، ولذلك كان لأبي بكر رضي الله عنه ذروة الصديقية حتى سمي الصديق على الإطلاق، وهو أبلغ من الصدوق والصدوق أبلغ من الصادق، فأعلى مراتب الصدق مرتبة الصديقية وهي كمال الانقياد للرسول مع كمال الإخلاص للمرسل، وقد أمر سبحانه رسول الله ﷺ أي يسأله أن يجعل مدخله ومخرجه على الصدق فقال ﴿وقل ربي أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً﴾ [الإسراء: ٨٠] وأخبر عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه سأل أن يجعل له لسان صدق في الآخرين وبشر عباده أن لهم قدم صدق عند ربهم وقال ﴿إن المتقين في جنات ونهر ★ في مقعد صدق﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥] فهذه خمسة أشياء: مدخل الصدق ومخرج الصدق ولسان الصدق ومقعد الصدق وقدم الصدق. وحقيقة الصدق في هذه الأشياء هو الحق الثابت المتصل بالله الموصل إلى الله وهو ما كان به، وله من الأعمال والأقوال وجزاء ذلك في الدنيا والآخرة، فمدخل الصدق ومخرج الصدق أن يكون دخوله وخروجه حقاً ثابتاً لله تعالى وفي مرضاته متصلاً بالظفر ببغيته وحصول المطلوب ضد مدخل الكذب ومخرجه الذي لا غاية له يوصل إليها، ولا له ساق ثابتة يقوم عليها كمخرج أعدائه يوم بدر، ومخرج الصدق كمخرجه ﷺ هو وأصحابه في ذلك الغزو، وكذلك مدخل المدينة كان مدخل صدق بالله ولله وابتغاء مرضاة الله، فاتصل به التأكيد والظفر والنصر ولإدراك ما طلبه في الدنيا والآخرة بخلاف مدخل الكذب الذي رام أعداؤه أن يدخلوا به المدينة يوم الأحزاب فإنه لم يكن بالله ولا لله بل محاداً لله ورسوله فلم يتصل به إلا الخذلان والبوار، وكذلك مدخل من دخل من اليهود والمحاربين لرسول الله ﷺ حصن بني قريظة فإنه لما كان مدخل كذب أصابهم منه ما أصابهم، وكان مدخل ومخرج كان بالله ولله وصاحبه ضامن على الله فهو مدخل صدق ومخرج صدق، ولذلك فسر مدخل الصدق ومخرجه بخروجه ﷺ من مكة ودخوله المدينة، ولا ريب أن هذا على سبيل التمثيل فإن هذا المدخل والمخرج من أجل مداخله ومخارجه ﷺ وإلا فمداخله ومخارجه كلها مداخل صدق ومخارج صدق إذ هي بالله ولله وبأمره ولابتغاء مرضاته، وما خرج أحد من بيته أو دخل سوقاً أو مدخلاً آخر إلا بصدق أو كذب، فمدخل كل أحد ومخرجه لا يعدو الصدق والكذب والله المستعان.

وأما لسان الصدق: فهو الثناء الحسن من سائر الأمم بالصدق، ولما كان اللسان هو محله عبر عنه به فإن اللسان يراد به ثلاث معان هذا واللغة والجارحة نفسها.

وأما قدم الصدق: ففسر بالجنة، وفسر بمحمد ﷺ، وفسر بالأعمال الصالحة، وحقيقة القدم ما قدموه ويقدمون عليه يوم القيامة وهم قدموا الأعمال والإيمان بمحمد ﷺ، ويقدمون على الجنة، ومن فسر بالأعمال وبالنبي ﷺ فلأنهم قدموها وقدموا الإيمان به بين أيديهم.

وأما مقعد صدق؛ فهو الجنة عند ربهم، ووصف ذلك كله بالصدق مستلزم ثبوته واستقراره

وأنه حق ودوامه ونفعه وكمال عائدته فإنه متصل بالحق سبحانه كان به وله فهو صدق غير كذب وحق غير باطل ودائم غير زائل ونافع غير ضار وما للباطل ومتعلقاته إليه سبيل ولا مدخل.

ومن علامات الصدق طمأنينة القلب إليه، ومن علامات الكذب حصول الريبة كما في الترمذي مرفوعاً: «الصدق طمأنينة والكذب ريبة» وفي الصحيحين «إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً» الحديث. فجعل الصدق مفتاح الصديقية ومبدؤها وهي غايته فلا ينال درجتها كاذب البتة لا في قوله ولا في عمله ولا في حاله، ولا سيما كاذب على الله في أسمائه وصفاته بنفي ما أثبته لنفسه أو باثبات ما نفاه عن نفسه، فليس في هؤلاء صديق أبداً، وكذلك الكذب عليه في دينه وشرعه بتحليل ما حرمه وتحريم ما أحله وإسقاط ما أوجبه وإيجاب ما أسقطه وكراهةً ما أحبه واستحباب ما لم يحبه كل ذلك مناف للصديقية. كذلك الكذب معه في الأعمال بالتحلي بحلية الصالحين الصادقين المخلصين الزاهدين المتوكلين وليس منهم، وكانت الصديقية كمال الأخلاص والانقياد والمتابعة في كل الأمور، حتى أن صدق المتبايعين يحل البركة في بيعهما فكذبهما يمحق بركة بيعهما كما في الصحيحين «البائعان بالخيار ما لم يتفرقا فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما وإن كذبا وكتما محقت بركة بيعهما» اهـ.

وأما حكايات الصادقين فقال القشيري في الرسالة: سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: كان أبو علي الثقفي يتكلم يوماً فقال له عبدالله بن المبارك، يا أبا علي استعد للموت فلا بد منه، فقال أبو علي، وأنت يا عبدالله استعد للموت فإنه لا بد منه، فتوسد عبدالله ذراعه ووضع رأسه وقال: قدمت فانقطع أبو علي لأنه لم يمكنه أن يقابله بما فعل لأنه كان لأبي علي علاقات وكان عبدالله مجرداً لا شغل له اهـ.

وهذا يدل على أن السالك لا يكون صادقاً إلا بقطع الأسباب المشغلة عنه، وما لم يتجرد لم يصدق في حاله. ثم قال القشيري: سمعت أبا عبد الرحمٰن السلمي يقول: كان أبو العباس الدينوري يتكلم فصاحت عجوز في المجلس صيحة فقال أبو العباس: موتي، فقامت وخطت خطوات ثم التفتت إليه وقالت: قد مت ووقعت ميتة.

قلت: وكأنه يتكلم في مقام المحبة، فلما غلب عليها الوجد وصاحت ظن أنها غير صادقة فدعت الله بأن لا يفضحها فأجيب لها وعم من حالها أنها كانت مغلوبة وهذا من علامات الصدق.

ثم قال: وقيل نظر عبد ال[illegible]ن زيد إلى غلام من أصحابه وقد نحل بدنه فقال: يا غلام تديم الصوم؟ فقال: لا، ولا أديم لا[illegible] فقال: تديم القيام بالليل؟ فقال: لا، ولا أديم النوم. فقال: فما الذي أنحلك؟ فقال: هوى د[illegible]م [illegible]كتمان دائم عليه، فقال عبد الواحد: اسكت ما أجراك. فقام الغلام وخطى خطوتين فقال: إلهي إن كنت صادقاً فخذني فخر ميتاً.

قلت: وإنما أمره عبد الواحد بالسكوت لأنه ظن أنه يدعي مقام الحب، وأنه كاذب في

دعواه، وكان الغلام صادقاً فاستجاب دعاءه، ومن هنا قال بعضهم: إذا لقيت فقيراً فالقه بالرفق ولا تلقه بالعلم فإنك إذا لقيته بالعلم ذاب كما يذوب الثلج.

ثم قال: وحكي عن أبي عمران الزجاجي أنه قال: ماتت أمي فورثت داراً فبعتها بخمسين ديناراً وخرجت إلى الحج، فلم بلغت آبل استقبلني واحد من القناقنة وقال: أيش معـك؟ فقلـت في نفسي: الصدق خير، ثم قلت: خمسون ديناراً. فقال: ناولنيها فناولته الصرة فعدها فإذا هي خمسون. فقال لي: خذها فلقد أخذني صدقك، ثم نزل عن الدابة فقال: اركبها، فقلت: لا أريد فقال: لا بد وألح علي فركبتها، فقال: وأنا على أثرك، فلما كان العام المستقبل لحق بي ولازمني حتى مات.

قلت: آبل بالمد اسم موضع، والقناقنة جمع قنقن هو الدليل الهادي والبصير بالماء في حفر القنى، والذي وقع للرجل هو من بركات الصدق وآثاره في الدنيا قبل الأخرى.

ثم قال: وقيل دخل إبراهيم بن دوحة مع إبراهيم بن شيبة البادية فقال إبراهيم بن شيبة: اطرح ما معك من العلائق. قال: فطرحت كل شيء إلا ديناراً. فقال: يا إبراهيم لا تشغل سري اطرح ما معك من العلائق. قال: فطرحت الدينار. قال: يا ابراهيم اطرح ما معك من العلائق فذكرت أن معي شسوعاً للنصل فطرحتها فما احتجت في الطريق إلى شسع إلا وجدته بين يدي، فقال ابن شيبة: هكذا من عامل الله بالصدق.

قلت: وطرحه للدينار ليس من باب إتلاف المال وإضاعته لغير سبب موجب، بل هو من باب تأديب النفس وزجرها لتنقطع عنها العلائق وهذا غرض ديني لا يخفى.

وقال ابن أبي الدنيا في الصمت: حدثنا عمر بن بكير النحوي، أخبرنا عبد الرحمن الطائي، أخبرنا أبو بردة بن عبدالله بن أبي بردة قال: كان يقال إن ربعي بن حراش لم يكذب كذبا قط فأقبل ابناه من خراسان قد تأجلا، فجاء العريف إلى الحجاج فقال: أيها الأمير إن الناس يزعمون أن ربعي بن حراش لم يكذب كذبة قط وقد قدم ابناه من خراسان وهما عاصيان، فقال الحجاج: علي به، فلما جاء قال: أيها الشيخ! قال: ما تشاء؟ قال: ما فعل ابناك؟ قال: المستعان الله خلفتهما في البيت. قال: لا جرم والله لا أسوءك فيهما هما لك.

ويروى أن رجلاً مر بلقمان والناس عنده فقال: ألست عبد بني فلان؟ قال: بلى، قال: الذي كنـت ترعى عند جبل كذا وكذا؟ قال: بلى، قال: ما الذي بلغ بك ما أرى؟ قال: صدق الحديث وطول السكوت عما لا يعنيني. رواه ابن أبي الدنيا في الصمت من طريق عمرو بن قيس الملائي.

(خاتمة): من شرط الصديقية أن لا يعود لسانه اللعن. قال ابن أبي الدنيا: حدثنا بشار بن موسى، أخبرنا يزيد بن المقدام بن شريح، عن أبيه، عن جده، عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمع النبي ﷺ أبا بكر الصديق لعـن بعض رقيقه، فقال له النبي ﷺ «يا أبا بكر الصديقون ولعانون» قال: فاعتق أبو بكر يومئذ بعض رقيقه وجاء إلى النبي ﷺ فقال: والله لا أعود. وبشار

....

ابن موسى هو الخفاف عجلي بصري نزل بغداد . قال ابن عدي : أرجو أنه لا بأس به ، وقد تقدمت الإشارة إليه في آفات اللسان. اللهم اجعلنا من المخلصين آمين.

وبه تم كتاب النية والإخلاص والصدق ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم. قال مؤلفه : وكان الفراغ منه في ضحوة نهار الاثنين لتسع بقين من محرم الحرام افتتاح سنة ١٢٠١ ختمت بحمد الله وعونه والحمد لله رب العالمين.

كتاب المراقبة والمحاسبة وهو الكتاب الثامن
من ربع المنجيات
من كتب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمٰن الرحيم
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الحمد لله المطلع على أسرار الغيوب، الرقيب على بواطن القلوب، الكاشف دهماء الكروب، الذي عظم حلمه فعفا وعدل في كل نفس ما قضى، وعلم ما يمضي وما مضى، أحمده على نعمة الكرام وآلائه العظام ومواهبه الجسام، وأشهد أن لا إله إلا الله مبتدع الخلائق ومنشئهم بلا اقتدا، وتعليم ولا احتذا، لمثال لصانع حكيم ولا إصابة خطا، ولا حضرة ملا، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبده المصطفى ورسوله المجتبى وأمينه على وحي السما، أرسله بظهور الفلج، وانفتاح المنهج، فبلغ الرسالة صادعاً بها، وحمل على المحجة دالاً عليها، وأقام أعلام الاهتداء، ومنار الضيا، وجعل أمراس الإسلام متينة، وعرى الإيمان به وثيقة، صلى الله عليه وعلى آله مصابيح الدجى، وأصحابه مفاتيح الهدى، وسلم تسليماً كثيراً وبعد فهذا شرح:

كتاب المراقبة والمحاسبة

وهو الثامن والثلاثون من كتب الإحياء لإمام الأنام مصباح الظلام حجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي، أفاض الله على روحه الزكية فيوضات رحمته وبره المتوالي، بنيت على قواعد إيوانه صرح الصفا، وكشفت عن مخدرات معانيه أكنة الخفا بتحرير عبارات رائقة وتحبير إشارات فائقة، يشتاق لها كل عارف بصير وينتفع كل سالك منير، فالمراقبون يقتبسون من أنواره، والمحاسبون يلتمسون من أسراره، والمحبون يتنسّمون من فوائح أزهاره، والعاملون يشامون أرياح نضاره، والزاهدون يشمون أريج نفحاته، والمتوكلون يترشفون بسلاف رشحاته، والعارفون يدنون حول حماه، والمحققون عاكفون على ما أشرعت فيه، والقلوب واجفة والخواطر بالمصائب كاسفة والأفكار بالأراجيف راجفة، والهموم من سائر الأطراف متكاثفة، والله أسأل خفي الألطاف والإعانة على ما أرجو والنجاة مما أخاف، إنه سميع قريب، ولدعاء المناجين مجيب.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب على كل جارحة بما اجترحت، المطلع على ضمائر القلوب إذا هجست، الحسيب على خواطر عباده إذا اختلجت، الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات والأرض تحرّكت أو سكنت، المحاسب على النقير والقطمير والقليل والكثير من الأعمال وإن خفيت، المتصل بقبول طاعات العباد وإن صغرت، المتطوّل بالعفو عن معاصيهم وإن كثرت، وإنما يحاسبهم لتعلم كل نفس ما أحضرت، وتنظر فيما قدمت وأخرت، فتعلم أنه لولا لزومها للمراقبة والمحاسبة في الدنيا

قال المصنف رحمه الله تعالى: **(بسم الله الرحمٰن الرحيم)** المستعان به على كل أمر عظيم.

(الحمد لله القائم على كل نفس) أي الرقيب عليه **(بما كسبت)** من خير أو شر لا يخفى عليه شيء من أعمالهم ولا يفوت عنده شيء من جزائهم أشار به إلى قوله تعالى ﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾ [الرعد: ٣٣]وقيامه تعالى بذاته مطلقاً وقيام كل شيء به، **(الرقيب)** أي العليم والحفيظ **(على كل جارحة بما اجترحت)** وذلك بمراعاتها على اللزوم والدوام، **(المطلع على ضمائر القلوب إذا هجست)** أي وقعت وخطرت، **(الحسيب)** أي الحاسب **(على خواطر عباده إذا اختلجت)** أي تحركت وانبعثت، **(الذي لا يعزب)** أي لا يغيب **(عن علمه)** المحيط الشامل لسائر معلوماته **(مثقال ذرة في السموات والأرض تحركت أو سكنت)** أي لا يشذ عن علمه شيء قليلاً كان أو كثيراً متحركاً كان أو ساكناً، **(المحاسب على النقير)** وأصله النكتة في ظهر النواة **(والقطمير)** وهو شبه الخيط في بطن النواة **(والقليل والكثير من الأعمال وإن خفيت)** ودق ظهورها في الأعين، **(المتفضل بقبول طاعات العباد وإن صغرت، المتطول بالعفو عن معاصيهم وإن كثرت)** فالقبول والعفو إنما هما من تفضلاته، وإذا كان القبول حاصلاً والعفو شاملاً فلماذا الحساب؟ فقال: **(وإنما يحاسبهم لتعلم كل نفس ما أحضرت)** من أعمالها بين يديه تعالى، **(وتنظر فيما قدمت)** من عمل أو صدقة **(وأخرت)** من سيئة أو تركة، ويجوز أن يراد بالتأخير التضييع يشير بذلك إلى قوله تعالى ﴿علمت نفس ما أحضرت﴾ [التكوير: ١٤] وهو جواب « إذا »، والمذكور في سياقها اثنتا عشرة خصلة ست منها في مبادىء قيام الساعة قبل فناء الدنيا وست بعده لأن المراد زمان متسع شامل لها ولمجازاة النفوس على أعمالها ونفس في معنى العموم كقولهم: تمرة خير من جرادة، وإلى قوله تعالى ﴿علمت نفس ما قدمت وأخرت﴾ [الانفطار: ٥] وهو أيضاً جواب « إذا ».

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن حاتم وابن مردويه من طريق زيد بن أسلم عن أبيه قال: لما نزلت ﴿إذا الشمس كورت﴾ قال عمر لما بلغ ﴿علمت نفس ما أحضرت﴾ قال: لهذا أجري الحديث.

لشقيت في صعيد القيامة وهلكت، وبعد المجاهدة والمحاسبة والمراقبة لولا فضله بقبول بضاعتها المزجاة لخابت وخسرت، فسبحان من عمت نعمته كافة العباد وشملت، واستغرقت رحمته الخلائق في الدنيا والآخرة وغمرت، فبنفحات فضله اتسعت القلوب للإيمان وانشرحت، وبيمن توفيقه تقيدت الجوارح بالعبادات وتأدبت، وبحسن هدايته انجلت عن القلوب ظلمات الجهل وانقشعت، وبتأييده ونصرته انقطعت مكائد الشيطان واندفعت، وبلطف عنايته تترجح كفة الحسنات إذا ثقلت، وبتيسيره تيسرت من

وأخرج ابن المبارك في الزهد وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن مسعود في قوله: ﴿علمت نفس ما قدمت وأخرت﴾ قال: من سنة صالحة يعمل بها بعده فإن له مثل أجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، أو سنة سيئة يعمل بها بعده فإن عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينتقص من أوزارهم.

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس قال: ما قدمت من عمل خير أو شر وما أخرت من سيئة يعمل بها من بعده.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة في قوله ﴿علمت نفس ما قدمت وأخرت﴾ قال: ما أدت إلى الله مما أمرها الله به وما ضيعت.

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة قال: ما قدمت من خير وما أخرت من حق الله عليها لم تعمل به، وعن سعيد بن جبير قال: ما قدمت من خير وما أخرت ما حدثت به نفسه ولم يعمل به، وعن مجاهد، ما قدمت من خير وما أخرت ما أمرت أن تعمل فتركت، وعن عطاء قال: ما قدمت بين يديها وما أخرت وراءها من سيئة يعمل بها من بعده.

(فتعلم أنه لولا لزومها للمراقبة والمحاسبة **في الدنيا لشقيت في صعيد القيامة)** وهي الأرض المستوية التي يحشر الناس عليها **(وهلكت، وبعد المجاهدة والمحاسبة والمراقبة لولا فضل الله بقبول بضاعتها المزجاة)** وهي الخسيسة التي يدفعها كل معروض عليه فلا تنفق **(لخابت وخسرت)** وخسارتها عدم رواجها، **(فسبحان من عمت نعمته كافة العباد فشملت)** أي جميعهم عامهم وخاصهم وكافة مصدر على فاعله كالعافية والعاقبة لا يثنى ولا يجمع، **(واستغرقت رحمته الخلائق في الدنيا والآخرة، وغمرت)** وهي الرحمة العامة التي تتناول المستحق وغير المستحق والضرورات والحاجات والمزايا الخارجة عنها، **(فبنفحات فضله)** جمع نفحة وهي العطية **(اتسعت القلوب للإيمان وانشرحت)** فقبلته واستقر فيها، **(وبيمن توفيقه)** أي هدايته لما يوافقه **(تقيدت الجوارح بالعبادات وتأدبت)** فاستحلتها واستخفت، **(وبحسن هدايته انجلت عن القلوب ظلمات الجهل وانقشعت)** أي انزاحت فاهتدت بمعرفته الخاصة واطمأنت، **(وبتأييده ونصرته انقطعت)** عنه **(مكائد الشيطان)** ومصائده وفخوخه التي على قلوب المؤمنين **(واندفعت، وبلطف عنايته)** السابقة بعباده **(تترجح كفة الحسنات**

الطاعات ما تيسرت، فمنه العطاء والجزاء والإبعاد والإدناء والإسعاد والإشقاء والصلاة على محمد سيد الأنبياء وعلى آله سادة الأصفياء وعلى أصحابه قادة الاتقياء.

أما بعد؛ فقد قال الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]،

إذا ثقلت، وبتيسيره تيسرت من الطاعات ما تيسرت فمنه) تعالى وحده (**العطاء والجزاء**) أي فهو المعطي والمجازي، (**والإبعاد والإدناء**) أي وهو المبعد والمدني (**والإسعاد والإشقاء**) أي وهو المسعد والمشقي لا إله إلا الله جل جلاله، (**والصلاة على**) سيدنا (**محمد سيد الأنبياء**) أي رئيسهم ومقدمهم، (**وعلى آله سادة الأصفياء وعلى أصحابه قادة الأتقياء**) وسلم عليه تسليماً كثيراً.

(**أما بعد؛ فقد قال الله تعالى**) في كتابه العزيز، (**﴿ونضع الموازين القسط﴾**) أي العدل توزن بها صحائف الأعمال، وقيل: وضع الميزان تمثيل لإرصاد الحساب السوي والجزاء على حسب الأعمال بالعدل وإفراد القسط لأنه مصدر وصف به للمبالغة (**ليوم القيامة**) أي لجزاء يوم القيامة أو لأجله أو فيه، كقولك: جئت لخمس خلون من الشهر (**﴿فلا تظلم نفس شيئاً﴾**) من حقه (**﴿وإن كان﴾**) العمل (**﴿مثقال حبة من خردل أتينا بها﴾**) أي أحضرناها والضمير للمثقال وتأنيثه لإضافته إلى الحبة (**﴿وكفى بنا حاسبين﴾**) أي لا مزيد على علمنا وعدلنا.

أخرج ابن عبد البر في كتاب جامع العلم من طريق حماد بن زيد، عن أبي حنيفة، عن حماد، عن إبراهيم في قوله تعالى ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة﴾ قال: يجاء بعمل الرجل فيوضع في كفة ميزانه فيرجح فيقال له: أتدري ما هذا؟ فيقول: لا، فيقال: هذا فضل العلم الذي كنت تعلمه الناس أو نحو هذا، وحدث به عبدالله بن أحمد في كتاب العلل عن أبيه، حدثنا عبد القدوس ابن بكر بن خنيس، حدثنا الحجاج عن حماد قال: إن العالم ليغشاه يوم القيامة مثل الغمام فيوضع في ميزانه فيقول: ما هذا؟ فيقال: العلم الذي علمته الناس. وقال أيضاً: حدثني أبي، حدثنا عبد القدوس، عن رجل قد سماه - يعني أبا حنيفة - عن حماد مثله. وخرجه ابن مردويه في كتاب فضل العلم من طريق مسلم بن إبراهيم، حدثنا حماد بن زيد، عن أبي حنيفة عن حماد

قال الحافظ بن ناصر الدين في منهاج السلامة: ونصب ميزان الحق يوم القيامة بين الخلق لفوائد عظيمة وحكم بهية اقتضتها الحكمة الإلهية مع علم الله العليم الخبير بمقادير الأعمال الصغير والكبير، لا يغيب عن نظره غائب ولا يفوته هارب ولا يؤده حفظ ما خلق وهو السميع العليم، وإنما الحكمة في وزن أعمال العباد أن ذلك لامتحان الخلق بالإيمان بذلك في الدنيا وهو أحد الأقوال في معنى ذلك، وقيل: لإظهار السعادة والشقاوة يوم القيامة، وقيل ليعرف العباد ما لهم من خير وشر، وقيل لإقامة الحجج عليهم، وقيل للإعلام بأن الله عز وجل عادل لا يظلم من خلقه أحداً يربي الحسنات لصاحبها ويضاعفها.

وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيه ويَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الكِتَاب لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمْ اللهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا احْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ واللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٍ﴾ [المجادلة: ٦] وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً ★ لِيُرَوا أَعْمَالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ★ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٦، ٨]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، فعرف أرباب البصائر من جملة العباد أنّ الله تعالى لهم بالمرصاد، وأنهم سيناقشون في الحساب ويطالبون بمثاقيل الذرّ من الخطرات

(**وقال تعالى: ﴿ووضع الكتاب**) أي صحائف الأعمال في الايمان والشمائل أو في الميزان، وقيل: هو كناية عن وضع الحساب، (**فترى المجرمين مشفقين**) خائفين (**مما فيه**) من الذنوب (**ويقولون يا ويلتنا**) ينادون هلكتهم التي أهلكوها من بين الهلكات (**ما لهذا الكتاب**) تعجباً من شأنه (**لا يغادر**) لا يترك هنة (**صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها**) عددها وأحاط بها (**ووجدوا ما عملوا حاضراً**) مكتوباً في الصحف (**ولا يظلم ربك أحداً﴾**) فيكتب عليه ما لم يفعل أو يزيد في عقابه الملائم لعمله، (**وقال تعالى ﴿يوم يبعثهم الله جميعاً**) في صعيد أفيح (**فينبئهم**) أي يخبرهم جميعاً (**بما عملوا**) من خير وشر (**أحصاه الله**) عدده وأحاط به (**ونسوه والله على كل شيء شهيد﴾**) أي شاهد لا يغيب. (**وقال تعالى: ﴿يومئذ يصدر الناس**) من قبورهم إلى الموقف (**أشتاتاً**) متفرقين بحسب مراتبهم (**ليروا أعمالهم**) أي جزاء أعمالهم (**فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ★ ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾**) والذرة النملة الصغيرة أو الهباء. (**وقال تعالى ﴿ثم توفى كل نفس ما كسبت**) أي تعطى على سبيل الوفاء جميع ما كسبت من خير وشر (**وهم لا يظلمون﴾**) وهو كقوله تعالى ﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾ [الكهف: ٤٩] وقال تعالى: (**﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً**) بين يديه (و) تجد أيضاً (**ما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً**) أي غاية يقال بلغ أمده أي غايته (**ويحذركم الله نفسه﴾ وقال تعالى: ﴿واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه﴾** إلى غير ذلك من الآيات الدالة على سعة علمه وإحاطته بسائر أفعال العباد.

(**فعرف أرباب البصائر**) الصادقة (**من جملة العباد أن الله تعالى لهم بالمرصاد**) كما قال تعالى ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ [الفجر: ١٤] (**وأنهم سيناقشون في الحساب**) أي يدقق عليهم

واللحظات، وتحققوا أنه لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة وصدق المراقبة ومطالبة النفس في الأنفاس والحركات ومحاسبتها في الخطرات واللحظات، فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خف في القيامة حسابه وحضر عند السؤال جوابه وحسن منقلبه ومآبه، ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته وطالت في عرصات القيامة وقفاته وقادته إلى الخزي والمقت سيئاته، فلما انكشف لهم ذلك علموا أنه لا ينجيهم منه إلا طاعة الله وقد أمرهم بالصبر والمرابطة فقال عز من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠] فرابطوا أنفسهم أولاً بالمشارطة، ثم بالمراقبة، ثم بالمحاسبة، ثم بالمعاقبة، ثم بالمجاهدة، ثم بالمعاتبة، فكانت لهم في المرابطة ست مقامات، ولا بدّ من شرحها وبيان حقيقتها وفضيلتها وتفصيل الأعمال فيها وأصل ذلك المحاسبة، ولكن كل حساب فبعد مشارطة ومراقبة ويتبعه عند الخسران المعاتبة والمعاقبة، فلنذكر شرح هذه المقامات وبالله التوفيق.

فيه (**ويطالبون بمثاقيل الذر من الخطرات واللحظات**) في الحركات والسكنات، (**وتحققوا أنه لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة وصدق المراقبة ومطالبة النفس في الأنفاس**) الهابطة والصاعدة، (**والحركات ومحاسبتها في الخطرات واللحظات، فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خف في القيامة حسابه وحضر عند السؤال**) في القبر (**جوابه وحسن منقلبه ومآبه**) أي مرجعه، (**ومن لم يحاسب نفسه**) في دنياه (**دامت حسراته وطالت في عرصات القيامة وقفاته وقادته**) أي جرته (**إلى الخزي**) أي الفضيحة (**والمقت**) أي الغضب (**سيئاته، فلما انكشف لهم ذلك علموا أنه لا ينجيهم منه إلا طاعة الله**) والمصابرة عليها (**وقد أمرهم بالصبر والمرابطة فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا﴾**) على مشاق الطاعات وما يصيبكم من الشدائد (**وصابروا**) أي غالبوا أعداء الله في الصبر على شدائد الحرب وأعدى عدوكم على مخالفة الهوى وتخصيصه بعد الأمر بالصبر مطلقاً لشدته (**ورابطوا**) أنفسكم على الطاعة ﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ بنيل المقامات الثلاثة المترتبة التي هي الصبر على مقتضى الطاعات، ومصابرة النفس في رفض العادات، ومرابطة السر على جناب الحق سبحانه لترصد الواردات المعبر عنها بالشريعة والطريقة والحقيقة، (**فرابطوا أنفسهم أولاً بالمشارطة، ثم بالمراقبة، ثم بالمحاسبة، ثم بالمعاقبة، ثم بالمجاهدة، ثم بالمعاتبة، فكانت لهم في المرابطة ست مقامات ولا بد من شرحها**) مقاماً مقاماً. (**وبيان حقيقتها وفضيلتها وتفصيل الأعمال فيها وأصل ذلك المحاسبة، ولكن كل حساب فبعد مشارطة ومراقبة ويتبعه عند الخسران المعاتبة والمعاقبة، فلنذكر شرح هذه المقامات وبالله التوفيق**).

المقام الأول من المرابطة: المشارطة:

اعلم أنَّ مطلب المتعاملين في التجارات المشتركين في البضائع عند المحاسبة سلامة الربح وكما أنّ التاجر يستعين بشريكه فيسلم إليه المال حتى يتجر ثم يحاسبه، فكذلك العقل هو التاجر في طريق الآخرة وإنما مطلبه وربحه تزكية النفس لأن بذلك فلاحها قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ★ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠] وإنما فلاحها بالأعمال الصالحة، والعقل يستعين بالنفس في هذه التجارة، إذ يستعملها ويستسخرها فيما يزكيها كما يستعين التاجر بشريكه وغلامه الذي يتجر في ماله، وكما أن الشريك يصير خصماً منازعاً يجاذبه في الربح فيحتاج إلى أن يشارطه أوّلاً ويراقبه ثانياً ويحاسبه ثالثاً ويعاقبه أو يعاتبه رابعاً؛ فكذلك العقل يحتاج إلى مشارطة النفس أوّلاً فيوظف عليها الوظائف ويشرط عليها الشروط ويرشدها إلى طرق الفلاح ويجزم عليها الأمر بسلوك تلك الطرق، ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة، فإنه لو أهملها لم يرَ منها إلا الخيانة وتضييع رأس المال كالعبد الخائن إذا خلا له الجوّ وانفرد بالمال. ثم بعد الفراغ ينبغي أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها فإن هذه تجارة ربحها الفردوس الأعلى

المقام الأول من المرابطة: المشارطة:

وهو في الأصل إجراء الشرط بين متعاملين.

(**اعلم**) نور الله قلبك (**أن مطلب المتعاملين**) في التجارات (**المشتركين في البضائع**) والنقود (**عند المحاسبة**) مع بعضهم (**سلامة الربح**) الحاصل من التصرف (**وكما أن التاجر يستعين بشريكه فيسلم إليه المال حتى يتجر ثم يحاسبه، فكذلك العقل هو التاجر في طريق الآخرة وإنما مطلبه**) الأعلى (**وربحه**) الأوفر (**تزكيه النفس**) أي تطهيرها من المذام والخبائث (**لأن بذلك فلاحها . قال الله تعالى: ﴿قد أفلح من زكاها﴾**) أنماها بالعلم والعمل (**﴿وقد خاب من دساها﴾**) نقصها وأخفاها بالجهالة والفسوق (**وإنما فلاحها بالأعمال الصالحة**) على وفق المعارف الإلهية (**والعقل يستعين بالنفس في هذه التجارة إذ يستعملها ويستسخرها فيما يزكيها**) وينميها، (**كما يستعين التاجر بشريكه وغلامه الذي يتجر في ماله**) فيما ينمي المال، (**وكما أن الشريك يصير خصماً منازعاً يجاذبه في الربح فيحتاج إلى أن يشارطه أولاً، ويراقبه ثانياً، ويعاتبه أو يعاقبه رابعاً، فكذلك العقل يحتاج إلى مشارطة النفس أولاً فيوظف عليها الوظائف ويشرط عليها الشروط ويرشدها إلى طرق الفلاح ويجزم الأمر بسلوك تلك الطرق، ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة**) واحدة (**فإنه لو أهملها لم ير منها إلا الخيانة**) الظاهرة، (**وتضييع رأس المال كالعبد الخائن إذا خلا له الجو**) وزالت عنه الموانع (**وانفرد بالمال**) فإنه تشتد خيانته ويبدد المال حيث لا ينفع فإنه إما لبطنه أو لفرجه، (**ثم بعد الفراغ ينبغي أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها فإن هذه تجارة ربحها الفردوس الأعلى**)

وبلوغ سدرة المنتهى مع الأنبياء والشهداء، فتدقيق الحساب في هذا مع النفس أهم كثيراً من تدقيقه في أرباح الدنيا مع أنها محتقرة بالإضافة إلى نعيم العقبى، ثم كيفما كانت فمصيرها إلى التصرم والانقضاء، ولا خير في خير لا يدوم بل شر لا يدوم خير من خير لا يدوم، لأن الشر الذي لا يدوم إذا انقطع بقي الفرح بانقطاعه دائماً وقد انقضى الشر، والخير الذي لا يدوم يبقى الأسف على انقطاعه دائمـاً وقد انقضى الخير. ولذلك قيل:

أشدّ الغـم عنـدي في سرور ... تيقـن عنـه صـاحبـه انتقـالا

فحتم على كل ذي حزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها وحظواتها. فإن كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها يمكن أن يشتري بها كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد فانقضاء هذه الأنفاس ضائعة أو مصروفة إلى ما يجلب الهلاك خسران عظيم هائل لا تسمح به نفس عاقل. فإذا أصبح العبد وفرغ من فريضة الصبح ينبغي أن يفرغ

وبلوغ سدرة المنتهى مع الأنبياء والشهداء) وناهيك به ربحاً. **(فتدقيق الحساب في هذا مع النفس أهم كثيراً من تدقيقه في أرباح الدنيا)** ومناقشته فيها **(مع أنها محتقرة بالإضافة إلى نعيم العقبى ثم كيفما كانت فمصيرها إلى التصرم والانقضاء)** والهلاك والفناء، **(ولا خير في خير لا يدوم بل شر لا يدوم خير من خير لا يدوم، لأن الشر الذي لا يدوم إذا انقطع بقي الفرح بانقطاعه دائماً، وقد انقضى الشر والخير الذي لا يدوم يبقى الأسف على انقطاعه دائماً وقد انقضى الخير)** وهذا بالإضافة إلى العواقب، **(ولذلك قيل)** قائله المتنبي:

(أشد الغـم عنـدي في سرور ... تيقـن عنـه صـاحبـه انتقـالا)

وقد مر أنشاده للمصنف في مواضع من كتابه هذا. **(فحتم على كل ذي حزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها وحظواتها)** أي في سائر أحوالها، فالمحاسبة هي ميزان الأعمال والأحوال لتتميز بها مصالح الأعمال من مفاسدها وحقائق الأحوال من دعاويها، والمحاسبة للأعمال والأحوال كالبراهين لصحة العلوم، فمن لا برهان معه خالط علمه الوهم والخيال، ومن لا محاسبة له شاب عمله الغرور والخداع، وهذه المحاسبة واجبة بالإجماع. هكذا هو منقول عن الحرث المحاسبي.

وسياق المصنف يشير إليه والكتاب والسنة والأثر يدل على ذلك، **(فإن كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها يمكن أن يشترى بها كنز من الكنوز لا يضاهي نعيمه أبدا الآباد)** إلى آخر الدهر، **(فانقضاء هذه الأنفاس ضائعة ومصروفة إلى ما يجلب الهلاك خسران عظيم هائل لا تسمح به نفس عاقل)**، فانظر إلى حال من لم يملك من الدنيا إلا درهماً

قلبه ساعة لمشارطة النفس كما أنّ التاجر عند تسليم البضاعة إلى الشريك العامل يفرغ المجلس لمشارطته. فيقول للنفس: ما لي بضاعة إلا العمر ومهما فني فقد فني رأس المال ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح، وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله فيه وأنسأ في أجلي وأنعم عليّ به ولو توفاني لكنت أتمنى أن يرجعني إلى الدنيا يوماً واحداً حتى أعمل به صالحاً، فاحسبي أنك قد توفيت ثم قد رددت فإياك ثم إياك أن تضيعي هذا اليوم فإنّ كل نفس من الأنفاس جوهرة لا قيمة لها، واعلمي يا نفس أن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة، وقد ورد في الخبر: «أنه ينشر للعبد بكل يوم وليلة أربع وعشرون

واحداً وهو رأس ماله وخرج يتجر فيه لعائلته ليسعدوا بربحه، وإذا هو برجلين مثله لكل واحد منهما درهم مثله فاختلفت آراؤهم في التجارة، فوجد أحدهم جوهرة بدرهمه وأشار إلى صاحبيه أن يفعلا كفعله فلم يفعلا فسعد هو وأهله بالجوهرة، وأما أحد الرجلين فقال: هذا رأس مال قليل فلا يكفيني ولا يكفي أهلي فأنا أرمي به من يدي واتكل على الله تعالى في أن يكفيني وأهلي بلا تجارة، وأما الرجل الآخر فوجد حية عظيمة ينادى عليها بدرهم والمنادي يقول: احذروها فإنها حية لين مسها قاتل سمها، فغلبت عليه شقوته واشترى الحية بدرهمه وحملها إلى أهله فقتلته وقتلت عياله، فانظر إلى هذا المثال فإنه يعرفك قيمة عمرك فإن الدرهم هو النفس الواحد إذ لا يملك كل واحد من الأحياء غير النفس الراهن وما هو في ثاني حال مشكوك فيه، وقد انقسمت الناس في أنفاسهم هذا الانقسام فمنهم من عرف قدر نفسه فاشترى به جوهرة أضاءت عليه في محياه ومماته وهو صرفه في ذكر الله تعالى والفكر في معرفته، والثاني جهل سنة ربه في قوله ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ [النجم: ٣٩] فصرفه في مباح يتحسر على فواته إذا عاين ربح الرابحين وهو يعلم أن لم يكن معهم إلا مثل رأس ماله، وأما الثالث فازداد جهلاً ثانياً وهو الجهل بالبضائع فاشترى بضاعة شقيت بها نفسه وهو صرف نفسه في معصية الله تعالى، فنعوذ بالله من الجهل.

(**فإذا أصبح العبد وفرغ من فريضة الصبح ينبغي أن يفرغ قلبه ساعة لمشارطة النفس، كما أن التاجر عند تسليم البضاعة إلى الشريك العامل**) في تجارته (**يفرغ المجلس لمشارطته فيقول للنفس**) في مشارطتها: ويحك يا نفس (**ما لي بضاعة**) أعتمد عليها (**إلا**) هذا (**العمر، ومهما فني فقد فني رأس المال ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح، وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله فيه وأنسأ في أجلي**) أي أخره (**وأنعم علي به، ولو توفاني**) كما توفي غيري من أقراني ولداتي (**لكنت أتمنى**) على الله (**أن يرجعني إلى الدنيا يوماً واحداً حتى أعمل فيه صالحاً**) كما أخبر الله تعالى بقوله: ﴿قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحا﴾ [المؤمنون: ٩٩] (**فاحسبي**) يا نفس (**أنك قد توفيت ثم قد رددت**) إلى الدنيا ثانياً، (**فإياك ثم إياك أن تضيعي هذا اليوم فإن كل نفس من الأنفاس جوهرة**) يتيمة (**لا قيمة لها واعلمي يا نفس أن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة**) من ساعات الزمان، (**وقد ورد في الخبر** «أنه

خزانة مصفوفة، فيفتح له منها خزانة فيراها مملوءة نوراً من حسناته التي عملها في تلك الساعة فيناله من الفرح والسرور والاستبشار بمشاهدة تلك الأنوار التي هي وسيلته عند الملك الجبار ما لو وزع على أهل النار لأدهشهم ذلك الفرح عند الإحساس بألم النار ويفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة يفوح نتنها ويغشاه ظلامها وهي الساعة التي عصى الله فيها فيناله من الهول والفزع ما لو قسم على أهل الجنة لتنغص عليهم نعيمها ويفتح له خزانة أخرى فارغة ليس له فيها ما يسره ولا ما يسوءه »، وهي الساعة التي نام فيها أو غفل أو اشتغل بشيء من مباحات الدنيا فيتحسر على خلوها ويناله من غبن ذلك ما ينال القادر على الربح الكثير والملك الكبير إذا أهمله وتساهل فيه حتى فاته، وناهيك به حسرة وغبنا، وهكذا تعرض عليه خزائن أوقاته طول عمره فيقول لنفسه: اجتهدي اليوم في أن تعمري خزانتك ولا تدعيها فارغة عن كنوزك التي هي أسباب ملكك ولا تميلي إلى الكسل والدعة والاستراحة فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك وتبقى عندك حسرة لا تفارقك وإن دخلت الجنة، فألم الغبن وحسرته لا يطاق وإن كان دون ألم النار. وقد قال بعضهم: هب أن المسيء قد عفي عنه أليس قد فاته ثواب المحسنين؟ أشار به إلى الغبن والحسرة، وقال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ

ينشر للعبد بكل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة، فتفتح له منها خزانة فيراها مملوءة نوراً من حسناته التي عملها في تلك الساعة فيناله من الفرح والسرور والاستبشار بمشاهدة تلك الأنوار التي هي وسيلة عند الملك الجبار ما لو وزع) أي فرق وقسم **(على أهل النار لأدهشهم ذلك الفرح عند الإحساس بألم النار، وتفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة يفوح نتنها ويغشاه ظلامها وهي الساعة التي عصى فيها فيناله من الهول والفزع ما لو قسم على أهل الجنة لتنغص عليهم نعيمها، وتفتح له خزانة أخرى فارغة ليس فيها ما يسره ولا ما يسوءه. وهي التي نام فيها أو غفل أو اشتغل بشيء من مباحات الدنيا فتحسر على خلوها ويناله من غبن ذلك ما ينال القادر على الربح الكثير والملك الكبير إذا أهمله وتساهل فيه حتى فاته، وناهيك به حسرة وغبناً وهكذا تعرض عليه خزائن أوقاته طول عمره)** قال العراقي: الحديث بطوله لم أجد له أصلاً. **(فيقول لنفسه: اجتهدي اليوم في أن تعمري خزانتك ولا تدعيها فارغة عن كنوزك التي هي أسباب ملكك ولا تميلي إلى الكسل والدعة، والاستراحة فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك وتبقى عندك حسرة لا تفارقك وإن دخلت الجنة فألم الغبن وحسرته لا يطاق وإن كان دون ألم النار. وقد قال بعضهم: هب أن المسيء قد عفي عنه أليس قد فاته ثواب المحسنين؟ أشار به إلى الغبن والحسرة، وقال الله تعالى ﴿يوم يجمعكم ليوم الجمع)** لأجل ما فيه من الحساب والجزاء

التَّغَابُن﴾ [التغابن : ٩] فهذه وصيته لنفسه في أوقاته. ثم ليستأنف لها وصية في أعضائه السبعة وهي العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل، وتسليمها إليها فإنها رعايا خادمة لنفسه في هذه التجارة وبها تم أعمال هذه التجارة، وإن لجهنم سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم، وإنما تتعين تلك الأبواب لمن عصى الله تعالى بهذه الأعضاء، فيوصيها بحفظها عن معاصيها.

أما العين؛ فيحفظها عن النظر إلى وجه من ليس له بمحرم، أو إلى عورة مسلم، أو النظر إلى مسلم بعين الاحتقار، بل عن كل فضول مستغنى عنه، فإن الله تعالى يسأل عبده عن فضول النظر كما يسأله عن فضول الكلام، ثم إذا صرفها عن هذا لم تقنع به حتى يشغلها بما فيه تجارتها وربحها، وهو ما خلقت له من النظر إلى عجائب صنع الله بعين

والجمع جمع الملائكة والثقلين (**ذلك يوم التغابن﴾**) يغبن فيه بعضهم بعضاً لنزول السعداء منازل الأشقياء لو كانوا أشقياء، وبالعكس مستعار من تغابن التجار، واللام فيه للدلالة على أن التغابن الحقيقي هو التغابن في أمور الآخرة لعظمها ودوامها. (**فهذه وصيته لنفسه في أوقاته، ثم يستأنف لها وصية في أعضائه السبعة وفي العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل وتسلمها إليها، فإنها**) أي تلك الأعضاء بمنزلة (**رعايا خادمة لنفسه في هذه التجارة وبها تتم أعمال هذه التجارة، وأن لجهنم سبعة أبواب**) يدخلونها لكثرتهم أو طبقات ينزلونها بحسب مراتبهم في المتابعة وهي: جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية. ولعل تخصيص العدد لانحصار مجامع المهلكات في الركون إلى المحسوسات ومتابعة القوة الشهوية والغضبية، أو لأن أهلها سبع فرق كما قال تعالى: ﴿وإن جهنم لموعدهم أجمعين﴾ [الحجر: ٤٣] لها سبعة أبواب (**لكل باب منهم جزء مقسوم**) أفرز له فأعلاها لموحدي العصاة، والثاني لليهود، والثالث للنصارى، والرابع للصابئين، والخامس للمجوس، والسادس للمشركين، والسابع للمنافقين. (**وإنما تتعين تلك الأبواب لمن عصى الله تعالى بهذه الأعضاء**) وهذا وجه آخر لتخصيص العدد (**فيوصيها بحفظها عن معاصيها**).

(**أما العين؛ فيحفظها عن النظر إلى وجه من ليس له بمحرم**)، ولا إلى عضو آخر غير الوجه (**أو إلى عورة مسلم أو النظر إلى مسلم بعين الإحتقار بل**) يحفظها (**عن كل فضول مستغنى عنه، فإن الله يسأل عبده عن فضول النظر كما يسأله عن فضول الكلام**) روى عبدالله بن أحمد في زوائد الزهد، عن أبي موسى الأنصاري، عن عبادة بن كليب قال: قال رجل لداود الطائي: لو أمرت بما في سقف البيت من نسج العنكبوت فينظف؟ قال له: أما علمت أنه يكره فضول النظر. (**ثم صرفها عن هذا لم يقنع به حتى يشغلها بما فيه تجارتها وربحها وهو ما خلقت له**) أي لأجله (**من النظر إلى عجائب صنع الله**) في الملك (**بعين الاعتبار، والنظر**

الاعتبار ، والنظر إلى أعمال الخير للاقتداء ، والنظر في كتاب الله وسنّة رسوله ومطالعة كتب الحكمة للاتعاظ والاستفادة .

وهكذا ينبغي أن يفصل الأمر عليها في عضو عضو لا سيما اللسان والبطن .

أما اللسان ؛ فلأنه منطلق بالطبع ولا مؤونة عليه في الحركة وجنايته عظيمة بالغيبة والكذب والنميمة وتزكية النفس ومذمة الخلق والأطعمة واللعن والدعاء على الأعداء والمماراة في الكلام وغير ذلك ، مما ذكرناه في كتاب آفات اللسان فهو بصدد ذلك كله مع أنه خلق للذكر والتذكير وتكرار التعلم والعلم وإرشاد عباد الله إلى طريق الله وإصلاح ذات البين وسائر خيراته فليشترط على نفسه أن لا يحرّك اللسان طول النهار إلا في الذكر . فنطق المؤمن ذكر ونظره عبرة وصمته فِكرَة ﴿وَمَا يَلْفِظُ مِنْ قَول إلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق : ١٨] .

وأما البطن ؛ فيكلفه ترك الشره وتقليل الأكل من الحلال واجتناب الشبهات ، ويمنعه من الشهوات ، ويقتصر على قدر الضرورة ، ويشرط على نفسه أنها إن خالفت شيئاً من ذلك عاقبها بالمنع عن شهوات البطن ليفوتها أكثر مما نالته بشهواتها وهكذا يشرط عليها في جميع الأعضاء . واستقصاء ذلك يطول ولا تخفى معاصي الأعضاء وطاعاتها .

إلى أعمال الخير للاقتداء والنظر في كتاب الله وسنة رسوله) ﷺ ، **(ومطالعة كتب الحكمة)** الإلهية وهي كتب الدقائق **(للاتعاظ والاستفادة)** لا للتفرج . **(وهكذا ينبغي أن يفصل الأمر عليها في عضو عضو لا سيما اللسان والبطن)** .

(أما اللسان : فلأنه منطلق بالطبع ولا مؤنة عليه في الحركة وجنايته عظيمة بالغيبة والكذب والنميمة وتزكية النفس ومذمة الخلق و) مذمة **(الأطعمة واللعن والدعاء على الاعداء والمماراة في الكلام وغير ذلك مما ذكرناه في كتاب آفات اللسان)** مفصلاً ، **(فهو بصدد ذلك كله مع أنه خلق للذكر والتذكير وتكرار العلم والتعليم وإرشاد عباد الله إلى طريق الله وإصلاح ذات البين وسائر خيراته ، فليشترط على نفسه أن لا يحرك اللسان طول النهار إلا في الذكر ، فنطق المؤمن ذكره ونظره عبرة وصمته فكرة ، و)** قال الله تعالى : **(﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾)** .

(وأما البطن : فيكلفه ترك الشره) أي الحرص **(وتقليل الأكل من الحلال واجتناب الشبهات ، ويمنعه من الشهوات ، ويقتصر على قدر الضرورة)** مما يقيم به صلبه في الطاعات ، **(ويشترط على نفسه أنها إن خالفت شيئاً من ذلك عاقبها بالمنع عن شهوات البطن ليفوتها أكثر مما نالته بشهوتها ، وهكذا يشترط عليها في جميع الأعضاء واستقصاء الأعضاء وذلك يطول ، ولا تخفى معاصي الأعضاء وطاعتها)** .

ثم يستأنف وصيتها في وظائف الطاعات التي تتكرر عليه في اليوم والليلة ثم في النوافل التي يقدر عليها ويقدر على الاستكثار منها ، ويرتب لها تفصيلها وكيفيتها وكيفية الاستعداد لها بأسبابها ، وهذه شروط يفتقر إليها في كل يوم ولكن إذا تعوّد الإنسان شرط ذلك على نفسه أياماً وطاوعته نفسه في الوفاء بجميعها استغنى عن المشارطة فيها ، وإن أطاع في بعضها بقيت الحاجة إلى تجديد المشارطة فيما بقي ولكن لا يخلو كل يوم عن مهم جديد وواقعة حادثة لها حكم جديد ، ولله عليه في ذلك حق . ويكثر هذا على من يشتغل بشيء من أعمال الدنيا من ولاية أو تجارة أو تدريس إذ قلما يخلو يوم عن واقعة جديدة يحتاج إلى أن يقضي حق الله فيها ، فعليه أن يشترط على نفسه الاستقامة فيها والانقياد للحق في مجاريها ويحذرها مغبة الإهمال ويعظها كما يوعظ العبد الآبق المتمرّد : فإنّ النفس بالطبع متمرّدة عن الطاعات مستعصية عن العبودية ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها : ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات : ٥٥] فهذا وما يجري مجراه هو أوّل مقام المرابطة مع النفس وهي محاسبة قبل العمل ، والمحاسبة تارة تكون بعد العمل وتارة قبله للتحذير قال الله تعالى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا في أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة : ٢٣٥] وهذا للمستقبل . وكل نظر في كثرة ومقدار لمعرفة زيادة ونقصان فإنه يسمى

(ثم يستأنف وصيتها في وظائف الطاعات التي تتكرر عليه في اليوم والليلة ثم في النوافل التي يقدر عليها ويقدر على الاستكثار منها ، ويرتب لها تفصيلها وكيفيتها وكيفية الاستعداد لها بأسبابها ، وهذه شروط يفتقر إليها كل يوم ولكن إذا تعود الإنسان شرط ذلك لنفسه أياماً وطاوعته نفسه في الوفاء بجميعها استغنى عن المشارطة فيها ، وإن أطاع في بعضها بقيت الحاجة إلى تجديد المشارطة فيما بقي ولكن لا يخلو كل يوم عن مهم جديد وواقعة حادثة لها حكم جديد ولله عليه في ذلك حق ، ويكثر هذا على من يشتغل بشيء من أعمال الدنيا من ولاية أو تجارة أو تدريس ، إذ قلما يخلو يوم عن واقعة جديدة يحتاج إلى أن يقضي حق الله فيها ، فعليه أن يشترط على نفسه الاستقامة فيها والانقياد للحق في مجاريها ويحذرها مغبة الإهمال) أي عاقبته **(ويعظها كما يوعظ العبد الآبق المتمرد)** على سيده ، **(فإن النفس بالطبع متمردة عن الطاعات مستعصية عن العبودية)** والذل والقهر ، **(ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها)** قال الله تعالى ، **(﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾)** بتنبههم لقبول ذلك ، **(فهذا وما يجري مجراه هو أول مقام المرابطة مع النفس وهي محاسبته قبل العمل)** أي قبل الشروع فيه ، **(والمحاسبة تارة تكون بعد العمل)** وهذا هو الأكثر ، **(وتارة)** تكون **(قبله)** وهي **(للتحذير)** عن الوقوع فيما يفسد العمل ، **(قال الله تعالى : ﴿واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه﴾ وهذا للمستقبل . وكل نظر في كثرة**

محاسبة. فالنظر فيما بين يدي العبد في نهاره ليعرف زيادته من نقصانه من المحاسبة، وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُم فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبينُوا﴾ [النساء: ٩٤]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ﴾ [ق: ١٦]، ذكر ذلك تحذيراً وتنبيهاً للاحتراز منه في المستقبل، وروى عبادة بن الصامت أنه عليه السلام قال لرجل سأله أن يوصيه ويعظه: «إذا أردت أمراً فتدبر عاقبته فإن كان رشداً فامضِهِ وإن كان غياً فانتهِ عنه»، وقال بعض الحكماء: إذا أردت أن يكون العقل غالباً للهوى فلا تعمل بقضاء الشهوة حتى تنظر العاقبة فإن مكث الندامة في القلب أكثر من مكث خفة الشهوة وقال لقمان: إن المؤمن إذا أبصر العاقبة أمن الندامة، وروى شداد بن أوس عنه ﷺ أنه قال: «الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله» دان نفسه، أي حاسبها. ويوم الدين: يوم الحساب. وقوله: ﴿أَئِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصافات: ٥٣] أي لمحاسبون. وقال عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم

ومقدار لمعرفة زيادة ونقصان فإنه يسمى محاسبة، فالنظر فيما بين يدي العبد في نهاره ليعرف زيادته من نقصانه من المحاسبة، وقد قال الله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا﴾ وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا﴾ وقال تعالى ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه﴾ ذكر ذلك) كله (**تحذيراً وتنبيهاً للاحتراز منه في المستقبل. وروى عبادة بن الصامت**) رضي الله عنه (**أنه ﷺ قال لرجل سأله أن يوصيه ويعظه «إذا أردت أمراً فتدبر عاقبته فإن كان رشداً فامضه وإن كان غياً فانته عنه»**) رواه ابن المبارك في الزهد عن أبي جعفر عبدالله بن المسور الهاشمي مرسلاً بلفظ «فإن كان خيراً» بدل «رشداً» و «إن كان شراً» بدل «غياً» وابن المسُور تكلموا فيه، وقد تقدم الكلام على هذا الحديث. (**وقال بعض الحكماء: إذ أردت أن يكون العقل غالباً على الهوى فلا تعمل بقضاء الشهوة حتى تنظر العاقبة، فإن مكث الندامة في القلب أكثر من مكث خفة الشهوة. وقال لقمان**) رحمه الله تعالى: (**إن المؤمن إذا أبصر العاقبة أمن الندامة. وروى شداد بن أوس**) رضي الله عنه، (**عنه ﷺ قال« الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله»**) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وغيرهم وقد تقدم. (**دان نفسه: أي حاسبها**) وقيل: استعبدها وقهرها يعني جعل نفسه مطيعة منقادة لأوامر ربها أي: الكيس من أبصر العاقبة وحاسب نفسه، والأحمق من عمي عنها وحجبته الشهوات والغفلات، (**ويوم الدين يوم الحساب**) وقيل يوم الجزاء. (**وقوله**) تعالى: (**﴿أئنا لمدينون﴾ أي لمحاسبون**) وقيل: لمجزيون، فالدين يطلق على معان كثيرة منها الحساب.

قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا وتهيأوا للعرض الأكبر. وكتب إلى أبي موسى الأشعري: حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة، وقال لكعب كيف تجدها في كتاب الله؟ قال: ويل لديّان الأرض من ديّان السماء فعلاه بالدرّة وقال: إلاّ من حاسب نفسه، فقال كعب: يا أمير المؤمنين إنها إلى جنبها في التوراة ما بينهما حرف إلا من حاسب نفسه. وهذا كله إشارة إلى المحاسبة للمستقبل إذ قال: «من دان نفسه يعمل لما بعد الموت». ومعناه وزن الأمور أوّلاً وقدّرها ونظر فيها وتدبّرها ثم أقدم عليها فباشرها.

المرابطة الثانية: المراقبة:

إذا أوصى الإنسان نفسه وشرط عليها ما ذكرناه فلا يبقى إلا المراقبة لها عند الخوض في الأعمال وملاحظتها بالعين الكالئة فإنها إن تركت طغت وفسدت. ولنذكر فضيلة المراقبة ثم درجاتها.

(وقال عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا، وتهيأوا للعرض الأكبر) رواه أبو نعيم في الحلية قال: حدثنا محمد بن أحمد بن الحسن، حدثنا بشر بن موسى، حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثنا جعفر بن برقان، عن ثابت بن الحجاج قال: قال عمر: زنوا أنفسكم قبل أن توزنوا وحاسبوها قبل أن تحاسبوا فإنه أهون عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم وتزينوا للعرض الأكبر يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية. **(وكتب)** رضي الله عنه **(إلى أبي موسى الأشعري)** رضي الله عنه وهو أمير بالبصرة: **(حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة)** رواه إسماعيل بن أبي خالد عن سعيد بن أبي بردة. **(وقال)** رضي الله عنه **(لكعب)** الأحبار يوماً: **(كيف تجد ما في كتاب الله. قال: ويل لديان الأرض من ديان السماء فعلاه بالدرة وقال: إلا من حاسب نفسه. فقال كعب: يا أمير المؤمنين إنها)** أي هذه الكلمة **(إلى جنبها في التوراة ما بينهن حرف إلا من حاسب نفسه)** والديان الحاكم والقاضي والمحاسب والمجازي. **(وهذا كله إشارة إلى المحاسبة للمستقبل، إذ قال)** ﷺ في الحديث السابق «الكيس **(من دان نفسه يعمل لما بعد الموت»)** أي حاسب نفسه وقهرها اشتغل بعمل ينفعه بعد موته، **(ومعناه وزن الأمور أولاً وقدرها ونظر فيها وتدبرها ثم أقدم عليها فباشرها)**.

المرابطة الثانية: المراقبة:

وفيها مقام الحياء ولواحقه الرعاية والحرمة والأدب.

اعلم أنه **(إذا أوصى الإنسان نفسه وشرط عليها ما ذكرناه فلا يبقى)** بعد ذلك **(إلا المراقبة بها عند الخوض في الأعمال وملاحظتها بالعين الكالئة)** أي الحافظة، **(فإنها إن تركت طغت وفسدت، ولنذكر فضيلة المراقبة ثم درجاتها.**

أما الفضيلة: فقد سأل جبريل عليه السلام عن الإحسان فقال: « أن تعبد الله كأنك

(أما الفضيلة، فقد سأل جبريل عليه السلام) النبي ﷺ **(عن الإحسان؟ فقال)** ﷺ: **(أن تعبد الله كأنك تراه»)** ولما كانت المراقبة والإحسان لفظين متداخلين على معنى واحد استدل بما ورد في الإحسان على فضيلتها.

قال القشيري في الرسالة: أخبرنا أبو نعيم عبد الملك بن الحسن بن محمد بن إسحاق، حدثنا أبو عوانة يعقوب بن إسحاق، حدثنا يوسف بن سعيد بن مسلم، حدثنا خالد بن يزيد، حدثنا إسماعيل ابن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن جرير بن عبدالله رضي الله عنه قال: جاء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ في صورة رجل فقال: يا محمد ما الإيمان؟ فقال « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره » قال: صدقت. قال: فتعجبنا من تصديقه للنبي ﷺ. قال: فاخبرني ما الإسلام؟ فقال « أن تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت » قال: صدقت، فاخبرني ما الإحسان؟ قال « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » قال: صدقت. الحديث هذا الذي قاله ﷺ « فإن لم تكن تراه فإنه يراك » إشارة إلى حال المراقبة لأن المراقبة علم العبد باطلاع الرب سبحانه عليه واستدامته لهذا العلم مراقبة لربه، وهذا أصل كل خير ولا يكاد يصل إلى هذه المرتبة إلا بعد فراغه عن المحاسبة، فإذا حاسب نفسه على ما سلف وأصلح حاله في الوقت ولازم طريق الحق، وأحسن بينه وبين الله مراعاة القلب، وحفظ مع الله الأنفاس راقب الله في عموم أحواله، فيعلم أنه سبحانه عليه رقيب ومن قلبه قريب يعلم أحواله ويرى أفعاله ويسمع قوله، ومن بغافل عن هذه الجملة بمعزل عن بداية الوصلة فكيف عن حقائق القربة اهـ.

قال العراقي: الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة. ورواه مسلم من حديث عمر انتهى.

قلت: قال البخاري في الصحيح: حدثنا مسدد، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا حيان التيمي، عن أبي زرعة، عن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يوماً بارزاً للناس فأتاه رجل فقال: ما الإيمان؟ قال « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث » قال: ما الإسلام؟ قال « الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان » وذكر تتمة الحديث. وقد رواه مسلم أيضاً من طرق

وأما حديث عمر، فقال أبو عبد الرحمن المقري، حدثنا عبدالله بن يزيد، حدثنا كهمس بن الحسن، عن عبدالله بن بريدة، عن يحيى بن يعمر، عن عبدالله بن عمر قال: حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: بينا نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا نعرفه حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه ثم قال: يا محمد أخبرني عن الإسلام ما الإسلام؟ قال: « أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج

تراه »، وقال عليه السلام: « اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » وقد قال

البيت إن استطعت إليه سبيلاً » قال: صدقت. قال عمر رضي الله عنه فعجبنا له يسأله ويصدقه، فقال: يا محمد أخبرني عن الإيمان؟ فقال: « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر كله خيره وشره » قال: صدقت وذكر باقي الحديث بتمامه أخرجه مسلم بطوله عن زهير بن حرب عن وكيع عن عبيدالله بن معاذ وعن أبيه كلاهما عن كهمس بن الحسن به، ورواه سليمان التيمي عن يحيى بن يعمر بزيادة فيه.

قال أبو بكر محمد بن خزيمة في الصحيح، حدثنا يوسف بن واضح، حدثنا المعتمر بن سليمان، عن أبيه، عن يحيى بن يعمر، عن ابن عمر قال: حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ في أناس إذ جاء رجل عليه سحناء سفر وليس من أهل البلد يتخطى حتى درك، فجلس بين يدي رسول الله ﷺ فقال: يا محمد ما الإسلام؟ قال « الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأن تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتحج البيت وتعتمر وتغتسل من الجنابة وأن تتم الوضوء وتصوم رمضان » قال: فإذا فعلت ذلك فأنا مسلم؟ قال « نعم » قال: صدقت ثم ذكر الحديث بطوله. وقد أخرجه ابن حبان في صحيحه عن ابن خزيمة. ورواه مسلم، عن الحجاج بن الشاعر، عن يونس بن محمد، عن المعتمر بن سليمان به لكنه لم يذكر متنه بل أحاله بنحو ما قبله.

ورواه أيضاً ابن عباس عن النبي ﷺ رواه ابن السماك في جزئه من طريق سيار بن الحكم، عن شهر بن حوشب عنه قال: بينا رسول الله ﷺ قاعد في الناس إذ جاءه رجل يتخطى الناس حتى وضع يديه على ركبتي النبي ﷺ فقال: ما الإسلام؟ فساقه. وفي آخره: فانطلق الرجل حتى توارى، فقال رسول الله ﷺ « علي بالرجل » قال: فطلب فلم يوجد، فقال ﷺ « هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم ما أتاني في صورة إلا عرفته فيها غير مرتي هذه ». وشهر بن حوشب مختلف فيه، والراجح قبوله. وقد استوفيت هذا الحديث في كتابي عقود الجواهر المنيفة وذكرت اختلاف ألفاظه فراجعه.

(وقال ﷺ « اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ») رواه أبو نعيم في الحلية من حديث زيد بن أرقم بزيادة « واحسب نفسك مع الموتى واتق دعوة المظلوم فإنها مستجابة ». وروى الطبراني والبيهقي من حديث معاذ بن جبل « اعبد الله ولا تشرك به شيئاً واعمل لله كأنك تراه واعدد نفسك في الموتى » الحديث.

وأما لفظ « الإحسان أن تعبد كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » فقد رواه أيضاً أحمد وابن ماجه من حديث أبي هريرة ورواه النسائي عنه. وعن أبي ذر معاً. ورواه أبو داود والترمذي والنسائي من حديث عمر. ويروى « الإحسان أن تعمل لله كأنك تراه فإن كنت لا تراه فإنه يراك فإذا فعلت ذلك فقد أحسنت » رواه أحمد والبزار من حديث ابن عباس، ورواه ابن حبان من

تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى﴾ [العلق: ١٤]، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ★ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ [المعارج: ٣٢، ٣٣]، وقال ابن المبارك لرجل: راقب الله تعالى فسأله عن تفسيره فقال: كن أبداً كأنك ترى الله عز وجل، وقال عبد الواحد بن يزيد: إذا كان سيدي رقيباً عليّ فلا أبالي بغيره. وقال أبو عثمان المغربي: أفضل ما يلزم الإنسان نفسه في هذه الطريقة المحاسبة والمراقبة وسياسة عمله بالعلم. وقال ابن عطاء: أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات. وقال الجريري: أمرنا هذا مبني على أصلين: أن تلزم نفسك المراقبة لله عز وجل ويكون العلم على ظاهرك قائماً. وقال أبو

حديث ابن عمر، ورواه أحمد أيضاً من حديث أبي عامر أو أبي مالك، ورواه البزار أيضاً من حديث أنس، وابن عساكر من حديث عبد الرحمٰن بن غنم.

(وقد قال تعالى ﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾) أي رقيب والخبر محذوف تقديره كمن ليس كذلك. **(وقال تعالى ﴿ألم يعلم بأن الله يرى﴾)** أي يطلع على أحوال عبده من هداه وضلاله. **(وقال تعالى ﴿إن الله كان عليكم رقيباً﴾)** أي مراقباً لأعمالكم **(وقال تعالى)** في وصف المؤمنين: **(﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم)** لما يؤتمنون عليه ويعاهدون من جهة الحق والخلق **(راعون﴾)** قائمون بحفظها وإصلاحها وقال تعالى: **(﴿والذين هم بشهاداتهم قائمون﴾)** أي محافظون. **(وقال)** عبدالله **(بن المبارك)** رحمه الله تعالى **(لرجل: راقب الله تعالى فسأله عن تفسيره)** أي ما معنى هذا القول؟ **(فقال: كن أبداً كأنك ترى الله عز وجل)** أي فإذا تحققت ذلك فقد راقبته. **(وقال عبد الواحد بن يزيد)** البصري رحمه الله تعالى: **(إذا كان سيدي رقيباً علي فلا أبالي بغيره)** يشير إلى قوله تعالى ﴿إن الله كان عليكم رقيباً﴾ [النساء: ١] **(وقال أبو عثمان)** سعيد بن سلام المغربي رحمه الله تعالى: **(أفضل ما يلزم الإنسان نفسه في هذه الطريقة)** العلية **(المحاسبة والمراقبة وسياسة عمله بالعلم)** بأن يزن ما هو فيه بالعلم الشرعي، هذا القول نقله القشيري سماعاً عن أبي عبد الرحمٰن السلمي قال: سمعت أبا عثمان المغربي يقول فذكره. **(وقال ابن عطاء)** هو أبو عبدالله أحمد بن عطاء الروذباري شيخ الشام في وقته مات بصور سنة ٣٦٩، ولفظ القشيري وسئل ابن عطاء ما **(أفضل الطاعات)**؟ فقال: **(مراقبة الحق)** تعالى **(على دوام الأوقات)** كما أشار إليه في الخبر السابق في الإحسان، فأفضل العبادات رؤية المعبود في وقت العبادة فإنه أبعد من الزلل، **(وقال)** أبو محمد أحمد بن محمد بن الحسين الجريري بضم الجيم من أكابر أصحاب الجنيد وأقعد بعده مكانه مات سنة ٣١١: **(أمرنا هذا مبني على أصلين)** وفي نسخ الرسالة فصلين: أحدهما **(أن تلزم نفسك المراقبة لله عز وجل)** في حركاتك وسكناتك، **(و)** الثاني أن **(يكون العلم على ظاهرك**

عثمان: قال لي أبو حفص، إذا جلست للناس فكن واعظاً لنفسك وقلبك ولا يغرنّك اجتماعهم عليك فإنهم يراقبون ظاهرك والله رقيب على باطنك.

وحكي أنه كان لبعض المشايخ من هذه الطائفة تلميذ شاب وكان يكرمه ويقدمه فقال له بعض أصحابه: كيف تكرم هذا وهو شاب ونحن شيوخ؟ فدعا بعدّة طيور وناول كل واحد منهم طائراً وسكيناً وقال: ليذبح كل واحد منكم طائره في موضع لا يراه أحد ودفع إلى الشاب مثل ذلك وقال له كما قال لهم، فرجع كل واحد بطائره مذبوحاً ورجع الشاب والطائر حي في يده، فقال: ما لك لم تذبح كما ذبح أصحابك؟ فقال: لم أجد موضعاً لا يراني فيه أحد إذ الله مطلع علي في كل مكان، فاستحسنوا منه هذه المراقبة وقالوا: حق لك أن تكرم.

قائماً) بأن تكون حركاتك وسكناتك موزونة بالشرع نقله القشيري سماعاً من محمد بن الحسين قال: سمعت أبا الحسين الفارسي يقول: سمعت الجريري يقول فذكره. **(وقال أبو عثمان)** الجيدي النيسابوري، **(قال لي أبو حفص)** عمرو بن مسلمة الجواد شيخ الجنيد. **(إذا جلست للناس)** أي لوعظهم **(فكن واعظاً لنفسك وقلبك)** لينتفعوا بوعظك، فإنه إذا صلحت نيتك في وعظ نفسك خرج الكلام من قلبك وله وقع في قلب السامع، **(ولا يغرنك اجتماعهم عليك)** أي حولك، **(فإنهم يراقبون ظاهرك والله رقيب على باطنك)** نقله القشيري سماعاً عن محمد بن الحسين قال: سمعت عبدالله الرازي يقول: سمعت أبا عثمان يقول، قال لي أبو حفص فذكره إلا أنه قال: والله رقيب على باطنك، وفي نسخة والله يراقب باطنك.

(وحكي أنه كان لبعض المشايخ من هذه الطائفة تلميذ شاب) وكان يخصه و **(يكرمه ويقدمه)** على جماعته ويقبل عليه أكثر مما يقبل على غيره **(فقال له بعض أصحابه: كيف تكرم هذا وهو شاب ونحن شيوخ)** فما السبب؟ فقال: أبين لكم ذلك **(فدعا بعدة طيور وناول كل واحد منهم طائراً)** الأولى طيراً **(وسكيناً وقال: ليذبح كل واحد منكم طائره في موضع لا يراه أحد ودفع إلى)** هذا **(الشاب مثل ذلك وقال له كما قال لهم، فرجع كل واحد بطائره مذبوحاً)** لأنه لم ير بمكان الذبح أحداً من بني آدم، **(ورجع الشاب والطائر حي في يده فقال)** له: **(مالك لم تذبح كما ذبح أصحابك؟ فقال)** أمرتني أن أذبحه حيث لا يراه أحد، وأنا **(لم أجد موضعاً لا يراني فيه أحد، إذ الله مطلع علي في كل مكان فاستحسنوا منه هذه المراقبة)** وقال الشيخ، لهذا أخصه باقبالي عليه، **(وقالوا)** له، **(حق لك أن تكرم)** ويقبل عليك. حكاه القشيري في الرسالة بمعناه، وفيه دلالة على أن المراقبة لله تعالى أفضل المقامات، وإن ارتفعت مقامات العابدين وقوي اجتهادهم فإنهم مشغولون بصلاح قلوبهم وأحوالهم، والمراقب لله قد غلب على قلبه نظره إليه في سائر تصرفاته، وكان الشيخ يعرف فضيلة هذا الشاب ورفعة مقامه

وحكي أنَّ زليخا لما خلت بيوسف عليه السلام قامت فغطت وجه صنم كان لها فقال يوسف: ما لك؟ أتستحيين من مراقبة جماد ولا أستحيي من مراقبة الملك الجبار!

وحكي عن بعض الأحداث أنه راود جارية عن نفسها فقالت له: ألا تستحيي فقال ممن؟ أستحيي وما يرانا إلا الكواكب؟ قالت: فأين مكوكبها؟ وقال رجل للجنيد: بمَ أستعين على غض البصر؟ فقال: بعلمك أن نظر الناظر إليك أسبق من نظرك إلى المنظور إليه. وقال الجنيد: إنما يتحقق بالمراقبة من يخاف على فوت حظه من ربه عز

عن بقية تلامذته فكان يقربه لذلك ويخصه بأسراره دونهم، فلما بلغه تغيرهم لذلك عرفهم بما أكد رفعة مقامه عليهم ثم علمه بعدم إمكان ما أمره به شيخه، يحتمل أن يكون خطر له وقت الأمر به لكنه اتبع أمر شيخه لإقامة الحجة على بقية التلامذة وأن يكون إنما خطر له ذلك بعد مضيه وتفتيشه.

(وحكي أن زليخا) امرأة العزيز **(لما خلت بيوسف عليه السلام قامت فغطت وجه صنم لها)** كانت تعبده **(فقال)** لها **(يوسف: مالك أتستحيين من مراقبة جماد ولا أستحي من مراقبة الملك الجبار)**؟ رواه أبو الشيخ وأبو نعيم في الحلية، عن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين قال: لما دخل يوسف عليه السلام عليها البيت وفي البيت صنم من ذهب قالت: كما أنت حتى أغطي الصنم فأنا أستحيي منه. فقال يوسف: هذه تستحي من الصنم فأنا أحق أن أستحيي من الله فكف عنها وتركها.

وروى أبو نعيم في الحلية عن علي رضي الله عنه في قوله: ولقد همت به وهم بها قال: طمعت فيه وطمع وكان فيها من الطمع إذ هم أن يحل التكة فقامت إلى صنم مكلل بالدر والياقوت في ناحية البيت فسترته بثوب أبيض بينها وبينه فقال: أي شيء تصنعين؟ فقالت: أستحيي من إلهي أن يراني على هذه السوأة. فقال يوسف: تستحيي من صنم لا يأكل ولا يشرب وأنا لا أستحيي من إلهي الذي هو قائم على كل نفس بما كسبت، ثم قال: لا تنالينها مني أبداً وهو البرهان الذي رأى.

(وحكي عن بعض الأحداث أنه راود جارية عن نفسها فقالت له: ألا تستحيي؟ فقال: ممن أستحيي وما يرانا إلا الكواكب. قالت: فأين مكوكبها) أي رب الكواكب؟ رواه البيهقي في الشعب عن الأصمعي قال: حدثني رجل من الأعراب قال: خرجت ليلة فإذا أنا بجارية تستقي ماء فراودتها عن نفسها فقالت: ويلك إن لم يكن لك زاجر من دين أما لك زاجر من كرم؟ فقلت لها: مالك لا يرانا إلا الكواكب. قالت: وأين مكوكبها؟

(وقال رجل للجنيد) رحمه الله تعالى: **(بم أستعين به على غض البصر؟ فقال: بعلمك أن نظر الناظر إليك أسبق من نظرك إلى المنظور إليه وقال الجنيد)** أيضاً: **(إنما يتحقق بالمراقبة من يخاف على فوت حظه من الله عز وجل)** ولفظ الرسالة: من تحقق في المراقبة خاف

وجل. وعن مالك بن دينار قال: جنات عدن من جنات الفردوس وفيها حور خلقن من ورد الجنة، قيل له: ومن يسكنها؟ قال: يقول الله عز وجل يسكن جنات عدن الذين إذا هموا بالمعاصي ذكروا عظمتي فراقبوني، والذين انثنت أصلابهم من خشيتي، وعزتي وجلالي إني لأهم بعذاب أهل الأرض، فإذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش من مخافتي صرفت عنهم العذاب. وسئل المحاسبي عن المراقبة فقال: أولها علم القلب بقرب الرب تعالى. وقال المرتعش: المراقبة مراعاة السر بملاحظة الغيب مع كل لحظة ولفظة. ويروى أن الله تعالى قال لملائكته: أنتم موكلون بالظاهر وأنا الرقيب على الباطن. وقال محمد بن

على فوت حظه من ربه لا غير اهـ. وذلك لأن المراقبة على درجات فقد يراقب العبد أحكام ربه ليسلم من العقاب، وقد يراقبها لزيادة الثواب، وقد يراقبها ليرتفع عنه الحجاب، وقد يراقبها ليكون من الأحباب، فإذا وصل إلى هذا الحال الشريف راقب ربه وأدام نظره لما يتفضل به عليه ليسلم من الغفلات التي يفوت بسببها حظه من مولاه، فمراقبته بهذا التقدير خوفاً من فوات حظه من أفضل المراقبات.

(وقال مالك بن دينار) أبو يحيي البصري رحمه الله تعالى: **(جنات عدن من جنات الفردوس وفيها حور خلقن من ورد الجنة. قيل له: ومن يسكنها؟ قال: يقول الله عز وجل: إنما يسكن جنات عدن الذين إذا هموا بالمعاصي ذكروا عظمتي فراقبوني)** فتركوها، **(والذين انثنت أصلابهم من خشيتي وعزتي وجلالي إني لأهم بعذاب الارض فإذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش من مخافتي صرفت عنهم العذاب)** روى البيهقي من حديث أنس: يقول الله تعالى إني لأهم بأهل الأرض عذاباً فإذا نظرت إلى عمار بيوتي المحتاجين في، وإلى المستغفرين بالأسحار صرفت عنهم.

(وسئل) أبو عبدالله الحرث بن أسد **(المحاسبي)** البصري رحمه الله تعالى **(عن المراقبة فقال: أولها علم القلب بقرب الرب تعالى)** أي فإذا تم له ذلك خلص سره لله تعالى. **(وقال)** أبو محمد عبدالله بن محمد **(المرتعش)** النيسابوري من أصحاب الجنيد مات ببغداد سنة ٣٢٨: **(المراقبة مراعاة السر لملاحظة الغيب)** فيما يرد عليك منه **(مع كل لحظة ولفظة)** حكاه القشيري عن محمد بن الحسين سماعاً قال: سمعت أبا القاسم البغدادي يقول: سمعت المرتعش يقول فذكره

(ويروى) في بعض الأخبار **(أن الله تعالى قال لملائكته: أنتم موكلون بالظاهر وأنا الرقيب بالباطن)** أي العليم بسره من غير غفلة، ومن ذلك قول أبي حفص لأبي عثمان: فإنهم يراقبون ظاهرك والله رقيب على باطنك وتقدم قريباً. **(وقال)** أبو عبدالله **(محمد بن علي)** بن الحسن بن بشر الحكيم **(الترمذي)** رحمه الله تعالى من كبار الشيوخ وله تصانيف في علوم القوم، صحب أبا تراب النخشبي وأحمد بن خضرويه وابن الجلاء وغيرهم وهو صاحب نوادر الأصول:

علي الترمذي: اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عن نظره إليك، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك، واجعل طاعتك لمن لا تستغني عنه، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه، وقال سهل: لم يتزين القلب بشيء أفضل ولا أشرف من علم العبد بأن الله شاهده حيث كان. وسئل بعضهم عن قوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: ٨] فقال: معناه ذلك لمن راقب ربه عز وجل وحاسب نفسه وتزوّد لمعاده. وسئل ذو النون: بِمَ ينال العبد الجنة فقال بخمس: استقامة ليس فيها روغان، واجتهاد ليس معه سهو، ومراقبة الله تعالى في السر والعلانية، وانتظار الموت بالتأهب له، ومحاسبة نفسك قبل أن تحاسب وقد قيل:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل عليّ رقيبُ
ولا تحسبنّ الله يغفل ساعة ولا أن ما تخفيه عنه يغيبُ
ألم ترَ أن اليومَ أسرع ذاهب وإن غداً للناظرين قريبُ

وقال حميد الطويل لسليمان بن علي: عظني فقال لئن كنت إذا عصيت الله خالياً

(اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عن نظره إليك، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك، واجعل طاعتك لمن لا تستغني عنه، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه) هكذا ذكره في النوادر. (وقال) أبو محمد (سهل) التستري رحمه الله تعالى: (لم يتزين القلب بشيء أفضل ولا أشرف من علم العبد بأن الله شاهده حيث كان) وهذا لأنه أصل كل خير، فإذا استدام ذلك صارت مراقبة. (وسئل بعضهم عن قوله تعالى ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه﴾ فقال: معناه ذلك) أي الرضوان (لمن راقب ربه عز وجل) في أحواله (وحاسب نفسه وتزود لمعاده)، ففسر الخشية بالمراقبة والمحاسبة ولذلك جاء في الخبر «كفى بالخشية علماً». (وسئل ذو النون المصري) رحمه الله تعالى: (بم ينال العبد الجنة؟ فقال: بخمس) خصال (استقامة) في الطاعات (ليس فيها روغان، واجتهاد) في المعاملة السرية (ليس معه سهو) ولا غفلة، (ومراقبة الله في السر والعلانية، وانتظار الموت بالتأهب له) بالأعمال الصالحة فكان قد، (ومحاسبة نفسك) بما عملته من خير أو شر (قبل أن تحاسب، وقد قيل) في معنى ذلك:

(إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل علي رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما تخفيه عنه يغيب
ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب وإن غدا للناظرين قريب)

وكان الإمام الشافعي ينشد هذه الأبيات كثيراً فقيل: إنها له وقيل لغيره. (وقال حميد) بن أبي حميد يترويه (الطويل) أبو عبيدة البصري التابعي اختلف في اسم أبيه على عشرة أقوال

ظننت أنه يراك لقد اجترأت على أمر عظيم ولئن كنت تظن أنه لا يراك فلقد كفرت. وقال سفيان الثوري: عليك بالمراقبة ممن لا تخفى عليه خافية، وعليك بالرجاء ممن يملك الوفاء، وعليك بالحذر ممن يملك العقوبة. وقال فرقد السبخي: إن المنافق ينظر فإذا لم يرَ أحداً دخل مدخل السوء وإنما يراقب الناس ولا يراقب الله تعالى. وقال عبدالله بن دينار: خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى مكة فعرسنا في بعض الطريق فانحدر عليه راع من الجبل فقال له: يا راعي بعني شاة من هذه الغنم، فقال: إني مملوك فقال: قل لسيدك أكلها الذئب. قال: فأين الله؟ قال: فبكى عمر رضي الله عنه ثم غدا إلى المملوك فاشتراه من مولاه وأعتقه وقال: أعتقتك في الدنيا هذه الكلمة وأرجو أن تعتقك في الآخرة.

أشهرها ما ذكرت ثقة، روى له الجماعة وفي التهذيب قال البخاري، قال الأصمعي: رأيت حميداً ولم يكن طويلاً، وقال غيره: إنما كان طوله في يديه، مات سنة ثلاث وأربعين ومائة وهو قائم يصلي وله خمس وسبعون سنة: **(لسليمان بن علي)** بن عبدالله بن عباس أحد الأشراف وعم الخليفتين السفاح والمنصور، وروى له النسائي وابن ماجه، مات سنة اثنتين وأربعين ومائة وله تسع وخمسون سنة **(عظني. فقال: لئن كنت إذا عصيت الله خالياً)** عن الناس **(ظننت أنه يراك لقد اجترأت على أمر عظيم)** فإنك بارزته بالمعصية مع علمك باطلاعه عليك، **(ولئن كنت تظن أنه لا يراك فلقد كفرت)** إذ قد أنكرت إحاطة علمه. **(وقال سفيان الثوري)** رحمه الله تعالى: **(عليك بالمراقبة ممن لا تخفى عليه خافية، وعليك بالرجاء ممن يملك الوفاء، وعليك بالحذر)** أي الخوف **(ممن يملك العقوبة)** أخرجه أبو نعيم في الحلية. **(وقال فرقد)** بن يعقوب **(السبخي)** بفتح المهملة والموحدة وبخاء معجمة أبو يعقوب البصري صدوق عابد لين الحديث، روى له الترمذي وابن ماجه، مات سنة إحدى وثلاثين ومائة: **(إن المنافق ينظر فإذا لم ير أحداً دخل مدخل السوء، وإنما يراقب الناس ولا يراقب الله تعالى. وقال)** أبو عبد الرحمن **(عبدالله بن دينار)** العدوي مولى ابن عمر، مات سنة سبع وعشرين ومائة، روى له الجماعة: **(خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى مكة فعرسنا في بعض الطريق فانحدر عليه راع من الجبل)** معه غنمه **(فقال له: يا راعي بعني شاة من هذه)** الثلة يحتمل أنه ظن ملكه لبعض الغنم، أو أنه لما رأى حسن رعايته لها في الظاهر فأراد أن يختبر باطنه هل ذلك عن دين أو عادة **(فقال: إني مملوك)** وهذه الغنم ليست ملكاً لي إنما أنا أرعاها. **(فقال: قل لسيدك)** إذا سألك عنها **(أكلها الذئب)** وهذا يؤكد الاحتمال الثاني أنه اختبار، **(قال: فأين الله)** فإنه يعلم ذلك ويؤاخذني به، **(قال)** الراوي: **(فبكى عمر رضي الله عنه)** من سماع هذا الكلام **(ثم غدا إلى المملوك فاشتراه من مولاه وأعتقه وقال: أعتقتك في الدنيا هذه الكلمة، وأرجو أن تعتقك في الآخرة)**. والذي في الرسالة للقشيري، وقيل: كان ابن عمر في

....

سفر فراى غلاماً يرعى غنماً فقال: تبيع من هذه الغنم واحدة؟ فقال: إنها ليست لي، فقال: قل لصاحبها إن الذئب أخذ منها واحدة. فقال العبد: فأين الله؟ فكان ابن عمر يقول بعد ذلك إلى مدة قال ذلك العبد: فأين الله؟ اهـ.

قال الشارح: لأنه لما علم بذلك دينه ومراقبته لله أعجبه حاله وصار عبرة له يتذكر به زماناً. قال: وروي أنـه سأل عن رب الغنم فاشتراه والغنم وأعتقه ووهبها له.

قلت: والنفس تميل إلى أن هذه القصة وقعت لابن عمر وشاهده رواية ابن دينار عنه وهو مولاه وملازمه في أسفاره، وقد روي أيضاً عن نافع وفيه التصريح بأن الواقعة لابن عمر.

قال ابن شاذان: أخبرنا أبو بكر محمد بن جعفر الأودي، أخبرنا أحمد بن عبيد بن ناصح النحوي، حدثنا محمد بن يزيد، حدثنا عبد العزيز قال: قال نافع: خرجت مع ابن عمر في بعض نواحي المدينة ومعه أصحاب له فوضعوا لهم فمر بهم راع فقال له عبدالله: هلم يا راعي فأصب من هذه السفرة. فقال: إني صائم، فقال له عبدالله في مثل هذا اليوم الشديد حره وأنت في هذه الشعاب في مثار هذه الغنم بين الجبال ترعى هذه الغنم وأنت صائم؟ فقال الراعي: أبادر لأيامي الخاليـة فعجب ابن عمر وقال: هل لك أن تبيعنا شاة من غنمك نجتزرها ونطعمك من لحمها ما تفطر عليه ونعطيك ثمنها؟ قال: إنها ليست لي إنها لمولاي. قال: فما عسيت أن يقول لك مولاك إن قلت أكلها الذئب؟ فمضى الراعي وهو رافع أصبعيه إلى السماء وهو يقول فأين الله؟ فما عدا أن قـدم قدم المدينة فبعث إلى سيده فاشترى منه الراعي والغنم فأعتق الراعي ووهب له الغنم.

ومما ذكر القشيري في هذا الباب من الرسالة، سمعت أبا عبد الرحمٰن السلمي يقول: سمعت أبا بكر الرازي يقول: سمعت الجريري يقول: من لم يحكم بينه وبين الله تعالى التقوى والمراقبة لم يصل إلى الكشف والمشاهدة. سمعت أبا علي الدقاق يقول: كان لبعض الأمراء وزير فكان بين يديه يوماً فالتفت إلى بعض الغلمان الذين كانوا وقوفاً لا لريبة ولكن لحركـة أو صوت أحس منهم، فاتفق ان ذلك الأمير نظر إلى هذا الوزير في تلك الحالة فخاف الوزير أن يتوهم الأمير أنه نظر إليهم لريبة فجعل ينظر إليه كذلك، فبعد ذلك اليوم كان هذا الوزير يدخل على الأمير أبداً وهو ينظر إلى جانبه حتى توهم الأمير أن ذلك خلقه وحول فيه؛ فهذا مراقبة مخلوق لمخلوق فكيف مراقبة العبد لسيده؟

سمعت بعض الفقراء يقول: كان أمير له غلام يقبل عليه أكثر مراقباً له على غيره من غلمانه ولم يكن أكثرهم قيمة ولا أحسنهم صورة، فقالوا له في ذلـك فـأراد الأمير أن يبين لهم فضـل الغلام في الخدمة على غيره، فيوماً من الأيام كان راكباً ومعه الحشم وبالبعد منهم جبل عليه ثلج، فنظر الأمير إلى ذلك الثلج وأطرق فركض الغلام فرسه ولم يعلم القوم لماذا ركض، فلم يلبث إلا يسيراً حتى جاء ومعه شيء من الثلج فقال الأمير: ما أدراك أني أردت الثلج؟ فقال الغلام: لأنك نظرت

بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها:

اعلم أن حقيقة المراقبة هي ملاحظة الرقيب وانصراف الهم إليه فمن احترز من أمر من الأمور بسبب غيره يقال إنه يراقب فلاناً ويراعي جانبه، ويعني بهذه المراقبة حالة القلب يثمرها نوع من المعرفة، تثمر تلك الحالة أعمالاً في الجوارح وفي القلب. أما الحالة فهي مراعاة القلب للرقيب واشتغاله به والتفاته إليه وملاحظته إياه وانصرافه إليه. وأما

إليه ونظر السلطان إلى شيء لا يكون عن غير قصد، فقال الأمير: إنما أخصه بإكرامي وإقبالي عليه لأن لكل أحد شغلاً وشغله مراعاة لحظاتي ومراقبة أحوالي.

وقال بعضهم: من راقب الله في خواطره عصمه الله في جوارحه. وسئل أبو الحسين بن هند متى يهش الراعي غنمه بعصا الرعاية من مواقع الهلكة؟ فقال: إذا علم أن عليه رقيباً. وقال ذو النون: علامة المراقبة إيثار ما آثر الله وتعظيم ما عظم الله وتصغير ما صغر الله. وقال النصراباذي: الرجاء يحرك إلى الطاعات، والخوف يبعدك عن المعاصي، والمراقبة تؤديك إلى صرف الحقائق.

سمعت محمد بن الحسين يقول: سمعت أبا العباس البغدادي يقول: سألت جعفر بن نصير عن المراقبة فقال: مراعاة السر لملاحظة الغيب في كل خطرة.

وقال إبراهيم الخواص: المراعاة تورث المراقبة والمراقبة خلوص السر والعلانية لله سمعته يقول: سمعت محمد بن عبدالله يقول: سمعت أبا جعفر الصيدلاني يقول: سمعت أبا سعيد الخراز يقول، قال لي بعض مشايخي: عليك بمراعاة سرك والمراقبة. قال: بينا أنا أسير في البادية أذا أنا بخشخشة خلفي فهالني ذلك وأردت أن ألتفت فلم ألتفت، فرأيت شاباً واقفاً على كتفي فانصرف وأنا مراع لسري، ثم التفت فإذا أنا بسبع عظيم. وقال الواسطي: أفضل الطاعات حفظ الأوقات، وهو أن لا يطالع العبد غير حده، ولا يراقب غير ربه، ولا يقارن غير وقته، والله أعلم.

بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها:

(**اعلم**) وفقك الله تعالى (**أن**) المراقبة مفاعلة فلا بد من التراقب من الجانبين، فعلى هذا لا بد للمراقب أن يكون مراقباً لاطلاعه على إطلاع الحق سبحانه على حاله ويداوم على ذلك، أو يكون مراقباً لاطلاعه على موجده بلا فتور وتشتت الخاطر وهي أفضل من الحياء، لأن الحياء يتولد عن معرفة عيوب النفس، والمراقبة لا تفتقر إلى ذلك، وعلى هذا (**حقيقة المراقبة هي ملاحظة الرقيب وانصراف الهم إليه، فمن احترز من أمر من الأمور بسبب غيره**) حتى لا يغفل عنه ويلاحظه ملاحظة تامة لازمة دائمة لزوماً لو عرفه الممنوع عنه لما قدم عليه. (**يقال: إنه يراقب فلاناً ويراعي جانبه**) فكأنه يرجع إلى العلم والحفظ. (**ويعني بهذه المراقبة حالة للقلب يثمرها نوع من المعرفة وتثمر تلك الحالة أعمالاً في الجوارح وفي القلب.**).

(**أما الحالة، فهي مراعاة القلب للرقيب**) في كل خطرة (**واشتغاله به والتفاته إليه**

المعرفة التي تثمر هذه الحالة فهو العلم بأن الله مطلع على الضمائر عالم بالسرائر رقيب على أعمال العباد قائم على كل نفس بما كسبت، وأن سر القلب في حقه مكشوف كما أن ظاهر البشرة للخلق مكشوف بل أشدّ من ذلك. فهذه المعرفة إذا صارت يقيناً أعني انها خلت عن الشك، ثم استولت بعد ذلك على القلب وقهرته؛ فرب علم لا شك فيه لا يغلب على القلب كالعلم بالموت، فإذا استولت على القلب استجرت القلب إلى مراعاة جانب الرقيب وصرفت همه إليه، والموقنون بهذه المعرفة هم المقربون، وهم ينقسمون إلى الصدّيقين وإلى أصحاب اليمين فمراقبتهم على درجتين:

الدرجة الأولى: مراقبة المقربين من الصدّيقين؛ وهي مراقبة التعظيم والإجلال، وهو أن يصير القلب مستغرقاً بملاحظة ذلك الجلال ومنكسراً تحت الهيبة فلا يبقى فيه متسع

وملاحظته إياه وانصرافه إليه)، وإليه يشير كلام جعفر بن نصير في المراقبة الذي تقدم قريباً إذ قال: هي مراعاة السر لملاحظة الغيب في كل خطرة، وكلام الخواص، المراعاة تورث المراقبة، وكان هذا أول درجات المراقبة، ثم إن المراقبة كغيرها من المقامات تنتظم من علم وحال وعمل وقد أشار المصنف إلى العلم بقوله:

(**وأما المعرفة التي تثمر هذه الحال فهو العلم**) بصفات الألوهية المحدقة بالوجود كله بكل جزء منه على انفراده كعلمه وبصره وسمعه والإيمان بها، و (**بأن الله مطلع على الضمائر عالم بالسرائر رقيب على أعمال العباد قائم على كل نفس بما كسبت، وأن سر القلب في حقه مكشوف، كما أن ظاهر البشرة للخلق مكشوف بل أشد من ذلك**) وأقوى، وإليه يشير كلام أبي الحسين بن هند الذي تقدم، والإيمان بهذه الصفات واجب وهو من الإيمان بالله، (**فهذه المعرفة إذا**) تقوت (**صارت يقيناً أعني أنها خلت عن**) أن يمازجه (**الشك**) والريب، (**ثم استولت بعد ذلك على القلب**) الصنوبري (**وقهرته**) أي ملكته ملكاً تاماً لم تبق فيه منازعة لخاطر، وحصول هذا المعنى بعد اليقين شرط، (**فرب علم لا يشك فيه لا يغلب على القلب**) ولا يستوليه (**كالعلم بالموت**) فإنه يقيني إلا أنه لا يقهر بعض القلوب، (**فإذا استولت على القلب استجرت القلب إلى مراعاة جانب الرقيب وصرفت همه إليه**) بالكلية وتحقق بمقام الإحسان المشار إليه في الخبر، (**والموقنون بهذه المعرفة هم المقربون**) في الحضرة الإلهية (**وهم ينقسمون إلى الصديقين وإلى أصحاب اليمين، فمراقبتهم**) أي المقربين (**على درجتين**)

(**الدرجة الأولى: مراقبة المقربين من الصديقين وهي**) لها بداية ونهاية، فثمرة بدايتها رعاية الخواطر وكشف ما التبس منها والأدب مع الله بحرمة مراقبة الله، ونهاية هذه الدرجة (**مراقبة التعظيم والإجلال**) والهيبة، (**وهو أن يصير القلب مستغرقاً بملاحظة ذلك الجلال**

للالتفات إلى الغير أصلاً وهذه مراقبة لا نطوّل النظر في تفصيل أعمالها فإنها مقصورة على القلب. أما الجوارح فإنها تتعطل عن التلفت إلى المباحات فضلاً عن المحظورات، وإذا تحركت بالطاعات كانت كالمستعملة بها فلا تحتاج إلى تدبير وتثبيت في حفظها على سنن السداد، بل يسدد الرعية من ملك كلية الراعي، والقلب هو الراعي، فإذا صار مستغرقاً بالمعبود صارت الجوارح مستعملة جارية على السداد والاستقامة من غير تكلف، وهذا هو الذي صار همه هماً واحداً فكفاه الله سائر الهموم. ومن نال هذه الدرجة فقد يغفل عن الخلق حتى لا يبصر من يحضر عنده وهو فاتح عينيه، ولا يسمع ما يقال له مع

ومنكسراً تحت الهيبة) بدخول الأعضاء بعضها في بعض، **(فلا يبقى فيه متسع للالتفات إلى الغير أصلاً)**، وهذه الحالة مرادة لذاتها لأنها حالة لا تسع العمل، فإن الخواطر والجوارح بنية تابعة الروح المأخوذة بالمشاهدة والأحوال لها والأدب عند سكون هذه الحالة رؤية العالم على أتم أنواع الاتقان والإعلام والرضا بمجاري الأقدار وسلب الاختيار لما عاين من جلال الله ورؤية الشريعة بعين الوقار وكمال النظام، لأنه رأى ثمرتها وبركتها. وقيل: السكون أن لا يكون للعقل فراغ لشيء من هذه الآداب وأقل إدراك العقل في هذه أن يرى الحق حقاً والباطل باطلاً بعلم ضروري لا يفتقر فيه إلى إقامة برهان، **(وهذه مراقبة لا نطول النظر في تفصيل أعمالها فإنها مقصورة على القلب)**، فمن جملتها المراقبة المنسوبة إلى الطائفة النقشبندية قدس الله أسرارهم قالوا: هي ملاحظة المعنى المقدس من الجلالة وفهمه وحفظه في الخيال، ثم التوجة به إلى القلب بجميع القوى والمدارك والمداومة عليه، حتى تذهب الكلفة من البين ويصير ملكة، فإن عسر ذلك فليتخيله بصورة نور بسيط محيط بجميع الموجودات العلمية والعينية وليجعله في مقابلة البصيرة، ثم يتوجه به إلى القلب بالوجه المذكور إلى أن تقوى البصيرة وتذهب الصورة ويترتب عليه ظهور المعنى المقصود. قالوا: وهي أعلى من طريق النفي والإثبات وأقرب للجذبة الإلهية عن غيرها كما سيأتي بيانه.

(أما الجوارح: فإنها تتعطل عن التلفت إلى المباحات فضلاً عن المحظورات، فإذا تحركت بالطاعات كانت كالمستعملة بها فلا تحتاج إلى تدبير وتثبيت في حفظها على سنن السداد بل يسدد الرعية من ملك كلية الراعي والقلب هو الراعي) كما ورد في تأويل الخبر «اللهم أصلح الراعي والرعية» أي القلب والجوارح كما تقدم، **(فإذا صار مستغرقاً بالمعبود صارت الجوارح مستعملة جارية على السداد والاستقامة من غير تكلف، وهذا هو الذي)** صار همه هماً واحداً **(فكفاه الله سائر الهموم)** كما روى ابن ماجه من حديث ابن مسعود «من جعل الهموم هماً واحداً هم المعاد كفاه الله سائر همومه» الحديث. وتقدم، وروى هناد في الزهد عن سليمان بن حبيب المحاربي مرسلاً «من كان همه هماً واحداً كفاه الله همه» الحديث. **(ومن نال هذه الدرجة فقد يغفل عن الخلق)** رأساً **(حتى لا يبصر من يحضر عنده وهو فاتح**

أنه لا صمم به وقد يمرّ على ابنه مثلاً فلا يكلمه، حتى كان بعضهم يجري عليه ذلك فقال لمن عاتبه: إذا مررت بي فحركني. ولا تستبعد هذا فإنك تجد نظير هذا في القلوب المعظمة لملوك الأرض، حتى أن خدم الملك قد لا يحسون بما يجري عليهم في مجالس الملوك لشدّة استغراقهم بهم، بل قد يشتغل القلب بمهم حقير من مهمات الدنيا فيغوص الرجل في الفكر فيه ويمشي فربما يجاوز الموضع الذي قصده وينسى الشغل الذي نهض له. وقد قيل لعبد الواحد بن زيد: هل تعرف في زمانك هذا رجلاً قد اشتغل بحاله عن الخلق؟ فقال: ما أعرف إلا رجلاً سيدخل عليكم الساعة؛ فما كان إلا سريعاً حتى دخل عتبة الغلام، فقال له عبد الواحد بن زيد: من أين جئت يا عتبة؟ فقال من موضع كذا وكان طريقه على السوق. فقال: من لقيت في الطريق؟ فقال: ما رأيت أحداً. ويروى

عينيه ولا يسمع ما يقال له مع أنه لا صمم به وقد يمر على ابنه مثلاً فلا يكلمه) ولا يحس به، **(حتى كان بعضهم يجري عليه ذلك)** فيعاتبه بعضهم **(فقال لمن عاتبه: إذا مررت بي فحركني)** حتى أحس بك. ومنهم من كان إذا دخل عليه أصحابه يسألهم عن أسمائهم كلما دخلوا عليه. قال القشيري: سمعت أبا نصر المؤذن بنيسابور قال: كنت مختصاً بمجلس الأستاذ أبي علي الدقاق أقرأ فيه القرآن فاتفق خروجه إلى الحج وخرجت معه، فلما كنا بالبيضاء طلب قمقمة فأحضرتها إليه فقال: جزاك الله خيراً ثم نظر إلي طويلاً كأنه لم يرني قط وقال: رأيتك مرة من أنت؟ فقلت: المستعان بالله صحبتك مدة وخرجت من مسكني ومالي نسيتني الساعة تقول رأيتك مرة.

(ولا تستبعد هذا فإنك تجد نظير هذا في القلوب المعظمة لملوك الأرض حتى أن خدم الملك قد لا يحسون بما يجري عليه في مجالس الملوك لشدة استغراقهم بهم) وانصراف هممهم إليهم، **(بل يشتغل القلب بمهم حقير من مهمات الدنيا فيغوص الرجل في الفكر فيه ويمشي)** ولم يزل في ذلك الفكر، **(فربما يجاوز الموضع الذي قصده وينسى الشغل الذي نهض له)** فيتعجب من حاله ويرجع. **(وقيل لعبد الواحد بن زيد البصري العابد)** رحمه الله تعالى: **(هل تعرف في زمانك هذا رجلاً قد اشتغل بحاله عن الخلق؟ فقال: ما أعرف)** بهذا الوصف **(إلا رجلاً سيدخل)** عليكم **(الساعة فما كان سريعاً حتى دخل عتبة)** بن أبان بن تغلب **(الغلام)** رحمه الله تعالى، **(فقال له عبد الواحد بن زيد: من أين جئت يا عتبة؟ فقال: من موضع كذا وكان طريقه على السوق. فقال: من لقيت في الطريق؟ فقال: ما رأيت أحداً)** رواه أبو نعيم في الحلية قال: حدثنا عبدالله بن محمد، حدثنا أحمد بن الحسين، حدثنا أحمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن، حدثني مضر قال: قال رجل لعبد الواحد بن زيد: يا أبا عبيدة تعلم أحداً يمشي في الطريق مشتغلاً بنفسه لا يعرف أحداً يقول من اشتغاله. قال: ما أعرف أحداً

عن يحيى بن زكريا عليهما السلام: أنه مرّ بامرأة فدفعها فسقطت على وجهها فقيل له: لِمَ فعلت هذا؟ فقال: ما ظننتها إلا جداراً. وحكي عن بعضهم أنه قال مررت بجماعة يترامون وواحد جالس بعيداً منهم فتقدّمت إليه فأردت أن أكلمه فقال: ذكر الله تعالى أشهى! فقلت: أنت وحدك؟ فقال: معي ربي وملكاي؛ فقلت من سبق من هؤلاء؟ فقال من غفر الله له، فقلت: أين الطريق؟ فأشار نحو السماء وقام ومشى وقال: أكثر خلقك شاغل عنك. فهذا كلام مستغرق بمشاهدة الله تعالى لا يتكلم إليه منه ولا يسمع إلا فيه. فهذا لا يحتاج إلى مراقبة لسانه وجوارحه فإنها لا تتحرّك إلا بما هو فيه. ودخل الشبلي على أبي الحسين النوري وهو معتكف فوجده ساكناً حسن الاجتماع لا يتحرّك من ظاهره شيء فقال له: من أين أخذت هذه المراقبة والسكون؟ فقال: من سنور كانت لنا، فكانت إذا أرادت الصيد رابطت رأس الحجر لا تتحرّك لها شعرة. وقال أبو عبدالله بن خفيف: خرجت من مصر أريد الرملة للقاء أبي علي الروذباري فقال

إلا رجلاً واحداً الساعة يدخل عليكم، فبينما هو كذلك إذ دخل عليه عتبة قال: وطريقه على السوق. قال: فقال له يا عتبة من رأيت ومن تلقاك في الطريق؟ قال: ما رأيت أحداً.

(ويروى عن يحيى بن زكريا عليهما السلام أنه مر بامرأة فدفعها فسقطت على وجهها، فقيل له: لم فعلت هذا؟ فقال: ماظننتها إلا جداراً) وهذا لشدة استغراقه بالله لم يميز بين المرأة والجدار لا لكونه حصوراً.

(وحكي عن بعضهم قال: مررت بجماعة يترامون) بالسهام ويتسابقون فيها (وواحد جالس بعيداً منهم، فتقدمت إليه فأردت أن أكلمه، فقال: ذكر الله أشهى. فقلت: أنت وحدك) هنا؟ (فقال: معي ربي وملكاي، فقلت: من سبق من هؤلاء؟ فقال: من غفر الله له فقلت أين الطريق فأشار نحو السماء وقام ومشى. وقال: أكثر خلقك لاه شاغل عنك، فهذا كلام مستغرق بمشاهدة الله تعالى لا يتكلم إلا منه ولا يسمع إلا فيه؛ فهذا لا يحتاج إلى مراقبة لسانه وجوارحه فإنها لا تتحرك إلا بما هو فيه. ودخل) أبو بكر (الشبلي) قدس سره (على أبي الحسين) أحمد بن محمد (النوري) الواعظ رحمه الله تعالى (وهو معتكف فوجده ساكناً حسن الاجتماع لا يتحرك من ظاهره شيء) وهذا هو هيئة المراقب (فقال له) الشبلي: (من أين أخذت هذه المراقبة والسكون؟ فقال: من سنور) وهي الهرة (كانت لنا إذا أرادت الصيد رابطت رأس الحجر) وراقبت عليه (لا تتحرك لها شعرة)؛ فهذه الحكاية هي كيفية الاستعداد بأن يعلم القرب بقرب الرب ويجلس مطرقاً ساكن الظاهر والباطن مع الرياضات والتهذيب تولد منه تعظيم وإجلال، وكلما زادت المعرفة زاد الإجلال والتعظيم.

(وقال أبو عبدالله) محمد (بن خفيف) الشيرازي شيخ الشيوخ وواحد وقته صحبه رويم

لي عيسى بن يونس المصري المعروف بالزاهد: إن في صور شاباً وكهلاً قد اجتمعا على حال المراقبة؛ فلو نظرت إليهما نظرة لعلك تستفيد منهما؛ فدخلت صوراً وأنا جائع عطشان وفي وسطي خرقة وليس على كتفي شيء، فدخلت المسجد فإذا بشخصين قاعدين مستقبلي القبلة فسلمت عليهما فما أجاباني فسلمت ثانية وثالثة فلم أسمع الجواب، فقلت: نشدتكما بالله ألا رددتما عليّ السلام فرفع الشاب رأسه من مرقعته فنظر إليّ وقال: يا ابن خفيف الدنيا قليل وما بقي من القليل إلا القليل فخذ من القليل الكثير، يا ابن خفيف ما أقل شغلك حتى تتفرّغ إلى لقائنا؛ قال: فأخذ بكليتي ثم طأطأ رأسه في المكان فبقيت عندهما حتى صلينا الظهر والعصر فذهب جوعي وعطشي وعنائي، فلما كان وقت العصر قلت: عظني؛ فرفع رأسه إليَّ وقال: يا ابن خفيف نحن أصحاب المصائب ليس لنا لسان العظة، فبقيت عندهما ثلاثة أيام لا آكل ولا أشرب ولا أنام ولا رأيتهما أكلا شيئاً ولا شربا، فلما كان اليوم الثالث قلت في سري: أحلفهما أن يعظاني لعلي أنتفع بعظتهما، فرفع الشاب رأسه إلي وقال: يا ابن خفيف عليك بصحبة من

والجريري وابن عطاء وغيرهم مات سنة ٣٧١: **(خرجت من مصر أريد الرملة)** قاعدة فلسطين **(للقاء أبي علي)** أحمد بن محمد **(الروذباري)** رحمه الله تعالى أقام بمصر ومات بها سنة ٣٢٢، صحب الجنيد والنوري وابن الجلاء وغيرهم، وكان من أظرف المشايخ وأعلمهم بالطريقة **(فقال لي عيسى بن يونس المصري المعروف بالزاهد: إن في صور)** ثغر من ثغور الشام **(شاباً وكهلاً قد اجتمعا على حال المراقبة، فلو نظرت إليهما نظرة لعلك تستفيد منهما)**، فسافرت في البحر **(فدخلت صوراً وأنا جائع عطشان وفي وسطي خرقة وليس على كتفي شيء، فدخلت المسجد فإذا بشخصين قاعدين مستقبلي القبلة فسلمت عليهما فما أجاباني، فقلت: لعلهما لم يسمعاني، فسلمت ثانية وثالثة فلم أسمع الجواب، فقلت: نشدتكما بالله ألا رددتما علي السلام، فرفع الشاب رأسه من رقعته فنظر إلي وقال: يا ابن خفيف الدنيا قليل)** أي في نفسها بالإضافة إلى الآخرة **(وما بقي من القليل إلا القليل فخذ من القليل الكثير. يا ابن خفيف ما أقل شغلك حتى تتفرغ إلى لقائنا. فأخذ بكليتي)** أي مجامعي **(ثم طأطأ رأسه في المكان)** أي عاد للمراقبة من حينه، **(فبقيت عندهما حتى صلينا الظهر والعصر فذهب جوعي وعطشي وعنائي، فلما كان وقت العصر قلت: عظني فرفع رأسه إلي وقال: يا ابن خفيف نحن أصحاب المصائب ليس لنا لسان العظة فبقيت عندهما ثلاثة أيام لا آكل ولا أشرب ولا أنام ولا رأيتهما أكلا شيئاً ولا شربا. ولما كان في اليوم الثالث قلت في سري: أحلفهما أن يعظاني لعلي أنتفع بعظتهما، فرفع الشاب رأسه وقال لي: يا ابن خفيف عليك بصحبة من يذكرك الله رؤيته وتقع هيبته على قلبك يعظك بلسان فعله، ولا يعظك بلسان**

يذكرك الله رؤيته وتقع هيبته على قلبك يعظك بلسان فعله ولا يعظك بلسان قولـه والسلام قـم عنـا. فهـذه درجة المراقبين الذين غلب على قلوبهم الإجلال والتعظيم فلم يبقَ فيهم متسع لغير ذلك.

الدرجة الثانية: مراقبة الورعين من أصحاب اليمين؛ وهم قوم غلب يقين اطلاع الله على ظاهرهم وباطنهم على قلوبهم، ولكن لم تدهشهم ملاحظة الجلال بل بقيت قلوبهم على حدّ الاعتدال متسعة للتلفت إلى الأحوال والأعمال، إلا أنها مع ممارسة الأعمال لا تخلو عن المراقبة. نعم غلب عليهم الحياء من الله فلا يقدمون ولا يحجمون إلا بعد التثبيت فيه، ويمتنعون عن كل ما يفتضحون به في القيامة فإنهم يرون الله في الدنيا مطلعاً عليهم فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة.

وتعرف اختلاف الدرجتين بالمشاهدات؛ فإنـك في خلـوتـك قـد تتعـاطـى أعمالاً فيحضرك صبي أو امرأة فتعلم أنه مطلع عليك فتستحي منه فتحسن جلوسك وتراعي أحوالك، لا عن إجلال وتعظيم بل عن حياء فإن مشاهدته وإن كانت لا تدهشك ولا تستغرقك فإنها تهيج الحياء منك. وقد يدخل عليك ملك من الملوك أو كبير من الأكابر

قوله والسلام قم عنا). وفيه كرامة لها حيث أنها عرفاه ونادياه باسمه إعلاماً من الله لها، وفيه أن المشغول بالله أهم ما يكون إليه شغل حاله واستغراقه يمنعه من الالتفات إلى الوعظ والنصيحة، وإنما يستدل بحاله ويتعظ لـه؛ **(فهـذه درجـة المراقبين الذيـن غلـب على قلـوبهم الإجلال والتعظيم)** والهيبة **(فلم يبق فيهم متسع لغير ذلك)**.

(الدرجة الثانية: مراقبة الورعين من أصحاب اليمين، وهم قوم غلب يقين إطلاع الله على ظاهرهم وباطنهم على قلوبهم لكن لم تدهشهم ملاحظة الجلال) بالكلية، **(بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال متسعة للتلفت إلى الأحوال والأعمال إلا أنها مع ممارسة الأعمال لا تخلو عن المراقبة. نعم غلب عليهم الحياء من الله تعالى فلا يقدمون)** على عمل **(ولا يحجمون إلا بعد التثبت)** فيه **(ويمتنعون من كل ما يفتضحون به في القيامة فإنهم يرون الله في الدنيا مطلعاً عليهم فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة)** ليسمعوا نداء الباري: ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾ [غافر: ١٦] بل هذا النداء لا يفارق سمعهم أبداً.

(وتعرف اختلاف الدرجتين بالمشاهدات فإنك في خلوتك قد تتعاطى أعمالاً فيحضرك صبي أو امرأة فتعلم أنه مطلع فتستحي منه فتحسن جلوسك وتراعي أحوالك لا عن إجلال وتعظيم بل عن حياء، فإن مشاهدته وإن كانت لا تدهشك ولا تستغرقك فإنها تهيج الحياء منك، وقد يدخل عليك ملك من الملوك أو كبير من الأكابر فيستغرقك التعظيم حتى تترك

فيستغرقك التعظيم حتى تترك كل ما أنت فيه شغلاً به، لا حياء منه فهكذا تختلف مراتب العباد في مراقبة الله تعالى.

ومن كان في هذه الدرجة فيحتاج أن يراقب جميع حركاته وسكناته وخطراته ولحظاته، وبالجملة جميع اختياراته، وله فيها نظران: نظر قبل العمل، ونظر في العمل. أما قبل العمل، فلينظر أن ما ظهر له وتحرك بفعله خاطره أهو لله خاصة أو هو في هوى النفس ومتابعة الشيطان؟ فيتوقف فيه ويتثبت حتى ينكشف له ذلك بنور الحق، فإن كان لله تعالى أمضاه وإن كان لغير الله استحيا من الله وانكف عنه ثم لام نفسه على رغبته فيه وهمه به وميله إليه وعرّفها سوء فعلها وسعيها في فضيحتها وأنها عدوّة نفسها وإن لم يتداركها الله بعصمته. وهذا التوقف في بداية الأمور إلى حدّ البيان واجب محتوم لا محيص لأحـد عنه، فإن في الخبر: أنه ينشر للعبد في كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين: الديوان الأوّل، لِمَ؟ والثاني: كيف؟ والثالث: لمن؟ ومعنى «لِمَ» أي لم فعلت هذا أكان عليك أن تفعله لمولاك أو ملت إليه بشهوتك وهواك؟ فإن سلم منه بان كأنه عليه أن يعمل ذلك لمولاه سئل عن الديوان الثاني فقيل له: كيف فعلت هذا، فإن

ما أنت فيه شغلاً به لا حياء منه؛ فهكذا تختلف مراتب العباد في مراقبة الله تعالى، ومن كان في هذه الدرجة فيحتاج أن يراقب جميع حركاته وسكناته وخطراته ولحظاته، وبالجملة جميع اختياراته، وله فيها نظران: نظر قبل العمل) أي قبل الشروع فيه، **(ونظر في العمل. أما قبل العمل، فلينظر أن ما ظهر له وتحرك بفعله خاطره أهو لله خاصة أو هو في هوى النفس ومتابعة الشيطان فيتوقف فيه ويتثبت حتى ينكشف له ذلك بنور الحق)** ويعلم الواجب من الأوجب والفاضل من الأفضل والمقدم من المؤخر وما يفوت على ما لا يفوت، **(فإن كان لله تعالى أمضاه وإن كان لغير الله استحيا من الله وانكف عنه)** فقد قيل: العمل على الحياء أفضل من العمل على الرجاء والخوف، **(ثم لام نفسه على رغبته فيه وهمه به وميله إليه وعرفها سوء فعلها وسعيها في فضيحتها، وأنها عدوة نفسها إن لم يتداركها الله بعصمته، وهذا التوقف)** والتثبت **(في بداية الأمور إلى حد البيان)** والانكشاف **(واجب محتوم لا محيص عنه، ففي الخبر أنه ينشر للعبد في كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين الديوان الأول: لم)؟** بكسر اللام ونصب الميم وأصله لما وهو للاستفهام. **(والثاني: كيف؟ والثالث: لمن)؟** قال العراقي: لم أقف له على أصل.

قلت: لكن تقدم حديث: «الدواوين يوم القيامة ثلاثة» من حديث عائشة رواه أحمد والحاكم.

(ومعنى لم أي لم فعلت هذا أكان عليك أن تفعله لمولاك أو ملت عليه بشهوتك وهواك؟ فإن سلم عنه بأن كان عليه أن يعمل ذلك لمولاه سئل عن الديوان الثاني فقيل له:

للهِ في كل عمل شرطاً وحكماً لا يدرك قدره ووقته وصفته إلا بعلم فيقال له: كيف فعلت أبعلم محقق أم بجهل وظنّ؟ فإن سلم من هذا نشر الديوان الثالث وهو المطالبة بالإخلاص فيقال له: لمن عملت ألوجه الله خالصاً وفاء بقولك: «لا إله إلا الله» فيكون أجرك على الله؟ أو لمراءاة خلق مثلك فخذ أجرك منه؟ أم عملته لتنال عاجل دنياك فقد وفيناك نصيبك من الدنيا؟ أم عملته بسهو وغفلة فقد سقط أجرك وحبط عملك وخاب سعيك؟ وإن عملت لغيري فقد استوجبت مقتي وعقابي، إذ كنت عبداً لي تأكل رزقي وتترفه بنعمتي ثم تعمل لغيري أما سمعتني أقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤] ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِندَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٧] ويحك أما سمعتني أقول: ﴿أَلا للهِ الدِّينُ الخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، فإذا عرف العبد أنه بصدد هذه المطالبات والتوبيخات طالب نفسه قبل أن تطالب وأعد للسؤال جواباً، وليكن الجواب صواباً فلا يبدىء ولا يعيد إلا بعد التثبت، ولا يحرّك جفناً ولا أنملة إلا بعد التأمل، وقد قال النبي ﷺ لمعاذ: «إن الرجل ليُسأل عن كحل عينيه وعن فته الطين بأصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه»، وقال الحسن: كان أحدهم إذا أراد أن يتصدق بصدقة

كيف فعلت هذا فإن لله في كل عمل شرطاً وحكماً لا يدرك قدره ووقته وصفته إلا بعلم، فيقال له: كيف فعلت أبعلم محفوظ أم بجهل وظن؟ فإن سلم من هذا نشر الديوان الثالث، وهو المطالبة بالإخلاص فيقال: لمن عملت ألوجه الله خالصاً وفاء بقولك «لا إله إلا الله» **فيكون أجرك على الله أو لمراياة خلق مثلك فخذ أجرك منه، أم عملته لتنال عاجل دنياك فقد وفيناك نصيبك من الدنيا، أم عملت بسهو وغفلة فقد سقط أجرك وحبط عملك وخاب سعيك، وإن عملت لغيري فقد استوجبت مقتي وعقابي إذ كنت عبداً لي تأكل رزقي وتترفه بنعمتي ثم تعمل لغيري، أما سمعتني أقول: ﴿إن الذين تدعون من دون الله** عباد **أمثالكم﴾ ﴿إن الذي تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه﴾ [العنكبوت: ١٧] ويحك أما سمعتني أقول ﴿ألا لله الدين الخالص﴾ فإذا عرف العبد أنه بصدد هذه المطالبات والتوبيخات)** إن خلص من الأول لا يخلص من الثاني والثالث، وإن خلص من الأول والثاني لا يخلص من الثالث، فإن الإخلاص عزيز **(طالب نفسه قبل أن تطالب وأعد للسؤال جواباً وللجواب صواباً فلا يبدىء ولا يعيد إلا التثبيت)** والتوقف، **(ولا يحرك جفناً ولا أنملة إلا بعد التأمل، وقد قال النبي ﷺ لمعاذ)** ابن جبل رضي الله عنه: «يا معاذ **(إن الرجل ليسأل عن كحل عينيه وعن فتات الطين بإصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه»)** تقدم أن العراقي قال: لم أجد له أصلاً مع أنه رواه أبو نعيم في

نظر وتثبت فإن كان لله أمضاه. وقام الحسن: رحم الله تعالى عبداً وقف عند همه فإن كان لله مضى وإن كان لغيره تأخر. وقال في حديث سعد حين أوصاه سلمان: «اتق الله عند همك إذا هممت» وقال محمد بن علي: إنّ المؤمن وقاف متأن يقف عند همه ليس كحاطب ليل. فهذا هو النظر الأوّل في هذه المراقبة ولا يخلص من هذا إلا العلم المتين والمعرفة الحقيقية بأسرار الأعمال وأغوار النفس ومكائد الشيطان، فمتى لم يعرف نفسه وربّه وعدوّه إبليس ولم يعرف ما يوافق هواه ولم يميز بينه وبين ما يحبه الله ويرضاه في نيته وهمته وفكرته وسكونه وحركته، فلا يسلم في هذه المراقبة. بل الأكثرون يرتكبون الجهل فيما يكرهه الله تعالى وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ولا تظنن أنّ الجاهل يعذر على التعلم فيه بعذر هيهات! بل طلب العلم فريضة على كل مسلم، ولهذا كانت ركعتان

الحلية في حديث طويل أوله «يا معاذ إن المؤمن لدى الحق أستر يعلم أن عليه رقباء على سمعه وبصره ولسانه ويده ورجله وبطنه وفرجه» الحديث وفيه «يا معاذ إن المؤمن ليسأل يوم القيامة عن جميع سعيه حتى عن كحل عينيه. يا معاذ إني أحب لك ما أحب لنفسي» الحديث.

(وقال الحسن) البصري رحمه الله تعالى: **(كان أحدهم إذا أراد أن يتصدق بصدقة نظر وتثبت فإن كان لله أمضاه)** نقله صاحب القوت. **(وقال الحسن)** أيضاً: **(رحم الله عبداً وقف عند همه فإن كان لله مضى وإن كان لغيره تأخر)** نقله صاحب القوت. **(وقال في حديث سعد)** بن أبي وقاص **(حين أوصاه سلمان)** رضي الله عنهما: **(اتق الله عند همك إذا هممت)** قال العراقي: رواه أحمد والحاكم وصححه، وهذا القدر منه موقوف وأوله حديث مرفوع كما تقدم. **(وقال محمد بن علي)**: يحتمل أن يكون هو ابن الحسين بن علي بن أبي طالب، ويحتمل أن يكون هو أبو عبدالله محمد بن علي الترمذي الحكيم السابق ذكره قريباً: **(إن المؤمن وقاف متأن يقف عند همه ليس كحاطب ليل)** وهو الذي يحتطب في ظلمة الليل، فلا يميز بين ما يسره مما يضر، **(فهذا هو النظر الأول في هذه المراقبة ولا يخلص من هذا إلا العلم المتين والمعرفة الحقيقية بأسرار الأعمال وأغوار النفس ومكايد الشيطان، فمتى لم يعرف نفسه وربه وعدوه إبليس ولم يعرف ما يوافق هواه ولم يميز بينه وبين ما يحب الله ويرضاه في نيته وهمته وفكرته وسكونه وحركته، فلا يسلم في هذه المراقبة)** فوصف المراقبة للعبد إنما يحمد إذا كانت مراقبته لربه وقلبه، وذلك أن يعلم أن الله رقيبه وشاهده في كل شيء، ويعلم أن نفسه عدوة له والشيطان عدو له وأنهما ينتهزان منه الفرصة حتى يحملانه على الغفلة والمخالفة فيأخذ منهما حذره ويلاحظ مكامنهما وتلبيسهما ومواضع ابتغائهما حتى يسد عليهما المنافذ والمجاري؛ فهذه مراقبته وهذا كما ذكر يستدعي علماً متيناً، **(بل الأكثرون يرتكبون الجهل فيما يكرهه الله تعالى وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، ولا تظنن أن الجاهل بما يقدر على التعلم فيه يعذر هيهات! بل طلب العلم فريضة على كل مسلم)** كما في الخبر وتقدم في كتاب العلم، **(ولهذا**

من عالم أفضل من ألف ركعة من غير عالم، لأنه يعلم آفات النفوس ومكائد الشيطان ومواضع الغرور فيتقي ذلك، والجاهل لا يعرفه فكيف يحترز منه؟ فلا يزال الجاهل في تعب والشيطان منه في فرح وشماتة، فنعوذ بالله من الجهل والغفلة فهو رأس كل شقاوة وأساس كل خسران. فحكم الله تعالى على كل عبد أن يراقب نفسه عند همه بالفعل وسعيه بالجارحة، فيتوقف عن الهم وعن السعي حتى ينكشف له بنور العلم أنه لله تعالى فيمضيه أو هو لهوى النفس فيتقيه ويزجر القلب عن الفكر فيه وعن الهم به، فإنّ الخطوة الأولى في الباطل إذا لم تدفع أورثت الرغبة، والرغبة تورث الهم والهم يورث جزم القصد، والقصد يورث الفعل، والفعل يورث البوار والمقت، فينبغي أن نحسم مادة الشر من منبعه الأوّل وهو الخاطر فإن جميع ما وراءه يتبعه. ومهما أشكل على العبد ذلك وأظلمت الواقعة فلم ينكشف له فيتفكر في ذلك بنور العلم ويستعيذ بالله من مكر الشيطان بواسطة الهوى، فإن عجز عن الاجتهاد والفكر بنفسه فيستضيء بنور علماء الدين، وليفرّ من العلماء المضلين المقبلين على الدنيا فراره من الشيطان بل أشدّ، فقد أوحى الله تعالى إلى

كانت ركعتان من عالم أفضل من ألف ركعة من غير عالم) كما ورد في الخبر وتقدم قريباً، **(لأنه يعلم آفات النفوس ومكايد الشيطان ومواضع الغرور فيتقي ذلك والجاهل لا يعرفه)**، ومن لا يعرفه **(فكيف يحترز منه فلا يزال الجاهل في تعب والشيطان منه في فرح وشماتة، فنعوذ بالله من الجهل والغفلة فهو رأس كل شقاوة وأساس كل خسران، فحكم الله على كل عبد أن يراقب نفسه عند همه بالفعل)** أي قبل الشروع فيه **(و)** عند **(سعيه بالجارحة فيتوقف عن الهم وعن السعي حتى ينكشف له بنور العلم أنه لله تعالى فيمضيه أو هو لهوى النفس فيتقيه ويزجر القلب عن الفكر فيه وعن الهم به، فإن الخطرة الأولى في الباطل إذا لم تدفع أورثت الرغبة)** فيها، **(والرغبة تورث الهم)** بها، **(والهم يورث جزم القصد)** بها، **(والقصد يورث)** حدوث **(الفعل)** في الحال، **(والفعل يورث البوار)** أي الهلاك **(والمقت)** والبعد عن الله تعالى؛ **(فينبغي أن تحسم مادة الشر من منبعه الأول وهو الخاطر)** الذي خطر أولاً، **(فإن جميع ما وراءه يتبعه، ومهما أشكل على العبد ذلك وأظلمت الواقعة فلم ينكشف له فيتفكر في ذلك بنور العلم ويستعيذ بالله من مكر الشيطان بواسطة الهوى)** وخواصه وتلبيسه، فإن انكشف له ذلك فهو المراد، **(فإن عجز عن الإجتهاد والفكر)** بطريق العلم **(بنفسه)** إما لقصوره في درجة العلم أو لمانع آخر **(فيستضيء بنور علماء الدين)** بالسؤال عنهم والتأدب بآدابهم، **(وليفر من العلماء المضلين المقبلين على الدنيا)** بعلومهم ومعارفهم **(فراره من الشيطان بل أشد، فقد)** ذكر المحاسبي في بعض كتبه أنه **(أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام:)** يا داود **(لا تسل عني عالماً أسكره حب الدنيا)**

داود عليه السلام: لا تسأل عني عالماً أسكره حب الدنيا فيقطعك عن محبتي أولئك قطاع الطريق على عبادي. فالقلوب المظلمة بحب الدنيا وشدّة الشره والتكالب عليها محجوبة عن نور الله تعالى، فإن مستضاء أنوار القلوب حضرة الربوبية فكيف يستضيء بها من استدبرها وأقبل على عدوّها وعشق بغيضها ومقيتها وهي شهوات الدنيا؟ فلتكن همة المريد أوّلاً في أحكام العلم، أو في طلب عالم معرض عن الدنيا أو ضعيف الرغبة فيها إن لم يجد من هو عديم الرغبة فيها. وقد قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات والعقل الكامل عند هجوم الشهوات» جمع بين الأمرين وهما متلازمان حقاً فمن ليس له عقل وازع عن الشهوات فليس له بصر ناقد في الشبهات. ولذلك قال عليه السلام: «من قارف ذنباً فارقه عقل لا يعود إليه أبداً» فما قدر العقل الضعيف الذي سعد الآدمي به حتى يعمد إلى محوه ومحقه بمقارفة الذنوب، ومعرفة آفات الأعمال قد اندرست في هذه الأعصار، فإن الناس كلهم قد هجروا هذه العلوم

أي غلب على قلبه واستولى عليه حتى صار شبيه السكران المغلوب، (**فيقطعك عن محبتي . اولئك قطاع الطريق على عبادي فالقلوب المظلمة بحب الدنيا وشدة الشره والتكالب عليها محجوبة عن نور الله تعالى**) لا تستقر فيها المعرفة أبداً، (**فإن مستضاء أنوار القلوب حضرة الربوبية، فكيف يستضيء بها من استدبرها وأقبل على عدوها وعشق بغيضها ومقيتها وهي شهوات الدنيا**)؟ والمقبل على حضرة الربوبية لا يلتفت إلى الشهوات ولا تخطر له على بال، والمقبل على الشهوات لا يشم رائحة الحضرة ولا يكون له نصيب منها؛ (**فلتكن همة المريد أولاً في أحكام العلم**) ومراعاته وليجعله منزلة أدامه ليقاتل به عدوه، (**أو في طلب عالم**) بصير متين العلم (**معرض عن الدنيا**) وشهواتها بأن لا يكون متلفتاً إليها (**أو ضعيف الرغبة فيها إن لم يجد من هو عديم الرغبة فيها**) فإن وجد أن ذلك في غالب الأزمنة عزيز، (**وقد قال رسول الله ﷺ «إن الله يحب البصر الناقد**) بالقاف أو هو بالفاء والذال (**عند ورود الشبهات والعقل الكامل عند هجوم الشهوات»**) قال العراقي: رواه أبو نعيم في الحلية من حديث عمران ابن حصين وفيه حفص بن عمر العدني ضعفه الجمهور اهـ.

قلت: ورواه كذلك البيهقي في الزهد، وأبو مطيع في أماليه، والحافظ أبو مسعود سليمان بن إبراهيم الأصبهاني في كتاب الأربعين بلفظ «عند مجيء الشبهات وعند نزول الشهوات» وبزيادة «ويحب السماحة ولو على تمرات ويحب الشجاعة ولو على قتل حية» (**جمع بين الأمرين وهما متلازمان حقاً، فمن ليس له عقل وازع عن الشهوات فليس له بصر ناقد في الشبهات، ولذلك قال ﷺ «من قارف ذنباً فارقه عقل لا يعود إليه أبداً»**) قال العراقي: لم أجده وتقدم، (**فما قدر العقل الضعيف الذي سعد الآدمي به حتى يعمد إلى محوه ومحقه بمقارفة الذنوب**) ومباشرتها (**ومعرفة آفات الأعمال**) ودقائقها، (**وقد اندرست في هذه الأعصار**

واشتغلوا بالتوسط بين الخلق في الخصومات الثائرة في اتباع الشهوات وقالوا هذا هو الفقه وأخرجوا هذا العلم الذي هو فقه الدين عن جملة العلوم وتجرّدوا لفقه الدنيا الذي ما قصد به إلا دفع الشواغل عن القلوب ليتفرّغ لفقه الدين، فكان فقه الدنيا من الدين بواسطة هذا الفقه. وفي الخبر: «أنتم اليوم في زمان خيركم فيه المسارع وسيأتي عليكم زمان خيركم فيه المتثبت». ولهذا توقف طائفة من الصحابة في القتال مع أهل العراق وأهل الشام لما أشكل عليهم الأمر كسعد بن أبي وقاص، وعبدالله بن عمر، وأسامة، ومحمد بن مسلمة وغيرهم. فمن لم يتوقف عند الاشتباه كان متبعاً لهواه معجباً برأيه وكان ممن

فإن الناس كلهم قد هجروا هذه العلوم وتركوها واشتغلوا بالتوسط بين الخلق في الخصومات الثائرة في اتباع الشهوات وقالوا: هذا هو الفقه) المشار إليه، (**وأخرجوا هذا العلم الذي هو فقه الدين**) ولباب العلوم كلها (**من جملة العلوم وتجردوا لفقه الدنيا الذي ما قصد به إلا دفع الشواغل عن القلوب ليتفرغ لفقه الدين، فكان فقه الدنيا من الدين بواسطة هذا الفقه. وفي الخبر «أنتم اليوم في زمان خيركم فيه المسارع وسيأتي عليكم زمان خيركم فيه المتثبت»**) قال العراقي: لم أجده. (**ولهذا توقف طائفة من الصحابة في القتال مع أهل العراق وأهل الشام**) أي عسكر معاوية (**لما أشكل عليهم الأمر كسعد بن أبي وقاص**) أحد العشرة، (**وعبدالله بن عمر**) بن الخطاب، (**وأسامة**) بن زيد حب رسول الله ﷺ، (**ومحمد بن مسلمة**) الأنصاري (**وغيرهم**) رضوان الله عليهم.

أما سعد؛ فقد ثبت أنه اعتزل الفتن بعد موت عثمان ونزل قصره بالعقيق وقال: لا أحد يدخل علي بخبر حتى مات. وقد روى أبو نعيم في الحلية من طريق أيوب السختياني قال: اجتمع سعد وابن مسعود وابن عمر وعمار بن ياسر فذكروا الفتنة فقال سعد: أما أنا فأجلس في بيتي ولا أدخل فيها.

ومن طريق عمر بن سعد عن أبيه أنه قال له: يا بنيّ أفي الفتنة تأمرني أن أكون رأساً لا والله حتى أعطي سيفاً إن ضربت به مؤمناً نبا عنه وإن ضربت به كافراً قتله.

ومن طريق ابن سيرين قال: قيل لسعد: ألا تقاتل فإنك من أهل الشورى وأنت أحق بهذا الأمر من غيرك؟ فقال: أقاتل حتى تأتوني بسيف له عينان ولسان وشفتان يعرف المؤمن من الكافر فقد جاهدت وأنا أعرف الجهاد.

وأما ابن عمر فإنه كذلك اعتزل في الفتن بعد موت عثمان، فقد روى أبو نعيم أيضاً من طريق نافع قال: قيل لابن عمر زمن ابن الزبير والخوارج والخشبية. أتصلي مع هؤلاء وبعضهم يقتل بعضاً؟ فقال: من قال حي على الصلاة أجبته ومن قال حي على قتل أخيك المسلم وأخذ ماله قلت لا

ومن طريق عبدالله بن عبيد بن عمير عن ابن عمر قال: إنما هؤلاء فتيان قريش يقتتلون على

وصفه رسول الله ﷺ إذ قال: « فإذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك وكل من خاض في شبهة بغير تحقيق فقد خالف قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦] وقوله عليه السلام: « إياكم والظن فإنّ الظنّ أكذب الحديث »، وأراد به ظناً بغير دليل كما يستفتي بعض العوام قلبه فيما أشكل عليه ويتبع ظنه. ولصعوبة هذا الأمر وعظمه كان دعاء الصدّيق رضي الله تعالى عنه: اللهم أرني الحق حقاً وارزقني اتباعه وأرني الباطل باطلاً وأرزقني اجتنابه ولا تجعله متشابهاً علي فاتبع الهوى. وقال عيسى عليه السلام: « الأمور ثلاثة: أمر استبان

هذا السلطان وعلى هذه الدنيا ما أبالي، أن لا يكون لي ما يقتل بعضهم بعضاً بنعلي هاتين الجرداوين.

وأما أسامة، فقال الحافظ في الإصابة: اعتزل الفتن بعد قتل عثمان إلى أن مات في آخر ولاية معاوية، وكان قد سكن المزة من دمشق ثم رجع فسكن وادي القرى، ثم رجع إلى المدينة فمات بها بالجرف سنة أربع وخمسين.

وأما محمد بن مسلمة؛ ففي الإستيعاب لابن عبد البرأنه كان ممن اعتزل الفتنة فلم يشهد الجمل ولا صفين. وقال حذيفة في حقه: إني لأعرف رجلاً لا تضره الفتنة فذكره، وصرح بسماع ذلك من النبي ﷺ أخرجه البغوي وغيره.

وأخرج ابن شاهين من طريق هشام عن الحسن أن محمد بن مسلمة قال: أعطاني رسول الله ﷺ سيفاً فقال « قاتل المشركين ما قوتلوا فإذا رأيت أمتي يضرب بعضهم بعضاً فأت به أحداً فاضربه حتى ينكسر ثم اجلس في بيتك حتى تأتيك يد خاطئة أو نية قاضية » ففعل. قال الحافظ: رجال هذا السند ثقات إلا أن الحسن لم يسمع من محمد بن مسلمة.

(فمن لم يتوقف عند الاشتباه كان متبعاً لهواه معجباً برأيه وكان ممن وصفه رسول الله ﷺ إذ قال « فإذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك ») تقدم في ذم العجب. **(وكل من خاض في شبهة بغير تحقيق فقد خالف قوله تعالى: ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم﴾ وقوله ﷺ « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث »)** رواه أحمد والشيخان وأبو داود والترمذي من حديث أبي هريرة بزيادة « ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً » الحديث وقد تقدم. **(وأراد به ظناً بغير دليل كما يستفتي بعض العوام قلبه فيما أشكل عليه ويتبع ظنه، ولصعوبة هذا الأمر وعظمه كان دعاء)** أبي بكر **(الصديق رضي الله عنه: اللهم أرني الحق حقاً وارزقني اتباعه وأرني الباطل باطلاً وارزقني اجتنابه ولا تجعله متشابهاً علي فاتبع الهوى. وقال عيسى عليه السلام الأمور ثلاثة: أمر استبان رشده فاتبعه، وأمر استبان غيه فاجتنبه وأمر أشكل**

رشده فاتبعه وأمر استبان غيه فاجتنبه وأمر أشكل عليك فكله إلى عالمه » ، وقد كان من دعاء النبي ﷺ : « اللهم إني أعوذ بك أن أقول في الدين بغير علم » ، فأعظم نعمة الله على عباده هو العلم وكشف الحق ، والإيمان عبارة عن نوع كشف وعلم ولذلك قال تعالى امتناناً على عبده : ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾ [النساء : ١١٣] وأراد به العلم ، وقال تعالى : ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل : ٤٢] ، وقال تعالى : ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ [الليل : ١٢] ، وقال : ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة : ١٩] وقال : ﴿وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل : ٩] ، وقال علي كرّم الله وجهه : الهوى شريك العمى ، ومن التوفيق التوقف عند الحيرة ، ونعم طارد الهم اليقين ، وعاقبة الكذب الندم ، وفي الصدق السلامة ، رب بعيد أقرب من قريب ، وغريب من لم يكن له حبيب ، والصديق من صدق غيبه ، ولا يعدمك من حبيب سوء ظن ، نعم الخلق التكرم ، والحياء سبب إلى كل جميل ، وأوثق العرى التقوى ، وأوثق سبب أخذت به سبب بينك وبين الله تعالى إنما لك من دنياك ما أصلحت به مثواك ، والرزق رزقان : رزق تطلبه ورزق يطلبك فإن لم تأته أتاك ، وإن كنت جازعاً على ما أصيب مما في يديك فلا تجزع على ما لم يصل إليك ، واستدل على ما لم يكن بما كان فإنما الأمور اشباه ، والمرء يسره درك ما لم

عليك فكله إلى عالمه) قال العراقي : رواه الطبراني من حديث ابن عباس بسند ضعيف ، **(وقد كان من دعاء النبي ﷺ « اللهم إني أعوذ بك أن أقول في الدين بغير علم »)** قال العراقي : لم أجده . **(فأعظم نعمة الله على عباده هو العلم ، وكشف الحق والإيمان عبارة عن نوع كشف وعلم ، ولذلك قال تعالى امتناناً على عبده : ﴿وكان فضل الله عليك عظيماً﴾ وأراد به العلم . وقال تعالى ﴿فاسألواأهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ وقال تعالى ﴿إن علينا للهدى﴾)** أي دلالة الخير . **(وقال ﴿ثم إن علينا بيانه﴾)** أي كشفه . **(وقال : ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾)** أي السبيل المعتدل .

(وقال علي كرم الله وجهه : الهوى شريك العمى ومن التوفيق التـوقف عند الحيرة) أي التثبت عند اشتباه الأمور من جملة التوفيق . **(ونعم طارد الهم اليقين وعاقبة الكذب الندم وفي الصدق السلامة . رب بعيد أقرب من قريب وغريب من لم يكن له حبيب ، والصديق من صدق غيبه ولا يعدمك من حبيب سوء ظن . نعم الخلق التكرم والحياء سبب إلى كل جميل ، وأوثق العرى التقوى ، وأوثق سبب أخذت به سبب بينك وبين الله تعالى ، إنما لك من دنياك ما أصلحت به مثواك ، والرزق رزقان : رزق تطلبه)** أي تتعنى في تحصيله **(ورزق يطلبك)** فيجيء لك من غير تعب ، **(فإن لم تأته أتاك)** وهو قـدر القوت ، **(وإن كنت جازعاً على ما أصيب مما في يديك فلا تجزع على ما لم يصل إليك ، واستدل على ما لم يكن بما كان**

يكن ليفوته ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه، فما نالك من دنياك فلا تكثرن به فرحاً وما فاتك منها فلا تتبعه نفسك أسفاً، وليكن سرورك بما قدّمت وأسفك على ما خلفت وشغلك لآخرتك وهمك فيما بعد الموت. وغرضنا من نقل هذه الكلمات قوله: « ومن التوفيق التوقف عند الحيرة ».

فإذاً النظر الأول للمراقب نظره في الهم والحركة أهي لله أم للهوى؟ وقد قال ﷺ: « ثلاث من كنَّ فيه استكمل إيمانه: لا يخاف في الله لومة لائم، ولا يرائي بشيء من عمله، وإذا عرض له أمران أحدهما للدنيا والآخر للآخرة آثر الآخرة على الدنيا » وأكثر ما ينكشف له في حركاته أن يكون مباحاً ولكن لا يعنيه فيتركه لقوله ﷺ: « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه ».

فإنما الأمور أشباه والمرء يسره درك ما لم يكن ليفوته ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه، فما نالك من دنياك فلا تكثرث به فرحاً وما فاتك منها فلا تتبعه نفسك أسفاً، وليكن سرورك بما قدمت وأسفك على ما خلفت وشغلك لآخرتك وهمك فيما بعد الموت) أروده الشريف الموسوي في نهج البلاغة مفرقاً في مواضع وفيه بعد قوله: فإن لم تأته أتاك فلا تحمل هم سنتك على هم يومك فإن الله يأتيك في كل غد جديد ما قسم لك، وإن لم تكن السنة من عمرك فما تصنع بالهم لما ليس لك، ولن يسبقك إلى رزقك طالب، ولن يغلبك عليه غالب، ولن يبطىء عنك ما قدر لك. **(وغرضنا من نقل هذه الكلمات)** مع اختلافها في بعضها وكون كل كلمة منها بإسناد مستقل **(قوله « ومن التوفيق التوقف عند الحيرة »)** وقد مضى معناه.

(فإذاً النظر الأول للمراقب نظره في الهم والحركة أهي لله أم للهوى) وذلك قبل العمل **(وقد قال ﷺ: « ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه)**: رجل **(لا يخاف في الله لومة لائم، ولا يرائي بشيء من عمله، وإذا عرض له أمران أحدهما للدنيا والآخر للآخرة آثر الآخرة على الدنيا »)** رواه الديلمي وابن عساكر من حديث أبي هريرة وفيه سالم بن عبد الواحد المرادي مختلف فيه وقد تقدم. **(وأكثر ما ينكشف له في حركاته أن يكون مباحاً ولكن لا يعنيه)** أي لا يهتم به **(فيتركه لقوله ﷺ: « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه »)** رواه الترمذي وقال غريب وابن ماجه والبيهقي من حديث أبي هريرة. ورواه الشيرازي في الألقاب من حديث أبي ذر، ورواه الحاكم في الكنى من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه. ورواه أحمد والعسكري في الأمثال، والطبراني وأبو نعيم وابن عبد البر في التمهيد عن علي بن الحسين عن أبيه رفعه. ورواه مالك والترمذي والبيهقي عن علي بن الحسين مرسلاً، ورواه ابن عساكر عن علي بن الحسين عن الحارث بن هشام، ورواه العسكري عن علي بن الحسين عن أبيه عن جده وقد تقدم.

النظر الثاني: للمراقبة عند الشروع في العمل، وذلك بتفقد كيفية العمل ليقضي حق الله فيه ويحسن النية في إتمامه ويتكمل صورته ويتعاطاه على أكمل ما يمكنه، وهذا ملازم له في جميع أحواله فإنه لا يخلو في جميع أحواله عن حركة وسكون، فإذا راقب الله تعالى في جميع ذلك قدر على عبادة الله تعالى فيها بالنية وحسن الفعل ومراعاة الأدب، فإن كان قاعداً مثلاً فينبغي أن يقعد مستقبل القبلة لقوله ﷺ: «خير المجالس ما استقبل به القبلة»، ولا يجلس متربعاً إذ لا يجالس الملوك كذلك وملك الملوك مطلع عليه. قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: جلست مرة متربعاً فسمعت هاتفاً يقول هكذا تجالس الملوك؟ فلم أجلس بعد ذلك متربعاً وإن كان ينام، فينام على اليد اليمنى مستقبل القبلة مع سائر الآداب التي ذكرناها في مواضعها، فكل ذلك داخل في المراقبة بل لو كان في قضاء الحاجة فمراعاته لآدابها وفاء بالمراقبة. فإذاً لا يخلو العبد إما أن يكون في طاعة أو في معصية أو في مباح. فمراقبته في الطاعة بالإخلاص والإكمال ومراعاة الأدب وحراستها عن الآفات. وإن كان في معصية فمراقبته بالتوبة والندم

(النظر الثاني للمراقبة عند الشروع في العمل، وذلك بتفقد كيفية العمل ليقضي حق الله فيه ويحسن النية في إتمامه ويكمل صورته ويتعاطاه على أكمل ما يمكنه) ساداً لمظان الآفات الداخلة عليه، ولا يمكن هذا إلا بعد التثبت والتمييز، فإذا اعتبر ذلك ورجح عنده أحد العلمين بصحة المعرفة أقبل عليه بكنه الهمة بسببه وآدابه وهيئاته، **(وهذا ملازم في جميع أحواله فإنه لا يخلو في جميع أحواله عن حركة وسكون، فإذ راقب الله تعالى في جميع ذلك قدر على عبادة الله تعالى فيها بالنية وحسن الفعل ومراعاة الأدب، فإن كان قاعداً مثلاً فينبغي أن يقعد مستقبل القبلة لقوله ﷺ «خير المجالس ما استقبل به القبلة»)** رواه الحاكم في حديث طويل وابن جرير من حديث ابن عباس، ورواه أبو نعيم، وفي طريقه الديلمي من حديث ابن عمر، ورواه الخرائطي في مكارم الأخلاق إلا أنه قال «أكرم المجالس ما استقبل بها القبلة» وقد تقدم في كتاب الصلاة، **(ولا يجلس متربعاً)** بل كهيئة التشهد، **(إذ لا يجالس الملوك كذلك وملك الملوك)** جل جلاله **(مطلع عليه. قال إبراهيم بن أدهم)** رحمه الله تعالى: **(جلست مرة متربعاً فسمعت هاتفاً يقول: هكذا تجالس الملوك فلم أجلس بعد ذلك متربعاً)** رواه أبو نعيم في الحلية، **(وإن كان ينام فينام على اليد اليمنى مستقبل القبلة مع)** مراعاة **(سائر الآداب التي ذكرناها في مواضعها)** من هذا الكتاب، **(فكل ذلك داخل في المراقبة، بل لو كان في قضاء الحاجة فمراعاته لآدابها وفاء بالمراقبة)** وهكذا جميع الأعمال، **(فإذاً لا يخلو العبد إما أن يكون في طاعة أو في معصية أو في مباح، فمراقبته في الطاعة بالإخلاص والإكمال)** بأن يخلص فيها ولا ينقصها، **(ومراعاة الآداب)** والاحترام

والإقلاع والحياء والاشتغال بالتفكر. وإن كان في مباح فمراقبته بمراعاة الأدب ثم بشهود المنعم في النعمة وبالشكر عليها، ولا يخلو العبد في جملة أحواله عن بلية لا بد له من الصبر عليها ونعمة لا بد له من الشكر عليها وكل ذلك من المراقبة بل لا ينفك العبد في كل حال من فرض لله تعالى عليه إما فعل يلزمه مباشرته أو محظور يلزمه تركه أو ندب حث عليه ليسارع به إلى مغفرة الله تعالى ويسابق به عباد الله أو مباح فيه صلاح جسمه وقلبه وفيه عون له على طاعته. ولكل واحد من ذلك حدود لا بدّ من مراعاتها بدوام المراقبة: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطلاق: ١]، فينبغي أن يتفقد العبد نفسه في جميع أوقاته في هذه الأقسام الثلاثة فإذا كان فارغاً من الفرائض وقدر على الفضائل فينبغي أن يلتمس أفضل الأعمال ليشتغل بها فإنّ من فاته مزيد ربح وهو قادر على دركه فهو مغبون، والأرباح تنال بمزايا الفضائل فبذلك يأخذ العبد من دنياه لآخرته كما قال تعالى: ﴿وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧]، وكل ذلك إنما يمكن بصبر ساعة واحدة، فإن الساعات ثلاث: ساعة مضت لا تعب فيها على العبد كيفما انقضت في مشقة أو رفاهية. وساعة مستقبلة لم تأت بعد لا يدري العبد

(**وحراستها**) أي الطاعة (**عن**) مظان (**الآفات**) العارضة عليها (**وإن كان في معصية فمراقبته بالتوبة والندم والإقلاع والحياء**) واستشعار الهيبة والانكسار (**والاشتغال بالتكفير**) باتباع السيئة الحسنة، (**وإن كان في مباح فمراقبته بمراعاة الأدب ثم بشهود المنعم في النعمة وبالشكر عليها، ولا يخلو العبد في جملة أحواله عن بلية لا بد له من الصبر عليها ونعمة لا بد**) له (**من الشكر عليها، وكل ذلك من المراقبة بل لا ينفك العبد في كل حال من فرض لله عليه إما فعل يلزمه مباشرته، أو محظور يلزمه تركه، أو ندب حث عليه يسارع به إلى مغفرة الله تعالى ويسابق به عباد الله، أو مباح فيه صلاح جسمه وقلبه وفيه عون له على طاعته، ولكل واحد من ذلك حدود**) معلومة (**لا بد من مراعاتها بدوام المراقبة**) قال الله تعالى: (**﴿ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه﴾ فينبغي أن يتفقد العبد نفسه في جميع أوقاته في هذه الأقسام الثلاثة فإن كان فارغاً عن الفرائض**) بأن كان قد أداها (**وقدر على الفضائل**) وهي الزائد على الفرائض، (**فينبغي أن يلتمس أفضل الأعمال ليشتغل بها**) ويعمر بها أوقاته، (**فإن من فاته مزيد ربح وهو قادر على دركه فهو مغبون**) في تجارته، (**والأرباح تنال بمزايا الفضائل فبذلك يأخذ العبد من دنياه**) ما يكون ذخيرة (**لآخرته كما قال تعالى ﴿ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾**) أي فالدنيا مزرعة للآخرة منها يتزود للمعاد، (**وكل ذلك إنما يمكن بصبر ساعة واحدة فإن الساعات ثلاثة**) لا غير منها: (**ساعة مضت لا تعب فيها على العبد كيفما انقضت في مشقة أو في رفاهية، و**) منها

أيعيش إليها أم لا ولا يدري ما يقضي الله فيها ، وساعة راهنة ينبغي أن يجاهد فيها نفسه ويراقب فيها ربّه . فإن لم تأتِه الساعة الثانية لم يتحسر على فوات هذه الساعة وأتته الساعة الثانية استوفى حقه منها كما استوفى من الأولى . ولا يطول أمله خمسين سنة فيطول عليه العزم على المراقبة فيها بل يكون ابن وقته كأنه في آخر أنفاسه فلعله آخر أنفاسه وهو لا يدري ، وإذا أمكن أن يكون آخر أنفاسه فينبغي أن يكون على وجه لا يكره أن يدركه الموت وهو على تلك الحالة ، وتكون جميع أحوال مقصورة على ما رواه أبو ذر رضي الله تعالى عنه من قوله عليه السلام : « لا يكون المؤمن طامعاً إلا في ثلاث : تزود لمعاد أو مرمة لمعاش أو لذة في غير محرم » وما روي عنه أيضاً في معناه : « وعلى

(ساعة مستقبلة لم تأت بعد لا يدري العبد أيعيش إليها أم لا ولا يدري ما يقضي الله فيها) فهو غيب . **(و)** منها **(ساعة راهنة)** وهي الموجودة في الحال **(ينبغي أن يجاهد نفسه فيها ويراقب فيها ربه)** ولله در القائل :

ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها

(فإن لم تأته الساعة الثانية لم يتحسر على فوات هذه الساعة وإن أتته الساعة الثانية استوفى حقه منها كما استوفى من) الساعة **(الأولى ، ولا يطول أمله خمسين سنة فيطول عليه العزم على المراقبة فيها ، بل يكون ابن وقته)** قال القشيري في الرسالة : وقد يعنون بالوقت ما هو فيه من الزمان فإن قوماً قالوا : الوقت ما بين الزمانين يعني الماضي والمستقبل ، ويقولون : الصوفي ابن وقته يريدون بذلك أنه مشتغل بما هو أولى به في الحال قائم بما هو مطالب به في الحين ، وقيل : الفقير لا يهمه ماضي وقته وآتيه بل يهمه وقته الذي هو فيه ، وقيل : الاشتغال بفوات وقت ماض تضييع وقت يأتي اهـ .

(كأنه في آخر أنفاسه فلعله آخر أنفاسه وهو لا يدري ، وإذا أمكن أن يكون آخر أنفاسه ، فينبغي أن يكون على وجه لا يكره أن يدركه الموت وهو على تلك الحال ، وتكون جميع أحواله مقصورة على ما رواه أبو ذر) الغفاري **(رضي الله عنه من قوله ﷺ « لا يكون المؤمن ظاعناً إلا في ثلاث : تزود لمعاد ، أو مرمة)** أي إصلاح **(لمعاش ، أو لذة في غير محرم »)** قال العراقي : رواه أحمد وابن حبان والحاكم وصححه أنه ﷺ قال « إنه في صحف موسى » وقد تقدم اهـ .

قلت : رواه الفريابي والحسن بن سفيان والطبراني ، ومن طرقهم أبو نعيم في الحلية ، قال الطبراني : حدثنا أحمد بن أنس بن مالك قال : هو وابن سفيان والفريابي ، أخبرنا إبراهيم بن هشام بن يحي الغساني ، حدثني أبي ، عن جده ، عن أبي إدريس الخولاني ، عن أبي ذر قال : دخلت المسجد وإذا برسول الله ﷺ جالس وحده فجلست إليه فقال : « يا أبا ذر إن للمسجد تحية وإن تحيته ركعتان » ثم ساقوا الحديث بطوله في مساءلة أبي ذر رسول الله ﷺ وفيه فقلت : يا رسول الله فما

العاقل أن تكون له أربع ساعات ساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يتفكر فيها في صنع الله تعالى ، وساعة يخلو فيها للمطعم والمشرب » فإن في هذه الساعة عوناً له على بقية الساعات . ثم هذه الساعة التي هو فيها مشغول الجوارح بالمطعم والمشرب لا ينبغي أن يخلو عن عمل هو أفضل الأعمال وهو الذكر والفكر ، فإن الطعام الذي يتناوله مثلاً فيه من العجائب ما لو تفكر فيه وفطن له كان ذلك أفضل من كثير من أعمال الجوارح . والناس فيه أقسام : قسم ينظرون إليه بعين التبصر والاعتبار ، فينظرون في عجائب صنعته وكيفية ارتباط قوام الحيوانات به وكيفية تقدير الله لأسبابه ، وخلق الشهوات الباعثة عليه وخلق الآلات المسخرة للشهوة فيه كما فصلنا بعضه في كتاب الشكر ، وهذا مقام ذوي الألباب . وقسم ينظرون فيه بعين المقت والكراهية ويلاحظون

كانت صحف إبراهيم؟ قال « كانت أمثالاً كلها فذكر فيها وعلى العاقل أن لا يكون ظاعناً إلا لثلاث » فذكروا باقي الحديث .

(وما روي عنه أيضاً في معناه « وعلى العاقل أن تكون له أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتفكر فيها في صنع الله تعالى، وساعة يخلو فيها للمطعم والمشرب » فإن في هذه الساعة عوناً له على بقية الساعات) . قال العراقي : هو بقية الحديث الذي قبله

قلت : هذه الجملة ذكرت في الحديث السابق قبل الجملة المذكورة آنفاً ولفظهم : وكان فيها أمثال على العاقل ما لم يكن مغلوباً على عقله أن تكون له ساعات ، وذكروه كسياق المصنف إلا أنه إلى قوله « للمطعم والمشرب » . وقال أبو نعيم بعد أن ساق الحديث بطوله : السياق للحسن بن سفيان . ورواه المختار بن غسان ، عن إسماعيل بن مسلم ، عن أبي إدريس رواه علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة عن أبي ذر ، ورواه عبيد بن الخشخاش عن أبي ذر ، ورواه معاوية بن صالح عن محمد بن أيوب عن ابن عائذ عن أبي ذر ، ورواه ابن جريج عن عطاء عن عبيد بن عمير عن أبي ذر بطوله . تفرد به يحي بن سعيد العبشمي وقد تقدم ذلك .

(ثم هذه الساعة التي هو فيها مشغول الجوارح بالمطعم والمشرب لاينبغي أن يخلو عن عمل هو أفضل الأعمال وهو الذكر والفكر ، فإن الطعام الذي يتناوله مثلاً فيه من العجائب ما لو تفكر فيه وفطن له كان ذلك أفضل من كثير من أعمال الجوارح ، والناس فيه أقسام :)

منهم : **(قسم ينظرون إليه بعين التبصرة والاعتبار فينظرون في عجائب صنعته وكيفية ارتباط قوام الحيوانات به وكيفية تقدير الله لأسبابه وخلق الشهوة الباعثة عليه وخلق الآلات المسخرة للشهوة فيه ، كما فصلنا بعضه في كتاب الشكر ، وهذا مقام ذوي الألباب)**

وجه الاضطرار إليه وبودهم لو استغنوا عنه ولكن يرون أنفسهم مقهورين فيه مسخرين لشهواته، وهذا مقام الزاهدين. وقوم يرون في الصنعة الصانع ويترقون منها إلى صفات الخالق، فتكون مشاهدة ذلك سبباً لتذكر أبواب من الفكر تنفتح عليهم بسببه، وهو أعلى المقامات وهو من مقامات العارفين وعلامات المحبين، إذ المحب إذا رأى صنعة حبيبه وكتابه وتصنيفه نسي الصنعة واشتغل قلبه بالصانع، وكل ما يتردد العبد فيه صنع الله تعالى فله في النظر منه إلى الصانع مجال رحب إن فتحت له أبواب الملكوت وذلك عزيز جداً. وقسم رابع ينظرون إليه بعين الرغبة والحرص، فيتأسفون على ما فاتهم منه ويفرحون بما حضرهم من جملته، ويذمون منه ما لا يوافق هواهم ويعيبونه ويذمون فاعله فيذمون الطبيخ والطباخ، ولا يعلمون أن الفاعل للطبيخ والطباخ ولقدرته ولعلمه هو الله تعالى، وإن من ذم شيئاً من خلق الله بغير إذن الله فقد ذم الله ولذلك قال النبي ﷺ: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر»، فهذه المرابطة الثانية بمراقبة الأعمال على

(و) منهم (**قسم ينظرون فيه بعين المقت والكراهة ويلاحظون وجه الاضطرار إليه، وبودهم**) أنهم (**لو استغنوا عنه**) لكان أجمع لهممهم، (**ولكن يرون أنفسهم مقهورين فيه**) مضطرين إليه (**مسخرين لشهواته**) فيتناولونه ناظرين لذلك، (**وهذا مقام الزاهدين**)

(و) منهم (**قسم يرون في الصنعة الصانع ويترقون منها إلى صفات الخالق، فتكون مشاهدة ذلك سبباً لتذكر أبواب من الفكرة تنفتح عليهم بسببه وهو أعلى المقامات، وهو من مقامات العارفين وعلامات المحبين، إذ المحب إذا رأى صنعة حبيبه وكتابه وتصنيفه نسي الصنعة واشتغل قلبه بالصانع، وكل ما يتردد العبد فيه من صنع الله تعالى فله في النظر منه إلى الصانع مجال رحب إن فتحت له أبواب الملكوت وذلك عزيز جداً**) ودوامه أعز منه.

(و) منهم (**قسم رابع ينظرون إليه بعين الرغبة والحرص فيتأسفون على ما فاتهم منه ويفرحون بما حضرهم من جملته ويذمون منه ما لا يوافق هواهم ويعيبونه ويذمون فاعله فيذمون الطبيخ والطباخ، ولا يعلمون أن الفاعل للطبخ والطباخ، ولقدرته ولعلمه هو الله تعالى**) وحده لا شريك له في فعله، (**وأن من ذم شيئاً من خلق الله بغير إذن الله فقد ذم الله، ولذلك قال النبي ﷺ «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر»**) قال العراقي: رواه مسلم من حديث أبي هريرة هـ.

قلت: ورواه كذلك أحمد وعبد بن حميد والروياني والضياء من حديث أبي قتادة، ورواه ابن عساكر من حديث جابر.

الدوام والاتصال وشرح ذلك بطول وفيما ذكرناه تنبيه على المنهاج لمن أحكم الأصول.

(فهذه المرابطة الثانية بمراقبة الأعمال على الدوام والاتصال وشرح ذلك يطول وفيما ذكرناه تنبيه على المنهاج لمن أحكم الأصول) ، وحيث انتهى الكلام على هذه المرابطة بمراقبة الأعمال على الدوام ، فلنذكر تفصيل ما أورده مشايخ السادة النقشبندية قدس الله أرواحهم الزكية في هذا الباب ، فإنهم أحظى الناس بهذه المرابطة دون سائر أرباب السلوك.

اعلم أنهم قالوا : إن المراقبة نسبة زكية وعبودة خفية ، فمن تحقق بها نور الله قلبه بنور المعرفة وشرح صدره بكشف الحقيقة ، فلم تخطىء فراسته ولم تبطىء مكاشفته وصح له التصريف في عالمي الملك والملكوت والتقريب في حضرة الجبروت ، وحسنت معاملته مع الله تعالى في جميع الحالات ، وتمت له عمارة الأوقات. لكونها أعظم العبادات كانت خواص الصحابة يشتغلون بدوامها في سائر الحالات وهي من الطرق الموصلة إلى المشاهدات وهي على ثلاثة أنواع : الأول : استدامة العلم باطلاع الحق عليه في جميع الأحوال مع مراعاة الاتباع بجميع الأحكام. الثاني : مطالعة أثمار الأسماء والصفات والمسارعة إلى الله بالوصول بجميع العبادات. الثالث : مكاشفة أسرار حقائق الأسماء والصفات ومشاهدة أنوار تجليات الذات ، وهذا النوع درجة الولاية الصغرى وهو غاية ما يبلغه السالكون بالمراقبة. وفي هذه المراقبة يحصل له مقام الفناء وتنتفي الحالات وتثبت المقامات.

وأما كيفية المراقبة : فأن يكون السالك طاهر الظاهر والباطن والمكان حاضر القلب مع الله مرفوعاً عن الوساوس والخيالات محفوظاً عن سائر المشوشات يجلس مستقبل القبلة على ركبتيه غامض العينين متبرئاً عن حوله وقوته ناسياً جميع علمه ومعرفته معطلاً حواس ظاهره وقوى باطنه ، ثم يتوجه بالقلب المطلق مع الجذبة الإلهية إلى جناب ذات الحق على طريق الاستهلاك فيه حتى يزول عنه تزاحم الخواطر بالكلية وتغلب روحانيته علي جسمانيته ولا ينفك عن هذه الحالة ، فإذا استقرت وكانت له كالصفة اللازمة أمكن له الاستقامة والتقرب بسائر الأعمال ، وفي مقام المراقبة حالة أخرى تسمى عندهم بالوقوف القلبي وهو عبارة عن التوجة إلى حقيقة الروح الإنساني من جهة القلب ، لأن الروح الإنساني محيطة بجميع ما في الحضرة الربوبية إحاطة انطباعية مطابقة للوجود في نفس الأمر ، فمن توجه إلى روحه من قلبه فقد ينكشف له ما في حضرة الربوبية من الأسرار فيصل بذلك إلى معرفة ربه بالمعرفة الشهودية ، لأن حقيقة الروح الإنساني كالمرآة لتلك الحضرة لما فيه من القوة العقلية التي هي جوهر إلهي ، فمن كشف ذلك الجوهر رأى فيه جميع صفات الله وأسمائه وذاته تعالى بالانطباع الظلي ، ورأى فيه أيضاً جميع الموجودات العقلية والحسية وكيفية الاشتغال بالوقوف القلبي أن يجرد السالك أولاً عقله من جميع الإدراكات ، ثم يعطل جميع قواه وحواسه عن أحكامها ، ثم يسلخ نفسه عن الهيكل الجسماني ، وبعد ذلك يتوجه بالبصيرة إلى حقيقة القلب على طريق الاستغراق والاستهلاك ويداوم على ذلك فكلما يزداد توجهه إلى حقيقة القلب تزداد معرفته لنفسه ، وكلما تزداد معرفته لنفسه تزداد معرفته لربه سبحانه.

....

والحاصل أنه لا بد في هذه الصورة من التجرد عن الذوات الجسمانية ولواحقها ونحو العلوم الرسمية وملازمة التوجه إلى حقيقة القلب على الدوام ليتم له الإنجلاء الروحاني الغير المقيد بشيء من عوارض الأجسام، فيرى حقيقة قلبه في تلك الحالة نوراً بسيطاً محتوياً بجميع ما كان وما يكون.

وصورة أخرى من الوقوف القلبي أن يتوجه السالك إلى دائرة قلبه بعد تجريده عن الشواغل، ثم يلاحظ بدنه في وسط تلك الدائرة كالكرة ويخيل روحه نافذاً من أقطار السموات والأرض، ويستغرق في تلك الملاحظة على الدوام ويرجع إليها كلما يذهل عنها إلى أن يفنى عن ملاحظة تلك الكرة المفروضة ويتعطل جميع قواه وحواسه عن أحكامها، فعند حصول هذه الحالة يظهر له أن روحه نوراني محض ويستهلك جميع ما في السموات والأرض في تلك النورانية حتى لا يبقى في الوجود في نظره غير روحه الذي هو الأمر الإلهي، وبعد ذلك تستهلك نورانية الروح أيضاً نور الحق سبحانه لأن دائرة نور الروح متصلة بأفق نور الحق سبحانه، ونور الحق غالب على جميع الأنوار وجميع الأنوار متلاش عند ظهور الحق كتلاشي سائر الأضواء عند ظهور ضوء الشمس، فحينئذ لا يبقى في الظهور إلا نور الحق الذي هو الوجود المطلق جلت عظمته، وهذا هو حقيقة الحقائق.

وصورة أخرى من الوقوف القلبي أن يتوجه السالك إلى قلبه ثم يتصور روحه في قلبه نوراً محضاً بلا نهاية ويتصور في حق روحه النور إلى صورة بدنه وصور العالم كالطير في الهواء ويتصور روحه محيطاً بتلك الصورة، وتلك الصور محاطة بذلك الروح وهو ينظر إلى تلك الصور في جو الروح ويستغرق في النظر إليها حتى يتحد بتلك الصور في التصور، ويزداد في الاتحاد بتلك الصور بالتشوق إليها حتى يتخيل أنه تلك الصور، ويداوم على ذلك التصور بالتكرار فيه حتى يكون كأنه هو الحقيقة النوعية الكلية لجميع العالم التي لا نهاية ولا انقسام لها، بل يكون وحدة صرفة بمجموع تلك الصور، فمن جعل روحه متكيفاً بهذه الكيفية عرف حقيقة روحه لأن حقائق العالم كلها منطوية في الروح الإنساني والروح الإنساني حاو عليها، فمن عرف روحه بتلك الجمعية للحقائق كلها فقد عرف روحه وبه يتصل إلى معرفة ربه جل وعز.

وصورة أخرى من الوقوف القلبي أن يتوجه إلى قلبه بعد تجريد نفسه ويتصور فيه نوراً بسيطاً وحدانيا مجرداً عن الكيفيات كلها غير متعلق بشيء ظاهر أعلى العالم الجسماني، كظهور الشمس على الجسمانيات بالنسبة إلى ذلك النور البسيط كالذرة في شعاع الشمس، ثم يعلق نظره بذلك النور البسيط ويداوم على ذلك النظر لذلك النور البسيط حتى يستغرق في ذلك النظر بحيث لا يبقى له شعور لغير ذلك النظر، فعند ذلك يتجلى له نور الحق سبحانه لأن جميع الأنوار المجردة ينتهي إلى نور الحق سبحانه.

وصورة أخرى من الوقوف القلبي أن يتوجه إلى قلبه ويلاحظ فيه أن نظر الله محيط به من جميع الجهات ويجعل ذاته محاطة بنظر الله تعالى، ويستمر على تلك الملاحظة. وبهذا الاستمرار تصغر ذاته

....

تحت نظر الله تعالى حتى لا يبقى لها بالتدريج أثر من الوجود فيفنى عن وجوده الإمكاني ولا يشاهد فيه ولا في الأشياء كلها إلا وجود الحق سبحانه وقد وصل.

فصل

في شروط المراقبة وآدابها التي من داوم عليها يترقى منها إلى مقام المشاهدة.

فشروطها أن تكون المراقبة بإذن الشيخ وتعليمه وتربيته وتلقينه، وأن تكون مع الجذبة القوية وبعد قطع العلائق الحسية والمعنوية، وبعد ترك النسب والاضافات، وبعد الوقوف عند الواردات. وأما آدابها، فهي دوام السكوت وملازمة البيوت وكف الحواس عن الإحساس وتعطيل القوى عن الإدراك وترك الاشتغال بالكتابة ومطالعة الكتب والإعراض عن اتباع النفس في طلب العلوم والمعرفة ومخالفة الهوى وترك الآمال والأطماع والخروج عن كل داعية تدعو إلى السوى والسعي في طريق الوصول إلى الله تعالى ودوام التوجه إلى لقائه وترك الطمع عن المقامات والاجتناب عن الكرامات والتأدب مع الله في الظاهر والباطن، ومراقبته في جميع المظاهر، فمن داوم على المراقبة بهذه الشروط والآداب يتقرب إلى ذلك الجناب، ويبلغ مبلغ الرجال، ويشاهد الجلال والجمال، وتصح له التربية والتلقين والإرشاد إلى رب العالمين.

فصل

قالوا: المراقبة من أقرب الطرق إلى الله تعالى من حيث التقرب إليه، وهذه الأقربية ليست على إطلاقها بالنسبة إلى أهل الجذبة، فإنها أقرب الطرق في حقهم. وأما بالنسبة إلى السالك فتكون أبعد الطرق لأن السلوك يقتضي الرياضيات والمجاهدات في أوائله فلا تنفعه المراقبة ابتداء، وهذا موكول إلى فراسة الشيخ البصير العارف، فإن رأى في مريده الجذبة الإلهية غالبة عليه شغله بمراقبة اسم الذات، وإن رآه عارياً عنها أمره بالنفي والإثبات وملازمة الرياضات حتى يتمكن الذكر من قلبه فينجذب إلى الله تعالى بقلبه، فحينئذ يشغله بالمراقبة وذلك على الترتيب والتدريج. وقد قالوا: إن اسم الذات ذكر المجردين عن قيد السوى والنفي والإثبات ذكر المقيدين بقيد السوى، لأن مقام صاحب اسم الذات فرق مجرد كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿قل الله ثم ذرهم﴾ [الأنعام: ٩١] الخ. ومقام صاحب النفي والإثبات فرق مقيد كما أشار إليه الحديث: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله» فلكون اسم الذات من الأسماء الجبروتية، والنفي والإثبات من الأسماء الملكية كان الوصول بذكر اسم الذات إلى عالم الجبروت لأهل الجذبة أقرب من الوصول إليه بذكر النفي والإثبات، وحيث قد فرغنا من ذكر المراقبة ومتعلقاتها فلنعد إلى شرح كلام المصنف قال رحمه الله تعالى.

المرابطة الثالثة: محاسبة النفس بعد العمل. ولنذكر فضيلة المحاسبة ثم حقيقتها:

أما الفضيلة: فقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله ولتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الأعراف: ٢٠١] وهذه إشارة إلى المحاسبة على ما مضى من الأعمال، ولذلك قال عمر رضي الله تعالى عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا، وفي الخبر: أنه عليه السلام جاءه رجل فقال: يا رسول الله أوصني فقال: « أمستوص أنت » فقال: نعم، قال: « إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته فإن كان رشداً فأمضه وإن كان غياً فانتهِ عنه ». وفي الخبر: وينبغي للعاقل أن يكون له أربع ساعات ساعة يحاسب فيها نفسه. وقال تعالى: ﴿وَتُوبُوا إلى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١] والتوبة نظر في الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه. وقد قال النبي ﷺ: « إني لاستغفر الله تعالى وأتوب إليه في اليوم مائة مرة »، وقال الله تعالى: ﴿إنَّ الَّذِينَ اتَّقُوا إذَا مَسَّهُمْ طائف مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فإذا هُم مُبْصِرُونَ﴾

(**المرابطة الثالثة: محاسبة النفس بعد العمل**) ولواحقها الاعتصام والاستقامة، (**ولنذكر فضيلة المحاسبة ثم حقيقتها.**).

(**أما الفضيلة: فقد قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد﴾**) ليوم القيامة سماه به لدنوه أو لأن الدنيا كيوم والآخرة غده وتنكيره للتعظيم، وأما تنكير نفس فلاستقلال الأنفس النواظر فيما قدمن للآخرة كأنه قال: فلتنظر نفس واحدة ذلك، (**وهذه إشارة إلى أن المحاسبة على ما مضى من الأعمال**) أي أنها تدل على النظر بعد الفراغ من العمل، (**ولذلك قال عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا**) رواه أبو نعيم في الحلية من طريق ثابت بن الحجاج وقد تقدم قريباً. (**وفي الخبر أنه ﷺ جاءه رجل فقال: يا رسول الله أوصني. فقال « أمستوص أنت »**) أي قابل وصيتي (**فقال: نعم. قال « إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته فإن كان رشداً فامضه وإن كان غياً فانته عنه »**) تقدم للمصنف ذلك قريباً من حديث عبادة بن الصامت، وهو في كتاب الزهد لابن المبارك من مرسل أبي جعفر الهاشمي وتقدم الكلام عليه. (**وفي الخبر: « وينبغي للعاقل أن يكون له أربع ساعات ساعة يحاسب فيها نفسه »**) تقدم قريباً من حديث أبي ذر. (**وقال الله تعالى: ﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾**) تقدم الكلام عليه في كتاب التوبة. (**والتوبة نظر في الفعل بعد الفراغ منه**) بالندم عليه، (**وقد قال النبي ﷺ**) « إنه ليغان على قلبي، و (**إني لأستغفر الله تعالى وأتوب إليه في اليوم مائة مرة** »)تقدم غير مرة. (**وقال الله تعالى ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾**) وذكر الكمال الصوفي أن هذه الآية تدل على النظر في بداية

[الأعراف: ٢٠١] ، وعن عمر رضي الله تعالى عنه ؛ أنه كان يضرب قدميه بالدرة إذا جنه الليل ويقول لنفسه ماذا عملت اليوم ؟ وعن ميمون بن مهران أنه قال: لا يكون العبد من المتقين حتى يحاسب نفسه أشدّ من محاسبة شريكه والشريكان يتحاسبان بعد العمل. وروي عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن أبا بكر رضوان الله عليه قال لها عند الموت: ما أحد من الناس أحبّ إليَّ من عمر، ثم قال لها كيف قلت ؟ فأعادت عليه ما قال فقال: لا أحد أعزّ عليَّ من عمر فانظر كيف نظر بعد الفراغ من الكلمة فتدبرها وأبدلها بكلمة غيرها ! وحديث أبي طلحة حين شغله الطائر في صلاته فتدبر ذلك فجعل حائطه صدقة لله تعالى، ندماً ورجاء للعوض مما فاته. وفي حديث ابن سلام أنه حمل حزمة من حطب فقيل له يا أبا يوسف قد كان في بنيك وغلمانك ما يكفونك هذا، فقال: أردت أن أجرب نفسي هل تنكره ؟ وقال الحسن: المؤمن قوّام على نفسه يحاسبها لله، وإنما خف الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة. ثم فسر المحاسبة فقال: إن المؤمن يفجؤه

العمل. (و) يروى (**عن عمر رضي الله عنه أنه كان يضرب قدميه بالدرة إذا جنه الليل ويقول لنفسه: ماذا عملت اليوم**) وهذا يدل على المحاسبة بعد العمل. (و) يروى (**عن ميمون بن مهران**) الجزري العابد (**أنه قال: لا يكون العبد من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد محاسبة شريكه**، والشريكان) إنما (**يتحاسبان بعد العمل. وروي عن عائشة رضي الله عنها أن أبا بكر رضوان الله عليه قال لها عند الموت: ما أحد من الناس أحب إلي من عمر، ثم قال لها: كيف قلت؟ فأعادت عليه ما قال. فقال: ما أحد أعز علي من عمر**) فأبدل أحب بأعز. (**فانظر كيف نظر بعد الفراغ من الكلمة فتدبرها وأبدلها بكلمة غيرها**) وبين الكلمتين فرق كبير. (**وحديث أبي طلحة**) زيد بن سهل الأنصاري رضي الله عنه (**حين شغله الطائر في صلاته**) بأن اتبع نظره إليه حتى لم يدر كم صلى، (**فتدبر ذلك فجعل حائطه صدقة لله تعالى ندماً وجاء للعوض عما فاته**) وهذا عقوبة التقصير وهي سنة الأولياء وقد تقدم في كتاب الصلاة. (**وفي حديث**) عبدالله (**بن سلام**) رضي الله عنه (**أنه حمل حزمة من حطب فقيل له: يا أبا يوسف قد كان في بنيك وغلمانك ما يكفونك هذا. فقال: أردت أن أجرب نفسي هل تنكره**) فهذه محاسبة بعد العمل، وكان له من الأولاد يوسف وعبدالله. وفي الصحيح عن سعد بن أبي وقاص قال: ما سمعت النبي ﷺ يقول لأحد يمشي على الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبدالله بن سلام. قال الطبري وغيره: مات بالمدينة سنة ٤٣. (**وقال الحسن**) البصري رحمه الله تعالى: (**المؤمن قوام على نفسه**) أي كثير القيام عليها والمراعاة لها (**يحاسبها لله، وإنما خف الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة، ثم فسر المحاسبة فقال: إن المؤمن يفجؤه الشيء**)

الشيء يعجبه فيقول والله إنك لتعجبني وإنك من حاجتي ولكن هيهات حيل بيني وبينك! وهذا حساب قبل العمل، ثم قال: ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول ماذا أردت بهذا؟ والله لا أعذر بهذا والله لا أعود لهذا أبداً إن شاء الله! وقال أنس بن مالك سمعت عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يوماً وقد خرج وخرجت معه حتى دخل حائطاً فسمعته يقول وبيني وبينه جدار وهو في الحائط: عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بخ بخ، والله لتتقين الله أو ليعذبنك. وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢] قال: لا يلقى المؤمن إلا يعاتب نفسه ماذا أردت بكلمتي؟ ماذا أردت بأكلتي؟ ماذا أردت بشربتي؟ والفاجر يمضي قدماً لا يعاتب نفسه. وقال مالك بن دينار رحمه الله تعالى: رحم الله عبداً قال لنفسه: ألست صاحبة كذا، ألست صاحبة كذا؟ ثم ذمها ثم خطمها، ثم ألزمها كتاب الله تعالى فكان له قائداً، وهذا من معاتبة النفس كما سيأتي في موضعه، وقال ميمون بن مهران: التقيُّ أشدّ محاسبة لنفسه من سلطان غاشم ومن شريك شحيح. وقال ابراهيم التيمي: مثلت نفسي في الجنة آكل من

أي يرد عليه بغتة (**يعجبه فيقول: والله إنك لتعجبني وإنك لمن حاجتي، ولكن هيهات حيل بيني وبينك**) أي فيتركه، (**وهذا حساب قبل العمل، ثم قال: ويفرط منه الشيء**) أي يصدر منه بداراً (**فيرجع إلى نفسه فيقول: ماذا أردت بهذا والله لا أعذر بهذا**) أي لا يقبل عذري، (**والله لا أعود لهذا أبداً إن شاء الله**) تعالى. فهذا حساب بعد العمل. (**وقال أنس ابن مالك**) رضي الله عنه: (**سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوماً وقد خرج**) لحاجته (**وخرجت معه فدخل حائطاً**) من الحيطان (**فسمعته يقول وبيني وبينه جدار وهو في الحائط**) إذ تخلفت عنه: (**عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بخ بخ والله لتتقينّ الله أو يعذبنك**) فهذا منه محاسبة للنفس. (**وقال الحسن**) البصري رحمه الله تعالى (**في قوله تعالى ﴿ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾ قال: لا يلقى المؤمن إلا يعاتب نفسه ماذا أردت بكلمتي ماذا أردت بأكلتي ماذا أردت بشربتي؟ والفاجر يمضي قدماً لا يعاتب نفسه**) رواه عبد بن حميد وابن أبي الدنيا في كتاب مجاهدة النفس. وروي عن مجاهد أنه قال بالنفس اللوامة تندم على ما فات وتلوم عليه. رواه عبد بن حميد وابن جرير، وروي مثله عن ابن عباس رواه ابن المنذر. (**وقال**) أبو يحي (**مالك بن دينار**) البصري العابد رحمه الله تعالى: (**رحم الله عبداً قال لنفسه: ألست صاحبة كذا ألست صاحبة كذا ثم زمها**) أي حبسها وكفها كما تحبس الناقة بالزمام، (**ثم خطمها**) كما تخطم الناقة، ثم (**ألزمها كتاب الله تعالى فكان له قائداً وهذا من معاتبة النفس**) كما سيأتي في موضعه، (**وقال ميمون بن مهران**) الجزري العابد: (**التقي أشد محاسبة لنفسه من سلطان غاشم**) أي ظالم يجور في حسابه مع رعيته، (**ومن شريك شحيح**)

ثمارها وأشرب من أنهارها وأعانق أبكارها ، ثم مثلت نفسي في النار آكل من زقومها وأشرب من صديدها وأعالج سلاسلها ، فقلت لنفسي يا نفس أي شيء تريدين؟ فقالت: أريد أن أرد إلى الدنيا فاعمل صالحاً قلت فأنت في الأمنية فاعملي. وقال مالك بن دينار : سمعت الحجاج يخطب وهو يقول: رحم الله امرأ حاسب نفسه قبل أن يصير الحساب إلى غيره، رحم الله امرأ أخذ بعنان عمله فنظر ماذا يريد به، رحم الله امرأ نظر في مكياله، رحم الله امرأ نظر في ميزانه، فما زال يقوله حتى أبكاني. وحكى صاحب للأحنف بن قيس قال: كنت أصحبه فكان عامة صلاته بالليل الدعاء، وكان يجيء إلى المصباح فيضع أصبعه فيه حتى يحس بالنار ثم يقول لنفسه: يا حنيف ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟ ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟.

بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل:

اعلم أن العبد كما يكون له وقت في أوّل النهار يشارط فيه نفسه على سبيل التوصية بالحق فينبغي أن يكون له في آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع

محب للدنيا. (**وقال إبراهيم**) بن يزيد بن الحارث (**التيمي**) رحمه الله تعالى: (**مثلت نفسي في الجنة آكل من ثمارها وأشرب من أنهارها وأعانق أبكارها، ثم مثلت نفسي في النار آكل من زقومها وأشرب من صديدها وأعالج سلاسلها وأغلالها، فقلت لنفسي: يا نفسي أي شيء تريدين؟ فقالت: أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحاً. قلت: فأنت في الأمنية فاعملي**) رواه ابن أبي الدنيا. (**وقال**) أبو يحيى (**مالك بن دينار**) البصري رحمه الله تعالى: (**سمعت الحجاج**) بن يوسف الثقفي وهو أمير البصرة (**يخطب**) على المنبر (**وهو يقول: رحم الله امرأ حاسب نفسه قبل أن يصير الحساب إلى غيره، امرأ أخذ بعنان عمله فنظر ماذا يريد به، امرأ نظر في مكياله، امرأ نظر في ميزانه، فما زال يقول امرأ امرأ حتى أبكاني**) رواه ابن أبي الدنيا. (**وحكى صاحب للأحنف بن قيس**) التميمي رضي الله عنه له صحبة (**قال: كنت أصحبه فقال: كان عامة صلاته بالليل الدعاء، وكان يجيء إلى المصباح فيضع أصبعه فيه حتى يحس بالنار ثم يقول لنفسه: يا حنيف**) وهو تصغير أحنف بإسقاط الزائد (**ما حملك على ما صنعت يوم كذا، ما حملك ما صنعت يوم كذا**) يعاتب نفسه بذلك. رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس.

بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل:

(**اعلم**) وفقك الله تعالى (**أن العبد كما يكون له وقت**) معلوم (**في أول النهار يشارط فيه نفسه على سبيل التوصية بالحق، فينبغي أن تكون له في آخر النهار**) كذلك (**ساعة**)

حركاتها وسكناتها . كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة أو شهر أو يوم حرصاً منهم على الدنيا ، وخوفاً من أن يفوتهم منها ما لو فاتهم لكانت الخيرة لهم في فواته ولو حصل ذلك لهم فلا يبقى إلا أياماً قلائل ، فكيف لا يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة أبد الآباد ؟ ما هذه المساهلة إلا عن الغفلة والخذلان وقلة التوفيق نعوذ بالله من ذلك . ومعنى المحاسبة مع الشريك أن ينظر في رأس المال وفي الربح والخسران ليتبين له الزيادة من النقصان ، فإن كان من فضل حاصل استوفاه وشكره ، وإن كان من خسران طالبه بضمانه وكلفه تداركه في المستقبل . فكذلك رأس مال العبد في دينه الفرائض ، وربحه النوافل والفضائل ، وخسرانه المعاصي . وموسم هذه التجارة جملة النهار ومعاملة نفسه الأمارة بالسوء ، فليحاسبها على الفرائض أوّلاً فإن أداها على وجهها شكر الله تعالى عليه ورغبها في مثلها ، وإن فوّتها من أصلها طالبها بالقضاء ، وإن أداها ناقصة كلفها الجبران بالنوافل ، وإن ارتكب معصية اشتغل بعقوبتها وتعذيبها ومعاتبتها ليستوفي منها ما يتدارك به ما فرط كما يصنع التاجر بشريكه وكما أنه يفتش في حساب الدنيا عن الحبة والقيراط فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان حتى لا يغبن

معلومة (**يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها**) لم تحركت ولم سكنت ، وفي أي شيء تحركت ، وفي أي شيء سكنت . وهذا (**كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة أو شهر أو يوم**) كيفما اتفق ، (**حرصاً منهم على**) حوز متاع (**الدنيا وخوفاً من أن يفوتهم منها ما لو فاتهم لكانت الخيرة لهم في فواته ، ولو حصل لهم فلا يبقى**) ما حصل (**إلا أياماً قلائل**) ثم يفنى ، (**فكيف لا يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة أبد الآباد ما هذه المساهلة إلا عن الغفلة والخذلان وقلة التوفيق . نعوذ بالله من ذلك**) فلو ساعده التوفيق كان يقدم محاسبة نفسه على كل الأعمال والأحوال إذ هي ميدانها كما تقدم ، (**ومعنى المحاسبة مع الشريك أن ينظر في رأس المال وفي الربح والخسران ليتبين له الزيادة من النقصان ، فإن كان من فضل حاصل استوفاه وشكره ، وإن كان من خسران طالبه بضمانة وكلفه تداركه في المستقبل ، فكذلك رأس مال العبد في دينه الفرائض وربحه النوافل والفضائل وخسرانه المعاصي ، وموسم هذه التجارة جلة النهار ومعاملة نفسه الأمارة بالسوء فليحاسبها على الفرائض أولاً**) فإنها رأس ماله ، (**فإن أداها على وجهها**) بآدابها وشروطها (**شكر الله تعالى عليه ورغبها في مثله ، وإن فوتها من أصلها طالبها بالقضاء**) فإنه يحكي الأداء ، (**وإن أداها ناقصة**) الشروط والآداب (**كلفها الجبران بالنوافل**) فجبر الفرائض واجب ، (**وإن ارتكب معصية اشتغل بعقوبتها وتعذيبها ومعاتبتها ليستوفي منها ما يتدارك به ما فرط**) فعقوبتها على التقصير سنة الأولياء والصالحين كما سيأتي . (**كما يصنع التاجر بشريكه وكما أنه**) أي التاجر (**يفتش في حساب الدنيا عن الحبة والقيراط فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان**

في شيء منها فينبغي أن يتقي غبينة النفس ومكرها فإنها خدّاعة ملبسة مكارة، فليطالبها أوّلاً بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلم به طول نهاره، وليتكفل بنفسه من الحساب ما سيتولاه غيره في صعيد القيامة، وهكذا عن نظره بل عن خواطره وأفكاره وقيامه وقعوده وأكله وشربه ونومه، حتى عن سكوته أنه لم سكت؟ وعن سكونه لم سكن؟ فإذا عرف مجموع الواجب على النفس، وصح عنده قدر أدى الواجب فيه، كان ذلك القدر محسوباً له فيظهر له الباقي على نفسه فليثبته عليها وليكتبه على صحيفة قلبه كما يكتب الباقي الذي على شريكه على قلبه وفي جريدة حسابه. ثم النفس غريم يمكن أن يستوفي منه الديون. أما بعضها: فبالغرامة والضمان، وبعضها: برد عينه، وبعضها بالعقوبة لها على ذلك. ولا يمكن شيء من ذلك إلا بعد تحقيق الحساب وتمييز الباقي من الحق الواجب عليه فإذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء. ثم ينبغي أن يحاسب النفس على جميع العمر يوماً يوماً وساعة ساعة في جميع الأعضاء الظاهرة والباطنة، كما نقل عن توبة بن الصمة وكان بالرقة وكان محاسباً لنفسه؛ فحسب يوماً فإذا هو ابن ستين سنة،

حتى لا يغبن في شيء منها، فينبغي أن يتقي غبينة النفس ومكرها فإنها خداعة ملبسة مكارة فليطالبها أولاً بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلم به طول نهاره، وليتكفل بنفسه من الحساب ما سيتولاه غيره في صعيد القيامة. وهكذا عن نظره بل عن خواطره) وهمومه **(وأفكاره وقيامه وقعوده وأكله وشربه ونومه حتى عن سكوته أنه لم سكت وعن سكونه لم سكن، فإذا عرف مجموع الواجب على النفس وصح عنده قدر أدى الواجب فيه كان ذلك القدر محسوباً له فيظهر له الباقي على نفسه، فليثبته عليها وليكتبه على صحيفة قلبه كما يكتب)** التاجر **(الباقي الذي على شريكه على قلبه وعلى جريدة حسابه، ثم النفس غريم يمكن أن يستوفي منه الديون أما بعضها فبالغرامة والضمان، وبعضها برد عينه، وبعضها بالعقوبة لها على ذلك. ولا يمكن شيء من ذلك إلا بعد تحقيق الحساب وتمييز الباقي من الحق الواجب عليه، فإذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء)**.

قال الشيخ الأكبر قدس سره: كان أشياخنا يحاسبون أنفسهم على ما يتكلمون به وما يفعلونه ويقيدونه في دفتر، فإذا كان بعد العشاء حاسبوا نفوسهم وأحضروا دفترهم ونظروا فيما صدر عنهم من قول وعمل وقابلوا كلاً بما يستحق ثم ينامون، فزدنا عليهم في هذا الأمر فكنا نقيد ما نحدث به نفوسنا ونهم به اهـ.

(ثم ينبغي أن يحاسب النفس على جميع العمر يوماً يوماً وساعة ساعة في جميع الأعضاء الظاهرة والباطنة، كما نقل عن توبة بن الصمة) العابد **(وكان بالرقة)** بلد بالجزيرة، **(وكان محاسباً لنفسه فحسب يوماً عمره فإذا هو ابن ستين سنة فحسب أيامها فإذا هي**

فحسب أيامها فإذا هي أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم، **فصرخ وقال يا ويلتي القى الملك بأحد وعشرين ألف ذنب، فكيف وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب؟ ثم خر مغشياً عليه فإذا هو ميت، فسمعوا قائلاً يقول: يا لك ركضة إلى الفردوس الأعلى! فهكذا ينبغي أن يحاسب نفسه على الأنفاس وعلى معصيته بالقلب والجوارح في كل ساعة؛ ولو رمى العبد بكل معصية حجراً في داره لامتلأت داره في مدّة يسيرة قريبة من عمره، ولكنه يتساهل في حفظ المعاصي والملكان يحفظان عليه ذلك ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾** [المجادلة: ٦].

أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم) من ضرب أيام السنة في الستين **(فصرخ وقال: يا ويلتي ألقى الملك بأحد وعشرين ألف ذنب)** وخمسمائة ذنب، **(فكيف وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب، ثم خر مغشياً عليه فإذا هو ميت)** وهذا قد غلبه الخوف فشق شغاف قلبه، **(فسمعوا قائلاً يقول: يا لك ركضة إلى الفردوس الأعلى)** رواه البيهقي في الشعب عن رجل من قريش ولم يقل وكان بالرقة. **(فهكذا ينبغي أن يحاسب نفسه على الأنفاس)** صاعدة وهابطة، **(وعلى كل معصية بالقلب)** إذا هم بها، **(والجوارح في كل ساعة. ولو رمى العبد بكل معصية حجراً في داره لامتلأت داره)** بالحجارة **(في مدة يسيرة قريبة من عمره، ولكنه يتساهل في حفظ المعاصي والملكان يحفظان عليه ذلك)** كما قال تعالى: **(﴿أحصاه الله ونسوه﴾)** ثم إن الحامل على هذه المحاسبة الإيمان بمحاسبة الله تعالى يوم القيامة على الجليل والحقير وهو واجب وهو من الإيمان لله، فإن صفا قلبه حتى يحس بوقع الدين في قلبه أثرا المخالفة، فهذا من الذين كاشفهم الله بسرعة حسابهم في الدنيا قبل حساب الآخرة فتابوا وأنابوا وأثنى عليهم بقوله: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم﴾ [آل عمران: ١٣٥] وقد نبهنا على ما في الذنب من العقاب العاجل والآجل بقوله ﴿وإن عليكم لحافظين ★ كراماً كاتبين ★ يعلمون ما تفعلون﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٢] فنفس كتب السيئة هو عين العقوبة لأنها تنكت في القلب نكتة سوداء وتتزايد إلى أن يصير ريناً، وكذلك الحسنة هي نفس الثواب العاجل لأنها تنكت في القلب نكتة بيضاء وتتزايد إلى أن تصير كالمرآة الصقيلة، فلذلك قال تعالى: ﴿إن الأبرار لفي نعيم ★ وإن الفجار لفي جحيم ★ يصلونها يوم الدين ★ وما هم عنها بغائبين﴾ [الانفطار: ١٣ - ١٦] ولكن لا يشعرون بما ران على قلوبهم من رين الذنوب وهذه المحاسبة توجب الاعتصام وهو المعنى الجامع لكل ما يخبر عنه العلماء من العلوم والأحوال والأعمال، لأن حقيقته التمسك بكتاب الله والحفظ لحدود الله، ولذلك نقول: إن الصلاح المؤدي إلى معرفة الله ولائه بغير علم ممنوع وهو ثمرة المحاسبة، لأن المحاسبة تلزم العبد الرعاية والحفظ للحدود، والفرق بينه وبين الاستقامة أن الاعتصام هو الحفظ للحدود واجبها ومندوبها والاستقامة هي الثبات والاعتدال عن الميل إلى طرفي الأمر المعتصم به. قال تعالى: ﴿ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم﴾ [آل عمران: ١٠١] فمن حاسب نفسه إلى الدخول في مقام الجمع من وادي

المرابطة الرابعة: في معاقبة النفس على تقصيرها:

مهما حاسب نفسه فلم تسلم عن مقارفة معصية وارتكاب تقصير في حق الله تعالى فلا ينبغي أن يهملها فإنه إن أهملها سهل عليه مقارفة المعاصي وأنست بها نفسه وعسر عليه فطامها، وكان ذلك سبب هلاكها، بل ينبغي أن يعاقبها، فإذا أكل لقمة شبهة بشهوة نفس ينبغي أن يعاقب البطن بالجوع، وإذا نظر إلى غير محرم ينبغي أن يعاقب العين بمنع النظر، وكذلك يعاقب كل طرف من أطراف بدنه بمنعه عن شهواته. هكذا كانت عادة سالكي طريق الآخرة. فقد روي عن منصور بن ابراهيم: أن رجلاً من العباد كلم امرأة فلم يزل حتى وضع يده على فخذها ثم ندم فوضع يده على النار حتى يبست. وروي أنه كان في بني إسرائيل رجل يتعبد في صومعته فمكث كذلك زماناً طويلاً فأشرف ذات يوم فإذا هو بامرأة فافتتن بها وهمَّ بها فأخرج رجله لينزل إليها فأدركه الله بسابقة فقال: ما هذا الذي أريد أن أصنع؟ فرجعت إليه نفسه وعصمه الله تعالى فندم، فلما أراد أن يعيد رجله إلى الصومعة قال: هيهات هيهات؟ رجل خرجت تريد أن تعصي

التفرقة وهي مطمح أنظار الأولياء والمقربين. ثم إن العبد إذا حاسب نفسه فرآها خانت وضيعت لزمه أمور: أحدها أن يتدارك بالتوبة والجبر وقد تقدم، فإن لم يستطع لغلبة الشهوة عالج نفسه بالمعاقبة، وإليه أشار المصنف فقال:

(**المرابطة الرابعة: في معاقبة النفس على تقصيرها**). اعلم أنه (**مهما حاسب**) العبد (**نفسه فلم تسلم عن مقارفة معصية**) أي ملابستها (**وارتكاب تقصير في حق الله تعالى فلا ينبغي أن يهملها**) أي يتركها هملاً (**فإنه إن أهملها سهل عليه مقارفة المعاصي وأنست نفسه**) وألفتها (**وعسر عليه**) حينئذ (**فطامها**) فإن الأنس بالشيء يوجب الجمود عليه، (**وكان ذلك سبب هلاكه، بل ينبغي أن يعاقبها**) بما يلائم جنس الذنب ويقابله فإن لكل مرض علاجاً، (**فإذا أكل لقمة شبهة بشهوة نفس**) فإنه (**ينبغي أن يعاقب البطن بالجوع، وإذا نظر إلى غير محرم فينبغي أن يعاقب العين بمنع النظر**) بأن لا يفتحها، (**وكذلك يعاقب كل طرف من أطراف بدنه بمنعه عن شهواته. وهكذا كانت عادة سالكي طريق الآخرة، فقد روي عن منصور بن إبراهيم**) رحمه الله تعالى (**أن رجلاً من العباد كلم امرأة**) أجنبية (**فلم يزل حتى وضع يده على فخذها ثم ندم**) على ما صنع، (**فوضع يده على النار حتى فشت**) أي يبست. (**وروي**) في بعض الأخبار (**أنه كان في بني إسرائيل رجل يتعبد في صومعته فمكث بذلك زماناً طويلاً فأشرف ذات يوم**) من طاقة في تلك الصومعة (**فإذا هو بامرأة فافتتن بها**) لبراعتها في الجمال، (**وهم بها فأخرج رجله لينزل إليها فأدركه الله بسابقة**) من عنايته فتذكر (**فقال: ما هذا الذي أريد أن أصنع فرجعت إليه نفسه وعصمه الله تعالى فندم، فلما أراد أن يعيد رجله إلى الصومعة قال: هيهات هيهات! رجل خرجت تريد أن تعصي الله تعود**

الله تعود معي في صومعتي لا يكون والله ذلك أبداً؟ فتركها معلقة في الصومعة تصيبها الأمطار والرياح والثلج والشمس حتى تقطعت فسقطت، فشكر الله له ذلك وأنزل في بعض كتبه ذكره. ويحكى عن الجنيد قال: سمعت ابن الكريبي يقول: أصابتني ليلة جنابة فاحتجت أن اغتسل وكانت ليلة باردة. فوجدت في نفسي تأخراً وتقصيراً فحدثتني نفسي بالتأخير حتى أصبح وأسخّن الماء أو أدخل الحمام ولا أعني على نفسي فقلت: واعجباه أنا أعامل الله في طول عمري فيجب له علي حق فلا أجد في المسارعة وأجد الوقوف والتأخر؟ آليت أن لا أغتسل إلا في مرقعتي هذه. وآليت أن لا أنزعها ولا أعصرها ولا أجففها في الشمس. ويحكى أن غزوان وأبا موسى كانا في بعض مغازيهما فتكشفت جارية فنظر إليها غزوان، فرفع يده فلطم عينه حتى بقرت وقال: إنك للحاظة إلى ما يضرك. ونظر بعضهم نظرة واحدة إلى امرأة فجعل على نفسه أن لا

معي في صومعتي لا يكون والله ذلك أبداً، فتركها معلقة من الصومعة تصيبها الأمطار والرياح والثلج والشمس حتى) يبست و **(تقطعت فسقطت فشكر الله له ذلك وأنزل في بعض كتبه ذكره. ويحكى عن)** أبي القاسم **(الجنيد)** قدس سره أنه **(قال: سمعت ابن الكريبي)** هو شيخه وقد تقدم ذكره وأنه منسوب إلى كرتنا ناحية بخراسان ترجه الخطيب في تاريخه **(يقول: أصابتني ليلة جنابة احتجت أن أغتسل وكانت ليلة باردة فوجدت في نفسي تأخراً وتقصيراً فحدثتني نفسي بالتأخير حتى أصبح وأسخن الماء أو أدخل الحمام ولا أعين على نفسي)** بالهلاك **(فقلت: واعجباه أنا أعامل الله في طول عمري فيجب علي حق)** من حقوقه، **(فلا أجد في المسارعة وأجد الوقوف والتأخر آليت أن لا أغتسل إلا في مرقعتي هذه، وآليت أن لا أنزعها ولا أعصرها ولا أجففها في الشمس)** وهذه معاقبة تامة على النفس.

(ويحكى أن غزوان وأبا موسى) إن كان أبو موسى هو الأشعري الصحابي فاسمه عبدالله ابن قيس ولا أعرف في الصحابة من اسمه غزوان وفي التابعين غزوان بن عتبة بن غزوان المازني روى عن أبيه حديثاً عند الطبراني وأبوه صحابي مشهور، فيحتمل أن يكون هو المراد هنا والله أعلم. **(كانا في)** بعض **(مغازيهم فتكشفت)** لهما **(جارية)** جميلة الصورة، **(فنظر إليها غزوان)** نظر شهوة ثم رجع فندم، **(فرفع يده فلطم عينه)** لطمة **(حتى نفرت)** من موضعها **(وقال: إنك للحاظة إلى ما يضرك)** ثم ظهر لي أن صاحب القصة مع أبي موسى هو عتبة بن غزوان، فقد قال أبو نعيم في الحلية: حدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا أبو بكر بن أبي داود، حدثنا محمود بن خالد، حدثنا الوليد بن مسلم عن الأوزاعي، حدثني هارون بن رياب عن عتبة بن غزوان الرقاشي قال، قال لي أبو موسى: مالي أرى عينك نافرة؟ فقلت: إني التفت التفاتة فرأيت جارية لبعض الجيش فلحظتها فصككتها صكة فنفرت فصارت إلى ما ترى. فقال: استغفر ربك ظلمت عينك

يشرب الماء البارد طول حياته فكان يشرب الماء الحار لينغص على نفسه العيش. ويحكى أن حسان بن أبي سنان مر بغرفة فقال: متى بنيت هذه؟ ثم أقبل على نفسه فقال: تسألين عما لا يعنيك؟ لأعاقبنـك بصوم سنة فصامها. وقال مالك بن ضيغم: جاء رباح القيسي يسأل عن أبي بعد العصر فقلنا: إنـه نائم، فقال: أنوم هذه الساعة! هذا وقت نوم؟ ثم ولى منصرفاً، فأتبعناه رسولاً وقلنا: ألا نوقظه لك؟ فجاء الرسول وقال: هو أشغل من أن يفهم عني شيئاً، أدركته وهو يدخل المقابر وهو يعاتب نفسه ويقول: أقلت وقت نوم هذه الساعة؟ أفكان هذا عليك؟ ينام الرجل متى شـاء! وما يدريك أن هذا ليس وقت نوم؟ تتكلمين بما لا تعلمين؟ أما إن لله عليَّ عهداً ألاّ أنقضه أبداً لا أوسدك الأرض لنوم حولاً إلا لمرض حائل أو لعقل زائل، سوأة لك أما تستحين؛ كم توبخين؟ وعن

إن لها أول نظرة وعليك ما بعده. (و) قد تكون المعاقبة على خلاف جنس المعصية وإنما هي على حسب ما اقتضاه رأي المعاقب، كما حكي أنه (**نظر بعضهم نظرة واحدة إلى امرأة**) أجنبية وكأنه قصد بها تلذذ النفس فندم، (**فجعل على نفسه أن لا يشرب الماء البارد طول حياته فكان يشرب الماء الحار لينغص على نفسه العيش. ويحكى أن حسان بن أبي سنان**) البصري العابد روى له البخاري تعليقاً في البيوع فقال، وقال حسان بن أبي سنان: ما رأيت شيئاً أهون من الورع «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» (**مر بغرفة فقال: متى بنيت هذه؟ ثم أقبل على نفسه فقال: تسألين عما لا يعنيك لأعاقبنك بصوم سنة فصامها**). رواه أبو نعيم في الحلية من طريق عبد الجبار بن النضر السلمي قال: مر حسان بغرفة فقال: مذ كم بنيت؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: وما عليك مذ كم بنيت تسألين عما لا يعنيك فعاقبها بصوم سنة. وروي أيضاً من طريق أبي حكيم أن حساناً خرج يوم العيد، فلما رجع قالت له امرأته: كم من امرأة حسنة قد نظرت إليها اليوم؟ فلما أكثرت قال: ويحك ما نظرت إلا في إبهامي منذ خرجت من عندك حتى رجعت إليك.

(**وقال مالك بن ضيغم**) الجلاب البصري (**جاء رياح القيسي**) هو أبو المهاصر رياح بن عمرو، روى عن حسان بن أبي سنان وأيوب السختياني وصالح المري ومالك بن دينار وغيرهم، وعنه أحمد بن يونس، وعبدالله بن عمر، ترجمه أبو نعيم في الحلية. (**يسأل عن أبي**) وهو ضيغم الجلاب له ذكر في الشعب للبيهقي في باب المحبة (**بعد العصر، فقلنا إنه نائم، فقال: نوم هذه الساعة هذا وقت نوم ثم ولى منصرفاً فاتبعناه رسولاً وقلنا: ألا نوقظه لك فجاء الرسول وقال: هو أشغل من أن يفهم عني شيئاً أدركته وهو يدخل المقابر وهو يعاقب نفسه ويقول: أقلت وقت نوم هذه الساعة أفكان هذا عليك. ينام الرجل متى يشاء وما يدريك أن هذا ليس وقت نوم تتكلمين بما لا تعلمين، أما أن لله علي عهد ألا أنقضه أبداً لا أوسـدك الأرض لنوم حولا إلا لمرض حائل أو لعقل زائل سوأة لك، أما تستحيين كم توبخين وعن**

غيك لا تنتهين؟ قال: وجعل يبكي وهو لا يشعر بمكاني، فلما رأيت ذلك انصرفت وتركته. ويحكى عن تميم الداري أنه نام ليلة لم يقم فيها يتهجد، فقام سنة لم ينم فيها، عقوبة للذي صنع. وعن طلحة رضي الله تعالى عنه قال: انطلق رجل ذات يوم فنزع ثيابه وتمرغ في الرمضاء فكان يقول لنفسه: ذوقي! ونار جهنم أشد حراً أجيفة بالليل بطّالة بالنهار؟ فبينما هو كذلك إذ أبصر النبي ﷺ في ظل شجرة فأتاه فقال: غلبتني نفسي؟ فقال له النبي ﷺ: «ألم يكن لك بدّ من الذي صنعت أما لقد فتحت لك أبواب السماء ولقد باهى الله بك الملائكة» ثم قال لأصحابه: «تزودوا من أخيكم»

غيك لا تنتهين. قال: وجعل يبكي وهو لا يشعر بمكاني، فلما رأيت ذلك انصرفت وتركته) رواه أبو نعيم في الحلية فقال: حدثنا عبدالله بن محمد بن جعفر، حدثنا أبو يعلى الموصلي، حدثنا محمد بن الحسين البرجلاني، حدثنا مالك بن ضيغم قال: جاءنا رياح القيسي يسأل عن أبي بعد العصر فقلنا: هو نائم، فقال: أنوم هذه الساعة هذا وقت نوم ثم ولى، فاتبعناه فقلنا الحقه فقل نوقظه لك. قال: فجاءنا بعد المغرب فقلنا أبلغه قال: هو كان أشغل من أن يفهم عني أدركته وهو يدخل المقابر وهو يوبخ نفسه ويقول: أقلت أي نوم هذا لينم الرجل متى شاء، تسألين عما لا يعنيك، أما أن لله عز وجل علي عهداً لا أنقضه فيما بيني وبينه أبداً، لا أوسدك لنوم حولاً، قال: فلما سمعت هذا منه تركته وانصرفت.

(ويحكى أن) أبا رقية **(تميم)** بن أوس بن خارجة **(الداري)** رضي الله عنه كان بالمدينة ثم انتقل إلى الشام بعد قتل عثمان ونزل بيت المقدس ومات بالشام، روى له البخاري تعليقاً والجماعة. **(نام ليلة لم يقم يتهجد فقام سنة لم ينم فيها عقوبة للذي صنع)** رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس، ورواه البيهقي في الشعب من طريق المنكدر عن أبيه أن تميماً الداري نام ليلة لم يقم يتهجد فيها حتى أصبح فقام سنة لم ينم فيها عقوبة للذي صنع. ورواه ابن أبي الدنيا عن محمد بن الحسين، حدثني يونس بن يحيي الأموي، عن المنكدر بن محمد بن المنكدر عن أبيه أن تميماً الداري نام ليلة لم يتهجد فيها حتى أصبح فقام سنة فلم ينم فيها عقوبة للذي صنع. وفي خبر ابن حيوة من طريق ابن سيرين كان تميم يقرأ القرآن في ركعة. وفي طبقات ابن سعد عن أبي قلابة كان تميم يختم القرآن في سبع ليال وقد تقدم.

(وعن طلحة) اختلف فيه فقيل: هو الصحابي أحد العشرة، وقيل هو طلحة بن مصرف كما سيأتي في بيان الاختلاف فيه عقيب الحديث **(قال: انطلق رجل ذات يوم فنزع ثيابه وتمرغ في الرمضاء)** أي الرمل الحار **(فكان يقول لنفسه: ذوقي نار جهنم أشدّ حراً أجيفة بالليل بطالة بالنهار، فبينما هو كذلك إذ أبصر النبي ﷺ في ظل شجرة فأتاه فقال: غلبتني نفسي)** أي فقهرتها بهذا العمل وكأنه يعتذر للنبي ﷺ، **(فقال له النبي ﷺ: «ألم يكن لك بدّ من الذي صنعت أما لقد فتحت لك أبواب السماء ولقد باهى الله بك الملائكة» ثم قال**

فجعل الرجل يقـول له يا فلان ادع لي ؟ يا فلان ادع لي فقال النبي ﷺ : « عمهم » فقال اللهم اجعل التقوى زادهم واجمع على الهدى أمرهم. فجعل النبي ﷺ يقول: « اللهم سدّده » فقال الرجل: اللهم اجعل الجنة مآبهم. وقال حذيفة بن قتادة: قيل لرجل كيف تصنع بنفسك في شهواتها ؟ فقال: ما على وجه الأرض نفس أبغض إليّ منها فكيف أعطيها شهواتها ؟ ودخل ابن السماك على داود الطائي حين مات وهو في بيته على التراب فقال: يا داود سجنت نفسك قبل أن تسجن وعذبت نفسك قبل أن تعذب. فاليوم ترى ثواب من كنت تعمل له. وعن وهب بن منبه: أن رجلاً تعبد زماناً، ثم بدت له إلى الله

لأصحابه: « تزودوا من أخيكم » فجعل الرجل يقول له: يا فلان ادع لي، فقـال النبي ﷺ : « عمهم » فقال: اللهم اجعل التقوى زادهم واجمع على الهدى أمرهم، فجعل النبي ﷺ يقول: « اللهم سدده » فقال الرجل: اللهم اجعل مآبهم الجنة). قال العراقي: رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس من رواية ليث بن أبي سليم عنه وهذا منقطع أو مرسل، ولا أدري من طلحة هذا إلا أن يكون طلحة بن مصرف، وإلا فهو مجهول. وقد أخرجه الطبراني من حديث بريـدة متصلاً نحوه قال: بينما النبي ﷺ في مسير له إذ أتى على رجل يتقلب في الرمضاء ظهر البطن ويقول: نوم بالليل وباطل بالنهار وترجين الجنة الحديـث اهـ.

قلت: وقوله وهذا منقطع أو مرسل يعني به إن كان طلحة صحابياً فليث لم يذكره فهو منقطع بينهما، وإن كان هو طلحة بن مصرف فروايته عن الصحابة وعن كبار التابعين فهو مرسل، وقد روى أبو داود في سننه حديثاً عن طلحة عن أبيه عن جده فقيل: هو طلحة بن مصرف بن عمرو ابن كعب اليامي، وقيل: وإلاّ فهو مجهول وذكر الذهبي أن مصرف بن عمرو عن أبيه مجهول وعمرو بن كعب، وقيل كعب بن عمرو صحابي مختلف فيه.

(وقال حذيفة بن قتادة) المرعشي رحمه الله تعالى، **(قيل لرجل: كيف تصنع بنفسك في شهوتها ؟ فقال: ما على وجه الأرض نفس أبغض إليّ منها فكيف أعطيها شهوتها)** ؟ رواه أبو نعيم في الحلية فقال: حدثنا عبدالله بن محمد، حدثني سلمة، حدثنا سهل بن عاصم، عن أبي يزيد الرقي قال: قال حذيفة بن قتادة قيل لرجل فذكره.

(ودخل) أبو العباس **(ابن السماك)** الواعظ هو محمد بن صبيح البغدادي، روى عن التابعين **(على داود)** بن نصير **(الطائي)** رحمهما الله تعالى **(حين مات وهو في بيته على التراب فقال: يا داود سجنت نفسك قبل أن تسجن، وعذبت نفسك قبل أن تعذب، فاليـوم تـرى ثـواب من كنت تعمل له)**. رواه أبـو نعيم في الحلية فقال: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن محمد بن عمر، حدثنا عبدالله بن محمد بن عبيد قال: سمعت أبا جعفر الكندي في جنازة بشر بن الحرث يقول: دخل ابن السماك على داود الطائي حين مات فذكره.

تعالى حاجة فقام سبعين سبتاً يأكل في كل سبت إحدى عشرة تمرة، ثم سأل حاجته فلم يعطها، فرجع إلى نفسه وقال: منك أتيت لو كان فيك خير لأعطيت حاجتك؟ فنزل إليه ملك وقال: يا ابن آدم، ساعتك هذه خير من عبادتك التي مضت وقد قضى الله حاجتك. وقال عبدالله بن قيس: كنا في غزاة لنا فحضر العدو فصيح في الناس فقاموا

وقال أيضاً: حدثنا إبراهيم بن عبدالله، حدثنا محمد بن إسحاق، حدثني أبو بكر بن خلف، حدثنا إسحاق بن منصور ببغداد سنة خمس ومائتين قال: لما مات داود الطائي شيع الناس جنازته، فلما دفن قام ابن السماك فقال: يا داود كنت تسهر ليلك إذا الناس نائمون. فقال القوم جميعاً: صدقت. وكنت تربح إذا الناس يخسرون، وكنت تسلم إذا الناس يخوضون. فقال الناس جميعاً: صدقت، حتى عدد فضائله كلها، فلما فرغ قام أبو بكر النهشلي فحمد الله ثم قال: يا رب إن الناس قالوا ما عندهم مبلغ ما علموا. اللهم فاغفر له برحمتك ولا تكله إلى عمله.

حدثنا أبي، حدثنا عبدالله بن محمد بن يعقوب، حدثنا أبو حاتم محمد بن إدريس، حدثنا محمد ابن يحيى الواسطي، حدثنا محمد بن بشير، حدثنا حفص بن عمر الجعفي قال: اشتكى داود الطائي أياماً وكان سبب علته أنه مرّ بآية فيها ذكر النار فكررها مراراً في ليلته فأصبح مريضاً فوجدوه قد مات ورأسه على لبنة، ففتحوا باب الدار ودخل ناس من إخوانه وجيرانه ومعهم ابن السماك فلما نظر إلى رأسه قال: يا داود فضحت القراء، فلما حملوه إلى قبره خرج في جنازته خلق كثير حتى خرج ذوات الخدور، فقال ابن السماك: يا داود سجنت نفسك قبل أن تسجن وحاسبت نفسك قبل أن تحاسب، فاليوم ترى ثواب ما كنت ترجو وله كنت تنصف وتعمل، فقال أبو بكر بن عياش؛ وهو على شفير القبر: اللهم لا تكل داود إلى علمه. قال: فاعجب الناس ما قال أبو بكر.

حدثنا أبو محمد بن حيان، حدثنا أحمد بن راشد، حدثنا محمد بن حسان الأزرق، حدثنا ابن مهدي قال: بلغني أن داود الطائي يوم مات وهو في بيت على التراب وتحت رأسه لبنة، فبكيت لما رأيت من حاله ثم ذكرت مَا أعدّ الله تعالى لأوليائه فقلت: داود سجنت نفسك قبل أن تسجن، وعذبت نفسك قبل أن تعذب، فاليوم ترى ثواب من كنت له تعمل.

(و) روي **(عن وهب بن منبه)** اليماني رحمه الله تعالى قال: **(إن رجلاً تعبد زماناً)** طويلاً، **(ثم بدت له إلى الله حاجة فقام سبعين سبتاً يأكل في كل سبت إحدى عشرة تمرة، ثم سأل حاجة فلم يعطها فرجع إلى نفسه وقال: منك أتيت لو كان فيك خير لأعطيت حاجتك فنزل إليه ملك وقال: يا ابن آدم ساعتك هذه خير من عبادتك التي مضت، وقد قضى الله حاجتك)** رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس.

(وقال عبدالله بن قيس) هو أبو موسى الأشعري رضي الله عنه، وكان عمر ولاه غزاة فارس، وهو الذي فتح تستر ونزل الهرمزان من الحصن على حكم عمر فأرسله مع أنس إلى المدينة فأمنه عمر وأسلم الهمرمزان: **(كنا في غزاة لنا فحضر العدوّ**

إلى المصاف في يوم شديد الريح، وإذا رجل أمامي وهو يخاطب نفسه ويقول: أي نفس ألم أشهد مشهد كذا وكذا فقلت لي: أهلك وعيالك فأطعتك ورجعت؟ ألم أشهد مشهد كذا وكذا فقلت لي، أهلك وعيالك فأطعتك ورجعت؟ والله لأعرضنك اليوم على الله أخذك أو تركك؟ فقلت: لأرمقنّـه اليوم فرمقته فحمل الناس على عدوّهم فكان في أوائلهم، ثم إن العدوّ حمل على الناس فانكشفوا فكان في موضعه، حتى انكشفوا مرات وهو ثابت يقاتل، فوالله ما زال ذاك دأبه حتى رأيته صريعاً فعددت به وبدابته ستين أو أكثر من ستين طعنة. وقد ذكرنا حديث أبي طلحة: لما اشتغل قلبه في الصلاة بطائر في حائطه فتصدق بالحائط كفارة لذلك وإن عمر كان يضرب قدميه بالدرة كل ليلة ويقول: ماذا عملت اليوم؟ وعن مجمّع: أنه رفع رأسه إلى السطح فوقع بصره على امرأة فجعل على نفسه أن لا يرفع رأسه إلى السماء ما دام في الدنيا وكان الأحنف بن قيس لا يفارقه المصباح بالليل فكان يضع إصبعه عليه ويقول لنفسه: ما حملك على أن صنعت

فصيح في الناس فقاموا إلى المصاف في يوم شديد الريح، وإذا رجل أمامي وهو يخاطب نفسه ويقول: أي نفس ألم أشهد مشهد كذا وكذا؟ فقلت لي: أهلك وعيالك فأطعتك ورجعت. ألم أشهد مشهد كذا وكذا؟ فقلت لي: أهلك وعيالك فأطعتك ورجعت. لا والله لأعرضنك اليوم على الله أخذك أو تركك، فقلت: لأرمقنه اليوم فرمقته فحمل الناس على عدوّهم فكان في أوائلهم، ثم إن العدوّ حمل على الناس فانكشفوا فكان في موضعه حتى انكشفوا مرات وهو ثابت يقاتل، فوالله ما زال ذلك دأبه حتى رأيته صريعاً) على الأرض، (**فعددت به وبدابته ستين أو أكثر من ستين طعنة)** رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس. (**وقد ذكرنا حديث أبي طلحة)** الأنصاري (**لما اشتغل قلبه في الصلاة في حائطه)** بطائر حسن الصوت فأدار نظره إليه واتبعه فلم يدر كم صلّى، (**فتصدق بالحائط كفارة لذلك)**، وكذا تأخير ابن عمر صلاة المغرب حتى طلعت نجمة فاعتق رقبة، وقد ذكر كل من ذلك في كتاب الصلاة، وهذا مستحب، فعقوبة النفس على التقصير سنّة الأولياء ولا يجب إلا جبر الفرائض، (**و)** ذكرنا أيضاً (**أن عمر)** رضي الله عنه (**كان يضرب قدميه بالدرة كل ليلة ويقول: ماذا عملت اليوم)**؟ يحاسبها ويعاقبها. (**وعن مجمع)** بن صمغان التيمي رحمه الله تعالى وكان من الورعين، حكى عنه الأعمش وسفيان وأبو حيان التيمي ترجمه صاحب الحلية (**أنه رفع رأسه إلى السطح فوقع بصره على امرأة، فجعل على نفسه أن لا يرفع رأسه إلى السماء ما دام في الدنيا)** رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس، (**وكان الأحنف ابن قيس)** التيمي (**لا يفارقه المصباح بالليل فكان يضع أصبعه عليه ويقول لنفسه: ما حملك على أن صنعت يوم كذا وكذا)** ثم يقول: قل نار جهنم أشد حراً رواه ابن أبي الدنيا في

يوم كذا وكذا؟ وأنكر وهيب بن الورد شيئاً على نفسه فنتف شعرات على صدره حتى عظم ألمه ثم جعل يقول لنفسه: ويحك؟ إنما أريد بك الخير. ورأى محمد بن بشر داود الطائي، وهو يأكل عند إفطاره خبزاً بغير ملح، فقال له: لو أكلته بملح فقال: إن نفسي لتدعوني إلى الملح منذ سنة، ولا ذاق داود ملحاً ما دام في الدنيا. فهكذا كانت

محاسبة النفس. (**وأنكر وهيب بن الورد**) المكي أبو أمية اسمه عبد الوهاب ولكنه اشتهر بوهيب (**شيئاً على نفسه فنتف شعرات**) كانت (**على صدره حتى عظم ألمه ثم جعل يقول لنفسه: ويحك إنما أريد بك الخير**) رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس.

(**ورأى**) أبو عبدالله (**محمد بن بشر**) بن الفرافصة بن المختار بن رويح العبدي الكوفي ثقة حافظ مات سنة ثلاث ومائتين روى له الجماعة (**داود**) بن نصير (**الطائي**) رحمه الله تعالى (**وهو يأكل عند إفطاره خبزاً بغير ملح، فقال له: لو أكلته بملح. فقال**): إن (**نفسي لتدعوني إلى الملح منذ سنة ولاذاق داود ملحاً ما دام في الدنيا**) رواه أبو نعيم في الحلية فقال: حدثنا أبو محمد بن حيان، حدثنا عبدالله بن محمد بن العباس، حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا سهل ابن عاصم، حدثنا شهاب بن عباد، حدثنا محمد بن بشر قال: دخلت وداود الطائي المسجد فصليت معه المغرب، ثم أخذ بيدي فدخلت معه البيت فقام إلى دن له كبير فأخذ منه رغيفاً يابساً فغمسه في الماء ثم قال: ادن فكُل. قلت: بارك الله لك فأفطر فقلت له: يا أبا سليمان لو أخذت شيئاً من ملح قال، فسكت ساعة ثم قال: إن نفسي نازعتني ملحاً ولا ذاق داود ملحاً ما دام في الدنيا. قال: فما ذاقه حتى مات.

وقال أيضاً: حدثنا إبراهيم بن عبدالله، حدثنا محمد بن إسحاق، حدثنا إسماعيل بن أبي الحرث، حدثنا أحمد بن عمران الأخنس، حدثنا الوليد بن عقبة قال: كان يخبز لداود الطائي ستون رغيفاً فيعلقها بشريط يفطر كل ليلة على رغيفين بملح وماء، فأخذ ليلة فطره فجعل ينظر إليه قال: ومولاة له سوداء تنظر إليه فقامت فجاءته بشيءمن تمر على طبق، فأفطر ثم أحيا ليلته وأصبح صائماً، فلما أن جاء وقت الإفطار أخذ رغيفيه وملحاً وماء. قال الوليد بن عقبة: فحدثني جار له قال: جعلت أسمعه يعاتب نفسه يقول: اشتهيت البارحة تمراً فأطعمتك، واشتهيت الليلة تمراً لاذاق داود الطائي تمرة ما دام في دار الدنيا. قال محمد بن إسحاق في حديثه فما ذاقها حتى مات.

وحدثنا أبو محمد بن حيان، حدثنا أحمد بن علي بن الجارود، حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثني عبدالله بن عبد الكريم، عن حماد بن أبي حنيفة قال: جئت داود الطائي والباب عليه مغلق فسمعته يقول: اشتهيت جزراً فأطعمتك، ثم اشتهيت جزراً وتمراً آليت أن لا تأكليه أبداً، فاستأذنت وسلمت ودخلت فإذا هو يعاتب نفسه.

حدثنا إبراهيم بن أحمد بن أبي الحصين، حدثنا محمد بن عبدالله الحضرمي، حدثنا محمد بن حسان، سمعت إسماعيل بن حسان يقول: جئت إلى باب داود الطائي أريد أن أدخل عليه، فسمعته

عقوبة أولي الحزم لأنفسهم والعجب أنك تعاقب عبدك وأمتك وأهلك وولدك على ما يصدر منهم من سوء خلق وتقصير في أمر، وتخاف أنك لو تجاوزت عنهم لخرج أمرهم عن الاختيار وبغوا عليك، ثم تهمل نفسك وهي أعظم عدوّ لك وأشد طغياناً عليك، وضررك من طغيانها أعظم من ضررك من طغيان أهلك، فإن غايتهم أن يشوّشوا عليك معيشة الدنيا، ولو عقلت لعلمت أن العيش عيش الآخرة وأن فيه النعيم المقيم الذي لا آخر له ونفسك هي التي تنغص عليك عيش الآخرة فهي بالمعاقبة أولى من غيرها.

المرابطة الخامسة: المجاهدة:

وهو أنه إذا حاسب نفسه فرآها قد قارفت معصية فينبغي أن يعاقبها بالعقوبات التي مضت؛ وإن رآها تتوانى بحكم الكسل في شيء من الفضائل أو ورد من الأوراد، فينبغي أن يؤدبها بتثقيل الأوراد عليها ويلزمها فنوناً من الوظائف جبراً لما فات منه وتداركاً لما فرط، فهكذا كان يعمل عمال الله تعالى، فقد عاقب عمر بن الخطاب نفسه حين فاتته

يخاطب نفسه فظننت أن عنده إنساناً يكلمه، فأطلت الوقوف بالباب ثم استأذنت فقال: ادخل فدخلت فقال: ما بدا لك من الاستئذان عليّ؟ قال: قلت سمعتك تتكلم فظننت أن إنساناً تخاصمه. قال: لا ولكن كنت اخاصم نفسي، اشتهت البارحة تمراً فخرجت فاشتريته فلما جئت بالتمر اشتهت الجزر فأعطيت الله عهداً أن لا آكل التمر والجزر حتى ألقاه.

(**فهكذا كانت عقوبة أولي الحزم لأنفسهم**) إذا خانت نفوسهم وضيعت الحدود، (**والعجب أنك تعاقب عبدك وأمتك وأهلك وولدك على ما يصدر منهم من سوء خلق وتقصير في أمر، وتخاف أنك لو تجاوزت عنهم لخرج أمرهم عن الاختيار وبغوا عليك، ثم تهمل نفسك وهي أعظم عدوّ لك وأشد طغياناً عليك، وضررك من طغيانها أعظم من ضررك من طغيان أهلك، فإن غايتهم أن يشوشوا عليك معيشة الدنيا، ولو عقلت لعلمت أن العيش عيش الآخرة**) ومعيشة الدنيا زائلة عن قريب، (**وأن فيه**) أي في عيش الآخرة (**النعيم المقيم الذي لا آخر له، ونفسك هي التي تنغص عليك عيش الآخرة فهي بالمعاقبة أولى من غيرها**) والعناية بأحوالها أوكد من غيرها والله الموفق.

(**المرابطة الخامسة: المجاهدة: وهو أنه إذا حاسب نفسه فرآها قد قارفت معصية ينبغي أن**) يجبرها بالتوبة والاستغفار ثم يرجع إليها (**يعاقبها بالعقوبات التي مضت**) حتى أنها تتأدب، (**وإن رآها تتوانى**) أي تتساهل (**بحكم الكسل في شيء من الفضائل أو ورد من الأوراد، فينبغي أن يؤدبها بتثقيل الأوراد عليها ويلزمها فنوناً**) أي أنواعاً (**من الوظائف جبراً لما فات منه وتداركاً فرط؛ فهكذا كان يعمل عمل الله تعالى، فقد**) روي أنه (**عاقب عمر**

صلاة العصر في جماعة بأن تصدق بأرض كانت له قيمتها مائتا ألف درهم، وكان ابن عمر إذا فاتته صلاة في جماعة أحيا تلك الليلة، وأخر ليلة صلاة المغرب حتى طلع كوكبان فأعتق رقبتين، وفات ابن أبي ربيعة ركعتا الفجر فأعتق رقبة. وكان بعضهم يجعل على نفسه صوم سنة أو الحج ماشياً أو التصدق بجميع ماله كل ذلك مرابطة للنفس ومؤاخذة لها بما فيه نجاتها.

فإن قلت: إن كانت نفسي لا تطاوعني على المجاهدة والمواظبة على الأوراد فما سبيل معالجتها؟ فأقول: سبيلك في ذلك أن تسمعها ما ورد في الأخبار من فضل المجتهدين. ومن أنفع أسباب العلاج أن تطلب صحبة عبد من عباد الله مجتهد في العبادة فتلاحظ أقواله وتقتدي به. وكان بعضهم يقول: كنت إذا اعترتني فترة في العبادة نظرت إلى

ابن الخطاب) رضي الله عنه **(نفسه حين فاتته صلاة العصر في جماعة بأن تصدق)** على الفقراء **(بأرض كانت له قيمتها مائتا ألف درهم، وكان ابن عمر)** رضي الله عنهما **(إذا فاتته صلاة في جماعة أحيا تلك الليلة)** قائماً يصلي. **(و)** يروى أنه **(أخرّ ليلة صلاة المغرب)** لشغل عرضه **(حتى طلع كوكبان فاعتق رقبتين. وفات)** الحرث بن عبدالله **(بن أبي ربيعة)** بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم المخزومي المكي أمير الكوفة المعروف بالقباع، روى له أبو داود في المراسيل والنسائي، مات قبل السبعين **(ركعتا الفجر فأعتق رقبة، وكان بعضهم يجعل على نفسه صوم سنة أو الحج ماشياً)** على رجليه **(أو التصدق بجميع ماله كل ذلك مرابطة للنفس ومؤاخذة لها بما فيه نجاتها)** من الهلاك الأبدي.

(فإن قلت: إن كانت نفسي لا تطاوعني على المجاهدة) والرياضات الشاقة **(والمواظبة على الأوراد فما سبيل معالجتها؟ فأقول: سبيلك في ذلك أن تسمعها ما ورد في الأخبار من فضل المجتهدين)** هكذا في سائر نسخ الكتاب، وقد وقع للحافظ العراقي تصحيف في هذه الكلمة فقال: من فضل المتهجدين بتقديم الفوقية، ثم أورد من حديث عبدالله بن عمرو: «من قام بعشرة آيات لم يكتب من الغافلين». الحديث. رواه أبو داود. ومن حديث أبي هريرة: «رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته». رواه النسائي وابن ماجه، ومن حديث بلال: «عليكم بقيام الليل فإن دأب الصالحين قبلكم» رواه الترمذي ثم قال: وقد تقدم في الأوراد مع غيره من الأخبار في ذلك اهـ. وأنت خبير بأنه يخالف السياق والسباق، وإنما مراد المصنف أخبار فضل المجتهدين في العبادة لا المتهجدين، والمراد من أخبارهم حكاياتهم وسيرهم فتأمل ذلك.

(ومن أنفع أسباب العلاج أن تطلب صحبة عبد من عباد الله كامل) الظاهر معمور الباطن **(مجتهد في العبادة)** غير متساهل فيها، **(فتلاحظ أقواله)** وتلاحظ أحواله **(وتقتدي به)** فيها، وهذا المعنى هو الأصل الأصيل في سلوك طريق السادة النقشبندية قدس الله أسرارهم يعتمدون عليه كثيراً ويأمرون المريد بذلك. **(وكان بعضهم يقول: كنت إذا اعترتني فترة في**

أحوال محمد بن واسع وإلى اجتهاده فعملت على ذلك أسبوعاً ، إلا أن هذا العلاج قد تعذر إذ قد فقد في هذا الزمان من يجتهد في العبادة اجتهاد الأولين ، فينبغي أن يعدل من المشاهدة إلى السماع فلا شيء أنفع من سماع أحوالهم ومطالعة أخبارهم وما كانوا فيه من الجهد الجهيد ، وقد انقضى تعبهم وبقي ثوابهم ونعيمهم أبد الآباد لا ينقطع ، فما أعظم ملكهم وما أشد حسرة من لا يقتدي بهم فيمنع نفسه أياماً قلائل بشهوات مكدرة ؛ ثم يأتيه الموت ويحال بينه وبين كل ما يشتهيه أبد الآباد ! نعوذ بالله تعالى من ذلك ، ونحن نورد من أوصاف المجتهدين وفضائلهم ما يحرك رغبة المريد في الاجتهاد اقتداء بهم ، فقد قال رسول الله ﷺ : « رحم الله أقواماً يحسبهم الناس مرضى وما هم بمرضى » قال الحسن : أجهدتهم العبادة . قال الله تعالى : ﴿ والَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وقُلُوبُهُمْ

العبادة نظرت إلى أحوال) أبي عبدالله **(محمد بن واسع)** البصري العابد **(وإلى اجتهاده فعملت على ذلك أسبوعاً)** . قال أبو نعيم في الحلية : حدثنا أحمد بن محمد بن سنان ، حدثنا محمد بن إسحاق ، حدثنا هارون بن عبدالله ، حدثنا سيار ، حدثنا جعفر بن سليمان قال : كنت إذا وجدت من قلبي قسوة فنظرت إلى وجه محمد بن واسع نظرة ، وكنت إذا رأيت وجه محمد بن واسع حسبت أن وجهه وجه ثكلى اهـ .

وقد ذكر أبو نعيم في اجتهاد محمد بن واسع في العبادة شيئاً راجعه في ترجمته **(إلا أن هذا العلاج قد تعذر)** الآن **(إذ قد فقد في هذا الزمان)** وهو رأس الخمسمائة من الهجرة **(من يجتهد في العبادة اجتهاد الأولين)** لنقص الهمم وتأخر الزمان ، **(فينبغي أن يعدل من المشاهدة)** والمصاحبة **(إلى السماع)** بالتيقظ والتذكر ، **(فلا شيء أنفع من سماع أحوالهم ومطالعة أخبارهم)** أي سيرهم وحكاياتهم ، **(وما كانوا فيه من الجهد الجهيد . وقد أنقضى تعبهم وبقي ثوابهم ونعيمهم أبد الآباد لا ينقطع ، فما أعظم ملكهم وما أشد حسرة من لا يقتدي بهم فيمتع نفسه أياماً قلائل بشهوات مكدرة ، ثم يأتيه الموت ويحال بينه وبين كل ما يشتهيه أبد الآباد . نعوذ بالله من ذلك . ونحن نورد من أوصاف المجتهدين وفضائلهم ما يحرك رغبة المريد في الاجتهاد اقتداء بهم ، فقد قال ﷺ : « رحم الله أقواماً يحسبهم الناس مرضى وما هم بمرضى »)** قال العراقي : لم أجد له أصلاً في حديث مرفوع ، ولكن رواه أحمد في الزهد موقوفاً على عليّ في كلام له قال فيه : ينظر الناظر فيقول مرضى وما بالقوم من مرض اهـ .

قلت : بل أخرجه ابن المبارك في الزهد عن الحسن مرسلاً إلا أنه قال قوماً بدل أقواماً ، وكلام علي المذكور أورده الشريف في نهج البلاغة .

(قال الحسن) البصري رحمه الله تعالى بعد أن روى الحديث المذكور ما معناه : **(أجهدتهم العبادة)** حتى كأنهم أصابهم المرض فنحلت أبدانهم وتغيرت ألوانهم . **(وقال الله تعالى :**

وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠] قال الحسن: يعملون ما عملوا من أعمال البر ويخافون أن لا ينجيهم ذلك من عذاب الله. وقال رسول الله ﷺ: « طوبى لمن طال عمره وحسن عمله »، ويروى أن الله تعالى يقول لملائكته: ما بال عبادي مجتهدين، فيقولون: إلهنا خوفتهم شيئاً فخافوه وشوقتهم إلى شيء فاشتاقوا إليه! فيقول الله تبارك وتعالى: فكيف لو رآني عبادي لكانوا أشد اجتهاداً، وقال الحسن: أدركت أقواماً وصحبت طوائف منهم، ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل، ولا يتأسفون على شيء منها أدبر، ولهي كانت أهون في أعينهم من هذا التراب الذي تطأونه بأرجلكم، إن كان أحدهم ليعيش عمره كله ما طوى له ثواب ولا أمر أهله بصنعة طعام قط، ولا جعل بينه وبين الأرض شيئاً قط، وأدركتهم عاملين بكتاب ربهم وسنّة نبيهم إذا جنّهم الليل فقيام على أطرافهم،

﴿والذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة﴾ قال الحسن) في تفسير هذا القول: يعني (يعملون ما عملوا من أعمال البر ويخافون أن لا ينجيهم ذلك من عذاب الله) رواه ابن المبارك في الزهد وعبد بن حميد وابن جرير. (وقال رسول الله ﷺ: « طوبى لمن طال عمره وحسن عمله ») قال العراقي: رواه في الطبراني من حديث عبدالله بن بسر وفيه بقية، وقد رواه بصيغة عن وهو مدلس، وللترمذي من حديث أبي بكرة: « خير الناس من طال عمره وحسن عمله ». اهـ.

قلت: حديث عبدالله بن بسر رواه أبو نعيم في الحلية، وحديث أبي بكرة رواه أيضاً أحمد وابن زنجويه والطبراني والحاكم والبيهقي بزيادة: « وشر الناس من طال عمره وساء عمله ». وقال الترمذي: حسن صحيح، وقد روى الجملة الأولى فقط أحمد وعبد بن حميد والترمذي وقال حسن غريب، والطبراني والبيهقي والضياء من حديث عبدالله بن بسر. وفي الباب عن ابن عمر رواه القضاعي في مسند الشهاب، والديلمي في مسند الفردوس، وعن جابر رواه الحاكم، وعن أبي هريرة رواه أحمد والبزار وألفاظهم مختلفة وقد تقدم.

(ويروى) في بعض الأخبار (أن الله تعالى يقول لملائكته: ما بال عبادي مجتهدين؟ فيقولون: إلهنا خوّفتهم شيئاً فخافوه وشوّقتهم إلى شيء فاشتاقوا إليه فيقول الله تبارك وتعالى: فكيف لو رآني عبادي لكانوا أشد اجتهاداً) نقله صاحب القوت. (وقال الحسن) البصري رحمه الله تعالى: (أدركت أقواماً وصحبت طوائف منهم) يعني بهم الصحابة وكبار التابعين (ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل ولا يتأسفون على شيء منها أدبر ولهي كانت أهون في عينهم من هذا التراب الذي تطأونه بأرجلكم، إن كان أحدهم ليعيش عمره كله ما طوى له ثوب) أي لاقتصاره على الثوب الواحد، (ولا أمر أهله بصنعة طعام قط ولا جعل بينه وبين الأرض شيئاً قط) أي حائلاً من فرش غير ثوبه الذي على بدنه، (وأدركتهم عاملين بكتاب ربهم وسنّة نبيهم) ﷺ (إذا جنّهم الليل فقيام على أطرافهم)

يفترشون وجوههم، تجري دموعهم على خدودهم، يناجون ربهم في فكاك رقابهم، إذا عملوا الحسنة فرحوا بها ودأبوا في شكرها وسألوا الله أن يتقبلها، وإذا عملوا السيئة أحزنتهم وسألوا الله أن يغفرها لهم، والله ما زالوا كذلك وعلى ذلك ووالله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة.

ويحكى أن قوماً دخلوا على عمر بن عبد العزيز يعودونه في مرضه وإذا فيهم شاب ناحل الجسم، فقال عمر له: يا فتى ما الذي بلغ بك ما أرى؟ فقال: يا أمير المؤمنين أسقام وأمراض، فقال: سألتك بالله ألا صدقتني؟ فقال: يا أمير المؤمنين ذقت حلاوة الدنيا فوجدتها مرة وصغر عندي زهرتها وحلاوتها واستوى عندي ذهبها وحجرها، وكأني أنظر إلى عرش ربي والناس يساقون إلى الجنة والنار فاظمأت لذلك نهاري وأسهرت ليلي، وقليل حقير كل ما أنا فيه في جنب ثواب الله وعقابه. وقال أبو نعيم:

يصلون، (**يفترشون وجوههم**) إشارة إلى كثرة السجود، (**تجري دموعهم على خدودهم، يناجون ربهم**) أي يتضرعون (**في فكاك رقابهم، إذا عملوا الحسنة فرحوا بها**) حيث وفقهم الله تعالى لها (**ودأبوا في شكرها وسألوا الله أن يقبلها، وإذا عملوا السيئة أحزنتهم وسألوا الله أن يغفرها لهم، والله ما زالوا كذلك**) أي مداومين (**وعلى ذلك**) أي مستقيمين، (**والله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة**) نقله صاحب القوت هكذا مجموعاً.

وقد روي ذلك عن الحسن بأسانيد متفرقة قال أحمد في الزهد: حدثنا صفوان بن عيسى، حدثنا هشام بن حسان، سمعت الحسن يقول: والله لقد أدركت أقواماً ما طوى لأحدهم في بيته ثوب قط، وما أمر في أهله بصنعة طعام قط، وما جعل بينه وبين الأرض شيئاً قط وإن كان أحدهم يقول: لوددت أني أكلت أكلة تصير في جوفي مثل الآجرة. قال: ويقول بلغنا أن الآجرة تبقى في الماء ثلاثمائة سنة. وروى أبو نعيم من طريق الفضيل بن عياض عن هشام عن الحسن قال: لقد أدركت أقواماً ما كانوا يفرحون بما أقبل عليهم من الدنيا ولا يأسون بما أدبر منها.

(**ويحكى أن قوماً دخلوا على عمر بن عبد العزيز**) رحمه الله تعالى (**يعودونه في مرضه، وإذا فيهم شاب ناحل الجسم**) أي متغيره (**فقال له عمر: يا فتى ما الذي بلغ بك ما أرى؟ فقال: يا أمير المؤمنين أسقام وأمراض. فقال: سألتك بالله إلا ما صدقتني**) وأنه تفرس فيه أن هذا النحول ليس عن مرض طبيعي. (**قال: يا أمير المؤمنين ذقت حلاوة الدنيا فوجدتها مرّة وصغر عندي زهرتها**) أي زينتها (**وحلاوتها واستوى عندي ذهبها وحجرها، وكأني أنظر إلى عرش ربي والناس يساقون إلى الجنة والنار فاظمأت لذلك نهاري**) بالصيام (**وأسهرت ليلي**) بالقيام (**وقليل حقير كل ما أنا فيه**) من الاجتهاد (**في جنب ثواب الله وعقابه**).

كان داود الطائي يشرب الفتيت ولا يأكل الخبز فقيل له في ذلك فقال: بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية. ودخل رجل عليه يوماً فقال: إن في سقف بيتك جزعاً مكسوراً فقال: يا ابن أخي إن لي في البيت منذ عشرين سنة ما نظرت إلى السقف. وكانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام. وقال محمد بن عبد العزيز:

وقد روى أبو نعيم في ترجمة عمر بن عبد العزيز ما يشبه هذا السياق، ويدل على شدة اجتهاده قال: أخبرنا محمد بن إبراهيم في كتابه، حدثنا أحمد بن محمد، حدثنا السري بن عاصم، حدثنا إبراهيم بن هراسة، عن الثوري، عن أبي الزناد، عن أبي حازم الأسدي الخناصري قال، قدمت على عمر بن عبد العزيز بخناصرة وهو يومئذ أمير المؤمنين، فلما نظر إليّ عرفني ولم أعرفه فقال لي: ادن يا أبا حازم فلما دنوت منه عرفته فقلت: أنت أمير المؤمنين؟ قال: نعم. قلت: ألم تكن عندنا بالأمس أميراً لسليمان بن عبد الملك وكان مركبك وطياً وثوبك نقياً ووجهك بهياً وطعامك هنياً وقصرك مشيداً وحديثك كثيراً، فما الذي غيّر ما بك وأنت أمير المؤمنين؟ فقال: أعد عليّ الحديث الذي حدثتنيه بالمدينة. فقلت: نعم يا أمير المؤمنين سمعت أبا هريرة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن بين أيديكم عقبة كؤداً مضرسة لا يجوزها إلا كل ضامر مهزول» قال: فبكى أمير المؤمنين بكاء عالياً حتى علا نحيبه ثم قال: يا أبا حازم أفتلومني أن أضمر نفسي لتلك العقبة لعلّي أن أنجو منها وما أظنني منها بناج.

(وقال أبو نعيم) أحمد بن عبدالله بن أحمد بن إسحاق الأصبهاني رحمه الله تعالى صاحب الحلية: **(كان داود)** بن نصير **(الطائي)** رحمه الله تعالى **(يشرب الفتيت ولا يأكل الخبز فقيل له في ذلك. فقال: بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية)**. رواه أبو نعيم في الحلية فقال: حدثنا أبو محمد بن حيان، حدثنا محمد بن عبدالله بن مصعب، حدثنا علي بن حرب، حدثنا إسماعيل بن الريان قال: قالت داية داود الطائي: يا أبا سليمان أما تشتهي الخبز؟ قال: يا داية بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية.

حدثنا عبدالله بن محمد بن جعفر، حدثنا عباس بن حمدان الحنفي، حدثنا الحضرمي بالبصرة، حدثنا نصر بن عبد الرحمن، حدثنا عامر بن إسماعيل الأحمسي قال: قلت لداود الطائي بلغني أنك تأكل هذا الخبز اليابس تطلب به الخشونة. فقال: سبحان الله كيف وقد ميزت بين أكل الخبز اليابس وبين اللبن فإذا هو قراءة مائتي آية، ولكن ليس لي من يخبز فربما يبس علي.

(ودخل رجل عليه يوماً فقال: إن في سقف بيتك جذعاً مكسورة. فقال: يا ابن أخي إن لي في البيت منذ عشرين سنة ما نظرت إلى السقف، وكانوا يكرهون من فضول النظر كما يكرهون من فضول الكلام). رواه أبو نعيم في الحلية فقال: حدثنا أبي، حدثنا عبدالله بن محمد بن يعقوب، حدثنا أبو حاتم، حدثنا محمد بن يحيى بن عمرالواسطي، حدثنا محمد بن بشير، حدثنا حفص بن عمر الجعفي قال: دخل رجل على داود الطائي فقال: يا أبا سليمان بعت كل شيء

جلسنا إلى أحمد بن رزين من غدوة إلى العصر فما التفت يمنة ولا يسرة فقيل له في ذلك فقال: إن الله عز وجل خلق العينين لينظر بهما العبد إلى عظمة الله تعالى، فكل من نظر بغير اعتبار كتبت عليه خطيئة. وقالت امرأة مسروق: ما كان يوجد مسروق إلا وساقاه منتفختان من طول الصلاة؟ وقالت: والله إن كنت لأجلس خلفه فأبكي رحمة

في الدار حتى التراب وبقيت تحت نصف سقف، فلو سوّيت هذا السقف فكان يكنك من الحر والمطر والبرد. فقال داود اللهم غفراً كانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام. يا عبدالله اخرج عني فقد شغلت علي قلبي إني أبادر جفوف القلم وطيّ الصحيفة.

حدثنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبدالله بن أحمد بن حنبل، حدثني أبو موسى الأنصاري، حدثنا عبادة بن كليب قال: قال رجل لداود الطائي: لو أمرت بما في سقف البيت من نسج العنكبوت فينظف. قال له: أما علمت أنه كان يكره فضول النظر.

حدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا محمد بن يحيى بن منده، حدثنا الحسن بن منصور بن مقاتل، حدثنا علي بن محمد الطنافسي، حدثنا عبد الرحمن بن مصعب قال: رؤي على داود الطائي جبة متخرقة، فقال له رجل: لو خيطتهـا. قال: أما علمت أنه نهي عن فضول النظر.

حدثنا أبو بكر عبدالله بن محمد، حدثنا عبدالله بن أحمد بن سوادة، حدثنا عباس الترفقي، سمعت معاوية بن عمرو يقول: كنا عند داود الطائي يوماً فدخلت الشمس من الكوّة فقال له بعض من حضر: لو أذنت لي سددت هذه الكوّة. فقال: كانوا يكرهون فضول النظر. وكنا عنده يوماً آخر فإذا فروه قد تخرق وخرج حمله فقال له بعض من حضر: لو أذنت لي خيطته. فقال: كانوا يكرهون فضول الكلام.

(وقال) أبو روح **(محمد بن عبد العزيز)** الجرمي، ويقال الراسبي البصري ثقة، روى له البخاري ومسلم والترمذي: **(جَلسنا إلى أحمد بن رزين من غدوة إلى العصر فما التفت يميناً ولا يسرة)** وذلك لكمال مراقبة لجلال الله وعظمته **(فقيل له في ذلك، فقال: إن الله عز وجل خلق العينين لينظر بهما العبد إلى عظمة الله تعالى)** وجلاله وهذا شكرهما، **(فكل من نظر بغير اعتبار كتبت عليه)** نظرته **(خطيئة)**.

(وقالت امرأة مسروق) بن الأجدع الهمداني الوادعي أبي عائشة الكوفي تابعي جليل، روى له الأربعة وامرأته هي نمير كأمير ابنة عمرو الكوفيـة روى لها أبو داود والنسائي: **(ما كان يوجد مسروق إلا وساقاه منتفختان من طول الصلاة)** بالليل. **(وقالت: والله إن كنت لأجلس خلفه فأبكي رحمة له)** رواه المزي في التهذيب من طريق أنس بن سيرين عنها. قالت: كان مسروق يصلي حتى تورم قدماه، فربما جلست خلفه أبكي مما أراه يصنع بنفسه. وقال الشعبي: غشي على مسروق في يوم صائف وهو صائم. وكانت عائشة زوج النبي ﷺ قد تبنته فسمّى ابنته عـائشـة،

له. وقال أبو الدرداء: لولا ثلاث ما أحببت العيش يوماً واحداً: الظمأ لله بالهواجر، والسجود لله في جوف الليل، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقي أطايب الثمر. وكان الأسود بن يزيد يجتهد في العبادة ويصوم في الحر حتى يخضر جسده ويصفر، فكان علقمة بن قيس يقول له: لم تعذب نفسك؟ فيقول: كرامتها أريد. وكان

وكان لا يعصى ابنته شيئاً فنزلت إليه فقالت: يا أبتاه افطر واشرب. قال: ما أردت يا بنية؟ قالت: الرفق قال: يا بنية إنما طلبت الرفق لنفسي في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة.

(وقال أبو الدرداء) رضي الله عنه: **(لولا ثلاث ما أحببت العيش يوماً واحداً: الظمأ لله بالهواجر، والسجود لله في جوف الليل، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما تنتقي أطايب التمر)** رواه أبو نعيم في الحلية فقال: حدثنا محمد بن أحمد بن الحسن، حدثنا بشر بن موسى، حدثنا أبو عبد الرحمن المقرني، حدثنا سعيد بن أبي أيوب، عن عبدالله بن الوليد، عن عباس بن خليد الحجري، عن أبي الدرداء أنه قال: لولا ثلاث خصال لأحببت أن لا أبقى في الدنيا فقلت: وما هنّ؟ قال: لولا وضوع وجهي للسجود لخالقي، واختلاف الليل والنهار يكون تقدمة لحياتي، وظمأ الهواجر ومقاصدة أقوام ينتقون الكلام كما تنتتقى الفاكهة، وتمام التقوى أن يتقي الله العبد حتى يتقيه في مثقال ذرة حتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراماً يكون حاجزاً بينه وبين الحرام إن الله قد بيّن لعباده الذي هو يصيرهم إليه قال الله تعالى: ﴿من يعمل مثقال ذرة خيراً يره★ ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] فلا تحقرن شيئاً من الشر أن تتقيه ولا شيئاً من الخير أن تفعله.

(وكان الأسود بن يزيد) بن قيس النخعي أبو عمر، ويقال أبو عبد الرحمن الكوفي أبو عبد الرحمن بن يزيد وابن أخي علقمة بن قيس، وكان أسن من علقمة ووالد عبد الرحمن. وقال ابـراهيم: توفي بالكوفة سنة خمسة وأربعين، روى له الجماعة. **(يجتهد في العبادة ويصوم في الحر حتى يخضر جسده ويصفر فكان علقمة بن قيس)** بن عبدالله بن مالك النخعي أبو شبل عمّ الأسود وعبد الرحمن بن يزيد. وقال إبراهيم: **(يقول له لم تعذب نفسك؟ فيقول: كرامتها أريد)**. رواه أبو نعيم في الحلية فقال: حدثنا أبي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن الحسن، حدثنا أبو حميد الحمصي، حدثنا يحي بن سعيد، حدثنا يزيد بن أبي عطاء، عن علقمة بن مرثد قال: انتهى الزهد إلى ثمانية من التابعين منهم: الأسود بن يزيد كان يجتهد في العبادة يصوم حتى يخضرّ جسده ويصفرّ، وكان علقمة بن قيس يقول له: لم تعذب هذا الجسد؟ قال: راحة هذا الجسد أريد.

ورواه أحمد في الزهد فقال: حدثنا حجاج، حدثنا محمد بن طلحة، عن عبد الرحمن بن ثروان الأودي قال: كان الأسود بن يزيد يجهد نفسه في الصوم والعبادة حتى يخضر جسده ويصفر، وكان علقمة يقول له: ويحك كم تعذب هذا الجسد! فيقول: إن الأمر جدّ إن الأمر جدّ.

قال: وحدثنا معمر بن سليمان الرقي، حدثنا عبد الله بن بشر أن علقمة والأسود حجا وكـان

يصوم حتى يخضر جسده ويصلي حتى يسقط، فدخل عليه أنس بن مالك والحسن فقالا له: إن الله عز وجل لم يأمرك بكل هذا! فقال: إنما أنا عبد مملوك لا أدع من الاستكانة شيئاً إلا جئت به. وكان بعض المجتهدين يصلي كل يوم ألف ركعة، حتى أقعد من رجليه فكان يصلي جالساً ألف ركعة فإذا صلى العصر احتبى ثم قال: عجبت للخليقة كيف أرادت بك بدلاً منك! عجبت للخليقة أنست بسواك! بل عجبت للخليقة كيف استنارت قلوبهم بذكر سواك! وكان ثابت البناني قد حببت إليه الصلاة فكان يقول: اللهم إن كنت أذنت لأحد أن يصلي لك في قبر فائذن لي أن أصلي في قبري. وقال

الأسود صاحب عبادة وصام يوماً فراح الناس بالهجير وقد تربد وجهه فأتاه علقمة فضرب على فخذه فقال: ألا تتقي الله يا أبا عمرو في هذا الجسد علام تعذب هذا الجسد! فقال الأسود: يا أبا شبل الجد الجد.

وروى أبو نعيم من طريق علي بن مدرك قال: قال علقمة للأسود لم تعذب هذا الجسد وهو يصوم؟ قال: الراحة أريد له.

وقال أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا الفضل بن دكين، حدثنا الحنش بن الحرث قال: رأيت الأسود بن يزيد قد ذهبت إحدى عينيه من الصوم، **(وكان يصوم حتى يخضرّ جسده ويصلي حتى يسقط)** مغشياً عليه، **(فدخل عليه أنس بن مالك)** رضي الله عنه **(والحسن)** البصري رحمه الله تعالى **(فقالا له: إن الله تعالى لم يأمرك بكل هذا. فيقول: إنما أنا عبد مملوك لا أدع من الاستكانة شيئاً إلا جئت به)** قال ميمون أبو حمزة سافر الأسود ثمانين حجة وعمرة لم يجمع بينهما وسافر ابنه عبد الرحمن أيضاً كذلك، وقال غيره: كان عبد الرحمن بن الأسود يصلي كل يوم سبعمائة ركعة، وكانوا يقولون: إنه أقل أهل بيته اجتهاداً. قال: وكانوا يسمون آل الأسود من أهل الجنة. وسئل الشعبي عن علقمة والأسود فقال: كان الأسود صوّاماً قوّاماً كثير الحج، وكان علقمة مع البطء ويدرك السريع. وقال إبراهيم: كان علقمة يقرأ القرآن في خمس والأسود في ست، وعبد الرحمن بن يزيد في سبع. وقال الشعبي: إن كان أهل بيت خلقوا للجنة فهم أهل هذا البيت علقمة والأسود وعبد الرحمن.

(وكان بعض المجتهدين يصلي كل يوم ألف ركعة حتى أقعد من رجليه فكان يصلي جالساً ألف ركعة، فإذا صلى العصر احتبى ثم قال: عجبت للخليقة كيف أرادت بك بدلاً منك، عجبت الخليقة كيف أنست بسواك بل عجبت الخليقة استنارت قلوبها بذكر سواك. وكان) أبو محمد **(ثابت)** بن سالم **(البناني)** البصري رحمه الله تعالى وبنانة هم بنو سعد ابن لؤي بن غالب، قال ابن عدي: هو من تابعي البصرة وزهادهم ومحدثيهم **(قد حبب إليه الصلاة فكان يقول: اللهم إن كنت أذنت لأحد أن يصلي لك في قبره فائذن لي أن أصلي في قبري)**. رواه أبو نعيم في الحلية فقال: حدثنا أبي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن الحسن، حدثنا أحمد

الجنيد: ما رأيت أعبد من السري! أتت عليه ثمان وتسعون سنة ما رؤي مضطجعاً إلا في علة الموت. وقال الحارث بن سعد: مرّ قوم براهب فرأوا ما يصنع بنفسه من شدة اجتهاده، فكلموه في ذلك فقال: وما هذا عندما يراد بالخلق من ملاقاة الأهوال وهم غافلون، قد اعتكفوا على حظوظ أنفسهم ونسوا حظهم الأكبر من ربهم. فبكى القوم

ابن الفضيل المكي، حدثنا حمزة بن ربيعة، حدثني ابن شوذب قال: سمعت ثابتاً البناني يقول: اللهم إن كنت أعطيت أحداً من خلقك أن يصلي لك في قبره فاعطني.

حدثنا أبو حامد بن جبلة، حدثنا محمد بن إسحاق السراج، حدثنا عمر بن شيبة، حدثنا يوسف بن عطية، سمعت ثابتاً يقول لحميد الطويل: هل بلغك يا أبا عبيدة أن أحداً يصلي في قبره إلا الأنبياء؟ قال: لا. قال ثابت: اللهم إن أذنت لأحد أن يصلي في قبره فأذن لثابت أن يصلي في قبره. قال: وكان ثابت يصلي قائماً حتى يعيا، فإذا عيي جلس فصلى وهو جالس، ويحتبي في قعوده ويقرأ. فإذا أراد أن يسجد وهو جالس حل حبوته.

حدثنا عثمان بن محمد العثماني، حدثنا إسماعيل بن علي الكرابيسي، حدثني محمد بن سنان الفزار، حدثنا سيار بن حبيش عن أبيه قال: أنا والله الذي لا إله إلا هو ادخلت ثابتاً البناني لحده ومعي حميد الطويل أو رجل غيره شك محمد قال: فلما سوّينا عليه اللبن سقطت لبنة فإذا أنا به يصلي في قبره، فقلت للذي معي: ألا ترى؟ قال: اسكت، فلما سوّينا عليه التراب وفرغنا أتينا ابنته فقلنا لها: ما كان عمل ثابت؟ قالت: وما رأيتم فخبرناها. فقالت: كان يقوم الليل خمسين سنة، فإذا كان السحر قال في دعائه: اللهم إن كنت أعطيت أحداً من خلقك الصلاة في قبره فاعطنيها، فما كان الله تعالى ليرد ذلك الدعاء.

(وقال الجنيد) قدس سره: **(ما رأيت أعبد لله)** عز وجل **(من السري)** بن المغلس السقطي رحمه الله تعالى **(أتت عليه ثمان وتسعون سنة ما رؤي مضجعاً إلا في علة الموت)** رواه القشيري عن أبي عبد الرحمن السلمي سماعاً قال: سمعت أبا بكر الرازي يقول: سمعت أبا عمر الانماطي يقول: سمعت الجنيد يقول: ما رأيت أعبد من السري فذكره.

ورواه الخطيب من طريق ابن باكويه، حدثنا أبو بكر أحمد بن إسماعيل الصوري قال: سمعت فاطمة بنت أحمد أخت أبي علي الروذباري قالت: سمعت أخي، ومن طريق علي بن الحسن الصيقلي قال: سمعت الفرغاني قال: سمعنا الجنيد يقول فذكره. وهو تنبيه على كمال مجاهدته وملازمته الإقبال على الله تعالى بالقلب والجوارح.

(وقال الحرث بن سعد: مرّ قوم براهب فرأوا ما يصنع بنفسه من شدة اجتهاده فكلموه في ذلك فقال: وما هذا عند ما يراد بالخلق من ملاقاة الأهوال وهم غافلون قد اعتكفوا على حظوة أنفسهم ونسوا حظهم الأكبر من ربهم؟ فبكى القوم عن آخرهم).

عن آخرهم. وعن أبي محمد المغازلي قال: جاور أبو محمد الجريري بمكة سنة فلم ينم ولم يتكلم ولم يستند إلى عمود ولا إلى حائط ولم يمد رجليه، فعبر عليه أبو بكر الكتاني فسلم عليه وقال له: يا أبا محمد بِمَ قدرت على اعتكافك هذا؟ فقال: علم صدق باطني فأعانني على ظاهري، فاطرق الكتاني ومشى مفكراً. وعن بعضهم قال: دخلت على فتح الموصلي، فرأيته قد مدّ كفيه يبكي حتى رأيت الدموع تنحدر من بين أصابعه فدنوت منه فإذا دموعه قد خالطها صفرة، فقلت: ولم بالله يا فتح بكيت الدم؟ فقال: لولا أنك حلفتني بالله ما أخبرتك، نعم بكيت دماً فقلت له: على ماذا بكيت الدموع؟ فقال: على تخلفي عن واجب حق الله تعالى وبكيت الدم على الدموع لئلا يكون ما صحت لي الدموع؟ قال: فرأيته بعد موته في المنام فقلت: ما صنع الله بك؟ قال: غفر لي، فقلت له: فماذا

يشير إلى أن هذا الذي رأيتموه من الاجتهاد في العبادة يسير بالإضافة إلى ما أعدّ من الأهوال في يوم القيامة.

(وعن أبي محمد المغازلي) كذا في النسخ، ولعله أبو جعفر محمد بن منصور المغازلي عبد صالح بغدادي، روى عن بشر الحافي، وعنه محمد بن مخلد العطار **(قال: جاور أبو محمد)** أحمد بن محمد بن الحسين الجريري بضم الجيم من أكابر أصحاب الجنيد **(بمكة سنة فلم ينم ولم يتكلم ولم يستند إلى عموده ولا إلى حائط ولم يمدّ** رجليه **فعبر عليه أبو بكر)** محمد بن علي **(الكتاني)** البغدادي من أصحاب الجنيد جاور بمكة إلى أن مات بها سنة ٣٢٢، **(فسلم عليه. وقال: يا أبا محمد بم قدرت على اعتكافك هذا؟ فقال: علم صدق باطني فاعانني على ظاهري فأطرق الكتاني ومشى مفكراً)** يشير إلى أن الاجتهاد لا يتم ولا يعان عليه إلا بصدق الباطن وزاد ابن الملقن أنه أنشد عقيب جوابه:

شكرتك لا أني أجازيك منعماً ... بشكر ولا كيما يقال له الشكرُ
وأذكر أيامي لديك وحسنها ... وآخر ما يبقى على الناكر الذكرُ

(وعن بعضهم) وهو أبو إسماعيل من أصحاب فتح وكان نصرانياً من أهل الموصل، أسلم على يدي فتح وصحبه **(وقال: دخلت على فتح)** بن سعيد **(الموصلي)** من أقران بشر والسري وكان كبير الشأن في الورع والمعاملات توفي سنة ٢٢٠، وهو غير فتح بن شخرف الكنتي، فوفاته ببغداد سنة ٢٧٣ وكثيراً ما يشتبه هذا بذاك فاحفظ ذلك. **(فرأيته وقد مدّ كفيه يبكي حتى رأيت الدموع تنحدر من بين أصابعه فدنوت منه)** لأنظر إليه، **(فإذا دموعه قد خالطها صفرة! فقلت: ولم بالله يا فتح بكيت الدم. فقال: لولا أنك حلفتني بالله ما أخبرتك. نعم بكيت دماً، فقلت له: على ماذا بكيت الدموع؟ فقال)**: بكيت الدموع **(على تخلفي عن واجب حق الله تعالى، وبكيت الدم على الدموع لئلا يكون)** أي خوفاً أن يكون **(ما صحت لي الدموع. قال)** أبو إسماعيل: **(فرأيته بعد موته في المنام فقلت: ما صنع الله بك؟ فقال:**

صنع في دموعك؟ فقال: قرّبني ربي عز وجل وقال لي: يا فتح الدمع على ماذا؟ قلت يا رب تخلفي عن واجب حقك، فقال: والدم على ماذا؟ قلت: على دموعي أن لا تصح لي، فقال لي: يا فتح ما أردت بهذا كله وعزتي وجلالي لقد صعد حافظاك أربعين سنة بصحيفتك ما فيها خطيئة قط، وقيل ان قوماً أرادوا سفراً فحادوا عن الطريق، فانتهوا إلى راهب منفرد عن الناس فنادوه فاشرف عليهم من صومعته، فقالوا: يا راهب إنا قد أخطأنا الطريق فكيف الطريق؟ فأومأ برأسه إلى السماء، فعلم القوم ما أراد، فقالوا يا راهب إنا سائلوك فهل أنت مجيبنا؟ فقال: سلوا ولا تكثروا فإن النهار لن يرجع والعمر لا يعود والطالب حثيث فعجب القوم من كلامه، فقالوا يا راهب علامَ الخلق غداً عند مليكهم؟ فقال: على نياتهم، فقالوا: أوصنا، فقال: تزوّدوا على قدر سفركم فإن خير الزاد ما بلغ البغية، ثم أرشدهم إلى الطريق وأدخل رأسه في صومعته. وقال عبد

غفر لي، فقلت له: فماذا صنع في دموعك؟ فقال: قربني ربي عز وجل وقال لي: يا فتح الدمع على ماذا؟ قلت: يا رب على تخلفي عن واجب حقك. قال: والدم على ماذا؟ قلت: على دموعي أن لا تصح لي. فقال يا فتح ما أردت بهذا كله وعزتي وجلالي لقد صعد) إليَّ (حافظاك) منذ (أربعين سنة بصحيفتك ما فيها خطيئة) واحدة. هكذا ساقه السراج بن الملقن في طبقات الخواص في ترجمة فتح المذكور.

وساقه ابن السراج في مصارع العشاق مختصراً فقال: حدثنا جعفر الخلدي قال: حدثنا أحمد بن مسروق، حدثنا محمد بن الحسين، حدثنا محمد بن الفرج العابد قال: قلت لأبي إسماعيل ذات يوم وكان قد بكى حتى ذهبت إحدى عينيه وغشى من الأخرى، حدثني ببعض أمر فتح. قال: فبكى ثم قال: أخبرك عنه كان والله كهيئة الروحانيين معلق القلب بما هناك ليست له راحة في الدنيا. ثم ساق القصة باختصار وقد تقدم شيء من أحواله في كتاب المحبة فراجعه.

(وقيل: إن قوماً أرادوا سفراً عن الطريق) أي مالوا (فانتهوا إلى راهب) في ديره (منفرد عن الناس فنادوه فأشرف عليهم من صومعته فقالوا: يا راهب إنا قد أخطأنا الطريق فكيف الطريق؟ قال: فأومأ) أي أشار (برأسه إلى السماء) أي إلى الله ولا بدّ لكل سالك من هذا الطريق ولا خطأ فيه، (فعلم القوم ما أراد. فقالوا: يا راهب إنا سائلوك فهل أنت مجيبنا؟ فقال: لولا تكثروا فإن النهار لا يرجع والعمر لا يعود والطالب حثيث) أي مسرع في الطلب (فعجب القوم من كلامه فقالوا: يا راهب علام الخلق غداً عند مليكهم؟ فقال: على نياتهم، فقالوا: أوصنا. فقال: تزودوا على قدر سفركم فإن خير الزاد ما بلغ البغية) أي المقصد، (ثم أرشدهم إلى الطريق وأدخل رأسه في صومعته).

الواحد بن زيد: مررت بصومعة راهب من رهبان الصين فناديته يا راهب فلم يجبني فناديته الثانية فلم يجبني فناديته الثالثة فأشرف علي وقال: يا هذا ما أنا براهب إنما الراهب من رهب الله في سمائه وعظمه في كبريائه وصبر على بلائه ورضي بقضائه وحمده على آلائه وشكره على نعمائه وتواضع لعظمته وذل لعزته واستسلم لقدرته وخضع لمهابته، وفكر في حسابه وعقابه فنهاره صائم وليله قائم، قد أسهره ذكر النار ومسألة الجبار، فذلك هو الراهب، وأما أنا فكلب عقور حبست نفسي في هذه الصومعة عن الناس لئلا أعقرهم! فقلت يا راهب فما الذي قطع الخلق عن الله بعد أن عرفوه؟ فقال: يا أخي لم يقطع الخلق عن الله إلا حب الدنيا وزينتها لأنها محل المعاصي والذنوب، والعاقل من رمى بها عن قلبه وتاب إلى الله تعالى من ذنبه وأقبل على ما يقربه من ربه. وقيل لداود

(**وقال عبد الواحد بن زيد**) البصري العابد: (**مررت بصومعة راهب من رهبان الصين فناديته: يا راهب فلم يجبني، فناديته الثانية فلم يجبني، فناديته الثالثة فأشرف علي وقال: يا هذا ما أنا براهب إنما الراهب من رهب الله في سمائه وعظمه في كبريائه وصبر على بلائه ورضي بقضائه وحمده على آلائه وشكره على نعمائه وتواضع لعظمته وذل لعزته واستسلم لقدرته وخضع لمهابته وفكر في حسابه وعقابه، فنهاره صائم وليله قائم قد أسهره ذكر النار ومسألة الجبار فذلك هو الراهب. وأما أنا فكلب عقور حبست نفسي في هذه الصومعة عن الناس لئلا أعقرهم، فقلت: يا راهب فما الذي قطع الخلق عن الله بعد إذ عرفوه؟ فقال: يا أخي لم يقطع الخلق عن الله إلا حب الدنيا وزينتها لأنها محل المعاصي والذنوب، والعاقل من رمى بها عن قلبه وتاب إلى الله من ذنبه وأقبل على ما يقربه من ربه**).

قلت: هذه الحكاية ما رأيتها في الحلية في ترجمة عبد الواحد بن زيد، وإنما فيها من طريق أحمد بن أبي الحواري سمعت أبا سليمان الداراني يقول: قال عبد الواحد بن زيد: مررت براهب في صومعته فقلت لأصحابي: قفوا. قال: فكلمته فقلت: يا راهب فكشف ستراً على باب صومعته فقال: يا عبد الواحد بن زيد إن أحببت أن تعلم علم النفس فاجعل بينك وبين الشهوات حائطاً من حديد. قال: وأرخى الستر.

ولكن أخرج في ترجمة إبراهيم بن أدهم ما يشبه سياقه بسياق هذه الحكاية قال: حدثنا محمد بن إبراهيم، حدثنا أبو حامد أحمد بن محمد بن حمدان النيسابوري، حدثنا إسماعيل بن عبدالله بن عبد الكريم الشامي، سمعت بقية بن الوليد يقول: قال إبراهيم بن أدهم، مررت بصومعة والصومعة على عمود والعمود على قلة جبل كلما عصفت الريح تمايلت الصومعة فناديته قلت: يا راهب فلم يجبني، ثم ناديته فلم يجبني، فقلت في الثالثة: بالذي حبسك في صومعتك إلا أجبتني. فاخرج رأسه من صومعته فقال: كم تنوح سميتني باسم لم أكن له بأهل قلت: يا راهب قال: ولست براهب إنما الراهب

الطائي: لو سرحت لحيتك، فقال: إني إذاً لفارغ. وكان أويس القرني يقول: هذه ليلة الركوع فيحيي الليل كله في ركعة، وإذا كانت الليلة الآتية قال هذه ليلة السجود فيحيي الليل كله في سجدة. وقيل لما تاب عتبة الغلام كان لا يتهنأ بالطعام والشراب فقالت له

من رهب من ربه. قلت: فما أنت؟ قال: سبحان الله سجنت سبعاً من السباع. قلت: ما هو؟ قال: لساني سبع ضار إن أرسلته مزق الناس. يا حنيفي إن لله عباداً صماً سمعاً وبكماً نطقاً وعمياً بصراً سلكوا خلال دار الظالمين، واستوحشوا من مؤانسة الجاهلين، وشابوا ثمرة العلم بنور الإخلاص، وفزعوا بربح اليقين حتى أرسوا بشّط نور الإخلاص هم والله عباد كحلوا أبصارهم بسهر الليل، فلو رأيتهم في ليلهم وقد نامت عيون الخلق وهم قيام على أطرافهم يناجون من لا تأخذه سنة ولا نوم. يا حنيفي عليك بطريقهم. قلت: فعلى الإسلام أنت؟ قال: ما أعرف غير الإسلام ديناً ولكن عهد إلينا المسيح عليه السلام ووصف لنا آخر زمانكم فخليت الدنيا وأن دينك جديد. فلو قد خلق قال بقية فما أتى على إبراهيم شهر حتى هرب من الناس.

(وقيل لداود الطائي) رحمه الله تعالى: **(لو سرحت لحيتك. فقال: إني إذاً لفارغ)**. رواه أبو نعيم في الحلية فقال: حدثنا أبو محمد بن حيان، حدثنا محمد بن يحيى بن عيسى قال: سمعت محمد بن إبراهيم التيمي يقول: سمعت عبدالله بن داود الخربي يقول: قيل لداود الطائي لم لا تسرح لحيتك؟ فقال: إني إذاً لفارغ.

حدثنا محمد بن علي بن حبيش، حدثنا أبو شعيب الحراني، حدثنا أحمد بن عمران الأخنسي، حدثنا الوليد بن عقبة قال: سمعت رجلاً قال لداود الطائي: يا أبا سليمان ألا تسرح لحيتك؟ قال: إني عنها لمشغول.

حدثنا أبي، حدثنا عبدالله بن محمد بن يعقوب، حدثنا أبو حاتم محمد بن إدريس، حدثنا محمد بن يحيى بن عمر الواسطي، حدثنا محمد بن بشير، حدثنا حفص بن عمر الجعفي قال: قيل لداود الطائي: يا أبا سليمان لم لا تسرح لحيتك؟ قال: الدنيا دار مأتم.

(وكان أويس) بن عامر **(القرني)** رحمه الله تعالى **(يقول: هذه ليلة الركوع فيحيي الليل كله في ركعة، وإذا كانت الليلة الآتية قال: هذه ليلة السجود فيحيي الليل كله في سجدة)** رواه أبو نعيم في الحلية فقال: حدثنا أبو بكر محمد بن أحمد، حدثنا الحسن بن محمد، حدثنا عبدالله بن عبد الكريم، حدثنا سعيد بن أسد بن موسى، حدثنا حمزة بن ربيعة، عن أصبغ بن زيد قال: كان أويس يقول: هذه ليلة الركوع فيركع حتى يصبح، وكان إذا أمسى يقول: هذه ليلة السجود فيسجد حتى يصبح وإذا أمسى تصدق بما في بيته من الفضل من الطعام والثياب، ثم يقول: اللهم من مات جوعاً فلا تؤاخذني به ومن مات عرياناً فلا تؤاخذني به.

(وقيل: لما تاب عتبة) بن أبان **(الغلام)** رحمه الله تعالى **(كان لا يتهنى بالطعام**

أمه لو رفقت بنفسك؟ قال: الرفق أطلب! دعيني أتعب قليلاً وأتنعم طويلاً. وحج مسروق فما نام قط إلا ساجداً. وقال سفيان الثوري عند الصباح يحمد القوم السرى وعند المات يحمد القوم التقى. وقال عبدالله بن داود: كان أحدهم إذا بلغ أربعين سنة طوى فراشه أي كان لا ينام طول الليل. وكان كهمس بن الحسن يصلي كل يوم ألف ركعة ثم يقول لنفسه: قومي يا مأوى كل شر! فلما ضعف اقتصر على خمسمائة، ثم كان

والشراب فقالت له أمه: لو رفقت بنفسك. قال: الرفق أطلب دعيني أتعب قليلاً وأتنعم طويلاً) رواه أبو نعيم في الحلية وروى أيضاً بسنده إلى عبد الواحد بن زيد قال: وبما سهرت مفكراً في طول حزن عتبة ولقد كلمته ليرفق بنفسه فبكى وقال: إنما أبكي على تقصيري.

(وحج مسروق) بن الأجدع الهمداني الكوفي التابعي (فما نام قط إلا ساجداً) رواه أبو نعيم في الحلية فقال: حدثنا محمد بن علي، حدثنا عبدالله بن محمد، حدثنا علي بن الجعد، حدثنا شعبة عن أبي إسحاق قال: حج مسروق فما بات إلا ساجداً.

حدثنا أبو حامد بن جبلة، حدثنا محمد بن إسحاق، حدثنا أبو همام، حدثنا ضمرة عن العلاء بن هارون سمعته يقول: حج مسروق فما افترش إلا جبهته حتى انصرف.

ورواه المزي في التهذيب من طريق أبي إسحاق قال: حج مسروق فلم ينم إلا ساجداً على وجهه حتى رجع.

وروى البيهقي في الشعب من طريق عبد الصمد بن سليمان بن أبي مطر قال: بت عند أحمد بن حنبل فوضع لي ماء قال: فلما أصبحت وجدني لم أستعمله، فقال صاحب حديث لا يكون له ورد بالليل. قال: قلت أنا مسافر قال: وإن كنت مسافراً حجَّ مسروق فما نام إلا ساجداً. ورواه الخطيب مختصراً من طريق إبراهيم بن محمد بن سفيان، سمعت أبا عصمة بن عصام البيهقي يقول: بت ليلة عند أحمد بن حنبل فذكره.

(وقال سفيان الثوري) رحمه الله تعالى (عند الصباح يحمد القوم السرى، وعند المات يحمد القوم التقى) رواه البيهقي في الشعب وأبو نعيم في الحلية.

(وقال) أبو عبد الرحمن (عبدالله بن داود) بن عامر بن الربيع الهمداني الكوفي المعروف بالخربي سكن الخريبة وهي محلة بالبصرة ثقة عابد ناسك مات سنة ثلاث عشرة ومائتين، روى له الجماعة سوى مسلم: (كان أحدهم إذا بلغ أربعين سنة طوى فراشه أي كان لا ينام الليل) فطيّ الفراش كناية عن ذلك.

(وكان أبو الحسن كهمس بن الحسن) التميمي البصري العابد مات سنة تسع وأربعين ومائة روى له الجماعة (يصلي كل يوم ألف ركعة ويقول لنفسه: قومي يا مأوى كل شر فلما ضعف اقتصر على خمسمائة) ركعة، (ثم كان يبكي ويقول: ذهب نصف عملي) رواه أبو نعيم في

يبكي ويقول ذهب نصف عملي. وكانت ابنة الربيع بن خثيم تقول له: يا أبت ما لي أرى الناس ينامون وأنت لا تنام؟ فيقول: يا ابنتاه إن أباك يخاف البيات. ولما رأت أم الربيع ما يلقى الربيع من البكاء والسهر نادته يا بني لعلك قتلت قتيلاً! قال: نعم يا أماه، قالت: فمن هو حتى نطلب أهله فيعفوا عنك؟ فوالله لو يعلمون ما أنت فيه لرحموك وعفوا عنك، فيقول: يا أماه هي نفسي. وعن عمر ابن أخت بشر بن الحارث قال: سمعت خالي بشر بن الحارث يقول لأمي يا أختي جوفي وخواصري تضرب علي، فقالت له أمي: يا

الحلية فقال: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا أحمد بن الحسين بن نصر، حدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقي، حدثني الهيثم بن معاوية، عن شيخ من أصحابه قال: كان كهمس يصلي ألف ركعة في اليوم والليلة فإذا ملَّ قال لنفسه: قومي يا مأوى كل سوء فوالله ما رضيتك لله ساعة قط.

(**وكانت ابنة الربيع بن خثيم**) كزبير بن عائذ بن عبدالله الثوري الكوفي (**تقول له: يا أبت مالي أرى الناس ينامون وأنت لا تنام؟ فيقول: يا ابنتاه إن أباك يخاف البيات**) أي أن يفجأه العدوّ ليلاً. رواه البيهقي في الشعب من طريق سعيد بن عبدالله بن الربيع بن خثيم عن عمته قالت: كنت أقول لأبي: يا أبتاه لا تنام، فيقول: يا بنية كيف ينام من يخاف البيات ورواه أبو نعيم في الحلية فقال: حدثنا أبو محمد بن حيان، حدثنا محمد بن عبدالله، حدثني رستة، حدثنا أبو أيوب، حدثنا جعفر بن سليمان، سمعت مالك بن دينار يقول: قالت ابنة الربيع بن خثيم للربيع: يا أبت مالك لا تنام والناس ينامون؟ فقال: إن النار لا تدع أباك أن ينام.

(**ولما رأت أم الربيع**) بن خثيم (**ما يلقى الربيع من البكاء والسهر نادته: يا بني لعلك قتلت قتيلاً؟ قال: نعم يا أماه. قالت: من هو حتى نطلب إلى أهله فيعفوا عنك، فوالله لو يعلمون ما أنت فيه لرحموك وعفوا عنك فيقول: يا أماه هي نفسي**) رواه أبو نعيم في الحلية فقال: حدثنا أبو بكر بن مالك، حدثنا عبدالله بن أحمد بن حنبل، حدثنا أحمد بن إبراهيم، حدثنا محمد بن يزيد بن خنيس عن سفيان قال: بلغنا أن أم الربيع كانت تنادي ابنها فتقول: يا بني يا ربيع ألا تنام؟ فيقول: يا أمه من جنَّ عليه الليل وهو يخاف النار حق له أن لا ينام، فلما بلغ ورأت ما يلقى من البكاء والسهر نادته فقالت: يا بني لعلك قد قتلت قتيلاً؟ فقال: نعم يا والدتاه قد قتلت قتيلاً. فقالت: ومن هذا القتيل يا بني حتى نتجمل إلى أهله فيعفوك والله لو يعلمون ما تلقى من البكاء والسهر بعد لقد رحموك. فقال: يا والدتاه هي نفسي (**و**) يحكى (**عن**) أبي حفص (**عمر ابن أخت بشر بن الحارث**) الحافي حكي عنه أبو بكر المروزي والفتح بن شخرف (**قال: سمعت خالي بشر بن الحرث يقول لأمي**) واسمها زبدة بنت الحرث وكانت من الزاهدات حكى عنها علان العصايري، وماتت قبل بشر، فقد روى علي بن محمد بن بشران من طريق محمد بن يوسف الجوهري به قال: سمعت بشر ابن الحرث يقول؟ يوم ماتت أخته: إن العبد إذا قصر في الطاعة سلبه من يؤنسه، وحكايتها مع

أخي تأذن لي حتى أصلح لك قليل حساء بكف دقيق عندي تتحساه يرم جوفك فقال لها : ويحك أخاف أن يقول من أين لك هذا الدقيق ؟ فلا أدري ايش أقول له . فبكت أمي وبكى معها وبكيت معهم . قال عمر : ورأت أمي ما ببشر من شدّة الجوع وجعل يتنفس نفساً ضعيفاً فقالت له أمي : يا أخي ليت أمك لم تلدني فقد والله تقطعت كبدي مما أرى بك . فسمعته يقول لها وأنا فليت أمي لم تلدني وإذ ولدتني لم يدر ثديها علي . قال عمر : وكانت أمي تبكي عليه الليل والنهار . وقال الربيع : أتيت أويساً فوجدته جالساً قد صلى الفجر ، ثم جلس فجلست فقلت لا أشغله عن التسبيح فمكث مكانه حتى صلى الظهر ، ثم قام إلى الصلاة حتى صلى العصر ثم جلس موضعه حتى صلى المغرب ، ثم ثبت مكانه حتى صلى العشاء ، ثم ثبت مكانه حتى صلى الصبح ، ثم جلس فغلبته عيناه فقال : اللهم إني أعوذ بك من عين نوامة ومن بطن لا يشبع ! فقلت : حسبي هذا منه ، ثم رجعت ونظر رجل إلى أويس فقال يا أبا عبدالله : ما لي أراك كأنك مريض ؟ فقال : وما لأويس

أحمد بن حنبل معروفة : **(يا أختي جوفي)** وجع **(وخواصري تضرب عليَّ ، فقالت لي أمي : يا أخي تأذن لي حتى أصلح لك قليل حساء بكف دقيق عندي تتحساه يرم)** أي يصلح **(جوفك . فقال لها : ويحك أخاف أن يقول)** لي **(من أين لك هذا الدقيق فلا أدري أيش أقول له ! فبكت أمي وبكى معها وبكيت معهم)** وفي نسخة معها . **(قال عمر : ورأت أمي ما ببشر)** كذا في النسخ والصواب ما به **(من شدة الجوع وجعل يتنفس نفساً ضعيفاً فقالت له أمي : يا أخي ليت أمك لم تلدني ، فقد والله تقطعت كبدي مما أرق بك)** قال : **(فسمعته يقول لها : وأنا فليت أمي لم تلدني وإذ)** قد **(ولدتني لم يدّر)** لها **(ثديها عليَّ . قال عمر : وكانت أمي تبكي عليه الليل والنهار)** أي لما ترى من شدة اجتهاده ورياضته لنفسه . رواه أبو الحسن بن جهضم فقال : حدثنا محمد بن عبدالله الزيات ، حدثنا محمد بن مخلد ، حدثني الفتح بن شخرف قال ، قال عمر ابن أخت بشر سمعت خالي بشراً فذكره .

(قال الربيع) قيل هو ابن زياد الحارثي البصري الذي روى له أبو داود والنسائي : **(أتيت أويساً)** بن عامر القرني **(فوجدته جالساً)** في مسجده بالكوفة **(قد صلى الفجر ثم جلس فجلست)** معه **(وقلت : لا أشغله عن التسبيح فمكث مكانه حتى صلّ الظهر ، ثم قام إلى الصلاة حتى صلى العصر ، ثم جلس موضعه حتى صلّى المغرب ، ثم ثبت مكانه حتى صلى العشاء ، ثم ثبت مكانه حتى صلى الصبح ، ثم جلس فغلبته عيناه فقال : اللهم إني أعوذ بك من عين نوّامة ومن بطن لا يشبع . فقلت : حسبي هذا منه ، ثم رجعت . ونظر رجل إلى أويس)** ابن عامر رحمه الله تعالى **(فقال : يا أبا عبدالله مالي أراك كأنك مريض)** وذلك لما رأى من تغير

أن لا يكون مريضاً يطعم المريض وأويس غير طاعم وينام المريض وأويس غير نائم. وقال أحمد بن حرب: يا عجباً لمن يعرف أن الجنة تزين فوقه وأن النار تسعر تحته كيف ينام بينهما، وقال رجل من النساك: أتيت إبراهيم بن أدهم فوجدته قد صلى العشاء فقعدت أرقبه فلف نفسه بعباءة ثم رمى بنفسه فلم ينقلب من جنب إلى جنب الليل كله حتى طلع الفجر وأذن المؤذن فوثب إلى الصلاة ولم يحدث وضوءاً فحاك ذلك في صدري فقلت له رحمك الله قد نمت الليل كله مضطجعاً ثم لم تجدد الوضوء، فقال: كنت الليل كله جائلاً في رياض الجنة أحياناً وفي أودية النار أحياناً فهل في ذلك نوم. وقال ثابت البناني: أدركت رجالاً كان أحدهم يصلي فيعجز عن أن يأتي فراشه إلا حبواً وقيل مكث أبو بكر بن عياش أربعين سنة لا يضع جنبه على فراش ونزل الماء في إحدى عينيه فمكث عشرين سنة لا يعلم به أهله، وقيل: كان ورد سمنون في كل يوم

حاله ولونـه **(فقال: وما لأويس أن لا يكون مريضاً يطعم المريض وأويس غير طاعم، وينام المريض وأويس غير نائم)** والصحة إنما تكون من قبل الطعام والنوم.

(وقال أحمد بن حرب) النيسابوري الزاهد روى عن ابن عيينة: **(يا عجبا لمن يعرف أن الجنة تزين فوقه وأن النار تسعر تحته كيف ينام بينهما. وقال رجل من النساك: أتيت إبراهيم بن أدهم)** رحمه الله تعالى **(فوجدته قد صلى العشاء فقعدت أرقبه فلف نفسه بعباءة ثم رمى بنفسه)** على الأرض، **(فلم ينقلب من جنب إلى جنب الليل كله حتى طلع الفجر وأذن المؤذن، فوثب)** قائماً **(إلى الصلاة ولم يحدث وضوءاً فحاك ذلك في صدري فقلت له: رحمك الله قد نمت الليل كله مضطجعاً ثم لم تجدد الوضوء، فقال: كنت الليل كله جائلاً في رياض الجنة أحياناً وفي أودية النار أحياناً فهل في ذلك نوم)**؟ وهذا هو التفكر وهو سيد العبادات.

(وقال) أبو محمد **(ثابت)** بن أسلم **(البناني)** رحمه الله تعالى: **(أدركت رجالاً كان أحدهم يصلي فيعجز عن أن يأتي فراشه إلا حبواً)**. وروى البيهقي في الشعب عن علي بن غنام قال: كان في بني عدي ثلاثون شيخاً لا يأتون فرشهم إلا زحفاً أو حبواً.

(وقيل: مكث أبو بكر بن عياش) بن سالم الأسدي الكوفي الحناط المقري. قيل: اسمه كنيته، وقيل اسمه محمد، وقيل غير ذلك إلى ثلاثة عشر قولاً وقد تقدم. **(أربعين سنة لا يضع جنبه على فراش، ونزل الماء في إحدى عينيه فمكث عشرين سنة لا يعلم به أهله)**. قال أبو السكين الطائي: سمعت أبا بكر يقول لابنـه وأراه غرفة: يا بني إياك أن تعصي الله عز وجل فيها فإني قد ختمت فيها اثني عشر ألف ختمة. وقال غيره: لما حضرت أبا بكر الوفاة بكت ابنته فقال: يا بنية لا تبكي أتخافين أن يعذبني الله عز وجل، وقد ختمت في هذه الزاوية أربعة وعشرين ألف

خمسمائة ركعة، وعن أبي بكر المطوعي قال: كان وردي في شبيبتي كل يوم وليلة اقرأ فيه قل هو الله أحد، إحدى وثلاثين ألف مرة أو أربعين ألف مرة شك الراوي. وكان منصور بن المعتمر إذا رأيته قلت رجل أصيب بمصيبة منكسر الطرف منخفض الصوت رطب العينين إنّ حركته جاءت عيناه بأربع » ولقد قالت له أمه: ما هذا الذي تصنع بنفسك تبكي الليل عامته لا تسكت لعلك يا بني أصبت نفساً لعلك قتلت قتيلاً؟ فيقول يا أمه أنا أعلم بما صنعت بنفسي، وقيل لعامر بن عبدالله: كيف صبرك على سهر الليل

ختمة. وقال إبراهيم بن شماس السمرقندي: سمعت إبراهيم بن أبي بكر قال: لما نزل بأبي الموت. قلت: يا أبت ما اسمك؟ قال: يا بني إن أباك لم يكن له اسم، وأن أباك أكبر من سفيان بأربع سنين، وأنه لم يأت فاحشة قط، وأنه يختم القرآن منذ ثلاثين سنة كل يوم مرة.

(وقيل: كان ورد) أبي الحسن **(سمنون)** بن حمزة رحمه الله تعالى **(كل يوم خمسمائة ركعة)**. وروى القشيري بسنده إلى جعفر الخلدي قال، قال أبو أحمد المغازلي: كان ببغداد رجل فرّق على الفقراء أربعين ألف درهم فقال لي سمنون: يا أبا أحمد أما ترى قد أنفق وما قد عمله ونحن ما نجد شيئاً فامض بنا إلى موضع نصلي فيه بكل درهم أنفقه ركعة فمضينا إلى المدائن فصلينا أربعين ألف صلاة.

(وعن أبي بكر) بن عيسى الأبهري **(المطوعي)** قال صاحب الحلية: كان من المفوضين وتعلو أحوالها على السالكين والسائحين حكى عنه أبو بكر بن طاهر الأبهري **(قال: كان وردي في شبيبتي في كل يوم وليلة أقرأ فيه قل هوالله أحد إحدى وثلاثين ألف مرة أو أربعين ألف مرة. شك الراوي وكان)** أبو عتاب **(منصور بن المعتمر)** بن عبدالله بن ربيعة السلمي الكوفي قال ابن مهدي: لم يكن بالكوفة أحفظ منه وهو من أصحاب إبراهيم النخعي مات سنة اثنين وثلاثين ومائة روى له الجماعة **(إذا رايته قلت رجل أصيب بمصيبة منكسر الطرف منخفض الصوت رطب العينين، إن حركته جاءت عيناه بأربع ولقد قالت له أمه)** قال أبو بكر بن عياش: وكانت فظة غليظة وكان يبرها ويسكت لها: **(ما هذا الذي تصنع بنفسك تبكي الليل عامته لا تسكت. لعلك يا بني أصبت نفساً لعلك قتلت قتيلاً، فيقول: يا أمه أنا أعلم بما صنعت بنفسي)** رواه أبو نعيم في الحلية فقال: حدثنا أبو حامد بن جبلة، حدثنا محمد بن إسحاق، حدثنا العباس بن محمد، حدثنا خلف بن تميم، حدثنا زائدة بن قدامة أن منصور بن المعتمر صام سنة قام ليلها وصام نهارها وكان يبكي فتقول له أمه: يا بني قتلت قتيلاً! فقال: أنا أعلم بما صنعت بنفسي إذا كان الصبح كحل عينيه ودهن رأسه وبرق شفتيه وخرج إلى الناس.

وروي من طريق سفيان بن عيينة أن منصور بن المعتمر قد كان عمش من البكاء. ومن طريق محمد بن عمر وسمعت جريراً يقول: كانت أم منصور تقول له: يا بني إن لعينيك عليك حقاً

وظمأ الهواجر؟ فقال: هل هو إلا أني صرفت طعام النهار إلى الليل ونوم الليل إلى النهار وليس في ذلك خطير أمر، وكان يقول: ما رأيت مثل الجنة نام طالبها ولا مثل النار نام هاربها، وكان إذا جاء الليل قال أذهب حر النار النوم فما ينام حتى يصبح، فإذا جاء النهار قال أذهب حر النار النوم فما ينام حتى يمسي، فإذا جاء الليل قال من خاف أدلج عند الصباح يحمد القوم السرى. وقال بعضهم: صحبت عامر بن عبد القيس أربعة أشهر

ولجسمك عليك حقاً. فكان يقول لها: دعي عنك منصوراً فإن بين النفختين يوماً طويلاً ومن طريق أبي الأحوص قال، قالت ابنة لجار منصور لأبيها: يا أبت أين الخشبة التي كانت في سطح منصور قائمة، قال: يا بنية ذاك منصور كان يقوم الليل. ومن طريق العلاء بن سالم العبدي قال: كان منصور يصلي على سطحه، فلما مات قال غلام لأبيه: الجذع الذي كان في سطح آل فلان ليس أراه. قال: يا بني ليس ذاك بجذع ذالك منصور وقد مات.

(وقيل لعامر بن عبدالله) بن عبد قيس العنبري البصري التابعي العابد وهو المعروف بعامر **ابن عبد قيس** وقد تقدم ذكره في هذا الكتاب في موضعين، ولم أكن ظفرت بترجمته، فلما وصلت إلى هنا رأيته في الحلية قال: وهو أول من عرف بالنسك واشتهر من عباد التابعين بالبصرة فقدمناه على غيره من الكوفيين لتقدم البصرة على الكوفة، بنيت قبل الكوفة بأربع سنين، وكذلك أهل البصرة بالنسك والعبادة أشهر وأقدم من الكوفيين، وكان عامر بن عبد قيس قد تخرج على أبي موسى الأشعري في النسك والتعبد ومنه تلقى القرآن وعنه أخذ هذه الطريقة: **(كيف صبرك على سهر الليل وظمأ الهواجر؟ فقال: هل هو إلا أني صرفت طعام النهار إلى الليل ونوم الليل إلى النهار، وليس في ذلك خطير أمر. وكان يقول: ما رأيت مثل الجنة نام طالبها ولا مثل النار نام هاربها، وكان إذا جاء الليل قال: أذهب حر النار النوم فما ينام حتى يصبح، فإذا جاء النهار قال: اذهب حر النار النوم فما ينام حتى يمسي، فإذا جاء الليل قال: من خاف أدلج عند الصباح يحمد القوم السرى).**

قوله: ما رأيت مثل الجنة الخ هو حديث مرفوع من رواية أبي هريرة رواه ابن المبارك في الزهد والترمذي وضعفه، أبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الشعب بلفظ: « ما رأيت مثل النار نام هاربها ولا مثل الجنة نام طالبها ».

وقوله من خاف أدلج هو أيضاً حديث مرفوع من رواية أبي هريرة وأبي بن كعب بزيادة « ومن أدلج بلغ المنزل ». فحديث أبي هريرة رواه الترمذي وقال حسن غريب، والرامهرمزي في الأمثال، والحاكم والبيهقي وحديث أبي بن كعب رواه أبو نعيم في الحلية والحاكم.

وقوله: عند الصباح يحمد القوم السرى من الأمثال المشهورة. وقال أبو نعيم في الحلية: حدثنا حبيب بن الحسن، حدثنا أبو شعيب الحراني، حدثنا خالد بن يزيد العمري، حدثنا عبد العزيز بن أبي رواد، عن علقمة بن مرثد قال: انتهى الزهد إلى ثمانية: عامر بن عبدالله بن عبد قيس،

فما رأيته نام بليل ولا نهار . ويروى عن رجل من أصحاب علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه قال: صليت خلف علي رضي الله تعالى عنه الفجر فلما سلم انفتل عن يمينه وعليه كآبة فمكث حتى طلعت الشمس ثم قلب يده وقال والله لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ وما أرى اليوم شيئاً يشبههم كانوا يصبحون شعثاً غبراً صفراً قد باتوا لله سجداً وقياماً يتلون كتاب الله يراوحون بين أقدامهم وجباههم، وكانوا إذا ذكروا الله مادوا كما يميد الشجر في يوم الريح وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم وكأن القوم باتوا غافلين

وأويس القرني، وهرم بن حيان، والربيع بن خثيم، ومسروق بن الأجدع، والأسود بن يزيد، وأبي مسلم الخولاني، والحسن بن أبي الحسن. فأما عامر بن عبدالله فكان يقول: في الدنيا الهموم والأحزان وفي الآخرة النار والحساب، فأين الراحة والفرح؟ ثم ساقه وفيه: وكان يبيت قائماً ويظل صائماً، ولقد كان إبليس يلتوي في موضع سجوده فإذا ما وجد ريحه نحاه بيده ثم يقول: لو لا نشك لم أزل عليك ساجداً وهو يتمثل كهيئة الحية، ورأيته وهو يصلي فيدخل تحت قميصه حتى يخرج من كمه وثيابه فلا يحيد، فقيل له: لم لا تنحي الحية؟ فيقول: والله إني لأستحي من الله أن أخاف شيئاً غيره، والله أعلم بها حين تدخل ولا حين تخرج. وقيل له: إن الجنة تدرك بدون ما تصنع وأن النار تتقى بدون ما تصنع، فيقول: لا حتى لا ألوم نفسي، وكان يقول: ما أبكي على دنياكم رغبة فيها ولكن أبكي على ظمأ الهواجر وقيام ليل الشتاء.

(وقال بعضهم: صحبت عامر بن عبد القيس) هو عامر بن عبدالله الذي تقدم ذكره يعرف بجده **(أربعة أشهر فما رأيته نام بليل ولا نهار)** . روى ابن أبي الدنيا في محاسبته، عن محمد بن يحيى الأزدي، حدثنا جعفر بن أبي جعفر الرازي، عن أبي جعفر السائح، أخبرنا ابن وهب وغيره يزيد بعضهم على بعض في الحديث أن عامر بن عبد قيس كان من أفضل العابدين، وفرض على نفسه كل يوم ألف ركعة يقوم عند طلوع الشمس فلا يزال قائماً إلى العصر ثم ينصرف وقد انتفخت ساقاه وقدماه فيقول: يا نفس إنما خلقت للعبادة. يا أمارة بالسوء فوالله لأعملن بك عملاً لا يأخذ الفراش منك نصيباً.

(ويروى عن رجل من أصحاب علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: صليت خلف علي رضي الله عنه الفجر، فلما سلم انفتل عن يمينه وعليه كآبة فمكث حتى طلعت الشمس ثم قلب يده وقال: والله لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ وما أرى اليوم شيئاً يشبههم كانوا يصبحون شعثاً غبراً صفراً قد باتوا لله سجداً وقياماً يتلون كتاب الله، يراوحون بين أقدامهم وجباههم، وكانوا إذا ذكروا الله مادوا كما تميد الشجر في يوم الريح، وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم، وكان القوم باتوا غافلين يعني من كان حوله) . رواه أبو نعيم في الحلية فقال: حدثنا محمد بن جعفر وعلي بن أحمد قالا: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا محمد بن يزيد أبو هشام، حدثنا المحاربي، عن مالك بن مغول، عن رجل من جعفي، عن السدي، عن أبي

يعني من كان حوله . وكان أبو مسلم الخولاني قد علق سوطاً في مسجد بيته يخوف به نفسه وكان يقول لنفسه قومي فوالله لأزحفن بك زحفاً حتى يكون الكلل منك لا مني ، فإذا دخلته الفترة تناول سوطه وضرب به ساقه ويقول أنت أولى بالضرب من دابتي وكان يقول أيظن أصحاب محمد ﷺ أن يستأثروا به دوننا . كلا والله لنزاحمهم عليه زحاماً حتى يعلموا أنهم قد خلفوا وراءهم رجالاً . وكان صفوان بن سليم قد تعقدت ساقاه من طول القيام وبلغ من الاجتهاد ما لو قيل له القيامة غداً ما وجد متزايداً . وكان إذا جاء

أراكة قال: صلى علي رضي الله عنه الغداة ثم لبث في مجلسه حتى ارتفعت الشمس قيد رمح كان عليه كآبة ثم قال: لقد رأيت أثراً من أصحاب رسول الله ﷺ فما أرى أحداً يشبههم، والله إن كانوا ليصبحون شعثاً غبراً صفراً بين أعينهم مثل ركب المعزى قد باتوا يتلون كتاب الله يراوحون بين أقدامهم وجباههم إذا ذكر الله مادوا كما تميد الشجرة في يوم ريح فانهملت أعينهم حتى تبل والله ثيابهم والله لكان القوم باتوا غافلين.

(وكان أبو مسلم) عبدالله بن ثوبان **(الخولاني)** اليماني من زهاد التابعين نزل الشام وسكن داريا ، روى له الجماعة إلا البخاري **(قد علق سوطاً في مسجد بيته يخوف به نفسه وكان يقول لنفسه: قومي فوالله لأزحفن بك زحفاً حتى يكون الكلل منك لا مني، فإذا دخلته الفترة تناول سوطه وضرب به ساقه ويقول: أنت أولى بالضرب من دابتي)** . رواه أبو نعيم في الحلية فقال: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو العباس السراج، حدثنا الوليد بن شجاع، حدثنا الوليد بن مسلم ،عن عثمان بن أبي العاتكة قال: كان من أمر أبي مسلم الخولاني أنه علق سوطاً في مسجده ويقول: أنا أولى بالسوط من الدواب فإذا دخلته فترة شق ساقه سوطاً أو سوطين. **(وكان يقول: أيظن أصحاب محمد ﷺ أن يستأثروا به دوننا كلا والله لنزاحمنهم زحاماً حتى يعلموا أنهم قد خلفوا وراءهم رجالاً)** وقال له قائل حين كبر ورق: لو قصرت من بعض ما تصنع . فقال: أرأيتم لو أرسلتم الخيل في الحلبة. ألستم تقولون لفارسها دعها وارفق بها حتى إذا رأيتم الغاية فلا تستبقوا منها شيئاً . قالوا : بلى . قال: فإني أبصرت الغاية وأن لكل ساع غاية وغاية كل ساع الموت فسابق ومسبوق.

(وكان صفوان بن سليم) المدني أبو عبدالله، وقيل أبو الحرث القرشي الزهري الفقيه العابد وأبوه سليم مولى حميد بن عبد الرحمن بن عوف. قال أحمد : هو يستسقي بحديثه وينزل القطر من السماء بذكره ، وقال مرة: هو ثقة من خيار عباد الله الصالحين. قال الواقدي وغيره: مات سنة ١٣٢ عن اثنين وسبعين سنة روى له الجماعة . **(قد تعقدت ساقاه من طول القيام)** في الصلاة **(وبلغ من الاجتهاد ما لو قيل له القيامة غداً ما وجد متزايداً)** رواه أبو نعيم في الحلية فقال: حدثنا الحسن بن علي الوراق، حدثنا عبدالله بن محمد بن عبد العزيز ، حدثنا محمد بن يزيد الأدمي ، حدثنا

الشتاء اضطجع على السطح ليضربه البرد ، وإذا كان في الصيف اضطجع داخل البيوت ليجد الحر فلا ينام، وأنه مات وهو ساجد ، وأنه كان يقول: اللهم إني أحب لقاءك فأحب لقائي. وقال القاسم بن محمد : غدوت يوماً وكنت إذا غدوت بدأت بعائشة رضي

أبو ضمرة أنس بن عياض قال: رأيت صفوان بن سليم ولوقيل له غداً القيامة ما كان عنده مزيد على ما هو عليه من العبادة.

(وكان إذا جاء الشتاء اضطجع على السطح ليضربه البرد ، وإذا كان في الصيف اضطجع داخل البيوت ليجد الحر والغم فلا ينام) رواه أبو نعيم في الحلية فقال: حدثنا عبدالله ابن محمد بن جعفر ، حدثنا جعفر الفريابي ، حدثنا أمية ، حدثنا يعقوب بن محمد ، حدثنا سليمان بن سالم قال: كان صفوان بن سليم في الصيف يصلي بالليل في البيت فإذا كان في الشتاء صلى في السطح لئلا ينام.

حدثنا أبو محمد بن حيان، حدثنا عبد الرحمٰن بن محمد بن إدريس، حدثنا علي بن الحسن السنجاني، حدثنا إسحاق بن محمد الفردي، حدثنا مالك بن أنس قال: كان صفوان بن سليم يصلي في الشتاء في السطح، وفي الصيف في بطن البيت يستيقظ بالحر والبرد حتى يصبح ثم يقول: هذا الجهد من صفوان وأنت أعلم به وأنه لترم رجلاه حتى يعود مثل السفط من قيام الليل وتظهر فيها عروق خضر.

(وأنه مات وهو ساجد) رواه أبو نعيم في الحلية فقال: حدثنا عبدالله بن محمد ، حدثنا محمد بن أحمد بن أيوب المقري ، حدثنا أبو بكر بن صدقة ، حدثنا أحمد بن يحي الصوفي ، حدثنا أبو غسان مالك بن إسماعيل قال: سمعت سفيان بن عيينة يقول وأعانه على بعض الحديث أخوه محمد ، قال: أبى صفوان بن سليم أن لا يضع جنبه على الأرض حتى يلقى الله عز وجل، فلما حضره الموت وهو منتصب قالت له ابنته: يا أبت في هذه الحالة لو ألقيت نفسك. قال: إذاً يا بنية ما وفيت له بالقول. وزاد المزي في التهذيب من طريق سفيان أنه مكث على ذلك أكثر من ثلاثين سنة ، ومن طريق غيره أربعين سنة قال: فلما حضرته الوفاة واشتد به النزع والعجز قالت ابنته: يا أبت لو وضعت جنبك. فقال: يا بنية إذاً ما وفيت لله عز وجل بالنذر والحلف فمات وإنه لجالس. قال سفيان: فأخبرني الحفار الذي يحفر قبور أهل المدينة قال: حفرت قبر رجل فإذا أنا قد وقعت على قبر فوافيت جمجمة فإذا السجود قد أثر في عظام الجمجمة ، فقلت لإنسان: قبر من هذا ؟ فقال: أوما تدري هذا قبر صفوان بن سليم.

(وكان يقول) في دعائه: **(اللهم إني أحب لقاءك فأحب لقائي)** ينزع بذلك إلى ما ورد في الخبر « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ».

(وقال القاسم بن محمد) بن أبي بكر الصديق القرشي التيمي أبو محمد ، ويقال أبو عبد الرحمٰن المدني الفقيه الإمام الورع الثقة. قال البخاري: قتل أبوه قريباً من سنة ست وثلاثين بعد عثمان،

الله عنها أسلم عليها، فغدوت يوماً إليها فإذا هي تصلي صلاة الضحى، وهي تقرأ: ﴿فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧] وتبكي وتدعو وتردد الآية، فقمت حتى مللت وهي كما هي فلما رأيت ذلك ذهبت إلى السوق فقلت: أفرغ من حاجتي ثم أرجع ففرغت من حاجتي ثم رجعت وهي كما هي تردد الآية وتبكي وتدعو. وقال محمد بن إسحاق: لما ورد علينا عبد الرحمن بن الأسود حاجاً اعتلت إحدى قدميه فقام يصلي على قدم واحدة حتى صلى الصبح بوضوء العشاء. وقال بعضهم: ما أخاف من

وبقي القاسم يتيماً في حجر عائشة، وكان أشبه الناس بجده، وكان أعلم الناس بحديث عائشة. مات سنة ست ومائة روى له الجماعة: **(غدوت يوماً وكنت إذا غدوت بدأت بعائشة رضي الله عنها)** وهي عمته وهي التي ربته في حجرها بعد موت أبيه **(أسلم عليها فغدوت يوماً إليها فإذا هي تصلي صلاة الضحى وهي تقرأ)** قوله تعالى: **(﴿فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم﴾ وتبكي وتدعو وتردد الآية فقمت)** أنتظر فراغها **(حتى مللت وهي تبكي وتدعو كما هي)** على حالها. **(فلما رأيت ذلك ذهبت إلى السوق فقلت أفرغ من حاجتي ثم أرجع ففرغت من حاجتي ثم رجعت وهي كما هي)** على حالها الأول **(تردد الآية وتبكي وتدعو)**. رواه طالب ابن محمد بن علي العشاري في جزئه فقال: أخبرنا أبو بكر البرقاني، أخبرنا إبراهيم بن محمد المزكي، حدثنا محمد بن إسحاق السراج، حدثنا محمد بن عمرو الباهلي، حدثنا أنس بن عياض، حدثنا شيبة ابن نصاح، عن القاسم بن محمد قال: كنت إذا غدوت أبدأ ببيت عائشة أسلم عليها فغدوت يوماً فإذا هي قائمة تسبح وتقرأ ﴿فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم﴾ وتدعو وتبكي ترددها فقمت حتى مللت القيام، فذهبت إلى السوق لحاجتي ثم رجعت فإذا هي قائمة تصلي وتبكي رضي الله عنها.

(وقال محمد بن إسحاق) بن يسار المدني أبو بكر، ويقال أبو عبدالله القرشي المطلبي مولى قيس بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف جده يسار من بني عين التمر. قال ابن معين: ثقة حسن الحديث نزل بغداد في سنة خمسين ومائة، وقيل بعدها استشهد به البخاري، وروى له مسلم في المتابعات واحتج به الباقون: **(لما ورد علينا عبد الرحمٰن بن الأسود)** بن يزيد بن قيس النخعي أبو حفص، ويقال أبو بكر الكوفي ابن أخي عبد الرحمٰن بن يزيد أدرك عمر بن الخطاب، وروى عن أبيه الأسود المتقدم ذكره، روى عنه مالك بن مغول ومحمد بن إسحاق بن يسار، وأبو إسحاق السبيعي، وأبو اسحاق الشيباني، وأبو بكر النهشلي مات سنة ١٩٨ روى الجماعة **(حاجاً اعتلت إحدى قدميه فقام يصلي على قدم واحدة حتى صلى الصبح بوضوء العشاء)** رواه أبو نعيم في الحلية. وروي من طريق ميمون أبي حمزة قال: سافر عبد الرحمن بن الأسود ثمانين حجة وعمرة لم يجمع بينهما. ومن طريق الحكم بن عتيبة قال: لما احتضر عبد الرحمن بكى فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: أسفاً على الصوم والصلاة. قال: ولم يزل يقرأ القرآن حتى مات. قال: فرؤي أنه من أهل الجنة. قال الحكم: وما يبعدني ذلك لقد كان يعمل نفسه مجتهداً لهذا حذراً من مصرعه الذي صار إليه.

الموت إلا من حيث يحول بيني وبين قيام الليل. وقال علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه: سيما الصالحين صفرة الألوان من السهر وعمش العيون من البكاء وذبول الشفاه من الصوم، عليهم غبرة الخاشعين. وقيل للحسن: ما بال المتهجدين أحسن الناس وجوهاً؟ فقال: لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نوراً من نوره. وكان عامر بن عبد القيس يقول: إلهي خلقتني ولم تؤامرني، وتميتني ولا تعلمني، وخلقت معي عدواً وجعلته يجري مني مجرى الدم وجعلته يراني ولا أراه، ثم قلت لي: استمسك، إلهي كيف استمسك إن لم تمسكني؟ إلهي في الدنيا الهموم والأحزان وفي الآخرة العقاب والحساب فأين الراحة والفرح؟ وقال جعفر بن محمد: كان عتبة الغلام يقطع الليل بثلاث صيحات. كان إذا صلى العتمة وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا مضى ثلث الليل صاح صيحة، ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا مضى الثلث الثاني صاح صيحة، ثم وضع رأسه بين ركبتيه

(وقال بعضهم: ما أخاف من الموت إلا من حيث يحول بيني وبين قيام الليل، وقال علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه: سيما الصالحين صفرة الألوان من السهر، وعمش العيون من البكاء، وذبول الشفاه من الصوم، عليهم غبرة الخاشعين) وروى الشريف الموسوي في نهج البلاغة من كلام أمير المؤمنين: شيعتنا الحلماء العلماء الذبل الشفاه الأخيار الذين يعرفون بالرهبانية من العبادة. وأخرجه أبو نعيم في الحلية من قول مجاهد قال: شيعة علي رضي الله عنه فساقه.

(وقيل للحسن) البصري رحمه الله تعالى: **(ما بال المتهجدين أحسن الناس وجوهاً؟ فقال: إنهم خلوا بالرحمٰن فألبسهم نوراً من نوره)** رواه أبو نعيم في الحلية. **(وكان عامر ابن)** عبدالله بن **(عبد قيس)** العنبري البصري رحمه الله تعالى تقدمت ترجمته **(يقول: إلهي خلقتني ولم تؤامرني وتميتني ولا تعلمني وخلقت معي عدواً وجعلته يجري مني مجرى الدم، وجعلته يراني ولا أراه، ثم قلت لي: استمسك. إلهي كيف أستمسك إن لم تمسكني. إلهي في الدنيا الهموم والأحزان وفي الآخرة العقاب والحساب، فأين الراحة والفرح)**؟ رواه أبو نعيم في الحلية فقال: حدثنا حبيب بن الحسن، حدثنا أبو شعيب الحراني، حدثنا خالد بن زيد العمري، حدثنا عبد العزيز بن أبي رواد، عن علقمة بن مرثد قال: كان عامر بن قيس يقول: في الدنيا الغموم والأحزان، وفي الآخرة النار والحساب فأين الراحة والفرح؟ إلهي خلقتني ولم تؤامرني في خلقي وابتليتني بلايا الدنيا ثم قلت لي: استمسك فكيف أستمسك إن لم تمسكني. إلهي إنك لتعلم لو كانت لي الدنيا بحذافيرها ثم سألتنيها لجعلتها لك فهب لي نفسي.

(وقال جعفر بن محمد) الواسطي الوراق المفلوج نزيل بغداد صدوق مات سنة خمس وستين ومائة: **(كان عتبة)** بن أبان **(يقطع الليل بثلاث صيحات، وكان إذا صلى العتمة وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر، فإذا مضى ثلث الليل صاح صيحة ثم يضع رأسه بين ركبتيه**

يتفكر فإذا كان السحر صاح صيحة، قال جعفر بن محمد: فحدّثت به بعض البصريين فقال: لا تنظر إلى صياحه ولكن انظر إلي ما كان فيه بين الصيحتين حتى صاح. وعن القاسم بن راشد الشيباني قال: كان زمعة نازلاً عندنا بالمحصب وكان له أهل وبنات وكان يقوم فيصلي ليلاً طويلاً فإذا كان السحر نادى بأعلى صوته أيها الركب المعرسون أكل هذا الليل ترقدون، أفلا تقومون فترحلون؟ فيتواثبون فيسمع من ههنا باك ومن ههنا داع ومن ههنا قارىء ومن ههنا متوضىء، فإذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته: عند الصباح يحمد القوم السرى. وقال بعض الحكماء: إنّ لله عباداً أنعم عليهم فعرفوه، وشرح صدورهم فأطاعوه، وتوكلوا عليه فسلموا الخلق والأمر إليه فصارت قلوبهم

يتفكر، فإذا مضى ثلث الليل صاح صيحة ثم يضع رأسه بين ركبتيه يتفكر، فإذا كان السحر صاح صيحة. قال جعفر بن محمد الراوي لهذه الحكاية: **(فحدثت به بعض البصريين)** وفي بعض النسخ المصريين بالميم وهو غلط من النساخ **(فقال: لا تنظر إلى صياحه ولكن انظر إلى ما كان فيه بين الصيحتين حتى صاح)**. رواه أبو نعيم في الحلية فقال: حدثنا أبو محمد بن حيان، حدثنا إسحاق بن أبي حسان، حدثنا أحمد بن أبي الحواري، حدثنا جعفر بن محمد قال: كان عتبة يقطع الليل بثلاث صيحات يصلي العتمة ثم يضع رأسه بين ركبتيه يفكر، فإذا مضى الليل ثلثه صاح صيحة ثم يضع رأسه بين ركبتيه يفكر، فإذا مضى ثلثا الليل صاح صيحة ثم يضع رأسه يفكر، فإذا كان السحر صاح صيحة. قال أحمد: فحدثت به عبد العزيز فقال: حدثت به بعض البصريين، فقال: لا تنظر إلى صيحته ولكن انظر إلى الأمر الذي كان منه بين الصيحتين.

(وعن القاسم بن راشد الشيباني قال: كان زمعة) بن صالح الجندي اليماني سكن مكة روى عن الزهري وسلمة بن دهرام وابن طاوس، وعنه وكيع روى له مسلم مقروناً بمحمد بن أبي حفصة والترمذي والنسائي وابن ماجه. **(نازلاً عندنا بالمحصب)** موضع قرب مكة **(وكان له أهل وبنات وكان يقوم فيصلي ليلاً طويلاً فإذا كان السحر نادى بأعلى صوته: أيها الركب المعرسون أكل هذا الليل ترقدون؟ أفلا تقومون فترحلون؟ فيتواثبون فيسمع من ههنا باك ومن ههنا داع ومن ههنا قارىء ومن ههنا متوضىء، فإذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته عند الصباح: يحمد القوم السرى)** وهو السير آخر الليل، وهو مثل مشهور رواه ابن أبي الدنيا فقال: حدثني المفضل بن غسان، عن مؤمل بن إسماعيل، حدثنا القاسم بن راشد الشيباني قال: كان زمعة نازلاً عندنا فذكره.

(وقال بعض الحكماء) من المراقبين المجتهدين: **(إن لله عباداً أنعم عليهم فعرفوه)** إنه المنعم عليهم لا غيره، **(وشرح صدورهم فأطاعوه)** أي انقادت جوارحهم لطاعته **(وتوكلوا عليه)** حق التوكل **(فسلموا الخلق والأمر إليه)** بمقتضى قوله تعالى: ﴿ألا له الخلق والأمر﴾

معادن لصفاء اليقين وبيوتاً للحكمة وتوابيت للعظمة وخزائن للقدرة، فهم بين الخلائق مقبلون ومدبرون، وقلوبهم تجول في الملكوت وتلوذ بمحجوب الغيوب، ثم ترجع ومعها طرائف من لطائف الفوائد وما لا يمكن واصفاً أن يصفه فهم في باطن أمورهم كالديباج حسناً وهم في الظاهر مناديل، مبذولون لمن أرادهم تواضعاً. وهذه طريقة لا يبلغ إليها بالتكلف وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء. وقال بعض الصالحين: بينما أنا أسير في بعض

[الأعراف: ٥٤]، **(فصارت قلوبهم معادن)** لاستقرار الأسرار **(بصفاء اليقين وبيوتاً للحكمة)** تسكن فيها **(وتوابيت للعظمة)** والإجلال والهيبة والتعظيم. والتابوت الوعاء الذي تحفظ فيه نفائس الأمتعة **(وخزائن القدرة، فهم بين الخلائق مقبلون ومدبرون)** بظواهرهم، **(وقلوبهم تجول في الملكوت)** فتشاهد ما فيه من العجائب **(وتلوذ بمحجوب الغيوب)** عن النواظر، **(ثم ترجع)** إلى عالم الملك **(ومعها طرائف)** أي نوادر **(من لطائف الفوائد)** ونفائس العوائد **(ما لا يمكن واصفاً أن يصفه)** لبعده عن دائرة العقول **(فهم في باطن أمورهم كالديباج حسناً)** وبهجة وعزة **(وهم في الظاهر مناديل مبذولون لمن أرادهم تواضعاً)** أي بمنزلة المناديل التي يتباذلها الناس ويتمسحون بها. **(وهذه طريقة لا يبلغ إليها إلا بالتكلف)** والاجتهاد، **(وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء)** أي مواهب من العناية الأزلية لا تدرك بالتصنع والتكلف، ولكن من يسر له طريقه فهو على نور من ربه، أولئك مصابيح الدجاه، وينابيع الرشد والحجاه، خصوا بخفي الاختصاص ونقوا من التصنع بالإخلاص، كما قال ذو النون المصري يوماً: إن لله لصفوة من خلقه وإن لله لخيرة. فقيل له: من هؤلاء؟ فقال: هم قوم جعلوا الركب لجباههم وساداً والتراب لجنوحهم مهاداً، خالط القرآن لحومهم ودماءهم فعزلهم عن الازدواج وحركهم بالإدلاج، فوضعوه على أفئدتهم فانفرجت، وضموه إلى صدورهم فانشرحت، وتصدعت هممهم به فكدحت، فجعلوا لظلمتهم سراجاً ولنومهم مهاداً ولسبيلهم منهاجاً ولحجتهم أفلاجاً، يفرح الناس ويحزنون وينام الناس ويسهرون ويفطر الناس ويصومون ويأمن ويخافون، فهم خائفون حذرون وجلون مشفقون مشمرون، يبادرون من الفوت ويستعدون للموت، فارقوا بهجة الدنيا بعين قالية ونظروا إلى ثواب الآخرة بعين رابية واشتروا الباقية بالفانية، فنعم ما اتجروا، ربحوا الدارين وجمعوا الخيرين واستكملوا الفضلين، فهم خرس فصحاء عمي بصراء فعنهم تقصر الصفات وبهم تدفع النقمات وعليهم تنزل البركات، فهم أحلى الناس منطقاً ومذاقاً وأوفى الناس عهداً وميثاقاً، سراج العباد ونهار البلاد ومصابيح الدجا ومعادن الرحمة وينابيع الحكمة وقوام الأمة وأقبل الناس للمعذرة وأصفحهم بالمغفرة وأسمحهم بالعطية.

وروى أبو نعيم في الحلية من طريق مكحول عن عياض بن غنم مرفوعاً في وصف هؤلاء القوم: مؤنتهم على الناس خفيفة وعلى أنفسهم ثقيلة، يدبون في الأرض حفاة أقدامهم دبيب النمل بغير مرح ولا بذخ ولا صلة، يمشون بالسكينة ويتقربون بالوسيلة، يلبسون الخلقان ويتبعون البرهان

جبال بيت المقدس إذ هبطت إلى وادٍ هناك، فإذا أنا بصوت قد علا وإذا تلك الجبال تجيبه لها دوي عال فاتبعت الصوت فإذا أنا بروضة عليها شجر ملتف، وإذا أنا برجل قائم فيها يردد هذه الآية: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً﴾ إلى قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٣٠]، قال: فجلست خلفه أسمع كلامه وهو يردد هذه الآية إذ صاح صيحة خر مغشياً عليه، فقلت: وا أسفاه هذا لشقائي. ثم انتظرت إفاقته فأفاق بعد ساعة فسمعته وهو يقول: أعوذ بك من مقام الكذابين أعوذ بك من أعمال البطالين أعوذ بك من اعراض الغافلين. ثم قال: لك خشعت قلوب الخائفين وإليك فزعت آمال المقصرين ولعظمتك ذلت قلوب العارفين، ثم نفض يده فقال ما لي وللدنيا وما للدنيا ولي؟ عليك يا دنيا بأبناء جنسك وآلاف نعيمك! إلى محبيك فاذهبي! وإياهم فاخدعي! ثم قال: أين القرون الماضية وأهل الدهور السالفة، في التراب يبلون، وعلى الزمان يفنون، فناديته: يا عبدالله أنا منذ اليوم خلفك أنتظر

ويتلون الفرقان ويقربون القربان، يتوسمون العباد ويتفكرون في البلاد، أجسامهم في الأرض وأعينهم في السماء، أقدامهم في الأرض وقلوبهم في السماء، وأنفسهم في الأرض عند العرش، أرواحهم في الدنيا وعقولهم في الآخرة.

(وقال بعض الصالحين: بينا أنا أسير في بعض جبال بيت المقدس إذ هبطت إلى واد هناك فإذا أنا بصوت قد علا وإذا تلك الجبال تجيبه لها دوي عال، فاتبعت الصوت) ومشيت **(فإذا بروضة عليها شجر ملتف، فإذا أنا برجل قائم فيها يردد هذه الآية ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً﴾ إلى قوله ﴿ويحذركم الله نفسه﴾)** وتمامها ﴿تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً﴾ **(قال: فجلست خلفه أسمع كلامه)** ولا يراني **(وهو يردد هذه الآية إذ صاح صيحة خر معها مغشياً عليه، فقلت: وا أسفاه هذا لشقائي ثم انتظرت إفاقته فأفاق بعد ساعة فسمعته وهو يقول: أعوذ بك من مقام الكذابين، أعوذ بك من أعمال البطالين، أعوذ بك من إعراض الغافلين)** قال ذلك لما أحس بمن اطلع على طاهر حاله فخاف على نفسه التصنع في عمله فاستعاذ بالله مما ذكر، والكذاب من يخالف ظاهره باطنه، والبطال من صرف عمره في لهو وبطالة ولم يذق معرفة الله تعالى، والغافل من غفل عن شهود أسرار معاني كلام الله تعالى **(ثم قال: لك خشعت قلوب الخائفين وإليك فزعت آمال المقصرين ولعظمتك ذلت قلوب العارفين، ثم نفض يده وقال: ما لي وللدنيا وما للدنيا ولي عليك يا دنيا بأبناء جنسك وآلاف نعيمك)** أي الذين يألفون نعيمك **(إلى محبيك فاذهبي وإياهم فاخدعي، ثم قال: أين القرون الماضية)** جمع قرن خمس وسبعون سنة وقيل مائة سنة **(وأهل الدهور السالفة في التراب يبلون وعلى)** مر **(الزمان يفنون، فناديته: يا عبدالله)** ناداه بالاسم الأعلم لأنه لم

فراغك! فقال: وكيف يفرغ من يبادر الأوقات وتبادره يخاف سبقها بالموت إلى نفسه؟ أم كيف يفرغ من ذهبت أيامه وبقيت آثامه؟ ثم قال: أنت لها ولكل شدة أتوقع نزولها، ثم لها عني ساعة وقرأ: ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧] ثم صاح صيحة أخرى أشدّ من الأولى وخر مغشياً عليه! فقلت: قد خرجت روحه فدنوت منه فإذا هو يضطرب ثم أفاق وهو يقول: من أنا، ما خاطري؟ هب لي إساءتي من فضلك! وجللني بسترك واعف عن ذنوبي بكرم وجهك إذا وقفت بين يديك! فقلت له: بالذي ترجوه لنفسك؟ وتثق به إلا كلمتني! فقال: عليك بكلام من ينفعك كلامه، ودع كلام من أوبقته ذنوبه، إني لفي هذا الموضع مذ شاء الله أجاهد إبليس ويجاهدني فلم يجد عوناً علي ليخرجني مما أنا فيه غيرك؟ فإليك عني يا مخدوع فقد عطلت عليّ لساني وميلت إلى حديثك شعبة من قلبي وأنا أعوذ بالله من شرك، ثم أرجو أن يعيذني منّ سخطه ويتفضل عليّ برحمته، قال: فقلت هذا ولي لله أخاف أن أشغله فأعاقب في موضعي هذا فانصرفت وتركته. وقال بعض الصالحين: بينما أنا أسير في مسير لي إذ ملت إلى شجرة لأستريح تحتها، فإذا أنا بشيخ قد أشرف عليَّ فقال لي: يا هذا قم

يعرف اسمه الخاص (**أنا منذ اليوم خلفك أنتظر فراغك، فقال: وكيف يفرغ من يبادر الأوقات وتبادره يخاف سبقها بالموت إلى نفسه أم كيف يفرغ من ذهبت أيامه وبقيت آثامه؟ ثم رجع**) إلى ربه مستغيثاً (**وقال: أنت لها ولكل شدة أتوقع نزولها**) أي أنت المعين لي فيها، (**ثم لها عني ساعة وقرأ**) قوله تعالى: (**﴿وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾**) أي ما لم يكن في بالهم من شدة الحساب والعتاب والحجاب، (**ثم صاح صيحة أخرى أشد من الأولى وخر مغشياً عليه، فقلت**) في نفسي: هو (**قد خرجت روحه فدنوت منه فإذا هو يضطرب ثم أفاق وهو يقول: من أنا ما خاطري هب لي إساءتي بفضلك وجللني بسترك واعف عن ذنوبي بكرم وجهك إذا وقفت بين يديك. فقلت له: بالذي ترجوه لنفسك وتثق به إلا كلمتني، فقال: عليك بكلام من ينفعك كلامه ودع كلام من أوبقته ذنوبه**) أي أسرته وأهلكته (**إني لفي هذا الموضع منذ شاء الله أجاهد إبليس ويجاهدني فلم يجد عوناً علي ليخرجني مما أنا فيه**) من التخلي والانفراد (**غيرك، فإليك عني يا مخدوع فقد عطلت علي لساني**) أي شغلته عن ذكر ربي ومناجاته (**وميلت إلى حديثك شعبة من قلبي، وأنا أعوذ بالله من شرك ثم أرجو أن يبعدني من سخطه ويتفضل علي برحمته. قال**) الراوي: (**فقلت هذا ولي الله**) تعالى (**أخاف أن أشغله**) عن الله (**فأعاقب في موضعي هذا**) فإن من شغل المشغول بالله قطعه الله، (**فانصرفت وتركته**).

(**وقال بعض الصالحين**) من أهل المراقبة: (**بينما أنا أسير في مسير لي إذ ملت إلى شجرة**

فإن الموت لم يمت، ثم هام على وجهه فاتبعته فسمعته وهو يقول: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [الأنبياء: ٣٥] اللهم بارك لي في الموت فقلت: وفيما بعد الموت، فقال: من أيقن بما بعد الموت شمر مئزر الحذر ولم يكن له في الدنيا مستقرّ، ثم قال: يا من لوجهه عنت الوجوه بيض وجهي بالنظر إليك واملأ قلبي من المحبة لك. وأجرني من ذل التوبيخ غداً عندك فقد آن لي الحياء منك وحان لي الرجوع عن الإعراض عنك، ثم قال: لولا حلمك لم يسعني أجلي ولولا عفوك لم ينبسط فيما عندك أملي، ثم مضى وتركني وقد أنشدوا في هذا المعنى:

نحيلُ الجسم مكتَئبُ الفؤادِ ... تراه بقنة أو بطن وادي
ينوحُ على معاصٍ فاضحاتِ ... يكدّر ثقلها صفو الرقادِ
فإن هاجت مخاوفه وزادت ... فدعوته: أغثني يا عمادي
فأنت بما ألاقيه عليم ... كثير الصفح عن زلل العبادِ

وقيل أيضاً:

ألذ من التلذذ بالغواني ... إذا أقبلن في حلل حسانِ

لأستريح تحتها) وأستظل بظلها، (فإذا بشيخ قد أشرف على فقال لي: يا هذا قم فإن الموت لم يمت ثم هام على وجهه فأتبعته فسمعته وهو يقول: ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ اللهم بارك لي في الموت، فقلت: ومما بعد الموت. فقال: من أيقن بما بعد الموت شمر مئزر الحذر) أي جد واجتهد فيما خلق له، (ولم يكن له في الدنيا مستقر، ثم) رجع إلى مراقبته ومناجاته و (قال: يا من لوجهه عنت الوجوه بيض وجهي بالنظر إليك، واملأ قلبي من المحبة لك، وأجرني من ذلة التوبيخ غداً عندك، فقد آن لي الحياء منك وحان لي الرجوع عن الإعراض عنك، ثم قال: لولا حلمك لم يسعني أجلي، ولولا عفوك لم ينبسط فيما عندك أملي، ثم مضى وتركني، وقد أنشدوا في هذا المعنى) أي في وصف المجتهدين.

(نحيل الجسم مكتئب الفؤاد ... تراه بقنة أو بطن واد)
(ينوح على معاص فادحات ... يكدر ثقلها صفو الرقاد)
(فإن هاجت مخاوفه وزادت ... فدعوته أغثني يا عمادي
فأنت بما ألاقيه عليم ... كثير الصفح عن زلل العباد)

القنة: بالضم واد من الجبل. فادحات: أي ثقيلات.

(وقيل) في هذا المعنى (أيضاً)

(ألذ من التلذذ بالغواني ... إذا أقبلن في حلل حسان

منيب فرّ من أهل ومال ... يسيح إلى مكان من مكان
ليخمل ذكره ويعيش فرداً ... ويظفر في العبادة بالأماني
تلذذه التلاوة أين ولّى ... وذكر بالفؤاد وباللسان
وعند الموت يأتيه بشير ... يبشّر بالنجاة من الهوان
فيدرك ما أراد وما تمنى ... من الراحات في غرف الجنان

وكان كرز بن وبرة يختم القرآن في كل يوم ثلاث مرات، ويجاهد نفسه في العبادات

منيب فر من أهل ومال ... يسيح إلى مكان من مكان)

المنيب: هو التائب الراجع إلى ربه.

(ليخمل ذكره ويعيش فرداً ... ويظفر في العبادة بالأماني)

أي ليخفى ذكره بين الناس ولا يشار إليه ويعيش منفرداً بربه ويجد حلاوة في طاعته.

(تلذذه التلاوة أين ولى ... وذكر بالفؤاد وباللسان
وعند الموت يأتيه بشير ... يبشر بالنجاة من الهوان
فيدرك ما أراد وما تمنى ... من الراحات في غرف الجنان)

وهؤلاء الذين وصفهم ذو النون بما سبق ذكره نظروا إلى ثواب الله بأنفس تائقة وعيون رائقة وأعمال موافقة، فحلوا عن الدنيا مطيّ رحالهم وقطعوا منها حبال آمالهم لم يدع لهم خوف ربهم من أموالهم تليداً ولا عتيداً. أفتراهم لم يشتهوا من الأموال كنوزها ولا من الأوبار خزوزها ولا من المطايا عزيزها ولا من القصور مشيدها. بلى، ولكنهم نظروا بتوفيق الله وإلهامه لهم فحركهم ما عرفوا بصبر أيام قلائل فضموا أبدانهم عن المحارم، وكفوا أيديهم عن ألوان المطاعم، وهربوا بأنفسهم عن المآثم فسلكوا من السبيل رشاده ومهدوا للرشاد مهاده، فشاركوا أهل الدنيا في آخرتهم، هابوا الموت وسكراته وكرباته وفجعاته ومن القبر ضيقه ومنكراً ونكيراً ومن ابتدادهما وانتهارهما وسؤالهما ومن المقام بين يدي الله عز وجل.

(وكان كرز بن وبرة) الحرثي قال صاحب الحلية: كوفي الأصل سكن جرجان ويعد في اتباع تابعي أهل الكوفة له الصيت البليغ والمكان الرفيع في النسك والتعبد، كان تغلب عليه المؤانسة والمشاهدة فيشهده شهي الملاطفات وتؤنسه خفي المخاطبات. روى عن طاوس وعطاء والربيع بن خثيم ومحمد بن كعب القرظي وغيرهم. **(يختم القرآن في كل يوم ثلاث مرات)**. قال أبو نعيم في الحلية: حدثنا أبو محمد بن بن حيان، حدثنا أحمد بن الحسين الحذاء، حدثنا أحمد بن إبراهيم،

غاية المجاهدة فقيل له: **قد أجهدت نفسك! فقال: كم عمر الدنيا؟ فقيل: سبعة آلاف سنة، فقال: كم مقدار يوم القيامة؟ فقيل: خمسون ألف سنة، فقال: كيف يعجز أحدكم أن يعمل سبع يوم حتى يأمن ذلك اليوم؟ يعني أنك لو عشت عمر الدنيا واجتهدت** سبعة آلاف سنة **وتخلصت من يوم واحد** كان مقداره **خمسين ألف سنة لكان ربحك** كثيراً وكنت بالرغبة **فيه جديراً فكيف وعمرك قصير والآخرة لا غاية لها؟ فهكذا**

حدثني سعد أبو عثمان، سمعت ابن عيينة يقول قال ابن شبرمة سأل كرز بن وبرة ربه أن يعطيه اسمه الأعظم على أن لا يسأل به شيئاً من الدنيا فأعطاه الله ذلك، فسأله أن يقوى حتى يختم القرآن في اليوم والليلة ثلاث مرات. وقال عبدالله بن أحمد في زوائد الزهد: حدثنا شريح بن يونس، حدثنا محمد بن فضيل بن غزوان عن أبيه قال: دخلت على كرز بن وبرة بيته فإذا عند مصلاه حصيرة قد ملأها تبناً وبسط عليها كساء من طول القيام، فكان يقرأ في اليوم والليلة ثلاث ختمات **(ويجاهد نفسه في العبادات غاية المجاهدة)** . قال عبدالله بن أحمد بسنده السابق إلى فضيل بن غزوان قال: كان لكرز عند المحراب ما يعتمد عليه إذا نعس. وروى أبو نعيم من طريق خلف بن تميم عن أبيه قال: ما رأيت في هذه الأمة أعبد من كرز كان لا يفتر يصلي في المحمل، فإذا نزل من المحمل افتتح الصلاة. ومن طريق فضيل بن غزوان قال: لم يرفع كرز رأسه إلى السماء أربعين سنة. ومن طريق سفيان بن عيينة قال: سمعت ابن شبرمة يقول قلت لابن هبيرة:

لو شئت كنت ككرز في تعبده ... أو كابن طارق حول البيت في الحرم
قد حال دون لذيذ العيش خوفهما ... وسارعا في طلاب الفوز والكرم

فقال لي ابن هبيرة: من كرز وابن طارق؟ قال: قلت أما كرز فكان إذا كان في سفر واتخذ الناس منزلاً اتخذ هو منزلاً للصلاة، وأما ابن طارق فلو اكتفى أحد بالتراب كفاه كف من تراب، وقد تقدم له ذكر في كتاب الحج. وقال صاحب القوت بعد أن ورد شيئاً من مجاهداته **(فقيل له: قد أجهدت نفسك)** في العبادة. **(فقال: كم عمر الدنيا؟ فقيل: سبعة آلاف سنة. فقال: فكم مقدار يوم القيامة؟ فقيل: خمسون ألف سنة. فقال: كيف يعجز أحدكم أن يعمل سبع يوم حتى يأمن ذلك اليوم)** ولفظ القوت: ما يرضى عبد أن يعمل سبعة آلاف سنة وينجو من يوم مقداره خمسون ألف سنة. زاد المصنف **(يعني أنك لو عشت عمر الدنيا واجتهدت)** في العبادة **(سبعة آلاف سنة وتخلصت من)** هول **(يوم واحد مقدار خمسين ألف سنة لكان ربحك كثيراً وكنت بالرغبة فيه جديراً، فكيف وعمرك قصير والآخرة لا غاية لها)؟**

ومن ذلك ما أورده البيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يصلي حتى ترم قدماه. رواه أبو زيد الهروي عن شعبة عن الأعمش عن أبي صالح عنه قال: وقال أبو زيد: رأيت شعبة يصلي حتى ورم قدماه. وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال: كان عمر بن الخطاب يصلي من

....

الليل ما شاء الله أن يصلي حتى إذا كان في آخر الليل أيقظ أهله للصلاة. وعن نافع قال: كان ابن عمر يصلي عامة الليل. وعن حميد بن هلال قال: كان مسلم بن يسار إذا قام يصلي كأنه ثوب ملقى. وعند عبدالله بن مسلم قال: كان سعيد بن جبير إذا قام إلى الصلاة كأنه وتد وعن عبدالله ابن يعقوب الحافظ قال: ما رأيت أحسن صلاة من أبي عبدالله محمد بن نصر كان الذباب يقع على أذنه فيسيل الدم ولا يذبه عن نفسه، ولقد كنا نتعجب من حسن صلاته كان يضع ذقنه على صدره فينتصب كأنه خشبة منصوبة. وعن الأوزاعي قال: كان علي بن عبدالله بن عباس يسجد كل يوم ألف سجدة. وعن مرة الهمداني حين سئل وقد كبر ما بقي من صلاتك. قال: الشطر خمسون ومائتا ركعة.

وقال عبدالله بن أحمد بن حنبل، حدثنا أبي، حدثنا موسى بن هلال، حدثنا رجل كان جليساً لنا وكانت امرأة حسان مولاة له قال: فحدثتني امرأة حسان بن أبي سنان قالت: كان يجيء فيدخل معي في فراشي ثم يخادعني كما تخادع المرأة صبيتها، فإذا علم أني قد نمت سل نفسه فخرج ثم يقوم فيصلي قال: فقلت له يا أبا عبدالله كم تعذب نفسك ارفق بنفسك. قال: اسكتي ويحك فيوشك أن أرقد رقدة لا أقوم منها زماناً.

وعن أحمد بن أبي الحواري قال: سمعت أبا سليمان الداراني يقول: بينا أنا ساجد إذ ذهب بي النوم فإذا بها يعني بالحوراء قد ركضتني برجلها، فقالت: حبيبي أترقد عيناك والملك يقظان ينظر إلى المتهجدين في تهجدهم بؤسا لعين آثرت لذة نومة على لذة مناجاة العزيز فقد دنا الفراغ ولقي المحبون بعضهم بعضاً، فما هذا الرقاد حبيبي وقرة عيني أترقد عيناك وأنا أربى لك في الخدور منذ كذا وكذا، فوثبت فزعاً وقد عرقت استحياء من توبيخها إياي وأن حلاوة منطقها لقي سمعي وقلبي.

وعن طلق بن معاوية قال: قدم رجل يقال له هند بن عوف من سفر، فمهدت له امرأته فراشاً وكانت له ساعة من الليل يقومها فنام عنها حتى أصبح فحلف لا ينام على فراش أبداً.

وعن أبي الحسن علي بن المزين قال: دخلت على امرأة عبد الرحمن بن مهدي وكنت أزورها بعد موته، فرأيت سواداً في القبلة قالت هذا موضع عبد الرحمن كان يصلي بالليل فإذا غلبه النوم وضع جبهته على هذا الموضع.

وعن رابعة العدوية قالت: ما كان صلة يجيء في مسجد بيته إلى فراشه إلا حبواً يقوم حتى يفتر عن الصلاة.

وعن جعفر بن زيد العبدي أن أباه أخبره قال: خرجنا في غزوة إلى كابل وفي الجيش صلة بن أشيم قال: فنزل الناس عند العتمة فقلت لأرمقن عمله فانظر ما يذكر الناس من عبادته، فصلى العتمة ثم اضطجع فالتمس غفلة الناس، حتى إذا قلت هدأت العيون وثب فدخل غيضة قريباً منه

....

ودخلت في أثره فتوضأ ثم قام يصلي فافتتح قال: وجاء أسد حتى دنا منه فصعدت في شجرة قال فتراه التفت حتى سجد، فقلت الآن يفترسه فلا شيء فجلس ثم سلم فقال: أيها السبع اطلب الرزق من مكان آخر فولّي وإن له زئيراً أقول تصدع الجبال منه، فما زال كذلك يصلي حتى إذا كان عند الصبح جلس فحمد الله بمحامد لم أسمع بمثلها إلا ما شاء الله، ثم قال: اللهم اسألك أن تجيرني من النار أو مثلي يجترىء أن يسألك الجنة، ثم رجع فاصبح كأنه بات على الحشابك واصبحت وبي من الفترة شيء الله به اعلم. قال: فلما دنونا من أرض العدو قال الأمير: ولا يشذن أحد من العسكر. قال: فذهبت بغلته يعني بغلة صلة بثقلها فأخذ يصلي فقالوا له: إن الناس قد ذهبوا. قال: إنما هما خفيفتان. قال: فدعا ثم قال: اللهم إني أقسم عليك أن ترد عليّ بغلتي وثقلها. قال: فجاءت حتى قامت بين يديه، فلما لقينا العدوّ حمل هو وهشام بن عامر فصنعا بهم طعنا وضرباً وقتلاً. قال: فكسر ذلك العدو وقالوا إن رجلين من العرب صنعا بنا هذا، فكيف لو قاتلونا فأعطوا المسلمين حاجتهم، فقيل لأبي هريرة إن هشام بن عامر وكان يجالسه ألقى بيده إلى التهلكة فاخبره خبره. قال: كلا ولكنه التمس هذه الآية ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤوف بالعباد﴾ [البقرة: ٢٠٧].

وعن الأعمش عن عبد الرحمن بن أبي ليلى أنه كان يصلي، فإذا دخل الداخل أتى فراشه فاتكأ عليه. وعن منصور بن أبي أمية خادم عمر بن عبد العزيز قال: رأيت عمر بن عبد العزيز وله سفط في كوة ومفتاحه في إزاره يستغفلني، فإذا نظر أني قد نمت فتح السفط فأخرج منه جبة شعر ورداء شعر فصلى فيهما الليل كله، فإذا نودي بالصبح نزعهما. وعن السري بن يحي قال: كان سليمان التيمي في طريق مكة يتوضأ لصلاة العشاء ثم يصلي بالليل كأنه في محمله حتى الصبح، ثم يصلي الصبح بوضوئه ذلك. وعن محمد بن عبد الأعلى قال: قال لي المعتمر بن سليمان: لولا أنك من أهلي ما حدثتك بذا عن أبي، مكث أبي أربعين سنة يصوم يوماً ويفطر يوماً ويصلي صلاة الفجر بوضوء العشاء. وعن سعيد بن عامر قال: كان سليمان التيمي يسبح في كل سجدة وركعة سبعين تسبيحة. وعن هشيم قال: لو قيل لمنصور بن زاذان أن ملك الموت على الباب ما كان عنده زيادة في العمل قال: وذلك أنه كان يخرج ويصلي بالغداة في جماعة ثم يجلس فيسبح حتى تطلع الشمس، ثم يصلي إلى الزوال، ثم يصلي الظهر، ثم يصلي إلى العصر، ثم يصلي العصر ثم يجلس فيسبح إلى المغرب، ثم يصلي العشاء الآخرة، ثم ينصرف إلى بيته فيكتب عنه في ذلك الوقت.

وعن الحسين بن منصور قال: كان سليمان بن المغيرة إذا قام إلى الصلاة لو أكلت الذبابة وجهه لم يطيرها. قال: وأخبرنا أبو عبدالله الحافظ قال: سمعت أبي يقول: سمعت مريم امرأة أبي عثمان تقول: كنا نؤخر اللعب والضحك والحديث إلى أن يدخل أبو عثمان ورده في الصلاة، فإنه كان إذا دخل بيت الخلوة لا يحس بشيء من الحديث وغيره. وعن الربيع بن سليمان قال: كان الشافعي

كانت سيرة السلف الصالحين في مرابطة النفس ومراقبتها. فمهما تمرّدت نفسك عليك وامتنعت من المواظبة على العبادة فطالع أحوال هؤلاء فإنه قد عز الآن وجود مثلهم ولو قدرت على مشاهدة من اقتدى بهم فهو أنجع في القلب وأبعث على الاقتداء فليس الخبر

جزأ الليل ثلاثة أجزاء الجزء الأوّل يكتب، والثلث الثاني يصلي، والثلث الثالث ينام. وعن أبي خالد الأحمر قال: أكل سفيان ليلة فشبع فقال: إن الحمار إذا زيد في علفه زيد في عمله، فقام حتى أصبح.

وعن حمزة بن ربيعة قال: حججنا مع الاوزاعي سنة خمسين ومائة فما رأيته مضطجعاً على المحمل في ليل ولا نهار قط كان يصلي، فإذا غلبه النوم استند إلى القتب. وعن أحمد بن سلمة قال: سمعت هناد بن السري غير مرة إذا ذكر قبيصة بن عقبة قال الرجل الصالح وتدمع عيناه. وكان هناد كثير البكاء وكنت عنده ذات يوم في مسجده فلما فرغ من القراءة عاد إلى منزلة فتوضأ وانصرف إلى المسجد وقام على رجليه يصلي إلى الزوال وأنا معه في المسجد، ثم رجع إلى منزله فتوضأ وانصرف إلى المسجد فصلى بنا الظهر، ثم قام على رجليه إلى العصر ويرفع صوته بالقرآن ويبكي كثيراً ويصلي إلى العصر، ثم صلى بنا العصر وجاء إلى صحن المسجد فجعل يقرأ القرآن في المصحف إلى الليل فصليت معه صلاة المغرب، وقلت لبعض جيرانه: ما أصبره على العبادة فقال: هذه عبادته منذ سبعين سنة، فكيف لو رأيت عبادته بالليل وما تزوّج قط ولا تسرى قط، وكان يقال له راهب الكوفة.

وعن الاوزاعي قال: خرجت حاجاً فدخلت مدينة النبي ﷺ، فإذا شاب بين القبر والمنبر يتهجد فلما طلع الفجر استلقى على ظهره، ثم قال عند الصباح: يحمد القوم السرى، فقلت له: يا ابن أخي لك ولأصحابك لا للجهالين.

وعن داود بن رشيد قال: قام أخ لي في ليلة ظلماء يصلي مع نفسه فضربه البرد وكان رث الثياب ثم سجد فذهب به النوم في سجوده، فهتف به هاتف أنمناهم وأقمناك وتبكي علينا.

وعن أبي محمد الجريري قال: كنت واقفاً على رأس الجنيد في وقت وفاته، وكان يوم جمعة وهو يقرأ القرآن، فقلت: يا أبا القاسم ارفق بنفسك، فقال: يا أبا محمد رأيت أحوج مني في هذا الوقت، وهو ذا تطوى صحيفتي. وقال أبو عبد الرحمن السلمي: سمعت جدي يقول: دخل أبو العباس بن عطاء على الجنيد، وهو في النزع لم يرد عليه ثم ردّ عليه بعد ساعة وقال: اعذرني فإني كنت في وردي ثم حوّل وجهه إلى القبلة ومات.

(فهكذا كانت سيرة السلف الصالحين في مرابطة النفس ومراقبتها، فمهما تمردت نفسك عليك وامتنعت من المواظبة على العبادة فطالع أحوال هؤلاء فإنه قد عز الآن وجود مثلهم) بل ومن يداني من يشابههم، **(ولو قدرت على مشاهدة من اقتدى بهم)** في أحوالهم **(فهو أنجع في القلب وأبعث على الاقتداء فليس الخبر كالمعاينة)** كما ورد في الخبر وتقدم،

كالمعاينة، وإذا عجزت عن هذا فلا تغفل عن سماع أحوال هؤلاء، فإن لم تكن إبل فمعزى، وخير نفسك بين الاقتداء بهم والكون في زمرتهم وغمارهم وهم العقلاء والحكماء وذوو البصائر في الدين وبين الاقتداء بالجهلة الغافلين من أهل عصرك، ولا ترضَ لها أن تنخرط في سلك الحمقى وتقنع بالتشبه بالأغبياء وتؤثر مخالفة العقلاء. فإن حدثتك نفسك بأن هؤلاء رجال أقوياء لا يطاق الاقتداء بهم فطالع أحوال النساء المجتهدات وقل لها: يا نفس لا تستنكفي أن تكوني أقل من امرأة فاخسس برجل يقصر عن امرأة في أمر دينها ودنياها! ولنذكر الآن نبذة من أحوال المجتهدات، فقد روي عن حبيبة العدوية أنها كانت إذا صلت العتمة قامت على سطح لها وشدت عليها درعها وخمارها ثم قالت: إلهي قد غارت النجوم ونامت العيون وغلقت الملوك أبوابها وخلا كل حبيب بحبيبه وهذا مقامي بين يديك، ثم تقبل على صلاتها فإذا طلع الفجر قالت: إلهي هذا الليل قد أدبر وهذا النهار قد أسفر فليت شعري أقبلت مني ليلتي فأهنأ أم رددتها علي فأعزي؟ وعزتك لهذا دأبي ودأبك ما أبقيتني، وعزتك لو انتهرتني عن بابك ما برحت لما وقع في نفسي من جودك وكرمك.

ويروى عن عجرة أنها كانت تحيي الليل وكانت مكفوفة البصر، فإذا كان في السحر

(وإذا عجزت عن هذا فلا تغفل عن سماع أحوال هؤلاء، فإن لم تكن إبل فمعزى) وهو مثل مشهور، **(وخير نفسك بين الاقتداء بهم والكون في زمرتهم وغمارهم)** أي جماعتهم وكثرتهم **(وهم العقلاء والحكماء وذوو البصائر في الدين وبين الاقتداء بالجهلة الغافلين من أهل عصرك، ولا ترض لها أن تنخرط في سلك الحمقى)** وزمرة الأغبياء **(وتقنع بالتشبه بالأغبياء وتؤثر مخالفة العقلاء، فإن حدثتك نفسك بأن هؤلاء رجال أقوياء لا يطاق الاقتداء بهم فطالع أحوال النساء المجتهدات وقل لها: يا نفس ألا تستنكفين أن تكوني أقل من امرأة فاخسس برجل يقصر عن)** درجة **(امرأة في أمر دينها ودنياها)**.

(ولنذكر الآن نبذة من أحوال المجتهدات، فقد روي عن حبيبة العدوية) وكانت امرأة عابدة من البصرة **(أنها كانت إذا صلت قامت على سطح لها وشدت عليها درعها وخمارها ثم قالت: إلهي قد غارت النجوم ونامت العيون وغلقت الملوك أبوابها وخلا كل حبيب بحبيبه، وهذا مقامي بين يديك ثم تقبل على صلاتها)** فتصلي ما شاء الله أن تصلي، **(فإذا طلع الفجر قالت: إلهي هذا الليل قد أدبر)** أي ولّى منصرفاً **(وهذا النهار قد أسفر)** أي ظهر نوره، **(فليت شعري أقبلت ليلتي فأهنا أم رددتها علي فأعزى، وعزتك لو انتهرتني من بابك ما برحته لما وقع في نفسي من جودك وكرمك)** رواه أبو نعيم في الحلية.

(ويروى عن عجرة) بضم العين وكانت من متعبدات البصرة **(أنها كانت تحيي الليل)**

نادت بصوت لها محزون: إليك قطع العابدون دجى الليالي يستبقون إلى رحمتك وفضل مغفرتك فبك يا إلهي أسألك لا بغيرك أن تجعلني في أوّل زمرة السابقين وأن ترفعني لديك في عليين في درجة المقربين وأن تلحقني بعبادك الصالحين فأنت أرحم الرحماء وأعظم العظماء وأكرم الكرماء يا كريم، ثم تخر ساجدة فيسمع لها وجبة ثم لا تزال تدعو وتبكي إلى الفجر.

وقال يحي بن بسطام: كنت أشهد مجلس شعوانة فكنت أرى ما تصنع من النياحة والبكاء، فقلت لصاحب لي: لو أتيناها إذا خلت فأمرناها بالرفق بنفسها؟ فقال: أنت وذاك، قال فأتيناها فقلت لها: لو رفقت بنفسك وأقصرت عن هذا البكاء شيئاً فكان لك أقوى على ما تريدين؟ قال: فبكت ثم قالت والله لوددت أني أبكي حتى تنفد دموعي ثم أبكي دماً حتى لا تبقى قطرة من دم في جارحة من جوارحي وأنّى لي بالبكاء وأنى لي بالبكاء. فلم تزل تردد وأنّى لي بالبكاء حتى غشي عليها.

وقال محمد بن معاذ حدثتني امرأة من المتعبدات قالت: رأيت في منامي كأني أدخلت

بالصلاة والتسبيح، (**وكانت مكفوفة البصر فإذا كان السحر نادت بصوت لها محزون: إليك قطع العابدون دجا الليالي يستبقون إلى رحمتك وفضل مغفرتك فبك يا إلهي أسألك لا بغيرك أن تجعلني في أول زمرة السابقين وأن ترفعني لديك في عليين في درجة المقربين وأن تلحقني بعبادك الصالحين فأنت أرحم الرحماء وأعظم العظماء وأكرم الكرماء يا كريم، ثم تخرّ ساجدة فيسمع لها وجبة، ثم لا تزال تدعو وتبكي إلى الفجر**) رواه أبو نعيم في الحلية.

(**وقال يحي بن بسطام كنت أشهد مجلس شعوانة**) وكانت من العارفات المتعبدات المعاصرات للفضيل بن عياض، (**فكنت أرى ما تصنع من النياحة والبكاء فقلت لصاحب لي: لو أتيناها إذا خلت**) بنفسها (**فأمرناها بالرفق بنفسها فقال: أنت وذاك. قال: فاتيناها فقلت لها: لو رفقت بنفسك واقصرت عن هذا البكاء شيئاً فكان لك أقوى على ما تريدين. قال: فبكت ثم قالت: والله لوددت أني أبكي حتى تنفد دموعي ثم أبكي دماً حتى لا تبقى قطرة من دم في جارحة من جوارحي وأني لي بالبكاء فلم تزل تردد وأني لي بالبكاء حتى غشي عليها**) رواه ابن أبي الدنيا عن محمد بن الحسين عن يحي بن بسطام فذكره.

وقال أبو نعيم في الحلية: حدثنا أبو محمد بن حيان، حدثنا إبراهيم بن علي الرازي، حدثنا النضر بن سلمة، حدثنا زهدم بن الحارث، عن فضيل بن عياض قال: قدمت شعوانة فأتيتها فشكوت إليها وسألتها أن تدعو الله بدعاء فقالت شعوانة: يا فضيل أما بينك وبين الله ما إن دعوته استجاب قال: فشهق الفضيل شهقة فخرّ مغشياً عليه.

(**وقال محمد بن معاذ**) بن عباد بن معاذ بن نصر بن حسان العنبري البصري صدوق عارف

الجنة فإذا أهل الجنة قيام على أبوابهم، فقلت ما شأن أهل الجنة قيام؟ فقال لي قائل خرجوا ينظرون إلى هذه المرأة التي زخرفت الجنان لقدومها! فقلت ومن هذه المرأة؟ فقيل: أمة سوداء من أهل الابلة يقال لها شعوانة. قالت فقلت أختي والله، قالت فبينما أنا كذلك إذ أقبل بها على نجيبة تطير بها في الهواء، فلما رأيتها ناديت؛ يا أختي أما ترين مكاني من مكانك فلو دعوت لي مولاك فألحقني بك؟ قال فتبسمت إليَّ وقالت لم يأن لقدومك احفظي عني اثنتين: الزمي الحزن قلبك وقدمي محبة الله على هواك ولا يضرك متى مت.

وقال عبدالله بن الحسن: كانت لي جارية رومية وكنت بها معجباً فكانت في بعض الليالي نائمة إلى جنبي فانتبهت فالتمستها فلم أجدها، فقمت أطلبها فإذا هي ساجدة وهي تقول بحبك لي إلا ما غفرت لي ذنوبي، فقلت لها لا تقولي بحبك لي ولكن قولي بحبي لك، فقالت: يا مولاي بحبه لي أخرجني من الشرك إلى الإسلام وبحبه لي أيقظ عيني وكثير من خلقه نيام.

مات سنة ٢٢٣ روى عنه مسلم وأبو داود: (**حدثتني امرأة من المتعبدات قالت: رأيت في منامي كأني أدخلت الجنة، فإذا أهل الجنة قيام على أبوابهم، فقلت: ما شأن أهل الجنة قيام؟ فقال لي قائل: خرجوا ينظرون إلى هذه المرأة التي زخرفت الجنان لقدومها فقلت: ومن هذه المرأة؟ فقيل: أمة سوداء من أهل الابلة**) بضم الهمزة والموحدة وتشديد اللام موضع على أربع فراسخ من البصرة (**يقال لها شعوانة** قال: **فقلت أختي والله**) تعني الأخوّة في الله. (**قالت: فبينما أنا كذلك إذ أقبل بها على نجيبة تطير بها في الهواء فلما رأيتها ناديت: يا أختي أما ترين مكاني من مكانك فلو دعوت لي مولاك فالحقني بك قالت: فتبسمت إلي وقالت: لم يأن لقدومك ولكن احفظي عني**) خصلتين (**اثنتين**). إحداهما: (**الزمي الحزن قلبك**) أي لا يفارقك الحزن أبداً. (**و**) الثانية: (**قدمي محبة الله على هواك ولا يضرك متى مت**) رواه ابن أبي الدنيا.

(**وقال عبدالله بن الحسن**) بن الحسن بن علي بن أبي طالب الهاشمي المدني أبو محمد ثقة جليل القدر، روى له أصحاب السنن، مات سنة خمس وأربعين ومائة عن خمس وسبعين سنة: (**كانت لي جارية رومية**) أي من سبي الروم (**وكنت بها معجباً وكانت في بعض الليالي نائمة إلى جنبي، فانتبهت فلمستها فلم أجدها فقمت أطلبها فإذا هي ساجدة وهي تقول: بحبك لي إلا ما غفرت لي ذنوبي. فقلت لها: لا تقولي بحبك لي ولكن قولي بحبي لك. فقالت: لا يا مولاي بحبه لي أخرجني من الشرك إلى الإسلام، وبحبه لي أيقظ عيني وكثير من خلقه نيام**) رواه ابن أبي الدنيا.

وقال أبو هاشم القرشي: قدمت علينا امرأة من أهل اليمن يقال لها سرية فنزلت في بعض ديارنا، قال: فكنت أسمع لها من الليل أنيناً وشهيقاً، فقلت يوماً لخادم لي: أشرف على هذه المرأة، ماذا تصنع قال: فأشرف عليها فما رآها تصنع شيئاً غير أنها لا ترد طرفها عن السماء وهي مستقبلة القبلة تقول: خلقت سرية ثم غذيتها بنعمتك من حال إلى حال وكل أحوالك لها حسنة وكل بلائك عندها جميل، وهي مع ذلك متعرضة لسخطك بالتوثب على معاصيك فلتة بعد فلتة، أتراها تظن أنك لا ترى سوء فعالها وأنت عليم خبير وأنت على كل شيء قدير.

وقال ذو النون المصري: خرجت ليلة من وادي كنعان فلما علوت الوادي إذا سواد مقبل عليَّ وهو يقول: ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧] ويبكي فلما قرب مني السواد إذا هي امرأة عليها جبة صوف وبيدها ركوة، فقالت لي:

(وقال أبو هاشم القرشي) كذا في النسخ والصواب أبو هشام: **(قدمت علينا)** مكة **(امرأة من أهل اليمن يقال لها سرية، فنزلت في بعض ديارنا قال: فكنت أسمع لها من الليل أنيناً وشهيقاً فقلت يوماً لخادم لي: اشرف على هذه المرأة ماذا تصنع. قال: فأشرف عليها فما رآها تصنع شيئاً غير أنها لا ترد طرفها عن السماء وهي مستقبلة القبلة وتقول: خلقت سرية ثم غذيتها بنعمتك من حال إلى حال، وكل أحوالك لها حسنة، وكل بلائك عندها جميل وهي مع ذلك متعرضة لسخطك بالتوثب على معاصيك فلتة بعد فلتة، تراها تظن أنك لا ترى من فعالها وأنت عليم خبير وأنت على كل شيء قدير)** رواه أبو بكر بن أبي الدنيا مع بعض مخالفة وزيادة في الآخرة فقال: حدثنا محمد بن الحسين، حدثني عبدالله بن الزبير الحميدي، حدثنا أبو هشام رجل من قريش من بني عامر قال: قدمت علينا امرأة من أهل اليمن يقال لها سرية فنزلت في بعض رباعنا فكنت أسمع لها من الليل نحيباً وشهيقاً، فقلت للخادم: أشرفي على هذه المرأة فانظري ما تصنع، فاشرفت فإذا هي قائمة مستقبلة رافعة رأسها إلى السماء، فقلت: ما تصنع؟ قالت: ما أراها تصنع شيئاً غير أنها لا ترد طرفها عن السماء. فقلت: اسمعي ما تقول. قالت: ما أفهم كثيراً من قولها غير أني أسمعها تقول أراك خلقت سرية من طينة لازبة غمرتها بنعمتك تعدوها من حال إلى حال وكل أحوالك لها حسنة وكل بلائك عندها جميل وهي مع ذلك متعرضة لسخطك بالتوثب على معاصيك فلتة في أثر فلتة. أترى أنها تظن أنك لا ترى سوء فعالها بلى وأنت على كل شيء قدير. قال: فصرخت وسقطت ونزلت الجارية فاخبرتني بسقطتها، فلما أصبحنا نظرنا فإذا هي قد ماتت.

(وقال ذو النون المصري) رحمه الله تعالى: **(خرجت ليلة من وادي كنعان، فلما علوت الوادي إذا سواد مقبل عليّ وهو يقول: ﴿وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾ ويبكي فلما قرب مني السواد إذا هي امرأة عليها جبة صوف وبيدها ركوة، فقالت لي: من أنت**

من أنت؟ غير فزعة مني، فقلت: رجل غريب، فقالت: يا هذا وهل يوجد مع الله غربة؟ قال: فبكيت لقولها فقالت لي: ما الذي أبكاك؟ فقلت: قد وقع الدواء على داء قد قرح فأسرع في نجاحه، قالت: فإن كنت صادقاً فلم بكيت؟ قلت: يرحمك الله والصادق لا يبكي؟ قالت: لا، قلت: ولم ذاك؟ قالت لأن البكاء راحة القلب، فسكت متعجباً من قولها.

غير فزعة مني. قلت: رجل غريب. فقالت: يا هذا وهل يوجد مع الله غربة؟ قال: فبكيت لقولها. فقالت لي: ما الذي أبكاك؟ فقلت: وقع الدواء على داء قد قرح فاسرع في نجاحه. قالت: فإن كنت صادقاً فلم بكيت؟ قلت: يرحمك الله والصادق لا يبكي. قالت: لا. قلت: ولم ذلك؟ قالت: لأن البكاء راحة القلب فسكت متعجباً من قولها) أي: والصادق في المحبة لا يرتاح إلا بمولاه والبكاء إنما يعتري في مبادىء الحب قبل تمامه بالصدق.

ويشبه هذه القصة ما ذكره ابن السراج في مصارع العشاق: أخبرنا أبو القاسم عبد العزيز بن علي، حدثنا علي بن عبدالله بن الحسن الهمداني بمكة، حدثنا محمد بن عبدالله بن الشكلي، حدثني محمد بن جعفر القنطري قال: ذو النون: بينما أنا أسير على ساحل البحر إذ بصرت بجارية عليها أطمار شعر، وإذا هي ناحلة ذابلة فدنوت منها لأسمع ما تقول فرأيتها متصلة الأحزان بالأشجان وعصفت الرياح واضطربت الأمواج وظهرت الحيتان، فصرخت ثم سقطت إلى الأرض، فلما أفاقت نحبت ثم قالت: سيدي بك تقرب المتقربون في الخلوات، ولعظمتك سحت النينان في البحر الزاخرات، ولجلال قدسك تصافقت الأمواج المتلاطمات. أنت الذي سجد لك سواد الليل وضوء النهار والفلك الدوّار والبحر الزخار والقمر النوّار والنجم الزهار، وكل شيء عندك بمقدار لأنك الله العلي القهار.

يا مؤنس الأسراء في خلواتهم	يا خير من حطت به النزال
من ذاق حبك لا يزال متيماً	فرح الفؤاد متيماً بلبال
من ذاق حبك لا ترى متبسماً	في طول حزن في الحشاشة عالي

فقلت لها: زيدينا من هذا، فقالت: إليك عني ثم رفعت طرفها إلى السماء وقالت:

أحبك حبين حب الوداد	وحباً لأنك أهل لذاك
فأما الذي هو حب الوداد	فحب شغلت به عن سواك
وأما الذي أنت أهل له	فكشفك للحجب حتى أراك
فما الحمد في ذا ولا ذاك لي	ولكن لك الحمد في ذا وذاك

ثم شهقت شهقة فإذا هي قد فارقت الدنيا، فبقيت أتعجب مما رأيت منها، فإذا بنسوة قد أقبلن عليهن مدارع الشعر فاحتملنها فغيبنها عن عيني فغسلنها ثم أقبلن بها في أكفانها، فقلن لي: تقدم فصلّ عليها فتقدمت فصليت عليها وهن خلفي، ثم احتملنها ومضين. وقد تقدم ذكر هذه

وقال أحمد بن علي: استأذنا على عفيرة فحجبتنا فلازمنا الباب، فلما علمت ذلك قامت لتفتح الباب لنا فسمعتها وهي تقول اللهم إني أعوذ بك ممن جاء يشغلني عن ذكرك، ثم فتحت الباب ودخلنا عليها فقلنا لها يا أمة الله ادعي لنا، فقالت: جعل الله قراكم في بيتي المغفرة، ثم قالت لنا مكث عطاء السلمي أربعين سنة فكان لا ينظر إلى السماء فحانت منه نظرة فخر مغشياً عليه فأصابه فتق في بطنه، فيا ليت عفيرة إذا رفعت رأسها لم تعص! ويا ليتها إذا عصت لم تعد! وقال بعض الصالحين خرجت يوماً إلى السوق ومعي جارية حبشية فاحتبستها في موضع بناحية السوق وذهبت في بعض حوائجي وقلت لا تبرحي حتى أنصرف إليك، قال فانصرفت فلم أجدها في الموضع، فانصرفت إلى منزلي وأنا شديد الغضب عليها، فلما رأتني عرفت الغضب في وجهي

القصة مع الأبيات في كتاب المحبة، وهذه الأبيات الأربعة نسبت إلى رابعة العدوية وتقدم الكلام عليها.

(**وقال أحمد بن علي: استأذنا على غفيرة**) بضم الغين المعجمة وفي بعض النسخ بالعين المهملة وكانت من المتعبدات من أهل البصرة (**فحجبتنا**) أي منعتنا من الدخول عليها، (**فلازمنا الباب، فلما علمت ذلك قامت لتفتح الباب لنا فسمعتها وهي تقول: اللهم إني أعوذ بك ممن جاء يشغلني عن ذكرك، ثم فتحت الباب ودخلنا عليها فقلنا: يا أمة الله ادعي لنا، فقالت: جعل الله قراكم في بيتي المغفرة، ثم قالت لنا: مكث عطاء السلمي أربعين سنة فكان لا ينظر إلى السماء فحانت منه نظرة فخرّ مغشياً عليه فأصابه فتق في بطنه، فياليت غفيرة إذ رفعت رأسها لم تعص، ويا ليتها إذا عصت لم تعد**) . قال أبو نعيم في الحلية: حدثنا أبو محمد بن حيان، حدثنا أحمد بن الحسين حدثني أبو عبدالله بن عبيدة قال: سمعت غفيرة تقول لم يرفع عطاء رأسه إلى السماء ولم يضحك أربعين سنة، فرفع رأسه مرة ففزع فسقط ففتق فتقاً في بطنه.

حدثنا أبو بكر بن مالك، حدثنا عبدالله بن أحمد بن حنبل، حدثني أحمد بن إبراهيم، حدثنا إبراهيم بن عبد الرحمن بن مهدي، حدثتني غفيرة العابدة وكانت قد ذهب بصرها من العبادة قالت: كان عطاء إذا بكى بكى ثلاثة أيام وثلاث ليال، فقالت غفيرة: وحدثني إبراهيم المحلمي قال: أتيت عطاء السلمي فلم أجده في بيته. قال: فنظرت فإذا هو في ناحية الحجرة جالس، وإذا حوله بلل قال: فظننت أنه أثر وضوء توضاه، فقالت لي عجوز معه في الدار: هذا أثر دموعه.

(**وقال بعض الصالحين: خرجت يوماً إلى السوق ومعي جارية حبشية**) أي سوداء من سبي الحبش (**فاحتبستها في موضع بناحية السوق**) أي أمرتها أن تمكث فيه (**فانصرفت فلم أجدها فانصرفت إلى منزلي وأنا شديد الغضب عليها، فلما رأتني عرفت الغضب في وجهي**

فقالت: يا مولاي لا تعجل عليّ إنك أجلستني في موضع لم أرَ فيه ذاكراً لله تعالى فخفت أن يخسف بذلك الموضع! فعجبت لقولها وقلت لها أنت حرة. فقالت: ساء ما صنعت كنت أخدمك فيكون لي أجران وأما الآن فقد ذهب عني أحدهما. وقال ابن العلاء السعدي: كانت لي ابنة عم يقال لها بريرة، تعبدت وكانت كثيرة القراءة في المصحف، فكلما أتت على آية فيها ذكر النار بكت، فلم تزل تبكي حتى ذهبت عيناها من البكاء فقال بنو عمها انطلقوا بنا إلى هذه المرأة حتى نعذلها في كثرة البكاء قال فدخلنا عليها فقلنا: يا بريرة كيف أصبحت؟ قالت: أصبحنا أضيافاً منيخين بأرض غربة ننتظر متى ندعى فنجيب، فقلنا لها: كم هذا البكاء قد ذهبت عيناك منه؟ فقالت: إن يكن لعيني عند الله خير فما يضرهما ما ذهب منهما في الدنيا، وإن كان لهما عند الله شر فسيزيدهما بكاء أطول من هذا. ثم أعرضت، قال: فقال القوم قوموا بنا فهي والله في شيء غير ما نحن فيه.

فقالت: يا مولاي لا تعجل عليَّ إنك أجلستني في موضع لم أر فيه ذاكراً لله تعالى، فخفت أن يخسف بذلك الموضع فعجبت لقولها وقلت أنت حرة) لوجه الله تعالى، (**فقالت: ساء ما صنعت كنت أخدمك فيكون لي أجران، وأما الآن فقد ذهب عني أحدهما)**. ويقرب من ذلك ما رواه البيهقي في الشعب عن أبي يوسف يعقوب بن سفيان قال: أخبرني بعض شيوخ أهل الكوفة قال: كان لآل الحسن بن صالح بن حي خادمة تخدمهم، فاحتاجوا إلى بيعها فباعوها، فلما كان في الليل ذهبت فألحت على مولاها تقيمه وتقول: ذهب الليل مرة بعد مرة حتى أضجرته فصاح بها، فلما أصبحت ذهبت إلى عند الحسن فقالت: يا سبحان الله ما كان يجب عليكم فيما خدمتكم أن تبيعوني من مسلم. قال: فقال الحسن سبحان الله وماله قالت انتظرته أن يقوم ليتهجد فلم يفعل وألححت عليه فزبرني. قال: فصاح يعلى، وقال: أما تعجب من هذه اذهب فتسلف ثمنها من بعض إخواننا واعتقها.

(**وقال ابن العلاء السعدي: كانت لي ابنة عم يقال لها بريرة تعبدت وكانت كثيرة القراءة في المصحف، فكلما أتت على آية فيها ذكر النار بكت، فلم تزل تبكي حتى ذهبت عيناها من البكاء فقال بنو عمها: انطلقوا بنا إلى هذه المرأة حتى نعذلها)** أي ننصحها (**في كثرة البكاء. قال: فدخلنا عليها فقلنا: يا بريرة كيف أصبحت؟ قالت: أصبحنا أضيافاً منيخين بأرض غربة ننتظر متى ندعى فنجيب، فقلنا لها: كم هذا البكاء قد ذهبت عيناك منه؟ فقالت: إن يكن لعيني عندالله خير فلا يضرهما ما ذهب منهما في الدنيا وإن كان لهما** عند الله شر فسيزيدهما بكاء أطول هذا ثم أعرضت) عنا (**قال: فقال القوم قوموا بنا فهي والله في شيء غير ما نحن فيه)** رواه ابن أبي الدنيا.

وكانت معاذة العدوية إذا جاء النهار تقول هذا يومي الذي أموت فيه فما تطعم حتى تمسي، فإذا جاء الليل تقول هذه الليلة التي أموت فيها فتصلي حتى تصبح.

وقال أبو سليمان الداراني: بت ليلة عند رابعة فقامت إلى محراب لها وقمت أنا إلى

(وكانت معاذة) بنت عبدالله **(العدوية)** أم الصهباء البصرية امرأة صلة بن أشيم من العابدات. قال ابن معين: ثقة حجة. وذكرها ابن حبان في كتاب الثقات روى لها الجماعة. وروى أبو نعيم بسنده إلى سلمة بن حيان العدوي قال: حدثنا الحي أن معاذة العدوية لم توسد فراشاً بعد أبي الصهباء حتى ماتت. **(إذا جاء النهار تقول: هذا يومي الذي أموت فيه فما تطعم حتى تمسي، فإذا جاء الليل تقول هذه الليلة التي أموت فيها فتصلي حتى تصبح)** . قال ابن أبي الدنيا: حدثنا محمد بن الحسين، حدثنا يحي بن بسطام، حدثنا عمران بن خالد، حدثتني أم الأسود بنت يزيد العدوية وكانت معاذة قد أرضعتها قالت قالت لي معاذة: لما قتل أبو الصهباء وقتل ولدها: والله يا بنية ما محبتي للبقاء في الدنيا للذيذ عيش ولا لروح نسيم، ولكني والله أحب البقاء لأتقرب إلى ربي بالوسائل لعله يجمع بيني وبين أبي الصهباء وولده في الجنة.

قال: وحدثنا محمد بن الحسين، حدثني روح بن سلمة الوراق قال: سمعت عفيرة العابدة تقول: بلغني أن معاذة العدوية لما احتضرت للموت بكت ثم ضحكت، فقيل لها: بكيت ثم ضحكت فمم البكاء ومم الضحك رحمك الله؟ قالت: أما البكاء الذي رأيتم فإني والله ذكرت مفارقة الصيام والصلاة والذكر فكان البكاء لذلك، وأما الذي رأيتم من تبسمي وضحكي فإني نظرت إلى الصهباء قد أقبل في صحن الدار وعليه حلتان خضراوان وهو في نفر والله ما رأيت لهم في الدنيا شبهاً، فضحكت إليه ولا أراني أدرك بعد ذلك فرضاً. قال: فماتت قبل أن يدخل وقت الصلاة.

وروى أبو نعيم من طريق أبي خلدة قال: سمعت أبا السوار العدوي يقول لمعاذة العدوية في مسجد في بني عدي: تجيء إحداكن المسجد فتضع رأسها وترفع استها، فقالت: ولم تنظر اجعل في عينيك تراباً ولا تنظر. قال: وإني والله ما أستطيع إلا أن أنظر ثم اعتذرت فقالت: يا أبا سوار إذا كنت في البيت شغلني الصبيان، وإذا كنت في المسجد كان أنشط لي قال: النشاط أخاف عليك، وأبو السوار تابعي ثقة عابد روى له الشيخان.

وقال أحمد في الزهد: حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا ثابت البناني أن صلة بن أشيم كان في مغزى له ومعه ابن له فقال: أي بني تقدم فقاتل حتى أحتسبك فحمل فقاتل حتى قتل ثم تقدم فقتل، فاجتمعت النساء عند امراته معاذة العدوية فقالت: مرحباً إن كنتن جئتن لتهنئة فمرحباً بكن، وإن كنتن جئتن لغير ذلك فارجعن. قال أبو نعيم: رواه سيار عن جعفر عن حميد بن دينار عن صلة بنحوه.

(وقال أبو سليمان الداراني) رحمه الله تعالى: **(بت ليلة عند رابعة)** العدوية قدس الله

ناحية من البيت، فلم تزل قائمة إلى السحر فلما كان السحر قلت ما جزاء من قوانا على قيام هذه الليلة؟ قالت جزاؤه أن نصوم له غداً.

وكانت شعوانة تقول في دعائها: إلهي ما أشوقني إلى لقائك وأعظم رجائي لجزائك وأنت الكريم الذي لا يخيب لديك أمل الآملين ولا يبطل عندك شوق المشتاقين، إلهي إن كان دنا أجلي ولم يقربني منك عملي فقد جعلت الاعتراف بالذنب وسائل عللي، فإن عفوت فمن أولى منك بذلك وإن عذبت فمن أعدل منك هنالك، إلهي قد جرت على نفسي في النظر لها وبقي لها حسن نظرك فالويل لها إن لم تسعدها، إلهي إنك لم تزل بي براً أيام حياتي فلا تقطع عني برك بعد مماتي ولقد رجوت ممن تولاني في حياتي بإحسانه أن يسعفني عند مماتي بغفرانه، إلهي كيف أيأس من حسن نظرك بعد مماتي ولم تولني إلا الجميل في حياتي، إلهي إن كانت ذنوبي قد أخافتني فإن محبتي لك قد أجارتني فتول من أمري ما أنت أهله وعد بفضلك علي من غره جهله، إلهي لو أردت إهانتي لما هديتني ولو أردت فضيحتي لم تسترني فمتعني بما له هديتني وأدم لي ما به سترتني، إلهي ما أظنك تردني في حاجة أفنيت فيها عمري، إلهي لولا ما قارفت من الذنوب ما خفت عقابك

سرها (**فقامت إلى محراب لها وقمت أنا إلى ناحية من البيت فلم تزل قائمة**) تصلي وتبكي وتدعو (**إلى السحر، فلما كان السحر قلت: ما جزاء من قوانا على قيام هذه الليلة؟ قالت: جزاؤه أن نصوم له غداً**) رواه البيهقي في الشعب إلا أنه عزاه لجعفر بن سليمان قال: ضفت برابعة ذات ليلة فبدرت الى محرابها وبدرت إلى آخر فلم تزل قائمة حتى أصبحت، فقلت لها: ما جزاء من قوانا على قيام هذا الليل؟ قالت: جزاؤه أن تصوم له النهار.

(**و**) يروى أنه (**كانت شعوانة**) رحمها الله تعالى (**تقول في دعائها: إلهي ما أشوقني إلى لقائك وأعظم رجائي لجزائك وأنت الكريم الذي لا يخيب لديك أمل الآملين ولا يبطل عندك شوق المشتاقين، إلهي إن كان دنا أجلي ولم يقربني منك عملي فقد جعلت الاعتراف بالذنب وسائل عللي، فإن عفوت فمن أولى منك بذلك، وإن عذبت فمن أعدل منك هنالك. إلهي قد جرت على نفسي في النظر لها وبقي لها حسن نظرك فالويل لها إن لم تسعدها إلهي إنك لم تزل بي براً أيام حياتي فلا تقطع عني برك بعد مماتي، ولقد رجوت ممن تولاني في حياتي بإحسانه أن يشفعه عند مماتي بغفرانه إلهي كيف أيأس من حسن نظرك بعد مماتي ولم تولني إلا الجميل في حياتي إلهي إن كانت ذنوبي قد أخافتني فإن محبتي لك قد أجارتني فتول من أمري ما أنت أهله وعد بفضلك على من غره جهله إلهي لو أردت إهانتي لما هديتني ولو أردت فضيحتي لم تسترني فمتعتني بماله هديتني وأدم لي ما به سترتني. إلهي ما أظنك تردني في حاجة أفنيت فيها عمري. إلهي لولا ما قارفت من الذنوب ما خفت**

ولولا ما عرفت من كرمك ما رجوت ثوابك. وقال الخوّاص: دخلنا على رحلة العابدة وكانت قد صامت حتى اسودت وبكت حتى عميت وصلت حتى اقعدت، وكانت تصلي قاعدة فسلمنا عليها ثم ذكرناها شيئاً من العفو ليهون عليها الأمر قال: فشهقت ثم قالت: علمي بنفسي قرح فؤادي وكلم كبدي والله لوددت أن الله لم يخلقني ولم أكُ شيئاً مذكوراً، ثم أقبلت على صلاتها. فعليك إن كنت من المرابطين المراقبين لنفسك أن

عقابك ولولا ما عرفت من كرمك ما رجوت ثوابك). وهذه مناجاة من شغف حب المولى عز وجل في باطن قلبه واستغرقته مراقبة نعمه وإحسانه. وقد روى ابن أبي الدنيا عن عبدالله بن محمد قال: حدثنا إبراهيم بن عبد الملك قال: قدمت شعوانة وزوجها مكة، ثم ساق القصة وفيها قال: وسمعتها تقول بالفارسية: أنبت لكل داء دواء في الجبال ودواء المحبين في الجبال لم ينبت.

(وقال) إبراهيم بن أحمد **(الخواص)** رحمه الله تعالى: **(دخلنا على رحلة العابدة وكانت قد صامت حتى اسودت وبكيت حتى عميت وصلت حتى أقعدت وكانت تصلي قاعدة فسلمنا عليها ثم ذكرناها شيئاً من العفو ليهون عليها الأمر، قال: فشهقت ثم قالت: علمي بنفسي قرح فؤادي وكلم كبدي، والله لوددت أن الله لم يخلقني ولم أك شيئاً مذكوراً)**.

ويقرب من هذه القصة ما رواه ابن أبي الدنيا عن محمد بن الحسين قال: حدثني أبو جعفر المؤدب، حدثنا حفص بن عمر الجعفي قال: كانت باليمن امرأة من العرب جليلة جهورية حسناً وجمالاً يقال لها خنساء بنت جذام وليست بالصحابية، فصامت أربعين عاماً حتى لصق جلدها بعظمها، وبكت حتى ذهبت عيناها، وقامت حتى أقعدت من رجليها، وكان طاوس ووهب بن منبه يعظمان قدرها، وكانت إذا دجا عليها الليل وهدأت العيون وسكنت الحركات تنادي بصوت لها حزين: يا حبيب المطيعين إلى كم تحبس خدود المطيعين في التراب، ابعثهم حتى ينتجزوا موعودك الصادق الذي أتعبوا له أنفسهم ثم أنصبوها. قال: فيسمع البكاء من الدور حولها.

ومما يليق ذكره من أحوال المجتهدات ما أورده البيهقي في الشعب عن سلامة العابدة قالت: بكت عبدة بنت أبي كلاب أربعين سنة حتى ذهب بصرها فقيل لها: ما تشتهين قالت: الموت. قيل: ولم ذاك؟ قالت: إني أخشى الله في كل يوم حين أصبح أن أجني على نفسي جناية يكون فيها عطبي أيام الآخرة.

وعن أحمد بن أبي الحواري قال: سمعت رابعة تقول: ما رأيت ثلجاً قط إلا ذكرت تطاير الصحف، ولا رأيت جراداً قط إلا ذكرت الحشر، ولا سمعت أذاناً قط إلا ذكرت منادي القيامة قالت، وقلت لنفسي: كوني في الدنيا بمنزلة الطير الواقع حتى يأتيك قضاؤه.

وعن أبي عثمان الخياط قال: حدثنا أحمد بن أبي الحواري قال: بينا أنا ذات يوم جالس بالشام في قبة ليس عليها باب إلا كساء مسبل إذ أتتني امرأة فدقت علي الحائط فقلت: من هذا؟ فقالت:

امرأة ضالة دلني على الطريق رحمك الله، فقلت: أي الطريقين تسألين؟ فبكت ثم قالت: عن طريق النجاة، فقلت: هيهات هيهات! لا يقطع ذلك الطريق إلا بالسير الحثيث من الجد وتصحيح المعاملة وحذف العلائق الشاغلة من أمر الدنيا والآخرة، فبكت ثم قالت: أما علائق الدنيا ففهمتها فما علائق الآخرة؟ فقلت: لو وافيت القيامة بعمل سبعين نبياً لم يكن لك إلا ما كتب لك في اللوح المحفوظ وأن لجهنم زفرة يوم القيامة لو كان لك عمل سبعين نبياً ما كان لك بد أن ترديها. قال: فصرخت صرخة ثم قالت: سبحان من صان عليك جوارحك فلم تقطع، وسبحان من أمسك عليك فلم تتصدع، ثم سقطت مغشياً عليها. قال ابن أبي الحواري: وكانت عندنا جارية من المتعبدات فقلت لها: اخرجي فانظري ما قصة هذه المرأة؟ قال: فخرجت إليها فإذا هي قد فارقت الدنيا وإذا في جيبها رقعة مكتوب فيها: كفنوني في أثوابي فإن يكن لي عند ربي خير فسيبدلني ما هو خير لي منها، وإن يكن غير ذلك فبعداً لنفسي وسحقاً. قال ابن أبي الحواري: فإذا خدم قد أحاطوا بالجارية، فقلت لبعضهم: ما قصة هذه المرأة؟ فقالوا: يا أبا الحسن هذه جارية كان يظهر بها شيء أنها مصابة بعقلها، وكان الذي يمنعها من المطعم والمشرب، وكانت تشكو إلينا وجعاً بجوفها وكنا نعرض عليها الأطباء، فكانت تقول: أريد متطبباً أشكو إليه بعض ما أجد من دائي عسى أن يكون عنده شفائي اهـ. سياق البيهقي.

وقال أبو بكر التيمي: حدثنا محمد بن سليمان القرشي قال: بينا أنا أسير في طريق اليمن إذا بغلام واقف في الطريق في أذنيه قرطان في كل قرط جوهرة يضيء وجهه من ضوء تلك الجوهرة وهو يمجد ربه بأبيات من الشعر فسمعته يقول:

عليك في السماء به افتخاري عزيز القدر ليس به خفاء

فدنوت منه فسلمت عليه فقال: ما أنا براد عليك حتى تؤدي من حقي الذي يجب عليك. قلت: وما حقك؟ قال: أنا غلام على مذهب إبراهيم الخليل ﷺ لا أتغدى ولا أتعشى كل يوم حتى أسير الميل والميلين في طلب الضيف، فأجبته إلى ذلك فترحب بي وسرت معه حتى قربنا من خيمة شعر، فلما قربنا من الخيمة صاح يا أختاه فأجابته جارية من الخيمة قال: قومي إلى ضيفنا. قالت الجارية: حتى أبدأ بشكر المولى الذي سبب لنا هذا الضيف، فقامت فصلت ركعتين شكراً فأدخلني الخيمة وأجلسني، وأخذ الغلام أغناماً ليذبحها، فلما جلست في الخيمة نظرت إلى أحسن الناس وجهاً، فكنت أسارقها ففطنت لبعض لحظاتي إليها، فقالت لي: مه أما علمت أنه نقل إلينا عن صاحب يثرب أن زنا العينين النظر أما أني ما أردت بهذا أن أوبخك ولكني أردت أن أؤدبك لكيلا تعود لمثل هذا، فلما كان النوم بت أنا والغلام خارجاً، وباتت الجارية في الخيمة فكنت أسمع دوي القرآن الليل كله بأحسن صوت يكون وأرقه، فلما أن أصبحت قلت للغلام صوت من كان ذلك؟ فقال: تلك أختي تحيي الليل كله إلى الصباح، فقلت: يا غلام أنت أحق بهذا العمل من أختك أنت رجل وهي امرأة. قال: فتبسم ثم قال لي: ويحك يا فتى أما علمت أنه موثق ومخذول.

....

وروى ابن باكويه من طريق موسى بن عبد الملك المروزي قال: قال مالك بن دينار: بينا أنا أطوف بالبيت إذا أنا بامرأة في الحجر وهي تقول أتيتك من شقة بعيدة مؤملة لمعروفك فانلني معروفاً من معروفك تغنيني به عن معروف من سواك. يا معروفاً بالمعروف، فعرفت أيوب السختياني فسألنا عن منزلها وقصدناها وسلمنا عليها، فقال لها أيوب: قولي خيراً يرحمك الله. قالت: وما أقول أشكو إلى الله قلبي وهواي فقد أضرّا بي وشغلاني عن عبادة ربي، قوما فإني أبادر على صحيفتي. قال أيوب: فما حدثت نفسي بامرأة قبلها، فقلت لها: لو تزوجت رجلاً كان يعينك على ما أنت عليه. قالت: لو كان مالك بن دينار أو أيوب السختياني ما أردته. فقلت: أنا مالك ابن دينار، وهذا أيوب السختياني، فقالت: أف لقد ظننت أنه يشغلكما ذكر الله عن محادثة النساء وأقبلت على صلاتها فسألنا عنها فقالوا: هذه مليكة بنت المنكدر.

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا محمد بن إدريس، حدثني محمد بن علي بن حسان الهاشمي، حدثنا أبو خالد البراد قال: كلمنا ابنة المنكدر في تخفيف بعض العبادة فقالت: دعوني أبادر طي صحيفتي. وقال إبراهيم بن مسلم القرشي: كانت فاطمة بنت محمد بن المنكدر تكون نهارها صائمة فإذا جنها الليل تنادي بصوت حزين: هدأ الليل واختلط الظلام وأوى كل حبيب إلى حبيبه وخلوتي بك أيها المحبوب أن تعتقني من النار.

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا محمد بن علي بن الحسين بن شقيق المروزي، حدثنا خاقان بن عبدالله ابن المبارك أن امرأة قالت لعائشة رضي الله عنها: اكشفي لي عن قبر النبي ﷺ فكشفت لها عنه فبكت حتى ماتت.

قال ابن أبي الدنيا: وحدثني محمد بن الحسين، حدثني إبراهيم بن عبدالله المديني قال: حدثني بعض أصحابنا أن امرأة كانت بالمدينة ترهق قد خلت المقابر ذات يوم فإذا هي بجمجمة قد بدت قال: فصرخت ثم رجعت منيبة، فدخل عليها نساؤها فقالت: بكى قلبي لذكر الموت لما رأيت جماجم فوق القبور، ثم قالت: أخرجن عني ولا يأتين منكن امرأة إلا امرأة ترغب في خدمة الله عز وجل، ثم أقبلت على العبادة حتى ماتت على ذلك.

قال: وحدثني محمد بن الحسين، حدثني عبدالله بن نافع الزبيدي، حدثني أبو أيوب رجل من قريش أن امرأة من أهله كانت تجتهد في العبادة وتديم الصيام وتطيل القيام، فأتاها الملعون فقال: إلى كم تعذبين هذا الجسد وهذه الروح لو أفطرت وقصرت عن القيام كان أدوم لك وأقوى قالت: فلم يزل يوسوس لي حتى همت والله بالتقصير. قالت: ثم دخلت مسجد رسول الله ﷺ معتصمة بقبره وذلك بين المغرب والعشاء، فذكرت الله وصليت على رسوله ﷺ، ثم ذكرت ما نزل بي من وساوس الشيطان، واستغفرت وجعلت أدعو الله أن يصرف عني كيده ووساوسه. قالت: فسمعت صوتاً من ناحية القبر يقول ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من

أصحاب السعير﴾ [فاطر : ٦]قالت : فرجعت مذعورة وجلة القلب ، فوالله ما عاودتني تلك الوسوسة بعد تلك الليلة .

وقال ابن أبي الدنيا : حدثنا محمد بن الحسين ، حدثني عبدالله بن الزبير الحميري ، حدثني فضلة ابن خالد المخزومي وكان من خيار بني مخزوم قال : كانت ههنا امرأة من بني مخزوم مجاورة يقال لها حكيمة ، وكانت إذا نظرت إلى باب الكعبة قد فتح صرخت كما تصرخ الثكلى ، فلا تزال تصرخ حتى يغمى عليها ، وكانت لا تكاد تفارق المسجد إلا للأمر الذي لا بد منه . قال : ففتحت الكعبة يوماً وهي في بعض حاجتها ، فلما جاءت قالت لها امرأة كانت تجالسها : يا حكيمة اليوم فتح بيت ربك ، فلو رأيت الطائفين يطوفون به والباب مفتوح وهم ينتظرون الرحمة من مليكهم لقد قرت عينك قال : فصرخت حكيمة صرخة لم تزل تضطرب حتى ماتت .

قال ابن أبي الدنيا : حدثني محمد بن صالح بن يحيى النهمي ، حدثني أبو الوراق ، أخبرني من سمع نقيش بنت سالم بمكة وهي تقول يا سيد الأنام زجلت بي الشقة ، وهذا مقام العائذ بعفوك من سخطك وبرحمتك من غضبك . يا حبيب الأوابين يا من لا يكديه الإعطاء يا ذا المن والآلاء أدلى بالثقة منك وصلة قراي منك عتق رقبتي . قال : ورأيتها بالموقف وهي تقول : بهطتني الآثام كحلت عيني بمكحول الخزي ، فوعزتك لا أضحك أبداً حتى أعلم أين محل قراري وإلى أين تصير دياري ، فلما رأت أيدي الناس مبسوطة للدعاء قالت : يا رب أقامهم هذا المقام خوف النار يا قرة عيني وعيون الأبرار يلتمسون نائلك ويرجعون فضلك ، انصرف الناس ولم أشعر قلبي منك اليأس .

وقال أبو عبد الرحمن السلمي ذكر جعفر بن محمد عن بعض مشايخه ، عن أبي عبيد القاسم بن سلام قال : دخلت مكة وكنت ربما أقعد بحذاء الكعبة ، وربما كنت أستلقي وأمد رجلي فجاءتني عائشة المكية وكانت من العابدات ممن صحب الفضيل فقالت لي : يا عبدالله يقال إنك عالم إقبل مني كلمة لا تجالسه إلا بأدب وإلا فيمحو اسمك من ديوان القرب .

وقال القاسم علي بن الحسن التنوخي أخبرني أبي قال : حدثني عبدالله بن أحمد بن بكر قال : كان لأبي الحسن المكي ابنة مقيمة بمكة أشد ورعاً منه ، وكانت لا تقتات إلا ثلاثين درهماً ينقدها إليها أبوها في كل سنة مما يستفضله من ثمن الخوص الذي يسفه ويبيعه ، فأخبرني ابن الرواس التمار وكان جاره قال : جئت أودعه للحج وأستعرض حاجته وأسأله أن يدعو لي فسلم إلي قرطاساً وقال : تسأل بمكة الموضع الفلاني عن فلانة ، وتسلم هذا إليها فعلمت أنها ابنته ، فأخذت القرطاس وجئت فسألت عنها فوجدتها بالعبادة والزهد أشد اشتهاراً من أن تخفى ، فتبعت نفسي أن يصل إليها من مالي شيء يكون لي ثوابه ، وعلمت أني إن دفعت إليها ذلك لم تأخذه ، ففتحت القرطاس وجعلت الثلاثين خمسين ورددته كما كان وسلمته إليها فقالت : أي شيء خبر أبي ؟ فقلت : سلامة . فقالت : قد خالط أهل الدنيا وترك الانقطاع إلى الله تعالى ، فقلت كما قالت فأسألك بالله وبمن حججت إليه عن شيء فتصدقني . فقلت : نعم ، فقالت : خلطت بهذه الدراهم شيئاً من عندك ؟ فقلت : نعم

إني عملت بذلك. فقالت: إن أبي ما كان يزيدني على الثلاثين شيئاً لأن حاله لا تحتمل أكثر منها إلا أن يكون ترك العبادة، فلو أخبرني بذلك ما أخذت منه أيضاً شيئاً، ثم قالت لي: خذ الجميع فقد عتقتني من حيث قدرت أنكِ تبرني، فقلت: ولم؟ قالت: لا آكل شيئاً ليس من كسبي ولا من كسب أبي ولا آخذ من مال لا أعرف كيف هو شيئاً. فقلت: خذي منها ثلاثين كما أنفذ إليك أبوك وردي الباقي. فقالت: لو عرفتها بعينها من جملة الدراهم لأخذتها، ولكن اختلطت بما لا أعرف جهته فلا آخذ منها شيئاً، وأنا الآن أقتات إلى الموسم الآخر من المزابل لأن هذه كانت قوتي طول السنة وقد أجعتني، ولولا إنك ما قصدت أذاي لدعوت عليك. قال: فاغتممت وعدت إلى البصرة وجئت إلى أبي الحسن فأخبرته واعتذرت إليه فقال: لا آخذها وقد اختلطت بغير مالي، وقد عققتني وأياها. قال: فقلت فما أعمل بالدراهم؟ فقال: لا أدري فما زلت مدة أعتذر إليه وأسأله ما أعمل بالدراهم، فقال لي بعد مدة. تصدق بها ففعلت.

وقال أبو الفتح بن أبي الفوارس: أخبرنا أبو عمرو بن حمدان، حدثنا مسدد، حدثنا الدورقي، حدثنا عبدالله البكري، عن جعفر بن سليمان، حدثنا مالك بن دينار قال: رأيت بمكة امرأة من أحسن الناس عينين قال: فكان النساء يجئن فينظرن إليها فأخذت في البكاء فقيل لها: تذهب عيناك. فقالت: إن كنت من أهل الجنة فسيبدلني عينين أحسن من هاتين، وإن كنت من أهل النار فسيصيبها أشد من هذا. قال: فبكت حتى ذهبت إحدى عينيها.

وقال مهدي بن حفص، حدثني أبو عبد الرحمٰن المغازلي قال: كانت امرأة مجاورة بمكة تسمى حكيمة فدخلنا عليها ذات يوم فقالت لها امرأة كانت تخدمها: إخوانك جاؤك يحبون أن يسمعوا كلامك. قال: فبكت طويلاً ثم أقبلت علينا فقالت: إخواني وقرة عيني مثلوا القيامة نصب أبصار قلوبهم وردوا على أنفسكم ما قد تقدم من أعمالكم، فما ظننتم أنه قد يجوز في ذلك اليوم فارغبوا إلى السيد في قبوله وتمام النعمة فيه، وما خفتم أن يرد في ذلك اليوم عليكم فخذوا في إصلاحه من اليوم ولا تغفلوا عن أنفسكم فترد عليكم حيث لا يوجد البدل ولا يقدر على الفداء قال: ثم بكت طويلاً ثم أقبلت علينا، فقالت: إخواني وقرة عيني إنما صلاح الأبدان وفسادها حسن النية وسوءها إخواني وقرة عيني إنما نال المتقون المحبة لمحبتهم له وانقطاعهم إليه، ولولا الله ورسوله ما نالوا ذلك ولكنهم أحبوا الله ورسوله فأحبهم عباد الله لحبهم الله ورسوله. إخواني وقرة عيني كلم الخوف قلوب أهله فاقتطعهم والله وشغلهم عن مطاعم اللذات والشهوات. إخواني وقرة عيني بقدر ما تعرضون عن الله يعرض عنكم بخيره، وبقدر ما تقبلون عليه كذلك يقبل عليكم ويزيدكم من فضله إنه واسع كريم.

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا عبد الرحمٰن بن رباب الطائي، حدثنا عبد الرحمٰن المحاربي، عن سفيان، عن ابن أبي رواد قال: كانت عندنا امرأة بمكة تسبح كل يوم اثنتي عشرة ألف تسبيحة فماتت، فلما بلغت القبر اختلست من أيدي الرجال.

قال: وحدثنا أبو علي المديني، حدثنا أبو الحسن أكدام وكان من خيار الناس قال: كانت امرأة بمكة يأتيها العباد فيتحدثون عندها ويتواعظون فقالت لهم يوماً: حجبت قلوبكم عن الله فلو خليتموها لجالت في ملكوت السماء ولأتتكم بطرف الفوائد.

قال: حدثنا محمد بن الحسين، حدثني صالح بن عبد الكريم قال: دللت على امرأة بمكة أو بالمدينة تتعبد فأتيتها وهي تكلم قال: فأحسنت حتى سكتت. قال: فصبرت حتى تفرق الناس عنها ثم دنوت منها فقلت: لقد تكلمت فأحسنت ولقد خشيت عليك العجب، فقالت: إنما العجب من شيء هو منك، فأما إن كان من غيرك ففيم العجب؟ ثم قالت:

وله خصائص مصطفون لحبه ... اختارهم من سالف الأزمان

اختارهم من قبل فطرة خلقهم ... بودائع وبحكمة وقيان

ثم قالت: انهض إذا شئت. وحدثني محمد بن عباد بن موسى، حدثنا مروان بن معاوية الفزاري، عن عبد الرحمٰن بن الحكم قال: كانت عجوز من قريش بمكة تأوي في سرب ليس لها بيت غيره فقيل لها: أترضين بهذا؟ فقالت: أوليس هذا لمن يموت كثير.

وقال ابن شاذان أخبرنا عثمان بن أحمد، حدثنا العباس بن يوسف، حدثني محمد بن عبدالله القارىء، حدثني محمد بن بكار قال: كانت عندنا بمكة امرأة عابدة لا تمر بها ساعة إلا وهي صارخة، فقيل لها يوماً: إنا لنراك على حال ما نرى غيرك عليها، فإن كان لك داء عالجناك قال: فسكتت وقالت من لي بعلاج هذا الداء وهل أقرح قلبي إلا التفكر في مثل معالجته، أوليس عجباً أن أكون حية بين أظهركم وفي قلبي من الاشتياق إلى ربي مثل شعل النار التي لا تطفأ، متى أصير إلى الطبيب الذي عنده برء دائي وشفاء قلب قد أنضجه طول الأحزان في هذه الدار التي لا أجد فيها على البكاء مسعداً.

قال: وحدثنا محمد بن الحسين، حدثني عصام بن عثمان الحلبي، حدثني مسمع بن عاصم قال: قالت لي رابعة العدوية: اعتللت علة قطعتني عن التهجد وقيام الليل فمكثت أياماً أقرأ جزئي إذا ارتفع النهار لما يذكر فيه أنه يعدل لقيام الليل. قالت: ثم رزقني الله العافية فاعتادتني فترة في عقب العلة فكنت قد سكنت إلى قراءة جزئي بالنهار وانقطع عني قيام الليل. قالت: فبينا أنا ذات ليلة راقدة رأيت في منامي كأني دفعت إلى روضة خضراء ذات قصور ونبت حسن، فبينا أنا أجول فيها أتعجب من حسنها إذا أنا بطائر أخضر وجارية تطارده كأنها تريد أخذه. قالت: فشغلني حسنها عن حسنه، فقلت: ما تريدين منه دعيه فوالله ما رأيت طائراً قط أحسن منه؟ قالت: أفلا أريك أحسن منه؟ قلت: بلى. قالت: فأخذت بيدي فأدارت بي في تلك الروضة حتى انتهت بي إلى باب قصر فاستفتحت ففتح لها، ثم قالت: افتحوا إلي بيت المقة. قالت: ففتح لها باب شاع منه شعاع استنار من ضوء نوره ما بين يدي وما خلفي. قالت: فدخلت وقالت لي: ادخلي. قالت: فدخلت إلى بيت يحار فيه البصر تلألؤاً وحسناً ما أعرف له في الدنيا شبهاً أشبهه. قالت: فبينا نحن

تطالع أحوال الرجال والنساء من المجتهدين لينبعث نشاطك ويزيد حرصك، وإياك أن تنظر إلى أهل عصرك فإنك إن تطع أكثر في الأرض يضلوك عن سبيل الله. وحكايات المجتهدين غير محصورة.

وفيما ذكرناها كفاية للمعتبر. وإن أردت مزيداً فعليك بالمواظبة على مطالعة كتاب « حلية الأولياء » فهو مشتمل على شرح أحوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم.

نجول فيه إذ رفع لنا باب يخرق إلى بستان. قالت: فأهوت نحوه وأنا معها فتلقانا منه وصفاء كأن وجوههم اللؤلؤ بأيديهم المجامر فقالت لهم: أين تريدون؟ قالوا: نريد فلاناً قتل في البحر شهيداً. قالت: أفلا تجمروا هذه المرأة؟ قالوا: قد كان لها في ذلك حظ فتركته. قالت: فأرسلت يدها من يدي ثم أقبلت علي فقالت:

صلاتك نور والعباد رقود ونومك ضد للصلاة عنيد
وعمرك غم إن غفلت ومهلة يسير ويفنى دائماً ويبيد

قالت: ثم غابت من بين يدي عن عيني واستيقظت حين تبدى الفجر. قالت: فوالله ما ذكرتها فتوهمتها إلا طاش عقلي وأنكرت نفسي قال: ثم سقطت رابعة مغشياً عليها.

(فعليك إن كنت من المرابطين المراقبين لنفسك أن تطالع أحوال الرجال والنساء من المجتهدين) والمجتهدات في الطاعات **(لينبعث نشاطك ويزيد حرصك، وإياك أن تنظر إلى أهل عصرك فإنك إن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله. وحكايات المجتهدين غير محصورة)**

(وفيما ذكرناه) من النبذة اليسيرة **(كفاية للمعتبر. وإن أردت مزيداً فعليك بالمواظبة على مطالعة كتاب « حلية الأولياء »)** وطبقة الأصفياء تصنيف الشيخ الإمام الحافظ أبي نعيم أحمد ابن عبدالله بن أحمد بن إسحاق الأصفهاني رحمه الله تعالى، **(فهو مشتمل على شرح أحوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم)**. قال في أول كتابه: أما بعد؛ أحسن الله توفيقك فقد استعنت بالله وأجبتك إلى ما ابتغيت من جمع كتاب يتضمن أسامي جماعة من الصحابة وبعض أحاديثهم وكلامهم من أعلام المتحققين من المتصوفة وأئمتهم وترتيب طبقاتهم من النساك ومحجتهم من قرن الصحابة والتابعين وتابعيهم من بعدهم ممن عرف الأدلة والحقائق، وباشر الأحوال والطرائق، وساكن الرياض والحدائق، وفارق العوارض والعلائق إلى آخر ما قال إلى أن قال: إذ لأسلافنا في التصوف العلم المنشور والصيت والذكر المشهور، فقد كان جدي محمد بن يوسف البنا رحمه الله تعالى أحد من نشر الله به ذكر بعض المنقطعين إليه وغمر به أحوال كثير من المقبلين عليه.

ولنذكر هنا نبذة من ترجمته وعدة تصانيفه وكيفية الإتصال به، هو الإمام الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبدالله بن أحمد بن إسحاق بن مهران سبط الشيخ العارف محمد بن يوسف البنا رحمهم الله تعالى، ولد في رجب سنة ٣٣٦، وتوفي بكرة يوم الإثنين ٢١ محرم سنة ٤٣٠، غسله الحافظ أبو

....

مسعود إبراهيم بن سليمان، وصلى عليه محمد بن عبد الواحد، وله أربع وتسعون سنة، ودفن إلى جنب الشورذجاني وقبره يستجاب عنده الدعاء.

قال الحافظ أبو موسى المديني: أسلم جده مهران وهو مولى عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب، وجده من قبل أمه محمد بن يوسف بن معدان بن زيد الثقفي الصوفي الشهير بالبنا. كان رأساً في التصوف، وصنف كتباً حساناً.

وقال الحافظ أبو طاهر السلمي: كان أبو نعيم في وقته مرحولاً إليه ولم يكن في أفق من الآفاق أسند ولا أحفظ منه، وكان حفاظ الدنيا قد اجتمعوا عنده فكان كل يوم نوبة واحد منهم يقرأ ما يريده إلى قريب من الظهر، فإذا قام إلى داره ربما كان يقرأ عليه في الطريق جزءاً وكان لا يضجر، ولم يكن له غذاء سوى التصنيف أو القراءة عليه. قال: سمعت مرة يذكر أن أبا نعيم سئل ممن تعلمت العربية فقال: من رسول الله ﷺ، يعني أنه تخرج بقراءة الحديث وسماعه وكتبه والنظر فيه قال: وسمعت السيد حمزة بن العباس العلوي الأصبهاني بهمدان يقول: كان أصحاب الحديث في مجلس أحمد بن الفضل الباطرقاني يقولون وأنا أسمع: بقي أبو نعيم أربع عشرة سنة بلا نظير ولا يوجد شرقاً وغرباً أعلى إسناداً ولا أحفظ منه، وكانوا يقولون لما صنف كتاب الحلية حمل إلى نيسابور حال حياته فاشترى هناك بأربعمائة دينار، وبلغت عدة تصانيفه أربعمائة مجلد.

قال الإمام منتخب الدين أبو الفتوح العجلي: كان أبو نعيم صاحب التصانيف الكثيرة ولعلها تبلغ أربعمائة ومناقبه تصانيفه، وكتابه حلية الأولياء عشر مجلدات، ومعرفة الصحابة في ثلاث مجلدات، ودلائل النبوة في ثلاث مجلدات، وقد حصلت بحمد الله تعالى كتابة حلية الأولياء أجزاء متفرقة من مواضع شتي وكمل عندي غالبه إلا ما قل منه، وناهيك به شرفاً ما ذكره بعضهم أنه لا يدخل الشيطان بيتاً فيه هذا الكتاب، وقد جمع رجاله أرجوزة محمد بن جابر الأندلسي في كراسين أحسن فيها للغاية، ورويت هذا الكتاب عن جماعة من الشيوخ ما بين إجازة خاصة وعامة منهم: المسند أبو حفص عمر بن أحمد بن عقيل بن الحسين المكي عن كل من المشايخ الثلاثة خاله حافظ الحجاز عبدالله بن سالم البصري، والشهاب أحمد بن علي بن محمد النخلي، وأبي الأسرار الحسن بن علي بن يحيى الحنفي قالوا: أخبرنا الحافظ شمس الدين محمد بن العلاء، أخبرنا علي بن يحيى، أخبرنا يوسف بن زكريا، أخبرنا الحافظ شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوي، أخبرنا الحافظان أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني، ومستمليه زين الدين رضوان بن يوسف العقبي، ومسند القاهرة عز الدين عبد الرحيم بن محمد بن الفرات. قال الأولان: أخبرنا الشرف محمد بن عبد اللطيف بن الكويك، والزين عبد الرحمن بن أحمد الغزي. قال ابن الكويك: أخبرنا إبراهيم بن علي القطبي، وقال الغزي: أخبرنا علي بن إسماعيل المخزومي قالا: أخبرنا النجيب أبو الفتوح عبد اللطيف بن عبد المنعم بن علي الحراني. وقال ابن الفرات: أخبرنا عمر بن الحسين المراغي، أخبرنا الفخر محمد بن النحامي. قال هو والحراني: أخبرنا أبو المكارم أحمد بن محمد اللبان، وأبو الحسن

وبالوقوف عليه يستبين لك بعدك وبعد أهل عصرك من أهل الدين. فإن حدثتك نفسك بالنظر إلى أهل زمانك وقالت: إنما تيسر الخير في ذلك الزمان لكثرة الأعوان والآن فإن خالفت أهل زمانك رأوك مجنوناً وسخروا بك فوافقهم فيما هم فيه وعليه؛ فلا يجري عليك إلا ما يجري عليهم والمصيبة إذا عمت طابت. فإياك أن تتدلى بحبل غرورها وتنخدع بتزويرها، وقل لها: أرأيت لو هجم سيل جارف يغرق أهل البلد وثبتوا على مواضعهم ولم يأخذوا حذرهم لجهلهم بحقيقة الحال. وقدرت أنت على أن تفارقيهم وتركبي في سفينة تتخلصين بها من الغرق فهل يختلج في نفسك أن المصيبة إذا عمت طابت؟ أم تتركين موافقتهم وتستجهلينهم في صنيعهم وتأخذين حذرك مما دهاك، فإذا كنت تتركين موافقتهم خوفاً من الغرق وعذاب الغرق لا يتمادى إلا ساعة فكيف لا تهربين من عذاب الأبد وأنت متعرضة له في كل حال؟ ومن أين تطيب المصيبة إذا عمت ولأهل النار شغل شاغل عن الالتفات إلى العموم والخصوص؟ ولم يهلك الكفار إلا بموافقة أهل زمانهم حيث قالوا: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آباءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وإِنَّا عَلَى

مسعود بن محمد بن منصور والحمال قال: أخبرنا أبو علي الحسن بن أحمد بن الحسين الحداد، أخبرنا الحافظ أبو نعيم رحمه الله تعالى.

(**وبالوقوف عليه يستبين لك بعدك وبعد أهل عصرك من أهل الدين، فإن حدثتك نفسك بالنظر إلى أهل زمانك وقالت: إنما تيسر الخير في ذلك الزمان لكثرة الأعوان**) عليه (**و**) أما (**الآن خالفت أهل زمانك**) في زيهم وطريقتهم (**رأوك مجنوناً**) قليل العقل (**وسخروا بك**) واستقلوا مقامك (**فوافقهم فيما هم فيه وعليه؛ فلا يجري عليك إلا ما يجري عليهم والمصيبة إذا عمت**) أي شملت الناس جميعاً (**طابت**) وهانت. (**فإياك أن تتدلى بحبل غرورها وتنخدع بتزويرها وقل لها: أرأيت**) أيتها النفس (**لو هجم سيل جارف**) يجرف الأرض وما عليها (**يغرق أهل البلد وثبتوا على مواضعهم**) ماكثين (**ولم يأخذوا حذرهم لجهلهم بحقيقة الحال، وقدرت أنت على أن تفارقيهم وتركبي في سفينة تتخلصي بها من الغرق فهل يختلج في نفسك أن المصيبة إذا عمت طابت أم تتركي موافقتهم وتستجهلينهم في صنيعهم وتأخذي حذرك مما دهاك**) وهجم عليك، (**فإذا كنت تتركين موافقتهم خوفاً من الغرق**) والهلاك (**وعذاب الغرق لا يتمادى إلا ساعة**) ريثما تزهق الروح، (**فكيف لا تهربي من عذاب الأبد وأنت متعرضة له في كل حال، ومن أين تطيب المصيبة**) وتهون (**إذا عمت، ولأهل النار شغل عن الالتفات إلى العموم والخصوص، ولم يهلك الكفار إلا بموافقة أهل زمانهم حيث قالوا**) كما أخبر الله تعالى عنهم (**﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا**

آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢] فعليك إذا اشتغلت بمعاتبة نفسك وحملها على الاجتهاد فاستعصت أن لا تترك معاتبتها وتوبيخها وتقريعها وتعريفها سوء نظرها لنفسها فعساها تنزجر عن طغيانها.

المرابطة السادسة: في توبيخ النفس ومعاتبتها:

اعلم أن أعدى عدوّك نفسك التي بين جنبيك، وقد خلقت أمارة بالسوء ميالة إلى الشر فرّارة من الخير، وأمرت بتزكيتها وتقويمها وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها ومنعها عن شهواتها وفطامها عن لذاتها، فإن أهملتها جمحت وشردت ولم تظفر بها بعد ذلك، وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة والعذل والملامة كانت نفسك هي النفس اللوّامة التي أقسم الله بها ورجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل في زمرة عباد الله راضيةً مرضية، فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها ولا تشتغلن بوعظ

على آثارهم مقتدون﴾ فعليك إذا اشتغلت بمعاتبة نفسك أو تحملها على الإجتهاد فاستعصت) ولجت في طغيانها وأبت طاعتك فيما تحملها، **(أن لا تترك معاتبتها وتوبيخها وتقريعها)** بعصا المواعظ والزواجر **(وتعريفها سوء نظرها لنفسها فعساها لتنزجر عن طغيانها)**، ومن أراد الزيادة على هذا فلا يشفيه إلا ما ذكره المصنف في المرابطة السادسة. قال رحمه الله تعالى:

المرابطة السادسة: في توبيخ النفس ومعاتبتها:

(اعلم) أرشدك الله تعالى **(أن أعدى عدو لك نفسك التي بين جنبيك)** كما ورد في مرسل سعيد بن أبي هلال: ليس عدوك الذي يقتلك فيدخلك الله به الجنة وإن قتلته كان لك نوراً، ولكن أعدى الأعداء لك نفسك التي بين جنبيك. رواه أبو محمد العسكري في الأمثال، **(وقد خلقت أمارة بالسوء ميالة إلى الشر فرارة من الخير وأمرت بتزكيتها وتقويمها)** وتعديلها **(وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها ومنعها عن شهواتها وفطامها عن لذاتها، فإن أهملتها جمحت)** وعصت **(وشردت ولم تظفر بها بعد ذلك)** واحتجت إلى معالجة شديدة، **(وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة والعذل والملامة كانت نفسك هي النفس اللوامة التي أقسم الله بها)** فقال: ﴿لا أقسم بيوم القيامة * ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾ [القيامة: ١، ٢] وهي النفس المتقية التي تلوم النفوس المقصرة في التقوى يوم القيامة على تقصير، وإدخال «لا» النافية على فعل القسم للتأكيد شائع في كلامهم. **(ورجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل زمرة عباد الله راضية مرضية)** كما قال الله تعالى ﴿يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعي إلى ربك راضية مرضية * فادخلي في عبادي * وادخلي جنتي﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠] **(فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها ولا تشتغلن بوعظ غيرك ما لم تشتغل أولاً**

غيرك ما لم تشتغل أولاً بوعظ نفسك. أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام يا ابن مريم عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس وإلا فاستحي مني؛ وقال تعالى: ﴿وذَكِّر فإنَّ الذِّكْرَى تنفعُ المؤمنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]، وسبيلك أن تقبل عليها فتقرر عندها جهلها وغباوتها وأنها أبداً تتعزز بفطنتها وهدايتها، ويشتدّ أنفها واستنكافها إذا نسبت إلى الحمق فتقول لها: يا نفس ما أعظم جهلك تدعين الحكمة والذكاء والفطنة وأنت أشدّ الناس غباوة وحمقاً؛ أما تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار وإنك صائرة إلى إحداهما على القرب؟ فما لك تفرحين وتضحكين وتشتغلين باللهو وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم وعساك اليوم تختطفين أو غداً، فأراك ترين الموت بعيداً ويراه الله قريباً؟ أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب وأن البعيد ما ليس بآت؟ أما تعلمين أن الموت يأتي بغتة من غير تقديم رسول ومن غير مواعدة وموطأة وأنه لا يأتي في شيء، دون شيء، ولا في شتاء دون صيف ولا في صيف دون شتاء، ولا في نهار دون ليل ولا في ليل دون نهار، ولا يأتي في الصبا دون الشباب ولا في الشباب دون الصبا، بل كل نفس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة فإن لم يكن الموت فجأة فيكون المرض فجأة،

بوعظ نفسك)، فقد ورد أنه **(أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام: يا ابن مريم عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس وألا فاستح مني)** رواه أحمد في الزهد عن مالك بن دينار. وقال أبو نعيم في الحلية: حدثنا الحسين بن محمد بن علي، حدثنا أحمد بن محمد بن معاوية، حدثنا سليمان بن داود القزاز، حدثنا سيار، حدثنا جعفر قال: سمعت مالك بن دينار يقول: أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام يا عيسى عظ نفسك فذكره.

(وقال تعالى: ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ وسبيلك أن تقبل عليها فتقرر عندها جهلها وغباوتها) وحمقها **(وأنها أبداً تتعزز بفطنتها وهدايتها، ويشتد أنفها واستنكافها إذا نسبت إلى الحمق)** والغباوة **(فتقول لها: يا نفس ما أعظم جهلك تدعين الحكمة والذكاء والفطنة وأنت أشد الناس غباوة وحمقاً! أما تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار وأنت صائرة إلى إحداهما على القرب؟ فمالك تفرحين وتضحكين وتشتغلين باللهو)** واللعب **(وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم وعساك اليوم تختطفين)** من بين أهلك وأحبابك **(أو غداً، فأراك ترين الموت بعيداً ويراه الله قريباً! أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب)** وكأن قد **(وأن البعيد ما ليس بآت. أما تعلمين أن الموت يأتي بغتة من غير تقديم رسول)** منه ينبهك على إتيانه **(ومن غير مواعدة ومواطأة)** لمجيئه، **(وأنه لا يأتي شتاء دون صيف ولا في صيف دون شتاء، ولا في نهار دون ليل ولا في ليل دون نهار، ولا يأتي في الصبا دون الشباب ولا في الشباب دون الصبا، بل كل نفس من الأنفاس يمكن أن**

ثم يفضي إلى الموت فما لك لا تستعدين للموت وهو أقرب إليك من كل قريب؟ أما تتدبرين قوله تعالى: ﴿اقْتَرب للنَّاس حِسَابُهُمْ ⋆ وَهُمْ في غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ⋆ مَا يأتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ من رَبِّهِمْ مُحدثٍ إلاَّ استَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ⋆ لاَهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١ - ٣] ويحك يا نفس إن كانت جراءتك على معصية الله لاعتقادك أن الله لا يراك فما أعظم كفرك وإن كان مع علمك بإطلاعه عليك فما أشدّ وقاحتك وأقل حياءك، ويحك يا نفس لو واجهك عبد من عبيدك بل أخ من اخوانك بما تكرهينه كيف كان غضبك عليه ومقتك له فبأي جسارة تتعرّضين لمقت الله وغضبه وشديد عقابه أفتظنين أنك تطيقين عقابه؟ هيهات هيهات! جربي نفسك إن ألهاك البطر عن أليم عذابه فاحتبسي ساعة في الشمس أو في بيت الحمام أو قربي أصبعك من النار ليتبين لك قدر طاقتك؟ أم

يكون فيه الموت فجأة، فإن لم يكن الموت فجأة فيكون المرض فجأة ثم يفضي إلى الموت). وقد ورد في السنة ما يدل على ذلك، فقد روى هناد في الزهد، وابن أبي الدنيا في المرض والكفارات، وأبو نعيم في الطب، والبيهقي في الشعب، والقضاعي في المسند عن الحسن مرسلاً: الحمى رائد الموت وهي سجن الله في الأرض للمؤمن يحبس بها عبده إذا شاء ويرسله إذا شاء. (**فمالك لا تستعدين للموت وهو أقرب إليك من كل قريب، أما تتدبرين قوله تعالى: ﴿اقترب للناس حسابهم﴾**) أي بالإضافة إلى ما مضى أو عند الله لقوله ﴿إنهم يرونه بعيداً ⋆ ونراه قريباً﴾ [المعارج: ٦، ٧] وقوله: ﴿يستعجلونك بالعذاب﴾ إلى قوله ﴿وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾ [الحج: ٤٧] أو لأن كل ما هو آت قريب. قال الشاعر:

فلا زال ما تهواه أقرب من غد ... ولا زال ما تخشاه أبعد من أمس

وإنما البعيد ما انقرض، واللام صلة لاقترب أو تأكيد الإضافة، وأصله اقترب حساب الناس. (**﴿وهم في غفلة معرضون﴾**) عن التفكر فيه (**﴿ما يأتيهم من ذكر**) ينبههم عن سنة الغفلة والجهالة (**من ربهم محدث**) تنزيله كي يتعظوا (**إلا استمعوه وهم يلعبون﴾**) يستهزئون ويستسخرون منه لتناهي غفلتهم وفرط إعراضهم عن النظر في الأمور والتفكر في العواقب (**﴿لاهية قلوبهم﴾**) أي استمعوه جامعين بين الاستهزاء والتلهي والذهول عن التفكر فيه.

(**ويحك يا نفس إن كانت جراءتك على معصية الله لاعتقادك أن الله لا يراك فما أعظم كفرك وإن كان مع علمك باطلاعه عليك فما أشد وقاحتك وأقل حياءك، ويحك يا نفس لو واجهك عبد من عبيدك بل أخ من إخوانك بما تكرهينه كيف كان غضبك عليه ومقتك له فبأي جسارة تتعرضين لمقت الله وغضبه وشديد عقابه، أفتظنين أنك تطيقين عذابه؟ هيهات هيهات! جربي نفسك إن ألهاك البطر عن أليم عذابه فاحتبسي ساعة في الشمس**) في نهار الصيف (**أو في بيت الحمام أو قربي أصبعك من النار**) أو من شعلة السراج (**ليتبين لك قدر**

تغترين بكرم الله وفضله واستغنائه عن طاعتك وعبادتك فما لك لا تعوّلين على كرم الله تعالى في مهمات دنياك، فإذا قصدك عدو فلم تستنبطين الحيل في دفعه ولا تكلينه إلى كرم الله تعالى، وإذا أرهقتك حاجة إلى شهوة من شهوات الدنيا مما لا ينقضي إلا بالدينار والدرهم فما لك تنزعين الروح في طلبها وتحصيلها من وجوه الحيل فلم لا تعولين على كرم الله تعالى حتى يعثر بك على كنز أو يسخر عبداً من عبيده فيحمل إليك حاجتك من غير سعي منك ولا طلب؟ أفتحسبين أن الله كريم في الآخرة دون الدنيا! وقد عرفت أن سنة الله لا تبديل لها، وأن رب الآخرة والدنيا واحد، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى. ويحك يا نفس ما أعجب نفاقك ودعاويك الباطلة فإنك تدّعين الإيمان بلسانك وأثر النفاق ظاهر عليك ألم يقل لك سيدك ومولاك: ﴿ومَا مِنْ دَابَةٍ في الأَرْض إلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، وقال في أمر الآخرة: ﴿وأن لَيْسَ للإنْسَان إلاَّ مَا سَعَى﴾ [النجم: ٣٩] فقد تكفل لك بأمر الدنيا خاصة وصرفك عن السعي فيها فكذبته بأفعالك وأصبحت تتكالبين على طلبها تكالب المدهوش المستهتر، ووكل أمر الآخرة إلى سعيك فأعرضت عنها إعراض المغرور المستحقر! ما هذا من

طاقتك) ما أظن أنك تطيقين ذلك؟ **(أم تغترين بكرم الله وفضله واستغنائه عن طاعتك وعبادتك فمالك لا تعولين على كرم الله تعالى في مهمات دنياك، فإذا قصدك عدو)** أو خفت منه **(فلم تستنبطين الحيل في دفعه)** بكل ممكن **(ولا تكلينه إلى كرم الله تعالى، وإذا أرهقتك حاجة إلى شهوة من شهوات الدنيا مما لا ينقضي إلا بالدينار والدرهم فمالك قد تنزعين الروح في طلبها وتحصيلها من وجوه الحيل فلم لا تعولين على كرم الله تعالى حتى يعثر بك)** أي يطلعك **(على كنز)** تنفقي منه **(أو يسخر عبداً من عبيده فيحمل إليك حاجتك من غير سعي منك ولا طلب؟ أفتحسبين أن الله كريم في الآخرة دون الدنيا! وقد عرفت أن سنة الله لا تبديل لها، وأن رب الدنيا والآخرة واحد ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ★)** وأن سعيه سوف يرى﴾ [النجم: ٣٩، ٤٠].

(ويحك يا نفس ما أعجب نفاقك ودعاويك الباطلة فإنك تدعين الإيمان بلسانك وأثر النفاق ظاهر عليك ألم يقل لك سيدك ومولاك) جل شأنه: **(﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾ وقال في أمر الآخرة ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ فقد تكفل لك بأمر الدنيا خاصة وصرفك عن السعي فيها فكذبتيه بأفعالك وأصبحت تتكالبين)** أي تتحارصين **(على طلبها تكالب المدهوش المستهتر)** كالـذي لا يعقل، **(ووكل أمر الآخرة إلى سعيك فأعرضت عنها إعراض المغرور المستحقر! ما هذا من علامات الإيمان لو كان**

علامات الإيمان لو كان الإيمان باللسان فلم كان المنافقون في الدرك الأسفل من النار ويحك يا نفس كأنك لا تؤمنين بيوم الحساب وتظنين أنك إذا مت انفلت وتخلصت وهيهات! أتحسبين انك تتركين سدى! ألم تكوني نطفة من مني يمنى ثم كنت علقة فخلق فسوى أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟ فإن كان هذا من إضمارك فما أكفرك وأجهلك! أما تتفكرين أنه ممـاذا خلقك، من نطفة خلقك فقدّرك ثم السبيل يسرك ثم إماتك فأقبرك أفتكذبينه في قوله؛ ثم إذا شاء أنشرك؟ فإن لم تكوني مكذبة فما لك لا تأخذين حذرك ولو أن يهودياً أخبرك في ألذ أطعمتك بأنه يضرك في مرضك لصبرت عنه وتركته وجاهدت نفسك فيه ،أفكان قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات وقول الله تعالى في كتبه المنزلة أقل عندك تأثيراً من قول يهودي يخبرك عن حدس وتخمين وظن مع نقصان عقل وقصور علم؟ والعجب أنه لو أخبرك طفل بأن في ثوبك عقرباً لرميت ثوبك في الحال من غير مطالبة له بدليل وبرهان! أفكان قول الأنبياء والعلماء والحكماء وكافة الأولياء أقل عندك من قول صبي من جملة الأغبياء! أم صار حر جهنم وأغلالها

الإيمان باللسان، فلماذا كان المنافقون في الدرك الأسفل من النار) مع أنهم قد آمنوا بلسانهم.
(ويحك يا نفس كأنك لا تؤمنين بيوم الحساب وتظنين أنك إذ مت انفلت وتخلصت. وهيهات! أتحسبين أنك تتركين سدى، ألم تكوني نطفة من مني يمنى ثم كنت علقة فخلق فسوى أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى) نزع بذلك إلى قوله تعالى ﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى ★ ألم يك نطفة من مني يمنى ★ ثم كان علقة فخلق فسوى ★ فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ★ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى﴾ [القيامة: ٣٦ ـ ٤٠] وإلى هذا المعنى أشار القائل:

ولو أنا إذا متنا تركنا ... لكان الموت راحة كل حي
ولكنا إذا متنا بعثنا ... ونسأل بعده عن كل شيء

(فإن كان هذا من إضمارك فما أكفرك وأجهلك! أما تتفكرين أنه مماذا خلقك، من نطفة خلقك فقدرك ثم السبيل يسرك ثم أماتك فأقبرك أفتكذبينه في قوله إذا شاء أنشرك؟ فإن لم تكوني مكذبة فمالك لا تأخذين حذرك، ولو أن يهودياً أخبرك في ألذ أطعمتك بأنه يضرك في مرضك لصبرت عنه وتركتيه وجاهدت نفسك فيه، فكان قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات وقول الله تعالى في كتبه المنزلة أقل عندك تأثيراً من قول يهودي يخبرك عن حدس وتخمين وظن مع نقصان عقل وقصور علم) مع ماله من العداوة الدينية معك بحيث لو خلا بك لقتلك؟ **(والعجب أنه لو أخبرك طفل بأن في ثوبك عقرباً لرميت ثوبك في الحال من غير مطالبة له بدليل وبرهان، أفكان قول الأنبياء والعلماء والحكماء وكافة الأولياء أقل عندك من قول صبي من جملة الأغبياء، أم صار حر جهنم وأغلالها وأنكالها وزقومها**

وأنكالها وزقومها ومقامعها وصديدها وسمومها وأفاعيها وعقاربها أحقر عندك من عقرب لا تحسين بألمها إلا يوماً أو أقل منه! ما هذه أفعال العقلاء! بل لو انكشف للبهائم حالك لضحكوا منك وسخروا من عقلك، فإن كنت يا نفس قد عرفت جميع ذلك وآمنت به فما لك تسوفين العمل والموت لك بالمرصاد، ولعله يختطفك من غير مهلة فبماذا أمنت استعجال الأجل؟ وهبك أنك وعدت بالإمهال مائة سنة أفتظنين أن من يطعم الدابة في حضيض العقبة يفلح ويقدر على قطع العقبة بها؟ إن ظننت ذلك فما أعظم جهلك أرأيت لو سافر رجل ليتفقه في الغربة فأقام فيها سنين متعطلاً بطالاً يعد نفسه بالتفقه في السنة الأخيرة عند رجوعه إلى وطنه هل كنت تضحكين من عقله وظنه أن تفقيه النفس مما يطمع فيه بمدّة قريبة أو حسبانه أن مناصب الفقهاء تنال من غير تفقه اعتماداً على كرم الله سبحانه! ثم هبي أن الجهد في آخر العمر نافع وأنه موصل إلى الدرجات العلى فلعل اليوم آخر عمرك فلم لا تشتغلين فيه بذلك؟ فإن أوحى إليك بالإمهال فما المانع من المبادرة وما الباعث لك على التسويف هل له سبب إلا عجزك عن مخالفة شهواتك لما فيها من التعب والمشقة؟ أفتنتظرين يوماً يأتيك لا تعسر فيه مخالفة الشهوات؟ هذا يوم لم يخلقه الله قط ولا يخلقه؛ فلا تكون الجنة قط إلا محفوفة بالمكاره

ومقامعها وصديدها وسمومها وأفاعيها وعقاربها أقصر عندك من عقرب لا تحسين بألمها إلا يوماً أو أقل منه! ما هذا أفعال العقلاء، بل لو انكشف للبهائم حالك لضحكوا منك وسخروا من عقلك، فإن كنت يا نفس قد عرفت جميعه ذلك وآمنت به فمالك تسوفين العمل والموت لك بالمرصاد ولعله يختطفك من غير مهل فبماذا أمنت استعجال الأجل؟ وهبك أنك وعدت بالإمهال مائة سنة) وهو غاية الأماني **(أفتظنين أن من يطعم الدابة في حضيض العقبة يفلح ويقدر على قطع العقبة بها؟ إن ظننت ذلك فما أعظم جهلك. أرأيت لو سافر رجل ليتفقه في الغربة)** من وطنه **(فأقام فيها سنين)** مدة **(متعطلاً بطالاً)** لم يشغل نفسه بالتعلم **(يعد نفسه بالتفقه في السنة الأخيرة عند رجوعه إلى وطنه هل كنت تضحكين من عقله وظنه أن تفقيه النفس مما يطمع فيه بمدة** قريبة **أو حسبانه أن مناصب الفقهاء تنال** من غير تفقه **اعتماداً على كرم الله سبحانه! ثم هبي الجهد في آخر العمر نافع وأنه موصل إلى الدرجات العلى، فلعل اليوم آخر عمرك فلم لا تشتغلين فيه بذلك؟ فإن أوحى إليك بالإمهال فما المانع من المبادرة وما الباعث لك على التسويف هل له سبب إلا عجزك عن مخالفة شهواتك لما فيها من التعب والمشقة؟ أفتنظرين يوماً يأتيك لا تعسر فيه مخالفة الشهوات؟ هذا يوم لم يخلقه الله قط ولا يخلقه؛ فلا تكون الجنة قط إلا محفوفة بالمكاره)**

ولا تكون المكاره قط خفيفة على النفوس، وهذا محال وجوده، أما تتأملين مذ كم تعدين نفسك وتقولين غداً غداً فقد جاء الغد وصار يوماً فكيف وجدته؟ أما علمت أن الغد الذي جاء وصار يوماً كان له حكم الأمس لا بل تعجزين عنه اليوم فأنت غداً عنه أعجز وأعجز؛ لأن الشهوة كالشجرة الراسخة التي تعبد العبد بقلعها، فإذا عجز العبد عن قلعها للضعف وأخرها كان كمن عجز عن قلع شجرة وهو شاب قوي فأخرها إلى سنة أخرى مع العلم بأن طول المدّة يزيد الشجرة قوة ورسوخاً ويزيد القالع ضعفاً ووهناً، فما لا يقدر عليه في الشباب لا يقدر عليه قط في المشيب، بل من العناء رياضة الهرم ومن التعذيب تهذيب الذيب. والقضيب الرطب يقبل الانحناء فإذا جف وطال عليه الزمان لم يقبل ذلك، فإذا كنت أيتها النفس لا تفهمين هذه الأمور الجلية وتركنين إلى التسويف فما بالك تدعين الحكمة وأية حماقة تزيد على هذه الحماقة؟ ولعلك تقولين ما يمنعني عن الاستقامة إلا حرصي على لذة الشهوات وقلة صبري على الآلام والمشقة فما أشدّ غباوتك وأقبح اعتذارك! إن كنت صادقة في ذلك فاطلبي التنعم بالشهوات الصافية عن

كما في الخبر «حفت الجنة بالمكاره» **(ولا تكون المكاره قط خفيفة على النفوس هذا محال وجوده، أما تتأملين منذ كم تعدين نفسك وتقولين غداً غداً فقد جاء الغد وصار يوماً فكيف وجدتيه؟ أما علمت أن الغد الذي جاء وصار يوماً كان له حكم الأمس لا بل ما تعجز عنه اليوم فأنت غداً عنه أعجز وأعجز)** أي أكثر عجزاً؛ **(لأن الشهوة كالشجرة الراسخة التي تعبد العبد بقلعها)** واستئصالها، **(فإذا عجز العبد عن قلعها للضعف وأخرها كان كمن عجز عن قلع شجرة وهو شاب قوي فأخرها إلى سنة أخرى مع العلم بأن طول المدة يزيد الشجرة قوة ورسوخاً ويزيد القالع ضعفاً ووهناً، فما لا يقدر عليه في الشباب لا يقدر عليه قط في المشيب، بل من العناء رياضة الهرم)** فإن الهرم يزداد كل آن ضعفاً فرياضته من جملة العناء، **(ومن التعذيب تهذيب الذيب)**، فإنه جبل على الخبث فلا ينفع فيه التهذيب، ومنه قول الشاعر:

إذا كان الطباع طباع سوء ... فليس بنافع فيه الأديب

(والقضيب الرطب ينفع فيه الانحناء فإذا جف وطال عليه الزمان لم يقبل ذلك) أبداً، **(فإذا كنت أيتها النفس لا تفهمين هذه الأمور)** الواضحة **(الجلية وتركنين إلى التسويف فمالك تدعين الحكمة)** والإصابة، **(وأية حماقة تزيد على هذه الحماقة؟ ولعلك تقولين: ما يمنعني عن الاستقامة إلا حرصي على لذة الشهوات وقلة صبري على الآلام والمشقات فما أشد غباوتك وأقبح اعتذارك! إن كنت صادقة في ذلك فاطلبي التنعم بالشهوات الصافية**

الكدورات الدائمة أبد الآباد ولا مطمع في ذلك إلا في الجنة، فإن كنت ناظرة لشهوتك فالنظر لها في مخالفتها فرب أكلة تمنع أكلات. وما قولك في عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء البارد ثلاثة أيام ليصح ويهنأ بشربه طول عمره، وأخبره أنه إن شرب ذلك مرض مرضاً مزمناً وامتنع عليه شربه طول العمر، فما مقتضى العقل في قضاء حق الشهوة؟ أيصبر ثلاثة أيام ليتنعم طول العمر أم يقضي شهوته في الحال خوفاً من ألم المخالفة ثلاثة أيام؛ حتى يلزمه ألم المخالفة ثلاثمائة يوم وثلاثة آلاف يوم؟ وجميع عمرك بالإضافة إلى الأبد الذي هو مدة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع العمر وإن طالت مدته. وليت شعري ألم الصبر عن الشهوات أعظم شدة وأطول مدة أو ألم النار في دركات جهنم فمن لا يطيق الصبر على ألم المجاهدة كيف يطيق ألم عذاب الله؟ ما أراك تتوانين عن النظر لنفسك إلا لكفر خفي أو لحمق جلي. أما الكفر الخفي؛ فهو ضعف إيمانك بيوم الحساب وقلة معرفتك بعظم قدر الثواب والعقاب. وأما الحمق الجلي: فاعتمادك على كرم الله تعالى وعفوه من غير التفات إلى مكره واستدراجه واستغنائه عن عبادتك مع أنك لا تعتمدين على كرمه في لقمة من الخبز أو حبة من المال أو كلمة واحدة تسمعينها من الخلق، بل تتوصلين إلى غرضك في

من **الكدورات الدائمة أبد الآباد ولا مطمع في ذلك إلا في الجنة)**، فإن لذاتها هي الموصوفة بذلك، **(فإن كنت ناظرة لشهوتك فالنظر لها في مخالفتها أكلة تمنع أكلات)** وهو مثل مشهور أورده الحريري في المقامات. **(وما قولك في عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء البارد ثلاثة أيام ليصح)** مزاجه **(ويتهنأ بشربه طول العمر، وأخبره أنه إن شرب ذلك مرض مرضاً مزمناً)** لا يفارقه **(وامتنع عليه شربه طول العمر، فما مقتضى العقل في قضاء حق الشهوة؟ أيصبر ثلاثة أيام ليتنعم طول العمر أم يقضي شهوته في الحال خوفاً من ألم المخالفة ثلاثة أيام، حتى يلزمه ألم المخالفة ثلاثمائة يوم وثلاثة آلاف يوم؟ وجميع عمرك بالإضافة إلى الأبد الذي هو مدة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع العمر وإن طالت مدته. وليت شعري ألم الصبر عن الشهوات أعظم شدة وأطول مدة أو ألم النار في دركات جهنم فمن لا يطيق الصبر على ألم المجاهدة كيف يطيق ألم عذاب؟ ما أراك تتوانين)** أي تتساهلين **(عن النظر إلى نفسك إما لكفر خفي أو لحمق جلي. أما الكفر الخفي فهو ضعف إيمانك بيوم الحساب وقلة معرفتك بعظم قدر الثواب والعقاب. وأما الحمق الجلي فاعتمادك على كرم الله تعالى وعفوه من غير التفات إلى مكروه واستدراجه واستغنائه عن عبادتك مع أنك لا تعتمدين على كرم الله في لقمة من الخبز أو حبة من المال أو كلمة تسمعينها من الخلق، بل تتوصلين إلى غرضك في ذلك**

ذلك بجميع الحيل وبهذا الجهل تستحقين لقب الحماقة من رسول الله ﷺ حيث قال: « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني » ويحك يا نفس لا ينبغي أن تغرك الحياة الدنيا ولا يغرنّك بالله الغرور، فانظري لنفسك فما أمرك بمهم لغيرك ولا تضيعي أوقاتك فالأنفاس معدودة فإذا مضى منك نفس فقد ذهب بعضك فاغتنمي الصحة قبل السقم والفراغ قبل الشغل والغنى قبل الفقر والشباب قبل الهرم والحياة قبل الموت، واستعدي للآخرة على قدر بقائك فيها، يا نفس أما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته فتجمعين له القوت والكسوة والحطب وجميع الأسباب، ولا تتكلين في ذلك على فضل الله وكرمه حتى يدفع عنك البرد من غير جبة ولبد وحطب وغير ذلك، فإنه قادر على ذلك، أفتظنين أيتها النفس أن زمهرير جهنم أخف برداً وأقصر مدة من زمهرير الشتاء أم تظنين أن ذلك دون هذا؟ كلا أن يكون هذا كذلك وأن يكون بينهما مناسبة في الشدّة والبرودة؟ أفتظنين أن العبد ينجو منها

بجميع الحيل وبهذا الجهل تستحقين لقب الحماقة من رسول الله ﷺ حيث قال « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله ») رواه الطيالسي وأحمد والترمذي وابن ماجه وابن أبي الدنيا في محاسبة النفس من حديث شداد بن أوس. وفي رواية لهم: والعاجز بدل الأحمق وقد تقدم مراراً.

(ويحك يا نفس لا ينبغي أن تغرك الحياة الدنيا ولا يغرنك بالله الغرور) كما قال الله تعالى: ﴿ فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ [لقمان: ٣٣] **(فانظري لنفسك فما أمرك بمهم لغيرك ولا تضيعي أوقاتك)** فإنها عزيزة **(فالأنفاس معدودة فإذا مضى منك نفس فقد ذهب بعضك فاغتنمي الصحة قبل السقم، والفراغ قبل الشغل، والغنى قبل الفقر، والشباب قبل الهرم، والحياة قبل الموت)** فقد روى الحاكم والبيهقي من حديث ابن عباس « اغتنم خمساً قبل خمس: حياتك قبل موتك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وشبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك » وقد رواه ابن المبارك وأحمد معاً في كتاب الزهد، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي أيضاً عن عمرو بن ميمون الأودي مرسلاً. **(واستعدي للآخرة على قدر بقائك فيها. يا نفس أما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته فتجمعين له القوت والكسوة والحطب وجميع الأسباب)** الموافقة للزمان، **(ولا تتكلين في ذلك على فضل الله وكرمه حتى يدفع عنك البرد من غير جبة ولبد وحطب وغير ذلك فإنه قادر على ذلك، أفتظنين أيتها النفس أن زمهرير جهنم أخف برداً وأقصر مدة من زمهرير الشتاء، أم تظنين أن ذلك دون هذا؟ كلا أن يكون هذا كذلك وأن يكون بينهما مناسبة في الشدة والبرودة؟ أفتظنين أن العبد ينجو منها بغير سعي وهيهات! كما لا يندفع برد الشتاء إلا**

بغير سعي هيهات! كما لا يندفع برد الشتاء إلا بالجبة والنار وسائر الأسباب فلا يندفع حر النار وبردها إلا بحصن التوحيد وخندق الطاعات وإنما كرم الله تعالى في أن عرفك طريق التحصن ويسر لك أسبابه لا في أن يدفع عنك العذاب دون حصنه كما أن كرم الله تعالى في دفع برد الشتاء أن خلق النار وهداك لطريق استخراجها من بين حديدة وحجر حتى تدفعي بها برد الشتاء عن نفسك، وكما أن شراء الحطب والجبة مما يستغني عنه خالقك ومولاك وإنما تشترينه لنفسك إذ خلقه سبباً لاستراحتك فطاعاتك ومجاهداتك أيضاً هو مستغن عنها وإنما هي طريقك إلى نجاتك، فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها والله غني عن العالمين. ويحك يا نفس انزعي عن جهلك وقيسي آخرتك بدنياك ﴿فمَا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إلاَّ كَنَفس واحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨] ﴿وكَمَا بَدَأْنَا أَوَّل خَلْق نُعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] ﴿وكَمَا بَدَأَكُمْ تعودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩] وسنة الله تعالى لا تجدين لها تبديلاً ولا تحويلاً. ويحك يا نفس ما أراك إلا ألفت الدنيا وأنست بها فعسر عليك مفارقتها وأنت مقبلة على مقاربتها وتؤكدين في نفسك مودتها، فاحسبي أنك غافلة عن عقاب الله وثوابه وعن أهوال القيامة وأحوالها فما أنت مؤمنة بالموت المفرق بينك وبين محابك، أفترين أن من يدخل دار ملك ليخرج من الجانب

بالجبة والنار وسائر الأسباب فلا يندفع حر النار وبردها إلا بحصن التوحيد وخندق الطاعات)، فقد روي من طريق أهل البيت «لا إله إلا الله حصني فمن دخل حصني أمن من عذابي» **(وإنما كرم الله تعالى في أن عرفك طريق التحصن ويسر لك أسبابه لا في أن يدفع عنك العذاب دون حصنه، كما أن كرم الله تعالى في دفع برد الشتاء أن خلق النار وهداك لطريق استخراجها من بين حديدة وحجر حتى تدفع بها برد الشتاء عن نفسك، وكما أن شراء الحطب والجبة مما يستغني عنه خالقك ومولاك وإنما تشتريه لنفسك إذ خلق سبباً لاستراحتك، فطاعاتك ومجاهداتك أيضاً هو مستغن عنها وإنما هي طريقك إلى نجاتك فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها والله غني عن العالمين. ويحك يا نفس انزعي عن جهلك)** وغيك وارعوي عن طغيانك **(وقيسي آخرتك بدنياك ﴿فما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾ ﴿وكما بدأنا أول خلق نعيده﴾ ﴿وكما بدأكم تعودون﴾ وسنة الله)** في خلقه **(لا تجدين لها تبديلاً ولا تحويلاً)** فتأملي في ذلك. **(ويحك يا نفس ما أراك إلا ألفت الدنيا وأنست بها فعسر عليك مفارقتها وأنت مقبلة على مقاربتها وتؤكدين في نفسك مودتها، فاحسبي أنك غافلة عن عقاب الله وثوابه وعن أهوال القيامة وأحوالها)** وشدائدها، **(فما أنت مؤمنة بالموت المفرق بينك وبين محابك)** وأحبابك. **(أفترين أن يدخل دار ملك ليخرج من الجانب الآخر)** متفرجاً **(فمد بصره إلى وجه مليح يعلم أنه يستغرق ذلك قلبه،**

الآخر فمدّ بصره إلى وجه مليح يعلم أنه يستغرق ذلك قلبه ثم يضطر لا محالة إلى مفارقته أهو معدود من العقلاء أم من الحمقى؟ أما تعلمين أن الدنيا دار لملك الملوك وما لك فيها إلا مجاز وكل ما فيها لا يصحب المجتازين بها بعد الموت، ولذلك قال سيد البشر ﷺ: «إن روح القدس نفث في روعي أحبب من أحببت فإنك مفارقه واعمل ما شئت فإنك مجزى به وعش ما شئت فإنك ميت» ويحك يا نفس أما تعلمين أن كل من يلتفت إلى ملاذ الدنيا ويأنس بها مع أن الموت من ورائه فإنما يستكثر من الحسرة عند المفارقة، وإنما يتزوّد من السم المهلك وهو لا يدري؟ أو ما تنظرين إلى الذين مضوا كيف بنوا وعلوا ثم ذهبوا وخلوا وكيف أورث الله أرضهم وديارهم أعداءهم أما ترينهم كيف يجمعون ما لا يأكلون ويبنون ما لا يسكنون ويؤملون ما لا يدركون يبني كل واحد قصراً مرفوعاً إلى جهة السماء ومقرّه قبر محفور تحت الأرض فهل في الدنيا حمق وانتكاس أعظم من هذا؟ يعمر الواحد دنياه وهو مرتحل عنها يقيناً ويخرب آخرته وهو صائر إليها قطعاً. أما تستحين يا نفس من مساعدة هؤلاء الحمقى على حماقتهم، واحسبي أنك

ثم يضطر لا محالة إلى مفارقته أهو معدود من العقلاء أو من الحمقى؟ أما تعلمين أن الدنيا دار ملك من الملوك ومالك فيها إلا مجاز) يشير بذلك إلى قول عيسى عليه السلام: الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها. **(وكل ما فيها لا يصحب المجتازين بها بعد الموت، ولذلك قال سيد البشر ﷺ «إن روح القدس نفث في روعي أحبب من أحببت فإنك مفارقه واعمل ما شئت فإنك مجزى به وعش ما شئت فإنك ميت»)** رواه الشيرازي في الألقاب من حديث سهل ابن سعد نحوه، والطبراني في الأصغر والأوسط من حديث علي وكلاهما ضعيف وقد تقدم في كتاب العلم.

(ويحك يا نفس أما تعلمين أن كل من يلتفت إلى ملاذ الدنيا يأنس بها مع أن الموت من ورائه) وبالمرصاد منه **(فإنما يستكثر من الحسرة عند المفارقة وإنما يتزود من السم المهلك وهو لا يدري؟ أو ما تنظرين إلى الذين مضوا كيف بنوا وعلوا)** ما بنوا **(ثم ذهبوا وخلوا)** أي تركوا ومنه قولهم: يا من بنى وعلى ثم راح وخلى. **(وكيف أورث الله أرضهم وديارهم أعداءهم، أما ترينهم كيف يجمعون ما لا يأكلون ويبنون ما لا يسكنون ويؤملون ما لا يدركون)**، وقد روى الطبراني في الكبير من حديث أم الوليد بنت عمر بن الخطاب: يا أيها الناس أما تستحيون تجمعون ما لا تأكلون وتبنون ما لا تعمرون وتؤملون ما لا تدركون ألا تستحيون من ذلك؟ **(يبني كل واحد منهم قصراً مرفوعاً إلى جهة السماء ومقره قبر محفور تحت الأرض. فهل في الدنيا حمق وانتكاس أعظم من هذا؟ يعمر الواحد دنياه وهو مرتحل عنها يقيناً ويخرب آخرته وهو صائر إليها قطعاً. أما تستحيين يا نفس من مساعدة هؤلاء**

لست ذات بصيرة تهتدي إلى هذه الأمور وإنما تميلين بالطبع إلى التشبه والاقتداء، فقيسي عقل الأنبياء والعلماء والحكماء بعقل هؤلاء المكبين على الدنيا واقتدي من الفريقين بمن هو أعقل عندك إن كنت تعتقدين في نفسك العقل والذكاء. يا نفس ما أعجب أمرك وأشدّ جهلك وأظهر طغيانك، عجباً لك كيف تعمين عن هذه الأمور الواضحة الجلية! ولعلك يا نفس أسكرك حب الجاه وأدهشك عن فهمها، أو ما تتفكرين ان الجاه لا معنى له إلا ميل القلوب من بعض الناس إليك، فاحسبي أن كل من على وجه الأرض سجد لك وأطاعك، أفما تعرفين أنه بعد خمسين سنة لا تبقين أنت ولا أحد ممن على وجه الأرض ممن عبدك وسجد لك، وسيأتي زمان لا يبقى ذكرك ولا ذكر من ذكرك كما أتى على الملوك الذين كانوا من قبلك ﴿فَهَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكزاً﴾ [مريم: ٩٨] فكيف تبيعين يا نفس ما يبقى أبد الآباد بما لا يبقى أكثر من خمسين سنة إن بقي؟ هذا إن كنت ملكاً من ملوك الأرض سلم لك الشرق والغرب حتى أذعنت لك الرقاب وانتظمت لك الأسباب كيف ويأبى إدبارك وشقاوتك أن يسلم لك أمر محلتك بل أمر دارك فضلاً عن محلتك؟ فإن كنت يا نفس لا تتركين الدنيا رغبة في الآخرة لجهلك وعمى بصيرتك فما لك لا تتركينها ترفعاً عن خسة شركائها وتنزهاً عن

الحمقى على حماقتهم، واحسبي أنك لست ذات بصيرة تهتدين إلى هذه الأمور وإنما تميلين بالطبع إلى التشبه والاقتداء، فقيسي عقل الأنبياء والعلماء والحكماء بعقل هؤلاء المكبين على الدنيا) الحريصين على تحصيلها، **(واقتدي من الفريقين بمن هو أعقل عندك إن كنت تعتقدين في نفسك العقل والذكاء. يا نفس ما أعجب أمرك وأشد جهلك وأظهر طغيانك، عجباً لك كيف تعمين عن هذه الأمور الواضحة الجلية، ولعلك يا نفس أسكرك حب الجاه وأدهشك عن فهمها، أو تتفكرين أن الجاه لا معنى له إلا ملك القلوب من بعض الناس إليك، فاحسبي أن كل من على وجه الأرض سجد لك وأطاعك أما تعرفين أن بعد خمسين سنة)** أو أقل من ذلك **(لا تبقي أنت ولا أحد ممن على وجه الأرض ممن عبدك وسجد لك؟ وسيأتي زمان لا يبقى ذكرك ولا ذكر من ذكرك كما أتى على الملوك الذين كانوا من قبلك. ﴿فهل تحس منهم من أحد أو تسمعه لهم ركزاً﴾)** أي صوتاً خفياً؟ **(فكيف تبيعي يا نفس ما يبقى أبد الآباد بما لا يبقى أكثر من خمسين سنة إن بقي هذا إن كنت ملكاً من ملوك الأرض سلم لك الشرق والغرب حتى أذعنت لك الرقاب وانتظمت لك الأسباء. كيف ويأبى إدبارك وشقاوتك أن يسلم لك أمر محلتك بل أمر دارك فضلاً عن محلتك، فإن كنت يا نفس لا تتركين الدنيا رغبة في الآخرة لجهلك وعمى بصيرتك فما لك لا تتركينها ترفعاً عن خسة شركائها وتنزهاً عن كثرة عنائها)** أي تعبها **(وتوقياً من**

كثرة عنائها وتوقياً من سرعة فنائها ؟ أم ما لك لا تزهدين في قليلها بعد أن زهد فيك كثيرها وما لك تفرحين بدنيا إن ساعدتك فلا تخلو بلدك من جماعة من اليهود والمجوس يسبقونك بها ويزيدون عليك في نعيمها وزينتها ، فأف لدنيا يسبقك بها هؤلاء الأخساء ! فما أجهلك وأخس همتك وأسقط رأيك إذ رغبت عن أن تكوني في زمرة المقرّبين من النبيّين والصدّيقين في جوار رب العالمين أبد الآبدين لتكوني في صف النعال من جملة الحمقى الجاهلين أياماً قلائل. فيا حسرة عليك إذ خسرت الدنيا والدين! فبادري ويحك يا نفس فقد أشرفت على الهلاك واقترب الموت وورد النذير. فمن ذا يصلي عنك بعد الموت، ومن ذا يصوم عنك بعد الموت، ومن ذا يترضى عنك ربك بعد الموت ،ويحك يا نفس ما لك إلا أيام معدودة هي بضاعتك إن اتجرت فيها وقد ضيعت أكثرها ، فلو بكيت بقية عمرك على ما ضيعت منها لكنت المقصرة في حق نفسك فكيف إذا ضيعت البقية وأصررت على عادتك ؟أما تعلمين يا نفس أن الموت موعدك والقبر بيتك والتراب فراشك والدود أنيسك والفزع الأكبر بين يديك؟ أما علمت يا نفس أن عسكر الموتى عندك على باب البلد ينتظرونك وقد آلوا على أنفسهم كلهم بالأيمان المغلظة أنهم لا يبرحون من مكانهم

سرعة فنائها ؟ أم مالك لا تزهدين في قليلها بعد أن زهد فيك كثيرها ، ومالك تفرحين بدنيا إن ساعدتك فلا يخلو بلدك من جماعة من اليهود والمجوس يسبقونك بها ويزيدون عليك في نعيمها وزينتها ؟ فأف لدنيا يسبقك بها هؤلاء الأخساء فما أجهلك وأخس همتك وأسقط رأيك إذ رغبت عن أن تكوني في زمرة **المقربين من النبيين والصديقن)** والصالحين **(في جوار رب العالمين أبد الآباد لتكوني في صف النعال من جلة الحمقى الجاهلين أياماً قلائل، فيا حسرة عليك إذ خسرت الدنيا والدين! فبادري ويحك يا نفس فقد أشرفت على الهلاك واقترب الموت)** وجاء الأجل **(وورد النذير)** وهو الشيب، **(فمن ذا يصلي عنك بعد الموت، ومن ذا يصوم عنك بعد الموت، ومن ذا يترضى عنك ربك بعد الموت).**

(ويحك يا نفس مالك إلا أياماً معدودة هي بضاعتك إن اتجرت فيها وقد ضيعت أكثرها ، فلو بكيت بقية عمرك على ما ضيعت منها لكنت مقصرة في حق نفسك فكيف إذا ضيعت البقية وأصررت على عادتك؟ أما تعلمين يا نفس أن الموت موعدك والقبر بيتك والتراب فراشك والدود أنيسك والفزع الأكبر بين يديك ؟ أما علمت يا نفس أن عسكر الموتى على باب البلد ينتظرونك). روى أبو نعيم في الحلية أن رجلاً جاء للفضيل فقال: عظني: فقال له: إن عسكر الموتى ينتظرونك. **(وقد آلوا كلهم على أنفسهم بالإيمان**

ما لم يأخذوك معهم ؟ أما تعلمين يا نفس أنهم يتمنون الرجعة إلى الدنيا يوماً ليشتغلوا بتدارك ما فرط منهم أنت من أمنيتهم ويوم من عمرك لو بيع منهم بالدنيا بحذافيرها لاشتروه لو قدروا عليه وأنت تضيعين أيامك في الغفلة والبطالة ؟ ويحك يا نفس أما تستحيين تزينين ظاهرك للخلق وتبارزين الله في السر بالعظائم أفتستحيين من الخلق ولا تستحيين من الخالق ؟ ويحك أهو أهون الناظرين عليك أتأمرين الناس بالخير وأنت متلطخة بالرذائل تدعين إلى الله وأنت عنه فارة وتذكرين بالله وأنت له ناسية ؟ أما تعلمين يا نفس أنّ المذنب أنتن من العذرة وإن العذرة لا تطهر غيرها فلم تطمعين في تطهير غيرك وأنت غير طيبة في نفسك ؟ ويحك يا نفس لو عرفت نفسك حق المعرفة لظننت أن الناس ما يصيبهم بلاء إلا بشؤمك ! ويحك يا نفس قد جعلت نفسك حماراً لإبليس يقودك إلى حيث يريد ويسخر بك ، ومع هذا فتعجبين بعملك وفيه من الآفات ما لو نجوت منه رأساً برأس لكان الربح في يديك ، وكيف تعجبين بعملك مع كثرة خطاياك وزللك وقد لعن الله إبليس بخطيئة واحدة بعد أن عبده مائتي

المغلطة أنهم لا يبرحون من مكانهم ما لم يأخذوك معهم) فلا بد وأن يأخذوك معهم . (**أما تعلمين يا نفس أنهم يتمنون الرجعة إلى الدنيا يوماً يشتغلون بتدارك ما فرط منهم وأنت في أمنيتهم**) كما قال تعالى ﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون ★ لعلي أعمل صالحاً فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾ [المؤمنون : ٩٩ ، ١٠٠] (**ويوم من عمرك لو بيع منهم بالدنيا بحذافيرها**) أي بتمامها (**لاشتروه لو قدروا عليه ، وأنت تضيعين أيامك في الغفلة والبطالة ؟ ويحك يا نفس أما تستحيين تزينين ظاهرك للخلق وتبارزين الله في السر بالعظائم . أفتستحيين من الخلق ولا تستحيين من الخالق ؟ ويحك أهو أهون الناظرين عليك ، أتأمرين الناس بالخير وأنت متلطخة بالرذائل ، تدعين**) غيرك (**إلى الله**) تعالى (**وأنت عنه فارة وتذكرين بالله وأنت له ناسية ؟ أما تعلمين يا نفس أن الذنب** أنتن من العذرة **وأن العذرة لا تطهر غيرها فلم تطمعين في تطهير غيرك وأنت طيبة في نفسك ؟ ويحك يا نفس لو عرفت نفسك حق المعرفة لظننت أن الناس لا يصيبهم بلاء بشؤمك**) وسوء فعلك . (**ويحك يا نفس قد جعلت نفسك حماراً لإبليس يقودك إلى حيث يريد**) من الشهوات (**ويسخر بك ، ومع هذا فتعجبين بعملك ، وفيه من الآفات ما لو نجوت منه رأساً برأس لكان الربح في يديك ، وكيف تعجبين بعملك مع كثرة خطاياك وزللك وقد لعن الله إبليس**) وطرده من جواره (**بخطيئة واحدة**) وهي مخالفة أمر الله تعالى في السجود لآدم عليه السلام (**بعد أن عبده مائتي ألف سنة**) قبل خلق آدم عليه السلام كما في خبر ابن عباس رواه الحاكم : وروى ابن جرير وابن الأنباري عن ابن عباس قال : كان إبليس

ألف سنة، وأخرج آدم من الجنة بخطيئة واحدة مع كونه نبيه وصفيه؟ ويحك يا نفس ما أغدرك ويحك يا نفس ما أوقحك ويحك يا نفس ما أجهلك وما أجرأك على المعاصي! ويحك كم تعقدين فتنقضين ويحك كم تعهدين فتغدرين ويحك يا نفس أتشتغلين مع هذه الخطايا بعمارة دنياك كأنك غير مرتحلة عنها؟ أما تنظرين إلى أهل القبور كيف كانوا جمعوا كثيراً وبنوا مشيداً وأملوا بعيداً فأصبح جمعهم بوراً وبنيانهم قبوراً وأملهم غروراً؟ ويحك يا نفس أما لك بهم عبرة أما لك إليهم نظرة أتظنين أنهم دعوا إلى الآخرة وأنت من المخلدين؟ هيهات هيهات ساء ما تتوهمين! ما أنت إلا في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك فابني على وجه الأرض قصرك فإن بطنها عن قليل

قبل أن يركب المعصية من الملائكة اسمه عزازيل، وكان من سكان الأرض من أشد الملائكة اجتهاداً وأكثرهم علماً، فذلك دعاه إلى الكبر. وعند وكيع وابن المنذر عنه قال: كان من خزان الجنة وكان يدبر أمر السماء الدنيا. وروى ابن جرير عن سعيد بن المسيب قال: كان رئيس ملائكة سماء الدنيا. (**وأخرج آدم**) عليه السلام من الجنة (**بخطيئة واحدة مع كونه نبيه وصفيه**) وتلك قربانة الشجرة المنهي عنها. روى ابن عساكر عن عطاء أن آدم لما أهبط من الجنة في موضع البيت ساجداً فمكث أربعين يوماً لا يرفع رأسه. وروى ابن سعد عن الحسن قال: بكى آدم على الجنة ثلاثمائة سنة (**ويحك يا نفس ما أغدرك، ويحك يا نفس ما أوقحك، ويحك يا نفس ما أجهلك وما أجرأك على المعصي؟ ويحك كم تعقدين**) بينك وبين الله عقداً (**فتنقضين. ويحك كم تعهدين مع الله عهداً فتغدرين، ويحك يا نفس أتشتغلين مع هذه الخطايا بعمارة دنياك كأنك غير مرتحلة عنها؟ أما تنظرين إلى أهل القبور كيف كانوا جمعوا كثيراً وبنوا مشيداً وأملوا بعيداً فأصبح جمعهم بوراً وبنيانهم قبوراً وأملهم غروراً**)؟ روي ذلك من كلام علي رضي الله عنه قاله في بعض خطبه. (**ويحك يا نفس أما لك بهم عبرة**) تعتبرين بها، (**أما لك إليهم نظرة**) تتعظين بها. (**أتظنين أنهم دعوا إلى الآخرة وأنت من المخلدين. هيهات هيهات ساء ما تتوهمين! ما أنت إلا في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك فابني على وجه الأرض قصرك فإن بطنها عن قليل يكون قبرك**):

روى ابن عساكر عن مجاهد قال: إن الله لما أهبط آدم وحواء إلى الأرض قال: «اهبطوا إلى الأرض فلدوا للموت وابنوا للخراب». ورواه ابن المبارك في الزهد نحوه. وفي حديث الزبير: «ما من صباح يصبح على العباد إلا وصارخ يصرخ لدوا للموت واجمعوا للفناء وابنوا للخراب» رواه البيهقي في الشعب. وقال أبو ذر رضي الله عنه: «تلدون للموت وتبنون للخراب وتؤثرون ما يفنى وتتركون ما يبقى» رواه أبو نعيم في الحلية. وقال عيسى عليه السلام: يا بني آدم لدوا للموت وابنوا للخراب تفنى نفوسكم وتبلى دياركم. رواه أحمد في الزهد، وقد نظم الحافظ ابن حجر هذا المعنى فقال:

يكون قبرك! أما تخافين إذا بلغت النفس منك التراقي أن تبدو رسل ربك منحدرة إليك بسواد الألوان وكلح الوجوه وبشرى بالعذاب فهل ينفعك حينئذ الندم أو يقبل منك الحزن أو يرحم منك البكاء؟ والعجب كل العجب منك يا نفس أنك مع هذا تدعين البصيرة والفطنة ومن فطنتك أنك تفرحين كل يوم بزيادة مالك ولا تحزنين بنقصان عمرك! وما نفع مال يزيد وعمر ينقص؟ ويحك يا نفس تعرضين عن الآخرة وهي مقبلة عليك وتقبلين على الدنيا وهي معرضة عنك! فكم من مستقبل يوماً لا يستكمله وكم من مؤمل لغد لا يبلغه فأنت تشاهدين ذلك في إخوانك وأقاربك وجيرانك فترين تحسرهم عند الموت ثم لا ترجعين عن جهالتك؟ فاحذري أيتها النفس المسكينة يوماً آلى الله فيه على نفسه أن لا يترك عبداً أمره في الدنيا ونهاه حتى يسأله عن عمله دقيقه وجليله سره وعلانيته، فانظري يا نفس بأي بدن تقفين بين يدي الله وبأي لسان تجيبين وأعدّي للسؤال جواباً وللجواب صواباً، واعملي بقية عمرك في أيام قصار لأيام طوال وفي دار زوال لدار مقامة وفي دار حزن ونصب لدار نعيم وخلود، اعملي قبل أن لا تعملي اخرجي من الدنيا اختياراً خروج الأحرار قبل أن تخرجي منها على

بني الدنيـــا أقلـــوا الهم فيهـــا	فما فيهـــا يـــؤول إلى الفـــوات
بنـــاء للخـــراب وجمع مـــال	ليفنـــــى والتـــــوالد للممات

(**أما تخافين إذا بلغت النفس منك التراقي أن تبدو رسل ربك منحدرة إليك بسواد الألوان وكلح الوجوه وبشرى العذاب، فهل ينفعك حينئذ الندم**) وقد فات وقته؟ (**أو يقبل منك الحزن**) حيث لا ينفع، (**أو يرحم منك البكاء**) والدموع؟ (**والعجب كل العجب منك يا نفس أنك مع هذا تدعين البصيرة والفطنة، ومن فطنتك أنك تفرحين كل يوم بزيادة مالك ولا تحزنين بنقصان عمرك، وما نفع مال يزيد وعمر ينقص. ويحك يا نفس تعرضين عن الآخرة وهي مقبلة عليك وتقبلين على الدنيا وهي معرضة عنك، فكم من مستقبل يوماً لا يستكمله وكم من مؤمل لغد لا يبلغه، فأنت تشاهدين في إخوانك وأقاربك وجيرانك فترين تحسرهم عند الموت ثم لا ترجعين عن جهالتك، فاحذري أيتها النفس يوماً آلى الله**) تعالى (**فيه على نفسه أن لا يترك عبداً أمره في الدنيا ونهاه حتى يسأله عن عمله دقيقه وجليله سره وعلانيته**) كما وردت بذلك الأخبار، (**فانظري يا نفس بأي بدن تقفين بين يدي الله، وبأي لسان تجيبين وأعدي للسؤال جواباً وللجواب صواباً، واعملي بقية عمرك في أيام قصار لأيام طوال، وفي دار زوال لدار مقامة، وفي دار حزن ونصب لدار نعيم وخلود اعملي قبل أن لا تعملي، اخرجي من الدنيا اختياراً خروج الأحرار**

الاضطرار، ولا تفرحي بما يساعدك من زهرات الدنيا فرب مسرور مغبون ورب مغبون لا يشعر، فويل لمن له الويل ثم لا يشعر، يضحك ويفرح ويلهو ويمرح ويأكل ويشرب وقد حق له في كتاب الله أنه من وقود النار، فليكن نظرك يا نفس إلى الدنيا اعتباراً وسعيك لها اضطراراً ورفضك لها اختياراً وطلبك للآخرة ابتداراً، ولا تكوني ممن يعجز عن شكر ما أوتي، ويبتغي الزيادة فيما بقي، وينهى الناس ولا ينتهي، واعلمي يا نفس أنه ليس للدين عوض ولا للإيمان بدل ولا للجسد خلف، ومن كانت مطيته الليل والنهار فإنه يسار به وإن لم يسر. فاتعظي يا نفس بهذه الموعظة واقبلي هذه النصيحة فإن من أعرض عن الموعظة فقد رضي بالنار وما أراك بها راضية ولا لهذه الموعظة واعية، فإن كانت القساوة تمنعك عن قبول الموعظة فاستعيني عليها بدوام التهجد والقيام، فإن لم تزل فبالمواظبة على الصيام، فإن لم تزل فبقلة المخالطة والكلام، فإن لم تزل فبصلة الأرحام واللطف بالأيتام، فإن لم تزل فاعلمي أنّ الله قد طبع على قلبك وأقفل عليه، وأنه قد تراكمت ظلمة الذنوب على ظاهره وباطنه، فوطني نفسك

قبل أن تخرجي منها على الاضطرار ولا تفرحي بما يساعدك من زهرات الدنيا، فرب مسرور مغبون) في سروره، **(ورب مغبون لا يشعر)** بغبنه. **(فويل لمن له الويل)** دركة من دركات جهنم، **(ثم لا يشعر يضحك ويفرح ويلهو ويمرح ويأكل ويشرب وقد حق له في كتاب الله أنه من وقود النار، فليكن نظرك يا نفس إلى الدنيا اعتباراً وسعيك لها اضطراراً ورفضك لها اختياراً وطلبك للآخرة ابتداراً)** فالمفر المفر قبل أن تسحب وتجر واسمعي النصيحة قبل حلول الفضيحة، **(ولا تكوني ممن يعجز عن شر ما أوتي ويبتغي الزيادة فيما بقي)** وأنى له الزيادة ولم يشكر، وقد قال الله تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ [إبراهيم: ٧] **(وينهى الناس ولا ينتهي)**. قال الله تعالى: ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم﴾ [البقرة: ٤٤] **(واعلمي يا نفس أنه ليس للدين عوض، ولا للإيمان بدل، ولا للجسد خلف. ومن كانت مطيته الليل والنهار فإنه يسار به وإن لم يسر)**. روى ابن عدي والديلمي وابن عساكر من حديث ابن عباس «الليل والنهار مطيتان فاركبوهما بلاغاً إلى الآخرة». **(فاتعظي يا نفس بهذه الموعظة واقبلي هذه النصيحة، فإن من أعرض عن الموعظة فقد رضي بالنار وما أراك بها راضية ولا لهذه الموعظة واعية، وإن كانت القساوة تمنعك عن قبول الموعظة فاستعيني عليها بدوام التهجد والقيام)** بالليل والناس نيام، فعسى أن تزول بذلك قساوة قلبك **(فإن لم تزل فالمواظبة على الصيام فإن الجوع يسد مجاري الشيطان في العروق، فإن لم تزل فبقلة المخالطة)** مع الناس **(والكلام، فإن لم تزل)** بذلك **(فبصلة الأرحام واللطف بالأيتام)** فإن ذلك يورث الرقة بالقلب، **(فإن لم تزل)** بذلك **(فاعلمي أن الله)** تعالى **(قد طبع على قلبك واقفل عليه وأنه قد تراكمت ظلمة الذنوب على ظاهره وباطنه، فوطني**

على النار فقد خلق الله الجنة وخلق لها أهلاً وخلق النار وخلق لها أهلاً فكل ميسر لما خلق له ، فإن لم يبقَ فيك مجال للوعظ فاقنطي من نفسك والقنوط كبيرة من الكبائر نعوذ بالله من ذلك فلا سبيل لك إلى القنوط ولا سبيل لك إلى الرجاء مع انسداد طرق الخير عليك ، فإن ذلك اعتذار وليس برجاء ، فانظري الآن هل يأخذك حزن على هذه المصيبة التي ابتليت بها وهل تسمح عينك بدمعة رحمة منك على نفسك فإن سمحت فمستقى الدمع من بحر الرحمة فقد بقي فيك موضع للرجاء فواظبي على النياحة والبكاء واستغيثي بأرحم الراحمين واشتكي إلى أكرم الأكرمين وأدمني الاستغاثة ولا تملي طول الشكاية لعله أن يرحم ضعفك ويغيثك ، فإن مصيبتك قد عظمت وبليتك قد تفاقمت وتماديك قد طال وقد انقطعت منك الحيل وراحت عنك العلل ، فلا مذهب ولا مطلب ولا مستغاث ولا مهرب ولا ملجأ ولا منجا إلا إلى مولاك ، فافزعي إليه بالتضرع واخشعي في تضرعك على قدر عظم جهلك وكثرة ذنوبك لأنه يرحم المتضرع الذليل ويغيث الطالب المتلهف ويجيب دعوة المضطر ، وقد أصبحت إليه اليوم مضطرة وإلى

نفسك على النار فقد خلق الله الجنة وخلق لها أهلاً وخلق النار وخلق لها أهلاً ، فكل ميسر لما خلق له) . روى الطبراني في الصغير والأوسط بسند ضعيف ، والخطيب من حديث أبي هريرة : « إن الله عز وجل خلق الجنة وخلق لها أهلاً بعشائرهم وقبائلهم لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، وخلق النار وخلق لها أهلاً بعشائرهم وقبائلهم لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم اعملوا فكل ميسر لما خلق الله » وقد تقدم . روى مسلم من حديث عائشة : « إن الله تعالى خلق الجنة وخلق النار فخلق لهذه أهلاً ولهذه اهلاً » . **(فإن لم يبق فيك مجال للوعظ فاقنطي من نفسك والقنوط من رحمة الله تعالى كبيرةمن الكبائر ، نعوذ بالله تعالى من ذلك)** كما تقدم في كتاب التوبة . **(فلا سبيل لك إلى القنوط ولا سبيل لك إلى الرجاء مع انسداد طرق الخير ، فإن ذلك اغترار وليس برجاء)** وقد سبق الكلام على ذلك في كتاب الرجاء ، **(فانظري الآن هل يأخذك حزن على هذه المصيبة التي ابتليت بها ، وهل تسمح عينك بدمعة رحمة منك على نفسك فإن سمحت فمستقى الدمع من بحر الرحمة فقد بقي فيك موضع للرجاء فواظبي على النياحة والبكاء ، واستغيثي بأرحم الراحمين ، واشتكي إلى أكرم الأكرمين ، وادمني الاستغاثة ولا تملي طول الشكاية لعله أن يرحم ضعفك ويعينك)** على حالك ، **(فإن مصيبتك قد عظمت وبليتك قد تفاقمت وتماديك قد طال ، وقد انقطعت منك الحيل وانزاحت عنك العلل فلا مذهب ولا مطلب ولا مستغاث ولا مهرب ولا منجا ولا ملجأ إلا إلى مولاك فافزعي إليه بالتضرع واخشعي في تضرعك على قدر عظم جهلك وكثرة ذنوبك لأنه يرحم المتضرع والذليل ويغيث الطالب المتلهف ويجيب دعوة المضطر)**

رحمته محتاجة وقد ضاقت بك السبل وانسدت عليك الطرق وانقطعت منك الحيل ولم تنجع فيك العظات ولم يكسرك التوبيخ. فالمطلوب منه كريم والمسؤول جواد والمستغاث به برّ رؤوف والرحمة واسعة والكرم فائض والعفو شامل وقولي يا أرحم الراحمين يا رحمن يا رحيم يا حليم يا عظيم يا كريم أنا المذنب المصر أنا الجريء الذي لا أقلع أنا المتمادي الذي لا أستحيي هذا مقام المتضرع المسكين والبائس الفقير والضعيف الحقير والهالك الغريق فعجل إغاثتي وفرجي وأرني آثار رحمتك وأذقني برد عفوك ومغفرتك وارزقني قوة عصمتك يا أرحم الراحمين. اقتداء بأبيك آدم عليه السلام؛ فقد قال وهب بن منبه لما أهبط الله آدم من الجنة إلى الأرض مكث لا ترقأ له دمعة فاطلع الله عز وجل عليه في اليوم السابع وهو محزون كئيب كظيم منكس رأسه فأوحى الله تعالى إليه: يا آدم ما هذا الجهد الذي أرى بك؟ قال: يا رب عظمت مصيبتي وأحاطت بي خطيئتي وأخرجت من

قال الله تعالى: ﴿أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء﴾ [النمل: ٦٢] **(وقد أصبحت اليوم مضطرة إلى رحمته محتاجة، وقد ضاقت بك السبل وانسدت عليك الطرق وانقطعت منك الحيل ولم تنجع فيك العظات ولم يكسرك التوبيخ)**. والحاصل أن العبد إذا حاسب نفسه فرآها خانت وضيعت لزمه أمور أحدها: أن يتدارك بالتوبة والجبر، فإن لم يستطع لغلبة الشهوة عالج تلك الشهوة بالدواء المعروف لها فإن لم تنكسر تلك الشهوة بالعلاج عاتبها ووبخها وقرر عندها جهلها وحماقتها، وأن تماديها وإصرارها يؤدي إلى هلاكها، فإن ارتدعت بذلك وإلا فالدعاء والاعتراف والالتجاء إلى الله تعالى. **(فالمطلوب منه كريم والمسؤول جواد والمستغاث به بر رؤوف والرحمة واسعة)** والفضل جزيل **(والكرم فائض والعفو شامل. وقولي يا أرحم الراحمين يا رحمٰن يا رحيم يا حليم يا عظيم يا كريم أنا المذنب المصر)** على ذنبي، **(أنا الجريء)** على معصيتك **(الذي لا أقلع)** عنها، **(أنا المتمادي الذي لا يستحيي، هذا مقام المتضرع المسكين والبائس الفقير والضعيف الحقير والهالك الغريق)** في بحر العصيان **(فعجل إغاثتي)** وأرحم مسكنتي وفاقتي **(و)** عجل **(فرجي)** وفرحي **(وأرني آثار رحمتك وأذقني برد عفوك ومغفرتك وأرزقني قوة عصمتك يا أرحم الراحمين)** كل ذلك مع مراعاة الآداب التي ذكرت في كتاب الأدعية **(اقتداء بأبيك آدم عليه السلام)** إذ قال: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ وهي الكلمات التي تلقاها في قول الأكثرين، **(فقد قال وهب بن منبه)** رحمه الله تعالى: **(لما أهبط الله آدم إلى الأرض من الجنة مكث لا ترقأ له دمعة)** أي لا تسكن عن الجريان، **(فأطلع الله عز وجل عليه في اليوم السابع)** من هبوطه **(وهو محزون كئيب كظيم)** ملآن من الحزن **(نكس رأسه)** حياء من ربه، **(فأوحى الله إليه: يا آدم ما هذا الجهد الذي أدى بك؟ قال: يا رب عظمت مصيبتي وأحاطت بي**

ملكوت ربي، فصرت في دار الهوان بعد الكرامة، وفي دار الشقاء بعد السعادة، وفي دار النصب بعد الراحة، وفي دار البلاء بعد العافية، وفي دار الزوال بعد القرار، وفي دار الموت والفناء بعد الخلود والبقاء، فكيف لا أبكي على خطيئتي؟ فأوحى الله تعالى إليه: يا آدم ألم اصطفك لنفسي وأحللتك داري وخصصتك بكرامتي وحذرتك سخطي، ألم أخلقك بيدي ونفخت فيك من روحي وأسجدت لك ملائكتي فعصيت أمري ونسيت عهدي وتعرضت لسخطي فوعزتي وجلالي لو ملأت الأرض رجالاً كلهم مثلك يعبدونني ويسبّحونني ثم عصوني لأنزلتهم منازل العاصين. فبكى آدم عليه السلام عند

خطيئتي وأخرجت من ملكوت ربي، فصرت في دار الهوان بعد الكرامة، وفي دار الشقاء بعد السعادة، وفي دار النصب بعد الراحة، وفي دار البلاء بعد العافية، وفي دار الزوال بعد القرار، وفي دار الموت والفناء بعد الخلود والبقاء، فكيف لا أبكي على خطيئتي؟ فأوحى الله تعالى إليه: يا آدم ألم أصطفك لنفسي وأحللتك داري وخصصتك بكرامتي وحذرتك سخطي؟ ألم أخلقك بيدي ونفخت فيك من روحي وأسجدت لك ملائكتي فعصيت أمري ونسيت عهدي وتعرضت لسخطي فوعزتي وجلالي لو ملأت الأرض رجالاً كلهم مثلك يعبدونني ويسبّحونني ثم عصونى لأنزلتهم منازل العاصين، فبكى آدم عند ذلك ثلاثمائة عام).

وروى ابن سعد عن ابن عباس قال: لما أهبط الله آدم من الجنة أنشأ يقول: ربي كنت جارك في دارك ليس لي رب غيرك ولا رقيب دونك، آكل فيها رغداً وأسكن حيث أحببت، فاهبطتني هذا الجبل المقدس فكنت أسمع أصوات الملائكة وأراهم كيف يحفون بالعرش وأجد ريح الجنة وطيبها، ثم اهبطتني إلى الأرض وحططتني إلى ستين ذراعاً فقد انقطع عني الصوب والنظر وذهب عني ريح الجنة، فأجابه الله تعالى: إن مصيبتك يا آدم فعلت ذلك بك. قال: فبكيا على ما فاتهما مائتي سنة ولم يأكلا ولم يشربا أربعين يوماً ولم يقرب حواء مائة سنة.

روى ابن عساكر عن ابن عباس قال: بكى آدم حين أهبط من الجنة بكاء لم يبكه أحد، فلو أن بكاء آدم وزن مع بكاء داود على خطيئته ما عدل بكاء آدم حين أخرج من الجنة ومكث أربعين سنة لا يرفع رأسه إلى السماء. وروى البيهقي في الشعب عن بريدة: لو وزن دموع آدم بجميع دموع ولده لرجح على دموع جميع ولده. وروى ابن سعد عن الحسن قال: بكى آدم على الجنة ثلاثمائة سنة.

وروى الطبراني في الأوسط وابن عساكر بسند ضعيف من حديث عائشة: لما أهبط الله آدم إلى الأرض قام وجاه الكعبة فصلى ركعتين فألهمه الله هذا الدعاء: اللهم إنك تعلم سريرتي وعلانيتي فاقبل معذرتي، وتعلم حاجتي فاعطني سؤلي، وتعلم ما في نفسي فاغفر لي ذنبي. اللهم إني أسألك

ذلك ثلاثمائة عام. وكان عبيد الله البجلي كثير البكاء يقول في بكائه طول ليله: إلهي أنا الذي كلما طال عمري زادت ذنوبي، أنا الذي كلما هممت بترك خطيئة عرضت لي

إيماناً يباشر قلبي ويقيناً حتى أعلم أنه لا يصيبني إلا ما كتبت لي ورضني بما قسمت لي، فأوحى الله إليه: يا آدم قد قبلت توبتك وغفرت ذنبك ولن يدعوني أحد بهذا الدعاء إلا غفرت ذنبه وكفيته المهم من أمره. ورواه الجندي في فضائل مكة نحوه. ورواه الأزرقي في تاريخ مكة، والطبراني في الأوسط، والبيهقي في الدعوات، وابن عساكر من حديث بريدة نحوه.

وروى عبد بن حميد عن عبدالله بن زيد في قوله تعالى ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات﴾ [البقرة: ٣٧] قال: لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي إنك أنت خير الغافرين. لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءاً وظلمت نفسي فارحمني فإنك أنت أرحم الراحمين، لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءاً وظلمت نفسي فتب علي إنك أنت التواب الرحيم. ذكر أنه عن النبي ﷺ ولكن شك فيه.

وروى هناد في الزهد عن سعيد بن جبير قال: لما أصاب آدم الخطيئة فزع إلى كلمة الإخلاص: لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك فذكر الجملة الثانية والأخيرة.

وروى ابن عساكر من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس، أن آدم عليه السلام طلب التوبة مائتي سنة حتى آتاه الله الكلمات ولقنه إياها. قال: بينا آدم جالس يبكي واضع راحته على جبينه إذ أتاه جبريل فسلم عليه فبكى آدم وبكى جبريل لبكائه، فقال له: يا آدم ما هذه البلية التي أجحف بك بلاؤها وشقاؤها، وما هذا البكاء؟ قال. يا جبريل وكيف لا أبكي وقد حولني ربي من ملكوت السموات إلى هوان الأرض، ومن دار المقامة إلى دار الظعن والزوال، ومن دار النعمة إلى دار البؤس والشقاء، ومن دار الخلد إلى دار الفناء. كيف أحصي يا جبريل هذه المصيبة؟ فانطلق جبريل إلى ربه فأخبره بمقالة آدم، فقال الله عز وجل: انطلق يا جبريل إلى آدم فقل: يا آدم ألم أخلقك بيدي؟ قال: بلى يا رب. قال: ألم أنفخ فيك من روحي؟ قال: بلى يا رب. قال: ألم أسجد لك ملائكتي؟ قال: بلى يا رب. قال: ألم أسكنك جنتي؟ قال: بلى يا رب. قال: ألم آمرك فعصيتني؟ قال: بلى يا رب. قال: وعزتي وجلالي وارتفاع مكاني لو أن ملء الأرض رجالاً مثلك ثم عصوني لأنزلتهم منازل العاصين، غير أنه يا آدم سبقت رحمتي غضبي قد سمعت بصوتك وتضرعك ورحمت بك وأقلت عثرتك، فقل لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك فذكر الجمل الثلاثة المتقدمة. قال: فذلك قوله تعالى ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه﴾ الآية.

(وكان عبيدالله البجلي) هكذا في النسخ بالباء الموحدة المفتوحة وجيم نسبة إلى بجلة وهي نسبة معروفة وفي بعضها النحلي بنون مفتوحة وحاء مهملة ساكنة نسبة إلى نحل العسل والله أعلم أيهما هو. **(كثير البكاء)** فكان **(يقول في بكائه طول ليله: إلهي أنا الذي كلما طال عمري زادت ذنوبي، أنا الذي كلما هممت بترك خطيئة عرضت لي شهوة أخرى، واعبيداه**

شهوة أخرى. واعبيداه خطيئة فلم تبل وصاحبها في طلب أخرى! واعبيداه إن كانت النار لك مقيلاً ومأوى! واعبيداه إن كانت المقامع لرأسك تهيأ! واعبيداه قضيت حوائج الطالبين ولعل حاجتك لا تقضى. وقال منصور بن عمار: سمعت في بعض الليالي بالكوفة عابداً يناجي ربه وهو يقول: يا رب وعزتك ما أردت بمعصيتك مخالفتك ولا عصيتك إذ عصيتك وأنا بمكانك جاهل ولا لعقوبتك متعرض ولا لنظرك مستخف ولكن سوّلت لي نفسي وأعانني على ذلك شقوتي وغرني سترك المرخى علي فعصيتك بجهلي وخالفتك بفعلي؛ فمن عذابك الآن من يستنقذني أو بحبل من اعتصم إن قطعت حبلك عني؟ واسوأتاه من الوقوف بين يديك غداً إذا قيل للمخفين جوزوا وقيل للمثقلين حطوا أمع المخفين أم مع المثقلين أحط؟ ويلي كلما كبرت سني كثرت ذنوبي ويلي كلما طال عمري كثرت معاصي فإلى متى أتوب وإلى متى أعود؟ أما آن لي أن

خطيئة لم تبل وصاحبها في طلب أخرى، واعبيداه إن كانت النار لك مقيلاً ومأوى، واعبيداه إن كانت المقامع لرأسك تهيأ، واعبيداه قضيت حاجة الطالبين ولعل حاجتك لا تقضى).

(**وقال**) أبو السري (**منصور بن عمار**) الواعظ الخراساني نزيل بغداد ترجمه القشيري في الرسالة توفي سنة ٣٣٥: (**سمعت في بعض الليالي بالكوفة عابداً يناجي ربه وهو يقول: يا رب وعزتك ما أردت بمعصيتك مخالفتك، ولا عصيتك إذ عصيتك وأنا بمكانك جاهل**) أي باطلاعك علي، (**ولا لعقوبتك متعرض، ولا لنظرك مستخف، ولكن سولت لي نفسي وأعانني على ذلك شقوتي وغرّني سترك المرخى علي فعصيتك بجهلي وخالفتك بفعلي، فمن عذابك الآن من يستنقذني أو بحبل من اعتصم إن قطعت حبلك عني. واسوأتاه من الوقوف بين يديك غداً إذا قيل للمخفين جوزوا وللمثقلين حطوا أمع المخفين أجوز أم مع المثقلين أحط. ويلي كلما كبرت سني كثرت ذنوبي! ويلي كلما طال عمري كثرت معاصي! قال: متى أتوب وإلى متى أعود؟ أما آن أن أستحي من ربي).**

ومن معاتبة النفس ما رواه أبو نعيم في الحلية فقال: حدثنا محمد بن إبراهيم، حدثنا الفضل بن محمد، حدثنا إسحاق بن إبراهيم قال: قال رجل للفضيل بن عياض: كيف أصبحت يا أبا علي وكان يثقل عليه كيف أصبحت وكيف أمسيت؟ فقال: في عافية. فقال: كيف حالك؟ فقال: عن أي حال تسأل عن حال الدنيا أو حال الآخرة؟ إن كنت تسأل عن حال الدنيا فإن الدنيا قد مالت بنا وذهبت بنا كل مذهب، وإن كنت تسأل عن حال الآخرة فكيف ترى حال من كثرت ذنوبه وضعف عمله وفني عمره ولم يتزود لمعاده ولم يتأهب للموت ولم يتصنع للموت ولم يتشمر للموت ولم يتزين للموت وتزين للدنيا. هيه ـ وقد يحدث يعني نفسه ـ واجتمعوا حولك يكتبون عنك بخ

أستحيي من ربي! فهذه طرق القوم في مناجاة مولاهم وفي معاتبة نفوسهم وإنما مطلبهم من المناجاة الاسترضاء ومقصدهم من المعاتبة التنبيه والاسترعاء، فمن أهمل المعاتبة والمناجاة لم يكن لنفسه مراعياً ويوشك أن لا يكون الله تعالى عنه راضياً والسلام.

تم كتاب المحاسبة والمراقبة. يتلوه كتاب التفكر إن شاء الله تعالى، والحمد لله وحده وصلاته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه.

فقد تفرغت للحديث، ثم قال: هاه وتنفس طويلاً ويحك وأنت تحسن تحدث أو أنت أهل أن يحمل عنك. استحي يا أحمق بين الجمعين لولا قلة حيائك وصفاقة جهلك ما جلست تحدث، وأنت أنت أما تعرف نفسك أما تذكر ما كنت وكيف كنت، أما لو عرفوك ما جلسوا إليك ولا كتبوا عنك ولا تسمعوا منك شيئاً أبداً، فيأخذ في مثل هدا. ثم يقول: ويحك أما تذكر الموت أما للموت في قلبك موضع ما تدري متي تؤخذ فيرمى بك في الآخرة فتصير في القبر وضيقه ووحشته، أما رأيت قبراً قط، أما رأيت حين دفنوه، أما رأيت كيف سلوه في حفرته وهالوا عليه التراب والحجارة. ثم قال: ما ينبغي لك أن تتكلم بفمك كله يعني نفسه. تدري من يكلم بفمه كله. عمر بن الخطاب كان يطعمهم الطيب ويأكل الغليظ ويكسوهم اللين ويلبس الخشن، وكان يعطيهم حقوقهم ويزيدهم. أعطى رجلاً عطاءه أربعة آلاف درهم وزاده ألفاً فقيل له: ألا تزيد ابنك كما زدت هذا؟ قال: إن أبا هذا ثبت يوم أحد ولم يثبت أبو هذا.

(فهذه طريق القوم في مناجاة مولاهم وفي معاتبة نفوسهم، وإنما مطلبهم من المناجاة الاسترضاء) أي طلب الرضا من ربهم، **(ومقصدهم من المعاتبة التنبيه والإسترعاء، فمن أهمل المعاتبة والمناجاة لم يكن لنفسه مراعياً ويوشك أن لا يكون الله تعالى عنه راضياً والسلام).**

وبه تم شرح كتاب المحاسبة والمراقبة، والحمد لله الذي به تتم الصالحات وبذكره تتنزل البركات، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه الكرام الهداة.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: نجز ذلك في الساعة الرابعة من ليلة الثلاثاء سادس صفر الخير من شهور سنة ١٢٠١ على يد مؤلفه الفقير إلى مولاه محمد مرتضى الحسيني أبي الفيض غفرت ذنوبه وسترت عيوبه بمنه وكرمه وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم آمين آمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم الله ناصر كل صابر

الحمد لله الذي لا يضره المنع ولا يكديه الإعطاء، إذ كل معط منتقص سواه وكل مانع مذموم ما خلاه، هو المنان بفوائد النعم، وعوائد المزيد والقسم، وليس بما سئل بأجود منه بما لم يسأل، الأوّل الذي لم يكن له قبل فيكون شيء قبله، والآخر الذي ليس له بعد فيكون شيء بعده، والرادع أناسي الأبصار من أن تناله أو تدركه، ما اختلف عليه دهر فيختلف منه الحال، ولا كان في مكان فيجوز عليه الانتقال، وهو القادر الذي إذا ارتمت الأوهام لتدرك منقطع قدرته، وحاول الفكر المبرأ من خطر الوساوس أن يقع عليه في عميقات غيوب ملكوته، وتولهت القلوب إليه لتجري في كيفية صفاته، وغمضت مداخل العقول في حيث لا تبلغه الصفات لتنال علم ذاته، ردعها وهي تجوب، مهاوي سدف الغيوب، متخلصة إليه سبحانه فرجعت إذ جبهت معترفة بأنه لا ينال بجور الاعتساف كنه معرفته، ولا تخطر ببال أولي الروايات خاطرة من تقدير جلال عزته، الذي ابتدع الخلق على غير مثال امتثله، ولا مقدار احتذى عليه من خالق معبود كان قبله وأرانا من ملكوت قدرته، وعجائب ما نطقت به آثار حكمته، واعتراف الحاجة من الخلق إلى أن يقيمها بمساك قوته، ما دلنا باضطرار قيام الحجة على معرفته وظهرت في البدائع التي أحدثها آثار صنعته واعلام حكمته، فصار كل ما خلق حجة له ودليلاً عليه، وإن كان خلقاً صامتاً فحجته بالتدبير ناطقة، ودلالته على المبدع قائمة، قدر ما خلق فاحكم تقديره، ودبره فألطف تدبيره، ووجه لوجهته فلم يتعد لحدود منزلته ولم يقصر دون الانتهاء إلى غايته، ولم يستصعب إذ أمر بالمضي على إرادته وكيف وإنما صدرت الأمور من مشيئته، المنشىء أصناف الأشياء بلا روية فكر آل إليها، ولا قريحة غريزة أضمر عليها، ولا تجربة أفادها من حوادث الدهور، ولا شريك أعانه على ابتداع عجائب الأمور، فأقام منها أودها، ونهج حدودها ولألأم بقدرته بين متضادها، ووصل أسباب قرائنها، وفرقها أجناساً مختلفات، في الحدود والأقدار والغرائز والهيئات، بدايا خلائق أحكم صنعها، وفطرها على ما أراد وابتدعها، عالم السر من ضمائر المضمرين ونجوى المتخافتين، وخواطر رجم الظنون وعقد عزيمات اليقين، ومسارق إيماض الجفون وما ضمنته أكناف القلوب، وغيابات الغيوب، وما أهبطت لاستراقه مصائخ الأسماع ومصائف الذر ومشاتي الهوام، ورجع الحنين من الوالهات وهمس الأقدام، ومنفسخ الثمرة من ولائج غلف الاكمام ومنقمع الوحوش من غيران الجبال وأوديتها، ومختبأ البعوض بين سوق الأشجار وألحيتها، ومغرز الأوراق من الأفنان ومحط الأمشاج من مسارب الأصلاب وناشئة الغيوم ومتلاحمها، ودرور قطر السحاب وتراكمها وما تسقى الأعاصير بذيولها، وتعفو الأمطار بسيولها، وعوم نبات الأرض في كثبان الرمال، ومستقر

كتاب التفكر وهو الكتاب التاسع
من ربع المنجيات
من كتب إحياء علوم الدين
بسم الله الرحمن الرحيم

ذوات الأجنحة بذرى شناخيب الجبال، وتغريد ذوات المنطق في دياجير الأوكار، وما أودعته الأصداف وحضنت عليه أمواج البحار، وما غشيته سدفة ليل أو ذر عليها شارق نهار، وما اعتقبت عليه أطباق الدياجير وسبحات النور وأثر كل خطوة، وحس كل حركة ورجع كل كلمة وتحريك كل شفة، ومستقر كل نسمة ومثقال كل ذرة، وهماهم كل نفس هامة، وما عليها من ثمر شجرة أو ساقط ورقة أو قرارة نطفة، أو نقاعة دم ومضغة، أو ناشئة خلق وسلالة، لم تلحقه في ذلك كلفة، ولا اعترضته في حفظ ما ابتدع من خلقه عارضة ولا اعترته في تنفيذ الأمور وتدابير المخلوقين ملالة ولا فترة، بل نفذ فيهم علمه، وأحصاهم عدده، ووسعهم عدله وغمرهم فضله، مع تقصيرهم عن كنه ما هو أهله، فتبارك الله الذي لا يبلغه بعد الهمم، ولا يناله حسن الفطن، أحمده حمد موحد أفرده بالتوحيد ولم ير مستحقاً لهذه المحامد غيره، وأشهد أن لا إلـه إلا الله الذي لا خير إلا خيره، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وصفيه وخليله، الذي أخرجه من أفضل المعادن منبتاً وأعز الأرومات مغرساً، من الشجرة التي صدع منها أنبياءه وانتجب منها أمناءه، عترتـه خير العتر، وأسرته خير الأسر، وشجرته خير الشجر، نبتت في حرم وبسقت في كرم، لها فروع طوال، وثمر لا ينال، فهو إمام من اتقى، وبصيرة من اهتدى، سراج لمع ضوءه، وشهاب سطع نوره، وزند برق لمعه سيرته القصد وسنته الرشد، وكلامه الفصل، وحكمه العدل. صلى الله عليه وعلى آله الأتقياء الأبرار وأصحابه الأماثل الأخيار، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى ما بعد يوم القرار، وسلم تسليماً كثيراً أمابعد فهذا شرح:

كتاب التفكر

وهو التاسع والثلاثون من كتب إحياء علوم الدين لإمام أئمة المسلمين وصدر صدور القادة المتقين حجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي سقى الله جدثه بعهاد صوب الغفران المتوالي، يوضح منه ما أشكل ويفصح منه ما أبهم، ويفصل منه ما أجمل، ويبين المعنى المراد من سياقاته على الوجه الأكمل ولم آل جهداً في تتبع مواقع إشاراته على سبيل الاختصار، وتهذيب معالم عباراته في مثارات الاعتبار شرعت فيه والأفكار بتواتر الانكاد مفرقة، والخواطر هذه مغربة وهذه مشرقة، كيف وقامت نواعق الفتن على ساق، وأدلهمت الخطوب وعز الإرفاق، والله أرجو كفاية كل مهم، ودفاع الخطب الملم وإزاحة الطارق المدلهم، أنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير.

قال المصنف رحمه الله تعالى: **(بسم الله الرحمن الرحيم)**

الحمد لله الذي لم يقدر لانتهاء عزته نحواً ولا قطراً، ولم يجعل لمراقي أقدام الأوهام ومرمى سهام الأفهام إلى حمى عظمته مجرى، بل ترك قلوب الطالبين في بيداء كبريائه والهة حيرى، كلما اهتزت لنيل مطلوبها ردتها سبحات الجلال قسراً، وإذا همت بالانصراف آيسة نوديت من سرادقات الجمال صبراً صبراً، ثم قيل لها أجيلي في ذل العبودية منك فكراً لأنك لو تفكرت في جلال الربوبية لم تقدري له قدراً، وإن طلبت وراء الفكر في صفاتك أمراً فانظري في نعم الله تعالى وأياديه كيف توالت عليك تترى، وجدّدي لكلِ نعمة منها ذكراً وشكراً، وتأملي في بحار المقادير كيف فاضت على العالمين خيراً وشراً، ونفعاً وضراً، وعسراً ويسراً، وفوزاً وخسراً، وجبراً وكسراً، وطياً ونشراً، وإيماناً وكفراً، وعرفاناً ونكراً، فإن جاوزت النظر في الأفعال إلى النظر في

(**الحمد لله الذي لم يقدر لانتهاء عزته نحواً ولا قطراً**) أي لم يجعل لغلبته الآتية على كل الظاهر والباطن جهة ولا ناحية يقال: نحا نحو كذا أي قصد جهته، قال الشاعر:

نحونـــا نحو دارك يـــا حبيبي وجـدنـا نحو ألـف مـن رقيـب

والقطر: بالضم الناحية والجمع الأقطار، يقال: بلغ أنحاه وأقطاره، (**ولم يجعل لمراقي أقدام الأوهام ومرمى سهام الأفهام إلى عظمته مجرى**) أي عظمته تعالى جلت عن أن ترقى إليها الأوهام بأقدامها أو ترمي إليها الأفهام بسهامها، فليس في مسارح ميادينها لها مجرى لقصورها عن إدراك كنه العظمة، (**بل ترك قلوب الطالبين في بيداء**) أي صحراء (**كبريائه والهة حيرى**) أي متحيرة جمع حيران كسكرى وسكران والوله محركة ذهاب العقل من شدة الحزن (**كلما اهتزت لنيل مطلوبها ردتها سبحات الجلال**) أي نوره وبهاؤه (**قسراً**) أي قهراً يشير إلى الحديث المتقدم ذكره « **إن لله سبعين حجاباً من نور وظلمة لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه** كل من أدركه بصره». (**وإذا همت بالانصراف آيسة**) من نيل المطلوب (**نوديت من سرادقات الجمال صبراً**) أيها الطالب (**صبراً**) أي عليك بالصبر في سلوكك ولا تيأس واثبت فيما أنت عليه، (**وقيل لها**) أي للقلوب: (**اجيلي في ذل العبودية منك فكراً**) وإجالة الفكر إدارته (**لأنك لو تفكرت في جلال الربوبية لم تقدري له قدراً**) لقوله تعالى: ﴿ وما قدروا الله حق قدره﴾ [الأنعام: ٩١] (**وإن طلبت وراء الفكر في صفاتك امراً فانظري في نعم الله تعالى**) الشاملة (**وأياديه**) الكاملة (**كيف توالت عليك**) أي تتابعت (**تترى**) بعضها وراء بعض (**وجددي لكل نعمة منها ذكراً وشكراً**) بأن تذكريها ثم تشكري عليها لقوله تعالى: ﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾ [البقرة: ١٥٢] (**وتأملي في بحار المقادير**) جمع المقدور وهو ما قدره الله تعالى على الخلق قبل أن يخلق العرش والكرسي واللوح والقلم، (**كيف فاضت على العالمين**) وشملتهم (**خيراً وشراً ونفعاً وضراً وعسراً ويسراً وفوزاً وخسراً وجبراً وكسراً وطياً ونشراً وإيماناً وكفراً وعُرفاً ونكراً**)، فهذه كلها من مقدورات الله

الذات فقد حاولت أمراً إمراً ، وخاطرت بنفسك مجاوزة حدّ طاقة البشرية ظلماً وجوراً ، فقد انبهرت العقول دون مبادىء إشراقه وانتكصت على أعقابها اضطراراً وقهراً ، والصلاة على محمد سيد ولد آدم وإن كان لم يعدّ سيادته فخراً ، صلاة تبقى لنا في عرصات القيامة عدّة وذخراً ، وعلى آله وأصحابه الذين أصبح كل واحد منهم في سماء الدين بدراً ولطوائف المسلمين صدراً ، وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد ؛ فقد وردت السنة بأن : « تفكر ساعة خير من عبادة سنة » وكثر الحث في كتاب الله تعالى على التدبر والاعتبار والنظر والافتكار ، ولا يخفى أنّ الفكر هو مفتاح

سبحانه يجب الإيمان بها والتأمل في أسرارها ، (**فإن جاوزت**) النظر منك (**في الأفعال الإلهية** (**إلى النظر في الذات فقد حاولت أمراً إمراً**) أي صعباً ، (**وخاطرت بنفسك مجاوزة حدّ الطاقة البشرية ظلماً وجوراً ، فقد انبهرت العقول**) أي تحيرت (**دون مبادىء إشراقه**) فضلاً عن مناهيه ، (**وانتكصت**) أي كرت راجعة على أعقابها (**اضطراراً وقهراً ، والصلاة على**) سيدنا محمد (**سيد ولد آدم**) الأوّلين منهم والآخرين ، (**وإن كان**) هو (**لم يعد سيادته فخراً**) أي لم يفتخر بها يشير إلى ما ورد « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » (**صلاة تبقى لنا**) أي مثبتة في صحائف أعمالنا (**في عرصات القيامة**) عند وزن الأعمال (**عدة وذخراً**) أي وسيلة للنجاة من الهلاك ، (**وعلى آله وأصحابه الذين أصبح كل واحد منهم في سماء الدين بدراً**) يستضاء به ويهتدي بنوره ، (**ولطوائف المسلمين**) أي لجماعتهم (**صدراً**) أي مقدماً يقتدي به ، (**وسلم**) تسليماً (**كثيراً**) كثيراً .

(**أما بعد : فقد وردت السنّة بأن « تفكر ساعة خير من عبادة سنة »**) قال العراقي : رواه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب العظمة من حديث أبي هريرة بلفظ : « ستين سنة » بإسناد ضعيف . ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات . ورواه الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بلفظ : « ثمانين سنة » وإسناده ضعيف جداً . ورواه أبو الشيخ من قول ابن عباس بلفظ : « خير من قيام ليلة » اهـ .

قلت : لكن لفظ أبي الشيخ فكرة ساعة هكذا رواه عن أبي هريرة . ولفظ الديلمي : « تفكر ساعة في اختلاف الليل والنهار خير من عبادة ثمانين سنة » وللديلمي من وجه آخر من حديث أنس نحو قول ابن عباس . ورواه أحمد بن صالح في كتاب التبصرة عن أنس مرفوعاً بلفظ : « خير من قيام ليلة » . ورواه أبو الشيخ أيضاً في كتاب العظمة عن نهشل عن الضحاك عن ابن عباس رفعه : « التفكر في عظمة الله وجنته وناره ساعة خير من قيام ليلة وخير الناس المتفكرون في ذات الله وشرهم من لا يتفكر في ذات الله » .

(**وكثر الحث في كتاب الله تعالى على التدبر والاعتبار والنظر والافتكار**) هو افتعال

الأنوار ومبدأ الاستبصار وهو شبكة العلوم ومصيدة المعارف والفهوم، وأكثر الناس قد عرفوا فضله ورتبته لكن جهلوا حقيقته وثمرته ومصدره ومورده ومجراه ومسرحه وطريقه وكيفيته، ولم يعلم أنه كيف يتفكر وفيما ذا يتفكر ولماذا يتفكر وما الذي يطلب به أهو مراد لعينه أم لثمرة تستفاد منه؟ فإن كان لثمرة فما تلك الثمرة أهي من العلوم أو من الأحوال أو منها جميعاً؟ وكشف جميع ذلك مهم ونحن نذكر أوّلاً فضيلة التفكر. ثم حقيقة التفكر وثمرته. ثم مجاري الفكر ومسارحه. إن شاء الله تعالى.

فضيلة التفكر:

قد أمر الله تعالى بالتفكر والتدبر في كتابه العزيز في مواضع لا تحصى وأثنى على المتفكرين فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وقعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ ويتَفَكَّرونَ في خَلق السَّمَواتِ والأرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هذَا باطِلاً﴾ [آل عمران: ١٩١] وقد قال

من الفكر بمعنى التفكر. **(ولا يخفى أن الفكر هو مفتاح الأنوار ومبدأ الاستبصار وهو شبكة العلوم ومصيدة المعارف والفهوم)** أي به تستفاد العلوم وبه تحصل المعارف والفهوم، **(وأكثر الناس قد عرفوا فضله ورتبته)** لما يتلى على أسماعهم من تكرار ذكره في كتاب الله تعالى والأخبار النبوية، **(لكن جهلوا حقيقته وثمرته ومصدره ومورده ومجراه ومسرحه وطريقه وكيفيته، ولم يعلم أنه كيف يتفكر وفيما ذا يتفكر ولماذا يتفكر وما الذي يطلب به أهو مراد لعينه أم لثمرة تستفاد منه؟ وإن كان لثمرة فما تلك الثمرة أهي من العلوم أو من الأحوال)** المستفادة من العلوم **(أو منهما جميعاً، وكشف جميع ذلك مهم ونحن نذكر أولاً فضيلة التفكر ثم حقيقة التفكر وثمرته. ثم مجاري الفكر ومسارحه إن شاء الله تعالى)**.

فضيلة التفكر

اعلم أنه **(قد أمر الله تعالى بالتفكر والتدبر في كتابه العزيز في مواضع لا تحصى وأثنى على المتفكرين فقال)**: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب، **(الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم)** أي يذكرونه دائماً على الحالات قائمين وقاعدين ومضطجعين **(ويتفكرون في خلق السموات والأرض)** استدلالاً واعتباراً **(ربنا ما خلقت هذا باطلاً﴾)** على إرادة القول أي يتفكرون قائلين ذلك، وهذا إشارة إلى المتفكر فيه أو الخلق على أنه أريد به المخلوق من السموات والأرض والمعنى ما خلقته عبثاً ضائعاً من غير حكمة، بل خلقته لحكم عظيمة من جملتها: أن يكون مبتدأ الوجود الإنساني وسبباً لمعاشه ودليلاً يدله على معرفتك ويحثه على طاعتك لينال الحياة الأبدية والسعادة السرمدية في جوارك.

ابن عباس رضي الله عنهما : إن قوماً تفكروا في الله عز وجل ، فقال النبي ﷺ : « تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا في الله فإنكم لن تقدروا قدره ». وعن النبي ﷺ أنـه خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال : « ما لكم لا تتكلمون ؟ » فقالوا نتفكر في خلق الله عز وجل قال : « فكذلك فافعلوا ، تفكروا في خلقه ولا تتفكروا فيه فإن بهذا المغرب أرضاً بيضاء ، نورها بياضها وبياضها نورها ، مسيرة الشمس أربعين يوماً بها خلق من خلق الله عز وجل لم يعصوا الله طرفة عين ، قالوا يا رسول الله فأين الشيطان منهم ؟ قال : « ما يدرون خلق الشيطان أم لا » قالوا : من ولد آدم ؟ قال : « لا يدرون خلق آدم

(وقد قال ابن عباس) رضي الله عنه : **(إن قوماً تفكروا في الله عز وجل ، فقال النبي ﷺ : « تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا في الله فإنكم لن تقدروا قدره »)** قال العراقي : رواه أبو نعيم في الحلية بالمرفوع منه بإسناد ضعيف ، ورواه الأصبهاني في الترغيب والترهيب من وجه آخر أصح منه . ورواه الطبراني في الأوسط ، والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر وقال : هذا إسناد فيه نظر .

قلت : فيه الوازع بن نافع متروك انتهى .

قلت : حديث ابن عمر لفظه : « تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله » هكذا رواه ابن أبي الدنيا في كتاب التفكر ، وأبو الشيخ في العظمة ، والطبراني في الأوسط ، وابن عدي وابن مردويه والبيهقي وضعفه والأصبهاني وأبو نصر في الإبانة وقال غريب . ورواه أبو الشيخ من حديث ابن عباس : « تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق فإنكم لا تقدروا قدره ». ورواه ابن النجار والرافعي من حديث أبي هريرة : « تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله ». وقال عثمان بن أبي شيبة في كتاب العرش له : حدثنا وهب بن بقية ، حدثنا خالد بن عبدالله ، عن عطاء عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : « تفكروا في كل شيء ولا تفكروا في الله فإن بين السماء السابعة إلى كرسيه ألف نور وهو فوق ذلك ». ورواه كذلك أبو الشيخ وابن مردويه وأبو نصر السجزي والبيهقي في الأسماء والصفات . وروى أبو الشيخ من حديث أبي ذر « تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فتهلكوا ».

(وعن النبي ﷺ أنه خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال مالكم لا تتكلمون فقالوا : نتفكر في خلق الله عز وجل . قال : فكذلك فافعلوا تفكروا في خلقه ولا تتفكروا فيه فإن بهذا المغرب أرضاً بيضاء نورها بياضها وبياضها نورها مسيرة الشمس أربعين يوماً بها خلق من خلق الله عز وجل ولم يعصوا الله عز وجل طرفة عين » . قالوا : يا رسول الله فأين الشيطان منهم ؟ قال : « ما يدرون خلق الشيطان أم لا . قالوا : من ولد آدم ؟ قال : « لا يدرون خلق آدم أم لا ») قال العراقي : رويناه في جزء ثم ترك البياض ولم

أم لا »، وعن عطاء قال: انطلقت يوماً أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة رضي الله عنها فكلمتنا وبيننا وبينها حجاب فقالت: يا عبيد ما يمنعك من زيارتنا؟ قال قول رسول الله ﷺ: « زر غباً تزدد حباً »، قال ابن عمير: فأخبرنا بأعجب شيء رأيته من رسول الله

يعين الجزء ولا من رواه، وقد ذكره المصنف في كتاب الجواهر والدرر من حديث ابن عباس: « إن لله أرضاً بيضاء مسيرة الشمس فيها ثلاثون وهي مثل الدنيا ثلاثون مرة مشحونة خلقاً لا يعلمون أن الله تعالى يعصى في الأرض ولا يعلمون أن الله تعالى خلق آدم وإبليس » انتهى.

قلت: رواه أبو الشيخ في العظمة من حديث أبي هريرة: « إن لله تعالى أرضاً من وراء أرضكم هذه بيضاء نورها وبياضها مسيرة شمسكم هذه أربعين يوماً فيها عباد لله لم يعصوه طرفة عين ما يعلمون أن الله خلق الملائكة ولا آدم ولا إبليس هم قوم يقال لهم الروحانيون خلقهم الله من ضوء نوره ».

وروى أبو نعيم في الحلية من طريق إسماعيل بن عياش، عن الأحوص بن حكيم، عن شهر، عن ابن عباس أنه ﷺ خرج على أصحابه فقال: « ما جمعكم »؟ فقالوا: اجتمعنا نذكر ربنا ونتفكر في عظمته. فقال: « تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا في الله فإنكم لن تقدروا قدره » الحديث وفيه ذكر اسرافيل، وهو الذي أشار إليه العراقي في الذي قبله وأن إسناده ضعيف.

وروى أحمد ومن طريقه الطبراني ثم صاحب الحلية من طريق عبد الجليل بن عطية، عن شهر، عن عبدالله بن سلام قال: خرج رسول الله ﷺ على ناس من أصحابه وهم يتفكرون في خلق الله فقال لهم: « فيم كنتم تتفكرون »؟ قالوا: نتفكر في خلق الله. فقال: « لا تتفكروا في الله وتفكروا في خلق الله فإن ربنا خلق ملكاً قدماه في الأرض السابعة السفلى ورأسه قد جاوز السماء العليا من بين قدميه إلى كعبيه مسيرة ستمائة عام، وما بين كعبيه إلى أخمص قدميه مسيرة ستمائة عام الخالق أعظم من الخلق ».

وروى ابن أبي الدنيا عن عثمان بن أبي دهرس قال، بلغني أن رسول الله ﷺ انتهى إلى أصحابه وهم سكوت لا يتكلمون فقال: « ما لكم لا تتكلمون »؟ قالوا: نتفكر في خلق الله. قال: « كذلك فافعلوا تفكروا في خلق الله ولا تفكروا فيه ». قال الحافظ السخاوي في المقاصد: وهذه الأخبار أسانيدها ضعيفة لكن اجتماعها يكسب قوة، والمعنى صحيح.

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة: « لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال هذا خلق الله الخلق فمن خلق الله فمن وجد من ذلك شيئاً فليقل آمنت بالله ».

(وعن عطاء) بن أبي رباح المكي الفقيه الثقة روى له الجماعة **(قال: انطلقت أنا وعبيد بن عمير)** بن قتادة الليثي قاص أهل مكة ثقة روى له الجماعة **(إلى عائشة رضي الله عنها وبينها وبيننا حجاب فقالت: يا عبيد ما يمنعك من زيارتنا؟ قال: قول رسول الله ﷺ: « زرغباً تزدد حباً » قال ابن عمير: فاخبرنا بأعجب شيء رأيتيه من رسول الله ﷺ . قال: فبكت**

ﷺ قال: فبكت وقالت كل أمره كان عجباً، أتاني في ليلتي حتى مس جلده جلدي، ثم قال: «ذريني أتعبد لربي عز وجل: «فقام إلى القربة فتوضأ منها ثم قام يصلي فبكى حتى بلَّ لحيته، ثم سجد حتى بلَّ الأرض، ثم اضطجع على جنبه حتى أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح، فقال: يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «ويحك يا بلال وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل الله تعالى علي في هذه الليلة ﴿إنَّ في خَلَقِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ واختِلاَفِ اللَّيلِ والنَّهارِ لآياتٍ لأُولي الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، ثم قال: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها» فقيل للأوزاعي ما غاية التفكر فيهن؟ قال يقرأهن ويعقلهن. وعن محمد بن واسع أن رجلاً من أهل البصرة

وقالت: كل أمره كان عجباً أتاني في ليلتي حتى مسّ جلده جلدي ثم قال: «ذريني أتعبد لربي عز وجل» . فقام إلى القربة فتوضأ منها ثم قام يصلي فبكى حتى بلّ لحيته، ثم سجد حتى بلّ الأرض، ثم اضطجع على جنبه حتى أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح، فقال: يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «ويحك يا بلال وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل الله عليّ في هذه الليلة: ﴿إنَّ في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾» ثم قال: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها») قال العراقي: تقدم في كتاب الصبر والشكر وأنه من رواية عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء انتهى.

قلت: ورواه كذلك عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه وابن أبي الدنيا في التفكر وابن عساكر كلهم عن عطاء نحوه، وفيه ثم قام فصلى فبكى حتى سال دموعه على صدره، ثم ركع فبكى، ثم سجد فبكى، ثم رفع رأسه فبكى، فلم يزل كذلك حتى جاء بلال فآذنه بالصلاة.

وأما حديث: «زرغباً تزدد حباً» فرواه البزار والحرث بن أبي أسامة في مسنديها. ومن طريق ثانيهما أبو نعيم في الحلية من طريق طلحة بن عمر، وعن عطاء عن أبي هريرة به مرفوعاً، وكذا أخرجه العسكري في الأمثال، والبيهقي في الشعب. وقال: إن طلحة غير قوي، وقد روي هذا الحديث بأسانيد هذا أمثلها. وقال العقيلي: هذا الحديث إنما يعرف بطلحة وقد تابعه قوم نحوه في الضعف، وإنما يروى هذا عن عطاء عن عبيد بن عمير قوله انتهى.

قال الحافظ السخاوي يشير إلى ما رواه ابن حبان في صحيحه عن عطاء قال: دخلت أنا وعبيد بن عمير على عائشة فقالت لعبيد: قد آن لك أن تزورنا، فقال: أقول لك يا أمه كما قال الأول: «زرغباً تزددَ حباً» فقالت: دعونا من بطالتكم هذه وذكر حديثاً.

(فقيل للاوزاعي) عبد الرحمن بن عمرو الفقيه رحمه الله تعالى: **(ما غاية التفكر فيهن؟ قال: يقرأهن وهو يعقلهن)** رواه ابن أبي الدنيا في كتاب التفكر.

(وعن محمد بن واسع) البصري رحمه الله تعالى **(أن رجلاً من أهل البصرة ركب إلى أم**

ركب إلى أم ذرّ بعد موت أبي ذرّ فسألها عن عبادة أبي ذرّ فقالت: كان نهاره أجمع في ناحية البيت يتفكر. وعن الحسن قال: تفكر ساعة خير من قيام ليلة. وعن الفضيل قال: الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك. وقيل لإبراهيم إنك تطيل الفكرة، فقال الفكر، مخ العمل وكان سفيان بن عيينة كثيراً ما يتمثل بقول القائل:

إذا المرء كانت له فكرة ففي كل شيء له عبرة

ذر) وهي امرأة أبي ذر. قال الحافظ: وقفت على حديث فيه التصريح بأنها أسلمت مع أبي ذر في أول الإسلام أخرجه الفاكهي في تاريخ مكة (**بعد موت أبي ذر**) رضي الله عنه: (**فسألها عن عبادة أبي ذر فقالت: كان نهاره أجمع في ناحية البيت يتفكر**) رواه أبو نعيم في الحلية فقال: حدثنا عبدالله بن محمد، حدثنا عبدالله بن محمد بن عمران، حدثنا حسين المروزي، حدثنا الهيثم بن جميل، حدثنا صالح المري، عن محمد بن واسع أن رجلاً من البصرة ركب إلى أم ذر بعد وفاة أبي ذر يسألها عن عبادة أبي ذر فأتاها فقال: جئتك لتخبريني عن عبادة أبي ذر. قالت: كان النهار أجمع خالياً يتفكر.

(**وعن الحسن**) البصري رحمه الله تعالى (**قال: تفكر ساعة خير من قيام ليلة**) رواه أبو نعيم في الحلية قال: حدثنا أبي حدثنا أحمد بن محمد، حدثنا عبدالله بن سفيان، حدثنا داود بن عمر الضبي، حدثنا فضيل بن عياض، عن هشام، عن الحسن فذكره، وهذا قد رواه أيضاً أبو الشيخ في العظمة من قول ابن عباس، ورواه أحمد بن صالح في كتاب التبصرة من حديث أنس وقد تقدم قريباً.

(**وعن الفضيل**) بن عياض رحمه الله تعالى (**قال: الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك. وقيل لإبراهيم**) بن أدهم: (**إنك تطيل الفكرة، فقال: الفكرة مخ العمل**) هذان القولان أوردهما أبو نعيم في الحلية بسند واحد فقال: حدثنا عبدالله بن محمد ومحمد بن علي قالا: حدثنا أبو يعلى، حدثنا عبد الصمد بن يزيد قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول قيل لإبراهيم: إنك لتطيل الفكرة. قال: الفكرة مخ العمل. قال: وسمعت الفضيل يقول قال الحسن: الفكرة مرآة تريك حسناتك وسيآتك. (**وكان سفيان بن عيينة**) رحمه الله تعالى (**كثيراً ما يتمثل ويقول:**

إذا المرء كانت له فكرة ففي كل شيء له عبرة)

رواه أبو نعيم في الحلية فقال: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن محمد بن عمر، حدثنا عبدالله بن محمد ابن عبيد، حدثنا إسحاق بن إبراهيم قال: سمعت سفيان بن عيينة يقول: الفكرة نور تدخله قلبك. قال عبدالله: وحدثنا أبو حفص القرشي قال: كان سفيان بن عيينة ربما يتمثل:

إذا المرء كانت له فكرة ففي كل شيء له عبرة

قال: وبلغني عن سفيان بن عيينة قال: التفكر مفتاح الرحمة ألا ترى أنه يتفكر فيتوب. (**وعن**

وعن طاوس قال: قال الحواريون لعيسى ابن مريم، يا روح الله هل على الأرض اليوم مثلك؟ فقال: نعم من كان منطقه ذكراً وصمته فكراً ونظره عبرة فإنه مثلي. وقال الحسن: من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو، ومن لم يكن سكوته تفكراً فهو سهو، ومن لم يكن نظره اعتباراً فهو لهو، وفي قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦] قال أمنع قلوبهم التفكر في أمري. وعن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ: «أعطوا أعينكم حظها من العبادة»، فقالوا: يا رسول الله وما حظها من العبادة؟ قال: «النظر في المصحف والتفكر فيه والاعتبار عند عجائبه»، وعن امرأة كانت تسكن البادية قريباً من مكة أنها قالت: لو تطالعت قلوب المتقين بفكرها إلى ما قد أدخر لها في حجب الغيب من خير الآخرة لم يصف لهم في الدنيا عيش ولم تقرّ لهم في الدنيا عين. وكان لقمان يطيل الجلوس وحده، فكان يمر به مولاه

طاوس) بن كيسان اليماني رحمه الله تعالى **(قال: قال الحواريون)** أصحاب عيسى **(لعيسى عليه السلام: يا روح الله هل على الأرض اليوم مثلك؟ فقال: نعم من كان منطقه ذكراً وصمته فكراً ونظره عبرة فإنه مثلي)** رواه ابن أبي الدنيا في كتاب التفكر. **(وقال الحسن)** البصري رحمه الله تعالى: **(من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو، ومن لم يكن سكوته تفكراً فهو سهو، ومن لم يكن نظره اعتباراً فهو لهو)** رواه ابن أبي الدنيا في كتاب التفكر. وروى أبو نعيم في الحلية من طريق إبراهيم بن الأشعث قال: سمعت فضيلاً يقول: كلام المؤمن حكم وصمته تفكر ونظره عبرة، وإذا كنت كذا لم تزل في عبادة. **(وفي قوله تعالى: ﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق﴾ قال: أمنع قلوبهم التفكر في أمري. وعن أبي سعيد الخدري)** رضي الله عنه **(قال: قال رسول الله ﷺ: «اعطوا أعينكم حظها من العبادة، فقالوا: يا رسول الله وما حظها من العبادة؟ قال: النظر في المصحف)** أي قراءة القرآن نظراً في المصحف فإنه أفضل من قراءته عن حفظه وبه أخذ السلف قال النووي: وهكذا قاله أصحابنا وليس على إطلاقه إنما هو تابع للتدبر وجمع القلب والبصر **(والتفكر فيه)** أي التأمل في معانيه **(والاعتبار عند عجائبه»)** من أوامره وزواجره ومواعظه وأحكامه وقصصه ووجوه بلاغته وبديع رموزه وإشاراته. قال العراقي: رواه ابن أبي الدنيا في كتاب التفكر، ومن طريقه أبو الشيخ في كتاب العظمة بإسناد ضعيف انتهى.

قلت: ورواه أيضاً الحكيم في النوادر والبيهقي في الشعب وضعفه.

(و) يحكى **(عن امرأة)** صالحة **(كانت تسكن البادية قريباً من مكة أنها قالت: لو تطالعت قلوب المتقين بفكرها إلى ما قد ادخر لها في حجب الغيب من خير الآخرة لم يصف لهم عيش ولم تقر لهم في الدنيا عين)** رواه ابن أبي الدنيا عن أبي علي المديني عن أبي الحسن إكرام وكان من خيار الناس.

فيقول يا لقمان إنك تديم الجلوس وحدك فلو جلست مع الناس كان آنس لك **فيقول** لقمان: إنّ طول الوحدة أفهم للفكر وطول الفكر **دليل على طريق الجنة وقال وهب بن** منبه: ما طالت فكرة امرىء قط إلا علم وما علم امرؤ **قط إلا عمل وقال عمر بن عبد** العزيز: الفكرة في نعم الله عز وجل من **أفضل العبادة. وقال عبدالله بن المبارك يوماً** لسهل بن علي ورآه ساكتاً متفكراً: أين بلغت! **قال: الصراط. وقال بشر: لو تفكر** الناس في عظمة الله ما عصوا الله عز وجل. وعن ابن عباس: **ركعتان مقتصدتان في** تفكر خير من قيام ليلة بلا قلب. وبينا أبو شريح يمشي إذ جلس **فتقنع بكسائه فجعل** يبكي فقيل له ما يبكيك؟ **قال: تفكرت في ذهاب عمري وقلة عملي واقتراب أجلي.** وقال أبو سليمان: عوّدوا أعينكم البكاء وقلوبكم التفكر. **وقال أبو سليمان: الفكر في** الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لأهل الولاية، والفكر في الآخرة يورث الحكمة **ويحيي** القلوب، وقال حاتم: من العبرة يزيد العلم، ومن الذكر يزيد الحب، ومن التفكر يزيد

(وكان لقمان) الحكيم رحمه الله تعالى **(يطيل الجلوس وحده، فكان يمرّ به مولاه فيقول: يا لقمان إنك تديم الجلوس وحدك فلو جلست مع الناس كان آنس لك، فيقول لقمان: إن طول الوحدة أفهم للفكرة وطول الفكرة دليل على طريق الجنة)** رواه ابن أبي الدنيا في كتاب التفكر.

(وقال وهب بن منبه) رحمه الله تعالى: **(ما طالت فكرة امرىء قط إلاّ علم وما علم امرؤ قط إلا عمل)** رواه ابن أبي الدنيا في كتاب التفكر **(وقال عمر بن عبد العزيز)** رحمه الله تعالى **(الفكرة في نعم الله عز وجل من أفضل العبادة)** رواه ابو نعيم في الحلية. **(وقال عبدالله بن المبارك)** رحمه الله تعالى: **(يوماً لسهل بن علي ورآه ساكتاً مفكراً: أين بلغت؟ قال: الصراط)** رواه أبو نعيم في الحلية **(وقال بشر)** بن الحرث رحمه الله تعالى: **(لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى ما عصوا الله تعالى)** رواه أبو نعيم في الحلية. **(وعن ابن عباس)** رضي الله عنه قال: **(ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة بلا قلب)**. وروى أبو الشيخ في العظمة من طريق نهشل عن الضحاك عن ابن عباس: التفكر في عظمة الله وجنته وناره ساعة خير من قيام ليلة، وقد تقدم قريباً. **(وبينا أبو شريح)** عبد الرحمن بن شريح المعافري كانت له عبادة وفضل توفي بالإسكندرية سنة١٦٧ روى له الجماعة **(يمشي إذ جلس فتقنع بكسائه فجعل يبكي، فقلنا له: ما يبكيك؟ قال: تفكرت في ذهاب عمري وقلة عملي واقتراب أجلي)** رواه ابن أبي الدنيا في كتاب التفكر. **(وقال أبو سليمان)** الداراني رحمه الله تعالى: **(عوّدوا أعينكم البكاء وقلوبكم التفكر)** رواه أبو نعيم في الحلية **(وقال أبو سليمان)** أيضاً: **(الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لأهل الولاية والفكر في الآخرة يورث الحكمة ويحيي القلوب)** رواه أبو نعيم في الحلية. **(وقال حاتم الأصم)** رحمه الله تعالى: **(من العبرة يزيد العلم،**

الخوف، وقال ابن عباس: التفكر في الخير يدعو إلى العمل به، والندم على الشر يدعو إلى تركه. ويروى أن الله تعالى قال في بعض كتبه: إني لست أقبل كلام كل حكيم ولكن أنظر إلى همه وهواه فإذا كان همه وهواه لي جعلت صمته تفكراً وكلامه حمداً، وإن لم يتكلم. وقال الحسن: إنّ أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر وبالفكر على الذكر حتى استنطقوا قلوبهم فنطقت بالحكمة. وقال إسحاق بن خلف: كان داود الطائي رحمه الله تعالى على سطح في ليلة قمراء، فتفكر في ملكوت السموات والأرض وهو ينظر إلى السماء ويبكي حتى وقع في دار جار له، قال فوثب صاحب الدار من فراشه عرياناً وبيده سيف وظن أنه لص، فلما نظر إلى داود رجع ووضع السيف وقال من ذا الذي طرحك من السطح؟ قال: ما شعرت بذلك. وقال الجنيد: أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد والتنسم بنسيم المعرفة والشرب بكأس المحبة من بحر الوداد والنظر بحسن الظن بالله عز وجل، ثم قال: يا لها من مجالس ما أجلها

ومن الذكر يزيد الحب، ومن التفكر يزيد الخوف) رواه أبو نعيم في الحلية. **(وقال ابن عباس)** رضي الله عنه: **(التفكر في الخير يدعو إلى العمل به، والندم على الشر يدعو إلى تركه)** رواه ابن أبي الدنيا في كتاب التفكر. **(ويروى)** في الأخبار **(قال)** الله **(عز وجل في بعض كتبه)** التي أنزلها من السماء: **(إني لست أقبل كلام كل حكيم ولكن انظر إلى همه وهواه، فإذا كان همه وهواه لي جعلت صمته تفكراً وكلامه حمداً وإن لم يتكلم، وقال الحسن)** البصري رحمه الله تعالى: **(إن أهل العقل لم يزالوا يعوّدون بالذكر على الفكر وبالفكر على الذكر حتى استنطقوا قلوبهم فنطقت بالحكمة)**. رواه ابن أبي الدنيا في كتاب التفكر. **(وقال إسحاق بن خلف: كان داود)** بن نصير **(الطائي)** رحمه الله تعالى **(على سطح في ليلة قمراء فتفكر في ملكوت السموات والأرض وهو ينظر إلى السماء ويبكي حتى وقع في دار جار له. قال: فوثب صاحب الدار من فراشه عرياناً وبيده سيف، وظن أنه لص، فلما نظر إلى داود رجع ووضع السيف وقال: من ذا الذي طرحك من السطح؟ قال: ما شعرت بذلك)** رواه أبو نعيم في الحلية فقال: حدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا إبراهيم عن نائلة، حدثنا أحمد بن أبي الحواري، حدثنا إسحاق بن خلف قال: كان داود الطائي في ليلة مقمرة فتفكر فقام فمشى على السطح وهو شاخص حتى وقع في دار جار له: فوثب صاحب الدار عرياناً من الفراش فأخذ السيف ظن أنه لص، فلما رأى داود رجع فلبس ثيابه فوضع السيف وأخذ بيد داود حتى ردّه إلى داره فقيل لداود فقال: ما دريت أو ما شعرت.

(وقال) أبو القاسم **(الجنيد)** قدس سره: **(أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد، والتنسم بنسيم المعرفة، والشرب بكأس المحبة من بحر الوداد، والنظر**

ومن شراب ما ألذه طوبى لمن رزقه. وقال الشافعي رحمه الله تعالى: استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكر. وقال أيضاً: صحة النظر في الأمور نجاة من الغرور » والعزم في الرأي سلامة من التفريط والندم. والرؤية والفكر يكشفان عن الحزم والفطنة، ومشاورة الحكماء ثبات في النفس وقوّة في البصيرة ففكر قبل أن تعزم، وتدبر قبل أن تهجم، وشاور قبل أن تقدم، وقال أيضاً: الفضائل أربع:

إحداها: الحكمة وقوامها الفكرة.

والثانية: العفة وقوامها في الشهوة.

والثالثة: القوّة وقوامها في الغضب.

والرابعة: العدول وقوامه في اعتدال قوى النفس.

بحسن الظن بالله عز وجل، ثم قال: يا لها من مجالس ما أجلّها ومن شراب ما ألذه طوبى لمن رزقه) رواه أبو نعيم في الحلية.

(وقال الشافعي رحمه الله تعالى: استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكرة) رواه البيهقي في مناقبه. (وقال أيضاً: صحة النظر في الأمور نجاة من الغرور، والعزم في الرأي سلامة من التفريط والندم والروية والفكر يكشفان عن الحزم والفطنة، ومشاورة الحكماء ثبات في النفس وقوة في البصيرة، ففكر قبل أن تعزم وتدبر قبل أن تهجم وشاور قبل أن تقدم) رواه البيهقي كذلك في مناقبه. (وقال أيضاً: الفضائل أربع):

(إحداها: الحكمة) وهي أعلاها (وقوامها الفكرة).

(والثانية: العفة وقوامها في الشهوة) أي في تركها.

(والثالثة: القوّة وقوامها في الغضب) أي في تركه.

(والرابعة العدول وقوامه في اعتدال قوى النفس). رواه البيهقي كذلك في مناقبه، وهذه هي الفضائل النفسية فأصولها أربعة: العقل وكماله العلم، والعفة وكمالها الورع، والشجاعة وكمالها المجاهدة، والعدل وكماله الإنصاف وهي المعبر بالدين ويكمل ذلك بالفضائل البدنية وهي أربعة: الصحة والقوّة والجمال وطول العمر، وبالفضائل المطيفة بالإنسان وهي أربعة أيضاً: المال والأهل والعز وكرم العشيرة، ولا سبيل إلى تحصيل ذلك إلا بتوفيق الله عز وجل، وذلك بأربعة أيضاً: هدايته ورشده وتسديده وتأييده، فجميع ذلك خمسة أنواع وهي عشرون ضرباً ليس للإنسان مدخل في اكتسابها إلا فيما هو نفسي فقط، وقد تقدم تفصيل ذلك في كتاب تهذيب الأخلاق.

فهذه أقاويل العلماء في الفكرة وما شرع أحد منهم في ذكر حقيقتها وبيان مجاريها .

ومما يذكر في فضلة التفكر ما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب التفكر عن عامر بن عبد قيس قال: سمعت غير واحد ولا اثنين ولا ثلاثة من أصحاب محمد ﷺ يقولون: إن ضياء الإيمان أو نور الإيمان التفكر . وروى ابن المنذر ، وأبو نعيم في الحلية من طريق عون بن عبدالله قال: سألت أم الدرداء ما كان أفضل عبادة أبي الدرداء ؟ قالت: التفكر والاعتبار . وروى أبو الشيخ والديلمي من حديث أبي هريرة بينما رجل مستلق ينظر إلى السماء وإلى النجوم فقال: والله إني لأعلم أن لك خالقاً ورباً اللهم اغفر لي فنظر إليه فغفر له . وروى ابن أبي حاتم وابن المنذر وابن مردويه والطبراني عن ابن عباس قال: أتت قريش اليهود فقالوا: ما جاءكم به موسى من الآيات. قالوا: عصاه ويده بيضاء للناظرين ، وأتوا النصارى فقالوا: كيف كان عيسى فيكم؟ قالوا: كان يبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى ، فأتوا النبي ﷺ فقالوا: ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهباً فدعا ربه ، فنزلت: ﴿إن في خلق السموات والأرض﴾ الآية فليتفكروا فيها . وروى الديلمي من حديث أنس أفضل الزهد في الدنيا ذكر الموت ، وأفضل العبادة التفكر ، فمن أثقله ذكر الموت وجد قبره روضة من رياض الجنة. وقال ابن عطاء الله: الفكرة سراج القلب ، فإذا ذهبت فلا إضاءة له . وقال بعض الحكماء: املأ عينك من زينة هذه الكواكب وأجلها في جملة هذه العجائب متفكراً في قدرة مقدرها متدبراً حكمة مدبرها قبل أن يسافر بك القدر ويحال بينك وبين النظر ، ويروى في بعض الأخبار أنه كان الرجل من بني إسرائيل إذا تعبد ثلاثين سنة أظلته سحابه ، ففعله رجل فلم تظله فشكا لأمه فقالت: لعلك أذنبت. فقال: لا . قالت: فهل نظرت إلى السماء فرددت طرفك غير مفكر فيها ؟ قال: نعم قالت: من ههنا أتيت . **(فهذه أقاويل العلماء في الفكرة)** وفضلها **(وما شرع أحد منهم في ذكر حقيقتها وبيان مجاريها)** .

ثم اعلم أن التفكر له مقدمات ولواحق فمن مقدماته السماع والتيقظ والتذكر ، ومن لواحقه العلم لأن من سمع تيقظ ومن تيقظ تذكر ومن تذكر تفكر ومن تفكر علم ومن علم عمل ، إن كان علماً يراد لذاته سعد والسعادة غاية المطلب ، أما السماع والعلم فقد تقدم ذكر كل منهما في كتاب مستقل واحتاج الأمر إلى بيان اليقظة والتذكر ، وحقيقة اليقظة الانتباه من النوم وهي في هذا الباب انتباه القلب للخير لا غير . قال الإمام أبو إسماعيل الهروي: هي القومة لله تعالى من سنة الغفلة والنهوض عن ورطة الفترة. قال الكمال الصوفي: والقومة والنهوض هما ثمرة الانتباه والنهوض هو قيام بسرعة ، فعلى هذا تكون القومة لله واجبة على الفور في الأوامر والنواهي الفورية وهي متعلقة بكل مقام لأن العبد مأمور بالترقي من حضيض إلى ارتفاع ومن ارتفاعٍ إلى أفق ، وهكذا فصاعداً . فكلما كان القلب في حالة وتنبه من نفسه أو من غيره بحالة تسمو على حالته الأولى استحب له الارتقاء إليها ليكون له حالاً وما كان قبله مقاماً ، وهكذا إلى ما لا يتناهى وتشرف اليقظة بشرف العلم المستيقظ به وكل ما جاء في كتاب الله عز وجل من ذكر المسارعة إلى المغفرة والمسارعة إلى الخيرات فهو دليل على فضلها .

فصل

في التذكر:

اعلم أن القلب إذا انتبه من غفلته وتيقظ من رقدته تذكر ما كان نسيه، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿وما يتذكر إلا من ينيب﴾ [غافر: ١٣] فجعل الإنابة شرطاً للانتفاع بالتذكر. وقال تعالى: ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيد﴾ [ق: ٣٧] فجعل للتذكر ثلاثة أسباب: القاء السمع، وحضور القلب، وشهوده للفهم، فعلى هذا يكون حقيقة التذكر استدعاء ما كان موجوداً عنده ثم نسيه وتكراره على القلب حتى يثبت ويرسخ، وسبب ذلك أن العلوم كلها مركوزة في النفوس بالفطرة وهي كامنة فيها ككمون النار في الحجر والنخلة في النواة، وذلك أنها قابلة لإدراك العلوم كلها فالمعلم لا يحدث لها شيئاً من خارج، وإنما يخرج بالتعليم ما هو كامن فيها، وإنما طرأ عليه النسيان بسبب اغترابها في عالم الشهادة عالم الخيال والظلمة، فمتى سكت عنها حركة الخيال وظلمة الشهوات تجلى لها عالمها الذي هو من أمر الله تعالى المنزّه عن الخيالات والأوهام وعن الجهات والمقدار فحينئذ تذكر ما أودعه عندها سيدها ومالكها وهاديها من الاعتراف بوجوده ووحدانيته وكل صفة تليق بعظمته وكبريائه، فمن حرم مثل هذا الاستبصار فقد خاب من الرحمة بطريق النظر والاعتبار، فإنه تعالى أمرنا على لسان أنبيائه عليهم السلام بالتذكار، ثم لم يكلنا إلى أنفسنا حتى نبهنا فقال سبحانه هو: ﴿الله الواحد القهار ★ رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار﴾ [ص: ٦٥، ٦٦] والتذكر يتعلق بالعقد والقول والفعل والترك وهو واجب فيما يجب من ذلك، ويحرم تذكر المعاصي إن أدى إلى استجلابها بل يجب التغافل عنها ويكره تذكر ما يستقبل من الأحوال لأنه يفوت زمناً صالحاً من العمر بموهوم لا يدري أيحصل أم لا. ولا يفعل ذلك إلا غافل جاهل لا يعرف قدر عمره وما دام المريد مفتقراً إلى التفكر، فلا بد من التذكر لأن التفكر هو استمدار الأنوار من الأذكار وبشرف التذكر يشرف متعلقة وعلامة صحة التذكر موافقة الشرع في جميع مراتبه فمتى وقع له غير ذلك فليعلم خطأه.

فصل

وأما التفكر ففضله عظيم، وقد مر في سياق المصنف ما يدل عليه وصاحبه على بصيرة من أمره وما يستوي الأعمى والبصير وهو مخصوص بنوع الإنسان لأنه مركب من ظرف عقلي وظرف حسي والذات المركبة المدركة لا تدرك الأشياء إلا بنوع تركيب ولا يعرف التفاضل إلا بالإضافة كإضافة الدرهم إلى الدينار وكإضافة الدنيا إلى الآخرة، فيظهر شرف الشريف بالنظر إلى خسة الخسيس، فانظر إلى حالك في النوم كيف يريك الملك الموكل بالرؤيا أرواح المعاني في قوالب الخيال لضرورة مادة يقظتك وتركيبها، ومن له فهم قنع من هذا العلم بالتلويح، وبهذا السبب تعرف حقيقة التفكر فإنما مهدنا سببه ليسهل مدركه والله الموفق.

بيان حقيقة الفكر وثمرته:

اعلم أنّ معنى الفكر هو إحضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة. ومثاله أنّ من مال إلى العاجلة وآثر الحياة الدنيا وأراد أن يعرف أنّ الآخرة أولى بالإيثار من العاجلة فله طريقان:

أحدهما: أن يسمع من غيره أن الآخرة أولى بالإيثار من الدنيا، فيقلده ويصدقه من غير بصيرة بحقيقة الأمر فيميل بعمله إلى إيثار الآخرة اعتماداً على مجرّد قوله. وهذا يسمى تقليداً ولا يسمى معرفة.

والطريق الثاني: أن يعرف أنّ الأبقى أولى بالإيثار، ثم يعرف أنّ الآخرة أبقى. فيحصل له من هاتين المعرفتين معرفة ثالثة وهو أن الآخرة أولى بالإيثار، ولا يمكن تحقيق المعرفة بأنّ الآخرة أولى بالإيثار إلا بالمعرفتين السابقتين. فإحضار المعرفتين السابقتين في القلب للتوصل به إلى المعرفة الثالثة يسمى تفكراً واعتباراً وتذكراً ونظراً وتأملاً وتدبراً. أما التدبر والتأمل والتفكر: فعبارات مترادفة على معنى واحد ليس تحتها

بيان حقيقة الفكر وثمرته:

(**اعلم**) وفقك الله تعالى (**أن معنى الفكر هو إحضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة**)، وبيان ذلك أنك إذا أردت اقتناص علم أو حال جمعت بين علمين متناسبين لذلك العلم المطلوب بشرط عدم الشكوك فيهما وفراغ القلب من غيرهما، وحدقت النظر فيهما تحديقاً بالغاً فلم تشعر إلا وقد وجدت علماً ثالثاً وهو مطلوبك وبغيتك. (**ومثاله أن من مال**) قلبه (**إلى العاجلة وآثر الحياة الدنيا وأراد أن**) يميل إلى الآخرة و(**يعرف أن الآخرة أولى بالإيثار من العاجلة فله طريقان**):

(**أحدهما: أن يسمع من غيره أن الآخرة أولى بالإيثار فيقلده**) في ذلك (**ويصدقه من غير بصيرة بحقيقة الأمر فيميل بعمله إلى إيثار الآخرة اعتماداً على مجرد قوله، وهذا يسمى تقليداً ولا يسمى معرفة**).

(**والطريق الثاني: أن يعرف أن الأبقى أولى بالإيثار ثم يعرف أن الآخرة أبقى**) لنفاستها وخساسة العاجلة والعلم بكل منهما يكون على الشرط المتقدم، (**فيحصل له من هاتين المعرفتين معرفة ثالثة وهو أن الآخرة أولى بالإيثار**) أي ينتقل القلب من الميل إلى الخسيس إلى الميل إلى النفيس لا محالة وربما لا يشعر به، (**ولا يمكن تحقق المعرفة بأن الآخرة أولى بالإيثار إلا بالمعرفتين السابقتين فإحضار المعرفتين السابقتين في القلب للتوصل به إلى المعرفة الثالثة يسمى تفكراً واعتباراً وتذكراً ونظراً وتأملاً وتدبراً**) وهذا السياق فيه أوفى

معانٍ مختلفة. وأما اسم التذكر والاعتبار والنظر: فهي مختلفة المعاني وإن كان أصل المسمى واحداً؛ كما أنّ اسم: الصارم، والمهند، والسيف؛ يتوارد على شيء واحد ولكن باعتبارات مختلفة، فالصارم يدل على السيف من حيث هو قاطع، والمهند يدل عليه من حيث نسبته إلى موضعه والسيف يدل دلالة مطلقة من غير إشعار بهذه الزوائد. فكذلك الاعتبار ينطلق على إحضار المعرفتين من حيث أنه يعبر منهما إلى معرفة ثالثة، وإن لم يقع العبور ولم يمكن إلا الوقوف على المعرفتين فينطلق عليه اسم: التذكر لا اسم: الاعتبار. وأما النظر والتفكر؛ فيقع عليه من حيث إن فيه طلب معرفة ثالثة، فمن ليس يطلب

غموض، والأولى أن يقال: إن إحضار المعرفتين يسمى تذكراً وحصول المعرفة الثالثة يسمى تفكراً وتدبراً ونظراً واعتباراً. **(أما التدبر والتأمل والتفكر فعبارات مترادفة على معنى واحد ليس تحتها معان مختلفة)** فالتدبر هو النظر في دبر الأمور أي عواقبها، والتأمل هو إعادة النظر في الشيء مرة بعد أخرى ليتحققه، والتفكر هو تصرف القلب بالنظر في الدليل، وقيل: تصرف القلب في مغاني الأشياء لدرك المطلوب. وقال الراغب: الفكر قوة مطرقة للعلم إلى المعلوم وهو تخيل عقلي موجود في الإنسان والتفكر جولان تلك القوة بين الخواطر بحسب نظر العقل، وقد يقال للتفكر الفكر وبه تعلم الفرق بين الألفاظ الثلاثة. **(وأما اسم التذكر والإعتبار والنظر فهي مختلفة المعاني وإن كان أصل المسمى واحداً، كما أن اسم الصارم والمهند والسيف يتوارد على شيء واحد ولكن باعتبارات مختلفة، فالصارم يدل على السيف من حيث هو قاطع)** وكذلك الصمصام والرسوب، **(والمهند يدل عليه من حيث نسبته إلى الموضع)** وهو الهند ومنه قول كعب:

مهند من سيوف الهند مسلول

وكذلك القلعي. **(والسيف يدل دلالة مطلقة من غير إشعار بهذه الزوائد، فكذلك الاعتبار ينطلق على إحضار المعرفتين من حيث أنه يعبر منهما إلى معرفة ثالثة)** افتعال من العبر وهو التجاوز من حال إلى حال، والاسم العبرة بالكسر وهي عبارة عن الحالة التي يتوصل بها من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد، **(فإن لم يقع العبور)** الأولى العبر فإن العبور يختص بتجاوز الماء إما بسباحة أو في سفينة أو على بعير أو قنطرة، **(ولم يكن إلا الوقوف على المعرفتين فينطلق عليه اسم: التذكر لا اسم: الاعتبار)** إذ في الاعتبار يراعى معنى العبر وليس في التذكر إلا محاولة للقوّة العقلية لاسترجاع ما فات بالنسيان. **(وأما النظر والتفكر فيقع عليه من حيث أن فيه طلب معرفة ثالثة)** ولذلك يطلق النظر على المعرفة الحاصلة بعد الفحص، وقد يراد به التأمل والفحص، وقد يراد به طلب المعنى بالقلب من جهة الذكر، كما يدرك إدراك المحسوس بالعين، وقد يطلق على تقليب البصر أو البصيرة لإدراك الشيء ورؤيته،

المعرفة الثالثة لا يسمى ناظراً ، فكل متفكر فهو متذكر ، وليس كل متذكر متفكراً ، وفائدة التذكار تكرار المعارف على القلب لترسخ ولا تنمحي عن القلب . وفائدة التفكر : تكثير العلم واستجلاب معرفة ليست حاصلة . فهذا هو الفرق بين التذكر والتفكر . والمعارف إذا اجتمعت في القلب وازدوجت على ترتيب مخصوص أثمرت معرفة أخرى ، فالمعرفة نتاج المعرفة . فإذا حصلت معرفة أخرى وازدوجت مع معرفة أخرى حصل من ذلك نتاج آخر . وهكذا يتمادى النتاج وتتمادى العلوم ويتمادى الفكر إلى غير نهاية ، وإنما تنسدّ طريق زيادة المعارف بالموت ، أو بالعوائق هذا لمن يقدر على استثمار العلوم ويهتدي إلى طريق التفكر وأما أكثر الناس فإنما منعوا الزيادة في العلوم لفقدهم رأس المال وهو المعارف التي بها تستثمر العلوم ، كالذي لا بضاعة له فإنه لا يقدر على الربح ، وقد يملك

(**فمن ليس يطلب المعرفة الثالثة لا يسمى ناظراً**) إلا على وجه التجوّز ، (**فكل متفكر فهو متذكر وليس كل متذكر متفكراً ، وفائدة التذكار تكرار المعارف على القلب**) واسترجاع ما فات منها بالنسيان (**لترسخ وتثبت ولا تنمحي عن القلب ، وفائدة التفكر تكثير العلم واستجلاب معرفة ليست حاصلة**) من قبل ؛ (**فهذا هو الفرق بين التذكر والتفكر**) . وقال الراغب : التفكر جريان القوّة العلمية بحسب نظر العقل ، ولا يقال إلا فيما يمكن أن تحصل له صورة في العقل ، ولهذا ورد : ولا تفكروا في الله إذ كان منزهاً أن يوصف بصورة قال تعالى : ﴿أو لم يتفكروا في أنفسهم﴾ [الروم : ٨] ﴿أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض﴾ [الأعراف : ١٨٥] (**والمعارف إذا اجتمعت في القلب وازدوجت على ترتيب مخصوص أثمرت معرفة أخرى ، فالمعرفة نتاج المعرفة فإذا حصلت معرفة أخرى وازدوجت مع معرفة أخرى حصل من ذلك نتاج آخر ، وهكذا يتمادى النتاج وتتمادى العلوم ويتمادى الفكر إلى غير نهاية**) . وإذا عرفت هذا فقد نتجت لك سبيل السعادة في استنتاج العلوم واقتناصها وهو واجب عند الشك وعند ورود الشبه وعند علاج الأمراض الواجب إزالتها من القلوب ، كما يجب طلب الخبز للجائع والماء للعطشان ، فمن ترك ذلك وانتظر خلق الشبع من غير أكل وخلق الري من غير شرب ومات كان عاصياً ، وكذلك من ترك تكسب العلوم الواجبة واتكل على فضل الله تعالى أن يجعله عالماً بالإلهام كان عاصياً ، وإن كان ممكناً قال الله تعالى : ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾ [النحل : ٧٨] فمن عطل هذه الأدلة عن استعمالها فقد فعل ما حرم عليه وكفر نعمة الله به في تعطيل هذه النعم ، (**وإنما تنسد طريق زيادة المعارف بالموت**) فهو معذور إن لم يترك جهده في مدة حياته ، (**أو بالعوائق هذا لمن يقدر على استثمار العلوم ويهتدي إلى طريق التفكر ، وأما أكثر الناس فإنما منعوا الزيادة في العلوم لفقدهم رأس المال وهو المعارف التي بها يستثمر العلوم**) . والحاصل أن المانع من زيادة المعارف سببان : أحدهما : أن يكون المتفكر قليل المعارف فيقل نتاجه (**كالذي لا بضاعة له**

البضاعة ولكن لا يحسن صناعة التجارة فلا يربح شيئاً ، فكذلك قد يكون معه من المعارف ما هو رأس مال العلوم ولكن ليس يحسن استعمالها وتأليفها وإيقاع الازدواج المفضي إلى النتاج فيها . ومعرفة طريق الاستعمال والاستثمار تارة تكون بنور إلهي في القلب يحصل بالفطرة كما كان للأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين . وذلك عزيز جداً وقد تكون بالتعلم والممارسة وهو الأكثر ، ثم المتفكر قد تحضره هذه المعارف وتحصل له الثمرة وهو لا يشعر بكيفية حصولها ، ولا يقدر على التعبير عنها لقلة ممارسته لصناعة التعبير في الإيراد . فكم من إنسان يعلم أنّ الآخرة أولى بالإيثار علماً حقيقياً ، ولو سئل عن سبب معرفته لم يقدر على إيراده والتعبير عنه مع انه لم تحصل معرفته إلا عن المعرفتين السابقتين : وهو أنّ الأبقى أولى بالإيثار وأن الآخرة أبقى من الدنيا ، فتحصل له معرفة ثالثة وهو أنّ الآخرة أولى بالإيثار ، فرجع حاصل حقيقة التفكر إلى إحضار معرفتين للتوصل بهما إلى معرفة ثالثة ، وأما ثمرة الفكر فهي العلوم والأحوال والأعمال ، ولكن ثمرته الخاصة العلم لا غير . نعم إذا حصل العلم في القلب تغير حال القلب وإذا تغير

فإنه لا يقدر على الربح) لا محالة ، والثاني : أن يكون كثير المعارف ولكن لا يحسن ازدواجها وائتلافها وإليه أشار المصنف بقوله : **(وقد يملك البضاعة ولكن لا يحسن صناعة التجارة فلا يربح شيئاً ، فكذلك قد يكون معه من المعارف ما هو رأس مال العلوم ، ولكنه ليس يحسن استعمالها وتأليفها وإيقاع الازدواج المفضي إلى النتاج فيها)** ولا ينجيه من هذه الورطة إلا الشيخ المفيد لهذه السعادة . **(ومعرفة طريق الاستعمال والاستثمار تارة تكون بنور إلهي في القلب يحصل بالفكرة كما كان للأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين وذلك عزيز جداً ، وقد تكون بالتعلم والممارسة)** ومصاحبة المشايخ الكمل ومداومة النظر إلى أحوالهم **(وهو الأكثر)** فإن لمجالستهم تأثيراً عظيماً **(ثم المتفكر قد تحضره هذه المعارف وتحصل له الثمرة وهو لا يشعر بكيفية حصولها)** لأن ذلك الحصول عبارة عن انتقال القلب بسرعة من معرفة إلى معرفة فربّما لا يحس به صاحبه ويظن أنه واقف عند المعرفة الأولى ، **(و)** ربما **(لا يقدر على التعبير عنها)** أي الثمرة **(لقلة ممارسته لصناعة التعبير في الإيراد)** ومعرفة هذه الصناعة أيضاً من الأمور المهمة لما يتعدى به النفع ، **(فكم من إنسان يعلم أن الآخرة أولى بالإيثار علماً حقيقياً)** لا شبهة فيه ، **(ولو سئل عن سبب معرفته لم يقدر على إيراده والتعبير عنه مع أنه لم تحصل معرفته إلا عن المعرفتين السابقتين وهو أن الأبقى أولى بالإيثار ، وأن الآخرة أبقى من الدنيا ، فتحصل له معرفة ثالثة وهو أن الآخرة أولى بالإيثار فرجع حاصل حقيقة الفكر إلى إحضار معرفتين للتوصل بهما إلى معرفة ثالثة)** هذا ما يتعلق بحقيقة الفكر ، **(وأما ثمرة الفكر فهي العلوم والأحوال والأعمال)** الحاصلة من العلوم ، **(ولكن ثمرته الخاصة العلم لا**

حال القلب تغيرت أعمال الجوارح. فالعمل تابع الحال والحال تابع العلم والعلم تابع الفكر. فالفكر إذاً هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها، وهذا هو الذي يكشف لك عن فضيلة التفكر وأنه خير من الذكر والتذكر لأن الفكر ذكر وزيادة. وذكر القلب خير من عمل الجوارح، بل شرف العمل لما فيه من الذكر. فإذاً التفكر أفضل من جملة الأعمال. ولذلك قيل: تفكر ساعة خير من عبادة سنة، فقيل هو الذي ينقل من المكاره إلى المحاب ومن الرغبة والحرص إلى الزهد والقناعة، وقيل هو الذي يحدث مشاهدة وتقوى، ولذلك قال تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحدِثُ لَهُمْ ذِكْراً﴾ [طه: ١١٣] وإن أردت أن تفهم كيفية تغير الحال بالفكر فمثاله ما ذكرناه من أمر الآخرة، فإن الفكر فيه يعرّفنا أنّ الآخرة أولى بالإيثار، فإذا رسخت هذه المعرفة يقيناً في قلوبنا تغيرت القلوب إلى الرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا. وهذا ما عنيناه بالحال، إذا كان حال

غير) والحال والعمل ينشآن من العلم. **(نعم إذا حصل العلم في القلب)** واستقر فيه ولم يعرضه شك وغفلة **(تغير حال القلب، وإذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح فالعمل تابع الحال والحال تابع العلم والعلم تابع الفكر، فالفكر إذاً هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها)** لأن العلوم والأحوال هما البضاعة التي يقع بها الإتجار، وهذا هو السر في تقديم بعض العارفين كتاب التفكر على سائر كتب المنجيات. **(وهذا هو الذي يكشف لك عن فضيلة التفكر وأنه خير من الذكر والتذكر لأن في التفكر ذكراً وزيادة وذكر القلب خير من عمل الجوارح، بل شرف العمل لما فيه من الذكر)** وقد سبق للمصنف تحقيق أن المحبة الناشئة عن التفكر أفضل من المحبة الناشئة عن التذكر، والعلة أن التفكر رؤية والذكر سماع هذا معنى كلامه رضي الله عنه في كتاب ترتيب الأوراد، وقد نقل القشيري رحمه الله تعالى في رسالته عن أحد المشايخ أن الذكر أفضل من الفكر لأن الله يوصف بالذكر ولا يوصف بالفكر، وهذا فيه نظر لأن من عرف حقيقة التفكر علم أنه ذكر وزيادة معرفة مقتضية، وعلى الجملة فلا يزال الفكر أفضل من الذكر لأنه مقصود إلى أن ينتهي إلى حلّ ينقطع فيه الفكر ويبقى الذكر مجرداً عن الأدلة، فهذا الذكر أفضل من الفكر بلا خلاف والله أعلم.

(فإذاً التفكر أفضل من جملة الأعمال، ولذلك قيل: تفكر ساعة خير من عبادة سنة) تقدم الكلام عليه قريباً واختلف فيه، **(فقيل: هو الذي ينقل من المكاره إلى المحاب، ومن الرغبة والحرص إلى الزهد والقناعة. وقيل: هو الذي يحدث مشاهدة وتقوى، ولذلك قال تعالى: ﴿لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً﴾ [طه: ١١٣] وإن أردت أن تفهم كيفية تغير الحال بالفكر فمثاله ما ذكرناه من أمر الآخرة، فإن الفكر فيه يعرفنا أن الآخرة أولى بالإيثار، فإذا رسخت هذه المعرفة يقيناً في قلوبنا)** بأن لا يعتريها شك مع الفراغ عن غيرها **(تغيرت القلوب إلى الرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا)** من غير أن تشعر بذلك التغير.

القلب قبل هذه المعرفة حب العاجلة والميل إليها والنفرة عن الآخرة وقلة الرغبة فيها . وبهذه المعرفة تغير حال القلب وتبدلت إرادته ورغبته. ثم أثمر تغير الإرادة أعمال الجوارح في إطراح الدنيا والإقبال على أعمال الآخرة. فههنا خمس درجات:

أولاها: التذكر وهو إحضار المعرفتين في القلب.

وثانيتها: التفكر وهو طلب المعرفة المقصودة منهما.

والثالثة: حصول المعرفة المطلوبة واستنارة القلب بها.

والرابعة: تغير حال القلب عما كان بسبب حصول نور المعرفة.

والخامسة: خدمة الجوارح للقلب بحسب ما يتجدّد له من الحال.

فكما يضرب الحجر على الحديد فيخرج منه نار يستضيء بها الموضع فتصير العين مبصرة بعد أن لم تكن مبصرة وتنتهض الأعضاء للعمل، فكذلك زناد نور المعرفة هو الفكر فيجمع بين المعرفتين كما يجمع بين الحجر والحديد، ويؤلف بينهما تأليفاً مخصوصاً

(وهذا ما عنيناه بالحال إذ كان حال القلب قبل هذه المعرفة حب العاجلة والميل إليها والنفرة عن الآخرة وقلة الرغبة فيها، وبهذه المعرفة تغير حال القلب وتبدلت إرادته ورغبته) وإنما سمي الحال حالاً لتغيره من شأن إلى شأن **(ثم أثمر تغير الإرادة أعمال الجوارح في إطراح الدنيا والإقبال على أعمال الآخرة)** وبه ظهر أن العلم تابع الحال والحال تابع المعرفة والمعرفة تتبع الفكر. **(فههنا خمس درجات) :**

(أولاها: التذكر وهو إحضار المعرفتين في القلب) بالشرط المتقدم.

(وثانيتها: التفكر وهو طلب المعرفة المقصودة منهما) أي من المعرفتين.

(والثالثة: حصول المعرفة المطلوبة واستنارة القلب بها) .

(والرابعة: تغير حال القلب عما كان) عليه **(بسبب حصول نور المعرفة) .**

(والخامسة: خدمة الجوارح للقلب بحسب ما يتجدد له من الحال) وقد مثل له المصنف بمثال فقال:

(فكما يضرب الحجر على الحديد فتخرج منه نار يستضيء بها الموضع فتصير العين مبصرة بعد أن لم تكن مبصرة وتنتهض الأعضاء للعمل، فكذلك زناد نور المعرفة وهو الفكر فيجمع بين المعرفتين) هما بمنزلة الحديد والحجر، **(كما يجمع بين الحجر والحديد**

كما يضرب الحجر على الحديد ضرباً مخصوصاً ، فينبعث نور المعرفة كما تنبعث النار من الحديد ، ويتغير القلب بسبب هذا النور حتى يميل إلى ما لم يكن يميل إليه كما يتغير البصر بنور النار فيرى ما لم يكن يراه، ثم تنتهض الأعضاء للعمل بمقتضى حال القلب كما ينتهض العاجز عن العمل بسبب الظلمة للعمل عند إدراك البصر ما لم يكن يبصره. فإذاً ثمرة الفكر : العلوم والأحوال والعلوم لا نهاية لها ، والأحوال التي تتصوّر أن تنقلب على القلب لا يمكن حصرها . ولهذا لو أراد مريد أن يحصر فنون الفكر ومجاريه وأنـه فماذا يتفـكر لـم يقـدر عليه لأن مجاري الفكر غير محصورة وثمراته غير متناهية. نعم نحن نجتهد في ضبط مجاريه بالإضافة إلى مهمات العلوم الدينية وبالإضافة إلى الأحوال التي هي مقامات السالكين، ويكون ذلك ضبطاً جلياً فإنّ تفصيل ذلك يستدعي شرح العلوم كلها ، وجملة هذه الكتب كالشرح لبعضها ، فإنها مشتملة على علوم ، تلك العلوم تستفاد من أفكار مخصوصة. فلنشر إلى ضبط المجامع فيها ليحصل الوقوف على مجاري الفكر .

ويؤلف بينهما تأليفاً مخصوصاً كما يضرب الحجر على الحديد ضرباً مخصوصاً ، فينبعث نور المعرفة كما تنبعث النار من الحديد ويتغير القلب بسبب هذا النور حتى يميل إلى ما لم يكن يميل إليه من قبل كما يتغير البصر بنور النار فيرى ما لم يكن يراه، ثم تنتهض الأعضاء للعمل بمقتضى حال القلب كما ينتهض العاجز عن العمل بسبب الظلمة للعمل عند إدراك البصيرة ما لم يكن يتصوره، فإذاً ثمرة الفكر العلوم والأحوال و) تلك **(العلوم)** التي يثمرها الفكر **(لا نهاية لها و)** تلك **(الأحوال التي تتصوّر أن تتقلب على القلب لا يمكن حصرها)** إلا أن الفكر لا يتعلق إلا بالعلوم الكسبية ولا مدخل له في العلوم الإلهامية لأنه مجرد عن وسائط الكسب ، **(ولهذا لو أراد مريد أن يحضر فنون الفكر ومجاريه وأنه فيما ذا يتفكر لم يقدر عليه لأن مجاري الفكر غير محصورة وثمراته غير متناهية. نعم نحن نجتهد في ضبط مجاريه بالإضافة إلى مهمات العلوم الدينية، وبالإضافات إلى الأحوال التي هي مقامات للسالكين)** وفيه إشعار إلى أن الحال قد يكون مقاماً كما مرت الإشارة إليه في أول كتاب التوبة **(ويكون ذلك ضبطاً جلياً)** أي إجمالياً ، **(فإن تفصيل ذلك يستدعي شرح العلوم كلها ، وجملة هذه الكتب كالشرح لبعضها فإنها مشتملة على)** ذكر **(علوم تلك العلوم تستفاد من أفكار مخصوصة)** كالتوبة والصبر والخوف والرجاء والفقر والزهد والمحاسبة والحياء والمراقبة والشكر والتوكل والنية والإخلاص والصدق والتوحيد والمحبة. فهذه ستة عشر مقاماً ويضاف إليها مقامات أخر حتى تكمل مائة مقام ما من مقام منها إلا وهو مستفاد من حسن الفكر ، **(فلنشر إلى ضبط المجامع فيها فيه يحصل الوقوف علي مجاري الفكر)** ومسارحه والله الموفق.

بيان مجاري الفكر:

اعلم أن الفكر قد يجري في أمر يتعلق بالدين وقد يجري فيما يتعلق بغير الدين، وإنما غرضنا ما يتعلق بالدين فلنترك القسم الآخر. ونعني بالدين المعاملة التي بين العبد وبين الرب تعالى؛ فجميع أفكار العبد: إما أن تتعلق بالعبد وصفاته وأحواله، وإما أن تتعلق بالمعبود وصفاته وأفعاله؛ لا يمكن أن يخرج عن هذين القسمين. وما يتعلق بالعبد: إما أن يكون نظراً فيما هو محبوب عند الرب تعالى، أو فيما هو مكروه، ولا حاجة إلى الفكر في غير هذين القسمين. وما يتعلق بالرب تعالى: إما أن يكون نظراً في ذاته وصفاته وأسمائه الحسنى، وإما أن يكون في أفعاله وملكه وملكوته وجميع ما في السموات والأرض وما بينهما. وينكشف لك انحصار الفكر في هذه الأقسام بمثال، وهو أن حال السائرين إلى الله تعالى والمشتاقين إلى لقائه يضاهي حال العشاق فلنتخذ العاشق المستهتر مثالنا فنقول العاشق المستغرق الهم بعشقه لا يعدو فكره من أن يتعلق بمعشوقه أو يتعلق بنفسه، فإن تفكر في معشوقه؛ فإما أن يتفكر في جماله وحسن صورته في ذاته ليتنعم

بيان مجاري الفكر:

(**اعلم**) هداك الله تعالى أن الوجود كله من ذروة العرش إلى قاعدة الثرى معارج للملائكة ومراقي للأفكار المشتغلة بالنظر والاعتبار حتى تصل إلى معرفة الجبار، فهناك لا معرج ولا مرقى إذ ليس وراء الله مرمى، وهذا لا يحصى ولا يستقصى ولكن المقصود جملة حال المريد في سفره إلى مولاه. فاعلم (**أن الفكر قد يجري في أمر يتعلق بالدين وقد يجري فيما يتعلق بغير الدين، وإنما غرضنا**) هنا (**ما يتعلق بالدين فلنترك القسم الآخر**) ونذكر ما يتعلق بالدين (**ونعني بالدين المعاملة التي بين العبد وبين الرب تعالى، فجميع أفكار العبد إما أن تتعلق بالعبد وصفاته وأحواله وإما أن تتعلق بالمعبود وصفاته وأفعاله لا يمكن أن يخرج عن هذين القسمين، وما يتعلق بالعبد إما أن يكون نظراً فيما هو ومحبوب عند الرب تعالى أو فيما هو مكروه، ولا حاجة إلى الفكر في غير هذين القسمين، وما يتعلق بالرب تعالى إما أن يكون نظراً في ذاته وصفاته وأسمائه الحسنى وإما أن يكون في أفعاله وملكه وملكوته وجميع ما في السموات والأرض وما بينهما، وينكشف لك انحصار الفكر في هذه الأقسام بمثال. وهو أن حال السائر إلى الله و**) الطائرين (**المشتاقين إلى لقائه يضاهي حال العشاق فلنتخذ العاشق المستهتر**) بحب معشوقه (**مثالنا فنقول: العاشق المستغرق الهمّ بعشقه لا يعدو فكره من أن يتعلق بمعشوقه أو يتعلق بنفسه، فإن تفكر في معشوقه فإما أن يتفكر في جماله وحسن صورته في ذاته ليتنعم بالفكر فيه وبمشاهدته وإما أن يتفكر في أفعاله اللطيفة الحسنة الدالة**

بالفكر فيه وبمشاهدته، وإما أن يتفكر في أفعاله اللطيفة الحسنة الدالة على أخلاقه وصفاته ليكون ذلك مضعفاً للذته ومقوّياً لمحبته. وإن تفكر في نفسه؛ فيكون فكره في صفاته التي تسقطه من عين محبوبه حتى يتنزه عنها، أو في الصفات التي تقربه منه وتحبّبه إليه حتى يتصف بها، فإن تفكر في شيء خارج عن هذه الأقسام فذلك خارج عن حدّ العشق، وهو نقصان فيه لأن العشق التام الكامل؛ ما يستغرق العاشق ويستوفي القلب حتى لا يترك فيه متسعاً لغيره. فمحب الله تعالى ينبغي أن يكون كذلك فلا يعدو نظره وتفكره محبوبه. ومهما كان تفكره محصوراً في هذه الأقسام الأربعة لم يكن خارجاً عن مقتضى المحبة أصلاً. فلنبدأ بالقسم الأوّل وهو تفكره في صفات نفسه وأفعال نفسه ليميز المحبوب منها عن المكروه، فإن هذا الفكر هو الذي يتعلق بعلم المعاملة الذي هو المقصود بهذا الكتاب، وأما القسم الآخر فيتعلق بعلم المكاشفة. ثم كل واحد مما هو مكروه عند الله أو محبوب ينقسم إلى ظاهر، كالطاعات والمعاصي، وإلى باطن، كالصفات المنجيات والمهلكات التي محلها القلب وذكرنا تفصيلها في ربع المهلكات والمنجيات. والطاعات والمعاصي تنقسم إلى ما يتعلق بالأعضاء السبعة وإلى ما ينسب إلى جميع البدن، كالفرار من الزحف وعقوق الوالدين والسكون في المسكن الحرام. ويجب في

على أخلاقه وصفاته ليكون ذلك مضعفاً للذته ومقوياً لمحبته)؛ فهذا طريق الفكر فيما يتعلق بالمحبوب **(وإن تفكر في نفسه فيكون فكره في صفاته التي تسقطه من عين محبوبه حتى يتنزه عنها)** أي يتباعد **(أو في الصفات التي تقربه منه وتحببه إليه حتى يتصف بها)** فهذا طريقَ الفكر فيما يتعلق بالمحب، **(فإن تفكر في شيء خارج عن هذه الأقسام فذلك خارج عن حدّ العشق وهو نقصان فيه لأن العشق التام الكامل ما يستغرق العاشق ويستوفي القلب)** بكليته **(حتى لا يترك فيه متسعاً لغيره. فمحب الله تعالى ينبغي أن يكون كذلك فلا يعدو نظره وتفكره محبوبه، ومهما كان تفكره محصوراً في هذه الأقسام الأربعة لم يكن خارجاً عن مقتضى المحبة أصلاً، فلنبدأ بالقسم الأول وهو تفكره في صفات نفسه وأفعال نفسه ليميز المحبوب منها عن المكروه، فإن هذا الفكر هو الذي يتعلق بعلم المعاملة وهو مقصود هذا الكتاب. وأما القسم الآخر)** الذي هو التفكر في ذات الله ومعاني أسمائه وصفاته وكيف يتخلق بها العبد **(فيتعلق بالمكاشفة، ثم كل واحد مما هو مكروه عند الله أو محبوب ينقسم إلى ظاهر كالطاعات والمعاصي، وإلى باطن كالصفات المنجيات والمهلكات التي محلها القلب، وذكرنا تفصيلها في ربع المهلكات والمنجيات)** وهو هذا الربع. **(والطاعات والمعاصي تنقسم)** تارة **(إلى ما يتعلق بالأعضاء السبعة)** اليدان والرجلان والبصر والسمع واللسان، **(و)** تارة **(إلى ما ينسب إلى جميع البدن)** وهذا **(كالفرار من الزحف وعقوق**

كل واحد من المكاره التفكر في ثلاثة أمور .

الأول: التفكر في أنه هل هو مكروه عند الله أم لا ، فرب شيء لا يظهر كونه مكروهاً بل يدرك بدقيق النظر .

والثاني: التفكر في أنه إن كان مكروهاً فما طريق الاحتراز عنه .

والثالث: أن هذا المكروه هل هو متصف به في الحال فيتركه أو هو متعرّض له في الاستقبال فيحترز عنه. أو قارفه فيما مضى من الأحوال فيحتاج إلى تداركه. وكذلك كل واحد من المحبوبات ينقسم إلى هذه الانقسامات ، فإذا جمعت هذه الأقسام زادت مجاري الفكر في هذه الأقسام على مائة ، والعبد مدفوع إلى الفكر إما في جميعها أو في أكثرها . وشرح آحاد هذه الانقسامات يطول ، ولكن انحصر هذا القسم في أربعة أنواع : الطاعات والمعاصي والصفات المهلكات والصفات المنجيات. فلنذكر في كل نوع مثالاً ليقيس به المريد سائرها وينفتح له باب الفكر ويتسع عليه طريقه .

النوع الأول: المعاصي: وينبغي أن يفتش الإنسان صبيحة كل يوم جميع أعضائه

الوالدين والسكون في المسكن الحرام) وغير ذلك . **(ويجب في كل واحد من المكاره التفكر في ثلاثة أمور) :**

الأول: التفكر في أنه هل هو مكروه عند الله أم لا . فرب بشيء لا يظهر كونه مكروهاً في بادىء النظر **(بل يدرك بدقيق النظر)** وكثرة التأمل.

الثاني: التفكر في أنه إن كان مكروهاً فما طريق الاحتراز عنه .

والثالث: التفكر في أن **(هذا المكروه هل هو متصف به في الحال فيتركه أو هو متعرض له في الاستقبال فيحترز عنه أو فارقه فيما مضى من الأحوال فيحتاج إلى تداركه)** لما فرط منه. **(وكذلك كل واحد من المحبوبات ينقسم إلى هذه الانقسامات، فإذا جمعت هذه الأقسام زادت مجاري الفكر)** واتسعت مسارحها **(في هذه الأقسام على مائة ، والعبد مدفوع إلى الفكر إما في جميعها أو في أكثرها ، وشرح آحاد هذه الأقسام يطول)** ومسألة الحصر فيه تعول ، **(ولكن انحصر هذا القسم في أربعة أنواع: الطاعات والمعاصي والصفات المهلكات والصفات المنجيات ، فلنذكر في كل نوع مثالاً ليقيس به المريد سائرها وينفتح له باب الفكر ويتسع عليه طريقه)** .

(النوع الأول: المعاصي ، ينبغي أن يفتش الإنسان صبيحة كل يوم في جميع أعضائه

السبعة تفصيلاً ، ثم بدنه على الجملة هل هو في الحال ملابس لمعصية بها فيتركها ؟ أو لابسها بالأمس فيتداركها بالترك والندم ؟ أو هو متعرّض لها في نهاره فيستعد للاحتراز والتباعد عنها ؟ فينظر في اللسان ويقول: إنه متعرّض للغيبة والكذب وتزكية النفس والاستهزاء بالغير والمماراة والممازحة والخوض فيما لا يعني ، إلى غير ذلك من المكاره ، فيقرّر أوّلاً في نفسه أنها مكروهة عند الله تعالى ويتفكر في شواهد القرآن والسنة على شدّة العذاب فيها ، ثم يتفكر في أحواله أنه كيف يتعرض لها من حيث لا يشعر ، ثم يتفكر أنه كيف يحترز منه ويعلم أنه لا يتم له ذلك إلا بالعزلة والانفراد ، أو بأن لا يجالس إلا صالحاً تقياً ينكر عليه مهما تكلم بما يكرهه الله ، وإلا فيضع حجراً في فيه إذا جالس غيره حتى يكون ذلك مذكراً له ؛ فهكذا يكون الفكر في حيلة الاحتراز . ويتفكر في سمعه أنه يصغي به إلى الغيبة والكذب وفضول الكلام وإلى اللهو والبدعة ، وأن ذلك إنما يسمعه من زيد ومن عمرو ، وأنه ينبغي أن يحترز عنه بالاعتزال أو بالنهي عن المنكر . فمهما كان ذلك فيتفكر في بطنه ؛ أنه إنما يعصى الله تعالى فيه بالأكل والشرب ، إما بكثرة الأكل من الحلال فإن ذلك مكروه عند الله ومقـوٍّ للشهوة التي هي سلاح الشيطان عدوّ الله ،

السبعة تفصيلاً) كل عضو على حدة **(ثم بدنه)** من حيث المجموع **(على الجملة هل هو في الحال)** الراهنة **(ملابس لمعصية بها فيتركها)** في تلك الحال **(أو لابسها بالأمس فيتداركها بالترك والندم)** والعزم على أن لا يعود لمثلها ، **(أو)** هو **(متعرض لها في نهاره)** فيما يستقبله **(فليستعد للاحتراز)** عنها **(والتباعد منها فينظر في اللسان ويقول: إنه متعرض للغيبة والكذب وتزكية النفس والاستهزاء بالغير والمماراة والممازحة والخوض فيما لا يعني، إلى غير ذلك من المكاره، فيقرر أولاً في نفسه أنها مكروهة عند الله تعالى ويتفكر في شواهد القرآن والسنة على شدة العذاب فيها)** وكثرة التوبيخ والعتاب على مرتكبيها ، **(ثم يتفكر في أحواله أنه كيف يتعرض لها من حيث لا يشعر ، ثم يتفكر أنه كيف يحترز منها ويعلم أنه لا يتم له ذلك إلا بالعزلة والانفراد عن الناس أو بأن لا يجالس إلا صالحاً تقياً)** ورعاً **(ينكر عليه مهما تكلم بما يكرهه الله تعالى، وإلا فيضع حجراً في فيه إذا جالس غيره حتى يكون ذلك مذكراً له)** كما كان الصديق رضي الله عنه يفعله. **(فهكذا يكون الفكر في حيلة الاحتراز ويتفكر في سمعه أنه يصغي به إلى الغيبة والكذب وفضول الكلام وإلى اللهو والبدعة، وأن ذلك إنما يسمعه من زيد ومن عمرو، وأنه ينبغي أن يحترز منهم بالاعتزال)** عنهم وعدم مجالستهم، **(وبالنهي عن المنكر مهما سمع ذلك، ويتفكر في بطنه أنه إنما يعصي الله تعالى فيه بالأكل والشرب إما بكثرة الأكل من الحلال)** الصرف ، **(فإن ذلك مكروه عند الله تعالى ومقو للشهوة التي هي سلاح الشيطان عدو الله، وإما بأكل**

وإما بأكل الحرام أو الشبهة فينظر من أين مطعمه وملبسه ومسكنه ومكسبه وما مكسبه. ويتفكر في طريق الحلال ومداخله. ثم يتفكر في طريق الحيلة في الاكتساب منه والاحتراز من الحرام، ويقرر على نفسه أن العبادات كلها ضائعة مع أكل الحرام، وأن أكل الحلال هو أساس العبادات كلها، وأن الله تعالى لا يقبل صلاة عبد في ثمن ثوبه درهم حرام كما ورد الخبر به. فهكذا يتفكر في أعضائه ففي هذا القدر كفاية عن الاستقصاء فمهما حصل بالتفكر حقيقة المعرفة بهذه الأحوال اشتغل بالمراقبة طول النهار حتى يحفظ الأعضاء عنها.

وأما النوع الثاني: وهو الطاعات: فينظر أولاً في الفرائض المكتوبة عليه أنه كيف يؤديها وكيف يحرسها عن النقصان والتقصير أو كيف يجبر نقصانها بكثرة النوافل. ثم يرجع إلى عضو عضو، فيتفكر في الأفعال التي تتعلق بها مما يحبه الله تعالى فيقول مثلاً: إن العين خلقت للنظر في ملكوت السموات والأرض عبرة، ولتستعمل في طاعة الله تعالى وتنظر في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأنا قادر على أن أشغل العين بمطالعة القرآن والسنة فلم لا أفعله؟ وأنا قادر على أن أنظر إلى فلان المطيع بعين التعظيم فأدخل

الحرام أو الشبهة فينظر من أين مطعمه وملبسه ومسكنه، ويتفكر في طريق الحلال ومداخله، ثم يتفكر في طريق الحيلة في الاكتساب منه والاحتراز من الحرام، ويقرر على نفسه أن العبادات كلها ضائعة مع أكل الحرام، وأن أكل الحلال هو أساس العبادات كلها، وأن الله تعالى لا يقبل صلاة عبد في ثمن ثوبه درهم حرام كما ورد الخبر به). رواه أحمد من حديث ابن عمر بسند فيه مجهول وقد تقدم؛ (**فهكذا يتفكر في أعضائه ففي هذا القدر كفاية عن الاستقصاء، فمهما حصل بالتفكر حقيقة المعرفة بهذه الأحوال اشتغل بالمراقبة طول النهار حتى يحفظ الأعضاء عنها**).

(**وأما النوع الثاني: وهو الطاعات. فينظر أولاً في الفرائض المكتوبة عليه أنه كيف يؤديها وكيف يحرسها عن النقصان والتقصير**) فيها (**أو كيف يجبر نقصانها بكثرة النوافل**) إذ قد ورد أن جبران الفرائض يكون بالنوافل، (**ثم يرجع إلى**) الحواس الخمس فينظر ما عليها من فعل واجب وترك حرام مستحب ومكروه واقتصاد في مباح، وكذا كل (**عضو عضو فيتفكر في الأفعال التي تتعلق بها مما يحبه الله فيقول مثلاً: إن العين خلقت للنظر في ملكوت السموات والأرض عبرة ولتستعمل في طاعة الله وتنظر في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأنا قادر على أن أشغل العين بمطالعة القرآن والسنة، فلم لا أفعله وأنا قادر على أن أنظر إلى فلان المطيع بعين التعظيم فأدخل السرور على قلبه**) فيزيد في طاعته، (و) أن

السرور على قلبه وأنظر إلى فلان الفاسق بعين الازدراء فأزجره بذلك عن معصيته فلم لا أفعله؟ وكذلك يقول في سمعه: إني قادر على استماع كلام ملهوف أو استماع حكمة وعلم أو استماع قراءة وذكر، فما لي أعطله وقد أنعم الله عليَّ به وأودعنيه لأشكره؟ فما لي أكفر نعمة الله فيه بتضييعه أو تعطيله؟ وكذلك يتفكر في اللسان ويقول: إني قادر على أن أتقرب إلى الله تعالى بالتعليم والوعظ والتودد إلى قلوب أهل الصلاح وبالسؤال عن أحوال الفقراء وإدخال السرور على قلب زيد الصالح وعمرو العالم بكلمة طيبة، وكل كلمة طيبة فإنها صدقة. وكذلك يتفكر في ماله فيقول: أنا قادر على أن أتصدق بالمال الفلاني فإني مستغن عنه، ومهما احتجت إليه رزقني الله تعالى مثله، وإن كنت محتاجاً الآن فأنا إلى ثواب الإيثار أحوج مني إلى ذلك المال. وهكذا يفتش عن جميع أعضائه وجملة بدنه وأمواله، بل عن دوابه وغلمانه وأولاده، فإن كل ذلك أدواته وأسبابه، ويقدر على أن يطيع الله تعالى بها، فيستنبط بدقيق الفكر وجوه الطاعات الممكنة بها، ويتفكر فيما يرغبه في البدار إلى تلك الطاعات ويتفكر في إخلاص النية فيها ويطلب لها مظانّ الاستحقاق حتى يزكو بها عمله وقس على هذا سائر الطاعات.

(أنظر إلى فلان الفاسق بعين الازدراء) أي الاحتقار **(فازجره بذلك عن معصيته فلم لا أفعله؟ وكذلك يقول في سمعه: إني قادر على استماع كلام ملهوف)** مضطر **(أو استماع حكمة وعلم أو استماع قراءة وذكر فمالي أعطله وقد أنعم الله علي به وأودعنيه لأشكره فمالي أكفر نعمة الله فيه بتضييعه وتعطيله؟ وكذلك يتفكر في اللسان ويقول: إني قادر على أن أتقرب إلى الله تعالى بالتعليم والوعظ والتودد إلى قلوب الصلاح)** أي الصالحين **(بالسؤال عن أحوال الفقراء وإدخال السرور على قلوب زيد الصالح وعمرو العالم بكلمة طيبة وكل كلمة طيبة فإنها صدقة)**، فقد روى ابن المبارك في الزهد، وأحمد، وأبو الشيخ من حديث أبي هريرة «الكلمة الطيبة صدقة». **(وكذلك يتفكر في ماله فيقول: أنا قادر على أن أتصدق بالمال الفلاني فإني مستغنٍ عنه، ومهما احتجت إليه رزقني الله مثله وإن كنت محتاجاً)** إليه **(الآن فأنا إلى ثواب الإيثار)** على الغير **(أحوج مني إلى ذلك المال، وهكذا يفتش عن جميع أعضائه وجملة بدنه)** بل **(و)** عن **(أمواله)** التي يملكها **(بل عن دوابه)** المعدة للركوب أو خدمة البيت أو الذبح **(وغلمانه)** من مشترى أو مستأجر من الذكور والإناث **(وأولاده)** وزوجته، **(فإن كل ذلك أدواته وأسبابه)** وتحت أمره ونهيه، **(ويقدر على أن يطيع الله تعالى بها فيستنبط بدقيق الفكر وجوه الطاعات الممكنة بها ويتفكر فيما يرغبه)** وينشطه **(في البدار)** أي المسارعة **(إلى تلك الطاعات، ويتفكر في إخلاص النية)** وإمحاضها **(فيها ويطلب لها مظان الاستحقاق حتى يزكو بها عمله)**، فبالنيات الخالصة تزكو الأعمال. **(وقس على هذا سائر الطاعات)** البدنية من الواجبات من زكاة وصيام وحج وجهاد.

وأما النوع الثالث: فهي الصفات المهلكة التي محلها القلب: فيعرفها مما ذكرناه في ربع المهلكات: وهي استيلاء الشهوة والغضب والبخل والكبر والعجب والرياء والحسد وسوء الظن والغفلة والغرور وغير ذلك، ويتفقد من قلبه هذه الصفات: فإن ظن أن قلبه منزه عنها فيتفكر في كيفية امتحانه والاستشهاد بالعلامات عليه، فإن النفس أبداً تعد بالخير من نفسها وتخلف، فإذا ادعت التواضع والبراءة من الكبر فينبغي أن تجرب بحمل حزمة حطب في السوق، كما كان الأوّلون يجربون به أنفسهم. وإذا ادعت الحلم تعرض لغضب يناله من غيره ثم يجربها في كظم الغيظ وكذلك في سائر الصفات. وهذا تفكر في أنه هل موصوف بالصفة المكروهة أم لا؟ ولذلك علامات ذكرناها في ربع المهلكات، فإذا دلت العلامة على وجودها فكر في الأسباب التي تقبح تلك الصفات عنده وتبين أن منشأها من الجهل والغفلة وخبث الدخلة. كما لو رأى في نفسه عجباً بالعمل، فيتفكر ويقول إنما عملي ببدني وجارحتي وبقدرتي وإرادتي، وكل ذلك ليس مني ولا إليّ وإنما هو من خلق الله وفضله عليّ، فهو الذي خلقني وخلق جارحتي وخلق قدرتي وإرادتي،

(**وأما النوع الثالث، فهي الصفات المهلكة التي محلها القلب فيعرفها مما ذكرناه في ربع المهلكات وهي: استيلاء الشهوة والغضب**) لغير الله تعالى (**والبخل والكبر والعجب والرياء والحسد وسوء الظن والغفلة والغرور وغير ذلك**) مما ذكر في ربع المهلكات، فإنها وأمثالها مغارس الفواحش ومنابت الأعمال المحظورة، فهل يسمع بهذه عاقل ويستريب أن يكون الفكر فيها أو في أكثرها واجباً فرض عين. هذا على سبيل الإجمال. (و) أما التفصيل فإنه (**يتفقد من قلبه هذه الصفات فإن ظن أن قلبه منزه عنها فيتفكر في كيفية امتحانه**) واختباره (**والاستشهاد بالعلامات عليه فإن النفس أبداً**) من طبعها أنها (**تعد بالخير من نفسها وتخلف، فإذا ادعت التواضع والبراءة من الكبر فينبغي أن تجرب بحمل حزمة حطب في السوق**) ويمشي به إلى بيته (**كما كان الأولون يجربون به أنفسهم**). وقد نقل ذلك عن أبي هريرة رضي الله عنه حين كان متخلفاً بالمدينة وهو عند أبي نعيم في الحلية. (**وإذا ادعت الحلم تعرض لغضب يناله من غيره ثم يجربها في كظم الغيظ**) فانظر هل تثبت أم لا، (**وكذلك في سائر الصفات هذا تفكر في أنه هل هو موصوف بالصفة المكروهة أم لا، ولذلك علامات ذكرناها**) في ربع المهلكات فإذا دلت العلامة على وجودها فكر في الأسباب التي تقبح تلك الصفات وتبين أن منشأها من الجهل والغفلة وخبث الدخلة أي الباطن، (**كما لو رأى نفسه عجباً بالعمل فيتفكر ويقول: أنا عملي بيدي وجارحتي وبقدرتي وإرادتي، وكل ذلك ليس مني ولا إلي. وإنما هو من خلق الله وفضله علي فهو الذي خلقني وخلق جارحتي وخلق قدرتي**

وهو الذي حرّك أعضائي بقدرته وكذلك قدرتي وإرادتي فكيف أعجب بعملي أو بنفسي ولا أقوم لنفسي بنفسي؟ فإذا أحس في نفسه بالكبر قرر على نفسه ما فيه من الحماقة ويقول لها: لم ترين نفسك أكبـر والكبير من هو عند الله كبير وذلك ينكشف بعد الموت. وكم من كافر في الحال يموت مقرباً إلى الله تعالى بنزوعه عن الكفر، وكم من مسلم يموت شقياً بتغير حاله عند الموت بسوء الخاتمة. فإذا عرف أن الكبر مهلك وأن أصله الحماقة فيتفكر في علاج إزالة ذلك بأن يتعاطى أفعال المتواضعين. وإذا وجد في نفسه شهوة الطعام وشرهه تفكر في أن هذه صفة البهائم، ولو كان في شهوة الطعام والوقاع كمال لكان ذلك من صفات الله وصفات الملائكة كالعلم والقدرة، ولما اتصف به البهائم، ومهما كان الشره عليه أغلب كان بالبهائم أشبه وعن الملائكة المقرّبين أبعد، وكذلك يقرر على نفسه في الغضب، ثم يتفكر في طريق العلاج، وكل ذلك ذكرناه في هذه الكتب. فمن يريد أن يتسع له طريق الفكر فلا بدّ له من تحصيل ما في هذه الكتب.

وأما النوع الرابع: وهو المنجيات: فهو التوبة والندم على الذنوب، والصبر على البلاء، والشكر على النعماء، والخوف، والرجاء، والزهد في الدنيا والإخلاص، والصدق في الطاعات، ومحبة الله وتعظيمه والرضا بأفعاله والشوق إليه والخشوع والتواضع له.

وإرادتي، وهو الذي حرك أعضائي بقدرته وكذلك قدرتي وإرادتي، فكيف أعجب بعملي أو بنفسي ولا أقوم لنفسي بنفسي؟ فإذا أحس في نفسه بالكبر قرر على نفسه ما فيه من الحماقة) وهي فساد جوهر العقل **(ويقول لها: لم ترين نفسك أكبـر والكبير من هو عند الله كبير وذلك)** إنما **(يـنكشـف بعد الموت، وكم من كافر في الحال يموت مقرباً إلى الله بنزوعه عن الكفر، وكم من مسلم يموت شقياً بتغير حاله عند الموت بسوء الخاتمة)** عياذاً بالله منه، **(فإذا عرفت أن الكبر مهلك وأن أصله الحماقة فيتفكر في علاج إزالة ذلك بأن يتعاطى أفعال المتواضعين وإذا وجد في نفسه شهوة الطعام وشرهه)** أي الحرص عليه **(تفكر في أن هذه صفة البهائم، ولو كان في شهوة الطعام والوقاع كمال لكان ذلك من صفات الله وصفات الملائكة كالعلم والقدرة ولما اتصف به البهائم، ومهما كان الشره عليه أغلب كان بالبهائم أشبه وعن الملائكة المقربين أبعد، وكذلك يقرر على نفسه في الغضب ثم يتفكر في طريق العلاج. وكل ذلك ذكرناه في هذه الكتب)** في ربع المهلكات، **(فمن يريد أن يتسع له طريق الفكر فلا بد له من تحصيل ما في هذه الكتب.**

(وأما النوع الرابع: وهو المنجيات فهو التوبة والندم على الذنوب والصبر على البلاء والشكر على النعماء والخوف والرجاء والزهد في الدنيا والاخلاص والصدق في الطاعات ومحبة الله وتعظيمه والرضا بأفعاله والشوق إليه والخشوع والتواضع له)، وهذه كلها من

وكل ذلك ذكرناه في هذا الربع وذكرنا أسبابه وعلاماته. فليتفكر العبد كل يوم في قلبه ما الذي يعوزه من هذه الصفات التي هي المقربة إلى الله تعالى؟ فإذا افتقر إلى شيء منها فليعلم أنها أحوال لا يثمرها إلا علوم، وأن العلوم لا يثمرها إلا أفكار. فإذا أراد أن يكتسب لنفسه أحوال التوبة والندم، فليفتش ذنوبه أولاً وليتفكر فيها وليجمعها على نفسه وليعظمها في قلبه. ثم لينظر في الوعيد والتشديد الذي ورد في الشرع فيها وليتحقق عند نفسه أنه متعرض لمقت الله تعالى، حتى ينبعث له حال الندم. وإذا أراد أن يستثير من قلبه حال الشكر فلينظر في إحسان الله إليه وأياديه عليه وفي إرساله جميل ستره عليه على ما شرحنا بعضه في كتاب الشكر فليطالع ذلك، وإذا أراد حال المحبة والشوق؛ فليتفكر في جلال الله وجماله وعظمته وكبريائه وذلك بالنظر في عجائب حكمته وبدائع صنعه كما سنشير إلى طرف منه في القسم الثاني من الفكر، وإذا أراد حال الخوف فلينظر أولاً في ذنوبه الظاهرة والباطنة، ثم لينظر في الموت وسكراته، ثم فيما بعد من سؤال منكر ونكير وعذاب القبر وحياته وعقاربه وديدانه، ثم في هول النداء عند نفخة الصور، ثم في هول المحشر عند جميع الخلائق على صعيد واحد، ثم في المناقشة في الحساب والمضايقة في النقير والقطمير، ثم في الصراط ودقته وحدّته، ثم في خطر الأمر عنده أنه

مقامات اليقين بعضها أصول وبعضها ثمرات. (**وكل ذلك ذكرناه في هذا الربع**) في كتب مستقلة، (**وذكرنا أسبابه وعلاماته، فليتفكر العبد كل يوم في قلبه ما الذي يعوزه من هذه الصفات التي هي المقربة إلى الله تعالى، فإذا افتقر إلى شيء منها فليعلم أنها أحوال لا تثمرها إلا علوم وأن العلوم لا تثمرها إلا أفكار، فإذا أراد أن يكتسب لنفسه حال التوبة والندم فليفتش ذنوبه أولاً وليتفكر فيها وليجمعها على نفسه وليعظمها في قلبه، ثم لينظر في الوعيد والتشديد الذي ورد في الشرع فيها**) على الخصوص، (**وليحقق عند نفسه أنه متعرض لمقت الله**) وغضبه (**به حتى ينبعث له حال الندم، وإذا أراد أن يستثير من قلبه حال الشكر فلينظر في إحسان الله إليه وأياديه**) المتواترة (**عليه في إرسال جميل ستره عليه على ما شرحنا بعضه في كتاب الشكر، وليطالع ذلك**) ليتسع فكره. (**وإذا أراد حال المحبة والشوق فليتفكر في جلال الله وجماله وعظمته وكبريائه وذلك بالنظر في عجائب حكمته وبدائع صنعه، كما سنشير إلى طرف منه في القسم الثاني من الفكر، فإذا أراد حال الخوف فلينظر أولاً في ذنوبه الظاهرة والباطنة، ثم لينظر في الموت وسكراته، ثم فيما بعده من سؤال منكر ونكير وعذاب القبر وحياته وعقاربه وديدانه، ثم في هول النداء عند نفخة الصور، ثم في هول المحشر عند جمع الخلائق على صعيد واحد، ثم في المناقشة في الحساب والمضايقة في النقير والقطمير وفي الصراط ورقته وحدته، ثم في خطر الأمر عنده أنه**) هل

يصرف إلى الشمال فيكون من أصحاب النار ، أو يصرف إلى اليمين فينزل دار القرار ، ثم ليحضر بعد أهوال القيامة في قلبه صورة جهنم ودركاتها ومقامعها وأهوالها وسلاسلها وأغلالها وزقومها وصديدها ، وأنواع العذاب فيها وقبح صور الزبانية الموكلين بها ، وأنهم كلما نضجت جلودهم بدّلوا جلوداً غيرها . وأنهم كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ، وأنهم إذا رأوا من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً وهلم جرا ، إلى جميع ما ورد في القرآن من شرحها ، وإذا أراد أن يستجلب حال الرجاء . فلينظر إلى الجنة ونعيمها وأشجارها وأنهارها وحورها وولدانها ونعيمها المقيم وملكها الدائم، فهكذا طريق الفكر الذي يطلب به العلوم التي تثمر اجتلاب أحوال محبوبة أو التنزه عن صفات مذمومة ، وقد ذكرنا في كل واحد من هذه الأحوال كتاباً مفرداً يستعان به على تفصيل الفكر ، أما بذكر مجامعه فلا يوجد فيه أنفع من قراءة القرآن بالتفكر ، فإنه جامع لجميع المقامات والأحوال وفيه شفاء للعالمين ، وفيه ما يورث الخوف والرجاء والصبر والشكر والمحبة والشوق وسائر الأحوال ، وفيه ما يزجر عن سائر الصفات المذمومة ، فينبغي أن يقرأه العبد ويردد الآية التي هو محتاج إلى التفكر فيها مرة بعد أخرى ولو مائة مرة! فقراءة آية بتفكر وفهم خير من ختمة بغير تدبر وفهم ، فليتوقف في التأمل فيها ولو ليلة

(يصرف إلى الشمال فيكون من أصحاب النار أو يصرف إلى اليمين فينزل دار القرار . ثم ليحضر بعد أهوال القيامة في قلبه صورة جهنم ودركاتها ومقامعها وأهوالها وسلاسلها وأغلالها وزقومها وصديدها وأنواع العذاب فيها وقبح صور الزبانية الموكلين بها ، وأنه كلما نضجت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها ، وأنهم كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ، وأنهم إذا رأوها من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً وهلم جرا ، إلى جميع ما ورد في القرآن من شرحها) ، فيتفكر فيها ويتأمل في معانيها . **(وإذا أراد أن يستجلب حال الرجاء ، فلينظر إلى الجنة ونعيمها وأشجارها وأنهارها وحورها وولدانها ونعيمها المقيم وملكها الدائم ، فهكذا طريق الفكر الذي تطلب به العلوم التي تثمر اجتلاب أحوال محبوبة أو التنزه عن صفات مذمومة ، وقد ذكرنا في كل واحد من هذه الأحوال كتاباً مفرداً يستعان به على تفصيل الفكر . أما بذكر مجامعه فلا يوجد فيه)** أجع ولا **(أنفع من قراءة القرآن بالتفكر فإنه جامع لجميع المقامات والأحوال)** وهو الترياق الأكبر ، **(وفيه شفاء للعالمين)** ورحمة للمؤمنين ، **(وفيه ما يورث الخوف والرجاء والصبر والشكر والمحبة والشوق وسائر الأحوال)** المذكورة ، **(وفيه ما يزجر عن سائر الصفات المذمومة فينبغي أن يقرأه العبد ويردد الآية التي هو محتاج إلى التفكر فيها مرة بعد أخرى ولو مائة مرة)** حتى يعثر على مقصوده منها ، ومتى دام العبد على ذلك ظهر قلبه وغزر علمه **(فقراءة آية بتفكر**

واحدة، فإن تحت كل كلمة منها أسرار لا تنحصر ولا يوقف عليها إلا بدقيق الفكر عن صفاء القلب بعد صدق المعاملة. وكذلك مطالعة أخبار رسول الله ﷺ فإنه قد أوتي جوامع الكلم، وكل كلمة من كلماته بحر من بحور الحكمة، ولو تأملها العالم حق التأمل لم ينقطع فيها نظره طول عمره. وشرح آحاد الآيات والأخبار يطول فانظر إلى قوله ﷺ: «إن روح القدس نفث في روعي: أحبب من أحببت فإنك مفارقه وعش ما شئت فإنك ميت واعمل ما شئت فإنك مجزى به» فإن هذه الكلمات جامعة حكم الأوّلين والآخرين وهي كافية للمتأملين فيها طول العمر، إذ لو وقفوا على معانيها وغلبت على قلوبهم غلبة يقين لاستغرقتهم ولحال ذلك بينهم وبين التلفت إلى الدنيا بالكلية. فهذا هو طريق الفكر في علوم المعاملة وصفات العبد من حيث هي محبوبة عند الله تعالى أو مكروهة. والمبتدىء ينبغي أن يكون مستغرق الوقت في هذه الأفكار حتى يعمر قلبه بالأخلاق المحمودة، والمقامات الشريفة وينزه باطنه وظاهره عن المكاره، وليعلم أن هذا مع أنه أفضل من سائر العبادات فليس هو غاية المطلب، بل المشغول به

وفهم خير من ختمة) كاملة **(بغير تدبر وفهم)**، فقد روى الدارقطني في الإفراد من حديث ابن عمر بسند ضعيف. «لا قراءة إلا بتدبر ولا عبادة إلا بفقه ومجلس فقه خير من عبادة ستين سنة». **(وليتوقف في التأمل فيها ولو ليلة واحدة)** كما نقل ذلك عن جماعة من السلف، **(فإن تحت كل كلمة منها أسراراً لا تنحصر ولا يوقف عليها إلا بدقيق الفكر عن صفاء القلب بعد صدق المعاملة)** بينه وبين الله تعالى، وعجائب القرآن لا تحصى وقد مرت الإشارة إلى طرف من ذلك في كتاب ترتيب الأوراد، **(وكذلك مطالعة أخبار رسول الله ﷺ فإنه قد أوتي جوامع الكلم)** كما ورد به الخبر، **(وكل كلمة من كلماته بحر من بحور الحكمة لو تأملها العالم)** البصير **(حق التأمل لم ينقطع فيها نظره طول عمره، وشرح آحاد الآيات والأخبار يطول فانظر إلى قوله ﷺ «إن روح القدس نفث في روعي أحبب من أحببت فإنك مفارقه وعش ما شئت فإنك ميت واعمل ما شئت فإنك مجزى به»)** تقدم قريباً، وفي كتاب الفقه وفي كتاب العلم، **(فإن هذه الكلمات جامعة حكم الأولين والآخرين وهي كافية للمتأملين فيها طول العمر إذ لو وقفوا على معانيها وغلبت على قلوبهم غلبة يقين)** مع فراغها من شغل آخر **(لاستغرقتهم، ولحال ذلك بينهم وبين التلفت إلى الدنيا بالكلية، فهذا هو طريق الفكر في علوم المعاملة وصفات العبد من حيث محبوبة عند الله أو مكروهة والمبتدىء)** في السلوك **(ينبغي أن يكون مستغرق الوقت في هذه الأفكار حتى يعمر قلبه بالأخلاق المحمودة والمقامات الشريفة)** والأحوال المنيفة **(وينزه باطنه وظاهره عن المكاره)** والأخلاق السيئة، **(وليعلم أن هذا مع أنه أفضل من سائر العبادات)** إذ عريت عنه

محجوب عن مطلب الصدّيقين وهو التنعم بالفكر في جلال الله تعالى، وجماله واستغراق القلب بحيث يفنى عن نفسه، أي ينسى نفسه وأحواله ومقاماته وصفاته فيكون مستغرق الهم بالمحبوب؛ كالعاشق المستهتر عند لقاء الحبيب فإنه لا يتفرّغ للنظر في أحوال نفسه وأوصافها، بل يبقى كالمبهوت الغافل عن نفسه وهو منتهى لذة العشاق. فأما ما ذكرناه فهو تفكر في عمارة الباطن ليصلح للقرب والوصال، فإذا ضيع جميع عمره في إصلاح نفسه فمتى يتنعم بالقرب؟ ولذلك كان الخواص يدور في البوادي فلقيه الحسين بن منصور وقال: فيم أنت؟ قال: أدور في البوادي أصلح حالي في التوكل، فقال الحسين: أفنيت عمرك في عمران باطنك فأين الفناء في التوحيد؟ فالفناء في الواحد الحق هو غاية مقصد الطالبين ومنتهى نعيم الصدّيقين. وأما التنزه عن الصفات المهلكات فيجري مجرى الخروج عن العدّة في النكاح. وأما الاتصاف بالصفات المنجيات وسائر الطاعات فيجري مجرى تهيئة المرأة جهازها وتنظيفها وجهها ومشطها شعرها لتصلح بذلك للقاء زوجها، فإن استغرقت جميع عمرها في تبرئة الرحم وتزيين الوجه كان ذلك حجاباً لها عن لقاء

(**فليس هو غاية المطلب**) للسالكين ولا هو الحد الذي يقفون عليه، (**بل المشغول به محجوب عن مطلب الصديقين وهو التنعم بالفكر في جلال الله تعالى وجماله واستغراق القلب**) فيه (**بحيث يفنى عن نفسه أي ينسى نفسه وأحواله ومقاماته صفاته، فيكون مستغرق الهم بالمحبوب كالعاشق المستهتر عند لقاء الحبيب فإنه لا يتفرغ للنظر في أحوال نفسه وأوصافها بل يبقى كالمبهوت الغافل عن نفسه**) لا يحس بنفسه أصلاً (**وهو منتهى لذة العشاق**) الصادقين. (**فأما ما ذكرناه فهو تفكر في عمارة الباطن ليصلح للقرب والوصال، فإذا ضيع جميع عمره في إصلاح نفسه فمتى يتنعم بالقرب، ولذلك كان**) إبراهيم بن أحمد (**الخواص**) رحمه الله تعالى (**يدور في البوادي**) المتقطعة على قدم التوكل ويقاسي فيها أهوالاً من نفسه ومن الجن، (**فلقيه**) أبو المغيث (**الحسين بن منصور**) الحلاج رحمه الله تعالى (**وقال**) له: (**فيم أنت**) وكيف سلوكك؟ (**قال: أدور في البوادي أصلح حالي في التوكل. فقال: أفنيت عمرك في عمران باطنك فأين**) أنت عن (**الفناء في التوحيد**)؟ رواه القشيري في الرسالة وتقدم في كتاب التوكل. وقال: وكان الحلاج طالبه بالمقام الثالث من التوكل. (**فالفناء في الواحد الحق هو غاية مقصد الطالبين ومنتهى نعيم الصديقين**) وما بعده مرقى للسالكين، (**وأما التنزه عن الصفات المهلكات**) فإنه (**يجري مجرى الخروج عن العدة في النكاح، وأما الإتصاف بالصفات المنجيات وسائر الطاعات**) فإنه (**يجري مجرى تهيئة المرأة جهازها**) أي اسبابها من لبس وفرش وغير ذلك (**وتنظيفها وجهها**) بالتخفيف (**ومشطها شعرها**) واستعمالها الطيب (**لتصلح بذلك للقاء زوجها**) وتقع من قلبه موقع المحبة والإعجاب، (**فإن استغرقت**) هي (**جميع عمرها في تبرئة الرحم وتزيين الوجه**) وإحضار الملابس (**كان**) ذلك (**حجاباً**

المحبوب. فهكذا ينبغي أن تفهم طريق الدين إن كنت من أهل المجالسة، وإن كنت كالعبد السوء لا يتحرك إلا خوفاً من الضرب وطمعاً في الأجرة فدونك وإتعاب البدن بالأعمال الظاهرة، فإن بينك وبين القلب حجاباً كثيفاً، فإذا قضيت حق الأعمال كنت من أهل الجنة ولكن للمجالسة أقوام آخرون. وإذا عرفت مجال الفكر في علوم المعاملة التي بين العبد وبين ربه، فينبغي أن تتخذ ذلك عادتك وديدنك صباحاً ومساءً، فلا تغفل عن نفسك وعن صفاتك المبعدة من الله تعالى وأحوالك المقرّبة إليه سبحانه وتعالى، بل كل مريد فينبغي أن يكون له جريدة يثبت فيها جملة الصفات المهلكات وجملة الصفات المنجيات وجملة المعاصي والطاعات ويعرض نفسه عليها كل يوم ويكفيه من المهلكات النظر في عشرة فإنه إن سلم منها سلم من غيرها وهي: البخل والكبر، والعجب، والرياء، والحسد، وشدّة الغضب، وشره الطعام، وشره الوقاع، وحب المال وحب الجاه، ومن المنجيات عشرة: الندم على الذنوب، والصبر على البلاء، والرضا بالقضاء، والشكر على النعماء، واعتدال الخوف والرجاء، والزهد في الدنيا، والإخلاص في الأعمال، وحسن

لها عن لقاء المحبوب؛ فهكذا ينبغي أن تفهم طريق الدين إن كنت من أهل المجالسة) والمؤانسة، (**وإن كنت كالعبد السوء**) والأجير السوء (**لا يتحرك إلا خوفاً من الضرب وطمعاً في الأجرة**) فإن لم يخف أو لم يطمع في الأجرة لم يتحرك، (**فدونك وإتعاب البدن**) وارتكاب المشقة (**بالأعمال الظاهرة**) من قيام وصلاة وقراءة وصيام وجهاد وغير ذلك، (**فإن بينك وبين القلب حجاباً كثيفاً فإذا قضيت حق الأعمال كنت من أهل الجنة ولكن للمجالسة أقوام آخرون**) اصطفاهم الله لذلك، (**وإذا عرفت مجال الفكر في علوم المعاملة التي بين العبد وبين ربه فينبغي أن تتخذ ذلك عادتك وديدنك صباحاً ومساء فلا تغفل عن نفسك وعن صفاتك المبعدة من الله تعالى وأحوالك المقربة إليه سبحانه وتعالى، بل كل مريد**) لطريق السلوك (**فينبغي أن تكون له جريدة**) وهي الدفتر المتخذ للحساب (**يثبت فيها جملة الصفات المهلكات، وجملة الصفات والمنجيات، وجملة المعاصي والطاعات ويعرض نفسه عليها كل يوم**) ويحاسبها بها ويدقق عليها، وهكذا كانت أحوال السلف من الأولياء الكرام كما نقل ذلك الشيخ محي الدين بن العربي ـ قدس سره عن مشايخه وقد تقدم نقله في كتاب المحاسبة. (**ويكفيه من المهلكات النظر في عشر**) صفات (**فإنه إن سلم منها سلم من غيرها وهي البخل والكبر والعجب والرياء والحسد وشدة الغضب**) لغير الله تعالى (**وشره الطعام وشره الوقاع وحب المال وحب الجاه**)، فإن هذه العشرة أصول وما عدا ذلك يتفرع منها. (**ومن المنجيات عشر**) صفات: (**الندم على الذنوب، والصبر على البلاء، والرضا بالقضاء، والشكر على النعماء، واعتدال الخوف والرجاء، والزهد في الدنيا، والإخلاص**

الخلق مع الخلق، وحب الله تعالى، والخشوع له. فهذه عشرون خصلة عشر مذمومة، وعشر محمودة فمهما كفى من المذمومات واحدة فيخط عليها في جريدته، ويدع الفكر فيها، ويشكر الله تعالى على كفايته إياها وتنزيه قلبه عنها، ويعلم أنه ذلك لم يتم إلا بتوفيق الله تعالى وعونه ولو وكله إلى نفسه لم يقدر على محو أقل الرذائل عن نفسه، فيقبل على التسعة الباقية، وهكذا يفعل حتى يخط على الجميع، وكذلك يطالب نفسه بالاتصاف بالمنجيات، فإذا اتصف بواحدة منها كالتوبة والندم مثلاً خط عليها واشتغل بالباقي، وهذا يحتاج إليه المريد المشمر. وأما أكثر الناس من المعدودين من الصالحين فينبغي أن يثبتوا في جرائدهم المعاصي الظاهرة؛ كأكل الشبهة وإطلاق اللسان بالغيبة والنميمة والمراء والثناء على النفس، والإفراط في معاداة الأعداء وموالاة الأولياء والمداهنة مع الخلق في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن أكثر من يعد نفسه من وجوه الصالحين لا ينفك عن جملة من هذه المعاصي في جوارحه، وما لم يطهر الجوارح عن الآثام لا يمكن الاشتغال بعمارة القلب وتطهيره. بل كل فريق من الناس يغلب عليهم نوع من المعصية، فينبغي أن يكون تفقدهم لها وتفكرهم فيها لا في معاصٍ

في الأعمال، وحسن الخلق مع الخلق، وحب الله تعالى والخشوع له)؛ فهذه العشرة كذلك أصول وما عدا ذلك يتفرع منها، (**فهذه عشرون خصلة عشر مذمومة وعشر محمودة، فمهما كفى من المذمومات واحدة فيخط عليها في جريدته ويدع الفكر فيها ويشكر الله تعالى على كفايته إياها وتنزيه قلبه عنها، ويعلم أن ذلك لم يتم إلا بتوفيق الله تعالى وعونه ولو وكله إلى نفسه لم يقدر على محو أقل الرذائل عن نفسه فيقبل على التسعة الباقية، وهكذا يفعل حتى يخط على الجميع، وكذا يطالب نفسه بالاتصاف بالمنجيات، فإذا اتصف بواحدة منها كالتوبة والندم مثلاً خط عليها واشتغل بالباقي، وهذا يحتاج إليه المريد المشمر، وأما أكثر الناس من المعدودين في زمرة الصالحين)** والمتسمين بظاهر الفضل، (**فينبغي أن يثبتوا في جرائدهم المعاصي الظاهرة كأكل الشبهة وإطلاق اللسان بالغيبة والنميمة والمراء والثناء على النفس والإفراط في معاداة الأعداء وموالاة الأولياء والمداهنة مع الخلق في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)** وتعظيم الأغنياء والاستهانة بالفقراء والتنافس والاستكبار عن الحق وحب كثرة الكلام والخوض فيما لا يعني وشدة الانتصار للنفس إذا نالها ذل والأنس بالمخلوقين والوحشة لفراقهم؛ فهذه وأمثالها معاص ظاهرة وهي مغارس الفواحش ومنابت الأعمال المحظورة، (**فإن أكثر من يعد نفسه من وجوه الصالحين لا ينفك عن جملة من هذه المعاصي في جوارحه وما لم يطهر الجوارح عن الآثام لا يمكن الاشتغال بعمارة القلب وتطهيره، بل كل فريق من الناس يغلب عليهم نوع من المعصية)** خاص، (**فينبغي أن يكون تفقدهم لها**

هم بمعزل عنها مثاله: العالم الورع، فإنه لا يخلو في غالب الأمر عن إظهار نفسه بالعلم وطلب الشهرة وانتشار الصيت إما بالتدريس أو بالوعظ، ومن فعل ذلك تصدّى لفتنة عظيمة لا ينجـو منها إلا الصدّيقون، فإنه إن كان كلامه مقبولاً حسن الوقع في القلوب لم ينفك عن الإعجاب والخيلاء والتزين والتصنع، وذلك من المهلكات وإنّ رد كلامه لم يخل عن غيظ وأنفة وحقد على من يرده، وهو أكثر من غيظه على من يرد كلام غيره، وقد يلبس الشيطان عليه ويقول: إنّ غيظك من حيث أنه رد الحق وأنكره، فإن وجد تفرقة بين أن يرد عليه كلامه أو يرد على عالم آخر فهو مغرور وضحكة للشيطان، ثم مهما كان له ارتياح بالقبول وفرح بالثناء واستنكاف من الرد أو الإعراض لم يخل عن تكلف وتصنع لتحسين اللفـظ والإيـراد، حـرصـاً على استجلاب الثنـاء والله لا يحب المتكلفين، والشيطان قد يلبس عليه ويقول: إنما حرصك على تحسين الألفاظ والتكلف فيها لينتشر الحق ويحسن موقعه في القلب اعلاء لدين الله. فإن كان فرحه بحسن ألفاظه وثناء الناس عليه أكثر من فرحه بثناء الناس على واحد من أقرانه فهو مخدوع، وإنما يدورون حول طلب الجاه وهو يظن أن مطلبه الدين! ومهما اختلج ضميره بهذه الصفات ظهر على ظاهره ذلك، حتى يكون للموقر له المعتقد لفضله أكثر احتراماً ويكون بلقائه

وتفكرهم فيها لا في معاص هم بمعزل عنها مثاله العالم الورع فإنه لا يخلو في غالب الأمر عن إظهار نفسه بالعلم وطلب الشهرة) بين الناس **(وانتشار الصيت إما بالتدريس أو بالوعظ)** والتذكير، **(ومن فعل ذلك تصدى لفتنة عظيمة لا ينجو منها إلا الصديقون فإنه إن كان كلامه مقبولاً حسن الوقع في القلوب لم ينفك عن الإعجاب والخيلاء والتزين والتصنع وذلك من المهلكات)** كما تقدم بيان ذلك في مواضعه، **(وإن رد كلامه لم يخل عن غيظ)** وحنق **(وأنفة وحقد على من يرده هو أكثر من غيظه على من يرد كلام غيره، وقد يلبس الشيطان عليه ويقول: إن غيظك من حيث أنه رد الحق وأنكره فإن وجد تفرقة بين أن يرد عليه كلامه أو يرد على عالم آخر فهو مغرور وضحكة للشيطان، ثم مهما كان له ارتياح بالقبول وفرح بالثناء واستنكاف من الرد والإعراض لم يخل عن تكلف وتصنع لتحسين اللفظ والإيراد حرصاً على استجلاب الثناء والله لا يحب المتكلفين، والشيطان قد يلبس عليه ويقول: إنما حرصك على تحسين الألفاظ والتكلف فيها لينتشر فيها الحق ويحسن موقعه في القلب إعلاء لدين الله)** وجمعاً للناس على كلمة الحق، **(فإن كان فرحه بحسن ألفاظه وثناء الناس عليه أكثر من فرحه بثناء الناس على واحد من أقرانه فهو مخدوع، وإنما يدندن حول طلب الجاه وهو يظن أن مطلبه الدين ومهما اختلج ضميره بهذه الصفات ظهر على ظاهره ذلك حتى يكون للموقر له المعتقد لفضله أكثر**

أشدّ فرحاً واستبشاراً ممن يغلو في موالاة غيره، وإن كان ذلك الغير مستحقاً للموالاة، وربما ينتهي الأمر بأهل العلم إلى أن يتغايروا تغاير النساء، فيشق على أحدهم أن يختلف بعض تلامذته إلى غيره وإن كان يعلم أنه منتفع بغيره ومستفيد منه في دينه، وكل ذلك رشح الصفات المهلكات المستكنة في سر القلب التي قد يظن العالم النجاة منها وهو مغرور فيها، وإنما ينكشف ذلك بهذه العلامات، فتنة العالم عظيمة وهو إما مالك وإما هالك، ولا مطمع له في سلامة العوام. فمن أحس في نفسه بهذه الصفات فالواجب عليه العزلة والانفراد وطلب الخمول والمدافعة للفتاوى مهما سئل. فقد كان المسجد يحوي في زمن الصحابة رضي الله تعالى عنهم جمعاً من أصحاب رسول الله ﷺ كلهم مفتون، وكانوا يتدافعون الفتوى. وكل من كان يفتي كان يود أن يكفيه غيره. وعند هذا ينبغي أن يتقي شياطين الإنس إذا قالوا لا تفعل هذا، فإن هذا الباب لو فتح لاندرست العلوم من بين الخلق، وليقل لهم: إن دين الإسلام مستغن عني، فإنه قد كان معموراً قبلي وكذلك يكون بعدي، ولو مت لم تنهدم أركان الإسلام فإن الدين مستغن عني وأنا فلست مستغنياً عن إصلاح قلبي. وأما أداء ذلك إلى اندراس العلم فخيال يدل على غاية الجهل،

احتراماً ويكون بلقائه أشد فرحاً واستبشاراً ممن يغلو في موالاة غيره، وإن كان ذلك الغير مستحقاً للموالاة، وربما ينتهي الأمر بأهل العلم إلى أن يتغايروا تغاير النساء) أو تغاير التيوس في الزريبة كما ورد بذلك الخبر، (فيشق على أحدهم أن يختلف بعض تلامذته إلى غيره وإن كان يعلم أنه منتفع بغيره ومستفيد منه في دينه، وكل هذا رشح الصفات المهلكات المستكنة في سر القلب) أي باطنه (التي قد يظن العالم النجاة منها وهو مغرور فيها، وإنما ينكشف ذلك بهذه العلامات ففتنة العالم عظيمة وهو إما مالك وإما هالك) والهلاك أكثر (ولا مطمع له في سلامة العوام) فإن العوام قد يعذرون بخلاف العالم، (فمن أحس في نفسه بهذه الصفات فالواجب عليه العزلة) عن الناس (والانفراد وطلب الخمول والمدافعة للفتاوى مهما سئل، فقد كان المسجد) النبوي (يحوي في زمن الصحابة رضي الله عنهم) جمعاً (من أصحاب رسول الله ﷺ كلهم مفتون وكانوا) مع ذلك (يتدافعون الفتوى) يدفعه أحدهم إلى صاحبه، (وكل من كان يفتي كان يود أن يكفيه غيره) هذا المهم نقله صاحب القوت وتقدم في كتاب العلم، (وعند هذا ينبغي أن يتقي شياطين الأنس) فضررهم أشد من ضرر شياطين الجن وليحذر منهم، (إذا قالوا) لك: (لا تفعل هذا فإن هذا الباب لو فتح لاندرست العلوم من بين الخلق، وليقل لهم: إن دين الإسلام مستغن عني فإنه قد كان معموراً قبلي، وكذلك يكون بعدي ولو مت لم تنهدم أركان الإسلام فإن الدين مستغـن عني، وأنا فلست مستغنياً عن إصلاح قلبي، وأما أداء ذلك إلى اندراس العلم

فإن الناس لو حبسوا في السجن وقيدوا بالقيود وتوعدوا بالنار على طلب العلم لكان حب الرئاسة والعلو يحملهم على كسر القيود وهدم حيطان الحصون والخروج منها والاشتغال بطلب العلم. فالعلم لا يندرس ما دام الشيطان يحبب إلى الخلق الرئاسة، والشيطان لا يفتر عن عمله إلى يوم القيامة. بل ينتهض لنشر العلم أقوام لا نصيب لهم في الآخرة كما قال رسول الله ﷺ: «إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم»، «وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر» فلا ينبغي أن يغتر العالم بهذه التلبيسات فيشتغل بمخالطة الخلق حتى يتربّى في قلبه حب الجاه والثناء والتعظيم فإن ذلك بذر النفاق. قال ﷺ: «حب الجاه والمال ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل»، وقال ﷺ: «ما

فخيال يدل على غاية الجهل فإن الناس لو حبسوا في السجن وقيدوا بالقيود وتوعدوا بالنار عن طلب العلم) لما امتنعوا من ذلك، و **(لكان حب الرئاسة والعلو يحملهم على كسر القيود وهدم حيطان الحصون والخروج منها والاشتغال بطلب العلم)** لا محالة، **(فالعلم لا يندرس مادام الشيطان يحبب إلى الخلق الرئاسة)** ويزينها لهم، **(والشيطان لا يفتر عن عمله إلى يوم القيامة بل ينتهض لنشر العلم أقوام لا نصيب لهم في الآخرة)** ولا خلاق، **(كما قال ﷺ «إن الله)** عز وجل **(يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم»)** أي يقويه وينصره، والمراد بالدين دين الإسلام والمراد بالأقوام إما الكفار وإما المنافقون وإما الفجار، وهذا يحتمل أنه أراد به رجالاً في زمنه كانوا كذلك، ويحتمل أنه أخبر بما سيكون فيكون من المعجزات والأقرب الثاني لأن العبرة بعموم اللفظ. والحديث رواه النسائي وابن حبان والطبراني في الأوسط والضياء من حديث أنس، ورواه أحمد والطبراني في الكبير من حديث أبي بكر، ورواه البزار من حديث كعب ابن مالك، ورواه ابن النجار من حديث كعب بن مالك بلفظ «إن الله ليؤيد الدين بقوم لا خلاق لهم» وقد تقدم. وروى الطبراني في الكبير من حديث عبدالله بن عمرو وبلفظ: «إن الله عز وجل ليؤيد الإسلام برجال ما هم من أهله». **(و)** قال ﷺ: **(«إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»)** رواه الطبراني في الكبير من حديث عمرو بن النعمان بن مقرن بلفظ «ليؤيد الدين» ورواه البخاري في القدر وفي غزوة خيبر من حديث أبي هريرة «إن الله يؤيد هذا الدين» ورواه الترمذي في العلل من حديث أنس. واللام للعد أو للجنس وقد تقدم. **(فلا ينبغي أن يغتر العالم بهذه التلبيسات فيشتغل بمخالطة الخلق حتى يتربى في قلبه حب المال والثناء والتعظيم، فإن ذلك بذر النفاق. قال ﷺ «حب الجاه والمال ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل»)** رواه أبو نعيم والديلمي من حديث أبي هريرة بلفظ «حب الغنى ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء العشب» وقد تقدم الكلام عليه في كتاب السماع وفي كتاب ذم الجاه وذم المال. وروى الديلمي من حديث ابن عباس «حب الثناء من الناس يعمي ويصم». **(وقال ﷺ «ما**

ذئبان ضاريان أرسلا في زريبة غنم بأكثر إفساداً فيها من حب الجاه والمال في دين المرء المسلم » . ولا ينقلع حب الجاه من القلب إلا بالاعتزال عن الناس والهرب من مخالطتهم وترك كل ما يزيد جاهه في قلوبهم . فليكن فكر العالم في التفطن لخفايا هذه الصفات من قلبه وفي استنباط طريق الخلاص منها ، وهذه وظيفة العالم المتقي فأما أمثالنا فينبغي أن يكون تفكرنا فيما يقوّي إيماننا بيوم الحساب، إذ لو رآنا السلف الصالحون لقالوا قطعاً : إن هؤلاء لا يؤمنون بيوم الحساب ، فما أعمالنا أعمال من يؤمن بالجنة والنار ! فإن من خاف شيئاً هرب منه ومن رجا شيئاً طلبه ، وقد علمنا أن الهرب من النار بترك الشبهات والحرام وبترك المعاصي ونحن منهمكون فيها ، وإن طلب الجنة بتكثير نوافل الطاعات ونحن مقصرون في الفرائض منها . فلم يحصل لنا من ثمرة العلم إلا أنه يقتدى بنا في الحرص على الدنيا والتكالب عليها ، ويقال : لو كان هذا مذموماً لكان العلماء أحق وأولى

ذئبان ضاريان أرسلا في زريبة غنم بأكثر إفساداً فيها من حب الجاه والمال في دين المرء المسلم ») رواه الطبراني في الصغير ، والضياء من حديث أسامة بن زيد بلفظ « ما ذئبان ضاريان باتا في حظيرة فيها غنم يفترسان ويأكلان بأسرع فساداً من طلب المال والشرف في دين المسلم » . وقد تقدم الكلام عليه في كتاب ذم الجاه . **(ولا ينقلع حب الجاه من القلب إلا بالاعتزال عن الناس والهرب من مخالطتهم وترك كل ما يزيد جاهه في قلوبهم ، فليكن فكر العالم في التفطن لخفايا هذه الصفات من قلبه وفي استنباط طريق الخلاص منها)** فإن هذا هو الأهم ، **(فأما أمثالنا)** من ضعفاء الإيمان فينبغي **(أن يكون)** دائماً **(تفكرنا فيما يقوي إيماننا بيوم الحساب)** وهو يوم القيامة الذي تجازى فيه كل نفس بما عملت ، **(إذ لو)** فرض أن **(رآنا السلف الصالحون)** ورأوا أحوالنا وما نحن عليه من الغفلة والتكالب **(لقالوا قطعاً : إن هؤلاء لا يؤمنون بيوم الحساب)** كما روي ذلك بعض السلف ، **(فما أعمالنا من يؤمن بالجنة والنار فإن من خاف شيئاً هرب منه ومن رجا شيئاً طلبه)** روي ذلك من قول أبي سليمان الداراني ، ومعناه في الحديث المرفوع عن أنس « من خاف شيئاً حذره ومن رجا شيئاً عمل له ومن أيقن بالخلف جاد بالعطية » . رواه الديلمي ، وروى الترمذي من حديث أبي هريرة « من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل » . **(وقد علمنا أن الهرب من النار بترك الشبهات والحرام وبترك المعاصي)** الظاهرة والباطنة ، **(ونحن منهمكون فيها)** فكيف يتصور المهرب **(وأن طلب الجنة بتكثير نوافل الطاعات)** الزائدة عن الفرائض ، **(ونحن مقصرون في الفرائض منها)** وقد روي من حديث علي رضي الله عنه : « من اشتاق إلى الجنة سابق إلى الخيرات ، ومن أشفق من النار لها عن الشهوات ، ومن ترقب الموت صبر عن اللذات ، ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات » رواه البيهقي وقد تقدم . فهذه علامات الخائف والراجي والمترقب والزاهد . **(فلم يحصل لنا من ثمرة العلم إلا أنه يقتدى بنا في الحرص على الدنيا والتكالب عليها)** في جمعها

باجتنابه منا . فليتنا كنا كالعوام وإذا متنا ماتت معنا ذنوبنا ، فما أعظم الفتنة التي تعرضنا لها لو تفكرنا . فنسأل الله تعالى أن يصلحنا ويصلح بنا ويوفقنا للتوبة قبل أن يتوفّانا إنه الكريم اللطيف بنا المنعم علينا .

فهذه مجاري أفكار العلماء والصالحين في علم المعاملة ، فإن فرغوا منها انقطع التفاتهم عن أنفسهم وارتقوا منها إلى التفكر في جلال الله وعظمته والتنعم بمشاهدته بعين القلب ، ولا يتم ذلك إلا بعد الانفكاك من جميع المهلكات والاتصاف بجميع المنجيات . وإن ظهر شيء منه قبل ذلك كان مدخولاً معلولاً مكدراً مقطوعاً ، وكان ضعيفاً كالبرق الخاطف لا يثبت ولا يدوم ، ويكون كالعاشق الذي خلا بمعشوقه ولكن تحت ثيابه حيات وعقارب تلدغه مرة بعد أخرى فتنغص عليه لذة المشاهدة ، ولا طريق له في كمال التنعم إلا بإخراج العقارب والحيات من ثيابه . وهذه الصفات المذمومة عقارب وحيات وهي مؤذيات ومشوّشات ، وفي القبر يزيد ألم لدغها على لدغ العقارب والحيات . فهذا القدر كاف في التنبيه على مجاري فكر العبد في صفات نفسه المحبوبة والمكروهة عند ربه تعالى .

من حيث لا يحل وإنفاقها في غير مواضعها . **(ويقال : لو كان هذا مذموماً لكان العلماء أحق وأولى باجتنابه منا ، فليتنا كنا كالعوام إذا متنا ماتت معنا ذنوبنا)** ، وقد نقل صاحب القوت عن بعض السلف : طوبى لمن مات وماتت ذنوبه معه . **(فما أعظم الفتنة التي تعرضنا لها لو تفكرنا)** حق التفكر ، **(فنسأل الله تعالى أن يصلحنا)** في أنفسنا **(و)** أن **(يصلح بنا)** غيرنا ممن اقتدى بنا **(و)** أن **(يوفقنا)** أجمعين **(للتوبة)** الناصحة والإنابة الواضحة **(قبل أن يتوفانا إنه الكريم اللطيف بنا المنعم علينا)** والمجيب لدعائنا .

(فهذه مجاري أفكار العلماء) الورعين و **(الصالحين)** من عباده **(في علم المعاملة)** من معرفة النفس ومعرفة العبادات ، **(فإن فرغوا منها)** وما أعز ذلك وما أبعده **(انقطع التفاتهم عن أنفسهم وارتقوا منها إلى التفكر في جلال الله وعظمته والتنعم بمشاهدته بعين القلب ، ولا يتم ذلك إلا بعد الانفكاك من جميع المهلكات)** وهي التخلية **(والاتصاف بجميع المنجيات)** وهي التحلية ، **(وإن ظهر شيء منه قبل ذلك كان مدخولاً معلوماً مكدراً مقطوعاً وكان ضعيفاً كالبرق الخاطف لا يثبت ولا يدوم ويكون كالعاشق الذي خلا بمعشوقه ، ولكن تحت ثيابه عقارب تلدغه مرة بعد أخرى فتنغص عليه لذة المشاهدة)** وتكدرها عليه ، **(ولا طريق له في إكمال التنعم إلا بإخراج العقارب والحيات من ثيابه ، وهذه الصفات المذمومة)** التي أمرنا بالتخلي عنها **(عقارب وحيات وهي مؤذيات ومشوشات)** فلا يمكن مع وجودها إكمال التنعم بالمشاهدات **(وفي القبر يزيد ألم لدغها على لدغ العقارب)** والحيات ، **(فهذا القدر كاف في التنبيه على مجاري فكر العبد في صفات نفسه المحبوبة ، والمكروهة عند ربه**

القسم الثاني: الفكر في جلال الله وعظمته وكبريائه وفيه مقامان:

المقام الأعلى الفكر في ذاته وصفاته ومعاني أسمائه، وهذا مما منع منه حيث قيل تفكروا في خلق الله تعالى ولا تتفكروا في ذات الله، وذلك لأن العقول تتحير فيه فلا يطيق مدّ البصر إليه، إلا الصديقون ثم لا يطيقون دوام النظر. بل سائر الخلق أحوال أبصارهم بالإضافة إلى جلال الله تعالى كحال بصر الخفاش بالإضافة إلى نور الشمس فإنه لا يطيقه البتة، بل يختفي نهاراً وإنما يتردد ليلاً ينظر في بقية نور الشمس إذا وقع

تعالى) والله الموفق. ولما فرغ من بيان الفكر في معرفة نفس العبد في بيان الفكر في معرفة المعبود فقال:

القسم الثاني: الفكر في جلال الله وعظمته وكبريائه وفيه مقامان

(المقام الأول: وهو الأعلى الفكر في ذاته وصفاته ومعاني أسمائه) وهذه المعرفة تشتمل على علم ما يجب ويستحيل وما يجوز فعله وجلة أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، فللفكر في الوجود وفي كيفية التخلق بكل واحد منها على حسب الإمكان مجال رحب، **(وهذامما منع منه حيث قيل: « تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا في ذات الله »)** رواه ابن النجار والرافعي من حديث أبي هريرة بلفظ « ولا تتفكروا في الله » وقد تقدم قريباً، **(وذلك لأن العقول تتحير فيه)** وهذا يؤخذ منه قول من ذهب إلى أن اسم الله مشتق وأنه من أله يـأله إذا تحير إشارة إلى حيرة عقول أولي الألباب في مبادي سبحات جلاله وسطوات إشراق أنوار كبريائه، وإن كان هذا خلاف ما عليه المصنف فإنه يقول لعلميته لا غير، **(فلا يطيق مد البصر إليه إلا الصديقون)** وليس لهم من الذات إلا الدهشة فهم يترددون بين اليأس والطمع إن نظروا إلى هيبة جلاله أيسوا، وإن نظروا إلى أنس جماله طمعوا، ولولا أنس الجمال لتقطعت أوصال العارفين دهشة، ولولا طمع الوصال لذابت قلوب المحبين حسرة. **(ثم لا يطيقون دوام النظر بل سائر الخلق أحوال أبصارهم بالإضافة إلى جلال الله تعالى كحال بصر الخفاش بالإضافة إلى نور الشمس فإنه لا يطيقه البتة بل يختفي نهاراً)** لئلا يقابله نور الشمس فيسقط مغشياً عليه. قال صاحب كشف الأسرار في اشارة الخفاش، وقد قيل: أراك إذا طلعت الشمس وقعت في العشا ولا تزال كذلك إلى العشا فتعمى بما يستضيء به الناس وهذا ضد القياس. وقال ابن الوردي في إشارته: أنا من أهل الخلوات والليل، أنا على ضعفي كجلمود صخر حطه السيل، أنا بالنهار أحتجب ورائي العزلة مما تحب وبالليل أكشف الغطا إن ناشئة الليل هي أشد وطأ، وإذا طلعت الشمس حكمت على عيني بالطمس وأخذتني الغيرة أن أشاهد غيره فاطبق من عين الشمس عيني وأفنى عن أينها أيني **(وإنما يتردد ليلاً لينظر في بقية نور الشمس إذا وقع على الأرض)** وهو الوقت الذي لا يكون فيه ضوء ولا ظلمة وهو قريب غروب الشمس وهو وقت هيجان البعوض، والبعوض يخرج

على الأرض. وأحوال الصدّيقين كحال الإنسان في النظر إلى الشمس فإنه يقدر على النظر إليها ولا يطيق دوامه، ويخشى على بصره لو أدام النظر، ونظره المختطف إليها يورث العمش ويفرق البصر، وكذلك النظر إلى ذات الله تعالى يورث الحيرة والدهش

في ذلك الوقت يطلب قوته وهو دماء الحيوان، والخفاش يطلب الطعم فيقع طالب رزق على طالب رزق. **(وأحوال الصديقين كحال الإنسان في النظر إلى الشمس فإنه يقدر على النظر إليها ولا يطيق دوامه ويخشى على بصره لو أدام النظر، ونظره المختطف إليها يورث العمش ويفرق البصر)** كما هو مشاهد، ولقد حكى لي من أثق به أنه نظر مرة إلى قرص الشمس وحدق فيه بصره ليحيط بقدر المكسوف منه فما زال يشتكي ضعف بصره، **(وكذلك النظر إلى الله تعالى يورث الحيرة والدهش واضطراب العقل)**.

وقال الشيخ الأكبر قدس سره في حقائق الأسماء بعد أن نقل وجوه الاشتقاق في اسم الجلالة إلى أن قال وقيل: هو مشتق من الالهة وهي العبادة، وقيل: من لاه يليه إذا ارتفع، وقيل من أله يـأله إذا تحير، ثم قال: وهذا الوجه هو مركز دائرة الوجوه كلها لما اختص هذا الاسم من الأحوال بالحيرة والعبادة والرفعة وهي التنزيه وهو رفعته عن التشبيه بخلقه والتنزيه يؤدي إلى الحيرة لأن غاية التنزيه إثبات النسب وهي الصفات الكمالية التي يتوقف عليها وجود أعيان المظاهر، فإن قال القائل: إن النسب أمور وجوديةزائدةعلى ذاته تعالى، فقد صرح أنه لا كمال بالذات إلا وأن ذاته تعالى كان ناقصاً قبل ظهورها كاملاً بالزائد الوجودي، وإن قال ما هي هو ولا وجود لها وإنما هي نسب والنسب أمور عدمية، فقد جعل للمعدوم أثراً في الوجود، وإن قال: ما هي هو ولا غيره كان قولاً بلا روح وكلاماً لا معنى له يدل على نقص عقل القائل، وإن سكت الناظر ولم يقل شيئاً فقد عطل القوة النظرية، فإذا عجز العقل عن الوصول إلى العلم بشيء من هذه الأسرار لم يبق الطريق إلا الرجوع إلى الشرع، ولا تقبل أحكام الشرع إلا بالعقل لأنه الأصل وقد عجز، والناظر عن معرفة الفرع وثبوته أعجز فإن تعامى عن النظر وقبل قول الشارع إيماناً لأمر ضروري لا يقدر على دفعه لا بد له أن يسمع الشارع أن ينسب إلى الحق أموراً تقدح فيها الأدلة النظرية وتحتاج إلى تأويل فإن تأويله ليرده إلى النظر العقلي فهو عائد إلى عقله وجاعل وجود الحق سبحانه على جوده، وثبت أن الله تعالى لا يدرك بالقياس فهذا غاية تنزيه المنزه وقد أداه إلى الحيرة وصارت الحيرة مركزاً ينتهي إليها النظر العقلي والشرعي، وكذلك العبادة وهي التي كلف بها والتكليف لا يكون إلا على من له الاقتدار على ما كلف به وأمر من الأفعال وإمساك النفس عن ارتكاب ما نهى عنه، والأفعال منفية عن المخلوق بقوله ﴿والله خلقكم وما تعلمون﴾ [الصافات: ٩٦] والشيء لا يكلف نفسه ثم لا يخفى أن الحق تعالى كبرياؤه خاطب عباده فأمرهم ونهاهم، ولا بد من محل يقبل الخطاب فأثبت الأفعال للمخلوق من هذا الوجه تقتضي قابليته، فنفى من وجه وأثبت من وجه والنفي والإثبات متقابلان فرماه أيضاً في الحيرة، فدرجات علوم العلماء بالله تدور على مركز الحيرة، ولهذا كان بعض العارفين يقول: يا حيرة يا دهشة يا حرف لا يقرأ انتهى.

واضطراب العقل. فالصواب إذاً أن لا يتعرّض لمجاري الفكر في ذات الله سبحانه وصفاته، فإن أكثر العقول لا تحتمله، بل القدر اليسير الذي صرح به بعض العلماء وهو: أن الله تعالى مقدس عن المكان ومنزه عن الأقطار والجهات وأنه ليس داخل العالم ولا خارجه ولا هو متصل بالعالم ولا هو منفصل عنه، قد حير عقول أقوام حتى أنكروه إذا لم يطيقوا سماعه ومعرفته. بل ضعفت طائفة عن احتمال أقل من هذا إذ قيل لهم: إنه يتعاظم ويتعالى عن أن يكون له رأس ورجل ويد وعين وعضو، وأن يكون جسماً مشخصاً له مقدار وحجم. فأنكروا هذا وظنوا أن ذلك قدح في عظمة الله وجلاله حتى قال بعض الحمقى من العوام: إن هذا وصف بطيخ هندي لا وصف الإلـه! لظن المسكين أن الجلالة والعظمة في هذه الأعضاء. وهذا لأن الإنسان لا يعرف إلا نفسه فلا يستعظم إلا نفسه. فكل ما لا يساويه في صفاته فلا يفهم العظمة فيه، نعم غايته أن يقدر نفسه جميل الصورة جالساً على سريره وبين يده غلمان يمتثلون أمره، فلا جرم غايته أن يقدّر ذلكَ في حق الله تعالى وتقدّس حتى يفهم العظمة بل لو كان للذباب عقل وقيل له ليس لخالقك جناحان ولا يد ولا رجل ولا له طيران لأنكر ذلك وقال: كيف يكون خالقي أنقص مني؟ أفيكون مقصوص الجناح أو يكون زمناً لا يقدر على الطيران؟ أو

(فالصواب إذاً أن لا يتعرض لمجاري الفكر في ذات الله تعالى وصفاته، فإن أكثر العقول لا تحتمله، بل القدر اليسير الذي صرح به بعض العلماء وهو: أن الله تعالى مقدس عن المكان ومنزه عن الأقطار والجهات وأنـه ليس داخل العالم ولا خارجه ولا هو متصل بالعالم ولا هو منفصل عنه، قد حيرت عقول أقوام حتى أنكروه) واستشكلوه **(إذ لم يطيقوا سماعه ومعرفته. بل ضعفت طائفة عن احتمال أقل من هذا إذا قيل لهم: إنه يتعاظم ويتعالى عن أن يكون له رأس ورجل ويد وعين وعضو، وأن يكون جسماً مشخصاً له مقـدار وحجم. فأنكروا هذا وظنوا أن ذلك قدح في عظمة الله وجلاله)** وهم طائفة من الحشوية الكرامية، **(حتى قال بعض الحمقى من العوام: إن هذا وصف بطيخ هندي لا وصف الإله! لظن المسكين أن الجلالة والعظمة في هذه الأعضاء، وهذا لأن الإنسان لا يعرف إلا نفسه فلا يستعظم إلا نفسه، فكل ما لا يساويه في صفاته فلا يفهم العظمة فيه)** وهذا فاسد. **(نعم غايته أن يقدر نفسه جميل الصورة جالساً على سريره وبين يديه غلمان يمتثلون أمره، فلا جرم غايته أن يقدر ذلك في حق الله تعالى وتقدس حتى يفهم العظمة)** قياس الشاهد على الغائب والرب تعالى لا يعرف بالقياس، **(بل لو كان للذباب عقل وقيل له ليس لخالقك جناحان ولا يد ولا رجل ولا له طيران لأنكر ذلك وقال: كيف يكون خالقي أنقص مني؟ أفيكون مقصوص الجناح أو يكون زمناً لا يقدر على الطيران أو تكون لي آلة وقدرة لا**

يكون لي آلة وقدرة لا يكون له مثلها وهو خالقي ومصوري ؟ وعقول أكثر الخلق قريب من هذا العقل ، وأن الإنسان لجهول ظلوم كفار ، ولذلك أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه : لا تخبر عبادي بصفاتي فينكروني ولكن أخبرهم عني بما يفهمون.

ولما كان النظر في ذات الله تعالى وصفاته مخطراً من هذا الوجه اقتضى أدب الشرع وصلاح الخلق أن لا يتعرض لمجاري الفكر فيه ، لكنا نعدل إلى المقام الثاني وهو النظر في أفعاله ومجاري قدره وعجائب صنعه وبدائع أمره في خلقه فإنها تدل على جلاله وكبريائه وتقدّسه وتعاليه ، وتدل على كمال علمه وحكمته وعلى نفاذ مشيئته وقدرته ، فينظر إلى صفاته من آثار صفاته ، فإنا لا نطيق النظر إلى صفاته كما أنا نطيق النظر إلى الأرض مهما استنارت بنور الشمس . ونستدل بذلك على عظم نور الشمس بالإضافة إلى

يكون له مثلها وهو خالقي ومصوري؟ وعقول أكثر الخلق قريب من هذا العقل، وأن الإنسان لجهول ظلوم كفار، ولذلك أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه لا تخبر عبادي بصفاتي فينكروني) أي لأن عقولهم لا تحتمل ذلك ، **(ولكن أخبرهم عني بما يفهمون)** أي بقدر ما يطيقون فهمه. وقد ورد مثل ذلك في الأخبار المحمدية: خاطبوا الناس بما يفهمون أتحبون أن يكذب الله ورسوله.

قال الفخر الرازي في تأسيس التقديس: إن المتشابهات صارت شبهة عظيمة للخلق في الإلهيات والنبوات والشرائع ، وليس في القرآن ما يدل على التنزيه بطريق التصريح إلا قوله تعالى ﴿ليس كمثله شيء﴾ [الشورى: ١١] ودلالته عليه ضعيفة، وقد ذكروا أنواعاً من الفوائد في إنزال المتشابهات. أقواها أنه لما كان القرآن مشتملاً على دعوة الخواص والعوام لا تقوى لإدراك الحقائق العقلية المحضة، فهم إذا سمعوا باثبات موجود ليس بجسم ولا بمتحيز ولا بمشار إليه ظنوا أنه عدم محض، فوقعوا في التعطيل فكان الأصلح للعوام أن يخاطبوا بألفاظ دالة على بعض ما يناسب ما يتخيلونه وتكون مخلوطة بما يدل على الحق الصريح انتهى.

وقد أشار إلى ذلك أيضاً المصنف في الجام العوام.

(ولما كان النظر في ذات الله وصفاته مخطراً من هذا الوجه اقتضى أدب الشرع وصلاح الخلق أن لا يتعرض لمجاري الفكر فيه لكنا نعدل إلى المقام الثاني) وهو الأدنى بالنسبة إلى المقام الأول: **(وهو النظر إلى أفعاله وعجائب صنعه وبدائع أمره في خلقه فإنها تدل على جلاله وكبريائه وتقدسه وتعاليه، وتدل على كمال علمه وحكمته ونفاذ مشيئته وقدرته، فينظر إلى صفاته من آثار صفاته، فإنا لا نطيق النظر إلى صفاته كما أنا نطيق النظر إلى الأرض مهما استنارت بنور الشمس، ونستدل بذلك على عظم نور الشمس بالإضافة إلى نور**

نور القمر وسائر الكواكب، لأن نور الأرض من آثار نور الشمس، والنظر في الآثار يدل على المؤثر دلالة ما وإن كان لا يقوم مقام النظر في نفس المؤثر. وجميع موجودات الدنيا أثر من آثار قدرة الله تعالى ونور من أنوار ذاته، بل لا ظلمة أشد من العدم ولا نور أظهر من الوجود. ووجود الأشياء كلها نور من أنوار ذاته تعالى وتقدس إذ قوام وجود الأشياء بذاته القيوم بنفسه، كما أن قوام نور الأجسام بنور الشمس المضيئة

القمر وسائر الكواكب، لأن نور الأرض من آثار نور الشمس، والنظر في الأثر يدل على المؤثر دلالة ما وإن كان لا يقوم مقام النظر في نفس المؤثر. وجميع موجودات الدنيا أثر من آثار قدرة الله تعالى ونور من أنوار ذاته).

قال المصنف في المقصد الأسنى: الحاصل عندنا من قدرة الله تعالى أنه وصف ثمرته وأثره وجود الأشياء وينطلق عليه اسم القدرة لأنه يناسب قدرتنا وهو بمعزل عن حقيقة تلك القدرة. نعم كلما ازداد العبد إحاطة بتفاصيل المقدورات وعجائب الصنائع كان حظه من صفة القدرة أوفر لأن الثمرة تدل على المثمر، وإلى هذا يرجع تفاوت معرفة العارفين تفاوتاً لا يتناهى، وبه تعرف أن من قال: لا أعرف إلا الله فقد صدق، ومن قال، لا أعرف الله فقد صدق فإنه ليس في الوجود إلا الله تعالى وأفعاله، فإذا نظر إلى أفعاله من حيث هي أفعاله وكان مقصور النظر عليها ولم يرها من حيث أنها سماء وأرض وشجر، بل من حيث أنها صفة له فلم تجاوز معرفته حضرة الربوبية فيمكنه أن يقول: ما أعرف إلا الله وما أرى إلا الله. ولو تصور شخص لا يرى إلا الشمس ونورها المنتشر في الآفاق يصح أن يقول: ما أرى إلا الشمس فإن النور الفائض منها هو من جلتها ليس خارجاً منها، وكل ما في الوجود نور من أنوار القدرة الأزلية وأثر من آثارها، وكما أن الشمس ينبوع النور الفائض على كل مستنير، فكذلك المعنى الذي قصرت العبارة عنه فعبر عنه بالقدرة الأزلية للضرورة هو ينبوع الوجود الفائض على كل موجود فليس في الوجود إلا الله تعالى.

(بل لا ظلمة أشد من العدم ولا نور أظهر من الوجود). قال المصنف في مشكاة الأنوار: مهما عرفت أن النور راجع إلى الظهور والإظهار ومراتبه، فاعلم أنه لا ظلمة أشد من ظلمة العدم لأنه مظلم ويسمى مظلماً لأنه ليس للأبصار، إذ ليس بصير موجوداً للبصر مع أنه موجود في نفسه، فالذي ليس موجود إلا بغيره ولا بنفسه كيف يستحق أن يكون هو الغاية في الظلمة وفي مقابلته الوجود فهو النور فإن الشيء ما لم يظهر في ذاته لا يظهر لغيره.

(ووجود الأشياء كلها نور من أنوار ذاته تعالى وتقدس، إذ قوام وجود الأشياء بذاته القيوم بنفسه كما أن قوام نور الأجسام بنور الشمس المضيئة بنفسها). قال المصنف في مشكاة الأنوار: والوجود بنفسه أيضاً ينقسم إلى ما الوجود له من ذاته وإلى ما الوجود من غيره،

بنفسها ومهما انكشف بعض الشمس فقد جرت العادة بأن يوضع طشت ماء حتى ترى الشمس فيه ويمكن النظر إليها فيكون الماء واسطة يغض قليلاً من نور الشمس حتى يطاق النظر إليها فكذلك الأفعال واسطة نشاهد فيها صفات الفاعل ولا نبهر بأنوار الذات بعد أن تباعدنا عنها بواسطة الأفعال. فهذا سر قوله ﷺ: «تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا في ذات الله تعالى».

بل إذا اعتبرت ذاته من حيث ذاته فهو عدم محض. وإنما هو وجوده من حيث نسبته إلى غيره وذلك ليس بوجود حقيقي، فالموجود الحق هو الله تعالى كما أن النور الحق هو الله تعالى.

(ومهما انكسف بعض الشمس فقد جرت العادة بأن يوضع طست ماء حتى ترى الشمس فيه، ويمكن النظر إليها فيكون الماء واسطة يغض قليلاً من نور الشمس حتى يطاق النظر إليها، فكذلك الأفعال واسطة تشاهد فيها صفات الفاعل ولا يبهرنا نور الذات بعد أن تباعدنا عنها بواسطة الأفعال، فهذا سر قوله ﷺ «تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا في ذات الله») . وقال الفخر الرازي: أشار بهذا الحديث إلى أن من أراد الوصول إلى كنه العظمة وهوية الجلال تحير وتردد بل عمي، فإن عمي، فإن نور جلال الإلهية يعمي أحداق العقول البشرية، وترك النظر بالكلية في المعرفة يوقع في الضلال، والطرفان مذمومان والطريق القويم أن يخوض الإنسان البحر المعتدل ويترك التعمق، ومن ثم سميت كلمة الشهادة كلمة العدل انتهى.

وقال الراغب: نبه بهذا الخبر على أن غاية معرفة الإنسان ربه أن يعرف أجناس الموجودات جواهرها وأعراضها المحسوسة والمعقولة، ويعرف أثر الصنعة فيها فإنها محدثة وأن محدثها ليس إياها ولا مثلاً لها، بل هو الذي يصح ارتفاع كلها مع بقائه ولا يصح بقاؤها وارتفاعه، ولما كان معرفة العالم كله تصعب على المكلف لقصور الأفهام عن بعضها واشتغال البعض بالضروريات جعل تعالى لك إنسان من نفسه وبدنه عالماً صغيراً أوجد فيه مثال كل ما هو موجود في العالم الكبير ليجري ذلك من العالم مجرى مختصر من كتاب بسيط يكون مع كل أحد نسخة يتأملها حضراً وسفراً وليلاً ونهاراً، فإن نشط وتفرغ للتوسع في العلم نظر في الكتاب الكبير الذي هو العالم فيطلع منه على الملكوت ليغزر علمه وإلا فله مقنع بالمختصر ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ [الذاريات: ٢١] انتهى.

وقال الشيخ الأكبر قدس الله سره: ولا تفكروا في الله لأن للعقول حداً تقف عنده من حيث هي مفكرة وأية مناسبة بين الحق لواجب الوجود لذاته وبين الممكن وإن كان واجباً به عند من يقول به وما أخذه الفكر به إنما يقوم صحيحه من البراهين الوجودية، ولا بد بين الدليل والمدلول والبرهان والمبرهن عليه من وجه به يكون التعلق له نسبة إلى الدليل ونسبة إلى المدلول، فلا يصح أن يجتمع الخلق والحق في وجه أبداً من حيث الذات، بل من حيث أن هذه الذات منعوتة بالألوهية؛ فهذا حكم آخر تستقل العقول بإدراكه. وكم من عاقل يدعي العقل الرصين من

بيان كيفية التفكر في خلق الله تعالى:

اعلم أنَّ كل ما في الوجود مما سوى الله تعالى فهو فعل الله وخلقه، وكل ذرة من الذرات من جوهر وعرض وصفة وموصوف ففيها عجائب وغرائب تظهر بها حكمة الله وقدرته وجلاله وعظمته، وإحصاء ذلك غير ممكن لأنه لو كان البحر مداداً لذلك لنفد البحر قبل أن ينفد عشر عشيره. ولكنا نشير إلى جمل منه ليكون ذلك كالمثال لما

العلماء النظار يقول إنه حصل على معرفة الذات من حيث النظر الفكري وهو غالط لتردده بفكره بين السلب والاثبات، والإثبات راجع إلى الوجود والسلب إلى العدم والنفي، والنفي لا يكون صفة ذاتية لأن الصفات الذاتية للموجودات إنما هي ثبوتية فما حصل هذا الفكر المتردد بينهما من العلم بالله على شيء اهـ.

وقال المصنف في الجواهر والدرر: معرفة الله تعالى هو الكبريت الأحمر وتشتمل على معرفة ذات الخالق ومعرفة الصفات ومعرفة الأفعال؛ فهذه الثلاثة هي اليواقيت فإنها أخص فوائد الكبريت الأحمر، وكما أن لليواقيت درجات فمنها الأحمر ومنها الأكهب ومنها الأصفر وبعضها أنفس من بعض، فكذلك هذه المعارف الثلاثة ليست على رتبة واحدة، بل أنفسها معرفة الذات وهو الياقوت الأحمر، ثم يليها معرفة الصفات وهو الياقوت الأكهب، ثم يليها معرفة الأفعال وهو الياقوت الأصفر، وكما أن أنفس هذه اليواقيت وأجلها وأعزها وأجودها الأحمر ولا تظفر منه الملوك إلا باليسير، وقد تظفر مما دونه بالكثير، فكذلك معرفة الذات أضيقها مجالاً وأعسرها مقالاً وأعصاها على الفكر وأبعدها عن قبول الذكر، ولذلك لا يشتمل القرآن منها إلا على تلويحات وإشارات يرجع أكثرها إلى ذكر التقديس المطلق كقوله ﴿ليس كمثله شيء﴾ [الشورى: ١١] وكسورة الإخلاص وإلى التعظيم والتنزيه المطلق كقوله: ﴿سبحانه وتعالى عما يصفون﴾ [الأنعام: ١٠٠] وأما الصفات فالمجاز فيها أفسح ونطاق المنطق فيها أوسع، ولذلك تكثر الآيات المشتملة على ذكر العلم والقدرة والحياة والكلام والسمع والبصر وغيرها، وسيأتي بقية هذا الكلام فيما بعد.

بيان التفكر في خلق الله تعالى

(اعلم) نور الله قلبك، **(أن كل ما في الوجود مما سوى الله تعالى فهو فعل الله تعالى وخلقه)** قال تعالى ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ [الصافات: ٩٦] وليس في الوجود إلا الله تعالى، **(وكل ذرة من الذرات من جوهر وعرض وصفة وموصوف ففيها عجائب وغرائب)** ومصاعد للأفكار ومراقي الأعتبار **(تظهر بها حكمة الله تعالى وقدرته وجلاله وعظمته وإحصاء ذلك غير ممكن لأنه لو كان البحر مداداً لذلك)** والأشجار أقلاماً للكتابة **(لنفذ البحر قبل أن ينفد عشر عشيره، ولكنا نشير إلى جمل منة ليكون ذلك كالمثال لما**

عداه. فنقول: الموجودات المخلوقة منقسمة إلى: ما لا يعرف أصلها فلا يمكننا التفكر فيها وكم من الموجودات التي لا نعلمها كما قال الله تعالى: ﴿ويَخْلُقُ ما لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨] ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأزوَاج كُلها مِمَّا تنْبِتُ الأرْض ومِنْ أنفُسِهِمْ ومِمَّا لاَ يعلَمُونَ﴾ [يس: ٣٩]، وقال: ﴿وَنُنْشِئُكُمْ فِيمَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦١]، وإلى ما يعرف أصلها وجملتها ولا يعرف تفصيلها، فيمكننا أن نتفكر في تفصيلها. وهي منقسمة إلى ما أدركناه بحس البصر، وإلى ما لا ندركه بالبصر أما الذي لا ندركه بالبصر. فكالملائكة والجن والشياطين والعرش والكرسي وغير ذلك. ومجال الفكر في هذه الأشياء مما يضيق ويغمض. فلنعدل إلى الأقرب إلى الأفهام وهي المدركات بحس البصر. وذلك هو السموات السبع والأرض وما بينهما فالسموات مشاهدة بكواكبها وشمسها وقمرها وحركتها ودورانها في طلوعها وغروبها، والأرض مشاهدة بما فيها من جبالها ومعادنها وأنهارها وبحارها وحيوانها ونباتها، وما بين السماء والأرض وهو الجوّ مدرك بغيومها وأمطارها وثلوجها ورعدها وبرقها وصواعقها وشهبها وعواصف رياحها. فهذه هي الأجناس المشاهدة من السموات والأرض وما بينهما، وكل جنس منها ينقسم إلى أنواع، وكل نوع ينقسم إلى أقسام ويتشعب كل قسم إلى أصناف. ولا

عداه فنقول: الموجودات المخلوقة منقسمة إلى ما لا يعرف أصلها فلا يمكننا التفكر فيها، وكم من الموجودات التي لا نعلمها كما قال الله تعالى ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ وقال) تعالى: (**﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها)** الأنواع الأصناف **(مما تنبت الأرض)** من النبات والشجر **(ومن أنفسهم)** الذكر والأنثى **(ومما لا يعلمون﴾)** أي وأزواجاً مما لا يطلعهم الله عليه ولم يجعل لهم طريقاً إلى معرفته. **(وقال)** تعالى: **(﴿وننشئكم فيما لا تعلمون﴾ وإلى ما يعرف أصلها وجملتها ولا يعرف تفصيلها، فيمكننا أن نتفكر في تفصيلها وهي منقسمة إلى ما أدركناه بحس البصر وإلى ما لا ندركه بالبصر، أما الذي لا ندركه بالبصر فكالملائكة والجن والشياطين والعرش والكرسي وغير ذلك. ومجال الفكر في هذه الأشياء مما يضيق ويغمض، فلنعدل إلى الأقرب إلى الأفهام وهي المدركات بحس البصر، وذلك هو السموات السبع والأرض وما بينهما فالسموات مشاهدة بكواكبها وشمسها وقمرها وحركتها ودورانها في طلوعها وغروبها، والأرض مشاهدة بما فيها من جبالها ومعادنها وأنهارها وبحارها وحيوانها ونباتها وبين السماء والأرض وهو الجو مدرك بغيومها وأمطارها وثلوجها ورعدها وبرقها وصواعقها وشهبها وعواصف رياحها. فهذه من الأجناس المشاهدة من السموات والأرض وما بينهما، وكل جنس منها ينقسم إلى أنواع، وكل نوع ينقسم إلى أقسام ويتشعب كل قسم إلى أصناف. ولا نهاية لانشعاب ذلك وانقسامه في**

نهاية لانشعاب ذلك وانقسامه في اختلاف صفاته وهيئاته ومعانيه الظاهرة والباطنة. وجميع ذلك مجال الفكر. فلا تتحرك ذرة في السموات والأرض من جماد ولا نبات ولا حيوان ولا فلك ولا كوكب إلا والله تعالى هو محركها وفي حركتها حكمة أو حكمتان أو عشر أو ألف حكمة كل ذلك شاهد لله تعالى بالوحدانية ودال على جلاله وكبريائه، وهي الآيات الدالة عليه. وقد ورد القرآن بالحث على التفكر في هذه الآيات كما قال الله تعالى: ﴿إنَّ في خَلْقِ السَّمَوَاتِ والأرضِ واختِلافِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ لآياتٍ لأولي

اختلاف صفاته وهيئاته ومعانيه الظاهرة والباطنة. وجميع ذلك مجال الفكر فلا تتحرك ذرة في السموات والأرض من جماد ولا نبات ولا حيوان ولا فلك ولا كوكب إلا والله تعالى هو محركها وفي حركتها حكمة أو حكمتان أو عشر أو ألف حكمة كل ذلك شاهد لله تعالى بالواحدنية ودال على جلاله وكبريائه، وهي الآيات الدالة عليه).

وقال المصنف في الجواهر والدرر: وأما الأفعال فبحر متسع الأكناف ولا ينال باستقصاء أطرافه، بل ليس في الوجود إلا الله تعالى وأفعاله وكل ما سواه فعله، لكن القرآن اشتمل على الجمل منها الواقع في عالم الشهادة كذكر الكواكب والأرضين والجبال والبحار والحيوان والنبات وإنزال الماء الفرات وسائر ضروب النبات، وما ذكره من الحياة وهي التي ظهرت للحس، فأعرف أفعاله وأعجبها وأدلها على جلالة صانعها ما لا يظهر للحس، بل هو من عالم الملكوت وهي الملائكة والروحانيات والروح والقلب. أعني العارف بالله تعالى من جملة أجزاء الآدمي أيضاً من عالم الغيب والملكوت وخارج من عالم الملك والشهادة. ومنها: الملائكة الأرضية الموكلة بجنس البشر وهي التي سجدت لآدم عليه السلام. ومنها الشياطين المسلطة على جنس الأنس وهي التي امتنعت من السجود له. ومنها: الملائكة السماوية وأعلى منهم الكروبيون العاكفون في حضرة القدس لا التفات لهم إلى الآدميين بل لا التفات لهم إلى غير الله تعالى لاستغراقهم بجمال الحضرة الربوبية وبجلالها، فهم قاصرون عليه لحاظهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون. واعلم أن أكثر أفعال الله تعالى وأشرفها لا يعرفها أكثر الخلق بل إدراكهم مقصور على عالم الحس والتخيل وهو القشر الأقصى من اللب الأصفى، ومن لم يجاوز هذه الدرجة فكأنه لم يشاهد من الرمان إلا قشرته ومن عجائب الإنسان إلا بشرته اهـ.

(وقد ورد القرآن بالحث على التفكر في هذه الآيات كما قال تعالى: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾) أي لدلائل واضحة على جود الصانع ووحدته وكمال علمه وقدرته لذوي العقول المجلوة الخالصة عن شوائب الحس والوهم، ولعل الاقتصار على هذه الثلاثة في هذه الآية أن مناط الاستدلال هو التغير وهذه متعرضة لجملة أنواعه، فإنه إما أن يكون في ذات الشيء كتغير الليل والنهار، أو جزئه كتغير

الألبَاب﴾ [آل عمران: ١٩٠] وكما قال تعالى: ﴿ومِنْ آيَاتِهِ﴾ [الروم: ٢٠]، من أول القرآن إلى آخره. فلنذكر كيفية الفكر في بعض الآيات.

فمن آياته: الإنسان المخلوق من النطفة، وأقرب شيء إليك نفسك وفيك من العجائب الدالة على عظمة الله تعالى ما تنقضي الأعمار في الوقوف على عشر عشيره وأنت غافل عنه، فيا من هو غافل عن نفسه وجاهل بها كيف تطمع في معرفة غيرك؟ وقد أمرك الله تعالى بالتدبر في نفسك في كتابه العزيز فقال: ﴿وفي أنْفُسِكُمْ أفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] وذكر أنك مخلوق من نطفة قذرة فقال: ﴿قُتِلَ الإنسَانُ مَا أكفَرهُ ★ من أيِّ شَيءٍ خلقهُ ★ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فقَدَرَهُ ★ ثمَّ السَبيلَ يسرهُ ★ ثم أمَاتَهُ فأَقْبَرَه ★ ثُمَّ إذَا شَاءَ أنْشَرَهُ﴾ [عبس: ١٧ - ٢٢]، وقال تعالى: ﴿ومِن آيَاتِهِ أنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ إذَا أنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿ألَمْ يَكُ نُطفَةً مِنْ مَني يُمْنى ★ ثُمَّ كَانَ عَلَقَة فَخلَقَ فَسَوَّى﴾ [القيامة: ٣٧ - ٣٨]، وقال تعالى: ﴿ألَم

العناصر بتبدل صورها، أو الخارج عنه كتغير الأفلاك بتبدل أوضاعها، **(وكما قال تعالى: ﴿ومن آياته)** أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾ [الروم: ٢٠] **(﴿ومن آياته)** خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم﴾ [الروم :٢٢] ﴿ومن آياته منامكم بالليل والنهار﴾ [الروم: ٢٣] **(من أول القرآن إلى آخره. فلنذكر كيفية الفكر في بعض الآيات)** المذكورة.

(فمن آياته: الإنسان المخلوق من النطفة، وأقرب شيء إليك) أيها المتفكر **(نفسك)** أي ذاتك **(وفيك من العجائب الدالة على عظمة الله)** تعالى **(ما تنقضي الأعمار)** الطويلة **(في نسخه)** أي كتابته **(في الوقوف على عشر عشيره وأنت غافل عنه، فيا من هو غافل عن نفسه وجاهل به كيف تطمع في معرفة غيرك؟ وقد أمرك الله بالتدبر في نفسك في كتابه العزيز فقال)** ﴿وفي الأرض آيات للموقنين ★ **(وفي أنفسكم)** آيات إذ ما في العالم شيء إلا وفي الإنسان له نظير يدل دلالته **(أفلا تبصرون﴾) [الذاريات: ٢٠، ٢١]** تنظرون نظر من يعتبر. **(وذكر أنك مخلوق من نطفة قذرة فقال: ﴿قتل الإنسان ما أكفره﴾)** أي ما أكثره كفراً بالله تعالى وهو دعاء عليه بأشنع الدعوات وتعجيب من إفراطه في الكفران وهو مع قصره يدل على سخط عظيم وذم بليغ. **(﴿من أي شيء خلقه﴾)** بيان لما أنعم عليه خصوصاً من بعد حدوثه والاستفهام للتحقير ولذلك أجاب عنه بقوله: **(﴿من نطفة خلقه فقدره﴾)** أي هيأه لما يصلح له من الأعصاب والأشكال أو فقدره أطواراً إلى أن تم خلقه. **(﴿ثم السبيل يسره﴾)** أي سهل مخرجه من بطن أمه بأن فتح فوهة الرحم وألهمه أن يتنكس، **(ثم أماته فأقبره ★ ثم إذا شاء أنشره﴾)** من قبره. **(وقال تعالى: ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾)** في الأرض. **(وقال تعالى: ﴿ألم يك نطفة من مني يمنى﴾)** أي يصب في

نخلُقكُم مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ★ فَجَعَلْنَاهُ في قَرارٍ مكينٍ ★ إلَى قَدَرٍ مَعْلُوم ﴾ [المرسلات: ٢٠ - ٢٢]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الإنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خصِيم مُبِينٌ﴾ [يس: ٧٧]، وقال: ﴿ إنَّا خَلَقنا الإنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أمشَاجٍ ﴾ [الإنسان: ٢]، ثم ذكر: كيف جعل النطفة علقة، والعلقة مضغة، والمضغة عظاماً، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خلقْنَا الإنسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ ★ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً في قِرَارٍ مَكِينٍ ★ ثمَّ خَلَقْنَا النُطْفَة عَلَقَةً﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤] الآية. فتكرير ذكر النطفة في الكتاب العزيز ليس ليسمع لفظه ويترك التفكر في معناه، فانظر الآن إلى النطفة وهي قطرة من الماء قذرة لو تركت ساعة ليضربها الهواء فسدت وأنتنت كيف أخرجها رب الأرباب من الصلب والترائب وكيف جمع بين الذكر والأنثى وألقى الألفة والمحبة في قلوبهم، وكيف قادهم بسلسلة المحبة والشهوة إلى الاجتماع، وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع،

الأرحام (**﴿ثم كان علقة﴾**) حمراء (**فخلق فسوى﴾**) أي عدله. (**وقال تعالى ﴿ألم نخلقكم من ماء مهين﴾**) أي نطفة قذرة (**﴿فجعلناه في قرار مكين﴾**) هو الرحم (**﴿إلى قدر معلوم﴾**) أي مقدار معين للولادة. (**وقال**) تعالى: (**﴿أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين﴾**) فيه تقبيح بليغ لإنكارهم الحشر حيث عجب منه وجعله إفراطاً في الخصومة بينا ومنافاة الجحود لقدرته على ما هو أهون مما عمله في بداية خلقه ومقابلة النعمة التي لا مزيد عليها وهي خلقه من أخس الشيء وأمهنه شريفاً مكرماً بالعقوق والتكذيب. (**وقال**) تعالى: (**﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج﴾**) أي أخلاط جمع مشيج من مشنجت الشيء إذا خلطته وصف النطفة بها لأن المراد بها مجموع مني الرجل والمرأة، وكل منها مختلفة الأجزاء في الرقة والقوام والخواص، ولذلك يصير كل جزء منها مادة عضو، وقيل: مفرد كأعشار وأكباش، وقيل: فأما ماء الرجل فأبيض وماء المرأة أصفر، فإذا اختلطا اخضرا، أو أطواراً فإن النطفة تصير علقة ثم مضغة إلى تمام الخلقة. (**ثم ذكر**) تعالى (**كيف جعل النطفة علقة**) حمراء (**والعلقة مضغة**) لحم (**والمضغة عظاماً فقال تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾**) أي الصفو الذي يسل من الأرض (**﴿ثم جعلناه نطفة في قرار مكين﴾**) وهو الرحم (**﴿ثم خلقنا النطفة علقة﴾ الآية**) والعلقة محركة القطعة من الدم الغليظة وقليل من الدم الجامد والمضغة بالضم قطعة لحم ومنه قوله تعالى: ﴿ثم خلقنا العلقة مضغة﴾ [المؤمنون: ١٤] (**فتكرير ذكر النطفة في الكتاب العزيز ليس ليسمع لفظه ويترك التفكر في معناه، فانظر الآن إلى النطفة وهي قطرة من الماء قذرة لو تركت ساعة من الزمان ليضربها الهواء فسدت وأنتنت كيف أخرجها رب الأرباب من الصلب والترائب**) أي من صلب الرجل وترائب المرأة، (**وكيف جمع بين الذكر والأنثى وألقى الإلفة والمحبة في قلوبهم**) كما يشير إليه قوله تعالى ﴿وجعل بينكم مودة ورحمة﴾ [الروم: ٢١] (**وكيف قادهم بسلسلة المحبة والشهوة إلى الاجتماع،**

وكيف استجلب دم الحيض من أعماق العروق وجمعه في الرحم؛ ثم كيف خلق المولود من النطفة وسقاه بماء الحيض وغذاه حتى نما وربا وكبر، وكيف جعل النطفة وهي بيضاء مشرقة علقة حمراء، ثم كيف جعلها مضغة، ثم كيف قسم أجزاء النطفة وهي متشابهة متساوية إلى العظام والأعصاب والعروق والأوتار واللحم؛ ثم كيف ركب من اللحوم والأعصاب والعروق **الأعضاء الظاهرة**: فدوّر الرأس وشق السمع والبصر والأنف والفم وسائر المنافذ، ثم مدّ اليد والرِجل وقسم رؤوسها بالأصابع وقسم الأصابع بالأنامل؛ ثم كيف ركب الأعضاء الباطنة: من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء، كل واحد على شكل مخصوص ومقدار مخصوص لعمل مخصوص ثم كيف قسم كل عضو من هذه الأعضاء بأقسام أخر: فركب العين من سبع طبقات، لكل طبقة وصف مخصوص وهيئة مخصوصة لو فقدت طبقة منها أو زالت صفة من صفاتها تعطلت

وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع، وكيف استجلب دم الحيض من أعماق العروق وجمعه في الرحم، ثم كيف خلق المولود من) تلك (**النطفة**) وهو قول أرسطاليس فإنه يقول: مبدأ قوة الصورة في مني الذكر ومبدأ انعقاد القوة المنفعلة في مني المرأة، ورأى جالينوس أن لكل واحد من المنيين قوة عاقدة وقابلة للعقد، ولكن لا يتم فعلها في مني الأنثى إلا بمني الذكر. (**وسقاه بماء الحيض وغذاه حتى نما وكبر**). اعلم أن الدم الذي ينفصل في الحيض عن المرأة يصير أكثره غذاء في وقت الحمل منه ما يستحيل إلى مشابهة جوهر المني والأعضاء الكائنة منه فيكون غذاء منمياً لها، ومنها ما لا يصير غذاء لذلك، ولكن يصلح لأن ينعقد في حشوها فيكون لحماً آخر أو سمنياً أو شحماً، ويملأ الأمكنة بين الأعضاء الأول، ومنه ما لا يصلح لأحد الأمرين فيبقى إلى وقت النفاس وتدفعه الطبيعة فضلاً، وإذا ولد الجنين فإن الدم الذي يولده كبده يسد مسد دم الطمث الذي كان غذاء له ويتولد عنه ما كان يتولد عن ذلك الدم. (**وكيف جعل النطفة وهي بيضاء مشرقة علقة حمراء، ثم كيف جعلها مضغة، ثم كيف قسم أجزاء النطفة وهي متشابهة متساوية إلى العظام والأعصاب والعروق والأوتار واللحم، ثم كيف ركب من اللحوم والأعصاب والعروق والأعضاء الظاهرة، فدور الرأس وشق**) فيه (**السمع والبصر والأنف والفم وسائر المنافذ، ثم مد اليد والرجل وقسم رؤوسها بالأصابع وقسم الأصابع بالأنامل. ثم كيف ركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء، كل واحد على شكل مخصوص ومقدار مخصوص لعمل مخصوص**)، وإنما سماها باطنة لكونها لا ترى بظاهر العين، (**ثم كيف قسم كل عضو من هذه الأعضاء بأقسام أخر، فركب العين من سبع طبقات لكل طبقة وصف مخصوص وهيئة مخصوصة لو فقدت طبقة منها، أو زالت صفة من صفاتها تعطلت العين عن الأبصار**).

العين عن الإبصار ، فلو ذهبنا إلى أن نصف ما في آحاد هذه الأعضاء من العجائب

اعلم أن كلاً من العينين مركب من سبع طبقات وثلاث رطوبات ومن العصب والعضل والعروق ، وكيفية تركيبها أن العصبة المجوفة التي هي أول العصب الخارج من الدماغ يخرج من القحف إلى قعر العين ، وعليها غشاءان هما غشاء الدماغ فإذا برزت من العين وصارت في جونة عظم العين فارقها الغشاء الغليظ وصار غشاء ولباساً على عظم العين ، ويسمى هذا الغشاء الطبقة الصلبية ، ثم يفارقها الغشاء الرقيق فيصير غشاء ولباساً بعد الصلبية ، ويسمى الطبقة المشيمية لشبهها بالمشيمة لأنها ذات عروق كثيرة ، ثم تصير هذه العصبية نفسها إلى المجوفة عريضة ويصير منها غشاء بعد الأولين ويسمى الطبقة الشبكية ، ثم يتكون في وسط هذا الغشاء جسم رطب لين في لون الزجاج الذائب وقوامه ويسمى الرطوبة الزجاجية ، ويتكون في وسط هذا الجسم جسم آخر مستدير إلا أن جانبه الخارجي أدنى تفرطح لتظهر فيه أشباح المرئيات وفي جانبه الداخل نتو ليتصل بالعصبة المجوفة كما ينبغي ويسمى الرطوبة الجليدية لشبهها بالجليد في صفائه وجلوده ، ويسمى البردية أيضاً لشبهها بالبردة في شكلها وصفائها وشفيفها ، ويحفظ الزجاجية من الجليدية بمقدار النصف ويعلو النصف الآخر جسم شبيه بنسج العنكبوت شديد الصقال والصفاء يسمى الطبقة العنكبوتية ، ثم يعلو هذه الطبقة جسم سائل في لون بياض البيض وقوامه يسمى الرطوبة البيضية ، ويعلو البيضية جسم رقيق مخمل الداخل أملس الخارج ويختلف لونه في الأبدان ، فربما كان شديد السواد وربما كان دون ذلك في وسطه بحيث يحاذي الجليدية ثقب يتسع ويضيق في حال دون حال بمقدار حاجة الجليدية إلى الضوء فيضيق عند الضوء الشديد ويتسع في الظلمة ، ويسمى هذا الثقب الحدقة وهذا الغشاء الطبقة العنبية في خمل باطنها وملاسة ظاهرها ، والثقب الذي في وسطها ، ويعلو هذه الطبقة جسم كثيف صلب صاف شفاف يشبه صحيفة رقيقة من قرن أبيض ويسمى الطبقة القرنية غير أنها تتلون بلون الطبقة التي تحتها المسماة بالعنبية ولونها مختلف في الناس ، ففي بعض تكون زرقاء ، وفي بعض تكون شهلاء ، وفي بعض تكون سوداء . ويعلو هذه الطبقة ويغشاها لا كلها بل إلى موضع سواد العين جسم أبيض اللون يسمى الطبقة الملتحمة وهي التي تلي الهواء وهو بياض العين ونباته من الجلد الذي على القحف من خارج ، وجوهره من لحم أبيض دسم وقد امتزج بعضلة العين وأحكم على القرنية ، فلهذا تسمى بالملتحمة . هكذا رتب بعضهم هذه الطبقات والرطوبات . أعني جعل الأول الطبقة الصلبية ، ثم الطبقة المشيمية ، ثم الطبقة الشبكية ، ثم الرطوبة الجليدية ، ثم الطبقة العنكبوتية ، ثم الرطوبة البيضية ، ثم باقي الطبقات العنبية والقرنية والملتحمة ، وبعضهم جعل الرطوبة البيضية تالية للرطوبة الجليدية بين الزجاجية والبيضية ، وجعل الطبقات الأربعة أعني العنكبوتية والعنبية والقرنية والملتحمة تالية للرطوبات الثلاث المتوالية ، وأشرف أجزاء العين إنما هو الرطوبة الجليدية ، وسائر الطبقات والرطوبات لأجل مصلحته ، فالزجاجية والطبقات الثلاث قد أحاطت بنصف الجليدية من جانب الرطوبة البيضية ، والطبقات الأربع المتصلة بها محيطة بنصفها الآخر من جانب آخر وهي موضوعة في الوسط صيانة لها وحرزاً .

(فلو ذهبنا إلى نصف ما فى آحاد هذه الأعضاء من العجائب والآيات) الدالة على كمال

والآيات لانقضى فيه الأعمار . فانظر الآن إلى العظام وهي أجسام صلبة قوية كيف خلقها من نطفة سخيفة رقيقة ، ثم جعلها قواماً للبدن وعماداً له ، ثم قدّرها بمقادير مختلفة وأشكال مختلفة فمنه صغير وكبير وطويل ومستدير ومجوّف ومصمت وعريض ودقيق . ولما كان الإنسان محتاجاً إلى الحركة بجملة بدنه وببعض أعضائه ، مفتقراً للتردد في حاجاته ، لم يجعل عظمه عظماً واحداً بل عظاماً كثيرة بينها مفاصل حتى تتيسر بها الحركة ، وقدر شكل كل واحدة منها على وفق الحركة المطلوبة بها ، ثم وصل مفاصلها وربط بعضها ببعض بأوتار أنبتها من أحد طرفي العظم وألصقه بالعظم الآخر كالرباط له ، ثم خلق في أحد طرفي العظم زوائد خارجة منه وفي الآخر حفراً غائصة فيه موافقة لشكل الزوائد لتدخل فيها وتنطبق عليها ، فصار العبد إن أراد تحريك جزء من بدنه لم

قدرته (**لانقضت فيه الأعمار**) ولم تف عشر عشيرة (**فانظر الآن إلى العظام وهي أجسام صلبة قوية**) اعلم أن الأعضاء أجسام كثيفة متكوّنة من الرطوبات المحمودة وهي الاخلاط ، والرطوبات الثانية التي ليست من الفضول والمنيّ إما من الاخلاط عند من يجعله دماً نضيجاً ، وإما من الرطوبات الثانية عند من يجعله نوعاً آخر ، ومنها عضو مفرد وهو الذي أي جزء محسوس أخذت منه كان مشاركاً للكل في الطبع والمزاج ، ولذلك يسمى متشابه الأجزاء وهو العظم وقد خلق صلباً . (**فانظر كيف خلقها من نطفة سخيفة رقيقة ثم جعلها قواماً للبدن وعماداً له**) ودعامة للحركات ، (**ثم قدرها بمقادير مختلفة وأشكال مختلفة فمنه صغير وكبير وطويل ومستدير ومجوّف ومصمت وعريض ودقيق**) . ومنه ما هو مربع ، ومنه ما هو على شكل زاوية ، ومنه ما هو على نصف دائرة ، (**ولما كان الإنسان محتاجاً إلى الحركة بجملة بدنه وببعض أجزائه مفتقراً للتردد في حاجاته لم يجعل عظمه عظماً واحداً بل عظاماً كثيرة بينها مفاصل حتى تنتشر بها الحركة ، وقدر شكل كل واحد منها على وفق الحركة المطلوبة بها ، ثم وصل مفاصلها وربط بعضها بالبعض بأوتار أنبتها من أحد طرفي العظم وألصقه بالعظم الآخر كالرباط له**) . اعلم أن الوتر مؤلف في الأكثر من العصب النافذ في العضلة البارز منها في الجهة الأخرى ومن الرباط والرباط عضو عصباني المرأى والملمس من جهة البياض واللدونة ، وفائدته أن يأتي من العظم إلى جهة العضل فيتشظى هو والأعصاب فيتصل وترا ، والعصب والرباط إذا تشظيا شظايا دقاقاً وحشي الخلل الواقع بينهما لحماً وغشي غشاء يسمى جملة ذلك عضلة ، فما امتد منه إلى العضلة لم يسم رباطاً وما لم يمتد إليها ولكن وصل بين طرفي المفصل أو بين أعضاء أخرى وأحكم شد شيء إلى شيء فإنه مع ما يسمى رباطاً قد يخص باسم العقب وليس لشيء من الروابط حس ، وذلك لئلا يتأذى ما يلزمه من الحركة .

(**ثم خلق في أحد طرفي العظم زوائد خارجة منه وفي الآخر حفراً غائصة فيه موافقة لشكل الزوائد ليدخل فيها وينطبق عليها ، فصار العبد إن أراد تحريك جزء من بدنه لم**

يمتنع عليه ولولا المفاصل لتعذر عليه ذلك. ثم انظر كيف خلق عظام الرأس وكيف جمعها وركبها، وقد ركبها من خمسة وخمسين عظماً مختلفة الأشكال والصور فألف بعضها إلى بعض بحيث استوى به كرة الرأس كما تراه فمنها ستة تخص القحف، وأربعة عشر

يمتنع عليه، ولولا المفاصل لتعذر عليه ذلك) اعلم أن المفصل مجاورة طبيعية بين عظمين والالتحام هو اتحاد طبيعي بينهما، وهو إما أن يكون من غير شيء يصل بينهما، وإما أن يكون بشيء وذلك الشيء إما عصب وإما غضروف وإما لحم، والمفصل إما موثق وهو الذي لا يتحرك حركة بينة كمفصل الرسغ، وإما سلس وهو ما يتحرك حركة بينة كمفصل المرفق، وكل ثلاثة أقسام:

أحدها: من الموثق ما يكون تركيبه بدرز يجمع العظمين، وهو أن يكون لكل منها زوائد وحفر كالمنشار فيدخل كل زائدة من كل حفرة من الآخرة كالمنشارين إذا جمعا.

الثاني: ما يكون تركيبه بلزاق يضمهما وهو أن يتصلا على خط مستقيم كزندي الساعد وقصبي الساق.

الثالث: ما يكون تركيبه يركز أحدهما في الآخر، وهو أن يدق أحدهما ويرتكز رأسه الدقيق في عظم آخر كالأسنان في أوريتها.

الرابع: وهو أول السلس أن تكون الحفرة كذلك من العظم المحفور غائرة الرأس من الآخر طويلة العنق رقيقة كمفصل الفخذ ويسمى المفرق.

الخامس: أن لا تكون الحفرة كذلك يسمى المطرف، وأن يكون لكل رأس يدخل في فقرة من الآخرة كالمرفق ومفاصل خرز الصلب ويسمى المداخل.

(ثم انظر كيف خلق عظام الرأس وكيف جمعها وركبها، وقد ركبها من خمسة وخمسين عظماً مختلفة الأشكال والصور، فألف بعضها إلى بعض بحيث استوى به كرة الرأس كما تراه، فمنها ستة تخص القحف) وهي عظما اليافوخ وعظم مؤخر الرأس وعظم الجبهة، والعظمان اللذان عن جنبيه وفي الأذنان فهذه هي الستة وهي عند أهل التشريح سبعة والسابع هو المشترك الشبيه بالوتد وهو قاعدة الدماغ وحمال الرأس ولا بد من ذكره، وقد أسقطه المصنف، وبه يتم العدد الذي ذكره كما يظهر ذلك بالتأمل، فاليافوخان مربعان رخوان وسبب رخاوتها أن يكونا خفيفين لئلا يثقلا على الدماغ، ولأن الروح النفساني إنما ينضج أولاً بالبطنين المقدمين من الدماغ، ثم يتصفى ويصير إلى البطن المؤخر وكانت الفضول هناك أكثر، فاحتيج إلى أن يتحلل منه البخار فلذا خلقتا رخوين وعظما الجنين مثلثان، وكل ثلاثة أجزاء:

أحدها: يسمى الحجري لأنه صلب كالحجر وفيه ثقب السمع.

....

الثاني: صلب جداً وفيه زائدة شبيهة بحلمتي الثدي يمنع اللحي الأسفل من أن يخرج عن موضعه لسلاسه مفصله.

الثالث: موضع الصدغ وهو الصلب أيضاً وعظم الجبهة نصف دائرة وعظم مؤخر الرأس والوتد كثير الاضلاع، والكل صلاب للاستغناء عن منفعة الاسترخاء المذكور ولمقاومة ما ينال الرأس من مصاكة الأجسام التي يضرب بها الرأس أو يقع هو عليها، وقلما يقع الإنسان على يـافوخه بل على قفاه وجنبيه ووجهه غالباً، وعظم المؤخر أصلب الجميع لعدم حارس له كالعينين ودافع كاليدين والحاجة في شدة صلابة القاعدة أوضح من أن يوضح وهو موضوع تحت القحف من ناحية خلف فيما بينه وبين اللحي الأعلى وقد ملىء به الخلل الحادث هناك، وهذه العظام يتصل بعضها ببعض بدروز خاصة وعامة يسمى الشوان فالخاصة خمسة:

أحدهـا: في مقدم الرأس فـي مـوضـع يـوضـع فيـه الإكليـل مشترك مـع الجبهـة قـوسي هكذا ((ويسمى الاكليلي.

الثاني: وسط الرأس قد ذهب في طوله ونصفه مستقيم يقال له وحده سهمي، وإذا اعتبر من جهة اتصاله بالإكليلي قيل له سفودي، وشكله قوس يقوم في وسطه خط مستقيم كالعمود وهو هكذا (—

الثالث: في مؤخر الرأس مشترك بين الرأس من خلف وبين قاعدته وهو على شكل زاوية متصل بنقطة في طرف السهمي، ويسمى الدرز اللامي لأنه يشبه اللام في كتابة اليونانيين وهو هكذا—<. وإذا انضم إلى الدرزين المقدمين صار شكله هكذا(—< وهذه الدروز الثلاثة دروز حقيقية.

الرابع والخامس: الدرزان الكاذبان وهما ممتدان في طول الرأس فوق الأذنين على موازاة السهمي من الجانبين وليسا بغائصين في العظم تمام الغوص، ولهذا يسميان القشرتين وإذا اتصلا بالثلاثة الأول الحقيقية صار شكلها هكذا

وأما العامة وهي المشتركة بين الرأس وغيره فاثنان:

أحدهما: الذي يصل بين الرأس وبين اللحي الأعلى وهو الذي يبتدأ من الموضع الغائر من الصدغ من طرف الدرز الإكليلي، ويصير إلى موضع العينين فيمير فيه وفي الوسط بين الحاجبين حتى ينتهي إلى الطرف الآخر من الدرز الإكليلي فيلتزق به.

الثاني: الوصل بينه وبين القاعدة فيصل بين طرفي اللامي عند ما ينحدران إلى موضع القاعدة، ثم يصعد من الجانبين فيتصل بطرفي الإكليلي. واعلم أن ما ذكرنا من الخمسة فهي للرأس الذي شكله طبيعي أي مستدير له نتوّ في مقدمه ونتوّ في مؤخره، وأما الذي ليس كذلك فهو ثلاثة:

أحدها: الذي لا نتوّ له في مقدمه ولا يوجد فيه الإكليلي.

الثاني: ما لا نتوّ له في مؤخره فلا يوجد فيه اللامي.

الثالث: ما لا نتوّله في مقدمه ولا في مؤخره فلا يوجد فيه الإكليلي.

واللامي ويوجد فيه درزان متقاطعان على زوايا قائمة، ويصير الرأس كالكرة متساوي الطول والعرض ولكل هذه العظام حدود تفرزه من غيره. أما اليافوخان فحد كل من خلف أحد ضلعي اللامي ومن قدام الإكليلي، ومن الأسفل أحد القشرتين، ومن الأعلى السهمي. وأما الجانبان فحد كل منهما من الأعلى أحد القشرتين، ومن الخلف طرف اللامي، ومن القدام آخر الدرز العام الذي من طرف اللامي إلى طرف الإكليلي. وعظم المؤخر حده من الأعلى اللامي، ومن الأسفل الجزء الوسط من العام الذي بين الرأس والوتد الذي من طرف اللامي الإكليلي، وعظم المؤخر حدّه من الأعلى اللامي، ومن الأسفل الجزء الوسط من العام الذي بين الـرأس والوتد وهو الواصل بين طرفي اللامي وعظم الجبهة حدّه فوق الإكليلي، ومن أسفل العام الواصل بين الرأس واللحي الأعلى.

واعلم أن القحف جثة الدماغ وجعل شكله مستديراً لئلا تسرع إليه الآفات، ولأن الشكل المستدير لا ينفعل عن المصادمات ما ينفعل عنه ذو الزوايا وليسع من جوهر ما يحتوي عليه مقداراً كثيراً، لأن الشكل المستدير أعظم مساحة مما يحيط به غيره من الأشكال المستقيمة الخطوط إذا تساوت إحاطتها، وخلق إلى طول مع استدارته مضغوطاً من الجانبين ناتئاً من قدام وخلف لأن الدماغ كذلك بسبب الشعب التي يأتي منه إلى المنخرين والعينين، وبسبب أبخرة المؤخر الذي هو منشأ النخاع، وفائدة دروزها اندفاع البخارات من منافذها، وفائدة كثرة عظامه أن الآفة إذا لحقت جزأ لم يقدح في البواقي، وليكون في الشرايين والأوردة الداخلة إلى الدماغ والخارجة منها مسالك، وأعظم تلك المسالك وهو مخرج النخاع وهو الذي من أسفل عند فقرة القفا. فهذا ما يتعلق بعظام القحف، ولم يذكر المصنف عظام الصدغين وهي أربعة لكل اثنان يسميان الزوج أحدهما ملتحم بالعظم الجبيني من عظام الرأس والآخر متصل بطرف الحاجب الذي هو عند الموق الأصغر من العين وكلاهما قرنا بـدرز مورب يفرق بينهما، ومنفعتهما حفظ عضل الصدغ عما يصاكه من خارج.

(وأربعة عشر للحي الأعلى) ستة في العينين لكل ثلاثة، واثنان للوجنتين وهما كبيران منهما أكثر الأسنان سوى الثنايا والرباعيات العليا واثنان صغيران وفيهما ثقبان من المنخرين إلى الفم، وإثنان في طرفي اللحي وفيهما بقية الاسنان، واثنان في الأنف. وأما دروز للحي الأعلى فالمشتركة قد ذكرت، والخاصة أربعة:

أحدها: يبتدىء من تحت زوج الصدغ من الدرز المشترك للحي والوتد ويصير إلى وسط الزيق الأسفل من محاجر العين، وينقسم هناك ثلاث شعب.

للّحي الأعلى، واثنتان للحي الأسفل، والبقية هي الأسنان بعضها عريضة تصلح للطحن وبعضها حادة تصلح للقطع وهي الأنياب والأضراس والثنايا؛ ثم جعل الرقبة مركباً

الثاني والثالث: يبتدئان من وسط الحاجبين ويمران إلى جانب المنخرين حتى ينتهيا إلى الموضع بين الرباعيات والأنياب.

الرابع: يقطع أعلى الحنك بالطول وكل واحد من هذه العظام يحده من جوانبه دروز من المشتركة والخاصة، وفائدة كثرتها أن الآفة إذا نالت أحدها لم يؤثر في الباقي.

(**واثنان للحي الأسفل**) طرف كل منهما من الأسفل في موضع الذقن يلتحم بصاحبه والآخر من فوق له شعبتان. إحداهمـا حادة دقيقة الرأس وهي تحت الزوج ويأتيها وتر عضلة الصدغ القائم بإطباق الفم، والثانيـة غليظة وهي من خلف داخلة في نقرة تحت الزيادة الشبيهة بحلمتي الثدي دخولاً يلتئم به منها ومن تلك النقرة مفصل.

(**والبقية هي الأسنان**) وهي اثنان وثلاثون في كل لحي ستة عشر (**بعضها عريضة**) خشنة الرؤوس (**تصلح للطحن**) وهـي خمسـة في كـل مـن الجانبين وتسمـى الأضراس والطـواحين، (**وبعضها**) عراض حادة الرؤوس (**تصلح للقطع وهي الأنياب، والأضراس والثنايا**) منها أربعة من قدام وهي الثنيتان والرباعيات ويقال لها القطاعة إذ يقطع بها ما يؤكل من الطعام اللين، واثنتان عن جانبي الأربع ويقال لهما النابان وهما حادتا الرؤوس عريضتا الأصول يكسر بهما ما صلب من الطعام، ولكل من هذه الست أصل واحد، ولكل منها إذا كان من فوق ثلاثة أصول، وقد يكون لأقصاها أربعة وإن كان من أسفل أصلان، وقد يكون لاقصاها ثلاثة أصول، وإنما جعلت أصـول الأضراس أكثر لشـدة عملهـا ودوامـه، وإنما جعلـت أصـول الفوقانية منهـا أكثر مـن أصـول التحتـانيـة لتعلقهـا. ومن عجيب الحكمة في هيئة الأسنان أن الثنايا والرباعيات يتماس ويلاقى في حالة العض، ولو لم يكن كذلك لم يتم العض على الأشياء وذلك يكون بجذب الفك إلى قدام حتى يلاقى بعضها بعضاً، وعند المضغ والطحن يرجع الفك إلى مكانه فيدخل الثنايا والرباعيات السفلانيات إلى داخل ويحيد عن موازاة العالية، فيتم بذلك الأضراس وقوع بعضها إلى بعض، وذلك لأنه لا يمكن تلاقي الثنايا والرباعيات التي في اللحي الأعلى في اللحي الأسفل أن يتلاقى الأضراس، وربما عدمت النواجز منها في بعض الناس وهي أربعة: الطرفانية فيكون أسنانه ثمانية وعشرين، النواجز تنبت في الأكثر في وسط زماني النموّ وهو بعد البلوغ إلى الوقوف، وذلك الوقوف قريب من ثلاثين سنة ولذلك تسمى اسنان الختم

تنبيه:

اختلف الأطباء في المادة التي تخلـق منها الأسنان فقال بعضهم: هي عظام لأنها صلبة يابسة قابلة للكسر غير مدركة لألم السحق والنحت، وإليه يميل سياق المصنف. وقال بعضهم: هي أعصاب لأنها تـدرك الحرارة والبرودة وألم الضربـان والوجـع والحكـة ويحصـل لها الضرس مـن

للرأس وركبها من سبع خـرزات مجوّفـات مستـديـرات، فيهـا تحريفـات وزيـادات ونقصانات لينطبق بعضها على بعض ويطول ذكر وجه الحكمة فيها. ثم ركب الرقبة على

الحموضات، وذلك خدرها والخدر مخصوص بالعصب. قال المتـأخـرون: والحق هـو الأول وهـي عظام قد غلب عليها البرد واليبس، وقد اتصل بها شعب من العصب الدماغي، وقد أنبتت في أصولها وهي الموجبة لإدراكها الوجع والضربان والحرارة والبرودة وغيرها، وقد اختلفوا أيضاً هل أصلها من مني الأب والأم أو هي من الغذاء؟ واستدل القائلون بالأول بأنها لو كانت من الغذاء لنبتت كلما انكسرت وسقطت وليس كذلك، واستدل القائلون بالثاني بأنها لو كانت من المني لم يوجد الجنين إلا بها ولم تنبت هي إذا سقطت كما في الأطفال وليس كذلك، والحق أنها من مادة المني لكن تلك المادة كامنة في عظام الفكين، والعلة الغائية في ذلك أن الطفل لا يحتاج إلى الأسنان في أول الأمر لأن غذاءه من اللبن وفكاه صغيران وعظامها ضعيفة يكون ما ينبت منها مناسباً لها في الضعف والصغر، فلم تف بما يحتاج إليه من المضغ والكسر وغير ذلك إلى آخر العمر. فالعناية الأزلية اقتضت تأخير خروجها ونباتها إلى حين الحاجة والاستعداد التام للوفاء بما هو المطلوب منها من الشكل والعظم والقوة والصلابة وغيرها. وأما سقوط أسنان الأطفال ونباتها ثانية فالحكمة فيه أن الطفل إذا صار محتاجاً إلى الاغتذاء بغير اللبن اقتضت العناية نبات أسنانه لكنها تكون ضعيفة صغيرة مناسبة لعظام الكفين، ولذلك لا يفي بما هو المراد إلى آخر، فقدر الباري تعالى أن يسقط ويدخر الطبيعة شيئاً من المادة لإنباتها مرة ثانية بحيث يفي بالمراد إلى حلول الأجل الطبيعي، ولسقوطها سبب آخر وهو نموّ الإنسان وكبر أعضائه فيتسع بالضرورة مكان الأسنان فيتحرك ويتزلزل ويسقط، وما يقال من أن بعض الشيوخ تسقط أسنانه وتنبت مرة ثالثة فغير مستبعد، إذ قد تكون المادة التي تخلق الأسنان منها أوفر مما هو الأغلب والأكثر المعتاد في الأشخاص وذلك نار فيفي بنباتها مرة ثالثة، ومادة السن الزائدة هي أيضاً من هذا القبيل. أعني من توفر المادة كمادة الأصبع الزائدة، وقد نبت لبعض الناس بعد البلوغ أسنان صغار ومادتها ما ذكرنا.

(ثم جعل الرقبة مركباً للرأس وركبها من سبع خرزات مجوّفات مستديرات فيها تحريفات وزيادات ونقصانات لينطبق بعضها على بعض ويطول ذكر وجه الحكمة فيها).

اعلم أن عظم الصلب ينقسم أربعة أجزاء. أحدها: الرقبة وهي مركبة من سبع فقرات، والفقرة عظم في وسطه ثقب ينفذ فيه النخاع ويقال لها أيضاً الخرزة. الثاني: الظهر. الثالث: القطن والحقو. الرابع: العجز، وسيأتي بيان كل ذلك. ومن الفقرات ما تسمى بالزوائد وهي ثلاثة أجناس. أحدها: يسمى بالشوك والسناسن، الثاني: الزوائد المعترضة فما منها من فقار الرقبة مثقوب وهي في الأوّلين بسيطة وفي الخمس الباقية مشقوقة باثنين، وما منها في البواقي غير مثقوب الثلاث الزوائد التي بها تلتئم مفاصل الفقار وهي في كل أربع اثنتان شاخصتان إلى فوق واثنتان إلى أسفل، وفي خرز الرقبة وخرز القطن زائدتان للوقاية. وقوله: فيها تحريفات وزيادات ونقصانات يشير به إلى أن في كل من الفقرات الستة السفلية من الرقبة نصف ثقبة هي نصف دائرة تامة وتلتئم من اثنين

الظهر، وركب الظهر من أسفل الرقبة إلى منتهى عظم العجز من أربع وعشرين خرزة، وركب عظم العجز من ثلاثة أجزاء مختلفة، فيتصل به من أسفله عظم العصعص وهو أيضاً مؤلف من ثلاثة أجزاء ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتف وعظام

دائرة تامة أيضاً، والفقرة الأولى يخرج العصب من ثقب فيها خاصة لمكان المفاصل التي من جانبيها.

(ثم ركب الرقبة على الظهر وركب الظهر من أسفل الرقبة إلى منتهى عظم العجز من أربع وعشرين خرزة) اثنتا عشرة منها تسمى فقرات الصدر أيضاً لأن حد الصدر الأسفل ينتهي عند قبالتها، وسائر الفقرات يتصل كل منها بصاحبتها من قدّام برباطات ومن خلف بزوائد يدخل من كل في الأخرى، ومنها خمس للقطن والحقو. **(وركب عظم العجز)** وهو عظم عريض يعرف بالعظم الأعظم **(من ثلاثة أجزاء مختلفة)** وعند المشرحين مركب من جزأين. أحدهما: يسمى العجز باسم الجميع وهو مركب من ثلاثة عظام شبيهة بالفقرات، **(فيتصل به من أسفله عظم العصعص)** وهو الجزء الثاني من العجز، **(وهو أيضاً مؤلف من ثلاثة أجزاء)** غضروفية وتختلف هذه الخرز في الاتصال والمقدار والثخن والزوائد والثقب، ولعظم العجز زوائد شوكية وشاخصة إلى الفوق وأسفل، وأما التي في الجانبين فهي عراض.

واعلم أن منافع عظم الصلب خمس. **إحداها:** أنه أساس الأعضاء. **الثانية:** مرور النخاع في تجويفه والحاجة إلى النخاع ضرورية إذ لا بدّ للأعضاء من عصب الحس والحركة، ولو كان العصب كله يأتيها من نفس الدماغ لانقطع إذا بعدت المسافة على أنه لم يمكن أن ينسب من الدماغ عصب صلب يصلح لتحريك اليدين والرجلين للين جوهره. **الثالثة:** كونه جنة للنخاع واقية. **الرابعة:** القدرة على الانحناء والانبساط، ولذا جعل مركباً من الفقرات الكثيرة إذ لو كان واحداً لتعذر ذلك. **الخامسة:** أن يستر الأعضاء الموضوعة عليها ويدفع عنها

(ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر) وهي سبعة يتصل بعضها ببعض وابتداؤها من حيث نقرة الحلق وانتهاؤها من أسفل الثدي بقليل حيث أضيق موضع من المواضع التي يحس من البطن، **(وعظام الكتف)** وهي أربعة لكل إثنان أحدهما له تقعير من باطنه لتحدب الاضلاع وتجويف من ظاهره ونتوّ من خلفه يقال ظاهر الكتف وعين الكتف، وله عنق في طرفه نقرة يدخل منها رأس العضد وفيه زائدتان إحداهما من خلف في الطرف الأعلى شبيهة بمنقار الغراب وتسمى الأخرم وبها يرتبط الكتف بالترقوة وهي تمنع رأس العضد أن ينخلع، والثانية: عظم غضروفي إلى فوق من داخل يمنع رأس العضد أن ينخلع.

(وعظام اليدين): وهي ستة عشر لكل ثمانية وهي عظام صلبة صلدة عديمة المخ سبعة منها نضدت صفين، فالصف الأعلى من ثلاثة والأسفل من أربعة، وذلك لأن أعلى الرسغ موصول بعضو ضيق الطرف ليس بين عظميه في هذا الجانب فرجة أعني الساعد وأسفله متصل بعضو

اليدين وعظام العانة وعظام العجز وعظام الفخذين والساقين وأصابع الرجلين، فلا نطول بذكر عدد ذلك. ومجموع عدد العظام في بدن الإنسان مائتا عظم وثمانية وأربعون عظماً سوى العظام الصغيرة التي حشي بها خلل المفاصل. فانظر كيف خلق جميع ذلك من نطفة سخيفة رقيقة. وليس المقصود من ذكر أعداد العظام أن يعرف عددها، فإن هذا علم

عريض أعني مشط الكف، وأما الثامن فإنما خلق لحفظ عصبة هناك تأتي الكف لا للرسغ خاصة.

(وعظام العانة وعظام العجز). اعلم أن عظم العانة واحد وهو جزء من أربعة أجزاء من عظمي الوركين، وبيانه أن عظمي الوركين متصلان بعضم العجز من جانبيه عن يمينه وعن شماله، ولكل أربعة أجزاء فيقال للذي بجنبه منها عظم الخاصرة، وللذي من قدامه عظم العانة، وللذي من خلفه عظم الورك، وللجزء الباطن المجوّف حق الفخذ، وأما عظام العجز فقد تقدم الكلام عليها.

(ثم عظام الفخذين). وهما عظمان من أعظم عظام البدن لأنهما يحلان ما فوقهما ويقومان بتحريك عضو عظيم أعني جملة الرجل والطرف الأعلى من كل منقول إلى الجانب الوحشي ليكون للعضل والعصب والعروق موضع والأسفل إلى الأنسي ليتمكن البدن منه بوثاقة وحرز، ولكل رأسان الأعلى مدوّر داخل في حق الفخذ ويسمى رمانة الفخذ، والأسفل ذو شعبتين يدخلان في نقرتين في رأس عظم الساق.

(والساقين): وهي ستة لكل ثلاثة: **أحدها**: القصبة العظمى ويقال له عظم الساق، والقصبة الأنسية لوضعه في الجانب الأنسي. **والثاني**: الصغرى والوحشية وهي أقصر من تلك، ولذا لا تبلغ مفصل الركبة وإنما تبلغه العظمى فيدخل رأسان من عظم الفخذين في حفرتين فيها، وطرفا هذين يلتقيان عند الكعب فيحدث فيما بينهما المفصل الثالث من مفاصل الرجل. **الثالث**: عين الركبة وهو عظم مطبق على مفصل الركبة مستدير فيه غضروفية ويسمى الرحى.

(وأصابع الرجلين): وهي مؤلفة من أربعة عشر عظماً لأن الإبهام فيها مؤلف من كعبين والبواقي من ثلاث؛ فهذه جملة عظام البدن، ولم يذكر عظمي العضدين ولا عظام الساعدين وهي أربعة لكل اثنان هما الزندان، ولا عظام شطر الكفين وهي ثمانية لكل أربعة، ولا عظام أصابع اليدين وهي ثلاثون لكل خمسة عشر، ولا عظام القدمين وهي اثنان وخمسون لكل ستة وعشرون. **(فلا نطيل بذكر عدد ذلك، ومجموع عدد العظام في بدن الإنسان مائتا عظم وثمانية وأربعون عظماً سوى)** السمسمانيات وهي **(العظام الصغيرة التي حشي بها خلل المفاصل)** من السلاميات وهي عظام الأصابع لزيادة الاستيثاق منها سميت بذلك لتشابهها السمسم، وسوى العظم الشبيه باللام اليوناني، وسوى العظم الذي في القلب فإنهما عند بعض الناس من جنس الغضروف والاختلاف في عدد جملة عظام القدمين بل البدن كثير وتفصيله مودع في كتب التشريح، **(فانظر كيف خلق جميع ذلك من نطفة)** قذرة **(سخيفة رقيقة، وليس**

قريب يعرفه الأطباء والمشرحون، وإنما الغرض أن ينظر منها في مدبرها وخالقها أنه كيف قدّرها ودبرها وخالف بين أشكالها وأقدارها، وخصصها بهذا العدد المخصوص لأنه لو زاد عليها واحداً لكان وبالاً على الإنسان يحتاج إلى قلعه، ولو نقص منها واحداً لكان نقصاناً يحتاج إلى جبره، فالطبيب ينظر فيها ليعرف وجه العلاج في جبرها وأهل البصائر ينظرون فيها ليستدلوا بها على جلالة خالقها ومصوّرها، فشتان بين النظرين. ثم انظر كيف خلق الله تعالى آلات لتحريك العظام وهي العضلات فخلق في بدن الإنسان خمسمائة عضلة وتسعاً وعشرين عضلة والعضلة مركبة من لحم وعصب ورباط وأغشية، وهي مختلفة المقادير والأشكال بحسب اختلاف مواضعها وقدر حاجاتها. فأربع

المقصود من ذكر أعداد العظام أن يعرف عددها) فقط، **(فإن هذا علم قريب)** سهل التناول **(يعرفه الأطباء والمشرحون)** أي أرباب التشريح، **(وإنما الغرض)** المطلوب من ذلك **(أن ينظر منها في مدبرها وخالقها أنه كيف قدرها ودبرها وخالف بين أشكالها واقدارها خصصها بهذا العدد المخصوص، لأنه لو زاد عليها واحداً لكان وبالاً على الإنسان يحتاج إلى قلعه)** وإزالته **(ولو نقص منها واحداً لكان نقصاناً يحتاج إلى جبره، فالطبيب ينظر فيها ليعرف وجه العلاج في جبرها، وأهل البصائر ينظرون فيها ليستدلوا بها على جلالة خالقها ومصوّرها، فشتان بين النظرين)** نظر البصر ونظر البصيرة.

(ثم انظر كيف خلق الله تعالى آلات لتحريك العظام وهي العضلات فخلق في بدن الإنسان خمسمائة عضلة وتسعاً وعشرين عضلة) أو سبعاً وعشرين وهذا على قول جالينوس، **(والعضلة مركبة من لحم وعصب وربط وأغشية)** فاللحم هو حشو خلل الأعضاء وقوّتها التي يندعم بها، ويندرج في هذا الحد أنواع اللحم. أحدها: اللحم الذي في العضل هو أكثر ما في البدن. والثاني: اللحم المفرد وهو لحم الفخذين ولحم ظاهر الصلب وباطنه ولحم الأسنان. والثالث: اللحم العددي كلحم **الأنثيين**ولحم الثدي وغير ذلك. والرابع: السمين وهو ما يعلو على اللحم الأحمر. والخامس: الشحم وهو جسم أبيض لين. وأما العصب فهو عضو أبيض لدن في الانعطاف صلب في الانفصال، وأما الرباط فهو عضو عصباني المرأى والملمس من جهة البياض واللدونة، وأما الأغشية فهي أعضاء عصبانية عريضة شديدة صلبة القوام. **(وهي مختلفة المقادير والأشكال بحسب اختلاف مواضعها قدر حاجاتها)**، ومنفعتها أن الإنسان إذا أراد أن يقرب عضواً من آخر حرك العضل فتشنجت وزاد في عرضها ونقص من طولها، وإذا أراد التبعيد حركها فاسترخت وزاد في طولها ونقص من عرضها فحصل المقصود، والعضل الذي يحرك عضواً كبيراً يكون كبيراً كالعضل الذي في الفخذ وينبت منه إما وتر وإما أوتار متصل بالعضو الذي يحركه، وربما تعاونت عدة عضلات على تحريك عضو واحد، والذي يحرك عضواً صغيراً كالعضلات المحركة للأجفان العليا، فإنها صغار جداً وليس لها أوتار، وكل عضو يتحرك حركة

وعشرون عضلة منها هي لتحريك حدقة العين وأجفانها لو نقصت واحدة من جملتها اختل أمر العين. وهكذا لكل عضو عضلات بعدد مخصوص وقدر مخصوص. وأمر

إرادية فإنه له عضلة بها تكون حركته فإن كان يتحرك إلى جهات متضادة كانت له عضلات متضادة الوضع يجذبه كل منها إلى ناحيتها عند كون تلك الحركة، ويمسك المضادة لها عن فعلها وإن عملت المضادتان في الوضع في وقت واحد انشق العضو أو تمدد مستقيماً لا يتحرك. مثال ذلك أن الكف إذا مدّها العضل الموضوع في باطن الساعد انثنى، وإن مده العضل الموضوع في ظهره انحنى وانقلب إلى خلف، وإن مداها جميعاً استوى وقام بينهما، وجملة ما للبدن من الحركات الإرادية حركة جلدة الجبهة وحركة العينين والخدين وطرفي الأنفين والشفتين واللسان، وحركة الحنجرة والفك، وحركة الرأس والعنق، وحركة الكتف، وحركة مفصل العضد مع الكتف، وحركة مفصل العضد مع الساعد، وحركة مفصل الساعد مع الرسغ، وحركة جملة الأصابع، وكل واحد من مفاصلها، وحركة الأعضاء التي في الحلق، وحركة الصدر للتنفس، وحركة القضيب وحركة المثانة في منعها خروج البول وحركة المعي المستقيم في منعها خروج الثفل وحركة مراق البطن، وحركة مفصل الورك والفخذ، وحركة مفصل الفخذ والساق، وحركة مفصل الساق والقدم.

(فاربع وعشرون عضلة منها هي لتحريك حدقة العين وأجفانها لو نقصت واحدة من جملتها اختل أمر العين). ثلاث منها لتحريك الجفن رأسها معلق في العظم الحاوي للعين ووترها يمر في وسط طيّ الغشاء الذي يكون منه الجفن ويتصل بوسط حافة الجفن وهو يفتحه. واثنتان موضوعتان في موق العين مدفونتان في حفرتها ووتراهما يأتيان حافة الجفن ويتصلان به من جانبه وهما يغمضان العين باطباقهما الجفن، وذلك إذا فعل كل منهما فعلها فإن نال إحداهما آفة انطبق بعض الجفن ويبقى باقيه مفتوحاً وواحـدة وقيل: اثنتان، وقيل ثلاثة يدعم العصبة المجوّفة التي يكون بها البصر ويثبتها حتى لا تنالها بسبب لينها عند التحديق الشديد لئن ينقطع، وست عضلات تحرك العين أربع إلى الاستقامة إحداها تميلها إلى فوق. الثانية: تحفظها إلى أسفل. الثالثة: تحركها يمنة. الرابعة: تحركها يسرة، واثنتان على الإستدارة فهذه عشرة أو إحدى عشرة أو اثنتا عشرة لعين وللأخرى كذلك.

(وهكذا لكل عضو عضلات بعدد مخصوص وقدر مخصوص) منها تسع للوجه اثنتان مـن جانبي الخدين يحركان الخدود من اللحي ويفرقان بين الشفتين وهما عريضتان، واثنتان تجذبان الشفة السفلى إلى أسفل، واثنتان تبسطان طرف الأنف، وواحدة تحت جلدة الجبهة. ومنها اثنتا عشرة لتحريك للفك الأسفل، ومنها ثلاث وعشرون لتحريك الرأس والعنق، ومنها اثنتان وثلاثون لحركة الحلق والحنجرة، ومنها تسع لتحريك اللسان، ومنها أربع عشرة للكتفين، ومنها ست وعشرون للعضدين، ومنها ثمان لمفصل المرفقين، ومنها أربع وثلاثون في الساعدين، ومنها ست وثلاثون في الكتفين، ومنها مائة وسبع لحركة الصدر، ومنها ثمان وأربعون لتحريك الصلب، ومنها ثمان موضوعة على البطن، ومنها أربع للإنثيين، ومنها واحدة لعنق المثانة، ومنها أربع تحرك

الأعصاب والعروق والأوردة والشرايين وعددها ومنابتها وانشعاباتها أعجب من هذا كله وشرحه يطول فللفكر مجال في آحاد هذه الأجزاء، ثم في آحاد هذه الأعضاء، ثم في جملة البدن فكل ذلك نظر إلى عجائب أجسام البدن، وعجائب المعاني والصفات التي لا تدرك بالحواس أعظم، فانظر الآن إلى ظاهر الإنسان وباطنه وإلى بدنه وصفاته فترى به من العجائب والصنعة ما يقضي به العجب، وكل ذلك صنع الله في قطرة ماء قذرة،

الذكر، ومنها أربع تحيط بالدبر، ومنها ست وعشرون أو أربع وعشرون أو اثنتان وعشرون لمفصل الورك، ومنها ثمان عشرة أو عشرون لمفصل الركبتين وحركة الساق، ومنها ثمان وعشرون لحركة القدم، ومنها ثمان وخمسون أو اثنتان وخمسون موضوعة في القدم لبقية حركات الأصابع.

(وأمر الأعصاب والعروق والأوردة والشرايين وعددها ومنابتها وانشعاباتها أعجب من هذا كله وشرحه يطول). فالأعصاب مبدأها من الدماغ والنخاع وجميعها أزواج سوى عصب واحد فإنه فرد ولا زوج له وهو آخر النخاعيات، فما نبت من الدماغ نفسه سبعة أزواج بها حس الحواس الخمس وحس بعض الأعضاء.

وأما العروق، فمنها نوابض ومنها ضوارب، فمن النوابض الأوردة ومنبتها الكبد ولها انشعابات فما يأتي منها اليد من ناحية الإبط يسمى الباسليق، وما جاء إلى اليد من الجانب الوحشي يسمى القيفال، وما غار في العنق مصعداً يسمى الودج، وما كان عند المرفق يسمى الأكحل وما ركب الزند الأعلى يسمى حبل الذراع، وما بلغ رأس الزند الأسفل يكون من بعضه شعبة العرق الذي بين الخنصر والبنصر المسمى بالأسيلم، وما يمر في عضد الساق الداخل والخارج يسمى المابض، وما ظهر عند الكعب الداخل يسمى الصافن، وما يمر في الجانب الظاهر من الساق وهو غائر إلى ناحية الكعب الخارج يسمى عرق النساء. وفعل الجميع جذب الكيلوس إلى الكبد. وأما الضوارب: فهي الشرايين ومنبتها التجويف الأيسر من القلب، ويخرج من هذا التجويف شريانان. أحدهما صغير غير متضاعف يسمى الشريان الوريدي، والثاني كبير جداً يسمى الأبهر، وحين طلوعه تتشعب منه شعبتان. احداهما وهي أصغرهما تصير إلى التجويف الأيمن من تجويفي القلب، والثانية تستدير حول القلب ثم تدخل إليه وتتفرق فيه، ثم إن الباقي من العرق النابت من تجويف القلب الأيسر بعد انشعاب هاتين الشعبتين ينقسم قسمين. احدهما: يأخذ نحو أعلى البدن وتتشعب منه في مصعده من الجانبين شعب، والثاني يأخذ نحو أسافل البدن فيركب خرز الصلب نازلاً إلى أسفل وتتشعب منه عند كل خرزة شعبة يمنة وأخرى يسرة.

(فللفكر مجال في آحاد هذه الأجزاء في آحاد الأعضاء في جملة البدن) من حيث المجموع من هذه الأجزاء والأعضاء، **(فكل ذلك نظر إلى عجائب أجسام البدن وعجائب المعاني والصفات)** الباطنة **(التي لا تدرك بالحواس)** الظاهرة **(أعظم، فانظر الآن إلى ظاهر الإنسان وباطنه وإلى بدنه وصفاته المركبة فيه فترى فيه من العجائب والصنعة ما يقضي به**

فترى من هذا صنعه في قطرة ماء فما صنعه في ملكوت السموات وكواكبها وما حكمته في أوضاعها وأشكالها ومقاديرها وأعدادها واجتماع بعضها وتفرّق بعضها واختلاف صورها وتفاوت مشارقها ومغاربها ؟ فلا تظنن أن ذرّة من ملكوت السموات تنفك عن حكمة وحكم بل هي أعظم خلقاً وأتقن صنعاً وأجمع للعجائب من بدن الإنسان. بل لا نسبة لجميع ما في الأرض إلى عجائب السموات ولذلك قال تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خلقاً أَمْ السَّماءُ بَنَاهَا ★ رفع سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ★ وأغطَشَ ليَلَها وأخرَجَ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧ - ٢٩]، فارجع الآن إلى النطفة وتأمل حالها أوّلاً وما صارت إليه ثانياً، وتأمل أنه لو اجتمع الجن والإنس على أن يخلقوا للنطفة سمعاً أو بصراً أو عقلاً أو قدرة أو علماً أو روحاً أو يخلقوا فيها عظماً أو عرقاً أو عصباً أو جلداً أو شعراً هل يقدرون على ذلك؟ بل لو أرادوا أن يعرفوا كنه حقيقته وكيفية خلقته بعد أن خلق الله تعالى ذلك لعجزوا عنه، فالعجب منك لو نظرت إلى صورة إنسان مصوّر على حائط تأنق النقاش في تصويرها حتى قرب ذلك من صورة الإنسان وقال الناظر إليها: كأنه إنسان! عظم تعجبك من صنعة النقاش وحذقه وخفة يده وتمام فطنته وعظم في قلبك محله، مع أنك تعلم أن تلك الصورة إنما تمت بالصبغ والقلم واليد وبالحائط وبالقدرة وبالعلم وبالإرادة،

العجب وكل ذلك صنع الله) تعالى **(في قطرة ماء قذرة فترى من هذا صنعه في قطرة ماء فما صنعه في ملكوت السموات وكواكبها، أو ما حكمته في أوضاعها وأشكالها ومقاديرها وأعدادها واجتماع بعضها وتفرق بعضها واختلاف صورها وتفاوت مشارقها ومغاربها، فلا تظنن أن ذرة في ملكوت السموات تنفك عن حكمة وحكم، بل هي أحكم خلقا وأتقن صنعاً وأجمع للعجائب من بدن الإنسان، بل لا نسبة لجميع ما في الأرض إلى عجائب السموات، ولذلك قال تعالى: ﴿أأنتم أشدُّ خلقاً)** أي أصعب خلقاً **(أم السماء)** ثم بين كيف خلقها فقال: **(﴿بناها﴾ فارجع الآن إلى النطفة وتأمل حالها أولاً)** كيف كانت في قلتها وحقارتها، **(وما صارت إليه ثانياً)** بعد اختلاف الأطوار السبعة عليها، **(وتأمل لو اجتمع الإنس والجن على أن يخلقوا للنطفة سمعاً أو بصراً أو عقلاً أو قدرة أو علماً أو روحاً، أو يخلقوا فيها عظماً أو عرقاً أو عصباً أو جلداً أو شعراً هل يقدرون على ذلك؟ بل لو أرادوا أن يعرفوا كنه حقيقة وكيفية خلقته بعد أن خلق الله تعالى ذلك لعجزوا عنه. فالعجب منك لو نظرت إلى صورة إنسان مصوّر على حائط)** أو خشب أو ورق وقد **(تأنق النقاش في تصويرها)** وتحليتها **(حتى قرب ذلك من صورة الإنسان، وقال الناظر إليها كأنه إنسان)** وهو غاية التقريب، **(عظم تعجبك من صنعة النقاش وحذقه وخفة يده وتمام فطنته، وعظم في قلبك محله مع أنك تعلم أن تلك الصورة إنما تمت بالصبغ والقلم وبالحائط**

وشيء من ذلك ليس من فعل النقاش ولا خلقه بل هو من خلق غيره، وإنما منتهى فعله الجمع بين الصبغ والحائط على ترتيب مخصوص، فيكثر تعجبك منه وتستعظمه وأنت ترى النطفة القذرة كانت معدومة فخلقها خالقها في الأصلاب والترائب، ثم أخرجها منها وشكلها فأحسن تشكيلها وقدّرها فأحسن تقديرها وتصويرها، وقسم أجزاءها المتشابهة إلى أجزاء مختلفة فأحكم العظام في أرجائها وحسن أشكال أعضائها وزين ظاهرها وباطنها ورتب عروقها وأعصابها وجعلها مجرى لغذائها ليكون ذلك سبب بقائها، وجعلها سميعة بصيرة عالمة ناطقة. وخلق لها الظهر أساساً لبدنها والبطن حاوياً لآلات غذائها والرأس جامعاً لحواسها ففتح العينين ورتب طبقاتها وأحسن شكلها ولونها وهيئاتها، ثم حماها بالأجفان لتسترها وتحفظها وتصقلها وتدفع الأقذاء عنها، ثم أظهر في مقدار عدسة منها صورة السموات مع اتساع أكنافها وتباعد أقطارها فهو ينظر إليها، ثم

واليد وبالقدرة وبالعلم والإرادة، وشيء من ذلك ليس من فعل النقاش ولا خلقه بل هو من خلق غيره، وأما منتهى فعله الجمع بين الصبغ والحائط على ترتيب مخصوص، فيكثر تعجبك منه وتستعظمه. وأنت ترى النطفة القذرة كانت معدومة فخلقها خالقها في الأصلاب والترائب) وجمعها من بين الذكر والأنثى، **(ثم أخرجها منها)** فألقاها في الرحم **(وشكلها فأحسن تشكيلها وقدّرها فأحسن تقديرها و)** صوّرها فأحسن **(تصويرها، وقسم أجزاءها المتشابهة إلى أجزاء مختلفة فأحكم العظام)** التي هي دعائم البدن **(في أرجائها)** أي أطرافها، **(وحسن أشكال أعضائها وزين ظاهرها وباطنها ورتب عروقها وأعصابها وجعلها مجرى لغذائها)** وممداً لإيصال منافعها، **(ليكون ذلك سبب بقائها)** في الدنيا **(وجعلها سميعة بصيرة عالمة ناطقة، وخلق لها الظهر أساساً لبدنها والبطن حاوياً لالآت غذائها والرأس جامعاً لحواسها)** الظاهرة، **(ففتح العينين ورتب طبقاتها)** بما في أثنائها من الرطوبات **(وأحسن شكلها ولوّنها وهيئاتها ثم حماها بالأجفان)** من الأعلى والأسفل **(لتسترها)** من عوارض الآفات **(وتحفظها)** عن اشعة الشمس **(وتصقلها وتدفع الأقذاء عنها)** بأهدابها، **(ثم أظهر في مقدار عدسة منها صورة السموات مع إتساع أكنافها وتباعد أقطارها فهو ينظر إليها)** وللناس في صفة الأبصار خمسة مذاهب:

أحدها: وهو مذهب المتكلمين أن الابصار علم خاص يتعلق بالمعلوم على ما هو عليه.

والثاني: قول الطبيعيين وهو أن الإبصار ورود صورة المرئي على الرائي فينطبع فيه مثال للمرئي فيدركه بانطباع صورته فيه.

والثالث: قول الرياضيين وهو أن الإبصار لأجل أن الشعاع يخرج من العين على شكل مخروط رأسه عند مركز البصر وقاعدته عند سطح المبصر.

شق أذنيه وأودعها ماء مراً ليحفظ سمعها ويدفع الهوام عنها وحوّطها بصدفة الأذن لتجمع الصوت فترده إلى صماخها ولتحس بدبيب الهوام إليها ، وجعل فيها تحريفات واعوجاجات لتكثر حركة ما يدب فيها ويطول طريقه فيتنبه من النوم صاحبها إذا قصدها دابة في حال النوم. ثم رفع الأنف من وسط الوجه وأحسن شكله ، وفتح منخريه وأودع فيه حاسة الشم ليستدل باستنشاق الروائح على مطاعمه وأغذيته ، وليستنشق بمنفذ المنخرين روح الهواء غذاء لقلبه وترويحاً لحرارة باطنه. وفتح الفم وأودعه اللسان ناطقاً

والرابع: أن الإبصار بأن يخرج من العين خط واحد مستقيم ينتهي إلى المبصر ثم يتحوّل على سطحه حركة في غاية السرعة في الطول والعرض فيحصل الإدراك.

والخامس: أن لا يخرج من العين شعاع لكن الشعاع الذي فيه يتكيف الهوى بكيفيته ويصير ذلك آلة للإبصار ، والحق في هذه الأقوال هو الأول وقد وردت على بقية الأقوال إيرادات مع أن مسائل المبصرات في علم المناظر إنما تتخرج على قاعدة الشعاع ، وبسط ذلك في المبسوطات في هذا العلم، وقد أورد الشهاب القرافي في كتابه الاستبصار لما يدرك بالأبصار منها جملة ولا يليق إيراده هنا.

(ثم شق أذنيه) وركبها من اللحم والغضروف والعصب الحساس، **(وأودعها ماء مراً يحفظ سمعها ويدفع الهوام عنها وحوطها بصدفة الأذن ليجتمع الصوت فترده إلى صماخها وليحس بدبيب الهوام إليها ، وجعل فيها تحريفات واعوجاجات ليكثر حركة ما يدب فيها ويطول طريقه ، فينتبه عن النوم صاحبها إذا قصدها دابة في حال النوم)** ولئلا يصادم الأصوات المزعجة عصب الحس دفعة بعنف فتلحقه آفة. واعلم أن داخل الأذن فضاء هو موضوع مجوّف وتقعير يؤدي إليه ثقبه ، وقد انبسط غشاء منتسج من ليف عصب الحس على محيط ذلك الفضاء كانبساط الجلد على الطبل ، وبهذا الغشاء يكون السمع عندما يقرعه الصوت لأن في ذلك الفضاء هواء راكداً ، فكلما وصل الهواء الخارجي المتموّج إلى العصب حرك الهواء الداخل فيصادمان العصب معاً فيدرك الصوت.

(ثم رفع الأنف من وسط الوجه) بعد أن ركبه من العظم والغضروف والعضل ، **(وأحسن شكله وفتح منخريه وأودع فيه حاسة الشم ليستدل باستنشاق الروائح على مطاعمه وأغذيته ، وليستنشق بمنفذ المنخرين روح الهواء غذاء لقلبه وترويحاً لحرارة باطنه)** اعلم أن عضلة النصف الأعلى القريب من الحاجبين عظيمة ، وعضلة النصف الأسفل غضروفية ومجراه إذا علا انقسم قسمين. أحدهما : يفضي إلى أقصى الفم ، والثاني يمر صاعداً حتى ينتهي إلى العظم الشبيه بالمصفاة الموضوع في وجه زائد في الدماغ ، وبعد هذا العظم منفذ في الغشاءين تنفذ فيه الرائحة الواصلة إلى الزائدة إلى الدماغ ، فبهذا المجرى يكون الشم وبالأولى التنفس الجاري على العادة لا

وترجماناً ومعرباً عما في القلب. وزين الفم بالأسنان لتكون آلة الطحن والكسر والقطع فأحكم أصولها وحدّد رؤوسها وبيض لونها، ورتب صفوفها متساوية الرؤوس متناسقة الترتيب كأنها الدرّ المنظوم وخلق الشفتين وحسن لونها وشكلها لتنطبق على الفم فتسدّ منفذه وليتم بها حروف الكلام. وخلق الحنجرة وهيأها لخروج الصوت، وخلق للسان قدرة للحركات والتقطيعات لتقطع الصوت في مخارج مختلفة تختلف بها الحروف ليتسع بها طريق النطق بكثرتها. ثم خلق الحناجر مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة وصلابة الجوهر ورخاوته والطول والقصر، حتى اختلفت بسببها الأصوات، فلا يتشابه صوتان بل يظهر بين كل صوتين فرقان حتى يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرّد الصوت في الظلمة. ثم زين الرأس بالشعر والأصداغ. وزين الوجه باللحية

الكائن بالفم، ومن منفذي الأنف منفذان إلى الحنك بهما يصير الصوت صافياً فإذا انسدّا تغير الصوت ومنفذان إلى مآقي العين بهما يصل رائحة الكحل إلى الأنف.

(**وفتح الفم وأودعه اللسان ناطقاً وترجماناً ومعرباً عما في القلب**) وهو مركب من اللحم والعروق والشريانات والعصب الحساس والغشاء المتصل بغشاء المريء، وقد التفت به عروق كثيرة صغار فيها دم هو سبب حمرة لونه، وتحته عروق وشريانات وأعصاب كثيرة، وتحته فوهتان يخرج منهما اللعاب وبهما يبقى في اللسان وما حوله النداوة الطبيعية. (**وزين الفم بالأسنان ولتكون آلة للطحن والكسر والقلع**) فمنها الطواحن، ومنها الكواسر، ومنها القواطع كما تقدم بيانها (**فاحكم أصولها وحدد رؤوسها وبيّض لونها ورتب صفوفها متساوية الرؤوس متناسقة الترتيب كأنها الدر المنظوم**) في السلك. (**وخلق الشفتين وحسن لونها وشكلها لتنطبق على الفم فتسد منفذه وليتم بها حروف الكلام**) الشفوية.

(**ثم خلق الحنجرة**) مشدودة مع العصبة بالمريء (**وهيّأها لخروج الصوت، وخلق للسان قدرة الحركات والتقطيعات لتقطع الصوت في مخارج مختلفة تختلف بها الحروف ليتسع طريق النطق بكثرتها، ثم خلق الحناجر مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة وصلابة الجوهر ورخاوته والطول والقصر، حتى اختلفت بسببها الأصوات فلا يتشابه صوتان بل يظهر بين كل صوتين فرقان حتى يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرد الصوت في الظلمة**) : اعلم أن الحنجرة مؤلفة من ثلاث غضاريف. **أولها** : الدرقي وهو قدام الحلق مقعر الباطن محدب الظاهر متصل بأصل اللسان. **الثاني**: يحاذي الدرقي في خلف. **الثالث**: مكبوب عليهما ويلقي الدرقي بغير اتصال ويسمى المكي وهما يأتيان الدرقي عند الآكل فيساعدانه على تغطيه قصبة الرئة وضمها لئلا ينزل فيه شيء مما يؤكل ويشرب وينحيانه عنه عند الكلام فينفتح، وإنما ينتـو الحنجرة ويغلظ الصوت عند الإدراك لأن الحرارة التي تنهض في ذلك الوقت توسع

والحاجبين. وزين الحاجب برقة الشعر واستقواس الشكل. وزين العينين بالأهداب. ثم خلق الأعضاء الباطنة وسخر كل واحد لفعل مخصوص. فسخر المعدة لنضج الغذاء، والكبد لإحالة الغذاء إلى الدم، والطحال والمرارة والكلية لخدمة الكبد. فالطحال يخدمها بجذب السوداء عنها. والمرارة تخدمها بجذب الصفراء عنها. والكلية تخدمها بجذب المائية

الحنجرة فينتو ويغلظ الصوت، والآلة التي تحرك الهواء الذي هو مادة الصوت بحركتي الانقباض والانبساط يسمى بالحجاب، واللهاة عضو معلق فوق الحنجرة يصل إليه أولاً كل شيء خرج من الحنجرة كالتنفس والنفث والصوت، وكل شيء دخل فيها كالهواء والدخان ونحوهما ويدفع مضرة ذلك عن الحنجرة وقصبة الرئة، ولهذا يتغير صوت من قلع لهاته وتضرر حنجرته، والحنك كقبة يتضاعف الصوت إذا حصل فيه، والهواء الذي هو مادة الصوت ما دام في العصبية يكون كالدخان، فإذا وصل إلى طرف القصبة صار صوتاً وحركة اللسان بمعونة الأسنان تظهر الحروف في ذلك الصوت فيصير كلاماً. واعلم أن في الحنجرة رطوبة دسمة لزجة كائنة في تضاعيف غضاريف الحنجرة بها يكون الصوت صافياً، فإذا عرض لأحد حمى محرقة تحرق تلك الرطوبة فلا يقدر على إخراج الصوت، وكذا من تكلم كثيراً أو سافر في هواء حار يابس فإنهما لا يقدران على التكلم إلا إذا بلاَّ حلقهما بالماء أو بشيء آخر رطب.

(**ثم زيّن الرأس بالشعر**) في الرجال والنساء، (**والأصداغ**) جمع صدغ وهو الشعر الذي يدلي ما بين لحظ العين إلى أصل الأذن وهذا للنساء خاصة. (**وزين الوجه باللحية**) وهذا للرجل خاصة، ومن تسبيح بعض الملائكة: سبحان من زين الرجال باللحى والنساء بالشعور (**والحاجبين**) وهذا للرجال والنساء جميعاً، (**وزين الحاجب برقة الشعر واستقواس الشكل، وزين العينين بالأهداب**) جمع هدب وهو ما نبت من الشعر على أشفار العين.

(**ثم خلق الأعضاء الباطنة وسخر كل واحد**) منها (**لفعل مخصوص، فسخر المعدة**) التي هي حوض البدن (**لإحالة الغذاء إلى الدم**). وهي جسم مستدير الهيئة مركب من اللحم والعصب والعروق والشرايين والغشاءين، (**والطحال والمرارة والكلية لخدمة الكبد، فالطحال**) عضو مستطيل الشكل كاللسان سخيف اللحم كمد اللون مغشى بغشاء يأتيه من الصفاق ليس له في نفسه حس بل لغشائه (**يخدمها بجذب السوداء عنها**) وهو وعاء السوداء وبالوعتها، وموضعة في الجانب الأيسر من ضلوع الخلف والمعدة، وجعل متخلخلاً ليستقر السوداء المنجذب إليه في تضاعيفه، وجعل فيه الشرايين الكثيرة لتقابل حرارتها برودة السوداء. (**والمرارة**) عضو عصباني ذو طبقة واحدة كخريطة منسوجة من الليف المستقيم والعريض والمورب، (**يخدمها بجذب الصفراء عنها**) وهي وعاء الصفراء وبالوعتها وهي موضوعة على الزائدة الكبيرة من زوائد الكبد، ولها منفذان فإن اتفق قصور في جذب المرارة الصفراء من الكبد يرم الكبد، فإن تعفنت الصفراء في الكبد حدثت الحميات الحادة (**والكلية**) مركبة من لحم

عنها. والمثانة تخدم الكلية بقبول الماء عنها، ثم تخرجه في طريق الإحليل. والعروق تخدم الكبد في إيصال الدم إلى سائر أطراف البدن. ثم خلق اليدين وطوّلها لتمتدّ إلى المقاصد وعرّض الكف، وقسم الأصابع الخمس، وقسم كل أصبع بثلاث أنامل، ووضع الأربعة في جانب والإبهام لتدور الإبهام على الجميع. ولو اجتمع الأوّلون والآخرون على أن يستنبطوا بدقيق الفكر وجهاً آخر في وضع الأصابع سوى ما وضعت عليه من بعد الإبهام عن الأربع وتفاوت الأربع في الطول وترتيبها في وصف واحد لم يقدروا عليه؛ إذ بهذا الترتيب صلحت اليد للقبض والإعطاء، فإن بسطها كانت له طبقاً يضع عليها ما

مكتنز صلب قليل الحمرة وعروق وشرايين يأتيها عصب صغير يكون منه غشاؤها موضوعة بالقرب من الكبد. (**تخدمها بجذب المائية**) وجوهر مندمج صلب لئلا ينفذها فيها إلا الماء الرقيق، وهما كليتان ولكل منهما عنقان وأحد عنقي أحدهما يتصل بالعرق الطالع من حدبة الكبد، والثاني من كل منهما يمر مستقلاً حتى يصل بالمثانة ويسميان الحالبين وهما مجرى البول. (**والمثانة**) وهي مركبة من جسم عصباني مضاعف ذي طبقتين من عروق وشريانات وهي وعاء البول وآلة لدفعه وموضعها بين الدبر والعانة، وشكلها بلوطي بيضي ككيس طرفاه حادان ووسطه ذو سعة. (**تخدم الكلية بقبول الماء عنها ثم تخرجه في طريق الإحليل**) اعلم أن البول مجيئه من الكلى من الحالبين، فإذا بلغ إلى المثانة خرق إحدى طبقتيها ومرّ فيما بين الطبقتين حتى يأتي عنق المثانة، ثم يخرج الطبقة الثانية فينصب منها إلى تجويف المثانة في منفذ خفي حتى يستره غشاء صغير من أن يسد هذا المنفذ عند امتلاء المثانة من البول لئلا يرجع من حيث جاء، وفي عنق المثانة الذي هو مخرج البول ثلاث عطفات، وللحيوانات الأخر عطفة واحدة، ولهذا يكون تنظيف مثانة الرجال من البول أبطأ. (**والعروق تخدم الكبد في إيصال الدم إلى سائر أطراف البدن**) فإن الكيلوس لا يصلح للغذاء دون أن يصير إلى الكبد وينهضم فيها ويستحيل إلى الدم وباقي الأخلاط، ثم يمتاز الدم عنها كما فيكون غذاء للأعضاء.

(**ثم خلق اليدين وطوّلها لتمتدا إلى المقاصد**) عند التناول (**وعرض الكف**) أي جعله عريضاً، (**وقسم**) فيه (**الأصابع الخمس وقسم كل أصبع بثلاث أنامل**) وتسمى أيضاً السلاميات وهي عظام صغار يتصل بعضها ببضع بمفاصل موثقة بربط، (**ووضع الأربعة في جانب والأبهام**) وحده (**في جانب ليدور الإبهام على الجميع**) فالعظم الأول من الإبهام مربوط بالرسغ لا بالمشط كالأربع الأخر، وقيل هو متصل بطرف الزند الأعلى بمفصل واسع سلس لأنه يحتاج إلى حركة واسعة ليلقى به الأصابع الأربع، (**ولو اجتمع الاوّلون والآخرون على أن يستنبطوا بدقيق الفكر وجهاً آخر في وضع الأصابع سوى ما وضعت عليه من بعد الإبهام عن الأربع وتفاوت الأربع في الطول وترتيبها في صف واحد لم يقدروا عليه إذ بهذا الترتيب صلحت اليد للقبض والإعطاء، فإن بسطها كانت له طبقاً**) أي تشبيها بالطبق،

يريد وإن جمعها كانت له آلة للضرب، وإن ضمها ضماً غير تام كانت مغرفة له، وإن بسطها وضم أصابعها كانت مجرفة له. ثم خلق الأظفار على رؤوسها زينة للأنامل وعماداً لها من ورائها حتى لا تنقطع، وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا تتناولها الأنامل، وليحك بها بدنه عند الحاجة. فالظفر الذي هو أخس الأعضاء لو عدمه الإنسان وظهر به حكة لكان أعجز الخلق وأضعفهم، ولم يقم أحد مقامه في حك بدنه. ثم هدى اليد إلى موضع الحك حتى تمتد إليه ولو في النوم والغفلة من غير حاجة إلى طلب، ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحك إلا بعد تعب طويل، ثم خلق هذا كله من النطفة وهي في داخل الرحم في ظلمات ثلاث، ولو كشف الغطاء والغشاء وامتدَّ البصر إليه لكان يرى التخطيط والتصوير يظهر عليها شيئاً فشيئاً ولا يرى المصوّر ولا آلته! فهل رأيت مصوّراً

(**وإن جمعها**) مع بعضها (**كانت له آلة للضرب، وإن ضمها ضماً غير تام كانت**) مثل (**مغرفة**) له، (**وإن بسطها وضم أصابعها كانت**) مثل (**مجرفة له. ثم خلق الأظفار**) مستديرة (**على رؤوسها**) والظفر إما من العظام وإما جسم عظمي موصول بالسلاميات الأخيرة من الأصابع مربوط مع اللحم والجلد برباطات من جنس الأوتار، وقد يصير إلى الظفر عصب وريد وشريانات يؤدي إليه الحياة والغذاء (**زينة للأنامل**) وهذا أحد منافع الأظفار، (**و**) الثانية لتكون (**عماداً لها من ورائها حتى لا تنقطع**) ولا تهن عند الشد على الشيء، (**و**) الثالثة (**ليلتقط بها الأشياء الدقيقة**) أي ليتمكن من لقط الأشياء (**الصغيرة التي لا تتناولها الأنامل، و**) الرابعة (**ليحك بها بدنه عند الحاجة**) وهذه الأربعة أولى بنوع الإنسان، والخامسة أن تكون سلاحاً في بعض الأوقات، وهذه أولى بالحيوانات الأخرى، وخلق الظفر من عظام لينة ليتطامن تحت ما يصاكه فلا ينصدع، (**فالظفر الذي هو أخس الأعضاء لو عدمه الإنسان وظهر به حكة لكان أعجز الخلق وأضعفهم ولم يقم أحد مقامه في حك بدنه**) وإليه يشير قول القائل:

ما حك جلدك مثل ظفرك   فتول أنت جميع أمرك
وإذا بعثت لحاجة   فابعث لأعرفهم بقدرك

(**ثم هدى اليد إلى موضع الحك حتى تمتد إليه ولو في النوم والغفلة من غير حاجة إلى طلب**) وفي نسخة إلى طالب (**ولو استعان بغيره ولم يعثر على موضع الحك إلا بعد تعب طويل**) ثم لا يشفيه الغليل.

(**ثم خلق هذا كله من النطفة وهي في داخل الرحم في ظلمات ثلاث**) هي الأغشية: أحدها المشيمة وهي الغشاء المحيط، والثاني الذي ينصب إليه بول الجنين، والثالث الذي هو مغص العرق. (**ولو كشف الغطاء والغشاء وامتد البصر إليه لكان يرى التخطيط والتصوير يظهر عليها شيئاً فشيئاً، ولا يرى المصوّر ولا آلته، فهل رأيت مصوراً أو فاعلاً لا تمس آلته**

أو فاعلاً لا يمس آلته ومصنوعه ولا يلاقيه وهو يتصرف فيه؟ فسبحانه ما أعظم شأنه وأظهر برهانه. ثم انظر مع كمال قدرته إلى تمام رحمته، فإنه لما ضاق الرحم عن الصبي لما كبر كيف هداه السبيل حتى تنكس وتحرك وخرج من ذلك المضيق وطلب المنفذ كأنه عاقل بصير بما يحتاج إليه. ثم لما خرج واحتاج إلى الغذاء كيف هداه إلى التقام الثدي؟ ثم لما كان بدنه سخيفاً لا يحتمل الأغذية الكثيفة كيف دبر له في خلق اللبن اللطيف واستخرجه من بين الفرث والدم سائغاً خالصاً، وكيف خلق الثديين وجمع فيهما اللبن، وأنبت منهما حلمتين على قدر ما ينطبق عليهما فم الصبي، ثم فتح في حلمتي الثدي ثقباً ضيقاً جداً حتى لا يخرج اللبن منه إلا بعد المص تدريجاً، فإنّ الطفل لا يطيق منه إلا القليل، ثم كيف هداه للامتصاص حتى يستخرج من ذلك المضيق اللبن الكثير عند شدّة الجوع؟ ثم انظر إلى عطفه ورحمته ورأفته كيف أخر خلق الاسنان إلى تمام الحولين لأنه في الحولين لا يتغذى إلا باللبن فيستغني عن السنّ، وإذا كبر لم يوافقه اللبن السخيف ويحتاج إلى طعام غليظ، ويحتاج الطعام إلى المضغ والطحن فأنبت له الأسنان عند الحاجة لا قبلها ولا بعدها، فسبحانه كيف أخرج تلك العظام الصلبة في تلك اللثات اللينة؛ ثم

مصنوعه ولا يلاقيه وهو يتصرف فيه؟ فسبحانه ما أعظم شأنه وأظهر برهانه مع كمال قدرته إلى تمام رحمته فإنه لما ضاق الرحم عن الصبي) هكذا في النسخ، والأولى الجنين فإنه هكذا يطلق عليه ما دام في الرحم (**لما كبر كيف هداه السبيل حتى تنكس وتحرك وخرج من ذلك المضيق وطلب المنفذ كأنه عاقل بصير بما يحتاج إليه**)، فإن الجنين إذا تم خلقه وكمل لم يكتف بما يجيئه من دم الطمث والنسيم ويهرب عن الضيق وقلة الغذاء، فيتحرك حركات صعبة قوية وتنتهك أربطة الرحم، (**ثم لما خرج واحتاج إلى الغذاء كيف هداه إلى التقام الثدي، ثم لما كان بدنه سخيفاً لا يحتمل الأغذية الكثيفة كيف دبر له في خلق اللبن اللطيف واستخرجه من بين الفرث والدم سائغاً خالصاً، وكيف خلق الثديين**) كل منهما مركب من عروق وشرايين وعصب يحشى ما بينها نوع من اللحم غددي، (**وجمع فيهما اللبن**) فيحيل ما في تجويفهما من الدم حتى يصير لبناً، كما يحيل لحم الكبد ما يجتذب من المعدة والأمعاء حتى يصير بتشبيهه له إياه بنفسه دماً، (**وأنبت منهما حلمتين على قدر ما ينطبق فم الصبي، ثم فتح في حلمة الثدي ثقباً ضيقاً جداً حتى لا يخرج اللبن منه إلا بعد المص تدريجاً، فإن الطفل لا يطيق إلا القليل، ثم كيف هداه للامتصاص حتى يستخرج من ذلك المضيق اللبن الكثير عند شدة الجوع، ثم انظر إلى عطفه ورأفته كيف أخرّ خلق الأسنان إلى تمام الحولين لأنه في الحولين لا يتغذى إلا باللبن فيستغني عن السن، وإذا كبر لم يوافقه اللبن السخيف ويحتاج إلى طعام غليظ، ويحتاج الطعام إلى المضغ والطحن، فأنبت له الأسنان عند الحاجة لا قبلها ولا**

حنن قلوب الوالدين عليه للقيام بتدبيره في الوقت الذي كان عاجزاً عن تدبير نفسه. فلو لم يسلط الله الرحمة على قلوبهما لكان الطفل أعجز الخلق عن تدبير نفسه. ثم انظر كيف رزقه القدرة والتمييز والعقل والهداية تدريجاً حتى بلغ وتكامل، فصار مراهقاً ثم شاباً ثم كهلاً ثم شيخاً، إما كفوراً أو شكوراً مطيعاً أو عاصياً مؤمناً أو كافراً تصديقاً لقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً ★ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً ★ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا

بعدها، فسبحانه) جلّ ثناؤه (كيف أخرج تلك العظام الصلبة في تلك اللثات اللينة) وهذا على القول الصحيح أن الأسنان هي عظام صلبة قابلة للكسر غير مدركة لألم السحق والنحت كما تقدم قريباً، وفي ذلك أن الطفل لا يحتاج إلى الأسنان في أوّل الأمر لأن غذاء من اللبن وفكّاه صغيران وعظامها ضعيفة، لكون ما نبت منها مناسباً لها في الضعف والصغر، فلم يف بما يحتاج إليه من المضغ والكسر وغير ذلك إلى آخر العمر، فالعناية الأزلية اقتضت تأخير خروجها ونباتها إلى حين الحاجة والاستعداد التام للوفاء بما هو المطلوب منها من الشكل والعظم والقوّة والصلابة وغيرها. (ثم حنن قلوب الوالدين عليه للقيام بتدبيره في الوقت الذي كان عاجزاً عن تدبير نفسه، فلو لم يسلط الله الرحمة على قلوبهما لكان الطفل أعجز الخلق عن تدبير نفسه، ثم انظر كيف رزقه القدرة والتمييز والعقل والهداية) والرشد (تدريجاً) شيئاً فشيئاً (حتى بلغ وتكامل فصار مراهقاً) بعد أن كان طفلاً وصبياً، (ثم شاباً ثم كهلاً ثم شيخاً) وفي كفاية المتحفظ لأبن الأجدابي: الولد ما دام في بطن أمه فهو جنين، فإذا ولد سمي صبياً، فإذا فطم سمي غلاماً إلى سبع سنين، ثم يصير يافعاً إلى عشر حجج، ثم يصير حزور إلى خمس عشرة سنة انتهى.

وقال الأطباء: الأسنان أربعة سن النموّ ويسمى سن الحداثة وهو إلى قريب من ثلاثين سنة، ثم سن الوقوف ويسمى سن الشباب وهو إلى أربعين سنة، ثم سن الانحطاط ويسمى سن الكهولة وهو إلى نحو من ستين سنة، ثم سن الانحطاط ويسمى سن الشيخوخة وهو إلى آخر العمر.

وقد أشار المصنف إلى هذه الأربعة. وسن الحداثة ينقسم إلى سن الطفولة وهو قبل النهوض وإلى سن الصبا وهو بعد النهوض وقبل الشدة، ثم سن الترعرع وهو بعد الشدة وقبل المراهقة، ثم سن الغلامية والرهاق التي تبقل وجهه ثم سن الفتى إلى أن يقف النموّ (إما كفوراً وإما شكوراً ومطيعاً أو عاصياً، مؤمناً أو كافراً) تصديقاً لقوله تعالى: ﴿هل أتي على الإنسان﴾ استفهام تقرير وتقريب (﴿حينٌ من الدهر﴾) طائفة محدودة من الزمان الممتد الغير المحدود (﴿لم يكن شيئاً مذكوراً﴾) بالإنسانية كالعنصر والنطفة والمراد بالإنسان الجنس لقوله: (﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة﴾) أو المراد به آدم بين أولاً خلقه ثم خلق بنيه (﴿أمشاج﴾) أي أخلاط وتقدم الكلام عليه قريباً (﴿نبتليه﴾) أي مبتلين له بمعنى مريدين اختباره (﴿فجعلناه

شاكراً وإمّا كفُوراً ﴾[الإنسان: ١ ـ ٣] فانظر إلى اللطف والكرم ثم إلى القدرة والحكمة تبهرك عجائب الحضرة الربانية. والعجب كل العجب ممن يرى خطاً حسناً أو نقشاً حسناً على حائط فيستحسنه، فيصرف جميع همه إلى التفكر في النقاش والخطاط وأنه كيف نقشه وخطه وكيف اقتدر عليه! ولا يزال يستعظمه في نفسه ويقول: ما أحذقه وما أكمل صنعته وأحسن قدرته! ثم ينظر إلى هذه العجائب في نفسه وفي غيره ثم يغفل عن صانعه ومصوّره فلا تدهشه عظمته ولا يحيره جلاله وحكمته. فهذه نبذة من عجائب بدنك التي لا يمكن استقصاؤها، فهو أقرب مجال لفكرك وأجلى شاهد على عظمة خالقك وأنت غافل عن ذلك مشغول ببطنك وفرجك لا تعرف من نفسك إلا أن تجوع فتأكل وتشبع فتنام، وتشتهي فتجامع، وتغضب فتقاتل. والبهائم كلها تشاركك في معرفة ذلك وإنما خاصية الإنسان التي حجبت البهائم عنها معرفة الله تعالى بالنظر في ملكوت السموات والأرض وعجائب الآفاق والأنفس، إذ بها يدخل العبد في زمرة الملائكة المقرّبين ويحشر في زمرة النبيّين والصدّيقين مقرباً من حضرة رب العالمين. وليست هذه المنزلة للبهائم ولا لإنسان رضي من الدنيا بشهوات البهائم فإنه شر من

سميعاً بصيراً ﴾) ليتمكن من مشاهدة الدلائل واستماع الآيات (**﴿ إنا هديناه السبيل ﴾**) أي بنصب الدلائل وانزال الآيات (**﴿ إما شاكراً ﴾**) بالاهتداء والأخذ به (**﴿ وإما كفوراً ﴾**) بالإعراض عنه. (**فانظر إلى اللطف والكرم، ثم إلى القدرة والحكمة تبهرك عجائب الحضرة الربانية**) وتدهش عقلك، (**والعجب كل العجب ممن يرى خطاً حسناً أو نقشاً حسناً على ورق**) أو على (**حائط فيستحسنه فيصرف جميع همه إلى التفكر في النقاش والخطاط، وأنه كيف نقشه و**) كيف (**خطه وكيف اقتدر عليه ولا يزال يستعظمه ويقول: ما أحذقه وما أكمل صنعته و**) ما (**أحسن قدرته، ثم ينظر هذه العجائب في نفسه وفي غيره ثم يغفل عن صانعه ومصوّره فلا تدهشه عظمته ولا يحيره جلاله وحكمته**) وبديع صنعته، (**فهذه نبذة من عجائب بدنك التي لا يمكن استقصاؤها**) ولا يحصر انتهاؤها، (**فهو أقرب مجالاً لفكرك وأجلى شاهداً على عظمة خالقك وأنت غافل عن ذلك مشغول ببطنك وفرجك لا تعرف من نفسك إلا أن تجوع فتأكل وتشبع فتنام وتشتهي فتجامع وتغضب فتقاتل والبهائم تشاركك في معرفة ذلك**)، فكل ذلك من خواص البهائم، (**وإنما خاصية الإنسان التي حجبت البهائم عنها معرفة الله تعالى بالنظر في ملكوت السموات والأرض وعجائب الآفاق، والأنفس إذ بها يدخل العبد في زمرة الملائكة المقربين ويحشر في زمرة النبيين والصديقين مقرباً من حضرة رب العالمين، وليس هذه المنزلة للبهائم ولا لإنسان رضي من الدنيا بشهوات البهائم**) من الأكل والشرب والنوم والجماع والتهوّر وغير ذلك، ومن رضي

البهائم بكثير إذ لا قدرة للبهيمة على ذلك وأما هو فقد خلق الله له القدرة ثم عطلها وكفر نعمة الله فيها، فأولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلاً. وإذا عرفت طريق الفكر في نفسك فتفكر في الأرض التي هي مقرك ثم في أنهارها وبحارها وجبالها ومعادنها ثم ارتفع معها إلى ملكوت السموات.

أما الأرض: فمن آياته أن خلق الأرض فراشاً ومهاداً وسلك فيها سبلاً فجاجاً وجعلها ذلولاً لتمشوا في مناكبها، وجعلها قارّة لا تتحرك، وأرسى فيها الجبال أوتاداً لها تمنعها من أن تميد. ثم وسع أكنافها حتى عجز الآدميون عن بلوغ جميع جوانبها وإن

كذلك (**فإنه شرّ من البهائم**) وأخس حالاً منها (**بكثير إذ لا قدرة للبهيمة على ذلك، وأما هو فقد خلق له القدرة**) التامة على الوصول إلى القرب (**ثم عطلها وكفر نعمة الله فيها**) إذ لم يستعملها فيما تقربه إلى الله تعالى، (**فأولئك**) الذين قيل في حقهم: (﴿**إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا**﴾) [الفرقان: ٤٤].

ومن كلام أمير المؤمنين رضي الله عنه في صفة خلق الإنسان: أم هذا الذي أنشأه في ظلمات الأرحام وشغف الاستار نطفة دفاقاً وعلقة محاقاً وجنيناً وراضعاً ووليداً يافعاً، ثم منحه قلباً حافظاً ولساناً لافظاً وبصراً لاحظاً ليفهم معتبراً ويقصر مزدجراً، حتى إذا قام اعتداله واستوى مثاله نفر مستكبراً وخبط سادراً ما تحافي غرب هداه كادحاً سعيداً لدنياه في لذات طربه وبدوات أربه لا يحتسب رزية ولا يخشع تقية، فمات في فتنة غريراً وعاش في هفوته يسيراً لم يفد عوضاً ولم يقض مفترضاً. ومن كلامه رضي الله عنه: أيها المخلوق السوي والمنشأ المرعى في ظلمات الأرحام ومضاعفات الاستار بدئت من سلالة من طين ووضعت في قرار مكين إلى قدر معلوم وأجل مقسوم، وتمور في بطن أمك جنيناً لا تحير دعاء ولا تسمع نداء، ثم أخرجت من مقرك إلى دار لم تشهدها ولم تعرف سبل منافعها، فمن هداك لاجترار الغذاء من ثدي أمك، وعرفك عند الحاجة مواضع طلبك وإرادتك. هيهات! إن من يعجز عن صفات ذي الهيئة والأدوات فهو من صفات خالقه أعجز، ومن تناوله بحدود المخلوقين أبعد.

(وإذا عرفت طريق الفكر في نفسك فتفكر في الأرض التي هي مقرك ثم في أنهارها وبحارها وجبالها ومعادنها، ثم ارتفع منها إلى ملكوت السماء.

(**أما الأرض؛ فمن آياته**) الدالة على عظم قدرته (**أن خلق الأرض فراشاً**) أي بساطاً وفرشها أي بسطها فعال بمعنى مفعول ككتاب بمعنى مكتوب (**مهاداً**) وهو بمعناه (**وسلك فيها سبلاً فجاجاً**) أي طرقاً واضحة واسعة، (**وجعلها ذلولاً**) أي لينة منقادة (**لتمشوا في مناكبها**) أي جوانبها، (**وجعلها قارة**) غير مضطربة (**وأرسى فيها الجبال أوتاداً تمنعها من أن تميد**) أي تتحرك وتضطرب، (**ثم وسع أكنافها حتى عجز الآدميون عن بلوغ جميع**

طالت أعمارهم وكثر تطوافهم، فقال تعالى: ﴿والسَّماءَ بنيناهَا بأيدٍ وإنَّا لَموسِعُونَ ⋆ والأرْض فَرَشْنَاهَا فنعِمَ الْمَاهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧ ـ ٤٨] وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذي جَعَلَ لكُمُ الأرْضَ ذلُولاً فامشُوا في مَناكِبِهَا﴾ [الملك: ١٥] وقال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الأرْضَ فِرَاشاً﴾ [البقرة: ٢٢]، وقد أكثر في كتابه العزيز من ذكر الأرض ليتفكر في عجائبها فظهرها مقرّ للأحياء وبطنها مرقد للأموات، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل الأرْضَ كِفَاتَـاً ⋆ أحْيَاءً وأموَاتاً﴾ [المرسلات: ٢٥ : ٢٦]، فانظر إلى الأرض وهي ميتة فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت واخضرت وأنبتت من عجائب النبات، وخرجت منها أصناف الحيوانات، ثم انظر كيف أحكم جوانب الأرضَ بالجبال الراسيات الشوامخ الصم الصلاب، وكيف أودع المياه تحتها ففجر العيون وأسال الأنهار تجري على وجهها وأخرج من الحجارة اليابسة ومن التراب الكدر ماء رقيقاً عذباً صافياً زلالاً، وجعل به كل شيء حي، فأخرج به فنون الأشجار والنبات من حب وعنب وقضب وزيتون ونخل ورمان، وفواكه كثيرة لا تحصى مختلفة الأشكال والألوان

جوانبها) على الاستيفاء **(وإن طالت أعمارهم وكثر تطوافهم، فقال تعالى: ﴿والسماء بنيناها بأيد** وإنا لموسعون ⋆ **والأرض فرشناهم فنعم الماهدون﴾ وقال تعالى: ﴿وهو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها﴾ وقال تعالى: ﴿الذي جعل لكم الأرض فراشاً﴾ وقال تعالى: ﴿وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً﴾ [الرعد: ٣] (وقد أكثر في كتابه العزيز من ذكر الأرض)** في مواضع متعددة **(ليتفكر في عجائبها فظهرها مقر الأحياء)** يستقرون عليه ببناء المساكن فيه **(وبطنها مرقد الأموات. قال الله تعالى: ﴿ألم نجعل الأرض كفاتاً ⋆ أحياء وأمواتاً﴾)** أي ذات كفت أي ضم وجمع بضمهم أحياء على ظهورها، وأمواتاً في بطونها. وأصل الكفت الضم والكفات الموضع الذي يكفت فيه كل شيء **(فانظر إلى الأرض وهي ميتة فإذا أنزل عليها الماء اهتزت واخضرت وأنبتت عجائب النبات)** قال الله تعالى: ﴿فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوجٍ بهيج﴾ [الحج: ٥] **(وخرجت منها أصناف الحيوانات ثم انظر كيف أحكم جوانب الأرض بالجبال الراسيات الشوامخ الصم الصلاب)** قال الله تعالى: ﴿والجبال أرساها﴾ [النازعات: ٣٢] قال تعالى: ﴿والجبال أوتاداً﴾ [النبأ: ٧] **(وكيف أودع المياه تحتها ففجر العيون)** قال الله تعالى: ﴿وفجرنا الأرض عيوناً﴾ [القمر: ١٢] **(وأسال الأنهار تجري على وجهها)** يمنة ويسرة **(وأخرج من الحجارة اليابسة ومن التراب الكدر ماء رقيقاً صافياً زلالاً)** عذباً **(وجعل به كل شيء حي)** قال الله تعالى: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ [الأنبياء: ٣٠] **(فأخرج به فنون الأشجار والنبات من حب وعنب وقضب وزيتون ونخل ورمان وفواكه**

والطعوم والصفات والأراييح، يفضل بعضها على بعض في الأكل، تسقى بماء واحد وتخرج من أرض واحدة.

فإن قلت: إن اختلافها باختلاف بذورها وأصولها، فمتى كان في النواة نخلة مطوقة بعناقيد الرطب؟ ومتى كان في حبة واحدة سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة؟ ثم انظر إلى أرض البوادي وفتش ظاهرها وباطنها فتراها تراباً متشابهاً، فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ألواناً مختلفة ونباتاً متشابهاً وغير متشابه، لكل واحد طعم وريح ولون وشكل يخالف الآخر، فانظر إلى كثرتها واختلاف أصنافها وكثرة أشكالها، ثم اختلاف طبائع النبات وكثرة منافعه وكيف أودع الله تعالى العقاقير المنافع الغريبة؟ فهذا النبات يغذي وهذا يقوي وهذا يحيي وهذا يقتل، وهذا يبرد وهذا يسخن، وهذا إذا حصل في المعدة قمع الصفراء من أعماق العروق، وهذا يستحيل إليهما وهذا يصفي الدم وهذا يستحيل دماً إلى الصفراء، وهذا يقمع البلغم والسوداء، وهذا يستحيل وهذا يفرّح وهذا ينوّم وهذا يقوي وهذا يضعف! فلم تنبت الأرض ورقة ولا

كثيرة لا تحصى مختلفة الأشكال والألوان والطعوم والصفات والأراييح) جمع ريح على غير قياس أو جمع الجمع، (**يفضل بعضها على بعض في الأكل تسقى بماء واحد وتخرج من أرض واحدة)** قال الله تعالى: ﴿يسقي بماءٍ واحدٍ ونفضل بعضها على بعض في الأكل﴾ [الرعد : ٤].

(**فإن قلت: إن اختلافها باختلاف بذورها وأصولها فمتى كان في النواة نخلة مطوّقة بعناقيد الرطب)**؟ أم (**متى كان في حبة واحدة سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة)** كما ضرب الله به المثل؟ (**ثم انظر إلى أرض البوادي وفتش ظاهرها وباطنها فتراها تراباً متشابهاً)** يشبه بعضه بعضاً، (**فإذا أنزل عليها الماء)** من السماء (**اهتزت)** أي تحركت بالنبات عند وقوع الماء عليها (**وربت)** أي زادت زيادة المربي أي المشرف، (**وأنبتت من كل زوج بهيج)** أي أنواع الأشجار والنبات (**ألواناً مختلفة ونباتاً متشابهاً وغير متشابه لكل واحد طعم وريح ولون وشكل يخالف الآخر، فانظر إلى كثرتها واختلاف أصنافها وكثرة أشكالها، ثم اختلاف طبائع النبات وكثرة منافعه، و)** انظر (**كيف أودع الله تعالى العقاقير المنافع الغريبة. فهذا النبات يغذي)** أي يقوم منزلة الغذاء للبدن، (**وهذا يقوي)** الأعضاء الرئيسة والحواس، (**وهذا يحيي)** العليل ويبرئه من مرضه، (**وهذا يقتل)** بسميته، (**وهذا يبرد، وهذا يسخن وهذا إذا حصل في المعدة قمع الصفراء من أعماق العروق)** أي من أصولها (**وهذا يستحيل إلى الصفراء)** في الحال، (**وهذا يقمع البلغم والسوداء، وهذا يستحيل إليها، وهذا يصفي الدم)** ويروّقه، (**وهذا يستحيل دماً)** خالصاً (**وهذا يفرح)** وينشط، (**وهذا ينوّم)** ويسكن، (**وهذا يقوّي وهذا يضعف فلم تنبت من الأرض ورقة ولا تبنة إلا وفيها لا يقوى**

تبنة إلا وفيها منافع لا يقوى البشر على الوقوف على كنهها ، وكل واحد من هذا النبات يحتاج الفلاح في تربيته إلى عمل مخصوص ؛ فالنخل تؤبر والكرم يكسح والزرع ينقى منه الحشيش والدغل، وبعض ذلك يستنبت ببث البذر في الأرض تحريقاً وبعضه يغرس الأغصان وبعضه يركب في الشجر ، ولو أردنا أن نذكر اختلاف أجناس النبات وأنواعه ومنافعه وأحواله وعجائبه لانقضت الأيام في وصف ذلك ؛ فيكفيك من كل جنس نبذة يسيرة تدلك على طريق الفكر فهذه عجائب النبات.

البشر على الوقوف على كنهها، وكل واحد من هذا النبات يحتاج الفلاح) الذي يفلح الأرض ويشقها لاستنباته **(في ترتيبه إلى عمل مخصوص)** في زمن مخصوص، **(فالنخيل تؤبر)** أي تلقح. قال أبو حاتم في كتاب النخلة: إذا انشق الكافور قيل شقيق النخال وهو حين يؤبر بالذكر، فيؤتي بشماريخه فتنقض فيطير غبارها وهو طحين شماريخ الفحال إلى شماريخ الأنثى وذلك هو التلقيح، **(والكرم يكسح)** أي يقطع وينقى ويقلم، **(والزرع ينقى عنه الحشيش)** الأجنبي **(والدغل)** شبه الحالوم وغيره مما يفسد بقاؤه، **(وبعض ذلك يستنبت ببث البذر في الأرض)** أي رميه فيها **(وبعضه بغرس الأغصان)** في الأرض، **(وبعضه يركب في الشجر، ولو أردنا أن نذكر اختلاف أجناس النبات وأنواعه ومنافعه وأحواله وعجائبه لانقضت الأيام في وصف ذلك فيكفيك من كل جنس نبذة يسيرة تدلك على طريق الفكر فهذه عجائب النبات)**.

ومن كلام أمير المؤمنين علي رضي الله عنه في صفة الأرض ودحوها على الماء كبس الأرض على مور أمواج مستفحلة ولجج بحار زاخرة تلتطم أو أذيّ أمواجها وتصطفق متقاذفات أثباجها وترغو زبداً كالفحول عند هياجها، فخضع جماح الماء المتلاطم لثقل حملها، وسكن هيج ارتمائه إذ وطئته بكلكلها وذل مستخزياً إذ تمعكت عليه بكواهلها، فأصبح بعد اصطحاب أمواجه ساجياً مقهوراً، وفي حكمة الذل منقاداً أسيراً، وسكنت الأرض مدحوّة في لجة تيار وردت من نخوة باوه واعتلائه وشموخ أنفه وسمو غلوائه وكعمته على كظة جريته فهمد بعد نزقاته ولبد بعد زيفان وثباته، فلما سكن هيج الماء من تحت أكنافها وحمل شوامخ الجبال البذخ على أكتافها فجر ينابع العيون من عرانين أنوفها وفرقها في سهوب بيدها وأخاديدها، وعدل حركاتها بالراسيات من جلاميدها وذوات الشناخيب الشم من صنافيدها، فسكنت من الميدان برسوب الجبال في قطع أديمها وتغلغلها متسربة في جوبات خياشيمها وركوبها أعناق سهول الأرضين وجراثيمها، وفسح بين الجوّ بينها وأعد الهواء متنسماً لساكنها، وأخرج إليها أهلها على تمام مرافقها، ثم لم يدع جزع الأرض التي تقصر مياه العيون من روابيها، ولا تجد جداول الأنهار ذريعة إلى بلوغها حتى أنشأ لها ناشئة سحاب تحيي مواتها وتستخرج نباتها ألف غمامها بعد افتراق لمعه وتباين فرعه، حتى إذا تمخضت لجة المزن فيه والتمع برقه في كففه ولم ينم وميضه في كنهور بابه وتراكم سحابه أرسله سحاً متداركاً قد أسف هيدبه تمريه الجنوب در أهاضيبه ودفع شآبيبه، فلما ألقت السحاب برك بوانيها وبعاع

ومن آياته: الجواهر المودعة تحت الجبال والمعادن الحاصلة من الأرض:

ففي الأرض قطع متجاورات مختلفة، فانظر إلى الجبال كيف يخرج منها الجواهر النفيسة من الذهب والفضة والفيروزج واللعل وغيرها، وبعضها منطبعة تحت المطارق كالذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد، وبعضها لا ينطبع كالفيروزج واللعل. وكيف هدى الله الناس إلى استخراجها وتنقيتها واتخاذ الأواني والآلات والنقود والحلى

ما استقلت به من العبء المحمول عليها أخرج به من هو أمد الأرض النبات، ومن زعر الجبال الأعشاب فهي تبهج بزينة رياضها وتزدهي بما ألبسته من ريط أزاهيرها وحليه ما سمطت به من ناضر أنوارها وجعل ذلك بلاغاً للأنام ورزقاً للأنعام، وخرق الفجاج في آفاقها وأقام المنار للسالكين على جواد طرقها.

ومن كلامه رضي الله عنه: وكان من اقتدار جبروته وبديع لطائف صنعته أن جعل من ماء البحر الزاخر المتراكم المتعاصف يبساً جامداً، ثم فطر منه اطباقاً ففتقها سبع سموات بعد ارتقاقها فاستمسكت بأمره وقامت على حده يحملها الأخضر المثعنجر والقمقام المسخر، قد ذل لأمره وأذعن لهيبته ووقف الجاري منه لخشيته وجبل جلاميدها ونشوز متونها وأطوارها فأرساها في مراسيها وألزمها قرارتها فمضت رؤوسها في الهواء ورست أصولها في الماء، فانهد جبالها عن سهولها وأساخ قواعدها في متون أقطارها ومواضع أنصابها، فاشهق قلالها وأطال انشازها وجعلها للأرض عماداً وارزها فيها أوتاداً فسكنت عن حركتها من أن تميد بأهلها أو تسيخ بحملها أو تزول عن مواضعها، فسبحان من أمسكها بعد موجان مياهها، وأجمدها بعد رطوبة أكنافها فجعلها لخلقه مهاداً وبسطها لهم فراشاً فوق بحر لجي راكد لا يجري، وقائم لا يسرى تكركره الرياح العواصف وتمخضه الغمام الذوارف إن في ذلك لعبرة لمن يخشى.

(ومن آياته: الجواهر المودعة تحت الجبال والمعادن الحاصلة من الأرض: ففي الأرض قطع متجاورات مختلفة) قال الله تعالى: ﴿وفي الأرض قطع متجاورات﴾ [الرعد: ٤] أي بعضها طيبة وبعضها سبخة وبعضها رخوة وبعضها صلبة وبعضها يصلح للزرع دون الشجر وبعضها بالعكس، **(فانظر إلى الجبال كيف تخرج منها الجواهر النفيسة من الذهب والفضة والفيروزج)**، وهو حجر أخضر تشوبه زرقة ويصفر لونه مع صفاء الجوّ ويتكدر بكدورته يجلب من معادن أرض نيسابور، **(واللعل)** وهو حجر أحمر شبه الياقوت يجلب من معادن أرض بدخشان **(وغيرها)** كالماس والزمرد والياقوت والعقيق ونحو ذلك **(بعضها منطبعة تحت المطارق كالذهب)** والفضة **(والنحاس والرصاص والحديد وبعضها لا تنطبع كالفيروزج واللعل، و)** انظر **(كيف هدى الله الناس إلى استخراجها)** من معادنها **(وتنقيتها)** من أوساخها ثم سبكها **(واتخاذ الأواني والآلات والنقود والحلى منها)** على أنواع غريبة وأشكال

منها. ثم انظر إلى معادن الأرض من النفط والكبريت والقار وغيرها، وأقلها الملح ولا يحتاج إليه إلا لتطييب الطعام ولو خلت عنه بلدة لتسارع الهلاك إليها! فانظر إلى رحمة الله تعالى كيف خلق بعض الأراضي سبخة بجوهرها بحيث يجتمع فيها الماء الصافي من المطر فيستحيل ملحاً مالحاً محرقاً لا يمكن تناول مثقال منه، ليكون ذلك تطييباً لطعامك إذا أكلته فيتهنأ عيشك، وما من جماد ولا حيوان ولا نبات إلا وفيه حكمة وحكم من هذا الجنس. ما خلق شيء منها عبثاً ولا لعباً ولا هزلاً، بل خلق الكل بالحق كما ينبغي وعلى الوجه الذي ينبغي وكما يليق بجلاله وكرمه ولطفه. ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ والأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ ★ مَا خلقْنَاهُمَا إلاَّ بالْحَقِ﴾ [الدخان: ٣٨ـ ٣٩].

ومن آياته: أصناف الحيوانات:

وانقسامها إلى ما يطير وإلى ما يمشي. وانقسام ما يمشي إلى: ما يمشي على رجلين

عجيبة، (**ثم انظر إلى معادن الأرض من النفط**) وهو دهن يخرج من بئر هي معدنه منه ما لونه أبيض ومنه ما لونه أسود، (**والكبريت**) وهو عين يجري فإذا جمد ماؤها صار كبريتاً أصفر وأبيض وكدراً. وأما الكبريت الأحمر فهو من الجواهر المعدنية معدنه في وادي النمل يضيء بالليل في معدنه كالنار، وإذا خرج من موضعه لم يضيء ويدخل في أعمال الذهب كثيراً ويحمر البياض ويضرب بعزته المثل، (**والقار**) منه بحري أسود سيال، ومنه جبلي يسيل من شجرة (**وغيرها، وأقلها الملح ولا يحتاج إليه إلا لتطييب الطعام**) وإصلاحه، (**ولو خلت عنه بلدة لتسارع الهلاك إليها فانظر إلى رحمة الله تعالى كيف خلق بعض الأراضي سبخة بجوهرها**) أي بطبعها الذي خلق عليه (**بحيث يجتمع فيها الماء الصافي من المطر فيستحيل ملحاً مالحاً محرقاً لا يمكن تناول مثقال منه ليكون ذلك تطييباً لطعامك إذا أكلته فيتهنأ عيشك**) اعلم أن الملح أنواع: فمنه ملح العجين وهو البحري والسبخي، ومنه الاندراني الشبيه بالبلور، ومنه أسود نفطي، ومنه الملح المر ومنه الهندي وهو أبيض فيه حمرة، وكلما كان أمرّ كان أحر، وأجودها الأندراني، والمحرق أشد تحريقاً من غير المحرق، والمحتفر أحد من غيره وهو بجميع أنواعه جلاء محلل قابض مجفف يذهب بوخامة البطيخ ويسهل انحدار الطعام ويمنع العفونة. (**وما من جماد ولا حيوان ولا نبات إلا وفيه حكمة وحكم من هذا الجنس ما خلق شيء منها عبثاً ولا تعباً ولا هزلاً، بل خلق الكل بالحق كما ينبغي، وعلى الوجه الذي ينبغي وكما يليق بجلاله وكرمه ولطفه**) ورحمته، (**ولذلك قال تعالى: ﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين★ ما خلقناهما إلا بالحق﴾**).

(**ومن آياته**) الدالة على عظيم قدرته: (**أصناف الحيوانات: وانقسامها إلى ما يطير**) في

وإلى ما يمشي على أربع، وعلى عشر، وعلى مائة، كما يشاهد في بعض الحشرات. ثم انقسامها في المنافع والصور والأشكال والأخلاق والطباع. فانظر إلى طيور الجو وإلى وحوش البر وإلى البهائم الأهلية ترى فيها من العجائب ما لا تشك معه في عظمة خالقها وقدرة مقدّرها وحكمة مصوّرها، وكيف يمكن أن يستقصي ذلك. بل لو أردنا أن نذكر عجائب البقة أو النملة أو النحلة أو العنكبوت، وهي من صغار الحيوانات في بنائها بيتها وفي جمعها غذاءها وفي الفها لزوجها وفي ادخارها لنفسها وفي حذقها في هندسة بيتها وفي هدايتها إلى حاجاتها لم نقدر على ذلك، فترى العنكبوت يبني بيته على طرف نهر فيطلب أولاً موضعين متقاربين بينهما فرجة بمقدار ذراع فما دونه حتى يمكنه أن يصل بالخيط بين طرفيه، ثم يبتدىء ويلقي اللعاب الذي هو خيطه على جانب ليلتصق به، ثم يغدو إلى الجانب الآخر فيحكم الطرف الآخر من الخيط، ثم كذلك يتردد ثانياً وثالثاً ويجعل بعدما بينهما متناسباً تناسباً هندسياً، حتى إذا أحكم معاقد القمط ورتب

الجوّ (**وإلى ما يمشي، وانقسام ما يمشي إلى: ما يمشي على رجلين وإلى ما يمشي على أربع و**) إلى ما يمشي (**على عشر وعلى مائة كما يشاهد في بعض الحشرات**). قال الله تعالى: ﴿منهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء﴾ [النور: ٤٥] قال بعض المحققين. وإنما اقتصر على أربع ولم يجاوز إشارة إلى أنه غاية ما اقتضته الحكمة الإلهية، وأما ما عداها من الأرجل التي ترى في بعض الحشرات فإنما هي الزوائد والمتممات والأصلي فيها هي الأربع لا غير، (**ثم انقسامها في المنافع والصور والأشكال والأخلاق والطباع، فانظر إلى طيور الجوّ وإلى وحوش البر وإلى البهائم الأهلية ترى فيها من العجائب ما لا تشك معه في عظمة خالقها وقدرة مقدرها وحكمة مصوّرها، وكيف يمكن أن يستقصى ذلك، بل لو أردنا أن نذكر عجائب البقة أو النملة أو النحلة أو العنكبوت وهي من صغار الحيوانات في بنائها بيتها وفي جمعها غذاءها وفي إلفها لزوجها وفي إدخارها لنفسها وفي حذقها في هندسة بيتها وفي هدايتها إلى حاجاتها لم نقدر على ذلك**) وهي دويبة قصيرة الأرجل كثيرة الأعين لها ثمانية أرجل وست عيون، إذا أرادت صيد الذباب لطئت بالأرض وجمعت نفسها ثم وثبت، وتبيض وتحضن، وأول ما تلد دوداً صغاراً، ثم يتغير ويصير عنكبوتاً وتكمل صورته في ثلاثة أيام ويقوى على النسج ساعة يولد، (**فترى العنكبوت يبني بيته على طرف نهر، فيطلب أولاً موضعين متقاربين بينهما فرجة بمقدار ذراع فما دونه حتى يمكنه أن يصل بالخيط إلى طرفيه، ثم يبتدىء ويلقي اللعاب الذي هو خيطه على جانب ليلتصق به، ثم يعدو إلى الجانب الآخر فيحكم الطرف الآخر من الخيط، ثم كذلك يتردد ثانياً وثالثاً ويجعل بعدما بينهما متناسباً تناسباً هندسياً، ثم إذا أحكم معاقد القمط ورتب الخيوط**

الخيوط كالسدى اشتغل باللحمة، فيضع اللحمة على السدى ويضيف بعضه إلى بعض ويحكم العقد على موضع التقاء اللحمة بالسدى ويراعي في جميع ذلك تناسب الهندسة ويجعل ذلك شبكة يقع فيها البق والذباب، ويقعد في زاوية مترصد الوقوع الصيد في الشبكة، فإذا وقع الصيد بادر إلى أخذه وأكله فإن عجز عن الصيد كذلك طلب لنفسه زاوية من حائط ووصل بين طرفي الزاوية بخيط، ثم علق نفسه فيها بخيط آخر وبقي منكساً في الهواء ينتظر ذبابة تطير؛ فإذا طارت رمى بنفسه إليه فأخذه ولف خيطه على رجليه وأحكمه ثم أكله. وما من حيوان صغير ولا كبير إلا وفيه من العجائب ما لا يحصى. أفترى أنه تعلم هذه الصنعة من نفسه أو تكوّن بنفسه أو كونه آدمي أو علمه أو لا هادي له ولا معلم؟ أفيشك ذو بصيرة في أنه مسكين ضعيف عاجز؟ بل الفيل العظيم شخصه، الظاهرة قوّته عاجز عن أمر نفسه فكيف هذا الحيوان الضعيف؟ أفلا يشهد هو بشكله وصورته وحركته وهدايته وعجائب صنعته لفاطره الحكيم وخالقه القادر العليم. فالبصير يرى في هذا الحيوان الصغير من عظمة الخالق المدبر وجلاله وكمال قدرته

كالسدى اشتغل باللحمة فيضع اللحمة على السدى ويضيف بعضه إلى بعض، ويحكم العقد على موضع التقاء اللحمة بالسدى، ويرعى في جميع ذلك تناسب الهندسة ويجعل ذلك شبكة يقع فيها البق والذباب، ويقعد في زاوية مترصداً لوقوع الصيد في الشبكة، فإذا وقع الصيد بادر إلى أخذه وأكله، فإن عجز عن الصيد كذلك طلب لنفسه زاوية من حائط ووصل بين طرفي الزواية بخيط، ثم علق نفسه منه بخيط آخر وبقي منكساً في الهواء ينتظر ذبابة تطير فإذا طارت رمى بنفسه إليه، فأخذه ولف خيطه على رجليه وأحكمه ثم أكله).

قال صاحب كشف الأسرار قال العنكبوت من حين أولد أنسج لنفسي فأول ما أقتصد زاوية البيت وإن كان خرباً فهو أحسن ما أويت فاقصد الزوايا لما فيها من الخبايا ولما في سرها من النكت والخفايا، وألقي لعابي على حافاتها حذراً من الخلطة وآفاتها، ثم أفرد من طاقات غزلي خيطاً منكساً في الهواء فاتعلق فيه مسبلاً يدي ممكساً برجلي، فيظن الغر أنني في تلك الحالة ميت لا محالة، فتمر الذبابة بي فأختطفها بحبائل كيدي ثم أودعها شبكة صيدي.

(وما من حيوان صغير ولا كبير إلا وفيه من العجائب ما لا يحصى، افترى أنه تعلم هذه الصنعة من نفسه أو تكوّن بنفسه أو كـوّنـه آدمـي أو علمـه أو لا هـادي لـه ولا معلم، **أفيشك ذو بصيرة في أنه مسكين ضعيف عاجز بل الفيل العظيم شخصه الظاهرة قوّته)** وبطشه **(عاجز عن أمر نفسه، فكيف هذا الحيوان الضعيف؟ أفلا يشهد هو بشكله أو صورته وحركته وهدايته وعجائب صنعته لفاطره الحكيم وخالقه القادر العليم، فالبصير**

وحكمته مما تتحير فيه الألباب والعقول فضلاً عن سائر الحيوانات. وهذا الباب أيضاً لا

يرى في هذا الحيوان الصغير من عظمة الخالق المدبر وجلاله وكمال قدرته وحكمته ما تتحير فيه الألباب والعقول فضلاً عن سائر الحيوانات) .

قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه في صفة عجيب خلق أصناف من الحيوان: ولو فكروا في عظيم القدرة وجسيم النعمة لرجعوا إلى الطريق وخافوا عذاب الحريق، ولكن القلوب عليلة والأبصار مدخولة ألا ينظرون إلى صغير ما خلق كيف أحكم خلقه واتقن تركيبه وخلق له السمع والبصر وسوّى له العظم والبشر. انظروا إلى النملة في صغر جثتها ولطافة هيئتها لا تكاد تنال بلحظ البصر ولا بمستدرك الفكر كيف دبت على أرضها وصبت على رزقها، تنقل الحبة إلى حجرها وتعدها في مستقرها، تجمع في حرها لبردها وفي وردها لصدرها، مكفول برزقها مرزقة بوفقها لا يغفلها المنان ولا يحرمها الديان، ولو في الصفاء اليابس والحجر الجالس، ولو فكرت في مجاري أكلها وفي علوها وسفلها وما في الجوف من شراسيف بطنها وما في الرأس من عينها وأذنها لقضيت من خلقها عجباً، ولقيت من وصفها تعباً، فتعالى الله الذي أقامها على قوائمها وبناها على دعائمها لم يشركه في فطرتها فاطر ولم يعنه في خلقها قادر، ولو ضربت في مذاهب فكرك لتبلغ غاياته ما دلتك الدلالة إلاّ على أن فاطر النملة هو فاطر النخلة لدقيق كل شيء وغامض اختلاف كل حي، وما الجليل واللطيف والثقيل والخفيف والقوي والضعيف في خلقه إلا سواء، وإن شئت قلت في الجرادة إذ خلق لها عينين حمراوين، وأسرج لها حدقتين قمراوين، وجعل لها السمع الخفي وفتح لها الفم السوى، وجعل لها الحس القوي ونابين بهما تقرض ومنجلين بهما تقبض يرهبها الزراع في زرعهم، ولا يستطيعون ذبّها ولو أجلبوا بجمعهم حتى ترد الحرث في نزواتها وتقضي منه شهواتها وخلقها كله لا يكون أصبعاً مستدقة. فتبارك الذي يسجد له ما في السموات والأرض طوعاً وكرهاً، ويعفر له خداً ووجهاً، ويلقى بالطاعة إليه سلماً وضعفاً ويعطي القياد رهبة وخوفاً، فالطير مسخرة لأمره أحصى عدد الريش منها والنفس، وأرسى قوائمها على الندى واليبس، قدر أقواتها وأحصى أجناسها، فهذا غراب وهذا عقاب وهذا حمام وهذا نعام دعا كل طير باسمه وتكفل له برزقه، وأنشأ السحاب الثقال فأهطل ديمها وعدد قسمها فبلّ الأرض بعد جفوفها وأخرج نبتها بعد جدوبها.

وقال علي رضي الله عنه في خطبته يذكر فيها عجيب خلقة الطاوس: ابتدعهم خلقاً عجيباً من حيوان وموات وساكن وذي حركات، وأقام من شواهد البينات على لطيف صنعته وعظيم قدرته ما انقادت له العقول معترفة به ومسلمة له ونعقت في أسماعنا دلائله على وحدانيته، وما ذرأ من مختلف صور الأطيار التي أسكنها أخاديد الأرض وخروق فجاجها ورواسي أعلامها من ذوات أجنحة مختلفة وهيئات متباينة مصرفة في زمام التسخير ومرفرفة بأجنحتها في مخاليق الجوّ المنفسح والفضاء المنفرج كوّنها بعد أن لم تكن في عجائب صور ظاهرة وركبها في حقاق مفاصيل محتجبة ومع بعضها بعبالة خلقه أن يسمو في الهواء خفوفاً وجعله يدف دفيفاً، ونسقها على اختلافها في الأصابيغ بلطيف قدرته ودقيق صنعته، فمنها مغموس في قالب لون لا يشوبه غير لون ما غمس

....

فيه، ومنها مغموس في لون صبغ قد طوّق بخلاف ما صبغ به، ومن أعجبها خلق الطاوس الذي أقامه في أحكم تعديل ونضد ألوانه في أحسن تنضيد بجناح أشرج قصبه وذنب أطال مسحبه، إذا درج إلى الأنثى نشره من طيه وسما به مطلاً على راسيه كأنه قلع داريء عنجه نؤتيه يختال بألوانه ويميس بزيفانه، يفضي كإفضاء الديكة ويئر بملاقحة ار الفحول المغتلمة أحيلك من ذلك على معاينة لا كمن يحيل على ضعيف إسناده، ولو كان كزعم من يزعم أن يلقح بدمعة تسفحها مدامعه فتقف في دفتي جفونه، وأن أنثاه تطعم ذلك ثم تبيض لا من لقاح فحل سوى الدمع المنبجس لما كان ذلك بأعجب من مطاعمة الغراب تخال قصبه مداري من فضة، وما أنبت عليه من عجيب داراته وشموسه خالص العقيان وفلذ الزبرجد، فإن شبهته بما أنبتت الأرض قلت جنى من زهرة كل ربيع، وإن ضاهيته بالملابس فهو كموشى الحلل أو مونق عصب اليمن، وإن شاكلته بالحلى فهو كفصوص ذات ألوان قد نطقت باللجين المكلل يمشي مشي المرح المختال ويتصفح ذنبه وجناحه فيقهقه ضاحكاً لجمال سرباله وأصابيغ وشاحه، فإذا رمى ببصره إلى قوائمه زقا معولاً بصوت يكاد يبين عن استغاثته ويشهد بصادق توجعه، لأن قوائمه حمش كقوائم الديكة الخلاسية، وقد نجمت من ظنبوب ساقه صيصية خفية، وله في موضع العرف قنزعة خضراء موشاة ومخرج عنقه كالإبريق ومغرزها إلى حيث بطنه كصبغ الوسمة اليمانية أو كحريرة ملتبسة مرآة ذات صقال، وكأنه متلفع بمعجر أسحم إلا أنه يخيل لكثرة مائه وشدة بريقه أن الخضرة الناضرة ممتزجة به، ومع فتق سمعه خط كمستدق القلم في لون الأقحوان أبيض يقق فهو ببياضه في سواد ما هنالك يأتلق، وقل صبغ إلا وقد أخذ منه فبقسط وعلاه بكثرة صقاله وبريقه وبصيص ديباجه ورونقه، فهو كالأزاهير المبثوثة لم تر بها أمطار ربيع ولا شموس قيظ، وقد ينحسر من ريشه ويعرى من لباسه فيسقط تترا وينبت تباعاً فيحت من قصبة انحتات أوراق الأغصان ثم يتلاحق ثانياً حتى يعود كهيئته قبل سقوطه، لا يخالف سالف ألوانه ولا يقع لون في غير مكانه، وإذا تصفحت شعرة من شعرات قصبه أرتك حمرة وردية وقارة خضرة زبرجدية وأحياناً صفرة عسجدية، فكيف تصل إلى صفة هذا عمائق الفطن أو تبلغه قرائح العقول أو تنتظم وصفه أقوال الواصفين، وأقل أجزائه قد أعجز الأوهام عن أن تدركه والألسنة أن تصفه. فسبحان الذي بهر العقول عن وصف خلق قد جلاه للعيون فأدركته محدوداً مكوناً ومؤلفاً ملوناً، وأعجز الألسن عن تلخيص صفته وقعد بها عن تأدية نعته. فسبحان من أدمج قوائم الذرة والهمجة إلى ما فوقها من خلق الحيتان والفيلة ووأى على نفسه أن لا يضطرب شبح ما أولج فيه الروح إلا وجعل الحمام موعده والفناء غايته.

وقال رضي الله عنه في خطبة يذكر فيها بدائع خلقة الخفاش: ومن لطائف صنعته وعجائب خلقته ما أرانا من غوامض الحكمة في هذه الخفافيش التي يقبضها الضياء الباسط لكل شيء، ويبسطها الظلام القابض لكل حي، وكيف غشيت أعينها عن أن تستمد من الشمس المضيئة نوراً تهتدي به في مذاهبها، وتصل بعلانية برهان الشمس إلى معارفها وردعها بتلألؤ ضيائها عن المضي في سبحات إشراقها وأكنها في أماكنها عن الذهاب في بلج ائتلافها فهي مسدلة الجفون بالنهار على

حصر له، فإن الحيوانات وأشكالها وأخلاقها وطباعها غير محصورة، وإنما سقط تعجب القلوب منها لأنسها بكثرة المشاهدة، نعم إذا رأى حيواناً غريباً ولو دوداً تجدد تعجبه قال: سبحان الله ما أعجبه! والإنسان أعجب الحيوانات وليس يتعجب من نفسه، بل لو نظر إلى الأنعام التي الفها ونظر إلى أشكالها وصورها، ثم إلى منافعها وفوائدها من جلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها التي جعلها الله لباساً لخلقه وأكناناً لهم في ظعنهم وإقامتهم وآنية لأشربتهم وأوعية لأغذيتهم وصواناً لأقدامهم وجعل ألبانها ولحومها أغذية لهم، ثم جعل بعضها زينة للركوب وبعضها حاملة للأثقال قاطعة للبوادي والمفازات البعيدة لأكثر الناظر التعجب من حكمة خالقها ومصوّرها، فإنه ما خلقها إلا بعلم محيط بجميع منافعها سابق على خلقه إياها فسبحان من الأمور مكشوفة في علمه من

أحداقها، وجاعلة الليل سراجاً تستدل به في التماس أرزاقها، فلا يرد أبصارها اسداف ظلمته ولا تمتنع من المضي فيه لغسق دجنته، فإذا ألقت الشمس قناعها وبدت أوضاح نهارها ودخل إشراق نورها على الضباب في وجارها أطبقت الأجفان على مآقيها وتبلغت بما اكتسبته من المعاش في ظلم لياليها. فسبحان من جعل الليل لها نهاراً ومعاشاً والنهار سكناً وقراراً، وجعل لها أجنحة من لحمها تعرج بها عند الحاجة إلى الطيران كأنها شظايا الآذان غير ذوات ريش ولا قصب، إلا أنك ترى مواضع العروق بينة أعلاماً لها جناحان لم يرقا فينشقا ولم يغلظا فيثقلا، تطير وولدها لاصق بها لاجيء إليها يقع إذا وقعت ويرتفع إذا ارتفعت، لا يفارقها حتى تشتد أركانه ويحمل للنهوض جناحه، ويعرف مذاهب عيشه ومصالح نفسه. فسبحان الباريء لكل شيء على غير مثال خلا من غيره.

(**وهذا الباب أيضاً لا حصر له فإن الحيوانات وأشكالها وأخلاقها وطباعها غير محصورة، وإنما سقط تعجب القلوب منها لانسها بكثرة المشاهدة. نعم إذا رأى حيواناً غريباً**) في شكله (**ولودوداً تجدد**) عند رؤيته (**تعجبهُ وقال: سبحان الله ما أعجبه! والإنسان أعجب الحيوانات**) إن تأمل فيه (**وليس يتعجب من نفسه**) وحينئذ يقال له:

أتحسب انك جرم صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر

(**بل لو نظر إلى الأنعام التي ألفها ونظر إلى أشكالها وصورها إلى منافعها وفوائدها**) التي خصها الله بها (**من جلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها التي جعلها الله تعالى لباساً لخلقه وأكناناً في ظعنهم وإقامتهم وآنية لأشربتهم وأوعية لأغذيتهم وصواناً لأقدامهم وجعل ألبانها ولحومها أغذية لهم، ثم جعل بعضها زينة للركرب وبعضها حاملة للأثقال قاطعة للبوادي والمفازات**) قال الله تعالى: ﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة﴾ [النحل: ٨] وقال تعالى: ﴿وتحمل أثقالكم إلى بلدٍ لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس﴾ [النحل: ٧] (**لأكثر الناظر التعجب من حكمة خالقها ومصوّرها فإنه ما خلقها إلا بعلم محيط بجميع**

غير تفكر ومن غير تأمل وتدبر ومن غير استعانة بوزير أو مشير فهو العليم الخبير الحكيم القدير، فلقد استخرج بأقل القليل مما خلقه صدق الشهادة من قلوب العارفين بتوحيده، فما للخلق إلا الإذعان لقهره وقدرته والاعتراف بربوبيته والإقرار بالعجز عن معرفة جلاله وعظمته، فمن ذا الذي يحصي ثناء عليه؟ بل هو كما أثنى على نفسه، وإنما غاية معرفتنا الاعتراف بالعجز عن معرفته فنسأل الله تعالى أن يكرمنا بهدايته بمنه ورأفته.

ومن آياته: البحار العميقة المكتنفة لأقطار الأرض:

التي هي قطع من البحر الأعظم المحيط بجميع الأرض، حتى أن جميع المكشوف من البوادي والجبال من الماء بالإضافة إلى الماء كجزيرة صغيرة في بحر عظيم وبقية الأرض مستورة بالماء. قال النبي ﷺ: «الأرض في البحر كالإصطبل في الأرض»، فانسب اصطبلاً إلى جميع الأرض. واعلم أن الأرض بالإضافة إلى البحر مثله. وقد شاهدت عجائب الأرض وما فيها فتأمل الآن عجائب البحر، فإن عجائب ما فيه من الحيوان والجواهر أضعاف عجائب ما تشاهده على وجه الأرض، كما أن سعته أضعاف سعة

منافعها سابق على خلقه إياها. فسبحان من الأمور مكشوفة في علمه من غير تفكر ومن غير تأمل وتدبر) ومن غير روية **(ومن غير استعانة بوزير أو بمشير)** أو مدبر، **(فهو العليم الخبير الحكيم القدير)** جل شأنه، **(فلقد استخرج بأقل القليل مما خلقه صدق الشهادة من قلوب العارفين بتوحيده، فما للخلق إلا الإذعان لقهره وقدرته والاعتراف بربوبيته والإقرار بالعجز عن معرفة جلاله وعظمته، فمن ذا الذي يحصي ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه)** كما قال ﷺ: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك». **(وإنما غاية معرفتنا الاعتراف بالعجز عن معرفته)** كما قاله الصديق رضي الله عنه. **(فنسأل الله تعالى أن يكرمنا بهدايته بمنه ورأفته)** وبالله التوفيق.

(ومن آياته): الدالة على عظيم قدرته **(البحار العميقة المكتنفة لأقطار الأرض)** أي جهاتها: **(التي هي قطع من البحر الأعظم المحيط بجميع الأرض، حتى أن جميع المكشوف من البوادي والجبال عن الماء بالإضافة إلى الماء كجزيرة صغيرة في بحر عظيم وبقية الأرض مستورة بالماء. قال النبي ﷺ «الأرض في البحر كالإصطبل في الأرض»)** قال العراقي، لم أجده وقد تقدم. **(فانسب اصطبلاً إلى جميع الأرض واعلم أن الأرض بالإضافة إلى البحر مثله، وقد شاهدت عجائب الأرض وما فيها)** من جبال وحيوان ونبات وغير ذلك. **(فتأمل الآن عجائب البحر، فإن عجائب ما فيه من الحيوان والجواهر اضعاف عجائب ما تشاهده على وجه الأرض، كما أن سعته أضعاف سعة الأرض)** ولذا قيل: حدث

الأرض، ولعظم البحر كان فيه من الحيوانات العظام ما ترى ظهورها في البحر فتظن أنها جزيرة فينزل الركاب عليها فربما تحس بالنيران إذا اشتعلت فتتحرّك ويعلم أنها حيوان. وما من صنف من أصناف حيوان البر من فرس أو طير أو بقر أو إنسان إلا وفي البحر أمثاله وأضعافه، وفيه أجناس لا يعهد لها نظير في البر: وقد ذكرت أوصافها

عن البحر ولا حرج، **(ولعظم البحر كان فيه من الحيوانات العظام ما ترى ظهورها في البحر فتظن أنها)** لعظمها **(جزيرة فينزل الركاب عليها فربّما تحس النيران إذا اشتعلت)** على ظهورها **(فتتحرك)** وتضطرب، **(ويعلم أنه حيوان)** ذكره القزويني في عجائب المخلوقات، والدميري في حياة الحيوان، وابن بطوطة في رحلته، ومنها سمكة في بحر الزنج كالجبل العظيم من رأسها إلى ذنبها مثل سنان المنشار من عظام سود كل سن منها كذراعين، وعند رأسها عظمان طويلان في مقدار عشرة أذرع تضرب بهما ماء البحر يميناً وشمالاً، فيسمع له صوت هائل، ويخرج الماء من فيها وأنفها فيصعد نحو السماء، ثم يصعد إلى المركب رشاشه كالمطر، فإذا دخلت تحت سفينة كسرتها. ومنها سمكة تسمى المنارة تخرج على هيئتها فترمي نفسها على السفينة فتكسرها، فإذا أحسوا بها ضربوا الطبول والبوقات تبعد عنهم.

(وما من صنف من أصناف حيوان البر من فرس أو) جمل أو **(طير أو بقر أو إنسان إلا في البحر أمثاله وأضعافه)**، فإنسان الماء يشبه الإنسان إلا أن له ذنباً. وقيل: إن في بحر الشام بعض الأوقات من شكله شكل الإنسان وله لحية بيضاء يسمونه شيخ البحر، فإذا رآه الناس استبشروا به بخصب. وحكى أن بعض الملوك حمل إليه إنسان ماء فأراد الملك أن يعرف حاله فزوجه امرأة فأتاه منها ولد يفهم كلام أبويه، فقيل للولد: ما يقول أبوك؟ قال: يقول أذناب الحيوانات كلها أسفلها، فما بال هؤلاء أذنابهم في وجوههم؟ وسئل الليث بن سعد عن أكله فقال: لا يؤكل على شيء من الحالات، وفي بحر الروم سمك يقال له بنات الماء شبه النساء ذوات شعور سبط ألوانهم إلى السمة ذات فروج عظام وثدي وكلام لا يكاد يفهم ويضحكون ويقهقهون، وربما وقعن في أيدي بعض المراكب فينكحوهن ثم يعيدونهن إلى البحر وحكى الروياني صاحب البحر أنه كان إذا أتاه صياد بسمكة منهن حلفه أنه لم يطأها. ونوع من حيوان البحر يقال له الشيخ اليهودي وجهه كوجه الإنسان وله لحية بيضاء وبدنه كبدن ضفدع وشعره كشعر البقرة وهو في حجم عجل يخرج من البحر ليلة السبت حتى تغيب الشمس ليلة الأحد، فيثب كم يثب الضفدع ويدخل الماء فلا تلحقه السفن إذا تم السبت. وقال القزويني: سمك في البحر يقال له أبو مرينا على صور الرجال بجلود لزجة وأجسام تشاكله يبرزون من البحر إلى البر يتشمسون فإذا وقعوا في أيدي الصيادين بكوا. وقال المسعودي: النسناس حيوان كالإنسان له عين واحدة يخرج من الماء ويتكلم ومتى ظفر بالإنسان قتله. وقال القزويني: إنه أمة من الأمم لكل واحد منهم نصف بدن ورأس ويد ورجل كأنه انسان يقفز على رجل واحدة قفزاً شديداً ويعدو عدواً منكراً، ويوجد في

في مجلدات وجمعها أقوام عنوا بركوب البحر جمع عجائبه. ثم انظر كيف خلق الله اللؤلؤ ودوّره في صدفه تحت الماء. وانظر كيف أنبت المرجان من صم الصخور تحت الماء؛ وإنما هو نبات على هيئة شجر ينبت من الحجر. ثم تأمل ما عداه من العنبر وأصناف النفائس التي يقذفها البحر وتستخرج منه؛ ثم انظر إلى عجائب السفن كيف أمسكها الله تعالى على وجه الماء وسير فيها التجار وطلاب الأموال وغيرهم، وسخر لهم الفلك لتحمل أثقالهم،

جزائر الصين. وحيوانات البحر التي تشبه حيوانات البر كثيرة جداً والقول فيها يطول، وإنما اقتصرت على ذكر ما يشبه الإنسان لغرابته وقال أبو حاتم في كتب الطير: طير الماء أكثر من أن يحصى أكثر من مائتي لون، والعرب لا تعرف أكثرها وأسماؤها عندنا بالنبطية أنها في البطائح في بلاد النبط، **(وفيه أجناس لا يعرف لها نظير في البر، وقد ذكرت أوصافها في مجلدات، وجمعها أقوام عنوا بركوب البحر وجمع عجائبه ثم انظر كيف خلق الله اللؤلؤ ودوّره في صدفة تحت الماء)** ومغاصه ببحر الهند. وعن ابن عباس: إذا أمطرت السماء فتحت الصدف أفواهها. قلت: وهو مطر مخصوص في أيام نيسان الرومي.

(وانظر كيف أنبت المرجان من صم الصخور تحت الماء، وإنما هو نبات على هيئة شجر ينبت من الحجر) ومغاصه في بحر إفريقية. قال الطرطوشي: هو عروق حمر تطلع من الشجر كأصابع الكف. قال: وهذا شاهدناه بمغارب الأرض كثير انتهى. وتتخذ منها السبح وغيرها من أنواع الأواني، والمذكور في القرآن هو صغار اللؤلؤ. قاله الأزهري وجماعة من أئمة اللغة. قيل: النون زائدة لأنه ليس في الكلام فعلال بالفتح إلا المضاعف نحو الخلخال. وقال الأزهري: لا أدري أثلاثي أم رباعي.

(ثم تأمل ما علاه من العنبر وأصناف النفائس التي يقذفها البحر وتستخرج منه). والعنبر قطع توجد في بحر الهند تشبه الشمع في جموده وذوبانه. وقيل: إنه روث دابة بحرية. وقيل: إنه زبد البحر، وقيل: إنه من عين يسيل في البحر وتفصل عنه الحلاوة ويطفو الشمع من فوق فهو العنبر الأشهب، وربما اتفق أنه يبتلعه السمك المعروف بالبالة لحلاوة فيه فيعرض له قولنج فيموت فيقذفه البحر إلى الساحل فتتفرق أجزاء السمك، وينعقد ذلك العنبر الأشهب في جوفه فهو العنبر الفستقي. وقال القزويني: البالة سمكة عظيمة يخاف منها أهل السفن، فإذا بغت على حيوان البحر بعث الله لها سمكة نحو الذراع تلتصق بأذنها ولا تفارقها فتطلب قعر البحر وتضرب الأرض برأسها إلى أن تموت وتطفو على الماء كالجبل العظيم، ولها أناس يرصدونها فإذا رأوها جروها بالكلاليب إلى الساحل وشقوا بطنها واستخرجوا منها العنبر.

(ثم انظر إلى عجائب السفن) وما فيها من غرائب الصنائع كيف هدي الإنسان إلى تركيبها على هذا الوجه المشاهد وهي ما بين صغيرة وكبيرة ومتوسطة. **(كيف أمسكها الله على وجه الماء ويسير فيها التجار وطلاب الأموال وغيرهم وسخر لهم الفلك لتحمل أثقالهم)** من البضائع

ثم أرسل الرياح لتسوق السفن ، ثم عرّف الملاحين موارد الرياح ومهابها ومواقيتها ، ولا يستقصى على الجملة عجائب صنع الله في البحر في مجلدات . وأعجب من ذلك كله ما هو أظهر من كل ظاهر وهو كيفية قطرة الماء : وهو جسم رقيق لطيف سيال مشف ، متصل الأجزاء كأنه شيء واحد ، لطيف التركيب سريع القبول للتقطيع كأنه منفصل ، مسخر للتصرف قابل للانفصال والاتصال ، به حياة كل ما على وجه الأرض من حيوان ونبات فلو احتاج العبد إلى شربة ماء ومنع منها لبذل جميع خزائن الأرض وملك الدنيا في تحصيلها لو ملك ذلك ، ثم لو شربها ومنع من إخراجها لبذل جميع خزائن الأرض وملك الدنيا في إخراجها ! فالعجب من الآدمي كيف يستعظم الدينار والدرهم ونفائس الجواهر ويغفل عن نعمة الله في شربة ماء إذا احتاج إلى شربها أو الاستفراغ عنها بذل جميع الدنيا فيها ! فتأمل في عجائب المياه والأنهار والآبار والبحار ففيها متسع للفكر ومجال . وكل ذلك شواهد متظاهرة وآيات متناصرة ناطقة بلسان حالها مفصحة عن جلال بارئها معربة عن كمال حكمته فيها ، منادية أرباب القلوب بنغماتها قائلة لكل ذي لب ؛ أما تراني وترى صورتي وتركيبي وصفاتي ومنافعي واختلاف حالاتي وكثرة

والمؤن الثقيلة ، **(ثم أرسل الرياح لتسوق السفن)** إلى المواضع المقصودة ، **(ثم عرف الملاحين)** وهم خدمة السفن نسبوا إلى البحر الملح لملازمتهم إياه **(موارد الرياح ومهابها ومواقيتها)** حتى قيل ، إنه على نفيس مع قوم مناحيس ، **(ولا يستقصى على الجملة عجائب صنع الله في البحر في مجلدات ، وأعجب من ذلك)** كله **(ما هو أظهر من كل ظاهر وهو كيفية قطرة الماء وهو جسم رقيق لطيف سيال مشف متصل الأجزاء كأنه شيء واحد لطيف التركيب سريع القبول للتقطيع ، كأنه منفصل مسخر للتصرف قابل للانفصال والاتصال به حياة كل ما على وجه الأرض من حيوان ونبات)** . قال الله تعالى : ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ [الأنبياء : ٣٠] قال الحراني : وهو أول ظاهر للعين من أشباح الخلق ، **(فلو احتاج العبد إلى** شربة ماء ومنع منها **لبذل جميع خزائن الدنيا في تحصيلها لو ملك ذلك ، ثم إذا شربها** لو منع من إخراجها لبذل جميع **خزائن الأرض وملك الدنيا في إخراجها ، فالعجب من الآدمي كيف يستعظم الدينار والدرهم ونفائس الجواهر ويغفل عن نعمة الله في** شربة ماء إذا احتاج إلى شربها ، والاستفراغ عنها بذل جميع الدنيا فيها . **فتأمل في عجائب المياه والآبار والأنهار والبحار ففيها متسع للفكر ومجال ، وكل ذلك شواهد متظاهرة وآيات متناصرة ، ناطقة بلسان حالها ، مفصحة عن جلال بارئها ، معربة عن كمال حكمته فيها منادية أرباب القلوب بنغماتها)** أي أصواتها **(قائلة لكل ذي لب : أما تراني وترى صورتي وتركيبي وصفاتي ومنافعي واختلاف حالاتي وكثرة فوائدي؟ أتظن أني كونت**

فوائدي؟ أتظن أني كوّنت نفسي أو خلقني أحد من جنسي؟ أو ما تستحيي أن تنظر في كلمة مرقومة من ثلاثة أحرف فتقطع بأنها من صنعة آدمي عالم قادر مريد متكلم ثم تنظر إلى عجائب الخطوط الإلهية المرقومة على صفحات وجهي بالقلم الإلهي الذي لا تدرك الأبصار ذاته ولا حركته ولا اتصاله بمحل الخط. ثم ينفك قلبك عن جلالة صانعه. وتقول النطفة لأرباب السمع والقلب لا للذين هم عن السمع معزولون: توهمني في ظلمة الأحشاء مغموسة في دم الحيض في الوقت الذي يظهر التخطيط والتصوير على وجهي فينقش النقاش حدقتي وأجفاني وجبهتي وخدي وشفتي، فترى التقويس يظهر شيئاً فشيئاً على التدريج ولا ترى داخل النطفة نقاشاً ولا خارجها، ولا داخل الرحم ولا خارجه، ولا خبر منها للأم ولا للأب ولا للنطفة ولا للرحم! أفما هذا النقاش بأعجب مما تشاهده ينقش بالقلم صورة عجيبة لو نظرت إليها مرة أو مرتين لتعلمته، فهل تقدر على أن تتعلم هذا الجنس من النقش والتصوير الذي يعم ظاهر النطفة وباطنها وجميع أجزائها من غير ملامسة للنطفة ومن غير اتصال بها لا من داخل ولا من خارج؟ فإن كنت لا تتعجب من هذه العجائب ولا تفهم بها أنّ الذي صوّر ونقش وقدر لا نظير له ولا يساويه نقاش ولا مصوّر، كما أنّ نقشه وصنعه لا يساويه نقش وصنع فبين الفاعلين

بنفسي أو خلقني أحد من جنسي؟ أو ما تستحي تنظر في كلمة مرقومة من ثلاثة أحرف فتقطع بأنه صفة آدمي عالم قادر مريد متكلم، ثم تنظر إلى عجائب الخطوط الإلهية المرقومة على صفحات وجهي بالقلم الإلهي الذي لا تدرك الأبصار ذاته ولا حركته ولا اتصاله بمحل الخط، ثم ينفك قلبك عن جلالة صانعه) وعظمة خاطه، **(وتقول النطفة)** الإنسانية **(لأرباب السمع والقلب)** الذين يسمعون فيعون ويرون فيعتبرون **(لا الذين هم عن السمع معزولون)**. قال الله تعالى: ﴿إنهم عن السمع لمعزولون﴾ [الشعراء :٢١٢] أي ممنوعون بعد أن كانوا ممكنين. **(توهموني في ظلمة الأحشاء مغموسة في دم الحيض في الوقت الذي يظهر التخطيط والتصوير على وجهي)** وهو بعد مضي مائة وعشرين يوماً من الحمل، **(فينقش النقاش حدقتي وأجفاني وجبهتي وخدي وشفتي فترى التقويس يظهر)** على التدريج **(شيئاً فشيئاً، ولا ترى داخل النطفة نقاشاً ولا خارجها ولا داخل الرحم ولا خارجه، ولا خبر منها للأم ولا للأب ولا للنطفة ولا للرحم! أفما هذا النقاش بأعجب ممن تشاهده ينقش بالقلم صورة عجيبة ولو نظرت إليها مرة أو مرتين لتعلمته، فهل تقدر أن تتعلم هذا الجنس من النقش والتصوير الذي يعم ظاهر النطفة وباطنها وجميع أجزائها من غير ملامسة للنطفة ومن غير إيصال بها لا من داخل ولا من خارج؟ فإن كنت لا تتعجب من هذه العجائب ولا تفهم بها أن الذي صور ونقش وقدر لا نظير له)** في ذاته **(ولا يساويه**

من المباينة والتباعد ما بين الفعلين، فإن كنت لا تتعجب من هذا فتعجب من عدم تعجبك فإنه أعجب من كل عجب! فإن الذي أعمى بصيرتك مع هذا الوضوح ومنعك من التبين مع هذا البيان جدير بأن تتعجب منه، فسبحان من هدى وأضل وأغوى وأرشد وأشقى وأسعد وفتح بصائر أحبابه فشاهدوه في جميع ذرّات العالم وأجزائه، وأعمى قلوب أعدائه واحتجب عنهم بعزه وعلائه، فله الخلق والأمر والامتنان والفضل واللطف والقهر لا رادّ لحكمه ولا معقب لقضائه.

ومن آياته: الهواء اللطيف المحبوس بين مقعر السماء ومحدب الأرض:

لا يدرك بحس اللمس عند هبوب الرياح جسمه، ولا يرى بالعين شخصه وجملته مثل البحر الواحد والطيور محلقة في جو السماء ومستبقة سباحة فيه بأجنحتها كما تسبح حيوانات البحر في الماء، وتضطرب جوانبه وأمواجه عند هبوب الرياح كما تضطرب أمواج البحر، فإذا حرك الله الهواء وجعله ريحاً هابة، فإن شاء جعله نشراً بين يدي رحمته كما قال سبحانه: ﴿وأرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢]، فيصل بحركته روح

نقاش ومصور، كما أن نقشه وصنعه لا يساويه نقش وصنع فبين الفاعلين من المباينة والتباعد ما بين الفعلين، فإن كنت لا تتعجب من هذا فتعجب من عدم تعجبك) لهذا **(فإنه أعجب من كل عجب! فإن الذي أعمى بصيرتك مع هذا الوضوح)** والانكشاف **(ومنعك من التبين مع هذا البيان جدير بأن تتعجب منه)** أي حقيق، **(فسبحان من هدى وأضل وأغوى وأرشد وأشقى وأسعد وفتح بصائر أحبابه فشاهدوه في جميع ذرات العالم وأجزائه)** مشاهدة عيانية مصونة من الحلول والإتحاد، **(وأعمى قلوب أعدائه واحتجب عنهم بعزه وعلائه)** فهم عن مشاهدته محجوبون، **(فله الخلق والأمر والامتنان والفضل واللطف والقهر لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه)** جل شأنه وعز برهانه.

(ومن آياته) الدالة على عظيم قدرته: **(الهواء)** بالمد **(اللطيف المحبوس)** المسخر **(بين مقعر السماء ومحدب الأرض)** والجمع أهوية: **(لا يدرك بحس اللمس عند هبوب الرياح جسمه، ولا يرى بالعين شخصه وجملته مثل البحر الواحد والطيور محلقة في جو السماء ومسفة)** وتحليق الطائر استدارته في الهواء وإسفافه ضم جناحيه **(سباحة فيه بأجنحتها كما تسبح حيوانات البحر في الماء، وتضطرب جوانبه وأمواجه عند هبوب الرياح كما تضطرب أمواج البحر فإذا حرك الله الهواء وجعله ريحاً هابة فإن شاء جعله نشراً بين يدي رحمته)** كما قرىء به أي منشورة في الجو بمعنى مبسوطة والرياح تنشر السحاب، **(كما قال سبحانه: ﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾)** أي ذوات لقاح **(فيصل بحركة روح الهواء إلى الحيوانات**

الهواء إلى الحيوانات والنباتات فتستعد للنماء وإن شاء جعله عذاباً على العصاة من خليقته كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ ريحاً صرصراً في يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ★ وتَنْزَعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أعجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ [القمر: ١٩ ـ ٢٠]، ثم انظر إلى لطف الهواء، ثم شدته وقوّته مهما ضغط في الماء، فالزق المنفوخ يتحامل عليه الرجل القوي ليغمسه في الماء فيعجز عنه، والحديد الصلب تضعه على وجه الماء فيرسب فيه، فانظر كيف ينقبض الهواء من الماء بقوّته مع لطافته. وبهذه الحكمة أمسك الله تعالى السفن على وجه الماء، وكذلك كل مجوف فيه هواء لا يغوص في الماء لأنّ الهوء ينقبض عن الغوص في الماء فلا ينفصل عن السطح الداخل من السفينة فتبقى السفينة الثقيلة مع قوّتها وصلابتها معلقة في الهواء اللطيف، كالذي يقع في بئر فيتعلق بذيل رجل قوي ممتنع عن الهوي في البئر، فالسفينة بمقعرها تتشبث بأذيال الهواء القوي حتى تمتنع من الهوي والغوص في الماء؛ فسبحان من علق المركب الثقيل في الهواء اللطيف من غير علاقة تشاهد وعقدة تشد. ثم انظر إلى عجائب الجو وما يظهر فيه من الغيوم والرعود والبروق والأمطار والثلوج والشهب والصواعق، فهي عجائب ما بين السماء والأرض، وقد أشار القرآن إلى جملة

والنبات فتستعد للنماء، وإن شاء جعله عذاباً على العصاة من خليقته كما قال تعالى: ﴿إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً) أي شديداً (**في يوم نحس مستمر﴾**) النحس ضد السعد. وقرأ الحسن البصري بالتنوين وكسر الحاء وعنه أيضاً على الصفة والإضافة والحاء مكسورة. (**﴿تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر﴾**) أي منقلعة من قعرها. يقال: قعرت الشجرة إذا قلعتها من أصلها فانقعرت، وقيل: معنى انقعرت ذهبت في قعر الأرض، وإنما أراد الله تعالى أن هؤلاء اجتثوا كما اجتثت النخلة الذاهب في قعر الأرض فلم يبق له رسم ولا أثر.

(**ثم انظر إلى لطف الهواء ثم شدته وقوته مهما ضبط في الماء، فالزق المنفوخ يتحامل عليه الرجل القوي ليغمسه في الماء فيعجز عنه، والحديد الصلب تضعه على وجه الماء فيرسب فيه**) أي يثقل ويصير إلى الأسفل، (**فانظر كيف ينقبض الهواء من الماء بقوّته مع لطافته، وبهذه الحكمة أمسك الله تعالى السفن على جه الماء، وكذلك كل مجوف فيه هواء لا يغوص في الماء ولا يرسب أصلاً لأن الهواء ينقبض عن الغوص في الماء فلا ينفصل عن السطح الداخل من السفينة، فتبقى السفينة الثقيلة مع قوتها وصلابتها معلقة من الهواء اللطيف، كالذي يقع في بئر فيعلق بذيل رجل قوي ممتنع عن الهوي**) أي السقوط (**في البئر فالسفينة بمقعرها تتشبث بأذيال الهواء القوي حتى تمتنع من الهوي والغوص في الماء! فسبحان من علق المركب الثقيل في الهواء اللطيف من غير علاقة تشاهد في المحسوس و**) لا (**عقدة تشد، ثم انظر إلى عجائب الجو وما يظهر فيه من الغيوم والرعود والبروق والأمطار والثلوج والشهب والصواعق، فهي عجائب ما بين السماء والأرض، وقد أشار القرآن إلى**

ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ والأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ﴾ [الدخان: ٣٨]، وهذا هو الذي بينهما. وأشار إلى تفصيله في مواضع شتى حيث قال تعالى: ﴿والسَّحابِ المُسخَّر بَيْنَ السَّماءِ والأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤] وحيث تعرّض للرعد والبرق والسحاب والمطر، فإذا لم يكن لك حظ من هذه الجملة إلا أن ترى المطر بعينك وتسمع الرعد بأذنك فالبهيمة تشاركك في هذه المعرفة! فارتفع من حضيض عالم البهائم إلى عالم الملأ الأعلى فقد فتحت عينيك فأدركت ظاهرها، فغمض عينك الظاهرة وانظر ببصيرتك الباطنة لترى عجائب باطنها وغرائب أسرارها وهذا أيضاً باب يطول الفكر فيه إذ لا مطمع في استقصائه. فتأمل السحاب الكثيف المظلم كيف تراه يجتمع في جو صاف لا كدورة فيه وكيف يخلقه الله تعالى إذا شاء ومتى شاء، وهو مع رخاوته حامل للماء الثقيل وممسك له في جو السماء إلى أن يأذن الله في إرسال الماء وتقطيع القطرات كل قطرة بالقدر الذي أراده الله تعالى وعلى الشكل الذي شاءه فترى السحاب يرش الماء على الأرض ويرسله قطرات متفاصلة لا تدرك قطرة منها قطرة ولا تتصل واحدة بأخرى، بل تنزل كل واحدة في الطريق الذي رسم لها لا تعدل عنه فلا يتقدّم المتأخر ولا يتأخّر المتقدّم حتى يصيب الأرض قطرة قطرة فلو اجتمع الأوّلون والآخرون على أن يخلقوا

جملة ذلك في قوله تعالى: ﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين﴾ وهذا هو الذي بينهما) فهذا على طريق الإجمال، وأشار إلى تفصيله في مواضع شتى حيث قال: ﴿والسحاب المسخر بين السماء والأرض﴾) والمسخر هو المقيض للفعل، **(وحيث تعرض للرعد والبرق والسحاب والمطر)** وذلك في آيات كثيرة، **(فإن لم يكن لك الحظ في هذه الجملة إلا أن ترى المطر بعينك وتسمع الرعد بإذنك، فالبهيمة تشاركك في هذه المعرفة فارتفع من حضيض عالم البهائم إلى عالم الملأ الأعلى، فقد فتحت عينيك فأدركت ظاهرها فغمض عينك الظاهرة، وانظر ببصيرتك الباطنة لترى عجائب باطنها وغرائب أسرارها، وهذا أيضاً يطول الفكر فيه ولا مطمع في استقصائه، فتأمل السحاب الكثيف المظلم كيف تراه يجتمع في جو صاف لا كدورة فيه وكيف يخلقه الله تعالى إذا شاء ومتى شاء، وهو مع رخاوته حامل للماء الثقيل وممسك له في جو السماء إلى أن يأذن الله له في إرسال الماء وتقطيع القطرات كل قطرة بالقدر الذي أراد الله تعالى، وعلى الشكل الذي شاء، فترى السحاب يرش الماء على الأرض ويرسله قطرات متفاصلة لا تدرك قطرة منها قطرة ولا تتصل واحدة بأخرى، بل تنزل كل واحدة في الطريق الذي رسم لها لا تعدل عنه فلا يتقدم المتأخر ولا يتأخر المتقدم حتى يصيب الأرض قطرة قطرة)**.

فإن قيل: لم كانت نقطة المطر ترى في الجو خطاً وإنما هي نقطة؟ والجواب: أن لذلك سببين:

منها قطرة أو يعرفوا عدد ما ينزل منها في بلدة أو قرية واحدة لعجز حساب الجن والإنس عن ذلك، فلا يعلم عددها إلا الذي أوجدها، ثم كل قطرة منها عينت لكل جزء من الأرض ولكل حيوان فيها من طير ووحش وجميع الحشرات والدواب، مكتوب على تلك القطرة بخط إلهي لا يدرك بالبصر الظاهر، إنها رزق الدودة الفلانية التي في ناحية الجبل الفلاني تصل إليها عند عطشها في الوقت الفلاني! هذا مع ما في انعقاد البرد الصلب من الماء اللطيف وفي تناثر الثلوج كالقطن المندوف من العجائب التي لا تحصى. كل ذلك فضل من الجبار القادر وقهر من الخلاق القاهر ما لأحد من الخلق فيه شرك ولا مدخل، بل ليس للمؤمنين من خلقه إلا الاستكانة والخضوع تحت جلاله وعظمته، ولا للعميان الجاحدين إلا الجهل بكيفيته ورجم الظنون بذكر سببه وعلته، فيقول الجاهل المغرور إنما ينزل الماء لأنه ثقيل بطبعه وإنما هذا سبب نزوله، ويظن أن هذه

أحدهما: أن الماء يمر بالهواء فيكيّفه بكيفيته فيصير ندياً كأنه ماء فيرى كما يمر الشهاب المحرق للشياطين عند استراقهم السمع في الهواء، فيرى خلفه جبل نار بسبب أنه مر بالهواء فيكيفه بناريته فصار يرى ناراً.

السبب الثاني: أن حركة القطرة في الهواء تمنع من استيثاق الحس انفصالها عن الأحياز فيبقى البصر فيتوهمها باقية في حيزها مع خروجها عنه، فيحصل خط من الماء. ومثل ذلك من يأخذ شعلة من نار في يده ويديرها إدارة شديدة فيتوهم الرائي أنها دائرة نار لهذين السببين.

(فلو اجتمع الأولون والآخرون على أن يخلقوا منها قطرة أو يعرفوا عدد ما ينزل منها في بلدة أو قرية واحدة لعجز حساب الجن والأنس عن ذلك، فلا يعلم عددها إلا الذي أوجدها) وخلقها، **(ثم كل قطرة منها عينت لكل جزء من الأرض ولكل حيوان فيها من طير ووحش، وجميع الحشرات والدواب مكتوب على تلك القطرة بخط إلهي لا يدرك بالبصر الظاهر أنها رزق الدودة الفلانية في ناحية الجبل الفلاني يصل إليها عند عطشها في الوقت الفلاني هذا مع ما في انعقاد البرد)** محركة **(الصلب)** شبه الحصا ينزل من السماء ويسمى حب الغمام **(من الماء اللطيف)** السيال، **(وفي سائر الثلوج كالقطن المندوف)** المنفوش **(من العجائب التي لا تحصى كل ذلك فضل من الجبار القادر وقهر من الخلاق القاهر ما لأحد من الخلق فيه شرك ولا مدخل، بل ليس للمؤمنين)** المصدقين **(من خلقه إلا الاستكانة والخضوع تحت جلاله وعظمته)** وذلك لحسن إيقانهم في معرفة مصنوعاته، **(ولا للعميان الجاحدين)** المنكرين **(إلا الجهل بكيفيته ورجم الظنون بذكر سببه وعلته، فيقول الجاهل المغرور: إنما ينزل الماء)** من فوق **(لأنه ثقيل بطبعه وإنما هذا سبب نزوله)**

معرفة انكشفت له ويفرح بها، ولو قيل له: ما معنى الطبع وما الذي خلقه؟ ومن الذي خلق الماء الذي طبعه الثقل؟ وما الذي رقى الماء المصبوب في أسافل الشجر إلى أعالي الأغصان وهو ثقيل بطبعه؟ فكيف هوى إلى أسفل ثم ارتفع إلى فوق في داخل تجاويف الأشجار شيئاً فشيئاً بحيث لا يرى ولا يشاهد حتى ينتشر في جميع أطراف الأوراق فيغذي كل جزء من كل ورقة، ويجري إليها في تجاويف عروق شعرية صغار يروي منه العرق الذي هو أصل الورقة، ثم ينتشر من ذلك العرق الكبير الممدود في طول الورقة عروق صغار فكأن الكبير نهر وما انشعب عنه جداول، ثم ينشعب من الجداول سواق أصغر منها، ثم ينتشر منها خيوط عنكبوتية دقيقة تخرج عن إدراك البصر حتى تنبسط في جميع عرض الورقة فيصل الماء في أجوافها إلى سائر أجزاء الورقة ليغذيها وينميها ويزينها وتبقى طراوتها ونضارتها، وكذلك إلى سائر أجزاء الفواكه. فإن كان الماء يتحرك بطبعه إلى أسفل فكيف تحرك إلى فوق؟ فإن كان ذلك يجذب جاذب فما الذي سخر ذلك الجاذب وإن كان ينتهي بالآخرة إلى خالق السموات والأرض وجبار الملك والملكوت فلم لا يحال عليه من أوّل الأمر؟ فنهاية الجاهل بداية العاقل.

والثقيل بطبعه لا محالة يهوي إلى تحت (**يظن أن هذه معرفة انكشفت له ويفرح بها**) كما يقول: إن الحجر إذا رمي إلى فوق فبقدر قوة الرامي يصعد إلى فوق ثم يغلب عليه طبعه فيهوي ساقطاً. (**ولو قيل له: ما معنى الطبع، وما الذي خلقه؟ ومن الذي خلق الماء الذي طبعه الثقل، وما الذي رقي الماء المصبوب في أسافل الشجر إلى أعالي الأغصان وهو ثقيل بطبعه فكيف هوى إلى أسفل ثم ارتفع إلى فوق في داخل تجاويف الأشجار**) على التدريج (**شيئاً فشيئاً بحيث لا يرى ولا يشاهد حتى ينتشر في جميع أطراف الأوراق**) من سائر أغصان الشجر، (**فيغذي كل جزء من ورقة ويجري إليها في تجاويف عروق شعرية صغار**) أي تشبه الشعر في الدقة (**يروي منه العرق الذي هو أصل الورقة، ثم ينتشر من ذلك العرق الكبير الممدود في طول الورق عروق صغار**) تمتد منه، (**فكأن الكبير نهر وما انشعب عنه**) من تلك العروق (**جداول، ثم يتشعب من الجداول سواقي أصغر منها، ثم تنتشر منها خيوط عنكبوتية دقيقة**) جداً (**تخرج عن إدراك البصر حتى تنبسط في جميع عرض الورقة فيصل الماء في أجوافها إلى سائر أجزاء الورقة ليغذيها وينميها ويزينها وتبقى طرواتها ونضارتها**) بحيث لو قطع الإمداد ليبس وسقط، (**وكذلك إلى سائر أجزاء الفواكه فإن كان الماء يتحرك بطبعه إلى أسفل**) كما يقوله الطبائعي الجاهل، (**فكيف تحرك إلى فوق؟ فإن كان ذلك يجذب جاذب**) كما يقوله الطبائعي أيضاً (**فما الذي سخر ذلك الجاذب؟ فإن كان ينتهي بالآخرة إلى خالق السموات والأرض وجبار الملك والملكوت فلم لا يحال عليه في أول الأمر؟ فنهاية الجاهل في بداية العاقل**).

ومن آياته: ملكوت السموات وما فيها من الكواكب:

وهو الأمر كله، ومن أدرك الكل وفاته عجائب السموات فقد فاته الكل تحقيقاً. فالأرض والبحار والهواء وكل جسم سوى السموات بالإضافة إلى السموات كقطرة في بحر وأصغر. ثم انظر كيف عظم الله أمر السموات والنجوم في كتابه، فما من سورة إلا وتشتمل على تفخيمها في مواضع، وكم من قسم في القرآن بها كقوله تعالى: ﴿والسَّماء ذَاتِ البُرُوجِ﴾ [البروج: ١] ﴿والسَّمَاءِ والطَّارِقِ﴾ [الطارق: ١] ﴿والسَّمَاءِ ذَاتِ الحُبُكِ﴾ [الذاريات: ٧] ﴿والسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ [الشمس: ٥]، وكقوله تعالى: ﴿والشَّمسِ وَضُحَاهَا ★ والقَمَرِ إذَا تَلاَهَا﴾ [الشمس: ١ ـ ٢]، وكقوله تعالى: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بالْخُنَّسِ ★ الجَوَارِ الكُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥ ـ ١٦]، وقوله تعالى: ﴿والنَّجم إذَا هَوى﴾ [النجم: ١] ﴿فلاَ أُقْسِمُ بمَواقِعِ النَّجومِ ★ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعلَمُونَ عظِيمٌ﴾

(ومن آياته): الدالة على عظيم قدرته **(ملكوت السموات وما فيها من الكواكب: وهو الأمر كله. ومن أدرك الكل وفاته)** درك **(عجائب السموات فقد فاته الكل تحقيقاً، فالأرض والبحار والهواء وكل جسم سوى السموات بالإضافة إلى السموات كقطرة في بحر وأصغر)** من القطرة. **(ثم انظر كيف عظم الله أمر السموات والنجوم في كتابه، فما من سورة إلا وتشتمل على تفخيمها في مواضع)** منها، **(وكم من قسم في القرآن بها)** فالمقسم به عظيم في نفسه ولولاه لما أقسم بها **(كقوله تعالى: ﴿والسماء ذات البروج﴾)** يعني البروج الاثني عشر شبهت بالقصور لأنها تنزلها السيارات وتكون فيها الثوابت أو منازل القمر أو عظام الكواكب، وقوله تعالى، **(﴿والسماء والطارق﴾)** أي الكوكب البادي بالليل ﴿وما أدراك ما الطارق★ النجم الثاقب﴾ وقوله تعالى: **﴿والسماء ذات الحبك﴾** أي الطرائق المنظومة بالنجوم والمجرة ومنهم من اعتبر ذلك بالطرائق المعقولة المدركة بالبصائر المشار إليه بقوله تعالى: ﴿إن في خلق السموات والأرض﴾ الآية. وقوله تعالى: **(﴿والسماء وما بناها﴾ وقوله)** تعالى: **(﴿والشمس وضحاها﴾)** أي ضوئها إذا اشرقت **(﴿والقمر إذا تلاها﴾)** أي تلا طلوعه طلوع الشمس أول الشهر أو غروبها ليلة البدر أو في الاستدارة وكمال النور. **(وكقوله)** تعالى: **(﴿فلا أقسم بالخنس﴾)** أي الكواكب الرجع وهي ما سوى النيرين من الكواكب السائرات، ولذلك وصفها بقوله: **(﴿الجوار الكنس﴾)** أي السيارات التي تختفي تحت ضوء الشمس من كنس الوحش إذا دخل كناسه. **(وقوله)** تعالى: **(﴿والنجم إذا هوى﴾)** أي أقسم بجنس النجم خاصة أو الثريا إذا غرب أو انتشر يوم القيامة أو انقض أو طلع فإنه يقال هوى بالفتح إذا سقط وغرب، **(وقوله)** تعالى: **(﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾)** أي بمساقطها وتخصيص المغارب لما في غروبها من زوال أثرها والدلالة على وجود مؤثر لا يزول تأثيره أو بمنازلها ومجاريها،

[الواقعة : ٧٥ ـ ٧٦] فقد علمت أن عجائب النطفة القذرة عجز عن معرفتها الأوّلون والآخرون وما أقسم الله بها فما ظنك بما أقسم الله تعالى به وأحال الأرزاق عليه وأضافها إليه، فقال تعالى: ﴿وفي السَّماءِ رِزْقُكُم وَمَا تُوعدُونَ﴾ [الذاريات : ٢٢] وأثنى على المتفكرين فيه فقال: ﴿ويَتفَكَّرُونَ في خَلقِ السَّمواتِ والأرْضِ﴾، وقال رسول الله ﷺ: « ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته » أي تجاوزها من غير فكر، وذم المعرضين عنها، فقال: ﴿وجَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً محفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيـاتِهَـا مُعْـرِضُـونَ﴾ [الأنبياء : ٣٢] فأي نسبة لجميع البحار والأرض إلى السماء وهي متغيرات على القرب، والسموات صلاب شداد محفوظات عن التغير إلى أن يبلغ الكتاب أجله، ولذلك سماه الله تعالى محفوظاً فقال: ﴿وَجَعلْنَا السَّماءَ سقفاً محفوظاً﴾ وقال سبحانه: ﴿وبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبعاً شِدَاداً﴾ [النبأ : ١٢]، وقال: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُ خَلقاً أم السَّمَاء بناهَا ★ رَفَعَ سَمكَهَا فَسَوَّاهَا﴾ [النازعات : ٢٧ ـ ٢٨] فانظر إلى الملكوت لترى عجائب العز والجبروت.

(﴿**وأنه لقسم لو تعلمون عظيم**﴾) لما في المقسم به من الدلائل على عظيم القدرة وكمال الحكمة وفرط الرحمة. ومن مقتضيات رحمته أن لا يترك عباده سدى وهو اعتراض في اعتراض فإنه اعتراض بين المقسم والمقسم عليه ولو تعلمون اعتراض بين الموصوف والصفة، (**فقد علمت أن عجائب النطفة القذرة عجز عن معرفتها الأولون والآخرون وما أقسم الله بها، فما ظنك بما أقسم الله تعالى به وأحال الأرزاق عليه وأضافها إليه فقال: ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾ وأثنى على المتفكرين فيه فقال: ﴿ويتفكرون في خلق السموات والأرض﴾**) ربنا ما خلقت هذا باطلاً﴾. (**وقال رسول الله ﷺ: « ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته »**) رواه الديلمي من حديث عائشة بلفظ « ثم لم يتفكر فيها » وقد تقدم قريباً. (**أي تجاوزها من غير تفكر**) وقد تقدم نحوه عن الأوزاعي (**وذم المعرضين عنها، فقال: ﴿وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون﴾**) أي لا يتفكرون فيها. (**فأي نسبة لجميع البحار والأرض إلى السماء، وهذه متغيرات على القرب والسموات صلاب شداد محفوظات عن التغير إلى أن يبلغ الكتاب أجله، ولذلك سماه الله تعالى محفوظاً فقال ﴿وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً﴾ وقال**) تعالى: (﴿**وبنينا فوقكم سبعاً شداداً**﴾) أي ذات صلابة. (**وقال**) تعالى: (﴿**أأنتم أشد خلقاً**﴾) أي أصعب (﴿**أم السماء**﴾) ثم بين شدته بقوله: (﴿**بناها**﴾) ثم بين كيفية بنائه بقوله: (﴿**رفع سمكها**﴾) أي جعل مقدار إرتفاعها من الأرض أو تحتها الذاهب في العلو رفيعاً(﴿**فسوّاها**﴾) أي عدلها أو جعلها مستوية أو تممها بما يتم به كمالها من الكواكب والتدابير وغيرها من قولهم: سوى فلان أمره إذا أصلحه. (**فانظر إلى الملكوت لترى عجائب العز والجبروت ولا تظن أن معنى النظر إلى الملكوت بأن تمد**

ولا تظنن أن معنى النظر إلى الملكوت بأن تمد البصر إليه فترى زرقة السماء وضوء الكواكب وتفرقها فإن البهائم تشاركك في هذا النظر. فإن كان هذا هو المراد فلم مدح الله تعالى إبراهيم بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٧٥] لا بل كل ما يدرك بحاسة البصر فالقرآن يعبر عنه بالملك والشهادة، وما غاب عن الأبصار فيعبر عنه بالغيب والملكوت. والله تعالى عالم الغيب والشهادة وجبار الملك والملكوت ولا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء، وهو ﴿عَالِمُ الغَيْبِ فَلاَ يُظهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أحداً ★ إلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦ ـ ٢٧] فأجل أيها العاقل فكرك في الملكوت فعسى يفتح لك أبواب السماء فتجول بقلبك في أقطارها إلى أن يقوم قلبك بين يدي عرش الرحمن، فعند ذلك ربما يرجى لك أن تبلغ رتبة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث قال: رأى قلبي ربي. وهذا لأن بلوغ الأقصى لا يكون إلا بعد مجاوزة الأدنى، وأدنى شيء إليك نفسك، ثم الأرض التي هي مقرك، ثم الهواء المكتنف لك، ثم النبات والحيوان وما على وجه الأرض، ثم عجائب الجوّ وهو ما بين

البصر إليه فترى زرقة السماء وضوء الكواكب وتفرقها فإن البهائم تشاركك في هذا النظر).

فإن قلت: لم كانت السماء ترى زرقاء وهي عند أهل الهيئة لا لون لها؟ فالجواب: أنها غير مرئية وما لا يرى يرى مظلماً كمداً فالأعمى إذا سئل ماذا ترى؟ يقول: ظلام أسود، وإذا كانت بهذا الطريق سوداء وتحتها الهواء شفاف مضيء والبصر يخترقه فتراه كأنه في السماء كما يتوهم الرطوبة في الشتاء في الكواكب، فيحصل من صفاء الهواء وظلمة البصر في السماء زرقة لأنها شأن اختلاط الأسود بالصافي، (**فإن كان هذا هو المراد فلم مدح الله تعالى**) في كتابه العزيز (**إبراهيم**) عليه السلام (**بقوله: ﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض﴾ لا بل كل ما يدرك بحاسة البصر، فالقرآن يعبر عنه بالملك والشهادة وما غاب عن الأبصار فيعبر عنه بالغيب والملكوت والله تعالى عالم الغيب والشهادة وجبار الملك والملكوت ولا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء وهو: ﴿عالم الغيب فلا يطلع على غيبه أحداً ★ إلا من ارتضى من رسول﴾**) وكل ذلك في القرآن، (**فأطل أيها العاقل فكرك في الملكوت فعسى يفتح لك أبواب السماء فتجول بقلبك في أقطارها**) وتعتبر بما فيها (**إلى أن يقوم قلبك بين يدي عرش الرحمن**) ملاحظاً جلاله وعزّه وكبرياءه، (**فعند ذلك ربما يرجى لك أن تبلغ رتبة عمر ابن الخطاب رضي الله عنه حيث قال: رأى قلبي ربي**) وهكذا تكون الرؤية القلبية (**وهذا لأن بلوغ الأقصى لا يكون إلا بعد مجاوزة الأدنى وأدنى شيء إليك نفسك، ثم الأرض التي هي مقرك، ثم الهواء المكتنف لك، ثم النبات والحيوان وما على وجه الأرض، ثم عجائب الجو**

السماء والأرض، ثم السموات السبع بكواكبها، ثم الكرسي، ثم العرش، ثم الملائكة الذين هم حملة العرش وخزان السموات، ثم منه تجاوز إلى النظر إلى رب العرش والكرسي والسموات والأرض وما بينهما. فبينك وبين هذه المفاوز العظيمة والمسافات الشاسعة والعقبات الشاهقة، وأنت بعد لم تفرغ من العقبة القريبة النازلة، وهي معرفة ظاهر نفسك، ثم صرت تطلق اللسان بوقاحتك وتدعي معرفة ربك وتقول: قد عرفته وعرفت خلقه ففيماذا أتفكر وإلى ماذا أتطلع؟ فارفع الآن رأسك إلى السماء وانظر فيها وفي كواكبها وفي دورانها وطلوعها وغروبها وشمسها وقمرها واختلاف مشارقها ومغاربها ودؤوبها في الحركة على الدوام من غير فتور في حركتها ومن غير تغير في سيرها بل تجري جميعاً في منازل مرتبة بحساب مقدر لا يزيد ولا ينقص إلى أن يطويها الله تعالى طي السجل للكتاب وتدبر عدد كواكبها وكثرتها واختلاف ألوانها فبعضها يميل إلى الحمرة

وهو ما بين السماء والأرض، ثم السموات السبع بكواكبها، ثم الكرسي، ثم العرش، ثم الملائكة الذين هم حملة العرش وخزان السموات، ثم منه تجاوز إلى النظر إلى رب العرش الكرسي والسموات والأرض وما بينها) العزيز القهار جل جلاله؛ **(فبينك وبينه هذه المفاوز الفيح)** أي الواسعة الأطراف، **(والمسافات الشاسعة)** أي البعيدة، **(والعقبات الشاهقة)** أي المرتفعة الصعبة، **(وأنت بعد لم تفرغ من العقبة القريبة النازلة)** بالإضافة إلى بقية العقبات، **(وهي معرفة ظاهر نفسك، ثم صرت تطلق اللسان بوقاحتك)** وقلة حيائك **(وتدعي معرفة ربك وتقول: قد عرفته وعرفت خلقه ففيماذا أتفكر وإلى ماذا أتطلع؟ فارفع الآن رأسك إلى السماء وانظر فيها وفي كواكبها وفي دورانها وطلوعها وغروبها وشمسها وقمرها واختلاف مشارقها ومغاربها ودؤوبها في الحركة على الدوام من غير فتور في حركتها ومن غير تغير في سيرها، بل تجري جميعاً في منازل)** معلومة **(مرتبة)** ترتيباً غريباً **(بحساب مقدر لا يزيد ولا ينقص إلى أن يطويها الله تعالى طي السجل للكتاب)** كما قال تعالى: ﴿يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين﴾ [الأنبياء: ١٠٤] **(وتدبر عدد كواكبها وكثرتها)** وعلماء الأوائل لما أرادوا تمييزها قسموا الفلك نصفين بالدائرة التي هي مجرى رؤوس الاستواء وهما الحمل والميزان، وسموا أحد النصفين جنوبياً والآخر شمالياً، وسموا ما وقع منها من الكواكب والمنازل كذلك، وسمت العرب الشمالية شامية والجنوبية يمانية، فمن الشمالية بنات نعش الصغرى وهي سبعة كواكب أربعة مربعة منها الفرقدان وكوكبان آخران معهما، ومنها بنات نعش الكبرى وهي أيضاً سبعة كواكب الأول من البنات الذي هو في الطرف يسمى القائد والأوسط العناق والثالث والذي يلي النعش الجون، وإلى جانب الأوسط كوكب صغير يقال له الشهى والعيدق، وبالقرب من الفرقدين كوكبان مقترنان بينهما رأي العين نحو قامة إذا اعترض الفرقدان انتصبا، وإذا انتصب الفرقدان اعترضا

....

يسميان الحرين والذئبين والعوهقين، وقدامهما كواكب تسمى أظفار الذئب، ومنها كوكبان فوق الجدي يسميان الفرق وعند الأعلى منهما كواكب صغار مستديرة تسمى القدر، ومنها الأسافي وهي كواكب ثلاثة أسفل من القدر، ومنها القرحة وهي كوكب أسفل من الفرق وهي قبلة الكوفة، ومنها الهلبة وهي كواكب ملتفة متقاربة كأنها الثريا وتسمى أيضاً السنبلة، ومنها كوكب الأسد وهو منفرد فيما بين الهلبة وبين البنات من بنات نعش الكبرى، ومنها الصرفة وهو كوكب نير منفرد على أثر الزبرة، ومنها النوافذ وهي كواكب ثلاثة كل نفزة منها كوكبان متقاربان وتسمى أيضاً القرائن والثعيلبات، ومنها الظباء وهي كواكب خفية مستطيلة مثل الحبل الممدود من الهلبة إلى العيوق، وهنالك العوائذ وهي كواكب أربعة مربعة في وسطها كوكب سحابي كأنه لطخة غيم يسمى الربع، ومنها الفكة وهي كواكب مستديرة فيها فرجة العامة تسميها قصعة المساكين وبالقرب منها رؤية السماك وهو كوكب منتبذ يعارضه كوكب بالقرب منه كأنه عذبة في رمح، وكذلك قيل له الرامح وذو السلاح، ويقال لما بين النسقين الشامي واليماني الروضة، وفي داخلها كوكب أبيض منفرد يقال له الراعي، وبالقرب منه كواكب صغار يقولون هي غنمه يرعاها في الروضة وفي أضعاف تلك الكواكب كوكب صغير وباص يقولون هو كلبه، ومنها النسر الواقع وهو كوكب أزهر خلفه كوكبان كأنهما وإياه أثافي قدر، وهناك نسر آخر يقال له الطائر وهي ثلاثة كواكب مصطفة والأوسط منها هو أنواره، ومنها الفوارس وهي كواكب أربعة مصطفة وراء النسر الواقع ووراءها كوكب أزهر منفرد وسط المجرة يسمى الردف، ومنها الصليب وهي كواكب أربعة متقاربة مصلبة النظم بالقرب من النسر الطائر وتسمى أيضاً القعود، ومنها كف الثريا الخضيب وهي خمسة بيض مختلفة النظم وراء الردف وهي أيضاً سنام الناقة وتحت الكف الخضيب كواكب غير مبينة النظام هي جفرة الناقة، وهناك لطخة سحابية هي وسم الناقة، ووراء الكف الخضيب العيوق وهو كوكب عظيم نير في حاشية المجرة، ووراء العيوق كواكب ثلاثة زهر مصطفة منفرجة متفوسة تسمى توابع العيوق والاعلام، ومنها العاتق وهو كوكب نير بالقرب من الثريا، ثم المنكب المرفق، وتحت المرفق كوكب صغير يسمى إبرة المرفق، ويقال لما بين المرفق والمنكب عضد الثريا وبعد المرفق المعصم، ويقال لما بين المرفق والمعصم الساعد والسويعد، وهناك كوكب بين في صورة مثلثة يسمى رأس الغول، وبالقرب منه كوكب نير منفرد يسمى عناق الأرض، وعند بنات نعش كواكب يقال لها الحية، وعند أسفله كوكب أحمر يقال له الذيخ، وهناك كواكب أخر يقال لها الضباع، وأولاد الضباع كواكب صغار عن يمين الضباع، والشاء كواكب صغار بي القرحة والجدي، والراعي كوكب أنور من كواكب الشاء والخباء كواكب أسفل من الحوض، وخلف العاتق كوكبان يسميان المزحف والبرجيس وهما تحت المجرة؛ فهذه الكواكب المشهورة من الشآمية.

وأما الكواكب اليمانية فمنها: منكبا الجوزاء الأيمن منهما كوكب أحمر وهو مرزم الجوزاء، والأيسر يسمى الناجذ، وفي وسط الجوزاء كواكب بيض ثلاثة تسمى النظم، ومنها رجل الجوزاء

وبعضها إلى البياض، وبعضها إلى اللون الرصاصي، ثم انظر كيفية أشكالها. فبعضها على صورة العقرب وبعضها على صورة الحمل والثور والأسد والإنسان، وما من صورة في

اليمنى أبيض صغير واليسرى كوكب أبيض وباص أكبر من اليسرى، وتحت كل واحد منهما كواكب أربعة تسمى كرسي الجوزاء، وفوق رأس الجوزاء كواكب صغار تسمى تاج الجوزاء وذوائب الجوزاء. ومنها: الشعرى العبود وهو كوكب عظيم وباص أسفل الجوزاء على اليسار، وهناك ثلاثة كواكب بيض مختلفة التثليث تسمى عذرة الجوزاء، وخمسة أخرى تسمى العذارى وهي في حاشية المجرة، ومنها: الخيل وهي كواكب أكثر من العشرة نيرة، وفيها ستة في ثلاثة أمكنة متفرقة في كل مكان منها كوكبان، وبين كواكب الخيل كواكب صغار تسمى أفلاء الخيل وهي كلها بين يدي الشولة فوق المجرة، وأسفل من شولة العقرب كواكب تسمى القبة، وبين الزبانيين وبين عرش السماك كواكب مجتمعة نيرة على غير نظم تسمى الشماريخ. ومنها: سهيل وهو كوكب عظيم منير أحمر منفرد عن الكواكب، ولقرب مجراه من الأفق تراه أبداً كأنه يضطرب وهو في سمت الشعرى العبور، وفي مجرى سهيل كوكبان يقال لهما حضار والوزن، وهما يطلعان قبل سهيل وفي مجرى قدمي سهيل كواكب زهر وتسمى الأعيار. ومنها: السعودات وهي ستة متناسقة في جهة الدلو، وكل سعد منها كوكبان وهي كواكب خفية غير نيرة منها: سعد ناشرة، ثم سعد الملك، ثم سعد البهام، ثم سعد الربق، ثم سعد البارع، ثم سعد مطر، ومنها الشراسيف وهي كواكب مستطيلة مثل الحبل، وبعدها كواكب مستديرة متبددة يقال لها المعلف. ومنها: الصردان واليمامتان والقطا والظليمان. ومنها: السفينة وهي كواكب خفية متتابعة مقدمها عند سعد البهام ومؤخرها عند السمكة، وفي مقدمها الضفدع الأولى، وفي مؤخرها الضفدع الثانية، فهذه مشاهير الكواكب اليمانية. وقد ميز قدماء العلماء كواكب السماء على وجه الدهر فجعلوها في منازل سبعة من الأقدار فجعلوا كبارها في القدر الأول وهي التي تسميها الدراري والزهرة والشعرى العبور هما أنور نجوم السماء، والذي أحصى العلماء من دراري النجوم كلها سوى الخمسة المتحيرة خمسة عشر كوكباً وهي التي في القدر الأول من العظم وهي الشعريان وسهيل والمحنث والعيوق والسماكان والدبران وقلب الأسد والنسر الواقع والصرفة ومنكب الجوزاء ورجلها، وما دون هذه وهي في القدر الثاني من العظم خمسة وأربعون كوكباً وهي: كالفرقدين وبنات نعش الكبرى والردف ورأس الغول والعناق وقلب العقرب والنسر الطائر وثلاثة من العراقي وكوكبي الذراع المبسوطة وثلاثة كواكب من الجبهة والفرد، وأشباه هذه مما تركنا ذكره لقله الحاجة إليه في هذا الموضع، وكذلك تركنا ذكر سائر ما في الأقدار الباقية لأن هذا الكتاب ليس من مواضع ذكرها. وأما المجرة فهي أم النجوم لكثرة عدد نجومها وتسمى أيضاً القديمة.

(و) انظر إلى (**اختلاف ألوانها فبعضها يميل إلى الحمرة**) كأنه شعلة نار (**وبعضها إلى البياض**) الناصع (**وبعضها إلى اللون الرصاصي**) كأنه لطخ سحاب كما تقدم ذلك، (**ثم انظر كيفية أشكالها فبعضها على صورة العقرب وبعضها على صورة الحمل والثور والأسد**)

الأرض إلا ولها مثال في السماء . ثم انظر إلى مسير الشمس في فلكها في مدّة سنة ، ثم هي تطلع في كل يوم وتغرب بسير آخر سخرها له خالقها ولولا طلوعها وغروبها لما اختلف الليل والنهار ولم تعرف المواقيت ولأطبق الظلام على الدوام أو الضياء على الدوام ، فكان لا يتميز وقت المعاش عن وقت الاستراحة ، فانظر كيف جعل الله تعالى الليل لباساً والنوم سباتاً والنهار معاشاً ، وانظر إلى إيلاجه الليل في النهار والنهار في الليل وإدخاله الزيادة والنقصان عليهما على ترتيب مخصوص . وانظر إلى إمالته مسير الشمس عن وسط السماء حتى اختلف بسببه الصيف والشتاء والربيع والخريف ، فإذا انخفضت الشمس من وسط السماء في مسيرها برد الهواء وظهر الشتاء ، وإذا استوت في وسط السماء اشتدّ القيظ وإذا كانت فيما بينهما اعتدل الزمان . وعجائب السموات لا مطمع في إحصاء عشر عشير

والسرطان والجدي والحوت وهي البروج السبعة **(والإنسان)** قال الدينوري : ويشبه الجوزاء بصورة الإنسان في المنظر وهو البرج الثالث وقد تقدم ذكر كواكب الجوزاء . **(وما من صورة في الأرض إلا ولها مثال في السماء)** ويزيد صوراً كثيرة لا يوجد لها مثال في الأرض ، **(ثم انظر إلى مسير الشمس في فلكها في مدة سنة ، ثم هي تطلع في كل يوم وتغرب بسير آخر سخرها له خالقها)** جل وعلا ، **(ولولا طلوعها وغروبها لما اختلف الليل والنهار)** واختلافهما من الآيات ، (ولم تعرف المواقيت) قال الله تعالى : ﴿يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس﴾ **(ولأطبق الظلام على الدوام أو الضياء على الدوام فكان لا يتميز وقت المعاش عن وقت الاستراحة ، فانظر كيف جعل الله الليل لباساً)** أي غطاء يستر بظلمته من أراد الاختفاء ، **(والنهار معاشاً)** أي وقت معاش يتقلبون فيه لتحصيل مايعيشون به .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عمر قال : لو أن الشمس تجري مجرى واحداً ما انتفع أحد من أهل الأرض بشيء منها ، ولكنها تحلق في الصيف وتعترض في الشتاء ، فلو أنها طلعت مطلعها في الشتاء في الصيف لأنضجهم الحر ، ولو أنها طلعت مطلعها في الصيف في الشتاء لقطعهم البرد .

(وانظر إلى إيلاجه الليل في النهار والنهار في الليل وإدخاله الزيادة والنقصان عليهما على ترتيب مخصوص) ، فيدخل الليل في النهار حتى يكون النهار خمس عشرة ساعة ، ويولج النهار في الليل حتى يكون الليل خمس عشرة ساعة ، والنهار تسع ساعات فما نقص من أحدهما زاد في الآخر وذلك بحسب مطالع الليل ومغاربه . **(وانظر إلى إمالته مسير الشمس عن وسط السماء حتى اختلف بسببه الصيف والشتاء والربيع والخريف ، فإذا انخفضت الشمس من وسط السماء في مسيرها برد الهواء وظهر الشتاء ، وإذا استوت في وسط السماء اشتد القيظ ، وإذا كانت فيما بينهما اعتدل الزمان)** .

جزء من أجزائها ، وإنما هذا تنبيه على طريق الفكر ، واعتقد على الجملة أنه ما من كوكب من الكواكب إلا ولله تعالى حكم كثيرة في خلقه ثم في مقداره ، ثم في شكله ثم في لونه ثم في وضعه من السماء ، وقربه من وسط السماء وبعده ، وقربه من الكواكب التي بجنبه وبعده وقس على ذلك ما ذكرناه من أعضاء بدنك ، إذ ما من جزء إلا وفيه حكمة بل حكم كثيرة ، وأمر السماء أعظم بل لا نسبة لعالم الأرض إلى عالم السماء لا في كبر جسم ولا في كثرة معانيه ، وقس التفاوت الذي بينهما في كثرة المعاني بما بينهما من التفاوت في كبر الأرض فأنت تعرف من كبر الأرض واتساع أطرافها أنه لا يقدر آدمي على أن يدركها ويدور بجوانبها ، وقد اتفق المناظرون على أن الشمس مثل الأرض مائة ونيفاً

اعلم أن مشرق الشمس في أطول يوم في السنة وذلك قريب من مطلع السماك الرامح ، وكذلك مغرب الصيف هو على نحو ذلك من مغرب السماك الرامح ، ومشرق الشتاء مطلع الشمس في أقصر يوم من السنة وهو قريب من مطلع قلب العقرب ، وكذلك مغرب الشتاء هو على نحو ذلك من مغرب قلب العقرب ، فمشارق الأيام ومغاربها في جميع السنة هي كل ما بين هذين المشرقين والمغربين ، فإذا طلعت الشمس من أخفض مطالعها في أقصر يوم من السنة لم تزل بعد ذلك ترتفع في المطالع فتطلع كل يوم من مطلع فوق مطلعها بالأمس طالبة مشرق الصيف ، فلا تزال على ذلك حتى تتوسط المشرقين وذلك عند استواء الليل والنهار في الربيع ، فذلك مشرق الاستواء وهو قريب من مطلع السماك الأعزل ، ثم تستمر على حالها من الارتفاع في المطالع إلى أن تبلغ مشرق الصيف الذي بيناه ، فإذا بلغته كرت راجعة في المطالع منحدرة نحو مشرق الإستواء حتى إذا بلغته استوى الليل والنهار في الخريف ، ثم استمرت منحدرة حتى تبلغ منتهى مشارق الشتاء الذي بيناه ؛ فهذا دأبها وكذلك شأنها في المغارب على قياس ما ذكرنا في المطالع .

(وعجائب السموات لا مطمع في إحصاء عشر عشير جزء من أجزائها وإنما هذا تنبيه على طريق الفكر ، وأعتقد على الجملة أنه ما من كوكب من الكواكب إلا ولله تعالى حكم كثيرة في خلقه ثم في مقداره ثم في شكله ثم في لونه ثم في وضعه من السماء وقربه من وسط السماء وبعده وقربه من الكواكب التي بجنبه وبعده) والمراد بوسط السماء المجرة المسماة بأم النجوم وهي دائرة متصلة اتصال الطوق وتسمى أيضاً الفلك . **(وقس ذلك بما ذكرناه من أعضاء بدنك إذ ما من جزء إلا وفيه حكمة ، بل حكم كثيرة وأمر السماء أعظم بل لا نسبة لعالم الأرض إلى عالم السماء لا في كبر جسم ولا في كثرة معانيه ، وقس التفاوت الذي بينهما في كثرة المعاني بما بينهما من التفاوت في كبر الأرض فأنت تعرف كبر الأرض واتساع أطرافها أنه لا يقدر آدمي على أن يدور بجوانبها ، وقد اتفق الناظرون)** أهل النظر من علماء الأوائل **(على أن الشمس مثل الأرض مائة ونيف وستون مرة)** قال الدينوري : يقال أن

وستين مرة، وفي الأخبار ما يدل على عظمها ثم الكواكب التي تراها اصغرها مثل الأرض ثماني مرات وأكبرها ينتهي إلى قريب من مائة وعشرين مرة مثل الأرض، وبهذا تعرف ارتفاعها وبعدها؛ إذ للبعد صارت ترى صغاراً ولذلك أشار الله تعالى إلى بعدها فقال: ﴿رَفَعَ سَمكَهَا فسوَّاهَا﴾ [النازعات: ٢٨].

وفي الأخبار؛ أن ما بين كل سماء إلى الأخرى مسيرة خمسمائة عام فإذا كان هذا

الأرض جزء من مائة وستة وسبعين جزءاً من الشمس، والقمر جزء من ستة ألف وثلاثمائة وستة وثلاثين جزءاً من الشمس.

(**وفي الأخبار ما يدل على عظمها**) قال العراقي: روى أحمد من حديث عبدالله بن عمرو: رأى رسول الله الشمس حين غربت وقال « في نار الله الحامية لولا ما يزعها من أمر الله لأهلكت ما على الأرض » وفيه من لم يسم. وللطبراني في الكبير من حديث أبي أمامة « وكل بالشمس تسعة أملاك يرمونها بالثلج كل يوم لولا ذلك ما أتت على شيء إلا أحرقته » انتهى.

قلت: حديث عبدالله بن عمرو أخرجه كذلك ابن شيبة وابن منيع وأبو يعلى وابن جرير وابن مردوية بلفظ « لأحرقت » بدل « لأهلكت » وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن مردويه والحاكم وصححه من حديث أبي ذر قال: كنت ردف النبي ﷺ وهو على حمار فرأى الشمس حين غربت فقال « أتدري حين تغرب الشمس »؟ قلت: الله ورسوله أعلم قال: فإنها تغرب في عين حامئة ». وأما حديث أبي أمامة فأخرجه كذلك أبو الشيخ في العظمة وابن مردويه في التفسير.

(**والكواكب التي تراها**) بعينك (**أصغرها مثل الأرض ثمان مرات، وأكبرها ينتهي إلى قريب مائة وعشرين مرة من الأرض**) قال الدينوري يقال: أن القمر جزء من ستة وثلاثين جزءاً من الأرض والأرض جزء من مائة وستة وسبعين جزءاً من الشمس، (**وبهذا تعرف ارتفاعها وبُعدها**) عن الأرض، (**إذ للبعد صارت ترى صغاراً، ولذلك أشار الله تعالى إلى بعدها فقال ﴿رفع سمكها فسواها﴾**).

(**وفي الأخبار: أن بين كل سماء إلى أخرى مسيرة خمسمائة عام**) قال العراقي: رواه الترمذي من رواية الحسن عن أبي هريرة وقال غريب. قال: ويروى عن أيوب ويونس بن عبيد وعلي بن زيد قالوا: لم يسمع الحسن من أبي هريرة. رواه أبو الشيخ في العظمة من رواية أبي نصر عن أبي ذر، ورجاله ثقات إلا أنه لا يعرف لأبي نصر سماع من أبي ذر انتهى.

قلت: وقد رواه البزار كذلك فيما أخبر به عمر بن أحمد بن عقيل، أنا عبدالله بن سالم، أخبرنا محمد بن العلاء الحافظ، أنبأنا علي بن يحي، أنا يوسف بن عبدالله، أخبرنا عبد الرحمٰن بن أبي بكر الحافظ قال: أخبرني عبد الرحمٰن بن أبي الحسن الأنصاري شفاهاً، عن إبراهيم بن أحمد المقري، عن أحمد بن أبي طالب، أنبأنا جعفر بن علي، عن محمد بن عبد الرحمٰن الحضرمي، أخبرنا أبو محمد

مقدار كوكب واحد مثل الأرض اضعافاً فانظر إلى كثرة الكواكب. ثم انظر إلى السماء التي الكواكب مركوزة فيها وإلى عظمها، ثم أنظر إلى سرعة حركتها، وأنت لا تحس بحركتها فضلاً عن أن تدرك سرعتها، لكن لا تشك أنها في لحظة تسير مقدار عرض كوكب لأن الزمان من طلوع أوّل جزء من كوكب إلى تمامه يسير وكذلك الكوكب هو مثل الأرض مائة مرة وزيادة، فقد دار الفلك في هذه اللحظة مثل الأرض مائة مرة، وهكذا يدور على الدوام، وأنت غافل عنه، وانظر كيف عبر جبريل عليه السلام عن سرعة حركته إذ قال له النبي ﷺ: «هل زالت الشمس» فقال: لا نعم، فقال «كيف

ابن عتاب، حدثني أبي، أنبأنا سليمان بن خلف إجازة، أنبأنا أبو عبدالله بن الفرج، أخبرنا محمد بن يحيى بن حبيب، حدثنا الحافظ أبو بكر البزار، حدثنا محمد بن معمر، حدثنا محاضر هو ابن الموزع، حدثنا الأعمش، عم عمرو بن مرة، عن أبي نصر، عن أبي ذر رفعه: «كثف الأرض مسيرة خمسائة عام وبين الأرض العليا والسماء الدنيا خمسمائة عام وكثفها مثل ذلك وكثف الثانية مثل ذلك وما بين كل أرض مثل ذلك» إلى أن قال «ثم ما بين السماء السابعة إلى العرش مثل ذلك» هذا حديث رجاله ثقات أخرجه اسحاق بن راهويه في مسنده عن أبي معاوية عن الأعمش به. قال البزار: ولا نعلمه عن أبي ذر إلا بهذا الإسناد، وأبو نصر أحسبه حميد بن هلال ولم يسمع من أبي ذر انتهى.

قلت: وقيل مجذر بن شيبة، وقيل لا يعرف وهو من رجال النسائي.

وروى أحمد والترمذي وقال غريب، والنسائي وابن ماجه وابن حبان وأبو الشيخ في العظمة وابن أبي الدنيا في صفة الجنة وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في البعث والضياء في المختارة من حديث أبي سعيد في تفسير قوله تعالى: ﴿وفرش مرفوعة﴾ [الواقعة: ٣٤] والذي نفس محمد بيده إن ارتفاعها كما بين السماء والأرض وأن ما بين السماء والأرض لمسيرة خمسمائة عام»

وروى أحمد في مسند من حديث العباس رضي الله عنه «هل تدرون كم بين السماء والأرض». قلنا: الله ورسوله أعلم. قال «بينهما مسيرة خمسمائة سنة وبين كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة وكثف كل سماء خمسمائة سنة» الحديث.

(فإذا كان هذا مقدار كوكب واحد مثل الأرض، فانظر إلى كثرة الكواكب، ثم انظر إلى السماء التي الكواكب مركوزة فيها وإلى عظمها، ثم انظر إلى سرعة حركتها وأنت لا تحس بحركتها، فضلاً عن أن تدرك سرعتها لكن لا تشك أنها في لحظة تسير مقدار عرض كوكب، لأن الزمان من طلوع أول جزء من كوكب إلى تمامه يسير، وكذلك الكوكب هو مثل الأرض مائة مرة وزيادة، فقد دار الفلك في هذه اللحظة مثل الأرض مائة مرة، وهكذا يدور على الدوام وأنت غافل عنه، وانظر كيف عبر جبريل عليه السلام عن سرعة حركته إذا قال له النبي ﷺ: «هل زالت الشمس»؟ فقال: لا. نعم. فقال: «كيف

تقول لا نعم » ، فقال : من حين قلت لا إلى أن قلت نعم سارت الشمس خمسمائة عام ، فانظر إلى عظم شخصها ثم إلى خفة حركتها ، ثم انظر إلى قدرة الفاطر الحكيم كيف أثبت صورتها مع اتساع أكنافها في حدقة العين مع صغرها حتى تجلس على الأرض وتفتح عينيك نحوها فترى جميعها . فهذه السماء بعظمها وكثرة كواكبها لا تنظر إليها بل انظر إلى بارئها كيف خلقها ، ثم أمسكها من غير عمد ترونها ومن غير علاقة من فوقها وكل العالم كبيت واحد والسماء سقفه فالعجب منك أنك تدخل بيت غني فتراه مزوقاً بالصبغ مموهاً بالذهب فلا ينقطع تعجبك منه ولا تزال تذكره وتصف حسنه طول عمرك وأنت أبداً تنتظر إلى هذا البيت العظيم وإلى أرضه وإلى سقفه وإلى هوائه وإلى عجائب أمتعته وغرائب حيواناته وبدائع نقوشه ثم لا تتحدث فيه ولا تلتفت بقلبك إليه ! فما هذا البيت دون ذلك البيت الذي تصفه بل ذلك البيت هو أيضاً جزء من الأرض التي هي أخس أجزاء هذا البيت ! ومع هذا فلا تنظر إليه ؛ ليس له سبب إلا أنه بيت ربك هو الذي انفرد ببنائه وترتيبه وأنت قد نسيت نفسك وربك وبيت ربك واشتغلت ببطنك وفرجك ليس لك هم إلا شهوتك أو حشمتك وغاية شهوتك أن تملأ بطنك ، ولا

تقول لا نعم » فقال « من حين قلت لا إلى أن قلت نعم سارت الشمس مسيرة خمسمائة عام ») هكذا ذكره صاحب القوت وقد تقدم في آداب السفر . وقال العراقي : لم أجد له أصلاً . **(فانظر إلى عظم شخصها ثم إلى خفة حركتها ، ثم انظر إلى قدرة الفاطر الحكيم)** جل جلاله **(كيف أثبت صورتها مع اتساع أكنافها)** وبعد أقطارها **(في حدقة العين)** الباصرة **(مع صغرها حتى تجلس على الأرض وتفتح عينيك نحوها فترى جميعها ، فهذه السماء بعظمها وكثرة كواكبها لا تنظر إليها بل انظر إلى بارئها كيف خلقها)** فسواها **(ثم أمسكها)** عن أن تقع على الأرض **(من غير عمد ترونها)** ولا سناد يسندها **(ومن غير علاقة من فوقها)** يجرها ، **(وكل العالم كبيت واحد والسماء سقفه ، فالعجب منك أنك تدخل بيت غني)** من ذوي الأموال **(فتراه مزوقاً بالصبغ)** المختلف **(مموهاً بالذهب فلا ينقطع تعجبك منه ولا تزال تذكره وتصف حسنه طول عمرك ، وأنت أبداً تنظر إلى هذا البيت العظيم ، وإلى أرضه وإلى سقفه وإلى هوائه وإلى عجائب أمتعته وغرائب حيواناته وبدائع نقوشه)** وأنواع مزخرفاته ، **(ثم لا تتحدث فيه ولا تلتفت بقلبك إليه فما هذا البيت دون البيت الذي تصفه)** وتذكر محاسنه ، **(بل ذلك البيت أيضاً جزء من الأرض التي هي أخس أجزاء هذا البيت ، ومع هذا فلا تنظر إليه ليس له سبب إلا أنه بيت ربك هو الذي انفرد ببنائه وترتيبه ، وأنت قد نسيت نفسك وربك وبيت ربك واشتغلت ببطنك وفرجك ليس لك هم إلا شهوتك أو حشمتك ، وغاية شهوتك أن تملأ بطنك)** بأنواع الأطعمة **(ولا تقدر أن تأكل**

تقدر على أن تأكل عشر ما تأكله بهيمة فتكون البهيمة فوقك بعشر درجات. وغاية حشمتك أن تقبل عليك عشرة أو مائة من معارفك فينافقون بألسنتهم بين يديك ويضمرون خبائث الاعتقادات عليك، وأن صدقوك في مودتهم إياك فلا يملكون لك ولا لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وقد يكون في بلدك من أغنياء اليهود والنصارى من يزيد جاهه على جاهك، وقد اشتغلت بهذا الغرور وغفلت عن النظر في جمال ملكوت السموات والأرض ثم غفلت عن التنعم بالنظر إلى جلال مالك الملكوت والملك. وما مثلك ومثل عقلك إلا كمثل النملة تخرج من جحرها الذي حفرته في قصر مشيد من قصور الملك رفيع البنيان حصين الأركان مزين بالجواري والغلمان وأنواع الذخائر والنفائس، فإنها إذا خرجت من جحرها ولقيت صاحبتها لم تتحدث لو قدرت على النطق إلا عن بيتها وغذائها وكيفية إدخارها. فأما حال القصر والملك الذي في القصر فهي بمعزل عنه وعن التفكر فيه، بل لا قدرة لها على المجاوزة بالنظر عن نفسها وغذائها وبيتها إلى غيرها. وكما غفلت النملة عن القصر وعن أرضه وسقفه وحيطانه وسائر بنيانه وغفلت أيضاً عن سكانه، فأنت أيضاً غافل عن بيت الله تعالى وعن ملائكته الذين هم سكان سمواته، فلا تعرف من السماء إلا ما تعرفه النملة من

عشر عشر ما تأكله بهيمة، فتكون البهيمة فوقك بعشر درجات، وغاية حشمتك أن يقبل عليك عشرة أو مائة من معارفك فينافقون بألسنتهم بين يديك ويضمرون خبائث الاعتقادات عليك، وإن صدقوك في مودتها إياك فلا يملكون لك ولا لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً) بل عاجزون عن ذلك كله، **(وقد يكون في بلدك من أغنياء اليهود والنصارى من يزيد جاهه على جاهك)** وماله على مالك، **(وقد اشتغلت بهذا الغرور وغفلت عن النظر في جمال ملكوت السموات والأرض، ثم التنعم بالنظر إلى جلال مالك الملكوت والملك)** جل جلاله، **(وما مثلك ومثل عقلك إلا كمثل النملة تخرج من** جحرها **الذي حفرته في قصر مشيد من قصور الملك رفيع البنيان حصين الأركان مزين بالجواري والغلمان وأنواع الذخائر والنفائس، فإنها إذا خرجت من جحرها ولقيت صاحبتها لم تتحدث لو قدرت على النطق إلا عن بيتها وغذائها وكيفية ادخارها، فأما حال القصر والملك الذي في القصر فهي بمعزل عنه وعن التفكر فيه، بل لا قدرة لها على** المجاوزة بالنظر من نفسها وغذائها وبيتها إلى غيرها. **وكما غفلت النملة عن القصر عن أرضه** وسقفه وحيطانه وسائر بنيانه، **وغفلت أيضاً عن سكانه، فأنت أيضاً)** أيها المسكين **(غافل عن بيت الله تعالى وعن ملائكته الذين هم سكان سماواته، فلا تعرف من السماء إلا ما تعرفه النملة**

سقف بيتك، ولا تعرف من ملائكة السموات إلا ما تعرف النملة منك ومن سكان بيتك. نعم ليس للنملة طريق إلى أن تعرفك وتعرف عجائب قصرك وبدائع صنعة الصانع فيه، وأما أنت فلك قدرة على أن تجول في الملكوت وتعرف من عجائبه ما الخلق

من سقف بيتك، ولا تعرف من ملائكة السموات إلا ما تعرف النملة منك، ومن سكان بيتك. نعم ليس للنملة طريق إلى أن تعرفك وتعرف عجائب قصرك وبدائع صنعة الصانع فيه، وأما أنت فلك قدرة على أن تجول في الملكوت وتعرف من عجائبه ما الخلق غافلون عنه).

ومن كلام أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: فمن شواهد خلقه خلق السموات موطدات بلا عمد قائمات بلا سند، دعاهن فأجبن طائعات مذعنات غير متلكئات ولا مبطئات، ولولا إقرارهن له بالربوبية وإذعانهن بالطواعية لما جعلهن موضعاً لعرشه، ولا سكناً لملائكته، ولا مصعداً للكلم الطيب والعمل الصالح من خلقه، جعل نجومها أعلاماً يستدل بها الحيران في مختلف فجاج الأقطار، لم يمنع ضوء نهارها ادلهام سجف الليل المظلم، ولا استطاعت جلابيب سواد الحنادس أن ترى ما شاع في السموات من تلألؤ نور القمر. فسبحان من لا يخفى عليه سواد غسق داج ولا ليل ساج في بقاع الأرضين المتطأطئات، ولا في يفاع الشفع المتجاورات، وما يتجلجل به الرعد في أفق السماء، وما تلاشت عنه بروق الغمام، وما يسقط من ورقة تزيلها عن مسقطها عواصف الأنواء وانهطال السماء، يعلم مسقط القطرة ومقرها ومسحب الذرة ومجرها، وما يكفي البعوضة من قوتها وما تحمل من أنثى في بطنها.

وقال رضي الله عنه في صفة السماء: ونظم بلا تعليق رهوات فرجها ولاحم صدوع انفراجها، ووشح بينها وبين أزواجها، وذلل للهابطين بأمره والصاعدين بأعمال خلقه حزونة معراجها وناداها بعد إذ هي دخان، فالتحمت عرى أشراجها وفتق بعد الارتفاق صوامت أبوابها وأقام رصداً من الشهب الثواقب على نقابها، وأمسكها من أن تمور في خرق الهواء بائدة، وأمرها أن تقف مستسلمة لأمره وجعل شمسها آية مبصرة لنهارها وقمرها آية ممحوة من ليلها، وأجراهما في مناقل مجراهما وقد سيرهما في مدارج درجيهما ليميز بين الليل والنهار بهما وليعلم عدد السنين والحساب بمقاديرهما، ثم علق في جوها فلكاً وناط بها زينتها في خفيات دراريها ومصابيح كواكبها ورمى مسترقي السمع بثواقب شهبها وأجراهما على إذلال تسخيرها من ثبات ثابتها ومسير سائرها وهبوطها وصعودها ونحوسها وسعودها.

وقال رضي الله عنه في صفة الملائكة: ثم خلق سبحانه لاسكان سمواته وعمارة الصفيح الأعلى من ملكوته خلقاً بديعاً من ملائكته، ملأ بهم فروج فجاجها وحشا بهم فتوق أجوائها وبين فجوات تلك الفروج زجل المسبحين منهم في حظائر القدس وسترات الحجب وسرادقات المجد، ووراء ذلك الزجيج الذي تستك منه الأسماع سبحات نور تردع الأبصار عن بلوغها، فتقف خاسئة على حدودها. أنشأهم على صور مختلفات وأقدار متفاوتان أولي أجنحة تسبح جلال عزته لا ينتحلون

....

ما ظهر في الخلق من صنعه، ولا يدعون أنهم يخلقون شيئاً معه مما انفرد به، بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، جعلهم فيما هنالك أهل الأمانة على وحيه، وحملهم إلى المرسلين ودائع أمره ونهيه، وعصمهم من ريب الشبهات فما منهم زائغ عن سبيل مرضاته، وأمدهم بفوائد المعونة وأشعر قلوبهم تواضع اخبات السكينة، وفتح لهم أبواباً ذللاً إلى تماجيده، ونصب لهم مناراً واضحة على أعلام توحيده، ولم تثقلهم مؤصرات الآثام ولم ترتحلهم عقب الليالي والأيام، ولم ترم الشكوك بنوازعها عزيمة إيمانهم، ولم تعترك الظنون على معاقد يقينهم، ولا قدحت قادحة اللاحن فيما بينهم، ولا سلبتهم الحيرة ما لاق من معرفة بضمائرهم وسكن من عظمته وهيبة جلالته في أثناء صدورهم، ولم تطمع فيهم الوساوس فتقترع بريبها على فكرهم. منهم من هو في خلق الغمام الدلح وفي عظم الجبال الشمخ وفي فترة الظلام الأبهم، ومنهم من قد خرقت أقدامهم تخوم الأرض السفلى فهي كرايات بيض قد نفذت في مخارق الهواء وتحتها ريح هفافة تحبسها على حيث انتهت من الحدود المتناهية قد استفرغتهم أشغال عبادته ووسلت حقائق الإيمان بينهم وبين معرفته وقطعهم الإيقان به إلى الوله إليه، ولم تجاوز رغباتهم ما عنده إلى ما عند غيره، قد ذاقوا حلاوة معرفته وشربوا بالكأس الروية من محبته، وتمكنت من سويداء قلوبهم وشيجة خيفته، فحنوا بطول الطاعة اعتدال ظهورهم ولم ينفد طول الرغبة إليه مادة تضرعهم، ولا أطلق عنهم عظيم الزلفة ربق خشوعهم ولم يتولهم الإعجاب فيستكثروا ما سلف عنهم ولا تركت لهم استكانة الإجلال نصيباً في تعظيم حسناتهم، ولم تجر الفترات فيهم على طول دوبهم، ولم تغض رغباتهم فيخالفوا عن رجاء ربهم، ولم تجف لطول المناجاة أسلات ألسنتهم، ولا ملكتهم الأشغال فتنقطع بهمس الخبر إليه أصواتهم، ولم تختلف في مقادم الطاعة مناكبهم، ولم يثنوا إلى راحة التقصير في أمر رقابهم، ولا تعدو على عزيمة جدهم بلادة الغفلات، ولا تنتضل في هممهم خدائع الشهوات، قد اتخذوا ذا العرش ذخيرة ليوم فاقتهم ويمموه عند انقطاع الخلق إلى المخلوقين برغبتهم، لا يقطعون أمد غاية عبادته ولا يرجع بهم الاستهتار بلزوم طاعته إلا إلى مواد من قلوبهم غير منقطعة من رجائه ومخافته، لم تنقطع أسباب الشفقة منهم فينوا في جدهم ولم تأسرهم الأطماع فيؤثروا وشيك السعي على اجتهادهم، ولو استعظموا ذلك لنسخ الرجاء منهم شفقات وجلهم، ولم يختلفوا في ربهم باستحواذ الشيطان عليهم، ولم يفرقهم سوء التقاطع ولا تولاهم غل التحاسد، ولا شعبتهم مصارف الريب، ولا اقتسمتهم أخياف الهمم، فهم أسراء إيمان لم يفكهم من ربقته زيغ ولا عدول ولا وني ولا فتور، وليس في أطباق السموات موضع إهاب إلا وعليه ملك ساجد أو ساع حافد يزدادون على طول الطاعة بربهم علماً وتزداد عزة ربهم في قلوبهم عظماً اهـ.

فصل

في ذكر ما ورد في الأخبار من ذكر ملائكة الملكوت الأعلى:

روى ابن مردويه من حديث ابن عباس: «أطت السماء ويحق لها أن تئط والذي نفسي محمد بيده ما فيها موضع شبر إلا وفيه جبهة ملك ساجد يسبح الله بحمده».

وروى أبو داود وابـن ماجه من حديث عباس بن عبد المطلب: « فوق السماء السابعة بحر بين أسفله وأعلاه مثل ما بين السماء إلى السماء، ثم فوق ذلك ثمانية أوعـال بين أظلافهم وركبهم مثل ما بين سماء إلى سماء، على ظهورهم العرش من أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء فوق ذلك ».

وروى أبو الشيخ في العظمة، والبيهقي في الشعب، والخطيب، وابن عساكر من حديث رجل من الصحابة: « إن لله ملائكته ترعد فرائصهم من مخافته ما منهم ملك تقطر من عينيه دمعة إلا وقعت ملكاً قائماً يسبح وملائكة سجوداً منذ خلق الله السموات والأرض لم يرفعوا رؤوسهم ولا يرفعونها إلى يوم القيامة، وملائكة ركوعاً لم يرفعوا رؤوسهم ولا يرفعونها إلى يوم القيامة، وصفوفاً لم ينصرفوا عن مصافهم ولا ينصرفون إلى يوم القيامة فإذا كان يوم القيامة تجلى لهم ربهم فنظروا إليه وقالوا: سبحانك ما عبدناك كما ينبغي لك ».

وروى الديلمي من حديث ابن عمر: « إن لله تعالى ملائكة في السماء الدنيا خشوعاً منذ خلقت السموات والأرض إلى أن تقوم الساعة يقولون: سبحان ذي الملك والملكوت فإذا كان يوم القيامة يقولون: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك، ولله ملائكة في السماء الثانية ركوعاً منذ خلقت السموات والأرض إلى أن تقوم الساعة، فإذا كان يوم القيامة يقولون: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك، ولله ملائكة في السماء الثالثة سجوداً منذ خلقت السموات والأرض إلى أن تقوم الساعة، فإذا كان يوم القيامة يقولون: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك ».

وروى ابن لال فـي مكارم الأخلاق من حديث ابن عباس: « إن لله عز وجل أملاكاً خلقهم كيف شاء وصوّرهم على ما شاء تحت عرشه ألهمهم أن ينادوا قبل طلوع الشمس وقبل غروبها في كل يوم مرتين: ألا من وسع على عياله وجيرانه وسع الله تعالى عليه في الدنيا، ألا من ضيق ضيق الله عليه، ألا إن الله قد أعطاكم لنفقة درهم على عيالكم سبعين قنطاراً والقنطار مثل أحد وزناً انفقوا ولا تجمعوا ولا تضيقوا ولا تقتـروا وليكن أكثر نفقتكم يوم الجمعة ».

وروى أبو الشيخ في العظمة من حديث جابر: « إن لله تعالى ملائكة ما بين شحمة أذن أحدهم إلى ترقوته مسيرة سبعمائة عام للطير السريع الطيران ».

ورواه ابن عساكر بلفظ: « إن لله ملائكة وهم الكروبيون من شحمة أذن أحدهم إلى ترقوته مسيرة سبعمائة عام للطائر السريع في انحطاطه ».

روى الديلمـي من حديث ابن عباس: « إن لله ملكاً نصف جسده الأعلى ثلج ونصفه الأسفل نار ينادي بصوت رفيع: سبحان الله الذي كف حر هذه النار فلا يذيب هذا الثلج، وكف برد هذا الثلج فلا يطفىء حر هذه النار. اللهم يا مؤلفاً بين الثلج والنار ألف بين قلوب عبادك المؤمنين على طاعتك ».

وروى الديلمي من حديث أنس: « إن لله تعالى بحراً من نور حوله ملائكة من نور على خيل

غافلون عنه. ولنقبض عنان الكلام عن هذا النمط فإنه مجال لا آخر له، ولو استقصينا أعماراً طويلة لم نقدر على شرح ما تفضل الله تعالى علينا بمعرفته، وكل ما عرفناه قليل نزر حقير بالإضافة إلى ما عرفه جملة العلماء والأولياء، وما عرفوه قليل نزر حقير بالإضافة إلى ما عرفه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وجملة ما عرفوه قليل بالإضافة إلى ما عرفه محمد نبينا ﷺ. وما عرفه الأنبياء كلهم قليل بالإضافة إلى ما عرفته الملائكة المقربون كإسرافيل وجبريل وغيرهما ثم جميع علوم الملائكة والجن والإنس إذا أضيف إلى علم الله سبحانه وتعالى لم يستحق أن يسمى علماً، بل هو إلى أن يسمى دهشاً وحيرة وقصوراً وعجزاً أقرب. فسبحان من عرّف عباده ما عرف ثم خاطب جميعهم فقال: ﴿وَمَا أُوتِيْتُم مِنَ العِلْمِ إلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٥].

من نور بأيديهم حراب من نور يسبحون حول ذلك البحر: سبحان ذي الملك والملكوت، سبحان ذي العزة والجبروت، سبحان الحي الذي لا يموت. سبوح قدوس رب الملائكة والروح، فمن قالها في يوم أو شهر أو سنة مرة أو عمره غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ولو كانت ذنوبه مثل زبد البحر أو مثل رمل عالج أو فرّ من الزحف».

(ولنقبض عنان الكلام على هذا النمط فإنه مجال) واسع **(لا آخر له، ولو استقصينا أعماراً طويلة لم نقدر على شرح ما تفضل الله علينا بمعرفته، وكل ما عرفناه)** فهو **(قليل نزر حقير بالإضافة إلى ما عرفه جملة العلماء والأولياء)** والصالحين، **(وما عرفوه)** فهو **(قليل نزر حقير بالإضافة إلى ما عرفه الأنبياء)** عليهم السلام، **(وجملة ما عرفوه)** فهو **(قليل بالإضافة إلى ما عرفه محمد نبينا ﷺ، وما عرفه الأنبياء كلهم فهو قليل بالإضافة إلى ما عرفته الملائكة المقربون)** في حضرة القدس، **(كاسرافيل وجبريل وغيرهما)** عليهم السلام، وهذا يشعر بتفضيل الملائكة على الأنبياء وهو مذهب المصنف، ولأئمة السنة فيه خلاف مبسوط في محله. **(ثم جميع علوم الملائكة والجن والإنس إذا أضيف إلى علم الله سبحانه لم يستحق أن يسمى علماً، بل هو إلى أن يسمى دهشاً وحيرة وقصوراً وعجزاً أقرب)** إذ لا يعرف أحد حقيقة علم الله تعالى إلا من له مثل علمه، وليس ذلك إلا له تعالى فلا يعرفه سواه تعالى وتقدس، وإنما يعرف غيره بالتشبيه بعلم نفسه وعلم الله تعالى لا يشبهه علم الخلق البتة، فلا تكون معرفته به معرفة تامة حقيقة أصلاً، بل إيهامية تشبيهية، فنهاية معرفة العارفين عجزهم عن المعرفة ومعرفتهم بالحقيقة هي أنهم لا يعرفونه وأنهم لا يمكنهم معرفته البتة، وأنه يستحيل أن يعرف المعرفة الحقيقية المحيطة بكنه صفات الربوبية إلا الله تعالى. **(فسبحان من عرف عباده ما عرف ثم خاطب جميعهم فقال: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾)** فإذا لا يحيط مخلوق من ملاحظة حقيقة ذاته إلا بالحيرة والدهشة.

فهذا بيان معاقد الجمل التي تجول فيها فكر المتفكرين في خلق الله تعالى وليس فيها فكر في ذات الله تعالى، ولكن يستفاد من الفكر في الخلق لا محالة معرفة الخالق وعظمته وجلاله وقدرته، وكلما استكثرت من معرفة عجيب صنع الله تعالى كانت معرفتك بجلاله وعظمته أتمّ، وهذا كما أنك تعظم عالماً بسبب معرفتك بعلمه، فلا تزال تطلع على غريبة غريبة من تصنيفه أو شعره فتزداد به معرفة وتزداد بحسنه له توقيراً وتعظيماً واحتراماً، حتى أن كل كلمة من كلماته وكل بيت عجبب من أبيات شعره يزيده محلاً من قلبك يستدعي التعظيم له في نفسك. فهكذا تأمل في خلق الله تعالى وتصنيفه وتأليفه، وكل ما في الوجود من خلق الله وتصنيفه والنظر والفكر فيه لا يتناهى أبداً، وإنما لكل

(فهذا بيان معاقد الجمل التي يجول فيها فكر المتفكرين في خلق الله تعالى وليس فيها فكر في ذات الله تعالى) .

وقال صاحب القاموس في البصائر نقلاً عن المشايخ: الفكرة فكرتان فكرة تتعلق بالعلم والمعرفة، وفكرة تتعلق بالطلب والإرادة، فالتي تتعلق بالعلم والمعرفة فكرة الضمير بين الحق والباطل والثابت والمنفي، والفكرة التي تتعلق بالطلب والإرادة هي الفكرة التي تميز بين النافع والضار، ثم تترتب عليها فكرة أخرى في الطريق إلى حصول ما ينفع فيسلكها وطريق ما يضر فيتركها، ولهم فكرة في عين التوحيد وفكرة في لطائف الصفة وفكرة في معاني الأعمال والأحوال؛ فهذه ستة أقسام لا سابع لها هي مجال أفكار العقلاء فالفكرة في التوحيد استحضار أدلته وشواهده الدالة على بطلان الشرك واستحالته، وأن الإلهية يستحيل ثبوتها لاثنين، كما يستحيل ثبوت الربوبية لاثنين، فكذلك أبطل الباطل عبادة اثنين والتوكل على اثنين، بل لا تصلح العبادة إلا للإله الحق والرب الحق وهو الله الواحد القهار اهـ.

(ولكن يستفاد من الفكر في الخلق لا محالة معرفة الخالق وعظمته وجلاله وقدرته) أشار به إلى أن اتساع المعرفة إنما يكون في معرفة أسمائه وصفاته، وفيها تتفاوت درجات الملائكة والأنبياء والأولياء في معرفته، وهذا أيضاً لا يعرفه بالكمال في الحقيقة إلا الله تعالى، (و) لكن **(كلما استكثرت من معرفة عجيب صنع الله كانت معرفتك بجلاله وعظمته أتم)** أي كلما ازداد العبد إحاطة بتفاصيل المقدورات وعجائب الصنائع في ملكوت الأرض والسموات كان حظه من معرفة صفة القدرة أوفر وأتم، لأن الثمرة تدل على المثمر، وهذا **(كما أنك تعظم عالماً بسبب معرفتك بعلمه فلا تزال تطلع على غريبة غريبة من تصنيفه أو شعره)** وتزداد إحاطة بتفاصيل علومه فيها، **(فتزداد به معرفة وتزداد بحسنه له توقيراً وتعظيماً واحتراماً، حتى أن كل كلمة من كلماته وكل بيت عجيب من أبيات شعره يزيده محلاً في قلبك ويستدعي التعظيم له في نفسك، فهكذا تأمل في خلق الله وتصنيفه وتأليفه وكل ما في الوجود من خلق الله وتصنيفه والنظر والفكر فيه لا يتناهى أبداً، وإنما لكل عبد منها**

عبد منها بقدر ما رزق، فلنقتصر على ما ذكرناه ولنضف إلى هذا ما فصلناه في كتاب الشكر، فإنا نظرنا في ذلك الكتاب في فعل الله تعالى من حيث هو إحسان إلينا وإنعام علينا، وفي هذا الكتاب نظرنا فيه من حيث أنه فعل الله فقط، وكل ما نظرنا فيه فإن الطبيعي ينظر فيه ويكون نظره سبب ضلاله وشقاوته، والموفق ينظر فيه فيكون سبب هدايته وسعادته. وما من ذرّة في السماء والأرض إلا والله سبحانه وتعالى يضل بها من يشاء ويهدي بها من يشاء، فمن نظر في هذه الأمور من حيث إنها فعل الله تعالى وصنعه استفاد منه المعرفة بجلال الله تعالى وعظمته واهتدى به، ومن نظر فيها قاصراً للنظر عليها من حيث تأثير بعضها في بعض لا من حيث ارتباطها بمسبب الأسباب فقد شقي

بقدر ما رزق) وإلى هذا يرجع تفاوت معرفة العارفين ويتطرق إليه تفاوتاً لا يتناهى، ومن هنا تعرف أن من قال: لا أعرف إلا الله فقد صدق، ومن قال لا أعرف الله فقد صدق فإنه ليس في الوجود إلا الله تعالى وأفعاله، فإذا نظر إلى أفعاله من حيث هي أفعاله وكان مقصور النظر عليها ولم يرها من حيث أنها سماء وأرض وشجر بل من حيث أنها صنعه فلم تجاوز معرفته حضرة الربوبية، فيمكنه أن يقول ما أعرف إلا الله وما أرى إلا الله، ولو تصوّر شخص لا يرى إلا الشمس ونورها المنتشر في الآفاق يصح أن يقول ما أرى إلا الشمس فإن النور الفائض منها هو من جملتها ليس خارجاً عنها، وكل ما في الوجود نور من أنوار القدرة الأزلية وأثـر من آثارها، وكما أن الشمس ينبوع النور الفائض على كل مستنير، فكذلك المعنى الذي قصرت العبارة عنه فعبّر عنه بالقدرة الأزلية للضرورة هو ينبوع الوجود الفائض على كل موجود، فليس في الوجود إلا الله تعالى، فيجوز أن يقول العارف: لا أعرف إلا الله تعالى: ومن العجائب أن يقول: لا أعرف إلا الله تعالى ويكون صادقاً، ويقول لا أعرف الله ويكون أيضاً صادقاً، ولكن ذلك بوجه وهذا بوجه ولا تناقض فيه لاختلاف وجوه الاعتبارات.

(فلنقتصر على ما ذكرناه، ولنضف إلى هذا ما فصلناه في كتاب الشكر، فإذا نظرنا في ذلك الكتاب في فضل الله تعالى من حيث هو إحسان وإنعام علينا، وفي هذا الكتاب نظرنا فيه من حيث أنه فعل الله) وصنعه **(فقط وكل ما نظرنا فيه فإن الطبيعي)** الذي يذهب إلى تأثير الطبائع في الأشياء **(ينظر فيه ويكون نظره سبب ضلالة وشقاوته)** لقصوره على تأثير الطبائع عن بارئها جل وعز، **(والموفق)** العارف **(ينظر فيه فيكون سبب هدايته وسعادته)** لأنه لا ينظر في الوجود إلا لله وصنعه، **(وما من ذرة في السماء والأرض إلا والله سبحانه وتعالى يضل بها من يشاء ويهدي بها من يشاء، فمن نظر في هذه الأمور من حيث أنها فعل الله وصنعه استفاد منه المعرفة بجلال الله وعظمته)** واهتدى وكان مقامه فيها أتم، **(ومن نظر فيها قاصراً للنظر عليها من حيث تأثير بعضها في بعض لا من حيث ارتباطها بمسبب**

وارتدى فنعوذ بالله من الضلال، ونسأله أن يجنّبنا مزلة أقدام الجهال بمنه وكرمه وفضله وجوده ورحمته.

تم الكتاب التاسع من ربع المنجيات والحمد لله وحده وصلواته على محمد وآله وسلامه، يتلوه كتاب ذكر الموت وما بعده، وبه كمل جميع الديوان بحمد الله تعالى وكرمه.

الأسباب فقد شقي وارتدى) وسلك سبيل الردى: **(فنعوذ بالله من الضلال ونسأله أن يجنّبنا مزلة)** أي موقع زلل **(أقدام الجهال بمنه)** تعالى **(وفضله وجوده رحمته)** آمين.

وبه تم كتاب التفكر، والحمد لله رب السموات والأرضين، والصلاة والسلام على حبيبه محمد المرسل إلى كافة العالمين، وعلى آله وصحبه وتابعيه إلى يوم الدين. قد نجز الفراغ عن شرحه في السادسة من نهار الإثنين لأربع بقين من شهر صفر الخير من شهور سنة ١٢٠١. اللهم اختم بالصالحات أعمالنا، وكتب أبو الفيض محمد مرتضى الحسيني غفر الله له بمنه حامداً لله مصلياً مسلماً آمين.

(انتهى الجزء الثالث عشر ويليه إن شاء الله الجزء الرابع عشر
وأوله كتاب ذكر الموت وما بعده)

فهرس الجزء الثالث عشر من إتحاف السادة المتقين

الموضوع **الصفحة**